كان التاريخية

57

تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

السنة
الخامسة عشرة

ISSN: 2090 - 0449

سبتمبر ٢٠٢٢
محرم ١٤٤٤

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

Kan Historique périodique

HTTPS://KAN.JOURNALS.EKB.EG

/historicalkan

@kanhistorique





دورية كان التاريخية.- س١٥، ع٥٧ (سبتمبر ٢٠٢٢/ محرم ١٤٤٤)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 15, no. 57 [Sep. 2022]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٢ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ	٢- الآثار
٣- التراجم	٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2022.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



ISSN: 2090 – 0449 Online

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



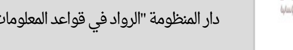
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net

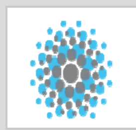


أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي

منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية

دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

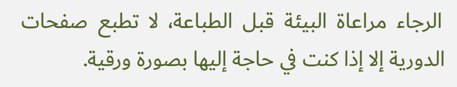
دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المُحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

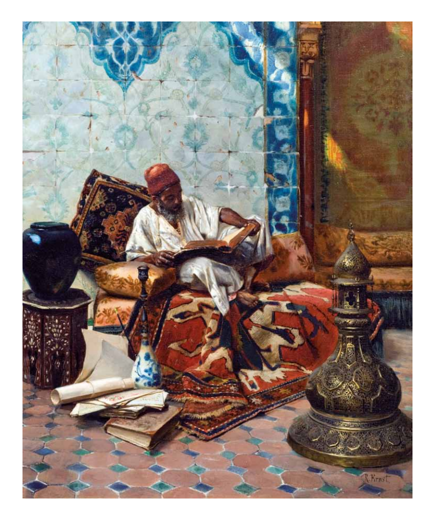
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Reading
Rudolf Ernst (1854 – 1932).

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com















دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلّات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللآزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.
يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

COPE

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّاريْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية،... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَرِ

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس- يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية **https://www.facebook.com/historicalkan**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحْتَوَياتُ الْعَدَدِ

كُتَّابُ الْعَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

نظرية النسبية لأينشتاين
والمنهج التاريخي



أ. م. د. محمد حسين الصافي
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صنعاء – الجمهورية اليمنية

مُلَخّص

حاول هذا البحث الصغير الاستفادة من الحقائق العلمية التي قادت إليها نظرية النسبية لأينشتاين لفهم الكون والعالم في منهج دراسة التاريخ. ومن هذه النتائج فهم الكون والعالم ليس كأحداث، بل كعلاقات. وتعدد الإدراك للمشاهدين حسب موقعهم الجغرافي. وبالتالي يتعدد فهم وإدراك الحدث الفيزيائي الواحد ويتعدد تبعًا لذلك توثيقه والإلمام به. كذلك سقوط وهم الموضوعية المطلقة إذ أصبحت الذات العارفة جزء من معادلة فهم الحدث. وهذه حقائق علمية تستوجب إعادة النظر في آليات البحث التاريخي. وإيجاد معيار للصدق الفيزيائي للمصادر التاريخية حتى يمكن أن يصل الباحث الى أفضل معرفة تاريخية ممكنة. والاعتراف بالموضوعية والذاتية النسبية في فهم وكتابة التاريخ. وعدم الادعاء بامتلاك الحقيقة التاريخية المطلقة. كذلك النظر في قضية الحتمية التاريخية أو اللا حتمية على ضوء النظرية النسبية. حيث رفض اينشتاين اللاحتمية في تفسير الكون وتمسك بمبدأ الحتمية المرتبط بمبدأ العلل والأسباب. وهو ما يعزز هدف الباحث التاريخي في استكشاف العلل والأسباب للواقعة التاريخية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٣	يونيو	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٣٠	يوليو	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:
النظرية النسبية؛ المنهج التاريخي؛ المصادر التاريخية؛ كتابة التاريخ؛ ألبرت أينشتاين

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.296738 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد حسين الصافي، "نظرية النسبية لأينشتاين والمنهج التاريخي".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٤ – ٢١.

Corresponding author: malsafi19@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

أهمية وصحة المنهج العلمي في أنه يؤدي الى نتائج علمية صحيحة وسليمة، ولأجل ذلك أهتم العلماء والفلاسفة بصحة المنهج ودقته حتى يؤدي المهمة المطلوبة منه على أحسن وجه. ولا تزال الأبحاث في تطوير المنهج العلمي مستمرة ما استمر البحث والكشف العلمي. ودأب المؤرخ المدقق أن يستفيد من كل علوم العصر ومن أحدث الاكتشافات العلمية في دراسته للتاريخ وتطوير ورفع مستوى هذه الدراسات. ولهذا سميت بعض العلوم بالعلوم المساعدة في دراسة التاريخ والتي تعددت اختصاصاتها وتنوعت في كثير من المجالات. وفي القرنين الماضيين قفزت نظريات علوم الفيزياء والطبيعة قفزات هائلة في فهم الكون والعالم، في ثورة علمية لا نظير لها في التاريخ الإنساني، نتج عنها اكتشافات واختراعات كبيرة استفادت منها البشرية عظيم الاستفادة. يقول ستيفن هوكنج[١]: " تغير العالم في السنين المائة الأخيرة أكثر من أي قرن سابق. ليس سبب ذلك هو مبادئ جديدة سياسية أو اقتصادية، وإنما السبب هو التطورات الهائلة في التكنلوجيا".

من أهم النظريات العلمية التي ميزت القرن العشرين نظرية النسبية لألبرت أينشتاين[٢] (توفى١٩٥٥م) في فهم وتفسير العالم الكبير والتي ثبت صحتها علميا وتطبيقيا. ونظرية ميكانيكا الكم لفهم وتفسير عالم ما دون الذرة والتي تتناقض مع النظرية النسبية. وبسبب هذا التناقض بين النظريتين ظهرت نظرية الأوتار الفائقة التي حاولت الجمع بين النظريتين لتقديم تفسير علمي واحد يجمع بين قوانين العالم الكبير وقوانين العالم الصغير، حيث لا يعقل أن تحكم العالم قوانين متناقضة. في هذا المبحث الصغير محاولة للاستفادة من الفهم والوعي الجديد للكون والعالم الذي قدمته نظرية النسبية في فهم وتقييم منهج دراسة التاريخ للوصول الى اعلى نسبة ممكنة من الحقيقة التاريخية المنشودة والتأكد من صحة المنهج التاريخي. ولأجل ذلك تضمن هذا البحث الصغير أربع محاور أساسية هي: أولاً: في النظرية النسبية للتعريف بها، وثانيًا: معيار الصدق الفيزيائي للمصادر التاريخية في ضوء نظرية النسبية. وثالثًا: الموضوعية والذاتية في دراسة التاريخ في ضوء النظرية النسبية. ورابعًا: الحتمية واللاحتمية التاريخية من خلال النظرية النسبية.

أولاً: في النظرية النسبية

يُعَدّ اينشتين أحد اهم الشخصيات العلمية في القرن العشرين، بسبب نظريته النسبية، والتي قدم فيها تصورًا جديدًا للكون والفيزياء، وربما بسبب هذه النظرية تحولت الفيزياء من مجرد علم تطبيقي الى فلسفة ورؤية فلسفية لفهم الكون والأحداث[٣].

شبه اينشتين المعرفة الإنسانية عن الكون بطفل صغير دخل مكتبة ضخمة مليئة بمجلدات كتبت بلغات عديدة، يدرك الطفل يقينا أن كتابا كتبوا هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف ولا يفهم اللغات التي كتبت بها. كما يدرك أن الكتب رصت في المكتبة بنظام دقيق لكن لا يعرفه[٤]. كان اينشتين يؤمن بأن من يفهم الطبيعة يعرف الإله. ليس لأن الطبيعة هي الإله – كما يقول الفيلسوف سبينوزا[٥] (ت١٦٧٧م) - ولكن لأن ما في الطبيعة من قوانين يشير الى عقل جبار يقف خلفها. وعلى الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام هذا الإله وحنكته[٦]. إذ لا يمكن اتهام الخالق بعدم التناسق في خلقه [٧].

كان أينشتاين مثل نيوتن وكل المفكرين العلميين، لديه نظرة عميقة موحدة للكون، ونظرية النسبية دالة على تبصر وإدراك عميقين لعمليات الطبيعة نفسها، وبشكل خاص فهم العلاقات بين الإنسان والمعرفة والطبيعة، فالفيزياء ليست أحداثًا ولكنها مشاهدات والنسبية هي فهم العالم لا كأحداث بل كعلاقات[٨]. وهذا المفهوم وجه ضربة في صميم هدف الدراسات التاريخية. التي تجعل من الأحداث محور عملها. وليس من العلاقات كهدف للفهم واستخلاص العبر.

أحدثت النظرية النسبية لأينشتاين ثورة في فهم الكون وهي نسبية لأنها بينت أن فهم ومعرفة أي حدث في الكون هو فهم نسبي يعتمد على موقع المشاهد وعلى سرعته. كما أضافت الزمن كبعد رابع إضافة إلى الأبعاد الثلاثة، الطول والعرض والارتفاع وهو ما أطلق عليه الزمكان. وتوجد نظريتان للنسبية، الأولى هي النسبية الخاصة وقدمها عام ١٩٠٥م، وهي التي تدرس العلاقة بين الأجسام أو الأطر المرجعية في السرعة الثابتة. والثانية النظرية النسبية العامة وقدمها عام ١٩١٥م، وهي التي تدرس العلاقة بين الأجسام في سرعات مختلفة[٩].

أثبتت النظرية تدخل الذات العارفة كمتغير في معادلة الطبيعة والأحداث.[١٠] ذلك أن موقع المراقب وسرعته محددان أساسيان لنوعية المعرفة، والمشاهدون لحدث في السماء من مواقع مختلفة يشاهدون أحداثًا مختلفة. بل إن تأثير المكان يحدد عمل ساعاتهم التي هي أجهزة الرصد. فكل مراقب له

زمانه المختلف عن الآخر.[11] وعلى ذلك فالزمان ليس زمانا واحدا. أي لم يعد الزمان يمثل متوالية واحدة مطلقة تتقدم بإيقاع ثابت منظم، من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل. بل أصبح من الجائز وجود العديد من المتواليات الزمنية التي تختلف عن بعضها البعض[12]، كما هو حاصل في اختلاف الزمان بين كواكب المجموعة الشمسية[13]. كما أصبح الإنسان متغيرا أساسيا من متغيرات أي نظرية او قانون يتعلق بالطبيعة والأحداث، أي بالمعرفة، ولم يعد بالإمكان تصور أي مفهوم من مفاهيم علم الفيزياء كالزمان والمكان والحركة، وفهم الكون، بدون الإنسان أو الباحث. فالنقطة المكانية الزمانية التي يرصد منها الإنسان، هي أساس تحديده وفهمه للحدث. وهي نفس النتيجة التي أكدت إليها نظرية الكوانتم[14].

وتوصلت النظرية إلى عدة قوانين منها قانون يقول: إذا وقع حادث معين في لحظة معينة فإنه بالنسبة لاثنين مراقبين هو حادثين مختلفتين. ويعتمد الفارق بين الحادثين إلى حركة ومكان المراقبين، فلكل مراقب إطار زماني ومكاني[15].

والتجربة البسيطة لذلك هي تجربة إلقاء كرة صغيرة في قطار متحرك. وراقب هذه التجربة مراقبان. الأول داخل القطار والآخر خارج القطار. هنا فإن المشاهد خارج القطار سوف يشاهد سقوط الكرة بزمن أطول من المشاهد لها داخل القطار. وهذا ما يسمى في النظرية النسبية بالتآني Simultaneity أو تطاول الزمان[16]. والتجربة الأبسط هي في رسم رقم 6 على الأرض، فان الناظر إليه من جهة سيراه 6 ومن الجهة الأخرى سيراه آخر 9. وهكذا في كل حدث، موقع المشاهد يحدد نوعية المعرفة. وحسب النتائج الأساسية للنسبية لا فرق بين القول أن الأرض هي مركز المجموعة الشمسية كما قال بطليموس قديمًا أو القول بأن الشمس هي المركز كما قال كوبرنيكوس، فكلاهما جائز ومحتمل. الأمر يتوقف في الحالتين على الموضع أو إطار الدلالة الذي يتم منه الرصد[17]. هكذا يمكن الحصول على توصيفان اثنان لحدث واحد كلاهما يتساويان في الصحة[18].

كذلك أضافت النظرية فهما جديدا للكون والمادة. وهي أن المادة ما هي إلا شكل من أشكال الطاقة. وقدم المعادلة الشهيرة والتي كانت أساس الوصول إلى القنبلة الذرية: الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء. وفي النظرية النسبية لا نستطيع أن نحني المكان من دون أن يشمل ذلك الزمان أيضًا. ومن ثم فان الزمان له شكل. وإذ تحني النسبية العامة المكان والزمان، فإنها تغير منهما. وبدلاً من أن يكونا خلفية سلبية تقع الأحداث إزاءهما فإنهما يصبحان مساهمين نشطين ديناميين فيما يحدث[19]. فالزمان والمكان نسيج واحد يلتف حول المادة بقوة حسب كتلتها. وهذه هي الجاذبية حسب النسبية. كما كانت هذه النظرية أساس لنظرية أخرى هي نظرية الانفجار العظيم الذي فسر نشأة الكون وتمدده المستمر[20]. فالزمان في النموذج الرياضي للنسبية العامة له بداية فيما يسمى بالانفجار الكبير. كذلك تظهر أدلة مماثلة أن الزمان ستكون له نهاية، عندما تتقلص النجوم والمجرات[21].

نجحت النظرية في تقديم وصف تقريبي لكيفية عمل الطبيعة في الواقع[22]. ومثلت نظرية كلية شمولية للكون وعلاقة الإنسان به.[23] هذا بالتأكيد تبسيط شديد لجانب من نظرية النسبية وقد ثبت صحة هذه النظرية من خلال الاختبارات التي أجريت عليها[24].

ثانيًا: معيار الصدق الفيزيائي للمصادر التاريخية في ضوء نظرية النسبية لأينشتاين

استطاع فيلسوف المنهج العلمي كارل بوبر Poper[25] (توفى ١٩٩٤م) تقديم إضافات علمية هامة في قضية المنهج العلمي. ومن أهم إضافاته أن مهمة البحث العلمي الكشف وليس التبرير. أي أن على البحث أن يمارس تقدما وليس تبريرًا، فالتقدم المطرد خاصية أساسية من خصائص المعرفة. إن وظيفة العلم حسب فهم كارل بوبر هي البحث الدؤوب عن حقيقة العالم وعن الصدق Truth. وللصدق دور المبدأ التنظيمي الذي يحكم شتى الجهود المعرفية بوصفه الغاية المنشودة. فالبحث عن الصدق والمزيد من الصدق هو الهدف الدائر للعلم. الصدق وليس اليقين؛ إذ لا يمكن الوصول إلى اليقين.

والتناظر Correspondence مع الواقع هو معيار الصدق الأساسي. ولذلك فإن تقييم أي نظرية علمية يأتي من خلال ما أسماه كارل بوبر معيار القابلية للتكذيب. إن أي نظرية علمية لا يمكن إجراء تكذيب لها ليست علمية. فالنظرية العلمية هي النظرية التي يمكن إجراء تكذيب لها فتصدق أو تكذب فيتضح بطلانها[26]. وإذا كان كارل بوبر يدعو إلى وحدة المنهج بين العلوم الطبيعية والإنسانية فإننا نقف عند مشكلة البحث التاريخي ومستوى دقته العلمية. لنطرح سؤالاً هامًا هو: هل يمكن إخضاع الواقعة التاريخية لمعيار القابلية للتكذيب كإجراء

منهجي؟ والسؤال الهام الآخر هل يمكن للنظريات الفيزيائية المفسرة للكون أن تساعدنا في منهج البحث التاريخي؟

يمارس المنهج التاريخي إجراء التكذيب من خلال نقد الواقعة التاريخية. وهو محاولة الحصول على نصين متعارضين للواقعة التاريخية الواحدة. ولكن ما هو معيار صدقية النصين؟ ما هو معيار صدق المصادر التاريخية نفسها بموجب الاكتشافات العلمية الحديثة؟

بموجب النظرية النسبية فإنها توضح لنا إذا كان لدينا خمسة شهود عيان لحدث تاريخي معين فإنهم يتحدثون عن خمسة حوادث مختلفة اختلاف فيزيائي، وذلك حسب موقعهم الزماني والمكاني هذا إضافةً إلى الاختلافات التي نعرفها بين الشهود أنفسهم مثل الاختلاف الفكري والعقائدي والنفسي والسياسي والاجتماعي وحتى العقلي على سبيل المثال.

أما إذا كان لدينا عشرون مصدرًا تاريخيًا لحدث معين تفصل بينهم أزمنة وأماكن مختلفة فإن ذلك يعني أيضًا أنهم يتحدثون عن عشرين حدثًا مختلفًا. وبالتالي فإن كل دراساتنا التاريخية التي تفترض أن مصادرنا تتحدث عن حدث واحد هي خطأ من الناحية العلمية الفيزيائية. مع الاعتراف أن هذه الفوارق هي من الضآلة بحيث لا تقارن مع الدراسات الكونية للنظرية. على أن المعادلة الجديدة التي أصبح الإنسان يعيشها هي: ما نراه لسنا على يقين منه. أو كما قال أينشتاين[٢٧]:" إن معرفتنا اليوم أوسع وأعمق مما كانت عند الباحث الفيزيائي في القرن التاسع عشر. ولكن كذلك أصبحت شكوكنا ومشاكلنا أكثر واعقد".

وعليه وحتى نستطيع أن نصل إلى مستوى قريب من الحقيقة التاريخية، يتعين علينا أولاً أن نحدد الفروق وأوجه التشابه والاختلاف من الناحية الفيزيائية للمصادر التاريخية، وذلك بهدف تحديد مستوى المعرفة النسبية للواقعة التاريخية. وهذا ما يعني إعادة نظر جديدة في منهجنا لدراسة الحدث التاريخي وإدخال معيار للصدق الفيزيائي لكل مصدر حسب الزمان والمكان التاريخي. حيث تختلف المصادر، إذ يوجد مصدر معاصر زماني ومكاني في جهة من الحدث ومصدر معاصر زماني ومكاني في جهة أخرى من الحدث. ومصدر معاصر زماني غير مكاني ومصدر معاصر مكاني غير زماني، وأيضًا في جهات متعددة. ومصدر غير معاصر لا زماني ولا مكاني. وحتى هذه الفئة الأخيرة يختلف معيار صدقها الفيزيائي بحسب الزمان والمكان. وفي إيجاد أو تفعيل هذا المعيار للمصادر التاريخية سوف يتبين لنا مدى اقترابنا من الحقيقة التاريخية أو بعدنا عنها. ونسبية مصداقية أي بحث بالنسبة لموضوع بحثه.

ثالثًا: الذاتية والموضوعية في دراسة التاريخ في ضوء النظرية النسبية

كانت الموضوعية مطلب أساسي في كتابة الأبحاث التاريخية الحديثة، ومن شروط المؤرخ الأمين لضمان علمية الكتابة التاريخية[٢٨]. ويقصد بالموضوعية أن يتخلى المؤرخ عن أي تحيز أو أهواء أو فكر مسبق يحاول إثباته أثناء كتابته للتاريخ. إذ عليه استخلاص الحقائق من وقائع موضوعية قائمة بذاتها[٢٩]. ويعرف برتراند رسل[٣٠] (توفى ١٩٧٠م) الموضوعية أيضا أنها الجانب أو العناصر المشتركة من المعرفة، المتاح لمختلف المشاهدين الذين يتساوون في ظروف الإدراك[٣١]. كذلك يقال عن ظاهرة أو فكرة أو قضية معرفية إنها موضوعية إذا كان وجودها لا يعتمد على العقل البشري[٣٢]. ثم أصبح هذا الموضوع مثار نقاش واختلاف بين علماء العلوم الإنسانية عن حقيقة الموضوعية في الدراسات الإنسانية. حيث اعتبر البعض الذاتية لا علمية أو مخالفة للعلم[٣٣]. بل إنها أخطر ما يواجه الكتابة التاريخية حسب زعمهم[٣٤]. وبسبب انشغال الفلاسفة في هذا الموضوع حاول العالم السويدي جونار ميردال[٣٥](توفى١٩٨٧م) حل هذه الإشكالية فقال[٣٦]:" الموضوعية هي أن تعلن عن ذاتيتك منذ البداية". إذ تبين للكثير استحالة الموضوعية المطلقة للباحث في العلوم الإنسانية. يقول أحد الكتاب:" إن الذين يعيشون الحوادث هم في اغلب الأحيان آخر من يصلح لتأريخها، ذلك لأن معايشتهم للحوادث تعطيهم على الرغم منهم دورا"[٣٧] وهو ما يفضي الى الانحياز، والانحياز تناقض مع الحياد، وهو المطلوب الأول في الحكم التاريخي[٣٨]. ويقول باحث آخر:" إن كل العاملين في حقل الإنسانيات والدراسات الاجتماعية لهم انحيازاتهم، وهذا الانحياز لا يعيب بحثهم ولا ينتقص منه، طالما أن هذا الانحياز لا يؤثر على الموضوعية، ولا يدفع بهم الى إخفاء وثيقة أو اختلاق واقعة"[٣٩].

وبظهور نظرية النسبية توضحت النظرة العلمية لهذا الموضوع حيث أثبتت النظرية النسبية أن الذات العارفة أو المشاهد للحدث هو جزء أساس في معادلة فهم الأحداث. وثبت أن مكان المشاهد يحدد نوعية المعرفة التي يتحصل عليها أو يشاهدها. وهذا واضح ليس فقط على مستوى معادلات النظرية النسبية ولكن حتى على مستوى المشاهدات العادية. مثل مشاهدة عصا من نفس اتجاه طولها سوف تبدو لنا كأنها نقطة، بينما لو شوهدت من اتجاه متعامد عليها فستظهر لنا بطولها الحقيقي[٤٠]. والغريب أن نظرية الكوانتم أكدت هذه

المعادلة العلمية، حيث يغير الإلكترون من سلوكه حسب وعي المراقب له[٤١]. وبهذا سقط وهم الموضوعية المطلقة التي يدعيها البعض. وعلى ذلك فإن المؤرخ الذي كتب عن حدث تاريخي معين ونحن أخذنا عنه هذا، في الحقيقة أننا أخذنا ما اختار أن يتكلم عنه هذا المؤرخ، وما وصل إليه إدراكه وفهمه عن الموضوع أو الحدث وليس أكثر من ذلك.

الذاتية أو ألا موضوعية موجودة على مستويين من الكتابة التاريخية أولا: الذاتية في المصادر نفسها، وهي ذاتية المؤرخ الأصلي، أو ما يسميه المؤرخون بالمصادر الأصلية. ثانيا: الذاتية في الكتابة المعاصرة للتاريخ من قبل الباحثين الأكاديميين أنفسهم الذين استخدموا المصادر الأصلية من خلال موقعهم الجغرافي والفكري والنفسي والسياسي والاجتماعي. وإشكالية منهجية التهميش والحاشية المتبع حاليا لا تجبر الباحث أو تطلب منه بشكل منهجي محدد أن يحدد ويحيل العبارات الصادرة منه والخاصة به الى هامش يدل انه صاحب العبارة بالتحديد كما تطلب منه الإحالة في حالة الأخذ من الآخرين. ولهذا تتداخل قضية الموضوعية والذاتية في كثير من الأبحاث في العلوم الإنسانية تقريبا. ويصعب التمييز بين رأي الباحث وما نقله عن الآخرين. إلا في حالات نادرة يبين فيها الباحث أن هذا رأيه الشخصي. ولذلك يفترض على الباحث كما يلتزم أن يحيل على الآخرين أن يحيل على نفسه بكل ما يضيف في البحث.

رابعًا: الحتمية واللا حتمية التاريخية من خلال النظرية النسبية

يُعَدّ موضوع الحتمية واللا حتمية أحد أبرز القضايا الخلافية في الفكر التاريخي. هل مسار التاريخ حتمي أو لا حتمي؟ وإذا كانت الحتمية والعلية مترابطتان،[٤٢] فهل من أهداف المنهج التاريخي ودراسة التاريخ الكشف عن الأسباب الحتمية والعلل اللازمة للحدث التاريخي أو لا. فذهب فلاسفة بالقول بالحتمية، أمثال كارل ماركس [٤٣] (توفى١٨٨٣م) في نظريته حول صراع الطبقات وجدلية التاريخ[٤٤]، واسوالد شبنجلر[٤٥] (توفى ١٩٣٦م) في نظريته بالمصير والتماثل البيولوجي بين الحضارات والكائن الحي[٤٦]. وحتى ابن خلدون[٤٧] (توفى ٨٠٨هـ) في أطوار الدولة. كذلك نظرية التقدم تفترض هذه الحتمية التاريخية[٤٨]. وذهب كارل بوبر على سبيل المثال بعدم حتمية التاريخ أو ما اسماه عقم المذهب التاريخي[٤٩]. وتعني الحتمية مذهب من يقول إن جميع حوادث العالم بما في ذلك أفعال الإنسان في التاريخ مرتبطة ببعضها ارتباطا محكما، وهي على ذلك تقوم على مبدأ العلة والمعلول، فكل حوادث العالم بما فيها أفعال الإنسان نتيجة لعلة أو علل سابقة عليها، فهي نتائج حتمية متتابعة كل علة تسبق معلولها[٥٠].

كانت النظرة الفيزيائية للكون والطبيعة تقول إن هذا الكون يسير ضمن نظام حتمي حسب نظريات نيوتن[٥١] حتى ظهرت نظرية الكوانتم فسببت ارباك في مفهوم الحتمية وأبرزت اللا حتمية في حقيقة ما يجري في هذا الكون. حيث يخبرنا مبدأ عدم التيقن بأن الكون على مستوى ما دون الذرة عبارة عن مكان مضطرب عندما نختبره على مسافات أصغر وأصغر وفي أزمنة أقصر وأقصر. وبهذا فالعالم المجهري هو عالم لا حتمي مضطرب ذاتيا[٥٢]. وهذا يعني أن الاحتمالات وليس الحتمية هي الحاكمة في الكون. وحاول بعض العلماء إسقاط هذا المفهوم على الإنسان وحريته[٥٣]. على أن بعض العلماء أمثال هوكنج اعتبر انه لا تزال هناك نسبة من الحتمية حتى في نظرية الكم نفسها[٥٤].

أما اينشتاين صاحب نظرية النسبية كعادته أمام المشاكل العلمية العويصة، كان يحول النظر للأمور من وجهة نظر الله فقد عارض مبدأ الحتمية بقولته المشهورة[٥٥]: "أن الله لا يلعب بالنرد". ردا على نظرية الكوانتم وألا حتمية. حيث هذا الكون له نظام دقيق ومرتب. وبالتالي لا مجال فيه للمصادفة أو اللعب بالنرد حسب تعبيره. كما أن النسبية تستند الى مبدأ حتمي مطلق هو ثبات سرعة الضوء. وتستخدم النظرية النسبية لفهم وتفسير الكون الكبير الذي تحكمه قوانين حتمية صارمة. وحتى على المستوى الكمومي تعد النظرية النسبية الخاصة النسخة الكمومية للحتمية[٥٦]. بل إن بعض العلماء تأول أن تعدد المتواليات الزمنية الذي تقول به النسبية يدفع على الاعتقاد بالجبرية على المستوى الإنساني[٥٧].

إذن قضية الحتمية واللا حتمية قضية مختلف فيها بين نظريات الفيزياء الحديثة، كما هي مختلف عليها بين فلاسفة التاريخ أنفسهم. لكن موقف النسبية بشكل عام يستند الى مبدأ حتمي لا يمكن تفسير الكون وأحداثه بمعزل عنه وهو ثبات سرعة الضوء.

هكذا كانت الفيزياء الحديثة تقوم على ركيزتين أساسيتين، لكنهما متناقضتين، الأولى هي النظرية النسبية العامة لاينشتاين، وهي تفسر العالم بأبعاده الكبرى: النجوم والمجرات. والركيزة الثانية ميكانيكا الكم ومبدأ اللا حتمية أو اللا يقين، وهي التي تفسر العالم الأصغر: الجزيئات والذرات والإلكترونات والكواركات[٥٨]. وكلما حاول العلماء الجمع بينهما تظهر لهما نتائج لانهائية[٥٩].

ولأجل ذلك ظهرت بعد عناء نظرية الأوتار الفائقة التي حاولت الجمع بين النظرية النسبية وبين ميكانيكا الكم في تفسير الكون. فتقول إن الكون مصنوع من أوتار دقيقة تكون فيه انساق الاهتزاز الرنينية هي الأصل المجهري لكتلة الجسيمات وشحنات القوى[٦٠]. لكنها نظرية لا زالت في طور محاولات إثبات صحتها. كما أنها لم تحسم موضوع الحتمية أو اللا حتمية. على أنه من المؤكد أن الكون البديع يقوم على أساس النظام الدقيق والصارم الذي تستند إليه الطبيعة مما مكن العلماء من صياغة معادلات رياضية دقيقة تصف هذا الكون وتمكن من استخلاص نتائج تقود الى حقائق علمية مبهرة[٦١].

وهناك ثلاث ملاحظات منطقية حول مبدأ اللا حتمية، الملاحظة الأولى أن نظرية الكوانتم نفسها إضافة الى نظرية النسبية تقومان على مبدأ حتمي مطلق وهو ثبات سرعة الضوء. والسؤال العلمي الهام هو: ما الذي يجعل سرعة الضوء ثابتة؟ والملاحظة الثانية هي: أن اللا حتمية في مستوى ما دون الذرة لا يمكن أن ينتج عنها كون كبير حتمي تحكمه قوانين صارمة لا يمكن نكرانها أو تجاهلها. والملاحظة الثالثة: أن اهم معادلة في عالم الذرة وهي معادلة اكتشاف القنبلة الذرية: الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء، هي معادلة حتمية. ونتج عنها نتائج حتمية هي الانفجار النووي.

وعلى ذلك فنحن مطالبين في دراستنا للتاريخ أن نأخذ بالعلل الحاكمة للفعل التاريخي فالحتمية والعلية وجهان لشيء واحد، ولأن العلل والأسباب هي الحاكمة على المستوى الظاهر من الكون والوجود بحسب النظرية النسبية التي أثبتت نجاحها في تفسير العالم الظاهر، أو عالم ما فوق الذرة. بل والكشف عن القوانين والسنن الحاكمة لحركة التاريخ للاستفادة في فهم الحاضر وصنع توجهات المستقبل.

خَاتِمَةٌ

دراسة التاريخ ليس مجرد وصف للأحداث، بل هو قراءة للحدث التاريخي. كيف نقرأ الحدث التاريخي هو أساس موضع دراسة التاريخ. ويحق للمؤرخ، بل ربما من الواجب عليه متابعة ومواكبة كل التطورات العلمية الهائلة في الوقت المعاصر حتى يتمكن من دراسة وفهم وتفسير التاريخ وأحداثه بالشكل والمنهج العلمي السليم، ومحاولة الوصول الى الحقيقة التاريخية قدر الإمكان. والاستفادة والعبرة من هذه المعرفة الثمينة للتجربة الإنسانية عبر تاريخها الطويل. وفي ذلك قدمت النظرية النسبية لإينشتاين تفسيرًا للكون والأحداث تنفي فيه الموضوعية المطلقة وتثبت فيه الذاتية في معرفة الأحداث وبحسب مكان المشاهد. فأصبحت المعرفة نسبية ولا يصح إطلاق أحكام مطلقة بموجب ما شاهده شهود العيان للحدث التاريخي، أو ما نقله المؤرخون أو حتى ما كتبه الباحثون المعاصرون. وترتب على ذلك الحاجة الى وضع معيار للصدق الفيزيائي للمصادر التاريخية لمعرفة وتحديد مدى اقتراب المصدر من الحقيقة التاريخية أو بعده عنها.

أما في القضية الفلسفية العميقة حول الحتمية أو اللا حتمية التاريخية، فلا زالت محل خلاف بين الفيزيائيين كما بين الفلاسفة. على أن موقف أينشتاين رفض إلا حتمية بقوله: "أن الله لا يلعب النرد"، ردًا على نظرية ميكانيكا الكوانتم إلا حتمية. وكان له في ذلك تبريراته العلمية. ولأجل ذلك يفترض إعادة النظر في آليات المنهج التاريخي حسب الاكتشافات العلمية الحديثة. والإقرار بالموضوعية والذاتية النسبية في فهم وكتابة التاريخ. وعدم الادعاء بامتلاك الحقيقة التاريخية المطلقة وإصدار أحكام يقينية بموجب ذلك. فالموضوعية الحقيقية المطلوبة من الباحث هي في عدم الكذب، أو التزوير، أو تشويه الحقائق، أو إخفاء متعمد لأحداث معينة.

الاحالات المرجعية:

(١) هوكينج، ستيفن: **الكون في قشرة جوز**، ترجمة مصطفى إبراهيم فهيم، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٣م، ص٣٤. ستيفن هوكنج (١٩٤٢-٢٠١٨م): عالم فيزياء إنجليزي مشهور، أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة كمبردج، أصيب بمرض شلل العضلات، إلا انه استمر في العمل والأبحاث من خلال كرسي وكمبيوتر خاص به. (هوكنج: الكون،١٥٠).

(٢) ألبرت انيشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥م): ولد بألمانيا، عالم فيزياء أمريكي من أصل يهودي ألماني، عرف بنظرية النسبية المشهورة، درس بالمانيا وبسويسرا، عين أستاذا في جامعة زيورخ وبراغ، أكتسب شهرة عالمية لبحوثه القيمة، نال جائزة نوبل في الفيزياء ١٩٢١ لبحوثه على الظاهرة الكهروضوئية ورحل إلى أمريكا، أول من افترض وجود الضوء على هيئة كمات صغيرة تسمى (فوتونات) تنطلق على دفعات، ووضع العلاقة بين الكتلة والطاقة في النظرية النسبية الخاصة، والعلاقة بين التجاذب وعزم القصور في النظرية النسبية العامة على أسس رياضية بحتة وهي تحدد العلاقة بين الجاذبية وبين الفراغ ذي البعد الزمني الرابع. (هوفمان، بانش: **آينشتين**، ترجمة نبيل صلاح الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٣ -٢٥).

(٣) العامري، حسين حمزة شهيد: **البعد الفلسفي لنظرية أينشتاين النسبية**، مجلة آداب الكوفة، جامعة الكوفة، كلية الآداب مج1، العدد ٢٢، ٢٠١٥م، ص ٣٢١ - ٣٤٦. https://search.emarefa.net/detail/BIM-573531

(٤) شريف، عمرو: **رحلة عقل**، مكتبة الشروق الدولية، ط٤ القاهرة ٢٠١١، ص٨٥.

(٥) باروخ سبينوزا: ولد في عام ١٦٣٢م في أمستردام، هولندا، عن عائلة من أصل يهودي تنتمي إلى طائفة المارنيين، دخل في صراع مع المجتمع اليهودي بسبب زعمه أن الله يكمن في الطبيعة والكون، وأن النصوص الدينية هي عبارة عن استعارات ومجازات غايتها أن تعرّف بطبيعة اللهّ (بدوي، عبد الرحمن: **الموسوعة الفلسفية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤، ج١، ص١٣٦ -١٣٨).

(٦) شريف: **رحلة عقل**، ٨٦.

(٧) هوفمان: **اينشتين**، ٢٣٧.

(٨) برونو فسكي، ج: **ارتقاء الإنسان**، ترجمة موفق شخاشيرو، عالم المعرفة ٣٩، الكويت ١٩٨١، ص١٩٦.

(٩) صالح، ضحى محمود: **الفيزياء بين البساطة والدهاء**، عصير الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢١م، ص٤٢.

(١٠) ديفيز، بول. س: **المفهوم الحديث للمكان والزمان**، ترجمة السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص ٥ -٩.

(١١) تريمان، سام: **من الذرة الى الكوارك**، ترجمة احمد فؤاد باشا، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٦، ص٨٢.

(١٢) محمد، بدوي عبد الفتاح: **فلسفة العلوم**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٠، ص١٩.

(١٣) الفتلاوي، علي شاكر: سيكولوجية الزمن، صفحات للدراسة والنشر ط١، دمشق ٢٠١٠م، ص١٧.

(١٤) محمد: **فلسفة العلوم**،٢٥٢.

(١٥) المالكي، علي: **الأسس العلمية والفلسفية لنظرية النسبية المحدودة عند ألبار اينشتين**، الدار التونسية للكتاب، ط١ تونس ٢٠١٣، ص٢٥٢.

(١٦) الخولي، يمنى طريف: **فلسفة العلم في القرن العشرين**، عالم المعرفة ٢٦٤، الكويت، ديسمبر ٢٠٠٠، ص ٢٠٣-٢٠٥؛ برونو فسكي، ج: **ارتقاء الإنسان**، ترجمة موفق شخاشيرو، عالم المعرفة ٣٩، الكويت ١٩٨١، ص١٩٥ وما بعدها؛ هوكينج: **الكون في قشرة جوز**، ٢٢. وعن الزمكان space-time في النظرية النسبية ينظر أيضًا: جرين، جون: **مولد الزمان**، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، (د.ن) القاهرة ٢٠٠١، ص٨٠ وما بعدها؛ كاكو، ميتشيل: **رؤى مستقبلية**، ترجمة سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١م، ص٤٣٦ وما بعدها.

(١٧) محمد: **فلسفة العلوم**،٢٦٤،٢٦٣.

(١٨) هوكنج: **الكون**، ١٤٠.

(١٩) هوكنج: **الكون**، ٤٠.

(٢٠) آغا، شيرين: **بنية الكون**، دار غيداء، ط١ عمان ٢٠١٧، ص٥٥.

(٢١) هوكنج: **الكون**، ٤٥، ٧٥.

(٢٢) غرين، برايان: **الكون الأنيق**، ترجمة: فتح الله الشيخ، المنظمة العربية للترجمة، ط١ بيروت ٢٠٠٥م، ص١٠٣.

(٢٣) محمد: **فلسفة العلوم**، ٢٥٥.

(٢٤) غرين: **الكون الأنيق**، ص١٠٣؛ الخولي: **فلسفة العلم**، ٢٠٢.فشلت نظرية النسبية في تطبيقاتها الرياضية في مركز الثقوب السوداء. أو عند تمزق الجسيمات الدقيقة في العالم الذري، وهي الحالات التي تهيمن فيها نظرية الكوانتم (كاكو، ميشيل: **رؤى مستقبلية**، ص٤٤٥ وما بعدها).

(٢٥) **كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤م)**: أشهر فلاسفة العلم والمنهج العلمي، هاجر من موطنه النمسا عام ١٩٢٩ إلى نيوزلندا حيث عمل في الجامعة، ثم استقر في إنجلترا، حصل على لقب "سير" وخمس عشر دكتوراه فخرية، من كتبه المنشورة: "منطق الكشف العلمي" وعقم النزعة التاريخانية" وهو الكتاب الذي هاجم فيه نظريات تفسير التاريخ، والحتمية التاريخية (بوبر، كارل: **أسطورة الإطار**، تحرير: مارك ر.بوبر، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت٢٩٩٣، ٣١٧).

(٢٦) كارل بوبر: **أسطورة الإطار**: ص١١٦ وما بعدها؛ يمنى الخولي: **فلسفة العلم**: ص٣٢٧ وما بعدها.

(٢٧) محمد: **فلسفة العلوم**، ٢٤٨.

(٢٨) الصايدي، احمد قايد: **منهج البحث التاريخي**، مكتبة الإحسان، ط٤ صنعاء ١٩٩٩، ص٣١.

(٢٩) عوض، نجيب: **من الخارج ام من الداخل؟:المفكر وقراءة التاريخ، فرانسيس فوكوياما نموذجًا**، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفكر والآداب، الكويت المجلد٣٣ العدد٤، ابريل-يونيو ٢٠٠٥م، ص ٤٠.

(٣٠) **برتراند رسل B. Russell** : فيلسوف ورياضي إنجليزي وجه اهتماماته الفلسفية ناحية المنطق ونظرية المعرفة. (بدوي: **موسوعة الفلسفة**، ج١ص٥١٧).

(٣١) محمد: **فلسفة العلوم**، ٩٥،٩٤.

(٣٢) أومنيس، رولان: **فلسفة الكوانتم**، ترجمة: يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٨، ص٣٦٦.

(٣٣) طه، مصطفى محمد: **تفسير التاريخ الإسلامي بين الموضوعية والتاريخية**، مجلة التفاهم، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، مسقط ٢٠١٤م، ص٢٩١-٢٩٥.

(٣٤) التميمي، عبد المالك: **الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية**، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفكر والآداب، الكويت المجلد ٢٩ العدد٤، ابريل-يونيو٢٠٠١، ص٨٢.

(٣٥) **جونار ميردال (١٨٨٩-١٩٨٧م)**: عالم اقتصاد واجتماع سويدي، ولد عام ١٨٩٨ وتوفي عام ١٩٨٧م. له العديد من المؤلفات (ويكيبيديا، جونار ميردال)

(٣٦) يسين، السيد: **كتابة التاريخ بين الذاتية والموضوعية**، صحيفة الاتحاد، ابوظبي، ١٥/ ١٠ / ٢٠١٤م. اطلع عليه في ٢٠٢١/٨/٢٧م.

(٣٧) عمر، يحيى حسن: **كتابات هيكل بين المصداقية والموضوعية**، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٩م، ص ١٤٦.

(٣٨) عمر: **كتابات هيكل**، ١٤٦.

(٣٩) عمر: **كتابات هيكل**، ١٤٧.

(٤٠) ديفيز، بول: وجريبين، جون: **اسطورة المادة، صورة المادة في الفيزياء الحديثة**، ترجمة: علي يوسف علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م، ص٧١، ٧٠.

(٤١) سلمان، عماد سامي: **لعبة الوعي**، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٦، ص٥٠.

(٤٢) **الخولي**: فلسفة العلم، ١٠٨.

(٤٣) **ماركس، كارل (1818-1883)** مؤسس الشيوعية وفيلسوفها من أصل يهودي ألماني درس القانون بألمانيا اضطهد في ألمانيا بسبب نشاطه الثوري فانتقل الى باريس حيث التقى فريدريك انجلز واصدرا معا الوثيقة الشيوعية الأولى المعروفة باسم البيان الشيوعي 1848 هاجر إلى انجلترا حيث أقام بها حتى وفاته له عدة مؤلفات أهمها كتابه رأس المال. (صبحي، احمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٤، ص٢٢١ وحاشية١).

(٤٤) صبحي: **في فلسفة التاريخ**، ٢٢٣ وما بعدها؛ الشيخ، رأفت: **تفسير مسار التاريخ**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة٢٠٠٠م، ص١٧٠ وما بعدها.

(٤٥) **اسوالد شبنجلر (١٨٨٠-١٩٣٦م)**: مؤرخ ومفكر ألماني، عاش حياة في غاية من العزلة فترة طويلة من حياته، أشهر كتبة تهور الحضارة الغربية، والذي سبب ضجة كبير في أوروبا آنذاك. (بدوي، عبد الرحمن: **اشبنجلر**، دار القلم، بيروت ١٩٨٢، ص٣ وما بعدها).

(٤٦) صبحي: **فلسفة التاريخ**، ٢٤٥ وما بعدها؛ الشيخ: **مسار التاريخ**،١٨٧ وما بعدها.

(٤٧) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد أبو زيد الحضرمي الأشبيلي (٧٣٢-٨٠٨هـ): العلامة والمؤرخ الفقيه الأصولي. ولد ونشأ في تونس ورحل إلى غرناطة ومصر. ولي قضاء المالكية. ثم تفرغ للتأليف، وأشهر كتبة: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر. (ابن العماد، عبدالحي الدمشقي (ت١٠٨٩ه): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ج٧ص٧٥؛ الزركلي، خير الدين : **الأعلام**، دار العلم للملايين ط٥، بيروت ١٩٨٠، ج٤ص١٠٦).

(٤٨) حلاق، وائل: **الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة**، ترجمة: عمر عثمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة ٢٠١٤م، ص٥٣.

(٤٩) بوبر، كارل: **عقم المذهب التاريخي**، ترجمة: عبد الحميد صبرة، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٥٩م، ص ٥ وما بعدها؛ بوبر، كارل: **أسطورة الإطار**، ١٨٨.

(٥٠) التميمي، مشحن زيد: **فلسفة التاريخ عند ابن رشد**، صفحات للدراسات والنشر، دمشق ٢٠١٠، ص٨٨؛ محمد: **فلسفة العلوم**، ٢٣٨.

(٥١) هوكنج: **الكون**، ٩٨.

(٥٢) غرين: **الكون الأنيق**، ١٤٠.

(٥٣) محمد: **فلسفة العلوم**، ٢٣٧-٢٤٠.

(٥٤) هوكنج: **الكون**، ١٠١.

(٥٥) هوفمان: **آينشتين**،٢٠٢، ٢٠٣؛ غرين: **الكون الأنيق**، ١٢٨.

(٥٦) هوكنج: **الكون**، ١٠٢.

(٥٧) محمد: **فلسفة العلوم**، ٢٥٨.

(٥٨) غرين: **الكون الأنيق**،١٧.

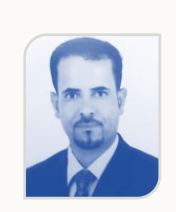
(٥٩) غرين: **الكون الأنيق**،١٥١.

(٦٠) غرين: **الكون الأنيق**، ٢٣١.

(٦١) محمد: **فلسفة العلوم**، ٧٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

أهمية دراسة التاريخ
وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية المستدامة في اليمن
طريق اللبان، طريق الحرير، تجارة البن



د. رياض محمد أحمد الصفواني
دائرة الدراسات التاريخية
مركز الدراسات والبحوث اليمني
صنعاء – الجمهورية اليمنية

مُلَخّصْ

يتناول البحث أهمية دراسة التاريخ لخطط وبرامج التنمية الاقتصادية المستدامة. ويهدف البحث إلى الإجابة على سؤال إشكالي رئيس مفاده: ما الأهمية التي تمثلها دراسة التاريخ لنجاح خطط وبرامج التنمية الاقتصادية المستدامة في اليمن؟ أو بصيغة أدق ما العلاقة بين دراسة التاريخ وبين مشروعات التنمية الاقتصادية المستدامة في بُعدها التجاري؟ ولتحقيق هدف البحث -بالاعتماد على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي- نحدد بإيجاز مفهوم التاريخ بصفته العلمية والغاية من دراسته، والعلاقة التي تربطه بمختلف العلوم الإنسانية النظرية والتطبيقية، ثم ننتقل في المحور الثاني إلى تحديد مفهوم التنمية المستدامة أهدافها ومنطلقاتها ومعوقاتها، لنصل في المقاربة النهائية ضمن المحور الثالث إلى معرفة أهمية دراسة التاريخ وجدواها لنجاح خطط ومشروعات التنمية الاقتصادية المستدامة حاضرًا ومستقبلاً. وقد خلص البحث إلى أن دراسة تجارب الإنسان في الماضي تساعد في التعرف على أنماط التفكير لدى الإنسان القديم، وسلوكه المنبثق عنها، بهدف التعرف على مواطن القوة، لاستلهامها في النهوض بالواقع المعاصر، وتجاوز مواطن الخطأ عند رسم السياسات التنموية في الحاضر واستشراف المستقبل، وأكد البحث على أهمية موقع اليمن الاستراتيجي، وما حققه ذلك الموقع من رخاء، وتواصل مع شعوب العالم، من خلال طريق اللبان والحرير وتجارة البن، وأوصى بالاستفادة من موقع اليمن وإمكاناته الاقتصادية لتحقيق التنمية المستدامة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٦ يونيو ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ٢١ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

مفهوم التاريخ؛ التنمية المستدامة؛ طريق الحرير؛ الحضارات؛ تاريخ اليمن

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.296762 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رياض محمد أحمد الصفواني. **"أهمية دراسة التاريخ وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية المستدامة في اليمن: طريق اللبان، طريق الحرير، تجارة البن".**- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٢٢ – ٣٢.

Corresponding author: aljbar7@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

يهدف البحث إلى الإجابة على سؤال إشكالي رئيس مفاده: ما الأهمية التي تمثلها دراسة التاريخ لنجاح خطط وبرامج التنمية الاقتصادية المستدامة في اليمن؟ أو بصيغة أدق ما العلاقة بين دراسة التاريخ وبين مشروعات التنمية الاقتصادية المستدامة في بُعدها التجاري؟

والإجابة على هذا السؤال والأسئلة المنبثقة عنه تتطلب التركيز على معطيات ثلاث وفق تسلسلها الزمني وهي: طريق اللبان، وطريق الحرير، وتجارة البن. بوصفها معطيات حققت شهرة واسعة لليمن على مر العصور، انطلاقًا من فرضية العلاقة الوثيقة التي تربط بين علم التاريخ في صورته التطبيقية الشاملة لسائر جوانب الحياة وبين الخطط والبرامج العملية لمفهوم التنمية الاقتصادية المستدامة، وهي الخطط التي تندرج في سياق دور الفرد وإسهامه في تشكيل الواقع بأبعاده وجوانبه المختلفة ضمن التحقيب الزمني.

وعلى الرغم من الأهمية العلمية لموضوع بحثنا فإنه لم يلقَ حظه من الاهتمام من جانب الدارسين والباحثين في تاريخ اليمن، ولم تطرقه الدراسات إلا من زوايا محددة يغلب عليها التناول المفهومي المجرد لفكرة التنمية المستدامة وأبعادها ومؤشراتها ضمن التخصصات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، مثل كتاب "التنمية المستدامة، مفهومها، أبعادها، مؤشراتها"، للمؤلف د. مدحت أبو النصر. والكتاب الصادر عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بعنوان "العالم الإسلامي والتنمية المستدامة". وبهذا المعنى فإن الموضوع يُعَدّ جديدًا في ميدان الدراسات التاريخية، وذلك لاتصال مضامين محاوره بفكرة التنمية الاقتصادية المستدامة، التي تنضوي في إطار علوم مساعدة لعلم التاريخ، وفي مقدمتها علم الاجتماع وعلم الاقتصاد.

ولتحقيق هدف البحث -بالاعتماد على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي- يجدر بدايةً أن نحدد بإيجاز مفهوم التاريخ بصفته العلمية والغاية من دراسته، والعلاقة التي تربطه بمختلف العلوم الإنسانية النظرية والتطبيقية، ثم ننتقل في المحور الثاني إلى تحديد مفهوم التنمية المستدامة أهدافها ومنطلقاتها ومعوقاتها، لنصل في المقاربة النهائية ضمن المحور الثالث إلى معرفة أهمية دراسة التاريخ وجدواها لنجاح خطط ومشروعات التنمية الاقتصادية المستدامة حاضرًا ومستقبلاً.

المحور الأول: مفهوم التاريخ وأهميته والعلوم المساعدة له (إطار نظري)

التاريخ لغةً يعني الوقت أو التوقيت، أي أنه يشير إلى الزمن أو البداية الزمنية، وهو علم من العلوم الإنسانية قائم بذاته، موضوعه الإنسان فكرًا وسلوكًا، وهو بمعنى من معانيه المترادفة وعاء يستوعب كل تجارب الإنسان الماضية في سائر جوانب حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية والفنية، ولا يستغني عنه علم من العلوم التي تختص بدراسة تلك الجوانب نظرية كانت أم تطبيقية، لأن لكل علم تاريخ، والمقصود هنا توقيت البداية، فالطبيب قبل أن يشخص حالة المريض يسأله أولاً متى كانت بداية مرضه؟ وهناك ما يسمى "التاريخ المرضي". كما أنه لا غنى للتاريخ بصفته العلمية عن كل تلك الجوانب، فهي روافد تصب في مجراه العميق، ويفيد منها المؤرخ كعلوم مساعدة، فعند دراسة ظاهرة الهجرة الداخلية أو الخارجية تاريخيًا يأتي العامل الاقتصادي (بما ينطوي عليه من فقر وشحة في الموارد) في مقدمة الأسباب، وعند الوقوف على أسباب الهزائم والانتصارات العسكرية يؤخذ العامل الجغرافي (خصوصية وطبيعة تضاريس أرض المعركة) بعين الاعتبار، وعند التأمل في وقائع الانقلابات العسكرية وغير العسكرية فإن الجانب السياسي (التطلع للسلطة والنفوذ) لا يمكن إغفاله، وعند التأريخ للفرق والمذاهب والتيارات والحركات الدينية وغير الدينية فإن للبعد الفكري حضوره المؤسس والحاضن، الذي لا يمكن تجاهله. والمشتغل بالعلوم النظرية الحديثة يرجع إلى التاريخ ليفيد منه في معرفة البداية الزمنية للفكرة، أو الإشكالية العلمية التي يدرسها، فالتاريخ يدرس علم اجتماع الماضي، وعلم الاجتماع يدرس تاريخ الحاضر،[1] مع عدم إغفال التأصيل للحاضر بشيء من الماضي، وعلم السياسة يدرس وقائع سياسة الزمن الراهن، أو القريب من الراهن، مع العودة التأصيلية للحاضر في قلب الماضي غير البعيد،[2] وهنا يتجلى الربط التاريخي بين الماضي والحاضر.

يقدم علم التاريخ تصوّرًا واضحًا عن المجتمعات القديمة، والتجارب التي مرَّ بها الإنسان قديمًا، ومن ثم تصبح هذهِ الدراسة سياجًا يحمي إنسان اليوم من الوقوع في ما وقعَ فيه الأقدمون من أخطاء جرّت عليهم الويلات والدمار.[3] وبهذا المعنى، فإن علم التاريخ بما ينطوي عليه من علوم مساعدة يقدم في المُجمل دروس ماضية تُفيدنا لتسيير دفة شؤون الحاضر، والتخطيط الجيد للمستقبل، فعند معرفة سيرورة الحضارات القديمة، وكيفية نشأتها، وعوامل ازدهارها، وأسباب

اندثارها، فإنّنا نختصر على أنفسنا العديد من التجارب، ونتحاشى الخطأ السابق، ونمضي قُدُمًا نحوَ ما أراهُ التاريخ لنا مُناسبًا.[٤]

ومن نافلة القول، إن من طبيعة علم التاريخ أنه مستودع يحفظ تراث الأمم، على خصوصية وأهمية وفائدة ذلك التراث، بما يحويه من قنوات معرفية عقلية ونقلية، ومن آداب وفنون وعادات وتقاليد، بعضها ذات ملامح ثقافية مشتركة، في إطار هُوية أممية واحدة، كالهوية العربية الواحدة - على سبيل المثال - والبعض الآخر يتصل بخصوصيات ثقافية محدودة، تتعلق بهذا المجتمع (القُطْري) دون الآخر، وإن كان في إطار الهُوية الجامعة. وهو في الآن ذاته، يساعد على معرفة ما كان من شأن الأمم البائدة، وذلك لمعرفة الطريقة التي تقدّم بها الإنسان، والتي نتجت في الأساس عن تقدّم العقل البشري، وما صاحبه من تقدم في النظريات، والفلسفات، والعلوم والأفكار المختلفة، إلى أن وصلت كلها إلى ما وصلت إليه اليوم من تغيرات وتطورات شاملة.

ويفيد علم التاريخ في معرفة الأفراد في زمنهم الراهن ما ينفعهم، من أجل استدامة أفكارهم، وعلومهم، وحضاراتهم، فالناس مرتبطون بشكلٍ أو بآخر بالتاريخ. وإن حاولنا التعمّق في بعض الحضارات نجد أنّ التاريخ له أهميّة عظيمة في راهن أبنائها، ذلك أنّهم يعتمدون على القدماء في كلّ صغيرة وكبيرة، على النحو الذي يحصل في الحضارات مثلاً، ومنها على وجه التحديد الحضارات المبنية على الأديان التوحيدية، كما يفيد بعض مؤرخي الحضارات،[٥] فالنصوص الدينية تبدأ بالكتب السماوية، وتأخذ بالتطور شيئًا فشيئًا إلى أن يصير تراثًا كاملاً، يتضمن العديد من المصنفات العلمية.

ومن هذا المنطلق، فقد قدّم التاريخ نماذج حية للناجحين، يمكن لإنسان اليوم أن يستلهمها، وأن يرى بها نفسه في أي زمان ومكان، فالتاريخ يحوي معلومات شتى عن الأنبياء، والرسل، والعلماء، والمفكّرين، والحكماء، والمبدعين في سائر نواحي الحياة، والذين استطاعوا إضافة الشيء الكثير للتاريخ. وهم من وضعوا لبنات الحضارة، وأسهموا في صناعتها وصياغة معالمها، كلٌ من موقعه الثقافي النظري والتطبيقي الذي يشغله، ولذلك فإن الصورة شبه المتكاملة التي يختزلها التاريخ بين طياته، هي صورة المساهمين في ركب الحضارة، الذين ينبغي التركيز عليهم عند التأريخ للحضارة بمعناها الشامل، لا التأريخ للساسة الحكام، الذين ينزعون إلى الاستبداد، وتقودهم دكتاتوريتهم في الغالب إلى اختزال عناصر ومظاهر الواقع في شخوصهم، فيحلون ذواتهم محل العناصر الفاعلة والمؤثرة في صناعة الواقع، ومَن لهم دور أساسي في صياغة وتشكيل الحضارات الإنسانية. والتاريخ في مقاربته لهذا المعنى هو الصورة الفكرية للحضارة ينشرها للناس مقدمًا لهم الحساب عن نشاط الفكر الإنساني في ماضيه عن تراث الآباء والأجداد، معبرًا عنهم بالقول: "هاكم اقرؤوا كتابية"[٦] ولأنه من غير اليسير قيام الحضارات، "فإن الظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستثير في الأمم قيام الحضارات"،[٧] وبالمحصلة فإن قيام الحضارات، ودور الإنسان في نشأتها، واتساع مداها، مع إسهام كافة العلوم الإنسانية في صناعتها، وفي التوثيق التاريخي لها، من شأنها جميعًا أن تصب في بوتقة التنمية المستدامة، التي تُعنى بمنفعة الفرد، والمجتمع على حد سواء.

المحور الثاني: مفهوم التنمية المستدامة وأهدافها ومعوقاتها

تشير لفظة "التنمية" لغةً إلى الزيادة والنماء والوفرة والمضاعفة والإكثار،[٨] ومن خلال الوقوف على بعض المفاهيم التي تُعنى بمفهوم التنمية المستدامة (Sustainable Development)وهو المفهوم الذي نشأ وتبلور في أعقاب الحرب العالمية الثانية - رغم قدم مضمونه في تاريخ البشر - يتضح أن التنمية المستدامة تتضمن نشاط جامع شامل للأفراد في كافة قطاعات العمل، سواء في مؤسسات الدولة، أو في المنظمات ومؤسسات المجتمع المدني، أو حتى لدى الأفراد، حيث تتشكل عملية تحسين ظروف الواقع، والارتقاء بمستوى طاقات وقدرات الأفراد، من خلال دراسة الماضي والتعلم من تجاربه، وفهم الواقع وتغييره نحو الأفضل، والتخطيط الجيد للمستقبل، وذلك عن طريق الاستغلال الأمثل للموارد، والطاقات البشريّة، بما في ذلك المعلومات والبيانات، والإحصاءات والمعارف، التي يمتلكها المقيمون على عملية التنمية بصفة عامة والتنمية الاقتصادية بصفة خاصة، مع الحرص على أهمية التعلم المستمر، واكتساب الخبرات والمعارف.[٩] ولا تقتصر التنمية على مجال واحد من المجالات الحياتيّة، بل تشمل التنمية الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسية والعسكريّة والنفسية والعقلية والطبيّة والتعليمية والإعلامية والتقنية والفنية والحرفية وغيرها، بحيث تهدف جميعها بشكل رئيس إلى رفع وتحسين مستوى المعيشة لدى الأفراد والمجتمعات، وضمان معيشة أفضل للأجيال القادمة، فالإنسان هو الثروة الحقيقية، وهو أداة التنمية وركيزتها الأساسية، وهو المستهدف ببرامجها.[١٠]

وتتطلب التنمية على سعة مفهومها بيئة هادئة ومستقرة، فالاضطرابات والنزاعات والحروب المحلية والخارجية، وما ينبثق عنها من آثار، وتداعيات عامة، بالإضافة إلى الفقر والبطالة والأمية والفساد وضعف الأداء الإداري والديون والأوبئة والثأر والنزاعات الأهلية والتضخم السكاني وشحة الموارد الطبيعية أو تدهورها واستنزافها،[١١] من شأنها جميعًا أن تشكل بيئة طاردة ومعيقة لتنفيذ خطط وبرامج التنمية المستدامة، وهو ما يتطلب الوقوف أمام هذه المعوقات، من خلال دعم الحكومات والسلطات المحلية المنبثقة عنها، ومنظمات المجتمع المدني، والشركات والمؤسسات التجارية والأفراد، فضلاً عن الدور التوعوي للمؤسسات التعليمية، والثقافية والإعلامية، للاضطلاع بمهامها في معالجة هذه المعوقات وردم الفجوات، التي تحول دون تنفيذ خطط وبرامج التنمية المستدامة.

ولأن التاريخ يعنى بالتراث الحضاري بما يحويه من مكون اقتصادي، فإن لهذا التراث دور أساسي في تأكيد الذاتية الثقافية، والمحافظة على خصوصياتها وحماية هوياتها من الذوبان، والمساعدة على بناء الشخصية المستقلة للأفراد والجماعات، ومنح العمل التنموي دفعة ذاتية أقوى في الدفاع عن الشخصية الوطنية، وذلك كله عنصر أساسي في التنمية المستدامة بصفة عامة. وتقوم التنمية المستدامة على أربعة عناصر، الهدف منها توسيع اختيارات البشر:

أ. الإنتاجية، وتعني توفير الظروف للبشر ليتمكنوا من رفع وتحسين إنتاجيتهم.

ب. الإنصاف والعدالة الاجتماعية، وتعني من جملة ما تعنيه تكافؤ فرص العمل.

ج. الاستدامة، وتعني ضمان حصول الأفراد على فرص التنمية دون تجاهل أو نسيان الأجيال المقبلة.

د. التمكين، والذي يهدف إلى مشاركة الأفراد في صنع القرارات والسياسات المتعلقة بحياتهم، وفي تنفيذها وتحويلها إلى واقع معاش.[١٢]

ويرى بعض الباحثين أن التنمية المستدامة هي اقتصادية اجتماعية في المقام الأول، وهو ما يركز عليه هذا البحث، لكونها تهتم بتنمية الموارد، سواء كانت بشرية، أم بيئية، أم مجتمعية، وتعمل جاهدة من خلال أنشطتها على التوعية بالمحافظة عليها، واستثمارها، وخاصة في ارتباطها بالتنمية البشرية.[١٣] وغني عن البيان، أن من شأن ذلك أن يدفع باتجاه تعزيز الوعي بأهمية دراسة وقائع الماضي الاقتصادية والاجتماعية على وجه الخصوص، والوقوف على أبعادها، لتلبية متطلبات التنمية البشرية في الحاضر، والتخطيط السليم للتنمية في المستقبل. وهو ما تتوجه إليه هذه الدراسة، ضمن المجال التجاري، المنبثق من التاريخ الاقتصادي لليمن.

المحور الثالث: أهمية دراسة التاريخ لخطط وبرامج التنمية الاقتصادية المستدامة

يتضح من خلال الإطار النظري لدراسة التاريخ سعة مفهوم ومدلول الأخير، وشموليته لسائر شؤون الحياة العامة، والخاصة، مما اختصت بها العديد من العلوم الإنسانية، النظرية والتطبيقية، على النحو الذي مر بنا، وهي الشؤون التي تستوعبها برامج وخطط التنمية المستدامة، فالوقوف على وقائع وأحداث حقبة زمنية ما في سائر جوانبها وتفصيلاتها، يفضي بنا بالضرورة المنهجية المتضمنة في جوهرها عنصر الموضوعية العلمية إلى تأمل واكتشاف العقل، الذي خطط وصاغ معالم واقعه، ومعرفة البواعث الكامنة وراء صياغة، وبلورة معالم ذلك الواقع، وفي أي اتجاه سار ذلك العقل، ومصادر تغذيته وإبداعه، وفق إطاره الزمني، والوصول صوب الهدف أو مجموعة الأهداف التي شكّلت ذلك الواقع، ويقود ذلك بالنتيجة إلى معرفة ما تحقق من خطط تتعلق بالتنمية ومداها الزمني، في حدود بيئة ومعطيات ذلك الزمن، ونوعية ومستوى تفكير عناصر المجتمع المنتمية إليه وحدودها المكانية، لتقف الأجيال الراهنة على ما أنجزته المجتمعات البشرية من نجاحات في الماضي، والوقوف المدرَك أمام مالم تنجزه من خطط تنموية، وتتبع أسباب وظروف عدم الإنجاز، وذلك بهدف الاستفادة من مخرجات العقل في رسم ملامح الواقع القائم، وتجاوز الإخفاقات وأوجه القصور التي أحاطت بعقلية مجتمع ذلك الزمن، عند التخطيط والتنفيذ لبرامج التنمية المجتمعية في الحاضر، والبناء عليها لتحقيق النهوض المنشود في المستقبل.

وبإلقاء نظرة سريعة على موقع اليمن الجغرافي، يتضح أهمية هذا الموقع في خدمة أهداف التنمية الاقتصادية المستدامة، إذ تقع اليمن عند الطرف الجنوبي للبحر الأحمر، وتتحكم بمضيق باب المندب، الذي بدوره يتحكم بخطوط الملاحة الدولية، ومن خلاله تعبر ناقلات النفط العملاقة، كما تطل اليمن على المحيط الهندي من الجنوب والجنوب الشرقي، ويقع على جانب منه خليج عدن. وتمتلك شواطئ تمتد بطول ألفين وخمسمائة كلم مربع، من أقصى حدود اليمن شمال غرب إلى أقصى جنوب شرق.[١٤]

هـذا الموقـع الجغـرافي المميـز لـليمن، جعلهـا تحتـل ركـيزة أساسـية في سـلّم اهتمامـات القـوى الاسـتعمارية عـلى مـر العصـور، فتكالبـت عليهـا تلـك القـوى للسـيطرة عـلى مواردهـا التجارية، والتحكم بشرايينها وممراتها البحرية، وبتجارة العالم المـارة عبرهـا، وإنشـاء قواعـد بحريـة عـلى شـواطئها وجزرهـا الكثيرة البـالغ عـددها أكثر من مئة واثني عشر جزيرة في البحر الأحمر، أهمها جـزر كمـران وأرخبيـل حنيش وزُقـر، بالإضافة إلى جزيرة سـقطرى الواقعـة جنـوب المحيـط الهنـدي. وتقـع أهميـة هـذه الجـزر مـن جوانـب عديـدة منهـا طبيعيـة واقتصـادية، وفي مقـدمتها اسـتثمار ثروتهـا المعدنيـة، والحيوانيـة، والزراعيـة، وفي مجـال السـياحة، الـتي مـن شـأنها أن تـدر عـلى الدولـة اليمنيـة عائـدات وفـيرة مـن العمـلات الأجنبيـة، إذ تمتلـك هـذه الجـزر مقومات سياحية مهمة، تتمثل في المناظر الجمالية، الناتجة عن الشعاب المرجانية الملونـة، وممارسـة رياضة الغطـس للهـواة، وفي الاسـتخدامات الطبيـة والعطريـة للأشـجار والنباتـات المختلفة، لاسيما في جزيرة سـقطرى، بالإضافة إلى الاستفادة من المواد العضوية، والترسبات المنتجة للمعادن، ذات التركيبة الكيميائية المغمورة في مياه البحر الأحمر.(١٥)

وتقع أهمية هذه الجزر أيضًا من جانب السيطرة العسكرية، فقـد سـعت تلـك القـوى مـن خـلال هـذه السـيطرة إلى إنشـاء قواعـد عسـكرية، لتـأمين خطـوط مواصلاتها التجاريـة، وحمايـة نفوذهـا الاقتصـادي والسـياسي، والـدفاع عـن مصـادر ثرواتهـا، وذلك من خلال توجيه الحملات العسكرية في الظرف والتوقيت الملائمـين، في حـال سـعت إحـدى القـوى المنافسـة إلى تهديـد مصالحها، وضـرب نفوذهـا في عمـق أقـاليم سـيطرتها، كمـا كـان عليه الحال أثناء التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا، في القرنين التاسـع عشر والعشرين الميلاديين، وهـي الفترة الـتي احتلـت فيهـا بريطانيـا عـدن، عـام ١٨٣٩م، وفرضـت حمايتهـا عـلى جميـع كيانـات الجنـوب اليمـني، وسـواحل الخلـيج العـربي، لتـأمين مصالحها، وحمايـة مكاسـبها مـن أي اعتـداء، أو هجـوم مـن قبـل فرنسا، أو أي قوة دولية منافِسة.(١٦)

وبناءً على ما سبق، فإن ثمة جوانب مشرقة لموقع اليمن الجغـرافي، يمكـن لليمنيـين الاسـتفادة منهـا في تعزيـز أواصـر علاقـاتهم المختلفـة مـع دول العـالم، وفي مقدمتها العلاقـات الاقتصادية، بما يعود بالنفع عليهم في شتى نواحي الحياة .وغني عـن البيـان، أن مـن شـأن ذلـك أن يخـدم خطـط وبـرامج التنميـة المستدامة، فالـدول المتقدمـة لاترى إلى الآخر إلا من زاوية ما يمتلكه من عناصر مادية تعزز قوته، فيغدو كياناً فاعلاً، مؤثرًا ومتـأثرًا بمحيطـه وبالعـالم بأسره. ولـيكن لنـا مـن تـاريخ الـيمن الاقتصـادي وعلاقاتهـا التجاريـة الدوليـة عـلى مـر العصـور أبـرز الشـواهد عـلى مـا حققتـه مـن ازدهـار ورخـاء، بـدأ بإنتـاج اللبـان، وتجـارة الحريـر في العصـور القديمـة، واختتامًـا بتجـارة الـبن في العصور الحديثة.

طريق اللبان (البخور)

طريق اللبانBoswellia sacra ، هـو طريق تجارة القوافل قديمًا، ومعبر تجاري دولي بين الشرق والغرب، يبدأ مـن سـواحل اليمن علي بحر العرب إلى شمال البحر المتوسط، مـرورا باليمن وجنـوب الجزيـرة العربيـة، ويتفـرع إلي طـريقين أحدهما يتجـه إلى نجد، ثم العراق وفارس، والآخر يتجه عبر شمال الجزيرة العربية إلى مدينـة البـتراء في الأردن، ومنهـا إلى فلسـطين عـلى البحـر المتوسـط.(١٧) كانت القوافـل العـابرة مـن طريـق البخـور محملة بالبخور والعطور، والتوابل، واللؤلوء، والقصدير، والمنسوجات، وريـش النعـام، وغيرهـا مـن منتجـات الشرـق إلى دول أوروبا، فـازدهرت المـدن والمحطـات التجارية الواقعـة عـلى طـول هـذا الطريق، وهـي مـدن ومحطـات تتبـع الممالـك اليمنيـة القديمـة سـبأ وقتبـان وأوسـان ومعـين وحضـرموت، وذلـك مـن خـلال الضرائب التي كان يحصـل عليها الأهـالي مـن تجارة اللبان، وقد جرى فيها تبادل المنتجات التجارية المختلفة.(١٨)

واللبـان هـو عبـارة عـن مـواد صـمغية وبلاسـم (جمـع بلسـم) طيبـة الرائحـة، مـع إضـافة عـود الصـندل وغـيره مـن المـواد العطرية. ويتم استخراجه بشق الشجرة، فتسيل منها العصارة التي تتجمد في الحال أسفل الشق. ويبدأ شق الشجرة في السنة الثالثة أو الرابعة من عمرها، وذلك خلال شهور مارس إبريل ومايو حتى موسم الحر.(١٩)

ويـذكر المـؤرخ الإغريقـي "سـترابون" إن تجارة اللبان جعلت مـن سـكان جنـوب الجزيـرة العربيـة مـن أغنى الشـعوب، مسـتدلاً على ذلك بمظاهر الأبهة التي عاشها أهل سبأ في القرن الثامن قبل الميلاد، فقد كان لديهم - بحسب وصفه - أثـاث ضخم من الـذهب والفضـة، وكانـت جـدران وأسـقف منـازلهم مزينـة مـن الـداخل بالعـاج والـذهب والفضة والأحجار الكريمة،(٢٠) كمـا ذكـر هيرودوت أن "جنوب الجزيرة العربية هي البلد الوحيد التي تنتج اللبـان والمُـر.(٢١) وقـد أثمـرت الأمـوال الناتجـة عـن تجـارة اللبـان تأسيس بعـض المـدن، وبنـاء السـدود كسـد مـأرب، واستصلاح أنظمة الري.

لقد كان اللبان يعد من أغلى السلع التي يتم تصديرها إلى مصر، وروما والهند في فترة ازدهاره منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، بل كان - وفق بعض المعلومات - السلعة الأثمن بين السلع الثلاث: اللبان والمر والذهب. وكان الرومان يطلقون على جزيرة العرب "جزيرة العطور". فقد كانت المصدر الأساسي للبان والزيوت العطرية، والطريق الذي تمر من خلاله عطور الشرق إلى أوروبا والغرب، وبسبب شهرة جنوب الجزيرة العربية بإنتاج وتصدير اللبان فقد دفع ذلك الرومان إلى غزو جنوب الجزيرة العربية، للسيطرة على مصادر تجارة اللبان وإنهاء احتكار أهالي جنوب الجزيرة لها، فقد كانت تكاليف احتكارهم لتجارته باهظة عند الرومان، وأسعاره مرتفعة، فكانت حملة "أليوس جالوس" عام ٢٤ق.م، التي فشلت في تحقيق أهدافها، وذلك لما لاقته من ظروف تضاريسية ومناخية صعبة، وانتشار الأمراض والأوبئة، وللمقاومة التي واجهتها من قبل أهالي جنوب الجزيرة.[٢٢]

كما دفعت تلك الشهرة بعض هواة الرحلات الأوربيين للقيام برحلات إلى جنوب الجزيرة العربية لكشف طريق اللبان، ففي ثلاثينيات القرن الماضي فشل الرحالة البريطاني " السير برترام توماس pertram tomas " في محاولته الكشف عن طريق اللبان، بسبب الكثبان الرملية الكبيرة، التي كشفت بعض الأقمار الاصطناعية(ناسا) عن آثار باهتة لشبكة طرقات تغطيها كثبان رملية، يصل ارتفاعها من ٢٠٠ - ٦٠٠ قدم، كما أظهرت طرقات خاصة بالحيوانات يصل عرضها إلى ١٠٠ متر، وهي مغطاة بأطنان من الرمال.[٢٣]

وقد عرفت الصين ودول الشرق الأقصى أهمية اللبان، وفوائده الطبية، فاستوردت كميات كبيرة منه، عبر موانئ عدن، وقِنا في مملكة حضرموت، والمخا، والساحل العُماني، وتفيد المعلومات الطبية بتعدد استخدامات اللبان لعلاج العديد من الحالات المرضية، كدواء لبعض حالات الحمى، والإسهال، والسعال، وبعض الحالات الرئوية الحادة، وكمرهم للقروح والدمامل، وعلاج التهاب اللثة، وتقوية الأسنان. وكعلاج للاستسقاء، والكبد، والتهابات الأذن، وبعض أمراض العين، والبواسير، وحصى المثانة، وآلام الجنب، ويوقف نزيف الدم، وطارد للبلغم، وعلاج الحكة الجلدية، والجرَب.[٢٤]

وقد اعتُبر اللبان في مناطق آسيوية عديدة مادة مقدسة، يحرم على العامة استعماله، أو حرقه خارج المعابد. ومن هذه العادة القديمة ظهرت عادة حرق البخور، التي ما تزال تمارس حتى اليوم، كجزء من الطقوس التعبدية في المعابد البوذية، والهندوسية، والكنائس والأديرة.[٢٥] واستخدم اللبان في التحنيط عند قدماء المصريين، وعند تقديم القرابين للمعبودات، وفي الطقوس الجنايزية، والأعياد الدينية، وعند تكريم الأشخاص المهمين، ثم تقديمه كهدايا ثمينة.[٢٦] ورغم توفر أنواع عديدة من اللبان منها اللبان الهندي، إلا أن أجودها هو اللبان الذي تنتجه ظفار وحضرموت وسقطرى في جنوب الجزيرة العربية، بحسب بعض المعلومات. وقد بقي الطلب على اللبان، واستمرار تجارته، رغم محدوديتها حتى العصور الوسطى.[٢٧]

وهكذا يتبين أن لتجارة اللبان أو البخور دور في ازدهار الممالك اليمنية القديمة واستقرارها الاقتصادي، وإن كان البخور في بعض الفترات سببًا للصراع والتنافس بين تلك الممالك للسيطرة على طرق تجارته، واحتكار عائداته المالية الوفيرة، وهو ما يؤكد أهمية هذه السلعة وعظم شأنها بين مختلف السلع التي كان يتاجر بها أهالي الممالك اليمنية القديمة.

طريق الحرير

الحرير هو المادة المستخرجة من دودة القَز، لصناعة المنسوجات الحريرية المتنوعة الأشكال والأحجام. عرف الصينيون الحرير وبرعوا في صناعته منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد على وجه التقريب،[٢٨] وقد استفادت اليمن من "طريق الحريرSilk Road "، خلال الألف الأول قبل الميلاد، فقد شكّل طريق الحرير البحري شريانًا حيويًا ربط الصين ببلاد العرب، ومنها موانئ جنوب الجزيرة العربية وشرقها المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وكان التجار اليمنيون يحملون منتجات بلدهم من البخور واللبان والعطور إلى الموانئ الهندية، ويعودون منها إلى اليمن محملين بالسلع الصينية والهندية وأهمها الحرير.[٢٩]

وطريق الحرير هو تعبير أطلقه جيولوجي ألماني يدعى "فردينان فون ريتشهوفن" في القرن التاسع عشر، وهو عبارة عن شبكة طرق برية وبحرية، تمتد وفق بعض التقديرات بطول اثني عشر ألف كيلومتر، ربطت آسيا وبلدان الشرق الأوسط وأوروبا لمئات السنين بروابط تجارية، وثقافية ودينية، وفلسفية، تم من خلالها تبادل السلع والمنتجات، كالحرير، والعطور، والتوابل، والمنسوجات، وكذلك تبادل الثقافات والعلوم، فازدهرت المدن والموانئ الواقعة على طول طريق الحرير، ومنها الموانئ والسواحل اليمنية، وتحولت إلى مراكز تجارية.[٣٠]

وقد أطلق الرئيس الصيني "شي جين بينغ "على مشروع إحياء طريق الحرير مصطلح "الحزام والطريق"، وذلك في خطاب ألقاه في كازاخستان عام ٢٠١٣م، بوصفه الحزام الذي سيربط موانئ جنوب وشرق آسيا وأفريقيا، وصولاً إلى بحار قزوين، والأسود والمتوسط، ويتعدى ذلك إلى دول البحر الكاريبي. وربط "بينغ" مشروع إحياء طريق الحرير بطريق البخور، وذلك لأهميتهما الاقتصادية للدول المطلة على الطريق،(٣١) ووفق بعض الدراسات فقد حقق السبئيون في القرن الثامن قبل الميلاد أرباحًا طائلة من تجارة الحرير التي كانت تمر عبر أراضيهم، وكانوا يحتكرون تجارتها مع البخور والسلع الأخرى،(٣٢) ما يؤكد جدوى استفادة اليمن من إحياء هذا الطريق البحري في التنمية الاقتصادية المستدامة.

ويصف "جين بينغ" هذا الطريق بأنه حزام ذو ملامح اقتصادية بمضمون سياسي، وذلك في إطار التنافس بين الصين والهند، وبين الصين وروسيا، وبين الصين والدول المشاطئة لبحر الصين الجنوبي، التي تتنامى مخاوفها من تغلغل النفوذ الصيني، وتوسعه في مناطق نفوذها التقليدية، في آسيا وأفريقيا.(٣٣)

وطبقًا لـ "بيتر فرانكوبان" فإن تحديات كثيرة تواجه دول طرق الحرير، مثل: الأمن، والسلام، والمياه، والتلوث البيئي، وحقوق الإنسان. وهو ما يستلزم العمل على معالجة هذه الإشكالات، بغية إنجاح مشروع طرق الحرير،(٣٤) وهو ما يهدف إليه مشروع طريق الحرير، في سياق الاستثمار في البنى التحتية والتنمية الاقتصادية، والاجتماعية لسائر الدول المطلة على الطريق،(٣٥) إذ ستبلغ معدلات الإنفاق في مشروعات التنمية في هذه الدول وفق بعض التقديرات نحو ١١٠ مليار دولار سنويًا، خلال الأعوام القليلة المقبلة، منذ أن تم الشروع في تنفيذ واستكمال المشروعات المخططة، بدءًا من العام ٢٠١٣م على الأرجح.(٣٦)

وفي سياق الأهداف التي تزمع مبادرة الحزام والطريق تحقيقها، يذكر بعض الباحثين أن الصين تسعى لتشتيت القوة الاقتصادية والسياسية الأمريكية، وتقليص قدرتها على الهيمنة في أي من الفضاءات الإقليمية، أو الوظيفية، التي تتعارض فيها مصالحها مع المصالح الصينية في آسيا وأفريقيا على وجه التحديد، فضلاً عن تعزيز نفوذ الصين الاقتصادي على طول طريق الحرير، التي يتم تطويرها في إطار تلك المبادرة، بالإضافة إلى محاولة الصين تأسيس نمط إمبراطوري توسعي جديد، يقوم على تعزيز نفوذها وهيمنتها، عبر آليات التشارك الاقتصادية والتنموية. وهي تهدف بهذه المبادرة أيضًا إلى استدامة التعاون والشراكة بين الصين والدول المشاطئة لطرق الحرير.(٣٧) وفي ذات سياق مشروع الصين الطموح لإحياء طريق الحرير، فقد تم رسم خط بري يمر بباب المندب عند سواحل اليمن ثم عبور قناة السويس المصرية.

والبلاد العربية التي حققت فوائد اقتصادية من طريق الحرير القديم بما فيها اليمن مطالَبة اليوم بأن تكون في قلب الطريق الجديدة البرية والبحرية، التي تتبنى الصين مشروع إحيائها، عبر ربط جنوب وغرب آسيا بآسيا الوسطى وتركيا وروسيا، والتي تعيد تشكيل جزء مهم من خريطة العالم وفق تقدير البعض.(٣٨) وعلى وجه التحديد إعادة الدور التجاري المزدهر لميناء عدن، كما كان عليه في العصور القديمة والوسطى، فقد كان لموقع عدن عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر دور كبير في التبادل السلعي التجاري بين الشرق والغرب، ولم يكن تجار الصين والهند، والأوروبيون، والفرس والأتراك، والأفارقة والعرب يتعدونه إلى مراكز تجارية أخرى، كميناءي جدة وينبع، وموانئ ساحل شرق أفريقيا، والخليج العربي المطلة على البحر الأحمر، وهي الموانئ القريبة من ميناء عدن، بل كانت السفن تنقل سلعهم من عدن إلى شرق آسيا، ومن موانئ البحر الأحمر إلى الموانئ المصرية والشامية ومنها إلى الأسواق الأوروبية. وكانت تتوافر في ميناء عدن السلع المختلفة، كالتوابل، والحديد، والنحاس، والزئبق، والمرجان، والملابس الصوفية والقطنية، والحريرية، والعقاقير، والتوابل، والسكر، والأرز، وجوز الهند، واللبان الجاوي، وخشب السند، وعود النَّد، والمِسك. وكان حكام عدن الطاهريون يحصلون على ضرائب ورسوم جمركية وفيرة، مكنتهم من إدارة ميناء عدن، وتلبية جزء كبير من متطلبات دولتهم، قبل تحول طرق التجارة العالمية القديمة، - التي كانت تشرف عليها القوى العربية - على أيدي الرحالة البرتغاليين عام١٤٩٧م من البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وصولاً إلى مصادر إنتاج التوابل في الهند، فقد كان الطلب على التوابل ملحًّا من قبل الأغنياء والأشراف ورجال الدين الأوروبيين، لاستعمالها في تحسين مذاق الأطعمة، وفي حفظها، ولدخولها في صناعة العقاقير الطبية، وصنع النبيذ، فكانت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية. وقد ربط طريق رأس الرجاء الصالح تجارة الهند ودول شرق آسيا بأوروبا على نحو مباشر، وبأقل التكاليف.(٣٩)

تجارة البن

وخلال العصر الحديث، وتحديدًا فترة مابين القرنين ١٧ و ١٩م عَرف العالم البن اليمني، الذي تُرجع بعض الدراسات اكتشافه في اليمن إلى القرن الثالث عشر الميلادي، على يد الشيخ الصوفي علي بن عمر الشاذلي،[٤٠] وبعضها ترجع تاريخ زراعته وانتشاره إلى القرن السادس عشر الميلادي،[٤١] وهو الأرجح بالنظر إلى اتساع نطاق تجارته، وبلوغ أوجها في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وقد طغت شهرة البن على كل السلع والمنتجات العالمية، كأهم سلعة تجارية ونقدية في ذلك الحين، ويمكن القول إنه تحقق لليمن قدر لا بأس به من الاكتفاء الذاتي من وراء تجارته الدولية، التي كانت تدر عليها عائدات وفيرة، شكّلت يومها رافدًا رئيسًا لخزينة الدولة، سواء في ظل الحكم العثماني (١٥٣٨ - ١٦٣٥م)، أو في عهد الإمامة القاسمية (١٦٣٥ - ١٨٧٢م)، وذلك منذ أن اضمحلت عائدات تجارة الموانئ اليمنية، بعد تغيير طرق التجارة العالمية كما أشرنا.

ومن خلال الأرقام التقريبية التي سجلتها لنا بعض الدراسات التاريخية، يتبين أن البن كان أهم سلعة تجارية مربحة بين السلع اليمنية المصدرة عام ١٧٦٢م (في عهد الإمام المهدي عباس بن الحسين)، وهي على النحو التالي:

-إيرادات ميناء المخا في أشهر أبريل - يوليو ٧٠٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات المخا في الأشهر الأخرى ٤٠٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات ميناء اللحية خلال الأشهر من أبريل إلى يونيو ٣٠٠٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات اللحية في الأشهر الأخرى ٢٠٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات بيت الفقيه ٣٦٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات الحديدة ١٤٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات حراز ١٥٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات حُفاش ١٢٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات زبيد ١٤٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات الجُبّى و رَيْمة ٢٤٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات كُسْمَة ٤٠٠٠ ريال شهريًا.

-إيرادات الحَيْمَتين ١٠٠٠٠ ريال شهريًا.[٤٢] ورغم أنها أرقام تقريبية كما سبقت الإشارة، إلا أنها توضح أولوية وأهمية وحجم تجارة البن وفق سعر صرف العملة الريال الفضي (ماريا تريزا) الذي كان يعد العملة الرئيسة المتداولة في الحركة النقدية التجارية، ويتفرع منه عملات أصغر كالبقشة والحرف والخماسي والكبير والباولة.[٤٣]

وقد انعكس جزء كبير من عائدات تجارة البن على العديد من مظاهر البنية التحتية للاقتصاد اليمني أثناء حكم الأئمة من آل القاسم، فاختطت المدن، مثل مدينة الغراس الواقعة شمالي صنعاء التي كانت عاصمة لحكم الإمام المهدي أحمد بن الحسن(١٦٧٦ - ١٦٨١م)، ومدينة معبر التي اختطها الإمام المؤيد محمد بن إسماعيل(١٦٨١ - ١٦٨٥م)، ومدن الخضراء ومسعدة والمواهب التي كانت جميعها عواصم لدولة الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن (١٦٨٥ - ١٧١٨م)، وجرى تحصين بعض الموانئ المهمة كمينائي المخا وعدن، وتشييد الدور والقصور والمساجد،[٤٤] وإنشاء وترميم بعض الدوائر الحكومية، وشق القنوات وعمارة البِرَك وحفر الآبار وشق وتوسيع بعض الغيول وبناء وترميم الحصون والقلاع وأسوار المدن الرئيس،[٤٥] لاسيما في فترة حكم الإمام المنصور علي بن المهدي عباس (١٧٧٥ - ١٨٠٩م) الذي اشتهر ببناء العديد من القصور داخل صنعاء وضواحيها كبئر العزب والروضة.[٤٦]

وتشير الدراسات التاريخية إِلَى أن شهرةَ البن اليمني تعود إِلَى جودته العالية مقارنة بأنواع البن المنتجة في العالم، مما ضاعف الطلب عليه والمنافسة بين شركات الهند الشرقية البريطانية والفرنسية والهولندية لاستيراده خلال الفترة من ستينيات القرن السابع عشر وحتى خمسينيات القرن الثامن عشر، فقد بلغ المعدل السنوي لاستيراد البن من قبل شركة الهند الشرقية البريطانية في النصف الأول من القرن الثامن عشر أكثر من مليون باوند،[٤٧] وقبل ذلك بلغ أعلى إنتاج للبن اليمني عام ١٧٢٦م، بعد أن أنشأ الهولنديون مصنعًا للبن في منطقة المخا عام ١٧٠٨م،َ وقيامهم بتصديره. كما أنشأ الفرنسيون مصنعًا آخر في منطقة المخا عام ١٧٠٩م.

وَخلال تلك الفترة شهدت موانئ المخا والحديدة وَاللحية وجيزان حركة كبيرة لتجارة البن،[٤٨] استمرت حتى نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وكان من نتائج ازدهار تجارة البن في هذه الموانئ أن أغرت محمد علي باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٦م) بالتقدم بقواته من الحجاز بعد أن قضى على الدولة السعودية الأولى ١٨١٨م صوب الموانئ اليمنية للسيطرة عليها واحتكار تجارة البن التي كانت تدر على الخزينة المصرية أرباحًا جيدة، عدا عن الكمية المقررة من البن التي كانت تصل عن طريق محمد علي إلى مطابخ السلطان العثماني في إسطنبول، غير أن الإنجليز فوّتوا عليه فرصة استمرار احتكار تجارة البن باحتلالهم

لميناء عدن في ١٩ يناير ١٨٣٩م كما سبقت الإشارة، وإجباره على الانسحاب من الموانئ اليمنية، بموجب اتفاق لندن مع السلطان العثماني عام ١٨٤٠م، ومن ثم احتكارهم تجارة البن وتحويلها من المخا والحديدة إلى عدن.[٤٩]

ووفقًا للمعطيات العلمية فَإن زراعة وإنتاج اليمن من البن بدأ بالتراجع التدريجي منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ بسبب انتقال شجرة البن إلَى مناطق أُخْرَى من العالم كالمستعمرات الهولندية في شرق آسيا، إضَافَة إلَى الوضع السياسي المضطرب بسبب صراعات أئمة آل القاسم على السلطة، وما نتج عن هذه الصراعات من عودة الحكم العثماني إلى الأجزاء الشمالية من اليمن (١٨٧٢ - ١٩١٨م)، وبسبب قطع أشجار البن واستبدالها بشجرة القات، إضافة إلى تأثير الظروف الطبيعية كالجفاف والجراد والأوبئة الزراعية المختلفة.[٥٠] وكانت الأَرْقام الإحصائية - وفق بعض المصادر - قد أشارت قبل ذلك إلى أن صادرات البن اليمنية للعالم وصلت في بداية القرن الثامن عشر إلَى ما يقارب عشرين ألف طن في العام، وهو ما يشير إلَى أن المساحات المزروعة آنذاك كانت أَكْبَر من المساحة المزروعة في الزمن الراهن، ويشير بالتالي إلى تحقق قدر كبير من التنمية الاقتصادية والاجتماعية لليمن في ذلك الحين. ولعلنا لا نبالغ في القول إن أهمية وحجم عائدات تجارة البن اليمني آنذاك تضاهي أهمية وعائدات النفط في التاريخ المعاصر.

ووفقًا للتقارير والنشرات الصادرة من الجهات الرسمية أواخر تسعينيات القرن العشرين فإن تراجع إنتاج زراعة البن في اليمن يرجع إلَى نُدرة المياه، وتخلُّف الأساليب المعتمدة في زراعته، وقِدم عُمر الأشجار وتخلف أساليب التسويق والتصدير، وهو ما قلّل إلى حد كبير من الأَهَمِية الاقْتصادية للبن لدى معظم المزارعين وألجأهم إلى زراعة بدائلَ أُخْرى، أهمها التوسع في زراعة القات،[٥١] الذي بدأ ينافس زراعة البن منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفق ما لاحظه بعض الرحالة الأوروبيين، وذلك لارتفاع سعره وملائمة الظروف البيئية لزراعته كما هو الحال بالنسبة لزراعة البن،[٥٢] وقد الْتهم القات مساحاتٍ زراعيةً كبيرة على حساب المحاصيل الزراعية المختلفة، ومنها شجرة البن التي تكاد تندثرُ من بعض المناطق التي اشتهرت بزراعته خلال القرون الماضية.[٥٣]

خَاتِمَةٌ

وهكذا نخلص مما تقدم إلى أن لدراسة التاريخ أهمية كبيرة للتنمية الاقتصادية المستدامة في جانبها التجاري، وذلك على النحو التالي:

أوضح البحث بدايةً أن التنمية المستدامة تشتمل على نشاط جامع شامل للأفراد في سائر قطاعات العمل، سواء في مؤسسات الدولة، أو في منظمات المجتمع المدني.

واتضح أن قيام الحضارات ودور الإنسان في نشأتها، مع إسهام كافة العلوم الإنسانية في صناعتها والتوثيق التاريخي لها، من شأنها مجتمعة أن تصب في بوتقة التنمية المستدامة، التي تُعنى بمنفعة الفرد والمجتمع على حد سواء.

تبين أن من شأن دراسة تجارب الإنسان في الماضي أن تكسب الدارس المعاصر وعيًا يحصنه من الوقوع فيما وقع فيه الأقدمون من أخطاء وتجاوزات، ويعزز إدراكه بضرورة تجاوزها، والتخطيط السليم للتنمية الفردية والمجتمعية في الحاضر والمستقبل.

وتبين أن لتجارة اللبان والبخور التي تنافست عليها الممالك اليمنية، وأغرت الرومان لمحاولة السيطرة على مصادرها واحتكار تجارتها دور في ازدهار اليمن قديمًا، وذيوع شهرتها خارجيًا، وقد حقق اللبان آنذاك العديد من الفوائد الطبية، وفي طقوس الجنائز على النحو الذي مر بنا، وهو ما يدعو المؤسسات الحكومية والأهلية اليوم إلى ضرورة الاعتناء بهذه الشجرة كمحصول نقدي، والعمل على تنميتها، والتوسع في زراعتها وإعادتها لتتبوأ ما كان لها من شهرة ودور تجاري في القِدم.

اتضح أن موقع اليمن في الجنوب الغربي من قارة آسيا ووقوعها على طريق الحرير البحري القديم الذي يربط شرق آسيا بآسيا الوسطى وإيران قد أسهم في نمو حركة التبادل السلعي التجارية في ميناء عدن والموانئ اليمنية الواقعة على البحر الأحمر، واجتذبت إليها التجار من جنوب شرق آسيا، وبلاد فارس، وآسيا الصغرى، وأوروبا، والعرب، ومن شأن مشروع إحياء طريق الحرير القديم الذي تتبناه الحكومة الصينية اليوم أن يعيد هذا الموقع إلى الصدارة، وتفيد منه اليمن في تحقيق مستوى من التقدم والنهوض الاقتصادي، ومقاربة ما كان عليه الحال في الماضي

وأخيرًا أبان البحث عن الأهمية الاقتصادية الكبيرة التي حظي بها البن اليمني، بوصفه أهم سلعة تجارية نقدية في مطلع التاريخ الحديث، وقد ضاهت أهميته آنذاك أهمية النفط في واقعنا المعاصر، فمن خلال البن عرف العالم اليمن، وطغت

شهرته، لجودته وحسن مذاقه، وتحقق لليمن جانبًا غير قليل من الرخاء الاقتصادي، وكان محصول البن يعد الرافد الأكبر الذي رفد خزينة الدولة اليمنية خلال حكم الأئمة القاسميين، إلى جانب عائدات الضرائب والمكوس التجارية الأخرى في الموانئ اليمنية، والأسواق الداخلية، وبسبب طغيان شجرة القات على شجرة البن في المرحلة المتأخرة فقد تراجع إنتاج اليمن من البن، ففقدت البلاد أهم مورد مالي، وتراجعت من ثم شهرتها التجارية في الوقت الحالي مقارنة بما كانت عليه بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الميلاديين أثناء اشتداد المنافسة بين الشركات الأوروبية على احتكار تجارته واستيراده، إضافة إلى انتشار زراعته في بعض دول جنوب شرق آسيا، غير أن العودة إلى الاهتمام بشجرة البن، وتوسيع مساحات الأراضي الصالحة لزراعته، وتشجيع المزارعين على زراعته، وتوفير الإمكانات المالية والمتطلبات اللازمة لنموه وتحسين ظروف إنتاجه من شأنها جميعًا أن تعيد لليمن ما كان لها من شهرة ودور تجاري عالمي، بما يحقق القدرة على تنفيذ برامج وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة.

الاحالات المرجعية:

(١) http://mthmm.blogspot.com/p/blog-page_2823.html?m=1

(٢) https://www.startimes.com/?t=21767997

(٣) https://hashim343434.wordpress.com/2018/04/16/

(٤) https://hashim343434.wordpress.com/2018/04/16/

(٥) صبحي، أحمد محمود: **في فلسفة التاريخ**، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥م، ص٢٥٩ - ٢٦٥.

(٦) صبحي: **في فلسفة التاريخ**، ص٨٨.

(٧) صبحي: **في فلسفة التاريخ**، ص٢٥٩.

(8) "Development", dictionary.combridge.org, Retrieved 30 - 3 - 2019. Edited

(٩) أيسيسكو، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة: **العالم الإسلامي والتنمية المستدامة**، جوهانسبرج ٢٦ أغسطس - سبتمبر ٢٠٠٢م، مؤتمر القمة العالمي للتنمية المستدامة، الرباط، المملكة المغربية، ص١٣٩.

(١٠) أبو النصر، مدحت: **التنمية المستدامة مفهومها - أبعادها- مؤشراتها**، القاهرة، المجموعة العربية للتدريب والنشر، ٢٠١٧م، ص٧٨ - ٨٥.

(١١) السعدي، محمد يحيى: **الفساد والتنمية**، صنعاء، مركز عبادي للنشر، د.ت، ص ٥١ – ٥٢.

(١٢) أيسيسكو: **العالم الإسلامي والتنمية المستدامة**، ص١٢٥ - ١٤٥، ٢٣٩ - ٢٤٠.

(١٣) أبو النصر: **التنمية المستدامة**، ص٨٣ - ٨٤.

(١٤) أباظة، فاروق عثمان: **عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦م، ص١٤٠ - ١٤١.

(١٥) عباس، شهاب محسن: **الجزر اليمنية**، صنعاء، مركز عبادي للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٨، ٦٨ - ٧٠.

(١٦) Gavin, R.J: Aden under British Rule 1839 - 1967, London, 1975, p:44 - 47.

(١٧) عبد المولى، أسامة محمد: **تجارة البخور في جنوب الجزيرة العربية في القرن العاشر حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد**، رسالة ماجستير غير منشورة، مصر، جامعة الزقازيق، ٢٠١٣م، ص٤٩ - ٥٢.

(١٨) العمري، هادي صالح: **طريق البخور القديم من نجران إلى البتراء والآثار الاقتصادية عليه**، صنعاء، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤م، ص١٤٥ – ١٥٦.

(١٩) عبد المولى: **تجارة البخور**، رسالة ماجستير، ص١٧ - ٢٢

(٢٠) عبد المولى: **تجارة البخور**، رسالة ماجستير، ص٤٣.

(٢١) عبد المولى: **تجارة البخور**، رسالة ماجستير، ص٢٠.

(٢٢) عبد المولى: **تجارة البخور**، رسالة ماجستير، ص٨٧ - ٨٩.

(٢٣)http://www.alshindagah.com/novdec03/shindagah-arabic/٥٥AL-BAN.htm

(٢٤) عبد المولى: تجارة البخور، رسالة ماجستير، ص٢٣.

(٢٥) http: //www.al-hakawati.net/arabic/souk9.asp

(٢٦) عبد المولى: تجارة البخور، رسالة ماجستير، ص٢٣.

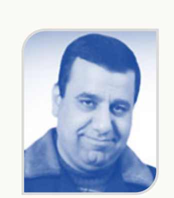
(٢٧) http: //www.alshindagah.com/novdec03/shindagah-arabic-55/AL-BAN.htm

(٢٨) الصايدي، أحمد قايد: **الصين والبلاد العربية تواصل عبر التاريخ - اليمن مثالاً**، ورقة مقدمة إلى ندوة العلاقات العربية الصينية التي نظمها منتدى التعاون العربي الصيني في مقاطعة شنجيانج، ٢٧، ٢٨ يونيو ٢٠١٣م، ص٢٤.

(٢٩) الصايدي: **الصين والبلاد العربية**، ص٢٤.
(٣٠) الصايدي: **الصين والبلاد العربية**، ص٢٤.
(٣١) حمشي، محمد: **التقارب المراوغ - هل تقوض مبادرة الحزام والطريق الفناء الخلفي لروسيا**، طريق الحرير، مجلة السياسة الدولية، العدد ٢١٤، المجلد ٥٣، أكتوبر ٢٠١٨م، ص١١.
(٣٢) عبدالمولى: **تجارة البخور**، رسالة ماجستير، ص٧٤.
(٣٣) عوني، مالك: **هل تؤسس طرق الحرير لصعود إمبراطورية صينية أم لأفولها**، طريق الحرير، مجلة السياسة الدولية، المجلد ٥٣، أكتوبر ٢٠١٨م، العدد ٢١٤، ص٤.
(٣٤) عرب، إبراهيم: **إلى الصين لا إلى روما طرق الحرير المعكوسة** http://www.aljazeera. net
(٣٥) الهواسي، نادية: **نظام عالمي بديل**، طرق الحرير، مجلة السياسة الدولية، المجلد ٥٣، أكتوبر ٢٠١٨م، العدد ٢١٤، ص١٨.
(٣٦) عوني: **هل تؤسس طرق الحرير لإمبراطورية صينية أم لأفولها**، مجلة السياسة الدولية، المجلد ٥٣، أكتوبر ٢٠١٨م، العدد ٢١٤، ص٤.
(٣٧) عوني: **هل تؤسس طرق الحرير لإمبراطورية صينية أم لأفولها**، مجلة السياسة الدولية، المجلد ٥٣، أكتوبر ٢٠١٨م، العدد ٢١٤، ص٤.
http:alharf28.com/home(٣٨)
(٣٩) فهمي، نعيم زكي: **طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٣م، ص١٣٦ - ١٣٩، ١٩١ - ١٩٢.
(٤٠) الصفواني، رياض محمد: **تعز في عيون الرحالة في العصر الحديث ١٧٦٢ - ١٩٦٢م**، المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب، جامعة تعز، ومؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز عاصمة اليمن الثقافية على مر العصور ٢٥ - ٢٧ مايو ٢٠٠٩م، ج٣، تعز، النيل للطباعة الحديثة، ٢٠١٠م، ص٩١٥.
(٤١) هدهود، ناجي عبد الباسط: **الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تعز في العهد العثماني**، المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب، جامعة تعز، ومؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، تعز عاصمة اليمن الثقافية على مر العصور ٢٠٠٩م، ج٣، ص٧٥٧.
(٤٢) الخطابي، أروى أحمد: **تجارة البن اليمني**، صنعاء، المتحدة للطباعة، ط١، ٢٠١٠م، ص٩٣ - ٩٤.
(٤٣) الصفواني، رياض محمد: **موقف العلماء اليمنيين من سياسة أئمة الدولة القاسمية**، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١، ٢٠١٥م، ص١٠٨ - ١٠٩.
(٤٤) زبارة، محمد محمد: **نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر**، بيروت، دار العودة، د.ت، ص٢٨٢ - ٢٨٣.
(٤٥) الجرموزي، مطهر محمد: **تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار**، تحقيق: عبدالحكيم الهجري، مج١، صنعاء، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٠ - ٧١.
(٤٦) جحاف، لطف الله أحمد: **درر نحور الحور العين في سيرة المنصور علي ورجال دولته الميامين**، صنعاء، وزارة الثقافة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٣٦ - ٣٣٨.
(٧٤) الخطابي: **تجارة البن**، ص١٤٩.
(٤٨) الخطابي: **تجارة البن**، ص٥٢ - ٦٦.
(٤٩) مجهول المؤلف: **حوليات يمنية**، تحقيق: عبد الله الحبشي، صنعاء، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩١م، ص٣٧. وانظر: رمضان، صالح محمود: ذكريات الشوكاني-رسائل المؤرخ محمد بن علي الشوكاني، بيروت، دار العودة، ١٩٨٣م، ص١٧٥ - ١٧٧.
(٥٠) الخطابي: **تجارة البن**، ص١٨٨ - ١٨٩.
(٥١) الخطابي: **تجارة البن**، ص١٩٠.
(٥٢) الصفواني: **تعز في عيون الرحالة**، المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب، جامعة تعز، ومؤسسة السعيد للعلوم والثقافة ٢٠٠٩م، ج٣، ص٩١٥.
(٥٣) الخطابي: تجارة البن، ص١٨٨ - ١٨٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

تاريخ دراسة الحركة البراونية
ومعرفة العلماء العرب بها



د. سائر بصمه جي
دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية
باحث في تاريخ العلوم العربية
حلب – الجمهورية العربية السورية

مُلَخّصْ

بعيدًا عن التصوّر المجرّد للذرات الذي اقترحه الفلاسفة، كان لابد من تقديم دليلٍ على وجود الذرات. ولم يكن لمفهوم (الهيولى والصورة) الأرسطي أن يساعد في تقديم الدليل بشكلٍ كافٍ، فالشخص العادي يعلم أن الهيولى الخاصة بكرسي الخشب قد جاءت من الخشب الخام قبل تصنيعه، لكنه لا يملك القدرة على رؤية الذرات التي يتكون منها الخشب، وكذلك الحال مع المواد السائلة والغازية. لذلك كان (الهباء) أو (حبيبات الغبار الدقيقة جدًا) المتناثرة في الهواء أفضل وأقرب مثال يمكن الاستعانة به لتوضيح مفهوم الذرات للناس. وبذلك لم يعد مفهوم (الذرة) أسيرًا للحدس المجرّد حتى وإن كان منطقيًا وواضح التصوّر. نتتبع في هذا البحث التاريخي مراحل تطور ظاهرة الحركة البراونية Brownian Motion التي تحدث في الأوساط السائلة والهوائية، وكيف أن للعلماء العرب إسهامات في رصدها تستحق أن توضع في مكانها في تاريخ العلوم العام. في الواقع ليس بين أيدينا من الأدلة الكافية التي تمكننا الجزم بمسألة تأثر العلماء الأوربيين بما طرحه العلماء العرب عن الحركة البراونية، لذلك من المرجح أنه قد أعيد اكتشافها عندما توفرت لهم وسائل وتقنيات حديثة. لكننا استطعنا في هذا البحث الكشف عن عددٍ من النصوص التي تثبت معرفة العلماء العرب بظاهرة الحركة البراونية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٣١	يوليو	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٥	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الحركة البراونية؛ الذرة؛ الهواء؛ الغبار؛ تاريخ العلوم

معرِّف الوثيقة الرقمي 10.21608/KAN.2022.296768 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سائر بصمه جي، "تاريخ دراسة الحركة البراونية ومعرفة العلماء العرب بها".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٣٣ – ٣٩.

Corresponding author: saerbasmaji@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يمتاز الهباء بأنه يأخذ حالة مادية متوسطة بين الحالتين السائلة والصلبة، ويمكن أنْ يشكّل دليلًا محسوسًا بالبصر يمكن أن يُعتمد من قبل أصحاب النظرية الذرّية[١]. ونظرًا لهذه الحالة التي يتمتع بها الهباء فقد أمكن اعتباره الجزء النهائي المنفصل عن المادة (والذي لا يتجزأ)، وقد تكون جسيماته متجانسة في الشكل والحجم كما سبق وافترض ديموقريطس، ويعبّر بشكل لا ريب فيه عن حرية الحركة (أو الانحراف) التي قال بها فيما بعد أبيقور ولوكريتوس. وقد استعان المقتنعون بالنظرية الذرية من العلماء العرب بحركة الهباء في الهواء واستدلوا بها على وجود الذرات أيضًا.

تدرج دراسة هذه الظاهرة اليوم تحت مسمى الحركة البراونية Brownian Motion، نسبةً إلى معيد اكتشافها عالم النبات الإسكتلندي روبرت براون (توفي ١٨٥٨م) R. Brown في عام ١٨٢٧م.[٢] وهي ظاهرة عشوائية مضاعفة، حيث إن مسار الجسيم المعلّق يكون عشوائيًا بسبب التقلبات Fluctuations العشوائية غير القابلة للتنبؤ بسرع الجزيئات المجاورة لها إلا بشكل وسطي. وتستخدم دراسة الحركة البراونية اليوم في اختراع طرائق رياضياتية مهمة في الدراسة العامة للعمليات الاحتمالية. كما طُبقت هذه الطرائق على التحكم في التشويش الكهرطيسي، وأسهمت في فهم ديناميكا تحشّد النجوم، وتطور النظم البيئية وحركة أسعار أسهم الشركات. وقد كانت الملهم للباحث بينوا ماندلبروت B. Mandelbrot في اكتشاف الخاصة الأساسية للأجسام الهندسية التي أسماها بالكسوريات أو المتجزئات Fractals.[٣]

سنتعرف في هذا البحث على مراحل الاهتمام بتطور وتفسير هذا النوع من الحركات الجسيمية الدقيقة، والمرئية في الوقت ذاته، والتي برهنت بشكليها الهوائي والسائل في البرهنة على وجود الذرات وأن العلماء العرب قد كان لهم إسهامات فيها.

أولاً: اليونانيون والرومانيون

تصور الفلاسفة اليونانيين والرومان الذرات، وقد طوروا الفكرة بتفصيل كبير. إذْ وفقًا لليوسيبوس وديموقريطس فإنّ ذرات الهواء تتحرك في كل الاتجاهات، وهي تغيّر طرقها من حين لآخر عندما يصدم بعضها بعضًا[٤]. وقد وثق لنا لوكريتوس في قصيدته (حول طبيعة الأشياء) المثال الشهير الذي وصله عن اليونانيين الذريين، وهو حركة الهباء، حيث قال: "فقط استعمل تدقيقك عندما ينفذ ضوء الشمس وأشعتها إلى غرفة مظلمة وينتشران عبرها: سترى ذرات دقيقة كثيرة تمتزج في نواحي كثيرة في كل مكان من الفراغ في ضوء الأشعة نفسه، وكما كانت في تلاطم أبدي فإنها تشق طريقها بجهد وتقاتل وتكافح في جماعات دون أي توقف مؤقت، تدفع هنا وهناك بتصادمات وافتراقات متكررة، إلى حد أنه، يمكنك أن تحدس من هذا لماذا تكون البدايات الأولى للأشياء تقذف دائمًا هنا وهناك في الفراغ الواسع"[٥].

ثانيًا: العلماء العرب والمسلمين

من أبرز المسائل التي استندت إليها المعتزلة في إثبات حدوث العالم كانت مسألة حركة الأجسام والعالم. وقد جعلوا الحركة والسكون من الأوصاف الطبيعية للجوهر الفرد (الذرة) حتى يتأتى منه تكوّن الأجسام[٦]. وقد استعانوا كثيرًا بمثال حركة جسيمات الهباء في الهواء، التي تكشف عنها أشعة الشمس عندما تسقط عليها. لكن قبل المعتزلة سنجد أن عالم الكيمياء البارز جابر بن حيان، كان أول من درسها.

من الناحية اللغوية؛ أورد أبو هلال العسكري (توفي ٣٩٥هـ/١٠٠٥م) تعريفه للهباء بقوله: "الهبوة غبار ساطع في الهواء، كأنه دخان. والجمع هبوات. وهبا الرماد يهبو، إذا اختلط بالتراب وهمد. وتراب هاب. والهباء دقاق التراب، ساطعه ومنثوره على وجه الأرض. والهباء المنبث ما نراه في ضوء الشمس في البيت"[٧].

٢/١-جابر بن حيان (القرن ٣هـ/٩م)

في الواقع بعد أن قرأت عن الحركة البراونية تساءلت: ألا تشكل حركة الهباء في الهواء شكلًا من أشكال الحركة البراونية؟ وهل ثمة دليل على أن العلماء العرب قد عرفوها؟ وبقيت الإجابة (بنعم) بعيدةً عني حتى عثرت على نص لجابر بن حيان يشير إلى أنه قد لاحظها فعلًا، وهي ملاحظة لا تختلف كثيرًا عن ملاحظة روبرت براون إلا في حالة الوسط وجهاز المراقبة، كما هو موضح في جدول المقارنة الآتي:

	جابر بن حيان (القرن ٩م)	روبرت براون (القرن ١٩م)
حالة الوسط	غازية	سائلة
أداة المراقبة	العين	المجهر
وسيط المراقبة	الضوء	الضوء
الربط مع النظرية الذرية	قام بربطها مع النظرية الذرية، معتبرًا أنها أساس كل شيء.	لم يقم بربطها مع النظرية الذرية، لعدم درايته بحقيقتها.

لقد لاحظ جابر حركة الهباء في أشعة الشمس وهو ما أطلق عليه اصطلاحًا اسم (الجوهر) أي الذرّة، ويعرفنا به قائلًا: "فأما الجوهر –عافاك الله- فهو الشيء المملوء به الخلل وهو المشكل بكل صورة وفيه كل شيء ومنه كل شيء يتركب وإليه ينحل كل شيء. وإن كنت لا تعلم ما هو من هذا القول فهو الهباء ولونه إلى البياض ما هو، فإذا وقفت عليه الشمس انقدح وظهر"[٨].

وبحسب المنطق الجابري فإن الهباءة الواحدة هي جزء مادي أساسي تُصْطنع المادة من تراكبه وتتحلل بتفككه، وهي تتحركُ حركةً عشوائية للجسيمات عندما تكون معلقة في الهواء. وبذلك فإن جابر اعتبر أن الهباء الجوي هو أصغر جزء في المادة، وليس كما كان شائعًا في زمانه أو قبله أن الذرة هي ما يعادل حبة الخردل أو غيرها. ونلاحظ هنا أنه لم يناقش مسألة انقسامها من عدمه، بل اعتبرها وحدة أساسية قائمة بذاتها. متجنبًا الخوض الكلامي في ذلك.

٢/٢-إبراهيم النظّام (القرن ٣هـ/ ٩م)

يذكر عمرو بن بحر الجاحظ (توفي ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) قولًا لرئيس المتكلمين، ولم يحدد اسمه، لكني توصلت إليه من خلال سياق النص، بأنه إبراهيم النظّام، حيث أسماه (رئيس المتكلمين) ويذكر قوله بالطفرة، وهو المفهوم الذي كان إبراهيم النظّام أول من ابتكره. ثمّ أورد الجاحظ تفسير النظّام للنفس على أنها شكل من أشكال الهباء المتناثر في أرجاء جسم الكائن الحي، وفي حال حُجِبَ نور النفس عن الجسد بحاجز أمكنه الطفور واجتياز ذلك الحاجز.

قال النظّام: " بل أزعم أن النفس من جنس النسيم وهذه النفس القائمة في الهواء المحصور، عرض لهذه النفس المتفرقة في أجرام جميع الحيوان، وهذه الأجزاء التي في هذه الأبدان، هي من النسيم في موضع الشعاع والأكساف[٩]، والفروع التي تكون من الأصول. قال: وضياء النفس كضياء دخل من كوّة[١٠]، فلما سدت الكوة انقطع بالطفرة إلى عنصره من قرص الشمس وشعاعها المشرق فيها، ولم يقم في البيت مع خلاف شكله من الجروم[١١]. ومتى عم السد لم تقم النفس في الجرم فوق لا. وحكم النفس عند السد- إذ كنا لا نجدها بعد ذلك- كحكم الضياء بعد السد، إذ كنا لا نجده بعد ذلك. فالنفس من جنس النسيم، وبفساده تفسد الأبدان، وبصلاحه تصلح. وكان يعتمد على أن الهواء نفسه هو النفس والنسيم، وأن الحر واللدونة وغير ذلك من الخلاف، إنما هو من الفساد العارض"[١٢].

الواقع أننا لا نعلم مدى أصالة الطرح الذي قدمه النظّام هنا، فقد سبق وأن طرح أرسطو رأيين عن النفس يتعلقان بالجزء الذي لا يتجزأ: الأول أنها عبارة عن ذرات مثل ذرات الهباء في الهواء، تظهر للعيان عندما يسقط عليها شعاع الشمس، وهي دائمة الحركة حتى في الأوقات الهادئة. والثاني: أن النفس هي المحرّك الأول لتلك الذرات. كما أنه سبق وأن أشار كلٍ ليوسبوس وديموقريطس إلى أن النفس متحرّكة وسبب حركتها كونها مكونة من أجزاء صغيرة كروية مثل أجزاء النار أو حبات الغبار المتطايرة في شعاع الشمس، ويكون عدد أجزائها مساوٍ لعدد أجزاء الجسم، وكل جزءٍ من الجسم يقع بجانب جزءٍ من النفس على التوالي، وهي تتجدد عن طريق التنفّس[١٣].

٣/٢-ابن حزم الأندلسي (القرن ٥هـ/١١م)

ناقش ابن حزم الأندلسي (توفي 456هـ/٩٩٥-١٠٦٣م) حركة الهباء الذي يظهر في نور الشمس، لكننا لم نجده يستخدم الهباء كدليل على وجود الذرات، وإنما طرح أن الهباء ينتج بعد تحلل الأجسام وتفككها إلى عناصرها الأولية.

قال ابن حزم: " وأما الذي يُرى عند دخول خط ضياء الشمس من كَوّةٍ فإنما هو: أن الأجسام ينحلّ منها –أبدًا- أجزاء صغار، وهي التي تسمى الهباء. فإذا انحصر خط ضياء الشمس: وقع البصر على تلك الأجزاء الصغار. وهي متكاثفةٌ جدًا، ولونها الغبرة، فهي التي تُرى، لا سواها. من تأمل هذا عرفه يقينًا. وأن البيوت مملوءةٌ من ذلك الهباء المنحلّ من الأرض، والثياب، والأبدان، وسائر الأجرام. ولكن لدقته لا يُرى: إلا إن انحصر خط ضياء الشمس فيُرى ما في ذلك الانحصار منه فقط"[١٤].

٤/٢-القلقشندي (القرن ٩هـ/ ١٥م)

ربط أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (توفي ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) بين الهباء والذرة بشكلٍ صريح ومباشر، لكنه استنتج هذه الرابطة من الآيات القرآنية، وليس من نقاشات المتكلمين أو علماء الطبيعة. حيث قال: " الهباء: وهو الذي يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كوة يدخل منها الضوء، فيكون شبه عمود ممتد من الكوة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض، وفيه أجزاء لطيفة متفاوتة تحس بالنظر دون اللمس؛ وقد شبّه الله تعالى به أعمال الكفار في القيامة فقال جلّ من قائل: ﴿وقَدِمْنا إلَى مَا عَمِلوا مِنْ عَملٍ فَجَعلَناهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[١٥]. ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المراد بالذرّة المذكورة في القرآن بقوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[١٦]﴾"[١٧].

ثالثًا: الأوربيون

لم يكن روبرت براون أول شخص يرى حركة الجسيمات المعلقة في سائل بالمجهر، فقد سبقه التاجر الهولندي أنطوني فان ليفنهوك (توفي ١٧٢٣م) A. van Leeuwenhoek، بأكثر من قرنٍ ونصف، وكذلك باي ووتر من ليفربول[١٨]. كذلك كانت فرضيات وضعها كلٌ من عالم الرياضيات السويسري دانيال برنولي والعالم البريطاني روبرت بويل لتفسير سلوك الغازات وكيفية توليدها للضغط على جدران الوعاء الحاوي لها[١٩]. إلا أن براون كان أول من أدرك أنه لم يكن يشاهد حركة تخص الكائنات الحية ذاتية الحياة. وبالتالي كان أول من بيّن شمول هذه الحركة على المواد جميعًا[٢٠].

فعندما أعلن روبرت براون عام ١٨٢٧م عن اكتشافه لحركة الجسيمات الصغيرة من حبوب الطلع (التي يبلغ قطرها أقل من نصف واحد على مائة من المللمتر[٢١]) وهي تهتز في السائل الذي كان ينظر إليه في المجهر، كان يدرك تمامًا أن هذه الجسيمات ليست كائنات حية وإنما أجزاء صغيرة من الغبار تتحرك في الماء[٢٢]. حيث قال: "بينما كنت أتفحص شكل هذه الجسيمات المغمورة في الماء، لاحظت أن عددًا كبيرًا منها يتحرك بشكل واضح. وبعد تكرار الملاحظة عدة مرات، اقتنعت بأن هذه الحركات لا يسببها وجود تيار في السائل أو تبخر السائل بشكل تدريجي، بل تعود إلى الجسيم نفسه"[٢٣].

كان بحوزة براون مجهر حديث جدًا حينها، ومزود بعدسة جسمية أكروماتية (لالونية)[٢٤]، بحيث إنها تزيل آثار طيف ألوان قوس قزح التي كانت يؤثر بشكل سيء في رؤية حواف الأشياء عند استخدام أجهزة بدائية أكثر[٢٥]. كما أجرى دراسته لهذه الحركة على جسيمات أخرى غير عضوية، منها بقايا حجرية مطحونة من تمثال أبي الهول، وقدم تفسيرات مختلفة. ربما كان للظاهرة علاقة بتيارات الماء الدقيقة أو تأثير الضوء، غير أن أيًّا من هذه النظريات لم تبدُ متفقة مع المنطق[٢٦]. كما أنه أخذ من الأرض قطعة قديمة من الكوارتز التي تحوي بعض الماء الذي كان حبيسًا فيها، هذا الماء كان قد مضى على وجوده ملايين وملايين السنين، ومع ذلك فقد تمكن براون أن يرى في داخلها الحركة نفسها. لقد كان يشاهد خفقانًا أو اهتزازًا دائم لجسيمات متناهية في الصغر. وقد برهن بعد ذلك أن تلك الحركة هي إحدى آثار الحركة الجزيئية[٢٧].

أي أنّ كل العينات أظهرت السلوك نفسه ولم يمكن إعطاء وصف أو تفسير مقنع طوال 80 سنة تقريبًا. وفقًا للباحث بروش Brush كان يُشار إلى هذه الظاهرة في الكتب التي تتناول الحديث عن المجهر حيث إنها قدمت تنبيهات بشأن الحركة البراونية، حتى لا يظن المراقبون خطًا أنها مظهر لحياة ويحاولوا بناء نظريات خيالية عليها. بعد أن اقترحت النظرية الحركية للغازات وقبلت ببطء، نما انطباع أن الظاهرة تقدم إثباتًا تجريبيًا مباشرًا وجميلًا للمبادئ الأساسية للنظرية الميكانيكية للحرارة. هذا التفسير أيّدته مشاهدة أنه عند درجات الحرارة الأعلى تصبح الحركة سريعة أكثر.

من ناحية ثانية، فإنه لم يَنكبّ أيًا من أنصار حقل النظرية الحركية على المسألة، خصوصًا كلاوزيوس، وماكسويل، وبولتزمان. ربما يكون لأنهم لم يريدوا أن يتورطوا في أبحاث السوائل. حيث كان يوجد في ذلك الوقت عائق كبير هو أنّ الجسيمات البراونية كانت أثقل وأضخم بحوالي ١٠[٨] ضعف من جزيئات المذيب إلى درجة أنه يمكن جعلها تتحرك بشكل ملحوظ عند صدم الجزيئات لها. بقي الأمر ساكنًا إلى أن انبرى له هنري بوانكاريه (توفي ١٩١٢م) H. Poincaré – الرياضياتي الذي أغنى التاريخ المبكر للديناميكا الحرارية في عدة مناسبات بتعليقاته المفهومة بسهولة – لتعيين هوية آلية الحركة البراونية عندما قال: "إن الأجسام الضخمة جدًا، مثل تلك، التي تكون عشر مليمتر، تضرب من كل الجوانب بذرات متحركة، إلا أنها لا تزحزح، لأن هذه الصدمات كثيرة جدًا وقانون الاحتمال يجعلها تعادل بعضها بعضًا؛ إلا أن الجسيمات الأصغر تتلقى صدمات أقل مما يلزم لحدوث هذه التعادل في الحقيقة وتتجول عشوائيًا بشكل مستمر". كما أشار أيضًا بوانكاريه إلى أن وجود الحركة البراونية يناقض القانون الثاني في الديناميكا الحرارية عندما قال: "...إلا أننا نرى تحت أعيننا الآن الحركة تتحوّل إلى حرارة بالاحتكاك، تتغير الحرارة الآن عكسيًا إلى حركة، وكل ذلك دون خسارة، لأن الحركة تبقى إلى الأبد. وهذا مضاد لمبدأ كارنو". في الواقع، إن وجود الحركة البراونية يظهر أن القانون الثاني هو قانون احتمالات. لا يمكن توقع أن يكون صحيحًا عندما تورّط جسيمات قليلة أو تصادمات قليلة. ففي ذلك الوضع، ستوجد تقلبات كبيرة حول التوازن[٢٨].

وفي عام ١٨٧٧م قدم جوزيف دلسو (توفي ١٨٩١م) J. Delsaux بفرضية مفادها أن الحركة البراونية تحدث نتيجة صدم جزيئات السائل أو الغاز للجسيمات المعلّقة فيه. وقد تحقق من هذه الفرضية المهمة تجريبيًا، وبذلك ترسخت النظرة الذرية لبنية المادة لأول مرة تجريبيًا[٢٩].

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قام الفيزيائي الفرنسي لويس جورج غويي (توفي ١٩٢٦م) L. G. Goey

(وبشكلٍ مستقل عنه في بريطانيا وليم رامزي (توفي ١٩١٦م) W. Ramsay[٣٠]) بدراسة تفصيلية للحركة البراونية، وقد أجرى سلسلة من التجارب جعلته يقتنع بأنّ سبب الحركة يكمن في السائل نفسه. وعليه، فإن هذه الحركة لا تحدث بسبب الفروقات في درجات الحرارة ولا بسبب الدفع الخارجي أو الاهتزازات[٣١].

في عام ١٨٨١م بين العالم البولوني بوداشيفسكي أن الحركة البراونية تحصل أيضًا في الغازات وليس في السوائل فقط. فقد كان يشاهد الجسيمات المجهرية التي تشكل دخان السجائر مع إضاءة جانبية، وكانت هذه الجسيمات تتراقص في جميع الجهات بالطريقة نفسها التي كانت ترقص بها الجسيمات الصلبة التي راقبها براون في السائل[٣٢].

توصل للسبب الحقيقي للحركة البراونية العالم البلجيكي كاربونيل في السبعينات من القرن التاسع عشر.. وقد فسرها كما يأتي: تتحرك الجسيمات المجهرية لأنها تتعرض للصدمات من جانب جزيئات وذرات السائل المحيطة بها، والتي لا نراها[٣٣]. وعندما اخترع جيكموندي وزيدنتوف المجهر الحساس قام بمراقبة جسيمات الذهب في محلول غرواني (حيث قطر الجسيم أقل من جزء من مليون من السنتمتر) وجد أن الحركة البراونية لهذه الجسيمات كانت سريعةً جدًا، بحيث تتم رؤيتها لحظة انعطافها عن مسارها عندما تنخفض السرعة. وقد وصف جيكموندي انطباعه الأول بقوله:" إن ذلك عبارة عن عملية قفز مستمر ونط وتصادم[٣٤] وتطاير، بحيث يصعب فهم شيء في هذا الشواش"[٣٥].

بعد جيكموندي قام الكيميائي السويدي ثيودور سفيدبرغ (توفي ١٩٧١م) Th. Svedberg بدراسة الحركة البراونية لجسيمات الذهب في المحلول الغروي، وقد ابتكر طريقة للتخلص من الرؤية اللحظة المتقطعة (الخطفان)، وذلك من خلال فتح حقل الرؤية للمجهر الحساس بوساطة الستارة اللحظية لآلة التصوير مع ضبط استمرارية ذلك الوقت الذي تبقى فيه الستارة مفتوحة. وبتصغير الزمن يمكن التوصل إلى اختفاء هذا الخطفان، ومع التصغير اللاحق لهذا الزمن فإن الجسيمات تبدو وكأنها بدون حراك مثل العصفور الطائر المبين على الصورة الفوتوغرافية اللحظية. وكلما كانت الحركة البراونية أسرع وجب أن يكون فتح الستارة أقصر[٣٦].

التوصيف الرياضياتي لهذا النوع من الحركات قدمه كل من أينشتاين وسمولوكوفسكي في أوائل القرن العشرين عام ١٩٠٥م[٣٧]. وقد تحول هذا التوصيف بجهود أينشتاين إلى طريقة حاسمة تقوم على المشاهدة، وذلك للتأكيد على البنية الذرية للمادة. إضافةً لذلك فقد بيّن أينشتاين كيف أنّ قياس بعض خصائص الجسيمات في الحركة البراونية يمكن أن يعين عدة ثوابت فيزيائية مهمة، مثل كتل الذرات والجزيئات، ومقدار عدد أفوغادرو، وهو عدد الجسيمات الأولية في المول، أي في الوحدة الكيميائية القياسية لأي مادة، وكذلك ثابت الغازات العامة[٣٨].

لقد أثبت أينشتاين أنه هذه الحركة العشوائية لحبيبات اللقاح ناجمٌ عن قصف الجزيئات المفاجئ لسطح الماء[٣٩]، وهي تخضع لقانون إحصائي بحت. وأن نسق السلوك هو ما يجب أن نتوقعه إذا كانت تصطدم حبة اللقاح باستمرار بجسيمات أخرى لا تُرى وأصغر من أن يرصدها المجهر، وهي تتحرك بتوافق مع إحصاء بولتزمان-ماكسويل المخصص لوصف سلوك الذرات في سائل أو غاز. ويبدو أن تبسيط الأمر من قبل أينشتاين بهذه الطريقة هو الذي جعل علماء الفيزياء الأوربيين –أمثال إرنست ماخ وفيلهليم أوستفالد – يقتنعوا بوجود الذرات فعلًا أواخر القرن ١٩م[٤٠].

فقد كتب الكيميائي والفيلسوف الألماني فيلهليم أوستفالد، مع أنه معارض للنظرية الذرية، في مقدمة مقرر الكيمياء الذي ألفه:" والآن أنا متأكد من أننا مؤخرًا حصلنا على إثبات تجريبي للبنية المتقطعة أو الحبيبية للمادة، ذلك الإثبات الذي طالما بحثت عنه الفرضية الذرية خلال مئات وآلاف السنين. وإن تطابق الحركة البراونية مع متطلبات هذه الفرضية يعطي الحق لأكثر العلماء حذرًا في التحدث عن الإثبات التجريبي للنظرية الذرية للمادة. وبهذا فقد أصبحت الفرضية الذرية نظرية علمية لها تبرير قوي"[٤١].

تكمن أهمية دراسة الحركة البراونية من قبل أينشتاين في عام ١٩٠٥م، أنه باستخدام الأساليب الإحصائية جعل من الذرة حقيقة أكثر رسوخًا بالنسبة للعلماء. إذْ بعد إعادة تسليط الضوء عليها علميًا من قبل جون دالتون، ظهرت العديد من المناقشات بين الكيميائيين الأوربيين الذين رفض معظمهم القبول بوجود الذرات بالفعل، وكان من بينهم الكيميائي ديمتري مندلييف (توفي ١٩٠٧م) D. Mendeleev واضع الجدول الدوري الشهير[٤٢].

ومع أن نظرية أينشتاين كانت متطابقة مع القياسات التي أجراها الفيزيائي جين بيرين (توفي ١٩٤٢م) J. Perrin فيما بعد، إلا أنها كانت على خلاف كامل مع القياسات المماثلة في الدقة التي قام بها ف. هنري، وقد بدا فيما بعد أنه أسيء تفسيرها. لكن نظرية أينشتاين قد قُبلت من قبل بعض الفيزيائيين لأنها

كانت تسمح بتفسير الحركة البراونية فقد كانت تتلاءم تلاؤمًا جيدًا مع نظريات أخرى كالنظرية الحركية للغازات، والنظرية الذرية في الكيمياء[٤٣]. وحول هذه النقطة يرى الباحث ماريو بونج " أن نظريةً ما لا يمكن أن تكون مقبولة أو مرفوضة، بمجرد ملاحظة توافقها أو عدم توافقها مع الأحداث التجريبية"[٤٤].

أخيرًا؛ جاء عمل الفيزيائي الفرنسي جان بيرين عام ١٩٠٨م ليثبت بشكل نهائي بأن الحركة البراونية في السوائل ناجمة عن حركة الجزيئات، وهو ما قدّم الإثبات الحاسم لوجود الجزيئات والذرات[٤٥]. توّج عمله بحصوله جائزة نوبل في الفيزياء عن دراسته لهذه الحركة عام ١٩٢٦[٤٦].

خاتِمَةٌ

في الواقع ليس بين أيدينا من الأدلة الكافية التي تمكننا الجزم بمسألة تأثر العلماء الأوربيين بما طرحه العلماء العرب عن الحركة البراونية، لذلك من المرجح أنه قد أعيد اكتشافها عندما توفرت لهم وسائل وتقنيات حديثة. لكننا استطعنا في هذا البحث الكشف عن عددٍ من النصوص التي تثبت معرفة العلماء العرب بظاهرة الحركة البراونية.

الاحالات المرجعية:

(١) اليافي، عبد الكريم، **تقدم العلم: الفيزياء الحديثة والفلسفة**، ط٢، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٤م، ص ١٧.

(2) R. Brown: "A brief account of microscopic observations made in the months of June, July and August 1827 on the particles contained in the pollen of plants; and on the general existence of active molecules in organic and inorganic bodies." Edinburgh New Philosophical Journal 5 (1828) p. 358.

(٣) لافندا، ب.هـ.، **الحركة البراونية**، مجلة العلوم، العدد٢، المجلد٤، فبراير/شباط، تصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٨م. ص٩٢.

(4) Müller, Ingo, A History of Thermodynamics, Springer-Verlag, Berlin Heidelberg, 2007, p. 78.

(٥) Samursky, Shmuel, Physical Thought, p. ٩.

(٦) الشنقيطي، محمد الأمين، **آداب البحث والمناظرة**، قسم أول، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت). ص ٢٩-٣٠.

(٧) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، **التلخيص في معرفة أسماء الأشياء**، ط٢، تحقيق: عزة حسن، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٦م، ص ٢٧٤.

(٨) كراوس، بول، **مختار رسائل جابر بن حيان**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٥م. ص ٤٢٩.

(٩) جمع كسفة، أي القطعة من الشيء.

(١٠) خرق في الحائط.

(١١) جمع جرم، وهو الجسد والجسم.

(١٢) الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان**، ج٥، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م. ص ٦٢.

(١٣) اليافي، عبد الكريم، تقدم العلم: **الفيزياء الحديثة والفلسفة**، ط٢، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٤م، ص ١٧٩.

(١٤) ابن حزم الأندلسي، **رسالة في الألوان**، حققه وناقشه عدد من الباحثين، ط١، النادي الأدبي بالرياض، الرياض، ١٩٧٩م. ص ٢٢-٢٣.

(١٥) **سورة الفرقان**، الآية ٢٣.

(١٦) **سورة الزلزلة**، الآية ٧-٨.

(١٧) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، تحقيق: محمد حسين شمس الدين وآخرون، ط١، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٩٤.

(١٨) لندلي، ديفيد، **مبدأ الريبة**، ترجمة: نجيب الحصادي، دار العين-كلمة، القاهرة-أبو ظبي، ٢٠٠٩م، ص ٢٧-٢٨.

(١٩) تشاون، ماركوس، **نظرية الكمية لا يمكن أن تؤذيك**، ط١، ترجمة: يعرب قحطان الدوري، الدار العربية للعلوم ناشرون-مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بيروت-أبو ظبي، ٢٠٠٨م، ص ١٦-١٧.

(٢٠) **الموسوعة العلمية الميسرة**، مجلد١، ج١، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠م. ص١٩٨.

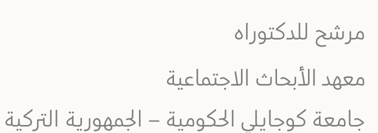
(٢١) غريبين، جون، **تاريخ العلم (١٥٤٣-٢٠٠١م)**، ج١، ص ١٠٤.

(٢٢) لايتون، روبرت، **محاضرات فاينمان في الفيزياء**، ج١، قسم٣، الاهتزازات والترموديناميك، ترجمة: فئة من أساتذة الفيزياء في جامعة دمشق، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٧٤م، ص ١٢٨.

(٢٣) أينشتاين، ألبرت، وأنفيلد، ليوبولد، **تطور الفيزياء**، ط١، ترجمة: عليّ المنذر، أكاديميا، بيروت، ١٩٩٣م. ص ٥١.
(٢٤) برونشتين، ماتفي، **الذرات والإلكترونات**، دار مير، موسكو، ودار الفارابي، بيروت، ١٩٨٤م. ص٧٢.
(٢٥) لندلي، ديفيد، **مبدأ الريبة**، ص ٢٦.
(٢٦) إيزاكسون، والتر، **أينشتاين: حياته وعالمه**، ترجمة: هاشم أحمد محمد، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٤م. ص ١٢٥.
(٢٧) لايتون، روبرت، **محاضرات فاينمان في الفيزياء**، ج١، قسم٣، الاهتزازات والترموديناميك، ص ١٢٨.
(28) Müller, Ingo, A History of Thermodynamics, p. 27٤-275.
(٢٩) لندلي، ديفيد، **مبدأ الريبة**، ص ٣٣.
(٣٠) غريبين، جون، **تاريخ العلم (١٥٤٣-٢٠٠١م)**، ج١، ص ١٠٤.
(٣١) برونشتين، ماتفي، **الذرات والإلكترونات**، ص٧٤.
(٣٢) المرجع السابق نفسه، ص٧٤.
(٣٣) برونشتين، ماتفي، **الذرات والإلكترونات**، ص٧٤-٧٥.
(٣٤) إن الجسيم البراوني يعاني نحو ١٢١٠ تصاماً في الثانية. عن: لافندا، ب.هـ.، **الحركة البراونية**، ص٩٥.
(٣٥) برونشتين، ماتفي، **الذرات والإلكترونات**، ص٧٦.
(٣٦) المرجع السابق نفسه، ص٧٦.
(٣٧) لايتون، روبرت، **محاضرات فاينمان في الفيزياء**، ج١، قسم٣، الاهتزازات والترموديناميك، ص ١٤٩.
(٣٨) لافندا، ب.هـ.، **الحركة البراونية**، ص٩٢.
(39) Einstein, Published by Macaw Books, India, 2013. P.11
(٤٠) جريبين، جون، **البحث عن قطة شرودنغر**، ص ٣٧-٣٨.
(٤١) برونشتين، ماتفي، **الذرات والإلكترونات**، ص٨٦.
(٤٢) شيري، إيريك، **قصة ٧ عناصر**، ترجمة: عمر سعيد الأيوبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة- مشروع كلمة، ٢٠١٦م، ص ٨٣.
(٤٣) بونج، ماريو، **فلسفة الفيزياء**، ترجمة: حافظ الجمالي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٤، ص ٤٠٩.
(٤٤) المرجع السابق نفسه، ص ٤٠٩.
(٤٥) برونشتين، ماتفي، **الذرات والإلكترونات**، ص٧٢.
(٤٦) لافندا، ب.هـ.، **الحركة البراونية**، ١٩٨٨م. ص٩٨.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

النزاع على السلطة بين الدولة البويهية والخلافة العباسية في الربع الأخير من القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)

عطا الله الرواشدة
مرشح للدكتوراه
معهد الأبحاث الاجتماعية
جامعة كوجايلي الحكومية – الجمهورية التركية

مُلَخّصْ

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على طبيعة العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية في الفترة الممتدة (٣٧٥-٤٠١هـ/ ٩٨٦-١٠١٠م)، التي اتسمت في غالبها بالصراع على السلطة؛ حيث عملت الدراسة من خلال المنهج الوصفي والاستقرائي على استعراض الروايات التاريخية ومحاولة تحليلها ونقدها للوصول إلى صورة شاملة يمكن من خلالها فهم طبيعة العلاقة بين دار المملكة ودار الخلافة خلال فترة البحث. ناقشت الدراسة بشكل أساسي علاقة الملك بهاء الدولة البويهي (٣٧٩-٤٠٣هـ/ ٩٨٩-١٠١٢م) بالخليفة الطائع بالله (٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٣-٩٩١م) وأهم ملامح هذه العلاقة التي انتهت بعزل الخليفة. ثم تناولت الدراسة علاقة الملك بهاء الدولة بالخليفة القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣٠م) وأسباب اختياره لمنصب الخلافة لاحقًا. وأخيرًا ناقشت الدراسة محاولات الملك البويهي بهاء الدولة للسيطرة على سلطات ورمزيات الخلافة العباسية، وموقف الخلافة العباسية من هذه المحاولات. خلُصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج: (سيطرت الدولة البويهية ممثلة بالملك بهاء الدولة بشكل كامل على مؤسسة الخلافة، وتمثّل ذلك في نهاية الأمر بخلع الخليفة الطائع لله وإلحاق الضرر الجسدي والنفسي به. تعيين خليفة غير متوقع ووفق أهواء السلطة البويهية، ومحاولة التدخل من جديد في صلاحياته وسيادة مؤسسته الدينية والدنيوية. تمكّن الخليفة الجديد القادر بالله من استرجاع العديد من رموز مؤسسة الخلافة المسلوبة، ومحاولة فتح قنوات للحوار والعلاقات على الصعيد الداخلي والخارجي، التي بالفعل نجحت من خلال صده للخطر الفاطمي، وارتباطه بعلاقة جيدة مع حاكم خراسان ابن سبكتكين).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	يوليو	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	٢٩	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

آل بويه؛ الدولة البويهية؛ الخلافة العباسية؛ دار الخلافة؛ رموز الخلافة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.296834 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عطا الله الرواشدة، "النزاع على السلطة بين الدولة البويهية والخلافة العباسية في الربع الأخير من القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٤٠ – ٥٣.

Corresponding author: atalla.rawashdeh@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعتبر فترة حكم البويهيين[1] علامة فارقة في التاريخ الإسلامي (غضبان، ٢٠١٤، ص١١١-١٢٤؛ البلوشي، ٢٠٠٤، ص٨٩ ؛ Lewis, Gibb, II/189, VI/1350)؛ بسبب الصورة التي رسمت من خلالهم لمؤسسة الخلافة، فقد كان البويهيون يعتبرون شخص الخليفة إحدى العراقيل التي قد توقف توسعهم أو تهدد وجودهم وسلطتهم؛ حيث مارسوا عليه كافة أشكال الضغط والتهميش للحد من صلاحياته وتحقيق طموحاتهم، فبعد دخول البويهيين إلى بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، بدأت مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، تميزت بخصائص جديدة، لعل أبرزها تفويض الخليفة لسلطته الدنيوية لصالح أمير الأمراء البويهي[2] (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٨، ص٢٢٢، ٢٨٣، ٤٥٢ ؛ الدوري، ٢٠٠٧، ص١٨٢-١٨٣)، وتحويل منصب إمرة الأمراء إلى نظام وراثي في الأسرة البويهية، والسيطرة على أملاك الخليفة وأمواله، وإحلال راتب يومي للخليفة مكانها، سرعان ما استبدل بإقطاعات تعادله في أيام معز الدولة البويهي، ولم يكتف الأمراء البويهيون بكل ذلك؛ بل شاركوا الخليفة العباسي في مظاهر سيادته، فخطبوا لأنفسهم على المنابر بعد اسم الخليفة، وضربوا الطبول على أبوابهم في أوقات الصلاة، بالإضافة إلى ضرب أسماءهم على النقود إلى جانب اسم الخليفة (القيسي، ٢٠٠٢، ص٢٥٨-٢٦٢)، وألغوا عمليًا منصب الوزارة التابع للخلافة (ابن موصلايا، ٢٠٠٣، ص٦٩ ؛ الدوري، ٢٠٠٧، ص١٨٤-١٨٥ ؛ صدّيقي، ٢٠٠٧، ص٦٧ وما بعدها ؛ Kraemer, 1986, p37-39)، وأبقوا للخليفة كاتبًا يشرف على إقطاعه، بينما انفرد البويهيون بتعيين وزراء لهم، وكانت من أهم أعمالهم التي ساعدتهم على تحقيق ذلك كثرة محاولاتهم تخريب جهاز المعلومات الأول لمؤسسة الخلافة ألا وهو البريد؛ الذي قطعه البويهيون أخيرًا بقصد إخفاء المعلومات التي قد تضرهم أو تبطل مخططاتهم إذا ما وصلت دار الخلافة (القلقشندي، ج١٤، ص٤١٤).

أصبح الخليفة في العهد البويهي من حيث الوظيفة أقرب إلى الإمام؛ حيث يدير بشكل جزئي شؤون الدولة وولاياتها الدينية فقط، وبالمقابل أصبحت الشؤون الدنيوية سواء أكانت عسكرية أم إدارية أم اقتصادية تدار ككل من قبل الحكام البويهيين، وبهذا نلحظ ازدواجية السلطة في عاصمة الخلافة العباسية ببروز مؤسستين في ذلك العهد تتمثل الأولى بدار المملكة، والثانية بدار الخلافة(ابن الموصلايا، ٢٠٠٣، ص٦٩-٧١ ؛ طلفاح، ٢٠٠٦، ص٢٠٤-٢٠٥ ؛ .Lewis, VI, P1352-p1353)، ومن الجدير بالذكر أن الخلفاء العباسيين لم يعد لديهم أي مقدرة على الدفاع عن أنفسهم أمام مؤسسة دار المملكة التي أفقدتهم حقهم بولاية العهد، والاحتجاب وغيرها، حيث وصل الأمر بأن تم خلعهم من مناصبهم واستبدالهم بآخرين (أبو شجاع، ٢٠٠٠م ، ج٧، ص٢٤١-٢٤٢ ؛ التائب، ٢٠١٦، ص٩٨-١٠٨).

تعتبر السنوات الأولى من الربع الأخير للقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أحد أكثر فترات الحكم البويهي اضطرابًا، حيث أنها مليئة بالصراع بين الأخوة المتمثل بتولي إمارة بغداد، الأمر الذي لم يتح لنا إيجاد معلومات واضحة في المصادر التاريخية لأحوال مؤسسة الخلافة التي وقفت على ما نعتقد موقف حياد حينها، حيث ركزت جل المصادر التاريخية على تفاصيل الصراع من أجل منصب إمرة الأمراء في بغداد بين أبناء الملك أبو شجاع عضُد الدولة ت٣٧٢هـ/٩٨٣م (انظر حوله: ابن خلكان، ج٤، ص٥٠ ؛ الزواهرة، ٢٠١١ ؛ Kabir, 1964, p42-68) صمصام الدولة أبو كاليجار مرزبان ابن عضد الدولة ت٣٨٩هـ/٩٩٩م (أبو شجاع،٢٠٠٠، ج٧، ص١٩٥-١٩٦ ؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٦، ص٢٣٠-٢٣٣ ؛ خواندمير، ١٩٨٨، ص١٩٦-١٩٧)، وشرف الدولة أبو الفوارس، شيرزيل ابن عضد الدولة ت٣٧٩هـ/٩٨٩م(ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٧٧ ؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٦، ص٢٣٣ ؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٦، ص٣٨٤ ؛ الصفدي، ٢٠٠١، ج١٦، ص١٢٨ ؛ العيني، ص٨٩أ ؛ خواندمير،١٩٨٨، ص١٩٥-١٩٦؛ Kabir,1964, p69-76)، من ثم بهاء الدولة أبو نصر فيروز الذي يعتبر أهم الشخصيات البويهية في فترة البحث.

تولى بهاء الدولة السلطة في بغداد عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م، وكانت مؤسسة دار الخلافة قد وصلت لأسوء أحوالها، وسلبت منها العديد من الصلاحيات، حيث لم تعد دار الخلافة في نهاية الأمر عنصرًا مؤثرًا على الأحداث في الدولة. لم تشهد بدايات تلك الفترة أي محاولة لإنعاش هذه المؤسسة أو المحاولة لاستعادة حقوقها المسلوبة، بل على العكس؛ بقي بهاء الدولة يمارس سلطاته الملكية وتعدياته على الخلافة قرابة الثلاث سنوات؛ حيث عمل بهاء الدولة على خلع الخليفة الطائع لله واستبداله بشخص آخر وهو القادر بالله، فكان هذا الفعل تمثيلاً واضحًا لما للحال التي وصلت له هذه المؤسسة.

بدأت فعليًا بوادر النهضة في مؤسسة دار الخلافة عند تولي الخليفة القادر بالله للسلطة؛ حيث شهدت فترة تولّيه للخلافة معارضة واضحة لبعض قرارات بهاء الدولة، أضف إلى ذلك أن القادر بالله سعى جاهدًا لاستعادة حقوق الخليفة التي سلبت منه على يد البويهيين، فقد اتسمت شخصية القادر بالله بالكثير

من الصفات الحميدة التي جعلت منه ندًّا قويًا لدار المملكة ممثلة ببهاء الدولة، وورثة العرش البويهي من بعده.

أولاً: أوضاع الخلافة العباسية في ظل حكم البويهيين، وطبيعة العلاقة بين الملك البويهي وشخص الخليفة

١/١-علاقة الملك البويهي بهاء الدولة بالخليفة الطائع لله

الخليفة الطائع لله هو الخليفة الرابع والعشرين من خلفاء بني العباس (انظر ترجمته: الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج١٢، ص٣٥٩ ؛ ابن الكازروني، ١٩٧٠م، ص١٩١-١٩٣ ؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٢ ؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١١٨؛ ابن شاكر، ١٩٧٤، ج٢، ص٣٧٥ ؛ العيني، ص٩٣ب)، ولي الطائع لله الخلافة بعد أن عزل والده المطيع لله في الثالث عشر من ذي القعدة/تشرين ثاني سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م؛ بسبب خلاف بين الديّلم والترك؛ حيث أجبر المطيع لله على التنازل راضيًا عن الخلافة ووضع ابنه عبد الكريم الطائع لله في الخلافة مكانه (الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج١٢، ص٣٥٩ ؛ الصفدي، ٢٠٠١، ج٢٤، ص٢٣؛ متز، ١٩١٤، ج١، ص٢٢-٢٣)، وكان عمر الطائع لله ثمانية وأربعين عامًا، حيث عدّه المؤرخون أكبر من تولّى الخلافة عمرًا، وأول من تولّاها بحياة الخليفة السابق له (الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج١١، ص١٧٩؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٢ ؛ العيني، ص٩٣ب)، كان للخليفة الطائع لله ولد واحد وهو أبو الفتح عبد الوهاب، وقد توفي في وقت مبكر ٣٧٧هـ/٩٨٧م ، مما جعل الخليفة الطائع لله بلا وريث من نسله (ابن الكازروني، ١٩٧٠،ص١٩٥). كان أقرب الشخصيات من الطائع لله ومأمن سره الوحيد خادمه وسفيره أبو الحسن دجى بن عبد الله الملقب بالخادم الخصي (الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج٩، ص٣٧٢).

شغَل الخليفة الطائع لله منصب الخلافة قرابة السبع عشرة عامًا ونصف (الخطيب البغدادي،٢٠٠١، ج١٢، ص٣٥٩)، اتسمت في أغلبها بالضعف بالرغم من وجود شخصيات جيدة من حوله كما تصف المصادر التاريخية[٣](ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٥). واكب الطائع لله خلال فترة خلافته في بغداد خمسة من ملوك بني بويه، كان أولهم الملك أبو منصور عز الدولة بختيار ٣٥٦-٣٦٧هـ/٩٦٦-٩٧٧م (ابن خلكان، ج١، ص٢٦٧؛ -Kabir,1964, p15 39) ، الذي تزوج الطائع لله من ابنته شاه زنان (ابن خلكان، ج١، ص٢٦٧-٢٦٨) أو كما في رواية أخرى شهناز(الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١١٩) سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م، وتبعه بعد ذلك الملك عضد الدولة الذي سيطر على بغداد في شوال/تشرين أول سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، حيث قضى الأخير على أخيه عز الدولة بختيار هناك، وحاول استمالة الخليفة الطائع لله من خلال تزويجه من ابنته مضافةً لابنة عز الدولة بختيار(ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٢-١٩٣). اتسمت علاقة عضد الدولة بالخليفة الطائع لله ببعض الاحترام أكثر من غيره من الأسرة البويهية (حول تلك العلاقة: ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩١-١٩٣؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١١٨-١٢٤؛ الزواهرة، ٢٠١١، ص٥٢)، وتلا عضد الدولة في العراق بعد وفاته الملك صمصام الدولة، إلى أن طُرد على يد أخيه شرف الدولة سنة ٣٦٧هـ/٩٨٦م (الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١٢٤؛ خواندمير، ١٩٨٨، ص١٩٦-١٩٧)، حيث حلّ مكانه الملك شرف الدولة في العراق حتى توفي سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م (الذهبي، ٢٠٠٣ ، ج٨، ص٣٥١)، وكان آخر من عاصره الخليفة الطائع لله من ملوك آل بويه هو الملك بهاء الدولة الذي أنهى سلطته الفعلية بالخلافة، حيث قام بعزله من منصب الخلافة وتهميشه، وبقي على هذا الحال إلى أن توفي سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م (ابن حمدون، ج١٢، ص١٤٢أ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٧٥) أي بعد عزله بأحد عشر عامًا.

كان أول تعامل رسمي بين الملك بهاء الدولة والخليفة الطائع لله عند وفاة الملك شرف الدولة؛ حيث أوصى شرف الدولة بالحُكم لأخيه الأمير أبو نصر بهاء الدولة؛ فقام الطائع لله بمراسلة الأمير بهاء الدولة ليبلغه حزنه بالفقيد شرف الدولة، بدأت العلاقة ترتسم بعد هذه الحادثة؛ حيث قابل الطائع لله الأمير بهاء الدولة لتعزيته شخصيًا (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص١٨٢-١٨٣)، وبعد أن انتهت مراسم العزاء ذهب بهاء الدولة في زيارة إلى حضرة الطائع لله بهدف توثيق الصلة فيما بينهم، وكسب الشرعية ليحل مكان شرف الدولة بشكل رسمي (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص١٨٢؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٧٨ ؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٣٦)، وبالفعل تمت المراسم، وخلع الخليفة الطائع لله على الأمير بهاء الدولة، ولقبه ببهاء الدولة وضياء الملة (الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٣٥١).

قرأ مرسوم توليت بهاء الدولة أبو الحسن علي بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان كاتب الطائع لله (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٢٣٤؛ ياقوت الحموي، ١٩٩٣، ج٤، ص١٨٠٦)، حيث أكد على وصايا الطائع لله لبهاء الدولة قبل تبليغه بالموافقة على توليته، وقد تمثّلت هذه الوصايا بأن يُحسن السيرة مع الجند والعامة، وأن يتّبع نهج أبيه عضد الدولة في الحكم (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٣٦؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٣٥١)، وبهذا تولّى بهاء الدولة وضياء الملة الحكم في بغداد، وباشر بترتيباته الإدارية في الدولة على هذا الأساس.

امتدت العلاقات بين مؤسسة الخلافة والملك بهاء الدولة قرابة العامين دون أي إشارة لنوايا السوء من كلا الطرفين حتى دخل عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م؛ حيث كان لهذا العام خصوصية كبيرة في الأحداث؛ ففيه كما يصف لنا سبط ابن الجوزي في كتابه كانت بداية التغيّر الملموس في معاملة بهاء الدولة للخليفة الطائع لله (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٤٥).

٢/١-أسباب عزل الخليفة الطائع لله

يعتبر عزل الخليفة الطائع لله عام ٣٨١هـ/٩٩١م (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٧؛ ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٤؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٤؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٥٠٥)[٤] من أبرز الأحداث غير المتوقعة والمفصلية في سيرة الدولة البويهية؛ حيث لم تشر المصادر لأي إرهاصات تدلل على هذا الأمر، كما أنها لم تشر إلى أي توتر سابق في العلاقة بين الطائع لله وبهاء الدولة. وأولى الإشارات لدينا هو ما قامت بعض المصادر التاريخية برصده من حاجة الملك بهاء الدولة للأموال؛ وذلك بسبب صراعاته الداخلية التي أدت لشغب الجند عليه؛ لعدم قدرته على تزويدهم بما يطمحون إليه من أموال، حيث كانت نتيجة ذلك التوتر أن أشار أكبر مستشاري بهاء الدولة أبو الحسن المعلم عليه بخلع الخليفة الطائع لله (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٤١ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٧٩؛ ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٤) ليكون الخلع ذريعة للسيطرة على أمواله وممتلكاته، ونهب ذخائر القصور العباسية من جهة؛ وحتى يتسنى لبهاء الدولة تعويض العجز المالي لديه وتغطية مطالبات الجند من الجهة الأخرى.

تربط إحدى الروايات التاريخية سبب خلع الطائع لله بأمر يتعلق في البروتوكول وآداب المعاملة، حيث اتخذ الملك بهاء الدولة من تقصير الطائع لله بتأدية واجب العزاء بحقه عند وفاة أحد أبناءه في نفس العام ذريعة لخلعه (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٤٩)؛ وهذا برأينا وإن صح؛ فإنه قد يكون سببًا اتخذه بهاء الدولة للتعتيم على السبب الحقيقي وهو الحاجة للمال.

نعتقد أيضًا بأن للأمير مهذب الدولة صاحب البطيحة دور مباشر في عزل الطائع لله، فقد استقبل مهذب الدولة الأمير القادر بالله بعد فراره من الطائع لله بسبب خلاف وقع بينهما سنذكره لاحقًا، حيث قام مهذب الدولة حينها بمراسلة بهاء الدولة ليعلمه بمقدار الظلم الواقع على القادر بالله، مطالبًا إياه برفع هذا الظلم عنه وإعادة الحق إليه بالطريقة التي يراها مناسبة (سبط ابن الجوزي، ٢٠٠٣، ج١٨، ص٤٩)، وبطبيعة الحال لا يمكن للملك بهاء الدولة أن يرفض مثل هذا الطلب من مهذب الدولة؛ الذي سبق أن أقرضه المال ووقف إلى جانبه في أول عهده بالسلطة، حيث كان للمساعدات المالية التي يقدمها مهذب الدولة الدور الكبير في تفوق بهاء الدولة خلال صراعاته مع صمصام الدولة (أبو شجاع،٢٠٠٠، ج٧، ص٢٩٩-٣٠٠،. ٣٠٤-٣٠٥ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٠٣-١٠٤)، أضف إلى ذلك وجود صلة المصاهرة القوية التي تربطهما ببعضهما، حيث تزوجت ابنة بهاء الدولة من مهذب الدولة، وتزوج أبو منصور بويه ابن بهاء الدولة من ابنة مهذب الدولة، فكان بذلك أكبر نموذج للزواج السياسي بين قوتين في تلك الفترة (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٣٠١ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٠٥؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٥١١؛ العيني، ص٩٧ب)

وبهذا يمكننا إجمال أسباب خلع الطائع لله بما يأتي:

- عجز موازنة بهاء الدولة وشغب الجند عليه؛ في الفترة التي يمتلك فيها الطائع لله المال.
- رأي مهذب الدولة في الخلاف بين الطائع لله والقادر بالله.
- رغبة بهاء الدولة بالقضاء على شخص الخليفة، ليتسنى له استبدالها بشخصية أكثر ضعفًا وانصياعًا لتحقيق أهدافه، ونحن نتفق بهذا الطرح مع المؤرخ سبط ابن الجوزي (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٤٩).
- تشجيع حاشية بهاء الدولة له على خلع الخليفة ومصادرة أمواله.

تظافرت بذلك الأسباب لتكون ساعة الحسم بشأن خلافة الطائع لله، التي بحلول عام ٣٨١هـ/٩٩١م كانت قد انتهت بالقبض عليه، حيث أرسل له الملك بهاء الدولة بأنه يوّد القدوم إليه لمناقشته بالأمور العامة ولتجديد البيعة له، فما كان من الخليفة الطائع لله إلا الموافقة والجلوس له (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٧؛ ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٤؛ العيني، ص١٩٣أ+ب)، فدخل بهاء الدولة إلى حضرة الطائع لله وأظهر احترام تلك الحضرة حينها، ثم تقدم نحو الخليفة أحد خواص بهاء الدولة للسلام عليه، فما أن مد الطائع لله يده للسلام حتى شُدَّ بقوة عن كرسيه وطرح أرضًا (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٧٩-٨٠)، وعمّت في تلك اللحظة الفوضى في أرجاء المكان، والخليفة يردد "إنا لله وإنا إليه راجعون" حتى ظن غالب العامة أن بهاء الدولة هو من أُلقِي القبض عليه؛ مما جعل الأمر يزداد سوءًا؛ فكثر السلب والنهب في دار الخلافة وما يجاورها دون الالتفات إلى الأمر الحاصل ودون أي مساعدة تذكر للخليفة (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٧؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٨٠)، وقد وصف الشريف الرضي بشِعره وصفًا دقيقًا لهول ما حصل للخليفة مبينًا من خلاله قلقه وحزنه

يوم القبض على الطائع لله (الشريف الرضي، ١٩٥٦م، ج١، ص٥٧ ؛ الثعالبي، ١٩٨٣م ، ج٣، ص١٥٩-١٦١)[٥].

تحرّك جند بهاء الدولة لمكان إقامة زوجة الخليفة الطائع لله التي هي أخت الملك بهاء الدولة؛ وذلك لتأمين الحماية لها ونقلها إلى مكان آمن، وبالفعل تم ذلك بقيت فيه إلى أن توفيت سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م حيث قام بهاء الدولة بعد وفاتها بالاستيلاء على تركتها التي وصفت في المصادر بالنفيسة (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٤٧؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص١٠، ٤٢). أما خواص الملك بهاء الدولة فنقلوا على الفور الطائع لله من دار الخلافة التي كان يجلس فيها إلى دار المملكة التي سبق إليها بهاء الدولة، وهناك أُجبر الطائع لله أن يوقّع كتاب خلعه بيده [٦](الذهبي، ١٩٨٥، ج١٩، ص٤٤٩) مقرًّا على توليَت القادر بالله مكانه، وقد شهد على الكتاب أعيان الدولة من الأشراف، والقضاة، والشهود (ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٤؛ العيني، ص٩٣أ+ب). من المؤكد أن مثل هذا التصرف الحكيم من قبل بهاء الدولة المتمثل بعدم قتل الطائع لله له أبعاده الإيجابية لصالح بهاء الدولة لدى القوى المحيطة به؛ حيث أن بلاد ما وراء النهر التي تحكمها السلالة السامانية كانت تربطها بمؤسسة الخلافة ممثلة بمؤسسة الخلافة ممثلة بالطائع لله علاقة جيدة على العكس من علاقتها مع الدولة البويهية (صدّيقي، ٢٠٠٧، ص٩٣ وما بعدها ؛ Bosworth, 1973, p27-34)، وبقيت هذه العلاقة لمدة ليست باليسيرة بعد تولّي القادربالله (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٨٢)، وبهذا الترتيب الحكيم يضمن بهاء الدولة عدم تدخل الأطراف عن طريق إبقاء الطائع لله على قيد الحياة، وعمله على التنازل عن السلطة بخط يده ورضاه.

لم يُعامَل الطائع لله معاملة جيدة؛ وذلك بعد أن ضمن بهاء الدولة توقيعه على كتاب خلعه، وتيقّن من عدم وجود مصدر تهديد لحكمه، حيث تشير إحدى الروايات التاريخية إلى أن بهاء الدولة قام بقطع جزء من أذنه وحبسه بعد ذلكً (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٥٠).

٣/١-علاقة كل من الملك بهاء الدولة والخليفة الطائع لله بالقادر بالله قبل توليه الخلافة

الخليفة القادر بالله، هو الخليفة الخامس والعشرين من خلفاء بني العباس، ولد سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م (انظر ترجمته بالتفصيل في: الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج٥، ص٦١-٦٣ ؛ ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٦؛ النويري،٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٦-٢٠٨؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١٢٧-١٢٩؛ ابن شاكر،١٩٧٤، ج١، ص٥٨؛ العيني، ص١٩٤+ب؛ متز، ١٩١٤، ج١، ص٢٣-٢٤)، وهو أبو العباس أحمد ابن الأمير إسحاق ابن المقتدر بن المعتضد العباسي، لم يكن للأمير القادربالله أي تواصل في فترة خلافة الطائع لله مع الملك بهاء الدولة، ولم تكن علاقته طيبة بابن عمه الخليفة الطائع لله إبان تلك الفترة؛ فقد نشب نزاع على ملكية قطعة أرض بين القادر بالله وأخته آمنة بعد وفاة والدهم (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٣٣-٣٤)، الأمر الذي جعل آمنة تنتهز فرصة مرض الطائع لله سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م لتخبره بأن القادر بالله قد استغل فترة مرضه، وراسل أصحاب السلطة ووجهاء الدولة طامعًا بولاية الخلافة مكانك؛ مما أثار غضب الخليفة الطائع لله (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٦٥-٦٦؛ العيني، ص٩٠أ)، وعندما تماثل للشفاء قام على وجه السرعة بارسال كاتبه ابن حاجب النعمان للقبض على القادر بالله في داره، وما أن وصل ابن حاجب النعمان لتنفيذ أمر الطائع لله حتى قام القادر بالله مسرعًا بالهرب وذبك فور رؤيته؛ معللاً ذلك بأنه قد رأى منامًا تتلى فيه آيات تدل على أن أمرًا ما سيحصل له (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٧٧-٤٧٨ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٦٥-٦٦؛ ابن الكازروني، ١٩٧٠، ص١٩٧). وصل القادر بالله إلى منطقة البطيحة، واستقبله هناك أميرها مهذب الدولة أحسن استقبال (الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٣٥١؛ العيني، ٩٠أ).

وبهذا يكون الطائع لله في سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م هو الخليفة العباسي الشرعي، والذي أشرنا سابقًا لتغيّر تعامل بهاء الدولة معه، ويكون القادربالله قد فرّ خوفًا إلى البطيحة واستقر فيها كما سيلي؛ تحرّزًا من المكيدة التي رتبتها أخته عن طريق إيقاع الخصومة بينه وبين الخليفة الطائع.

٤/١-تولّي القادر بالله الخلافة (٣٨١-٤٢٢/٩٩١-١٠٣٠م)

باشر الملك بهاء الدولة بإرسال مجموعة تحمل نسخة من كتاب خلع الطائع لله لنفسه، وقبوله بتولية القادر بالله إلى منطقة البطيحة (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٤٣)، التي مكث فيها القادر بالله قرابة الثلاث سنوات بعد حادثته مع الطائع لله، وما أن وصل الوفد الذي أرسله بهاء الدولة إلى البطيحة، وتم إبلاغ القادر بالله بما جرى مؤكدين له ذلك بما حملوه إليه من أُذن الطائع لله التي قُطِع جزءٌ منها (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٨١ ؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣ ج١٨، ص٤٩-٥٠) حتى جلس القادر بالله وكتب كتابًا لبهاء الدولة (انظر نص الكتاب الكامل: ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٩-٤٩١ ؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٥٠٧) من منطقة الصليق في البطيحة وتحديدًا من منزل مهذب الدولة (ياقوت الحموي، ج٣، ص٤٢٢)، وكانت فحوى الكتاب تتلخص بحمد الله على نصرته، والثناء على جهود الملك بهاء الدولة والدعاء له، والتأكيد على حسن نوايا الملك بهاء الدولة من جهة، وسوء

نوايا الخليفة الطائع لله من الجهة الأخرى، والتي بانت واستحقت ما حصل بعد تعبيره.

عاشت بغداد بين فترة العزل والتولية أحداثًا عصيبة؛ تمثّلت بشغب الجند، وكثرة المطالبات المالية، والجدل (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٨؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٨ ؛ التائب، ٢٠١٦، ص٩٦، ١١٠-١١٧) ، مما أجبر الملك بهاء الدولة على مفاوضتهم ومحاولة تهدئتهم لحين إعلان اسم الخليفة الذي أخفي عن العامة قرابة السبعة أيام، وبعد أن كسب الملك بهاء الدولة رأي الجند والعامة وبيعتهم للخليفة الجديد الذي أخفيت هويته، أعلن عن شخصية القادر بالله للعامة، وتمت له الخطبة صراحةً يوم الجمعة الثالث من رمضان/أيلول سنة ٣٨١هـ/٩٩١م (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٤٣-٢٤٤).

تحرّك الخليفة القادر بالله بعد أن رتب الملك مهذب الدولة له كل شيء لتسهيل وصوله إلى بغداد (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٥١-٥٢) التي استقبله فيها الملك بهاء الدولة ووجهاء دولته، حيث نزل القادر في دار الخلافة في الثاني عشر من رمضان ٣٨١هـ/٩٩١م (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٧؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٨١) فجلس فيها، وحلف لبهاء الدولة على الوفاء والإخلاص، وبادله بذلك بهاء الدولة (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٩١). ذكر الشعراء هذا اليوم وبذلوا في مدح القادر بالله والثناء عليه، ومن أمثالهم المرتضى الشريف علي بن الحسين بن موسى (ت٤٣٦هـ/١٠٤٥م) الذي كتب قصيدة في مدحه وقيمة وصوله للخلافة (الشريف المرتضى، ١٩٥٨، ج١، ص٢٥٣-٢٥٥). إن قارئ الروايات التاريخية حول هذا الحدث يمكنه أن يشعر بمقدار الإرباك الحاصل داخل الدولة في بغداد؛ لأن الوقت بين الخلع والتولية، والخطبة والدخول إلى دار الخلافة قارب على تمام الشهر؛ مما يؤكد على أن الأمور لم تسر بسهولة كما تُقرأ سردًا في المصادر.

بقي القادر بالله في الخلافة طول فترة حكم بهاء الدولة المتبقية، حيث كانت تلك الفترة مشوبة بالحذر من كلا الطرفين؛ ولا تخلو من محاولات كل طرف لكسب الآخر ليسير حسب رغبته.

أمر بهاء الدولة بتسليم الخليفة المخلوع للخليفة القادر بالله، وتم الأمر عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م (النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢١٠)، وقد جهّز القادر بالله إحدى الحجرات في دار الخلافة له تجهيزًا تامًا، وخدمه طيل فترة بقاءه وكما يليق به كخليفة (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٦٧)، ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض الروايات التي تحدثت عن إيذاء القادر بالله له في بداية نزوله في دار الخلافة (ابن حمدون، ج١٢، ص٤٠ب ؛ العيني، ص٩٦أ)؛ إلا أن هذه الروايات ليست دقيقة؛ لشذوذها عن القدر الأكبر من الروايات التي تحدثت عن حسن ضيافته (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٩٠ ؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص١٦؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٩٣ ؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢١٠)، ولو أُخذت هذه الروايات التي تتحدث عن إيذاء الطائع لله على محمل الجد، لسوغناها كنوع من أنواع الثأر لما شهده القادر بالله من الأذى على يد الطائع لله فيما سبق؛ لكننا نميل إلى عكس ذلك. أخيرًا مضى اثنا عشر عامًا على بقاء الطائع لله تحت وصاية القادر بالله، حتى أعلِنت وفاته سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢(ابن حمدون، ج١٢، ص١٤٢؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٨١ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٧٥) حيث قضى الخليفة الطائع لله تلك المدة بأسوءِ أحواله النفسية (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٦٧ ؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٥٠٩) نتيجة ما شهده من تغيّر الحال. من الجدير بالذكر أن إبقاء القادر بالله للخليفة الطائع لله تحت مراعاته ومراقبته، يفسَّر بأنه كان حذرًا من أن يُطلق سراح الطائع لله، فيتمكن بهاء الدولة من استخدامه كورقة ضغط ضد القادر بالله، وذلك بتهديده بالعزل أو ما شابه لاحقًا، وبهذا نستدل على فهم القادر لله لأبعاد الأحداث التي تدور حوله، وتنبهه لخطورة دار المملكة على دار الخلافة.

١/٥-أسباب تولية القادر بالله الخلافة

تحدثنا سابقًا عن الشكوك حول دور مهذب الدولة في حادثة خلع الطائع لله، ونشير هنا إلى أن الشكوك تزداد بخصوص دوّر مهذب الدولة في تولّي شخص القادر بالله للخلافة؛ حيث جهّز مهذب الدولة الخليفة القادر بالله بجهاز ضخم، وقام بتيسير الأمور له أثناء تحركه إلى بغداد بشكل كبير، أضف إلى ذلك أن هناك رواية مفادها أن القادر بالله وقبل قدوم وفد بهاء الدولة إليه قد حلم بأمر ينبأه بالخلافة (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٨-٤٨٩ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٨١ ؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٨)، وقد شاهد فيه البشارة من علي بن أبي طالب الذي كان له هالة روحية ضخمة في ذلك العهد (انظر حول ذلك: الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج٢، ص٩٥-١٠٠) وأوصاه خيرًا بأتباعه وشيعته، والأمر الأهم أن صاحب هذه الرواية هو كاتب مهذب الدولة أبو القاسم هبة الله بن عبدالله بن عيسى ت٤٠٥هـ/١٠١٤م (ياقوت الحموي، ١٩٩٣، ج٥، ص١٩٤٧) الذي ربطته علاقة وطيدة بمهذب الدولة من جهة ،وكصديق للقادر بالله أثناء بقاءه بالبطيحة من جهة أخرى (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٥١-٥٢)؛ مما يضع مهذب الدولة بالنسبة لنا في الصف الأول لأسباب اختيار القادر بالله كخليفة.

لا شك بأن مثل هذه الأحلام التي تكررت مع القادر بالله مرة عند محاولة القبض عليه أيام الطائع لله، والأخرى عند تولّيه الخلافة؛ كانت سببًا للتشكيك بمصداقيتها؛ حيث قد تُوظّف هذه الرؤى كنوع من الدعاية، ومحاولة كسب الشرعية، أو لإضفاء الجانب الروحاني والإيماني على شخصه أمام المراد كسبهم لصفه ومبايعتهم له كالسامانيين مثلاً الذين ارتبط اسم الطائع لله بخطبتهم حينها (صدّيقي، ٢٠٠٧، ص٩٣)، أو كأهل العراق أنفسهم الذي سيمكث بينهم ويمارس سلطاته عليهم.

نعتقد أن اختيار القادر بالله كان لأسباب عديدة، يمكن إبرازها فيما يأتي:

- لم يكن ابن خليفة، وبالتالي هو من أمراء الطبقة الثانية؛ حيث اعتقد بهاء الدولة أنه باختيار القادر بالله للخلافة لن يكون له مطامع في السلطة، وسيدين بالفضل بوصوله إلى منصب الخلافة لبهاء الدولة، وسيكون بنظر بهاء الدولة الخليفة المطيع والمتعاون.
- رغبة بهاء الدولة بالإتيان بخليفة هو صاحب الفضل الأكبر عليه، وليس لديه أي طموحات في الخلافة؛ مما يجعله أكثر التزامًا بما يريده بهاء الدولة.
- آراء مهذب الدولة التي أشرنا لها سابقًا، إضافة إلى ظروف حياة القادر بالله، وعلاقته بالطائع لله التي اتسمت بالعداء والكراهية أيضًا كانت سببًا هي الأخرى في ذلك.

ثانيًا: النزاع بين دار المملكة ودار الخلافة على السلطة

يعتبر النزاع على السلطة أبرز سمة لطبيعة العلاقة بين مؤسسة دار الخلافة وبين دار المملكة وخصوصًا في الربع الأخير القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي؛ حيث عاصر الملك بهاء الدولة منذ بداية تولّيه المُلك في بغداد خليفتان، هما الطائع لله، والقادر بالله، اللذان فقدا سلطتهما الفعلية في إدارة شؤون الدولة التي كانت ترتبط بمنصب الخلافة قبل العهد البويهي؛ جرّاء ما يمكننا وصفه بطمع التملّك والسلطة لدى بهاء الدولة، ولا يمكننا القول أن هذا التدهور بمنصب الخلافة هو وليد هذه الفترة بعينها؛ بل يعود هذا التدهور والاضمحلال في مؤسسة الخلافة إلى عقود منصرفة تتعلق بظهور منصب إمرة الأمراء بشكل أساسي. سنتناول في هذه الجزئية ما أوردته المصادر التاريخية عن بعض الممارسات التي توضّح محاولة كلا المؤسستين أن تسيطر على الأخرى في ضوء فترة البحث.

٢/١-النزاع بين بهاء الدولة والخليفة الطائع لله

تولّى بهاء الدولة السلطة الفعلية في أواخر العقد السابع من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان يحاول في بداية أمره أن يعزز أركان دولته وأن يحمي نفسه من خطر الطامعين من حوله، وقد اتسمت علاقة بهاء الدولة في بداياته بالخليفة الطائع لله قرابة العامين بالهدوء النسبي (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص١٨٢؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٧٨)؛ حيث شهدت تلك الفترة العديد من الزيارات المتبادلة التي يظهر بها الاحترام بشكل عام (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٧٨)، ولعل السبب بذلك هو ضعف الخليفة، أو جهله لما قد سيهدده من جهة بهاء الدولة، ومن الجانب الآخر تخوّف بهاء الدولة من اتخاذ أي قرار جوهري من شأنه تقويض حكمه الناشئ، وبهذا مر قرابة العامين من الفتور الذي أصبح ميزة العلاقة بين مؤسسة الخلافة ودار المملكة.

في عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م بدأت نظرة بهاء الدولة للخليفة الطائع لله بالتغيّر (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٤٥)؛ فخلال الفترة التي تسلّم بها بهاء الدولة السلطة في العراق، ومع زيادة احتكاك الملك بالخليفة أصبح من المجدي في نظر بهاء الدولة أن يقوم بعزل الخليفة، محاولاً بذلك إيجاد بديل له سواء أكان هذا العزل بداعي المصادرة، أم بداعي إيجاد بديل يكون لبهاء الدولة عليه الفضل في توليته، ويكون تحت السيطرة ورهن الإشارة ليكمل معه المسيرة ويحقق من خلاله ما يريد.

تعتبر أولى الإشارات الواضحة التي تدل على تدخل بهاء الدولة بسلطات الخلافة هي تعيين أبو أحمد الموسوي الحسين بن موسى بن محمد (انظر ترجمته: الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٨١٤) لنقابة الطالبيين مضيفًا له الحج، والمظالم (حول هذه المناصب: الماوردي، ص١٥٥، ١٣٠، ١٧٠)، حيث يرد في المصادر الخبر بأن الخليفة الطائع لله يعهد بولاية الموسوي على ما سبق ذكره فقط (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٤٥؛ العيني، ص٩٠ب)؛ لكن ما لفت انتباهنا هو أن القلقشندي قد نقل لنا نص كتاب التولية المؤرخ بـ٣٨٠هـ/٩٩٠م (القلقشندي، ج١٠، ص١٥٦-٢٦٣)، حيث يظهر من خلال النص دوّر واضح لبهاء الدولة بهذه التولية؛ وهذا لعلاقته القوية بأبي أحمد الموسوي (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١٨٤-١٨٥)، فقد ذُكِر بهاء الدولة صراحة في كتاب التولية الصادر من الخليفة الطائع لله بأنه هو من أراد ذلك، أي بتزكيته وطلبه وتمهيده، وبهذا النص الوحيد الذي لدينا لكتاب التولية يمكننا أن نحكم بأن بهاء الدولة كان له تدخل واضح في قرارات مؤسسة الخلافة أيام الطائع لله، ومن ناحية أخرى تعتبر

حادثة عزل الطائع لله لاحقًا والطريقة التي اتخذها بهاء الدولة لذلك من أكبر العلامات لذلك الصراع والتسلّط.

٢/٢-النزاع بين بهاء الدولة والخليفة القادر بالله

انتقلت السلطة الفعلية لمؤسسة الخلافة من يد الطائع لله إلى يد القادر بالله، الذي ما أن وصله خبر توليته حتى أظهر امتنانه لبهاء الدولة وصدق الولاء الذي سيقدمه له على صنيعه (لنص الكتاب الذي أرسله إلى بهاء الدولة: ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٨، ص٤٨٩-٤٩١؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٥٠٧)، وبذلك قَدِمَ القادر بالله إلى بغداد، واستقبله هناك بهاء الدولة، وكانت أولى أعمال بهاء الدولة مع القادر بالله هي اختيار حاشيته الذين سيساعدونه في إدارة مؤسسة الخلافة، ومنهم كاتبه وأستاذ داره[٧](سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٥٣ ؛ العيني، ص٩٤ب)؛ ويعتبر مثل هذا التصرف باعتقادنا نوع من أنواع ضبط التحركات الإدارية والشخصية للخليفة، والتي قد تُقَدَم لبهاء الدولة على شكل تقارير استخبارية عند الحاجة.

من ناحية أخرى فقد لاحظنا أيضًا بأن الخطاب الصادر من مؤسسة الخلافة لبهاء الدولة قد تغيّر بشكل ملحوظ، فقد زاد القادر بالله في ألقابه؛ حيث أضيف لبهاء الدولة لقب غياث الأمة وقوّام الدين (الصابئ، ٢٠٠٠، ج٧، ص٤٨٣ ؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص١٠ ؛ العيني، ص١٣٠أ)، وكان هذا الأمر جديدًا على صورة المخاطبة بين الخليفة والملك؛ حيث كان بهاء الدولة أول من خوطب بالدين، واستُبدِل وصفه من مولى أمير المؤمنين إلى صفي أمير المؤمنين (حول تطور الألقاب في العهد البويهي انظر: الصابئ، ١٩٨٦، ص١٣١-١٣٢؛ القلقشندي، ج٥، ص٤٦٢ ؛ العيني، ص١٣٠أ) الأمر الذي يدل أيضًا على هيبة وسطوة بهاء الدولة، وضعف مؤسسة الخلافة ممثلة بالقادر بالله، وهذا ما يحاول القلقشندي قوله لنا؛ حيث ينقل لنا صورة الإفراط بمنح الألقاب من مؤسسة الخلافة حتى وصلت هذه الألقاب للجند والكتاب والأعراب وغيرهم (القلقشندي، ج٥، ص٤١٦).

لم يكتف بهاء الدولة بضبط تحركات الخليفة الجديد داخل دار الخلافة فحسب؛ بل حاول أن يزوّجه ابنته سكينة؛ كنوع من المصاهرة السياسية لصالح بهاء الدولة، وبالفعل نجح بهاء الدولة بتزويج ابنته من القادر بالله وقبض صداقها سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، وقد وكّل بهاء الدولة لإتمام أمر الزواج الشريف الموسوي الذي ما أن تمم مراسم الزواج حتى توفى الله سكينة ابنة الملك بهاء الدولة (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٣٠٠؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٢٠ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٠١ ؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١٣٠ ؛ العيني، ص٩٦ب) مما جعل هذا المشروع يفشل؛ وأقصد به كمشروع ما سبق به والد الملك بهاء الدولة؛ حيث قرر عضد الدولة البويهي في سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م أن يزوّج ابنته من الخليفة الطائع لله وقد كان يقول: "لعلها تلد ولدًا ذكرًا فتجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولدهم..." (النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢٠٣).

لم يقف الخليفة القادر بالله في بداية أمره مكتوف الأيدي، فقد كان أول شخص تمكّن من استعادة بعض رموز الخلافة في عهد بهاء الدولة، حيث بادر بما استطاع حينها بأن يقلل من مستوى ما قد يهدد وجوده وكينونة مؤسسته، فكان دليل قوة القادر بالله هو تمكّنه من استعادة إحدى رموز الخلافة؛ حيث خصص له حاجبًا، وكان الاحتجاب أمر غير مسبوق لدى الخلافة العباسية في العصر البويهي، وقد بُرِّرَ ذلك بأن القادر بالله قد خاف واعتبر بما حصل مع الطائع لله (العيني، ص٩٦أ)، وعلى الرغم من ذلك فإنه يُعد إنجاز يحسب للقادر بالله حيث تمكن من استعادة منصب الحجابة في نهاية الأمر.

حاول القادر بالله أيضًا أن يكسب تحالفات جديدة تزيد من قوته وصفته الشرعية أمام بهاء الدولة، ففي عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م جلس القادر بالله لحجاج خراسان، محاولاً التودد معهم وتحميلهم الرسائل في معنى الخطبة له في أراض خراسان وذلك عن طريق واليها للسامانيين محمود بن سبكتكين[٨](ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٠٠-١٠١ ؛ انظر حول السامانيين: صدّيقي، ٢٠٠٧، ١٠١-١٠٣ ؛ Bosworth, 1973, s:27-34/35-47)، وبخطوة غير متوقعة، قام القادر بالله في عام ٣٨٤هـ/٩٩٤م بعزل الشريف الموسوي عن نقابة الطالبيين، حيث يعتبر الموسوي أحد خواص بهاء الدولة، وبهذا ولّى القادر بالله مكانه شخص آخر(العيني، ص٩٧أ)، وهكذا نشهد مبكرًا على إمكانيات وطموح الخليفة القادر بالله بمحاولاته لاستعادة هيبة مؤسسة الخلافة من جديد.

بين لنا الصابئ في كتابه (الصابئ، ١٩٨٦، ص١٢٤-١٢٥) سلطات الخليفة من ناحية التولية والعزل بمنصب القضاء، منوهًا لارتباط هذا الأمر بدار الخلافة حصرًا، ومؤكدًا ذلك بأمثلة من العهد البويهي السابق لفترة البحث، إلّا أن التطبيق الفعلي الذي تشير له المصادر الأخرى يبيّن لنا تجاوزات بهاء الدولة على هذه السلطة، حيث ترد الإشارات لثلاثة حوادث؛ كان أولها عام (٣٨٦هـ/٩٩٦م)، إذ تدخل بهاء الدولة بشكل مباشر بمسار القضاء؛ فقد كان الخليفة القادر بالله قد أصدر تعليماته بخصوص شهادات العدول بالقضايا لدى قضاة المذاهب الأربعة، إلّا أن أحد الخصوم حصلوا على استثناء مكتوب من بهاء الدولة وحاشيته بسماع شهادة أحد الأشخاص، مهمشًا بهذا الاستثناء

الذين دوّنت أسماءهم سابقًا كعدول لدى القضاة، فما كان إلا أن حدثت إشكالات بين القضاة أنفسهم من جهة، وبين الخصوم ودار الخلافة من جهة أخرى، الأمر الذي عطّل سير القضية وزاد الأمر سوءا (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٣٢٧-٣٣١).

أما الحادثة الثانية فكانت سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م وتمثّلت بأن أرسل بهاء الدولة من شيراز كتاب تقليد الشريف أبو أحمد الموسوي قضاء القضاة ببغداد، وتلقيبه بالطاهر ذو المناقب، إلا أن الأمر لم يتم بسبب رفض الخليفة القادر بالله، وإصراره على عدم الامتثال لأوامر بهاء الدولة بهذا الشأن (ابن حمدون، ج١٢، ص١٤٢ب ؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٨٥ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٨٢؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١٤٢؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٦٨٧ ؛ العيني، ص١١١٥أ)، ونعتقد أن هذا الرفض كان جرّاء شعور القادر بتهديد ومساس بهاء الدولة لسيادة مؤسسته وصميم سلطاته كخليفة وبشكل علني.

وأخيرًا من ناحية القضاء فقد أثبت الخليفة عدم قدرته على حل أحد الخلافات المذهبية التي تصاعدت وتيرتها بين قاضي القضاة وأحد نوابه الذي عينه القادر بالله بنفسه سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، حيث لجأ المتخاصمان ومن تحيّز لكليهما إلى الوزير فخر الملك نائب بهاء الدولة في العراق، الذي تحرك على الفور وحل الخلاف، ونصّب قاضي قضاة بأمره ودون من ينوب عنه (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١٩٠) وقد أشارت الرواية إلى أن القادر بالله تبين له مصدر السوء وقام بالموافقة على ما تم، إلا أن هذا الأمر أيضًا إن يكن ضعفًا في مؤسسة دار الخلافة، فهو من الناحية الأخرى تدخل واضح من رجال بهاء الدولة في صلاحيات مؤسسة الخلافة، التي قابلها الخليفة بالموافقة[9] (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٢٢٣؛ العيني، ص١٢٥ب)

قام بهاء الدولة كعادته بممارساته المتعدية على سلطة الخليفة بتعيين أصحاب المناصب العليا في النقابة والولايات، وكذلك خلع الألقاب على من يريد، فقد لقب في عام ٣٩٠هـ/٩٩٩م أحد وزراءه وقادة جنده وهو الموفق أبا علي الملقب بعمدة الملك، كما أنه أذن له بضرب الطبول أوقات الصلوات (الصابئ، ٢٠٠٠، ج٧، ص٤٠٨) والتي كانت سابقًا خصيصة بالخلافة، كما أنه لم يكتف بذلك؛ ففي عام ٣٩٧هـ/١٠٠٦م قام بتولية أبي الحسن محمد ابن أبي أحمد الموسوي النقابة والحج، ولقبه الرضي ذي الحسبين، ولقب أبا القاسم أخاه بالمرتضى ذي المجدين (الشريف المرتضى، ١٩٥٨، ج١، ص٢٥٧-٢٦٠ ؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٩٦ ؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ٦٩٠-٦٩١)، وبقي الحال على ذلك حتى سنة وفاة الأمير بهاء الدولة ٤٠٣هـ/١٠١٢م حيث عيّن على نقابة الطالبيين الرضي الموسوي سابق الذكر وكتب له بالعهد من أرّجان (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٢١١) وقد استُقبِل هذا الكتاب ببغداد وكأن الخليفة لا وجود له (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص١٢٧).

تحدثنا سابقًا عن إدارة نظام البريد واختراقه من قبل البويهيين، وخطورة ذلك على مؤسسة الخلافة في علاقاتها الخارجية وصلاتها السرية، ومن الجدير بالذكر هنا أن الخليفة القادر بالله قد تمكّن من امتلاك ديوان خاص به في عهد الملك بهاء الدولة يدعى الديوان القادري، كما أنه عمل بشكل جدي على إيجاد صاحب بريد وخبر خاص بهذه المؤسسة ليقوم برفده بالأخبار والمعلومات (الصفدي، ٢٠٠١، ج٧، ص١٥١؛ طلفاح، ٢٠٠٦ ص٢١٨-٢١٩).

تمكّن القادر بالله أيضًا في عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م من استعادة حق مؤسسة الخلافة في ولاية العهد؛ حيث نصب ابنه محمد أبو الفضل في منصب ولاية العهد، وأمر بإضافة اسمه على نقش النقود في الحاضرة بغداد (الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ج٢، ص١٠٢؛ الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٦٩؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٦٥؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١٢٤؛ ابن الفوطي، ١٩٩٦م، ج٢، ص٤٠٥؛ النويري، ٢٠٠٢، ج٢٣، ص٢١٢؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١٣١؛ العيني، ص١١٠أ؛ صدّيقي، ٢٠٠٧، ص٧٣).

كان القادر بالله في تواصله مع القوى المجاورة يأخذ بمشورة الملك بهاء الدولة، وقد وضح هذا الأمر جلوس القادر بالله لرسل أبي طالب رستم ابن فخر الدولة حاكم إقليم الجبال، ولرسل بدر بن حسنويه الكردي لتلقيبهما والخلع عليهما عام ٣٨٨هـ/٩٩٨م (سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١١٠)، حيث تم الأمر كما يجب بعد مشورة بهاء الدولة التي تتضح من خلال النصوص بأنها كانت بمثابة أخذ الموافقة والأمر لا المشورة (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٣٦٥ ؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص ٥٥)، فقد لقب رستم بمجد الدولة وكهف الأمة، وأرسلت له الخلع والعهد، ولقب بدر بن حسنويه الكردي بناصر الدين والدولة، وأرسلت له هو الآخر الخلع والعهد (ابن حمدون، ج١٢، ص١٤١ب؛ الفوطي، ١٩٩٦، ج٤، ص٢٨١-٢٨٢)، وهذا الأمر كان بعد إشارة بهاء الدولة عليه بذلك.

يعي القادر بالله تمامًا أن موازين القوى بالمنطقة كانت راجحة لصالح بهاء الدولة، فكان لابد له من حليف خارجي وصاحب قوة يستطيع من خلالها أن يحافظ على منصبه في ظل حكم بهاء الدولة؛ فكانت فكرة مراسلة محمود بن سبكتكين فكرة جيدة له ولمستقبله كخليفة، حيث أسس ابن سبكتكين الدولة

الغزنوية وأصبح من أهم القوى في الدولة الإسلامية، وقد دلت النصوص على قرب القادر بالله منه وتواصلهما الدائم؛ وذلك بصفته الذراع السُنية الوحيدة حينها التي تدعم الخلافة في ظل وجود البويهيين الشيعة حول وداخل مؤسسة الخلافة (العتبي، ٢٠٠٤، ص١٧٨ ؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٠٠-١٠١؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١٣٣؛ صدّيقي، ٢٠٠٧، ص١٠٨-١١٠؛ طلفاح، ٢٠٠٦، ص٢٠٦-٢١٠؛ Bosworth, 1973, p36-37 ; Güngör, 2017, 117-118).

يعتبر الربع الأخير من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي من الفترات المؤثرة في تغيير مسار النظر لمؤسسة الخلافة؛ حيث شهدت تلك الفترة العديد من التجاوزات بحق الخليفة كان أهمها العزل والمعاملة السيئة التي لم يسبق لها نظير، ولم يكن فقط شخص الملك بهاء الدولة البويهي المعني بمثل ما سبق من تجاوزات، بل لا بد من الإشارة إلى أن حاشيته كذلك والمقربين منه قاموا بنفس الدور؛ حيث لعب أبو الحسن المعلم علي بن محمد الكوكبي (الذهبي، ١٩٨٥، ج٨، ص٥٠٩) دورًا بارزًا كان أهم ما فيه أن ساعد بخلع الخليفة الطائع لله، كما أنه أثّر أيضًا في العديد من القرارات السيادية لبهاء الدولة، أما الشخص الآخر المتنفذ في دولته فهو أبو المسك عنبر خادم الملك بهاء الدولة، الذي يصفه ابن حمدون في كتابه: " بلغ غاية ما يبلغه مثله ورأي أصحاب الأطراف يقبلون يده ويترجلون له عند لقاءه وينفذ حكمه فيما ينفذ فيه حكم الملوك" (ابن حمدون، ج١٢، ص٤٦ب).

كان القادر بالله يبحث جاهدًا عن الوسائل التي ستمكنه من استعادة رموز مؤسسة الخلافة المسلوبة، وكان في عهد الملك بهاء الدولة قد تمكّن من استعادة معظمها، لكن جهوده في المرحلة التي تلت حكم بهاء الدولة كانت الأكبر في سبيل حماية دار الخلافة ومحاولة الارتقاء بها؛ وذلك ليس بسبب قوته بل بسبب الانشقاقات الحاصلة في دولة بهاء الدولة نتيجة تقسيم الحكم بين أبناءه لاحقًا (ابن الموصلايا، ٢٠٠٣، ص٦٩-٧٠. انظر لما يتعلق بالقادر بالله وعلاقته بالقوى من حوله في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي: -Genç, 2004, s:229).

خشيّ الخليفة العباسي القادر بالله والملك بهاء الدولة من تأثير الدعوة الفاطمية على مناطق نفوذهما، وقد عمدًا لاتخاذ إجراء احترازي عام ٣٨٢هـ/٩٩٢م بهدف الاطمئنان على منطقة العراق بعد حادثة عزل الطائع لله؛ وكان هذا بسؤال الأشراف الطالبيين هناك عن رأيهم بالدعوة الفاطمية التي قابلها الطالبيون على الفور بالإنكار والرفض، حيث جمعت شهاداتهم على بطلانها وكذب دعوتها (النويري، ٢٠٠٢، ج٢٨، ص٦٦ ؛ Genç, 2017, s: 221-220/228) الأمر الذي زاد من طمأنينة القادربالله وبهاء الدولة على حد سواء، ولكن خطر الفاطميين ازداد سوءًا بعد فترة من الزمن؛ حيث كانت المعطيات الأولية تشير إلى دنوّ ذلك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية من قِبَل نظيرتها الفاطمية، فكانت أبرز تلك الأحداث هي زيادة عدد الدعاة الفاطميين في مناطق مكة المكرمة وما جاورها، والخطبة فيها للفاطميين بمصر علنًا عام ٣٩٦هـ/١٠٠٥م (ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص٩١).

من ناحية أخرى سيطر الفاطميون عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م على منطقة الرحبة (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٢١١) التي تعد أهم المراكز القريبة من العراق والخاضعة لسيطرة بهاء الدولة (أبو شجاع، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٨٣-٢٨٤؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٩١؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص٧٥)؛ إذ يصفها أهل ذلك العصر بدهليز -ممر- العراق (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٨٧)؛ حيث يمتد هذا الدهليز بأراضي حلب ودمشق وصولا إلى مدينة الرحبة التي تجاور الكوفة (ياقوت الحموي، ج٣، ص٣٣). هدد ما سبق ذكره بغداد أيما تهديد؛ وذلك لقرب منطقة الرحبة من العراق من جهة، ولأهمية مكة والمدينة المنورة كساحة مقدّسة للدعوة والدعاية من جهة أخرى.

كانت أقوى الضربات للخلافة العباسية في فترة البحث هي نجاح الحاكم بأمر الله الفاطمي أخيرًا بإغواء حاكم الموصل بالخطبة له في ربيع أول/أذار سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م (ابن حمدون، ج١٢، ص١٤٣أ)، حيث كان يحكم الموصل شخص يدعى معتمد الدولة قرواش بن المقلد بن المسيب العقيلي حينها (الذهبي، ١٩٨٥، ج١٧، ص٦٣٣-٦٣٤ ؛ الصفدي، ٢٠٠١، ج٢٤، ص١٧٥ ؛ سعيد وحمدي، ٢٠١٣، ص٧٨- ٨٠)؛ وكان للقادر بالله الفضل في حكمه وحكم أبيه من قبله على الموصل (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص١٢٥؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١٤٨؛ الذهبي، ٢٠٠٣، ج٨، ص٦٠١، ٦٢٦، ٦٨٩ ؛ العيني، ص١٠ب ؛ سعيد وحمدى، ٢٠١٣ ص٧٤ وما بعدها)، ولكن المال والهدايا التي خصصها الحاكم بأمر الله له كانت أمكن في نفسه من أي اعتبارات أخرى، أضف إلى ذلك طمعه بنيل مركز أكبر لدى الحاكم بأمر الله جرّاء ما سيفعله لأجله.

أراد القادر بالله أن يضع نهاية للخطر الفاطمي الذي يحاول التغوّل في العراق، وما حولها عن طريق الدعاة المبثوثين هنا وهناك، خصوصًا بعد ما شهده من قرواش بن المقلد في الموصل، فرأى أن أفضل طريقة لذلك هي إصدار بيان عام يوضح من خلاله كذب الفاطميين في نسبهم لآل البيت، ويطعن في خلافتهم وأخلاقهم، داعمًا ذلك البيان بآراء رجالات

الدين والدولة من حوله[10]، وبذلك جمع القادر بالله الأشراف، والفقهاء، وكبار رجال بغداد[11]، ووقّعوا على نص المحضر الذي سمي بالمحضر القادري (انظر نسخة المحضر: ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص١٢١-١٢٢) وتم توزيع العديد من نسخه (بن الأثير، ١٩٧٩، ج٩، ص٢٣٦؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج١٥، ص١٣٢، ١٧٧-١٧٨؛ العيني، ص١٢٩أ) على من يوالي الخلافة العباسية ومن يجاورها وذلك في عام ٤٠٢هـ/١٠١١م، حيث لاقى المحضر القادري قبولاً في العراق وما حولها؛ حتى كتب فيه الشعراء وتحدث عنه العامة (الصفدي، ٢٠٠١، ج١٩، ص٢٤٣).

أرسل الحاكم بأمر الله كرد فعل للمحضر القادري الذي أيده البويهيون مجموعة من الدعاة إلى محمود بن سبكتكين والي خراسان ومؤسس الدولة الغزنوية حينها عام ٤٠٣هـ/١٠١٢م يغويه بالخطبة له بدلاً من القادر بالله، فما كان رد ابن سبكتكين إلا أن طرد رُسُل الحاكم بأمر الله، وقام بتمزيق الكتب المرسلة إليه وبصق عليها، وراسل على الفور القادر بالله يخبره بذلك وأن الخطبة مستمرة للعباسيين في بلاده (العتبي، ٢٠٠٤، ج١، ص٣٩١؛ ابن الجوزي، ١٩٩٥، ج٩، ص١٢٩؛ الذهبي، ١٩٨٥، ج٩، ص ١٤؛ وانظر: صدّيقي، ٢٠٠٧، ص١١١)، وبهذا يكون القادر بالله قد عزز سلطته من جديد ليس فقط على الصعيد الداخلي؛ بل والخارجي أيضًا.

خَاتِمَةٌ

يمكننا رصد التجاوزات البويهية على الخلافة العباسية في فترة البحث فيما يأتي:

- عمل الملك بهاء الدولة البويهي على خلع الخليفة الطائع لله واستبداله بالقادر بالله.
- تعيين حاشية الخليفة القادر بالله عند تولّيه السلطة لمتابعة تحركاته، والتدخّل في شؤون القضاء، وولاية النقابات.
- محاولته قطع طرق البريد والأخبار عن دار الخلافة.
- محاولة ضبط علاقات الخليفة الخارجية قدر الإمكان؛ والممثلة بعلاقاته بالقوى المجاورة.
- التمتع بحق منح الألقاب للأمراء والقادة في الدولة، وإعطاءهم حق ضرب الطبول وما شابه.
- ضرب السكة، وإضافة اسم الملك البويهي إلى السكة إلى جانب اسم الخليفة وإطلاق لقب ملك الملوك -شاهنشاه- على نفسه (القيسي، ٢٠٠٢، ص٢٥٨؛ صدّيقي، ٢٠١٤، ص٧٢؛ الملحق).

أما محاولات الخليفة القادر بالله لاستعادة شارات الخلافة فيمكن إجمالها بالنقاط التالية:

- استعادة الحق بالإستحجاب، ووضع حاجب في دار الخلافة.
- رفض تدخّل الملك بهاء الدولة في تعيين القضاة وولاية النقابات في بعض الحوادث، واستعادة حقه بوجود نظام بريد خاص داخل ديوانه.
- محاولة كسب الحلفاء والقوى الخارجية إلى صفه، وكان أهمها الدولة الغزنوية التي استطاع بذكاء أن يجعلها إحدى أذرعه القوية في الخارج كنوع من موازنة القوى في علاقاته بين الفرس والترك.
- استعادة الحق بتعيين وليّ للعهد، والتدخل في سك النقود بالدولة من خلال إضافة اسم ولي عهده عليها.
- ظهوره كصاحب قرار على الساحة الدولية ومحاولته إثبات دوره كخليفه؛ وذلك عند إخراج المحضر القادري المتعلق ببيان نسب الفاطميين في مصر.

قائمة المصادر والمراجع:

المخطوطات:

- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي(ت٥٦٢هـ/١١٦٧م)، **مخ التذكرة الحمدونية**، ج١٢، مكتبة الجامعة الأردنية (صورة مايكروفيلم)، مخطوط رقم ٢٩٤٨.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد(ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، **مخ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تبدأ نسخة المخطوط الذي لدي من سنة (٣٣١هـ) وتنتهي بأحداث سنة (٥٦٢هـ)، إستيداع مكتبة بايزيد، إسطنبول/تركيا، يحمل رقم ٤٥٦.

المصادر المطبوعة العربية والفارسية المعرّبة:

- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، **الكامل في التاريخ**، ١٣ج، دارصادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل أبو منصور(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ٤ج، (تح مفيد محمد قمحية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي(ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ج، (تح سهيل زكار)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، ٢٣ج، (تح محمد أنس الحسن وكامل محمد الخرّاط)، الرسالة العلمية، سوريا، ٢٠١٣م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت(ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، **تاريخ بغداد**، ط١، ١٦ج، (تح بشار عواد معروف)، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان**، ٧ج، (تح إحسان عباس)، دار صادر، بيروت.
- خواندمير، محمد بن خواندشاه (ت٩٠٣هـ/١٤٩٧م)، **روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء**، ط١، ترجمه عن اللغة الفارسية أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)،
  - **سير أعلام النبلاء**، ٢٥ج، (تح مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
  - **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ط١، ١٥ج، (تح بشار عواد معروف)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى(ت٤٠٦هـ/١٠١٦م)، **ديوان الشريف الرضي**، ٢ج، (شرح وتعليق كامل سليمان)، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٦م.
- ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر صلاح الدين(٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، **فوات الوفيات**، ط١، ٤ج، (تح إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.
- أبو شجاع، ظهير الدين محمد بن الحسين بن محمد الروذراوري(٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، **الذيل على تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، ط٢، ج٧، (تح أبو القاسم إمامي)، دار سروش، طهران، ٢٠٠٠م.
- الصابئ، أبو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم(ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م)،
  - **تاريخ الصابي**، قطعة من الجزء الثامن ملحقة بذيل تجارب الأمم، ط٢، ج٧، (تح أبو القاسم إمامي)، دار سروش، طهران، ٢٠٠٠م.
  - **رسوم دار الخلافة**، ط٢، (تح ميخائيل عواد)، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، ٢٩ج، (تح أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى)، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م.
- العتبي، أبو نصر محمد عبد الجبار(ت٤٢٧هـ/١٠٣٦م)، **اليميني في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي**، ط١، ١ج، (تح احسان ذنون الثامري)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق الشيباني(ت٧٢٣هـ١٣٢٣م)، **مجمع الآداب في معجم الألقاب**، ٦ج، (تح محمد الكاظم)، وزارة الثقافة والإرشاد، إيران، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري(ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ١٥ج، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي(ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، (تح مصطفى جواد)، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي(ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، **الأحكام السلطانية**، ط١، (تح أحمد جاد)، دار الحديث، القاهرة.
- الشريف المرتضى، علي بن الحسين بن موسى(ت٤٣٦هـ/١٠٤٥م)، **ديوان الشريف المرتضى**، ٣ج، (تح

رشيد الصفار وراجعه وقدم له مصطفى جواد ومحمد رضا)، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م.

- ابن موصلايا، العلاء بن الحسن بن وهب، (ت٤٩٧هـ/١١٠٤م)، **رسائل أمين الدولة**، ط١، (دراسة وتح الدكتور عصام مصطفى عقلة)، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٣ج، (تح فهيم شلتوت)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي(ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)،

- **معجم الأدباء -إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ط١، ٧ج، (تح إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.
- **معجم البلدان**، ط٢، ٧ج، دار صادر، بيروت.

المراجع باللغة العربية:

- البلوشي، إبراهيم بن عطالله، (٢٠٠٤م)، **كرمان في العهد البويهي**، الإمارات العربية المتحدة: مجمع أبو ظبي الثقافي.
- الدوري، عبد العزيز، (٢٠٠٧م)، **دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- صدّيقي، أمير حسن، (٢٠٠٧م)، **الخلافة والملكية في إيران في العصر الوسيط**، (ترجمة إحسان الثامري وتقديم عبد العزيز الدوري)، ألمانيا: منشورات الجمل.
- غضبان، علي حسن، (٢٠١٤م)، **البويهيون في فارس: دراسة في الأحوال السياسية والفكرية**، بغداد: دار ومكتبة عدنان.
- القيسي، ناهض عبد الرزاق، مراجعة عيسى سلمان، (٢٠٠٢م)، **النقود في العراق**، بغداد: بيت الحكمة.
- متز، آدم، (١٩١٤م)، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة)، القاهرة: بيت المغرب.

الرسائل الجامعية:

- **الزواهرة**، عمر، (٢٠١١م)، **العراق خلال عهد عضد الدولة البويهي**(٣٦٧-٣٧٢هـ/٩٧٨-٩٨٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليوموك، إربد، الأردن.
- طلفاح، مضر، (٢٠٠٦م)، **العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧هـ/٥٤٩-١٠٥٥م) وأثرها على الفكر السياسي السني**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

المجلات والدوريات العربية:

- التائب، إمحمد علي، (٢٠١٦م)، موقف الخلفاء العباسيين من التسلط البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م)، **مجلة فكر وإبداع المصرية**، مج٢، ع١٠٤.
- سعيد، عمر أحمد، شارك في التأليف حمدى، وجدان عبد الجبار، (٢٠١٣م)، الإمارة العقيلية في الموصل ودورها في التصدي للبويهيين (٣٨٠-٤٤٧هـ/٩٩٠-١٠٥٥م)، **مجلة دراسات موصلية في جامعة الموصل العراقية**، مج١٢، ع٣٩.

المراجع الأجنبية (الإنجليزية والتركية):

- Bosworth, Cilifford Edmund, (1973), **The Ghaznavids: their Empire in Afghanistan and Estern Iran**, Beirut: librairie du liban.
- Kabir, Maffizullah, (1964), **The Buwayhid daynasty Of Baghdad (334-447AH/946-1055AD)**, calculta: Iran society.
- Kraemer, Joel Lm, (1986), **Humanism in the renaissance of Islam: The cultural revival the Buyid Age**, Leiden: E.J brill.
- Lowes, B, Gibb, H, **The Encyclopaedia of Islam**,V, I, (1979), V, II, (1965), Brill, Leiden.
- Güngör, Aksu (2017), Gazneli Sultan Mahmud İle Karahanlı İlig Han'ın Horasan Mücadelesi, **Türk Dünyası Araştırmaları**, Cilt: 117 Sayı: 231 Sayfa: 115-126.
- Genç, Süleyman, Güz(2004), Halife el-Kâdir Döneminde Bağdat'ta Yaşanan Dini-Siyasi Hadiseler Ve onun Süni Siyaseti, **Marife**, sayı: 2, s. 219-243.

الملاحظات:

(١) آل بويه: احدى سلالات الديّلم حكمت في مناطق غرب ايران والعراق في الفترة الممتدة بين عامي (٣٢٠-٤٥٤هـ/٩٣٢-١٠٦٢م). يعود أصل السلالة البويهية في بعض الروايات إلى ملوك الساسانية، حيث استمدوا الاسم من بويه الملقّب أبو شجاع الذي أصبح من الشخصيات البارزة في عهد الدولة السامانية والزياريّة، تمكّن ثلاثة من أبناء أبو شجاع هذا من الاستيلاء على السلطة في العراق وبلاد فارس وخوزستان، وقام الخليفة العباسي حينها بالاعتراف بسلطتهم وتلقيبهم بألقاب السلطنة، وهم عماد الدولة (٣٢٠-٣٣٨هـ/٩٣٢-٩٤٩م)، وركن الدولة (٣٢٠-٣٦٥هـ/٩٣٢-٩٧٦م) وهو والد الملك عضد الدولة وجد الملك بهاء الدولة، ومعز الدولة أحمد (٣٢٠-٣٥٦هـ/٩٣٢-٩٦٧م). اتسمت الفترة البويهية في غالبها بالصراع على السلطة بين أفراد هذه الأسرة التي كانت نهايتها على يد دولة السلاجقة الأتراك أخيرًا.

(٢) فوض الخليفة العباسي سلطاته الدنيوية أي غير الدينية بمعنى آخر منذ سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م) إلى أمير الأمراء محمد بن رائق، ولكن بقيت للخليفة بعض الصلاحيات، فقد كان أمراء الأمراء يراجعون الخليفة، ويأخذون رأيه فيما يفعلون، وزال هذا الأمر تمامًا في الفترات التالية وتحديدًا بعد فترة حكم الملك البويهي معز الدولة.

(٣) وزر للطائع لله أربعة وزراء يشار لهم بالبنان، وهم على الترتيب، أبو الحسن علي بن جعفر بن نباتة، وأبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى، وأبو الحسن عيسى بن مروان، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان.

(٤) اختلفت الروايات في ضبط اليوم والشهر بين بدايات شعبان/آب أو في نهاياته، وبين شعبان ورمضان/ أيلول، إلا أنها أجمعت على السنة، ونعتقد أن الحادثة طانت في العشر الأواخر من شعبان؛ لأن رمضان له خصوصيته الدينية في التعامل أمام العامة مع مؤسسة الخلافة وبقية الرموز ذات السلطة الدينية، حيث نرى بأنه قد تم القبض على الطائع لله في شعبان، وإتمام أمر العزل والتولية في مستهل رمضان.

(٥) ومنها يقول: (بحر البسيط)

أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه
لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني
يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية
قد ضل ولاج أبواب السلاطين

(٦) تجدر الإشارة كتاب الخلع قد كُتِب نصه كاملا وجُهِزَ للتوقيع عليه من قبل كاتب بهاء الدولة حينها، وهو محمد بن عقيل بن عبد الله البغدادي الذي احتفظ بنسخة من هذا الكتاب في مكتبته، حيث وصلت هذه النسخة إلى حفيده المولود في (٤٣١هـ/١٠٤٠م) أبو الوفاء علي بن عقيل الذي نقلها لنا بدوره.

(٧) كان كاتبه الذي عينه بهاء الدولة هو أبو الفضل محمد بن أحمد عارض الديلم، وأستاذ الدار عبد الواحد بن الحسين الشيرازي.

(٨) يمين الدولة، أبو القاسم محمود بن سُبُكْتِكِينْ - محمود الغزنوي- هو حاكم الدولة الغزنوية في المدة من عام ٩٩٨م إلى ١٠٣٠م. كان لاكتسابه الشرعية من الخلافة العباسية أثر على فتوحاته وبداية مجادلته مع السامانيين الذين لم يكونو راضين عن الدخول تحت مظلة الخلافة العباسية إبّان خلافة القادر بالله (Güngör, 2017, s:115-126)

(٩) في أحد الحوادث الطريفة الدالة على الهيمنة البويهية على دار الخلافة، أرسل القادر بالله بشخص يدعى أبا يكر الباقلاني إلى بهاء الدولة ليوصل له رسالة فقام بهاء الدولة بتعيينه على الفور قاضيًا على منطقة عُمان والساحل وإرساله إلى هناك.

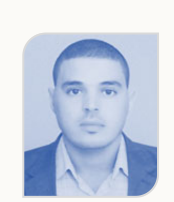
(١٠) إن المصادر التي اطلعنا عليها لم توضح بصورة مباشرة موقف بهاء الدولة من محاولات القادر بالله بخصوص هذا المحضر الذي كان له الأثر الكبير سواء على العامة أو على قادة الدول من حوله، ولكن ذلك يبقى غير منطقي في ظل سطوة بهاء الدولة على مؤسسة الخلافة؛ فيبدو أن بهاء الدولة قد وافق القادر بالله على أن يتمم المحضر ويبث دعايته. ما يدعم هذا الرأي هو سيطرة بهاء الدولة على البريد في ذلك الوقت الذي سيُبعث عبره البيان، ومن الجهة الأخرى وقوف أشخاص مقربين من بهاء الدولة أمثال أبناء الشريف الموسوي وتوقيعهم على المحضر الذي بلا شك كان بعد مشاورتهم لبهاء الدولة بالأمر، وهذا يأخذنا كما أشرت سابقًا للتأكيد على ظهور القادر بالله واستعادته لبعض خصوصيات مؤسسة الخلافة.

(١١) مثال: من العلويين الرضي والمرتضى، ومن القضاة أبو عبد الله الأكفاني، ومن الفقهاء أبو أحمد الاسفراييني، وأبو عبدا لله الصميّري، وأبو عبد الله البيضاوي، ومن الشهود، أبو القاسم التنوخي... وغيرهم. انظر حول ذلك (الذهبي، ٢٠٠٣، ج٩، ص١١؛ سبط ابن الجوزي، ٢٠١٣، ج١٨، ص١٩٩).



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

إشكالية تدبير ندرة الماء
بالمدينة المغربية الوسيطية



أبو العلا المصطفى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض

مراكش – المملكة المغربية

مُلَخَّص

واجهت مراكش إبان فترة تأسيسها أزمة حادة تتعلق بتزويد ساكنتها بالموارد المائية الكافية، وخاصة من أجل سقي البساتين والجنات التي ضمتها المدينة أو كانت بمحاذاتها، ومن أجل ذلك فقد سخرت مختلف إمكانياتها بغية توفير ما يلزم من هذا المورد النفيس. لقد انتقلت مراكش من مرحلة الخصاص والشح اللذان انعكسا على نوعية نباتها الذي كان السدر والحنظل، إلى مرحلة الوفرة والفيض، فتحول بذلك المشهد العام للمدينة وصارت قبلة للسكان بعد أن كانت خلاء موحشًا يطير الطير فوقها ويسقط من شدة العطش. وذلك بفضل تسخير تقنيات ووسائل مختلفة، برهنت من خلالها المدينة على قدرتها في تطويع المجال الذي صار أخضرًا يانعًا يوفر الحاجات الضرورية لعيش السكان. وقد توصلت الدراسة إلى أن شح المعطيات من داخل النصوص التاريخية من ناحية، وغموضها في أحايين أخرى، يخلق إشكالات عميقة تحول دون الإجابة على العديد من التساؤلات، والتي تدفع الباحث إلى تقديم اجتهادات وقراءات تبقى منطقية بالنظر إلى ما هو موجود بين ثنايا المصادر. ولعل التأريخ للتقنيات الهيدروليكية بالمغرب، أحد أبرز الإشكالات التي تسعفنا النصوص في وضع إطارًا معرفيًا متكاملاً عنها، الأمر الذي استغله المستشرقون من أجل وضع استنتاجات تنفي بأن يكون لسكان المغرب أي معرفة بها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٣ يوليو ٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الدولة المرابطية؛ الموارد المائية؛ الآبار؛ السواقي؛ مراكش

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2022.296950 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أبو العلا المصطفى، "إشكالية تدبير ندرة الماء بالمدينة المغربية الوسيطية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٥٤ – ٦١.

Corresponding author: elmustapha0505@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لا شك أن إشكالية تدبير الموارد المائية أصبحت تفرض نفسها اليوم على مختلف بلدان العالم، وخاصة منها التي توجد في رقع جغرافية تتسم بالندرة الناتجة عن قلة التساقطات أو جراء الاستنزاف المفرط للفرشات المائية بفعل الضغط الزراعي. وأمام هذا الوضع فإننا بحاجة ماسة إلى الاستفادة من مختلف التجارب الإنسانية والتي تمحورت حول طرق مواجهة الخصاص المائي.

وكما كانت لنا في التاريخ عبرة على مر العصور، فإن طرق تدبير المياه في المناطق الجافة موضوع سبقنا إليه أجدادنا، فسطروا لنا إبداعات غاية في الروعة والدقة جعلتهم يطوعون الطبيعة ويجعلوها في خدمة حاجياتهم. ونحن اليوم في حاجة ماسة إلى الرجوع إلى هذه التجارب والنهل منها ليس من أجل رواية التاريخ فحسب وإنما من أجل العمل على الاستفادة منها ومحاولة النسج على منوالها بغية الخروج من الأزمات المائية التي نعاني منها اليوم والتي من المحتمل جدا أن تشكل خطرا يتهدد الملايين من بني البشر في القادم من السنين.

إن الأزمات المائية لا ترتبط وفقط بتلك الأوقات التي تعرف فيها الموارد المائية شحا كبيرا لسبب من الأسباب والتي تكون فيها المدينة قد قطعت أشواطًا مهمة في طور العمران والتعمير، وبالتالي تكون المدينة مرغمة بالبحث عن حلول مؤقتة أو دائمة بغية إبطال مفعول الأزمة. لكن المدينة المغربية عرفت أزمات من نوع أخر، ارتبطت بشكل أساس بفترة النشأة والبناء. فمباشرة مع وضع أولى اللبنات ستطرح أمام بناة المدينة إشكالية ندرة المياه في موضع التأسيس، الأمر الذي شكل لهم عائقا في سبيل إتمام مشروع البناء.

انطلاقًا مما سبق تبدو محاولتنا هاته محفوفة بالصعوبات، وذلك بحكم غياب الحديث بشكل مباشر وصريح عن إشكالية ندرة الماء التي صادفتها المدينة الوسيطية، ذلك أن النصوص التاريخية لم يكن في حسبان أصحابها التطرق لهذه الإشكالية، باستثناء بعض الإشارات المتفرقة وربما غير المقصودة أحيانا. وذلك ليس بجديد عن المصادر المغربية والتي ألف الباحث في مضانها أن يكون ما توفره لا يرقى إلى الإجابة عن كافة التساؤلات التي يطرحها. يمكن القول بأن هذه الأزمات المراد الحديث عنها هنا تدخل في نطاق القاعدة العامة الموسومة بالتحدي والاستجابة، ذلك أن هذه المدن وضعت نفسها بنفسها في موقف شكل لها تحديا استجابت له بالبحث عن حلول. وهو ما سنسعى إلى الكشف عنه من خلال أنموذج مدينة مراكش المرابطية وذلك عن طريق الإجابة على التساؤل التالي:

كيف تعاملت مراكش مع إشكالية توفير الموارد المائية؟ وماهي الوسائل التي سخرتها في ذلك؟

لقد واجهت أغلب المدن المغربية المنشأة في الفترة الوسيطية إشكالات عديدة تتعلق بمصادر التزود بالماء وطرق استغلاله ووسائل نقله وتوزيعه. وتعتبر مدينة مراكش زمن المرابطين أنموذجًا صريحًا لهذه المدن، ذلك أنها وجدت نفسها في خضم أزمة تتعلق بتوفير الموارد المائية اللازمة، بحكم موقعها الجغرافي الذي يفتقر للمجاري المائية الكفيلة بتزويدها بحاجياتها الأساسية من الماء، مما أجبرها على التفكير في اعتماد وسائل وتقنيات من أجل الخروج من هذه الأزمة.

اعتبرت النصوص توفر الماء بموضع تأسيس مراكش شرطًا ثانويًا،[١] بل وعنصر تخوف طبيعي بالنسبة للمرابطين، فقد أشارت إلى أن هؤلاء لا يرغبون في الاستقرار بالقرب من المجاري المائية نظرًا للطبيعة الصحراوية للعصبية الصنهاجية "ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع [الأمير أبو بكر بن عمر] لهم من ذلك وقال: نحن أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكن على الوادي."[٢] وكذلك نظرا لما يحمله ذلك من خطر محدق بسبب الفيضان المتكرر لوادي تانسيفت.[٣]

تجمع المصادر على أن بناء مراكش قد تم فوق أرض جرداء لا نبات فيها،[٤] وتجعلنا هذه النصوص نستشف تخوفا وتوجسا واضحين لمؤسسي مراكش من الماء، فالفئة التي أوكل لها اختيار المكان اعتبرت أن أول معطى إيجابي في الموضع المختار هو كونه صحراء لا نبات فيها،[٥] في حين ذهب البعض إلى تفضيل موضع أخر بالقرب من الوادي،[٦] غير أن الفئة الأولى كانت تدري باستحالة اختياره من طرف الأمير (أبو بكر بن عمر اللمتوني)، الذي تورد النصوص على أنه يستكره هذا الاختيار بحكم تخوفه على الماشية من فيضانات الوادي.[٧]

إن ما تقدمه هذه النصوص يثير الشكوك، فإذا كان اختيار موضع مراكش بحكم بعده على الوادي، بسبب الخوف من هلاك المواشي، فإن الموضع لم يكن فعلا بذلك البعد، فواد (إغزر/إيسيل) يبقى قريبا مقارنة بواد تانسيفت، ثم إذا كان الاختيار مبعثه التخوف على المواشي فلماذا الاستقرار في بادئ الأمر بأغمات التي تعرف وجود مجرى مائي يمر من وسط المدينة؟

وما يثير الاستغراب هو غياب شبه تام لهذه المواشي بعد تأسيس مراكش، حيث نرصد تحولا واضحا في طبيعة المعاش للملثمين الذين أنشأوا الجنات والبساتين وتحولوا بذلك إلى فلاحين عوض رعاة. وهو ما لمحت له النصوص حتى قبل البناء، حيث بيّن من تكلف باختيار الموضع أن هذا الأخير يمتاز بقربه من بساتين (نفيس) وسهول دكالة،(٨) ما يدل على أن هناك نية مبيتة لاعتماد نمط الفلاحة والاستقرار عوض الرعي والترحال اللذين يتناقضان مع مبادئ التمدن والتحضر.

يمكن القول بأن نظرة مؤسسي مراكش لاختيار موضع المدينة قد تحكمت فيه بشكل أساس الاعتبارات السياسية والأمنية، ونخص بالذكر التحكم في جبال درن باعتبارها موطن العصبية المصمودية،(٩) ثم القرب من الصحراء وسهولة التنقل منها وإليها باعتبارها موطن العصبية الصنهاجية المكون الرئيس للدولة المرابطية،(١٠) بالإضافة إلى التحكم في الطرق الرئيسية الرابطة بين الشمال والجنوب وبالأخص التحكم في طريق الذهب. لكن هذا الاختيار وضع المدينة في أزمة مائية ستنكشف خيوطها مع وضع اللبنات الأولى للتأسيس.

المصادر المائية لمراكش زمن المرابطين

١-الآبار

إن اختيار موضع المدينة بعيدا عن الأنهار، خاصة تانسيفت بالنظر لأهميته، بث نوعا من الخوف في نفوس الناس ولم يحفزهم على الاستقرار بها، الأمر الذي دفعهم إلى البحث عن مصادر مياه بديلة (الآبار في بادئ الأمر) قبل الشروع في سكناها، وهو ما أشار إليه نص (ابن أبي زرع): " فحفر الناس بها الآبار وخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس."(١١)

أشارت أغلب المصادر إلى أنه رغم كون موقع مراكش كان عبارة عن صحراء لا تنبت إلا السدر والحنظل،(١٢) إلا أن مياهها كانت شديدة القرب إلى السطح، وقد اكتشف ذلك بعد قيام بناة المدينة على حفر أولى الآبار.(١٣) فكانت بذلك الآبار أولى المصادر المائية التي اعتمدتها المدينة من أجل تغطية حاجياتها من الماء، وخاصة مياه الشروب. أما السقي فيبدو أنه كان غير متاح بشكل كبير الأمر الذي يعكسه قلة عدد البساتين التي لم تبدأ بالانتشار إلا بعد استخدام تقنيات أخرى.(١٤)

يبدو أن عامل قرب الماء من السطح وفر كميات مهمة من المياه سهلت على المرابطين عملية البناء إلى جانب توفر أحجار جبل إيجليز،(١٥) مما جعل الآبار الوسيلة الأولى التي وظفت في بداية عمران المدينة كمصدر للتزود بالماء، الأمر الذي شجع الناس على الاستقرار بها.(١٦) فهل كان ذلك مجرد صدفة أم أن الجهة التي أوكل لها اختيار الموضع كانت على دراية بذلك؟ سؤال لا تسعفنا النصوص على الإجابة عليه.

٢-السواقي

إذا كانت أغلب المصادر التي أشرنا إليها أعلاه قد ربطت بين الآبار وقرب مائها من السطح وإقبال الناس على الاستقرار بمراكش، فإنها ربطت بين سقي البساتين واستنباط الماء أو جلبه من خارج المدينة. ومن بين الإشارات التي رصدت ذلك ما أورده (ابن سعيد المغربي) في وصفه لمراكش بقوله: " بناها يوسف... في أرض صحراوية، وجلب إليها الماء،(١٧) وأكثر الناس فيها البساتين."(١٨) نفس الأمر نجده عند (الشريف الإدريسي) الذي ربط بين انتشار البساتين وانتشار تقنية السقي التي استنبطها المهندس (عبيد الله بن يونس).

إن هذا المهندس جاء إلى مراكش في صدر(١٩) بنائها ولم يكن بها سوى بستان واحد، فابتكر تقنية لجلب المياه إلى البساتين يصفها (الإدريسي) قائلاً: "فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب على وجه الأرض يصب فيه فهو جار مع الأيام لا يفتر."(٢٠)

إن استدعاء المهندسين من الأندلس يجعلنا نستنتج أن المدينة واجهتها صعوبات في عملية التزود بالماء، وخاصة من أجل توفير اللازم منه لسقي الجنات والبساتين، في ظل التوسع العمراني والارتفاع السكاني الذي من المنطقي أن تعرفه عاصمة جديدة كانت منطلق الدولة من أجل بسط سيطرتها على بلاد المغرب والأندلس، وما يتطلبه ذلك من تجيش الجيوش وتوفير الغذاء الكافي لها.

لقد انطلق العديد من الباحثين(٢١) من نص (الإدريسي) أعلاه من أجل التأريخ لتقنية الخطارة بالمجال المراكشي، ونعتقد أن ذلك كان مغامرة كبيرة منهم. فالنص ليس بذلك الوضوح الكافي من أجل الركون إليه لوحده بغية استنتاج نوعية التقنية التي يتحدث عنها صاحب النص. فإذا كان (الإدريسي) يتحدث عن تقنية الخطارة فلماذا لم يوظف هذا المصطلح بشكل مباشر، في حين استخدمه في موضع آخر سابق من نفس الكتاب؟ وذلك عند حديثه عن بعض مدن (فزان) حيث قال واصفا بعض المنتوجات الزراعية لسكان المنطقة " ويزرعون الذرة والشعير ويسقونهما بالماء... بآلات تسمى أنجفة وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة."(٢٢)

إذن يبدو أن الإدريسي كان عارفا بالمصطلح "خطارة" لكن عدم توظيفه عند حديثه عن التقنية التي استخدمها المهندس (عبيد الله بن يونس) يطرح عدة تساؤلات. فهل ما سماه (الإدريسي) "خطارة" كان فعلا خطارة كما نعرفها اليوم؟ خاصة وأنه وظف عبارة " آلة"، وهذا المصطلح هو قريب من البعد الميكانيكي عكس تقنية الخطارة ذات البعد الطبيعي المعتمد على الطبوغرافية. فهل كان يقصد بالخطارة وسيلة أخرى مثل آلة الدولاب؟ خاصة وأنه أشار مباشرة بعد ذلك إلى وجود معدن الفضة الذي يستخرجه السكان من جبل قريب، ونحن نعلم أن المناجم الوسيطية وظفت بشكل كبير هذه التقنية إلى جانب الخطارة في بعض الأحيان من أجل استخراج المياه الموجودة في المناجم.[٢٣]

كل هذه الأسئلة لا نجد لها اليوم إجابات شافية، ليبقى النص المنطلق الشاهد الوحيد الذي يمكن توظيفه لاستكناه نوعية التقنية التي وصفها (الإدريسي) ولم يعط لها اسما. والتي نعتقد أنها تقنية السواقي، وذلك بحكم مجموعة من المصطلحات الموظفة في النص والتي تجعلنا ننفي أن يكون قصد النص هو الخطارة:

- العبارة الأولى هي كلمة "ساقية.. على وجه الأرض" فمعناها واضح لا يحتاج إلى كثير اجتهاد، وإن كانت الخطارة تعتمد في ربط آبارها التحت أرضية على قناة، فإن ذلك لم يلمح إليه النص الذي تحدث عن بئرا واحدة وليس مجموعة آبار، في حين نجد أن (صاحب الإستبصار) الذي عاصر بداية العهد الموحدي والذي في الغالب عاين تقنية الخطارة عن كثب فتحدث عنها قائلا، " وبساتينها تسقى من أبار منتفذ بعضها ببعض حتى تخرج على وجه الأرض".[٢٤]
- بالإضافة كذلك إلى عبارة "منسكب على وجه الأرض" وهو كلام بعيد كل البعد عن خاصية الخطارة التي تنقل الماء تحت الأرض وليس على وجهها.

ويدعم قولنا نص أخر ل(الإدريسي) والذي يقول فيه: "ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالون يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها."[٢٥] ونعتقد أن هذا النص لا يحمل بين طياته أي إشارة لتقنية الخطارة، فهذه التقنية تحتاج مواردًا مهمة ويدًا عاملة مؤهلة وبحجم كبير من أجل تفعيلها،[٢٦] وهو ما لا يمكن تحققه سوى من طرف الدولة، في حين أن النص يشير إلى "الناس" بمعنى أن الأمر كان بإمكان الجميع وليس حكرا على جهة معينة، وهذه الإمكانية هي التي ساهمت في الرفع من عدد البساتين في المدينة ومحيطها، بعد أن كانت تتوفر على بستان واحد في ملك شخص قريب من أمير المسلمين أنداك (علي بن يوسف)، وبعد أن كان الطائر يسقط فوقها من شدة العطش والرمضاء.[٢٧]

يعتبر نص (وصف إفريقيا)[٢٨] الوحيد الذي ربط بين الخطارة والفترة المرابطية، لكنه حدد مصدرها في (أغمات) في حين نجد نص (الإدريسي) يتحدث بشكل صريح على أن (عبيد الله بن يونس) استخرج الماء من " أعلى البستان" وبالتالي فهو يتحدث عن بستان بمراكش، ولم يتحدث عن ذهاب المهندس إلى (أغمات) من أجل تطبيق تقنيته.

هذا القول الذي دهبنا إليه لا نقصد منه غياب تقنية الخطارات عن مراكش المرابطية، وإنما أردنا منه إثبات أن الدولة المرابطية في عهدها ارتبطت البساتين بتقنية السواقي أولا، لكن يبدو أنها كانت موظفة بشكل هندسي دقيق ومتقن،[٢٩] قبل أن تعتمد تقنية الخطارات، والتي من المرجح جدا أن يكون (عبيد الله بن يونس) هو نفسه الذي عمل على استنباطها في هذه الفترة.[٣٠]

٣- الخطارات

كما أشرنا إلى ذلك سابقًا بأن مراكش إبان العهد المرابطي اعتمدت بشكل كبير على تقنية السواقي خاصة من أجل سقي البساتين، ورغم أننا رجحنا أن يكون المهندس (عبيد الله بن يونس) قد يكون أول من اعتمد تقنية الخطارات في مراكش، إلا أننا لا نتوفر على نص يؤكد ذلك، وما تنقله لنا النصوص هو حديث عام عن الخطارات، في غالب الظن أنها في العهد الموحدي، بحكم معاصرة كتاب هذه النصوص لهذا العصر، ونذكر هنا على سبيل المثال نص (صاحب الاستبصار)، الذي أشرنا إليه سابقا،[٣١] فهل يكون هذا الصمت الذي نحت إليه المصادر مقصودا؟ بحكم أن مجموعة من المدن نهجت سياسة إخفاء مصادر مياهها لدواعي أمنية، وخاصة تلك التي تكون منابعها خارج المدينة، كحالة مدينتي طنجة وزلول شرق أصيلا.[٣٢]

صمت من المحتمل أن تكون النصوص حدت حدوه بالنسبة لمراكش خاصة في العهد المرابطي، الذي تبلورت فيه فكرة جلب الماء من خارج المدينة إبان عهد علي بن يوسف، وذلك في ظل سيطرة العصبية المصمودية على جبال درن، حيث تنبع أغلب وأهم المجاري المائية بالمنطقة. ومن بين النصوص القليلة التي تكلمت عن هذا الأمر نجد نصا أخر ل(الإدريسي)،

حيث يقول: "وكان علي بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ولم يستتم ذلك فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم وبأيديهم تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر."[٣٣]

إذا كان هذا النص يبرز اهتمام المرابطين بجلب الماء من خارج المدينة، فإنه يحمل بين سطوره غموضا يبرز من خلال كلمتين متناقضتين، هما عبارة "جلب" وعبارة "لم يستتم"، فمعنى الأولى يوحي باستكمال عملية نقل الماء، فهي تدل على التمام والانتهاء، بينما العبارة الثانية تصرح بأن العملية لم تنته، وأن المصامدة هم من أشرفوا على استكمال عملية الجلب. فأي المعنيين نصدق؟ أم أن الإدريسي كان بصدد الحديث عن مشروعين اثنين، أحدهما انتهى فعلا في عهد (علي بن يوسف) ومشروع أخر نفذه الموحدون؟[٣٤] في حين استنتج أحد الباحثين أن (علي بن يوسف) تخلى عن فكرة جلب الماء من خارج المدينة بعد استقدامه للمهندس (عبيد الله بن يونس) الذي عمل على استنباط الماء من الفرشات المائية المجاورة لمراكش.[٣٥]

إن الإشارة إلى استعمال الخطارة الذي قد يكون تم في العهد المرابطي، قد جاء في نص متأخر أورده (الحسن الوزان) "ويؤكدون أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض.. وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش، فدخل بعض الأشخاص إلى القناة... ولما قطعوا بعض المسافة أحسوا بهبوب رياح شديدة أطفأت مشاعلهم... وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع ... حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم... ويقول المؤرخون إن الملك الذي أسس مراكش توقع بفضل معطيات بعض المنجمين أنه سيخوض معارك كثيرة فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق في تلك القناة حتى لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء إلى المدينة فلا يستطيع أن يقطع عنها."[٣٦]

يتضح أن (الوزان) يتحدث فعلاً عن تقنية الخطارة، غير أن توظيفه لعبارة "يؤكدون" تدل على أنه لم يعاين الأمر بشكل شخصي، وإنما وصل إلى مسامعه، مما يجعلنا لا نطمئن لهذه الرواية خاصة وأن المسافة الزمنية الفاصلة بين الدولة المرابطية ومجيئه إلى مراكش تعتبر مدة طويلة جدا. وحتى عند حديثه عن كون مؤسس مراكش هو الذي أنشأ هذه الخطارة لم يشر إلى مصدر المعلومة، وبالتالي يصبح تصديق كونها تمت في عهد المرابطين أمرًا صعبًا.

وعلى النقيض مما نقله (الوزان) هناك نصوصا أخرى أكثر قربا من العصر الموحدي ذكرت أن الخليفة الموحدي (عبد المؤمن) قد جلب مياها من نفس المنطقة أي بالقرب من أغمات.[٣٧] غير أن الوزان اعتبر ذلك، حسب ما نقله عن مؤرخين لم يحددهم، قد أنجزه (الملك الذي أسس مراكش)، والذي نقل إليه المنجمون أنه سيخوض حروبا طويلة ضد أعدائه، فاستعان بالسحرة من أجل إنجاز عوائق داخل القنوات التحت أرضية للخطارة، حتى يبقى أمر تزويد المدينة بالماء مضمونا وبعيدا عن كل الأخطار،[٣٨] فهل يمكن القول بأن (الوزان) يقصد بعبارة (الملك الذي أسس مراكش) الخليفة (عبد المومن) باعتبار التغيرات العديدة التي عرفتها مراكش في عهده، وبالأخص ما يتعلق بجلب الماء من أماكن بعيدة سواء إلى مراكش أو غيرها،[٣٩] أم أنه يقصد بذلك حرفيا مؤسس مراكش؟

إن التأريخ لتقنية الخطارة في المجال المراكشي بصفة خاصة والحوزي بشكل عام، خلق تضاربًا كبيرًا في الرؤى بين الباحثين،[٤٠] وإن كانت أغلب الآراء تقول بأن ذلك كان بواسطة فئات وافدة، قد تكون من الأندلس، خاصة وأن العهد المرابطي شهد استقدام مجموعة من المهندسين والصناع منها، من أجل القيام بمجموعة من الإنشاءات كبناء قنطرة واد تانسيفت.[٤١] وهنا نتساءل هل كان صعبا على المغاربة القيام بهذه المنشآت المائية، خصوصا وأن من هؤلاء الباحثين من أشار إلى كون خطارات الحوز ومراكش من تشييد (معلمين) من الجنوب المغربي.[٤٢]

فمن المنطقي ألا يكون استقدام جملة من الصناع والمهندسين فقط من أجل بناء قنطرة وحيدة، فمن الممكن جدا أن يكون هؤلاء قد ساهموا في إنجاز مجموعة من التقنيات والبناءات الأخرى والتي كانت المدينة في أمس الحاجة إليها، وخاصة ما تعلق بتزويد المدينة بحاجياتها من المياه، ليس فقط من أجل الشرب والذي من المحتمل أن يرتفع عليه الطلب بالنظر لتوافد الجيوش واتساع عملية الفتوحات، وكذلك أجل سقي البساتين والبحائر، سواء منها التي كانت خارج المدينة أو تلك التي أصبحت داخلها بعد تسويرها خلال عهد (علي بن يوسف).

بغض النظر عن أصول التقنية، ومن قام بإدخالها إلى المجال المراكشي، وعن نوعية الوسيلة المستخدمة، فإن مجموعة من النصوص أكدت أن المدينة عرفت تكاثرا في البساتين وغيرها من الحيازات الفلاحية بداية من العهد المرابطي، فـ(ابن القطان) المؤرخ الموحدي ومن خلال نقله

لوقائع إحدى أهم المعارك التي دارت بين المرابطين والموحدين، ونقصد معركة (البحيرة) التي جرت في سنة ٥٢٤هـ، أشار إلى البعض منها، وما تتوفر عليه من موارد مائية مهمة، حيث قال: "فكانت المدافعات بينهم على رؤوس العيون من سواقي الرقائق فاستشهد من استشهد من الموحدين وانحاز باقيهم إلى التمنع بداخل البحيرة. وإن حفير من تلك السواقي خندقًا عظيمًا مغاره في السعة ثلاثون ذراعًا".[٤٣]

أول شيء يمكن استخلاصه من خلال هذا النص، هو تاريخ المعركة ٥٢٤هـ أي بعد تسوير مراكش الذي كان في سنة ٥٢٠هـ.[٤٤] والشيء الثاني هو اسم المكان الذي وقعت فيه المواجهة "البحيرة"، وهو الاسم الذي سيطلق عليها فيما بعد، ومن المعروف أن لفظة (البحيرة) حسب (صاحب الاستبصار) تطلق على البساتين والجنات العظيمة،[٤٥] وبمأن هذه المعركة وقعت بعد التسوير فمن البديهي أنها وقعت خارج المدينة، الأمر الذي يزكي الانتشار الواسع لمختلف أشكال البساتين والجنات داخل وخارج المدينة، والتي كان سقيها يتم بواسطة السواقي. والتي يبدو من خلال وصفها بالعميقة، أنها كانت تنقل كميات مهمة من المياه، وبالتالي نرصد بوضوح مدى التحول الكبير في وضعية المدينة من ناحية الموارد المائية التي أصبحت توظفها في مختلف الأغراض لعل أهمها عملية السقي.

خَاتِمَةٌ

ختامًا، لقد استطاعت مراكش المرابطية الخروج من أزمة الماء التي وضعت نفسها فيها، وذلك باعتماد مختلف الطرائق، بدءًا بالآبار ثم السواقي وصولاً إلى الخطارات. فتحول موضعها من صحراء لا أنيس به سوى الغزلان والنعام، ولا ينبت إلا السدر والحنظل، إلى مكان أخضر يضم مختلف أنواع الجنات والبساتين. فرغم أن مؤسسي المدينة ضربوا عرض الحائط أغلب الشروط التي وضعتها كتب أحكام البنيان، والتي كان من الواجب توفرها في موقع المدينة، وعلى رأسها توفر الماء، إلا أن مراكش استطاعت التغلب على مشكل غيابه بطرق أدت إلى خلق تحول عميق ليس في مراكش وحسب، بل في المجال الحوزي برمته.

يخلق شح المعطيات من داخل النصوص التاريخية من ناحية، وغموضها في أحايين أخرى، إشكالات عميقة تحول دون الإجابة على العديد من التساؤلات، والتي تدفع الباحث إلى تقديم اجتهادات وقراءات تبقى منطقية بالنظر إلى ما هو موجود بين ثنايا المصادر. ولعلى التأريخ للتقنيات الهيدروليكية بالمغرب، أحد أبرز الإشكالات التي تسعفنا النصوص في وضع إطارًا معرفيًا متكاملاً عنها، الأمر الذي استغله المستشرقون من أجل وضع استنتاجات تنفي بأن يكون لسكان المغرب أي معرفة بها.

لازال البحث في موضوع تاريخ الماء بالمغرب غضا ويحتاج إلى جهود مضاعفة، وتضافر جهود كافة المجالات المعرفية، في سبيل تكوين صورة تقريبية لما كانت عليه الأوضاع في الماضي، ودون ذلك لا يمكننا التعامل مع مجموعة من الإشكالات التي يطرحها موضوع الماء في وقتنا الراهن وسيطرح المزيد منها في المستقبل القريب، في ظل ارتفاع الطلب على هذه المادة الحيوية والأساسية لعيش مختلف كائنات كوكبنا الأزرق.

الاحالات المرجعية:

(١) تطرقت مجموعة من النصوص الوسيطية لقضية تأسيس مراكش، وبعضها كرر نفس الكلام عن سابقيه، انظر: الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة ٢٠٠٢؛ مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، بدون تاريخ؛ ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٤، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣ ؛ مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، ط ١، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م ؛ ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، حققه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 ١٩٧٠ ؛ ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢.

(٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب** ج٤، م س، ص١٩.

(٣) حسب (الشريف الإدريسي) فهذا الواد كان دائم الجريان وإذا كان الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر، انظر: الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق** م س، ص٢٣٥.

(٤) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص٢٠٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٤، م س، ص١٩؛ مجهول، **الحلل الموشية**، م س، ص ١٦؛ ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، م س، ص ١٢٥؛ ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(٥) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، م س ص١٩.

(٦) ابن عذاري المراكشي، نفسه، ص١٩.

(٧) نفس المصدر ونفس الصفحة

(٨) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، م س، ص١٩.

(٩) شكلت القبائل المصمودية الخطر الأبرز على الدولة المرابطية، فهي كما وصفها ابن خلدون "لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعا. "انظر ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٦، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٤٥.

(١٠) المراكشي، عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، ٢٠٠٦، ص ٢٥٧.

(١١) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(١٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٤، م س، ص١٩.

(١٣) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، م س، ص ٢٠٩ ; ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(١٤) يشير الإدريسي في معرض حديثه عن تقنية جديدة للسقي بمراكش، أدخلها المهندس (عبيد الله بن يونس) إلى أنه قبل اعتماد هذه التقنية لم يكن بمراكش سوى بستان وحيد، الأمر الذي جعلنا نرجح أن الآبار التي كانت المصدر الأساسي قبل مقدم هذا المهندس لم تكن تعتمد للسقي بشكل كبير. انظر الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م س، ص ٢٣٣.

(١٥) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م س، ص ٢٣٤.

(١٦) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**، م س، ص١٣٨.

(١٧) لا نتوفر على أي نص يدعم فكرة جلب الماء من خارج المدينة في عهد يوسف بن تاشفين.

(١٨) - ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، ص١٢٥.

(١٩) أغلب الظن أنه يقصد فترة حكم (علي بن يوسف)، فحديثه عن هذا المهندس ربطه الإدريسي بهذا الخليفة، وذلك واضح من خلال قوله: "وهي [مراكش] في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير... بني منه قصر أمير المسلمين علي بن يوسف... وذلك أن الرجل المذكور وهو عبيد الله بين يونس جاء إلى مراكش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره". نزهة المشتاق، م س، ص ٢٣٣. ثم إن انشغال (يوسف بن تاشفين) بالفتوحات سواء داخل المغرب أو بالأندلس قد لا يترك له فسحة من الوقت لمثل هذه الأمور، عكس خلفه ابنه (علي بن يوسف) الذي لم تكن فترة حكمه بذلك الزخم من الفتوحات.

(٢٠) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص٢٣٣.

(21) COLIN, G.S, La Noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hespéris, Tom XIV, 1er trim, 1932, p p22-60 ; Pascon, P, Le Haouz de Marrakech, tom 1, Rabat, 1977, p.375-376.

وكذلك رابطة الدين محمد، **مراكش زمن حكم الموحدين، جوانب من تاريخ المجال والإنسان**، ج١، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط٢ ص ١٨٤، ٢٠١٦.

وقد اعتبر COLIN أن نص الإدريسي أول من ذكر مصطلح الخطارة، وذلك غير دقيق، حيث سبقه إلى ذلك (البكري) الذي أورد أن أحد القصور الموجودة في الطريق بين فاس والقيروان، ويسمى بـ(قصر الزرادبة) ويعرف كذلك بالخطارة. COLIN, La Noria marocaine, p 37؛ البكري، **المغرب في بلاد المغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٤٦.

(٢٢) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص١١٢.

(٢٣) انظر العجلاوي الموساوي، **تقنيات استخراج المياه الباطنية**، م س، ص ص ١٠٣-١١٦

(٢٤) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص ٢٠٩.

(٢٥) الشريف الإدريسي، م س، ص٢٣٤.

(26) Pascon Paul, Le Haouz de Marrakech, op cit, p.110-111.

(٢٧) - مجهول، الاستبصار، م س، ص ٢١٠.

(٢٨) الوزان، حسن، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣ ص ١٣٦

(٢٩) يؤكد ذلك العبارات التي وظفها (الإدريسي): "وماؤها... مستخرج بصنعة هندسية حسنة." الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص٢٣٣.

(٣٠) يرى بعض الباحثين أن الدولة المرابطية كانت عاجزة عن القيام بنفسها بأغلب المشاريع المهمة، بدءا باختيار موضع التأسيس، وجلب المياه وصولا إلى تسوير المدينة. كل ذلك قامت به العناصر الأجنبية عن العصبية الصنهاجية، عكس الدولة الموحدية التي تكلفت بنفسها بكل أمورها، انظر رابطة الدين محمد، مراكش زمن حكم الموحدين، م س، ص ١٨٧. لكن يبدو أن الأستاذ (رابطة الدين) قد أغفل فضل هذه العناصر الأجنبية على الدولة الموحدية كذلك، فهي التي قامت

بإنشاء مقصورة المسجد الجامع بمراكش بواسطة المهندس (الحاج يعيش المالقي)، والذي تكلف كذلك بالإشراف على بناء مدينة جبل الفتح (جبل طارق) دون إغفال إنجازاته بالأندلس إلى جانب المهندس (أحمد بن باسه) الذي عرف بعريف البنائين بالأندلس، وتنسب له العديد من الإنجازات سواء بالمغرب أو الأندلس. انظر: **الحلل الموشية**، م س، ص١٤٤ و١٥٥. ابن صاحب الصلاة، عبد الملك، **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧، ص ٣٧٧.

(٣١) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص ٢٠٩.

(٣٢) **طنجة**: "ماؤها مجلوب إليها في قنى من مكان بعيد لا يعلم أصله ولا يعرف من أين مجيئه، وإنما يظنون جهاته... وزلول مدينة ... في شرق أزيلي ... وشربهم كشرب أهل طنجة مجهول المبتدأ غير معلوم الأصل." ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ١٩٩٢. ص ٨٠.

(٣٣) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص٢٣٤.

(٣٤) ما يعطي لهذا التساؤل مشروعيته هو التضارب الواضح بين النصوص، فالنص الذي أورده الإدريسي يشير إلى أن أصل المياه المجلوبة هو عين ماء بينها وبين المدينة أميال، أما نص صاحب الاستبصار فهو يرجع أصل الماء إلى أودية درن، في حين يرجعه صاحب الحلل إلى مدينة أغمات. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٣٢. مجهول، الاستبصار، ص ٢٠٩. مجهول، **الحلل الموشية**، ص ١٤٥.

(٣٥) جلاب حسن، "**من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش**"، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٦٥، يونيو-يوليوز ١٩٨٧، ص ٧٧-٨٥.

(٣٦) الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، م س، ص١٣٦.

(٣٧) مجهول، **الحلل الموشية**، م س، ص١٤٥.

(٣٨) الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ص١٣٦.

(٣٩) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص١٠٩. ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، م س، ص٤٣.

(40) COLIN, G.S, La Noria marocaine, op cit, p p22-60 ; Pascon P, Le Haouz de Marrakech, Op cit, p.375-378.; Deverdun, G, Marrakech des origines à 1912, Édition Frontispice, Casablanca, p86-88.

(٤١) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م س، ص ٢٣٥.

(42) Deverdun, G, Marrakech des Origines, op cit, p 87.

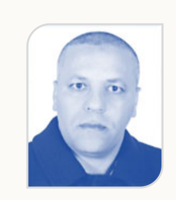
(٤٣) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ، ص ١٦.

(٤٤) مجهول **الحلل الموشية**، م س، ص ٩٠.

(٤٥) مجهول، **الاستبصار**، م س، ص٢٠٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الضريبة بين الشرعية الدينية والشرعية السياسية في العصر المرابطي



د. رشيد اليملولي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين – فاس
مديرية الحاجب – مكناس
المملكة المغربية

مُلَخّص

تنطلق هذه المحاولة من أساس معرفي ومنهجي مفاده وجود علاقة وطيدة تؤلف فيما بين الضريبة والشرعية الدينية والسياسية، انطلاقًا من تجارب الحكم الوسيط في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وتحديدًا التجربة المرابطية. فإذا كان من الثابت تاريخيًا أن هذا النظام السياسي قد زاوج في بداية تأسيس حكمه بين البعدين الديني والضريبي، من خلال الالتزام بالجبايات التي أقرها الشرع في إطار سياسة إصلاحية قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن مرحلة الدولة أو الطور الثاني في التصور الخلدوني سرعان ما تتجاوز الضريبة المنطلق الديني وتخضع "للمنطق السياسي"، تحت تأثير الشروط المرتبطة بهذا الانتقال والمتمثلة أساسا في الحاجة المالية الطارئة، التي تستدعي اللجوء إلى فرض ضرائب جديدة تكون محل انتقاد من قبل الفقهاء والمتصوفة. ولعل من بين أهم هذه الضرائب ضريبة المعونة التي فرضتها الدولة المرابطية للاستعانة بها في عملية "الجهاد"، ووقف منها بعض الفقهاء موقفًا حادًا. نروم في هذا المجهود بسط مظاهر علاقة هذه الضريبة بالسلطتين الدينية والسياسية في التجربة المومأ إليها سابقًا، ويتأسس هذا المسعى على مناقشة الدعامات الوثائقية التي اعتمدناها وسائل وأدوات للتدليل على تحديد الموقف الفقهي من منطلقات السلطة السياسية في فرض هذه الضريبة، ومساءلة السياق التاريخي ومدى استجابته للشرط الفقهي أو السياسي وعلاقة ذلك بشرعية الدولة ومشروعيتها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١١	يونيو	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الشرعية الدينية؛ الشرعية السياسية؛ الدولة المرابطية؛ ضريبة المعونة

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2022.297041 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رشيد اليملولي، "الضريبة بين الشرعية الدينية والشرعية السياسية في العصر المرابطي".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٦٢ – ٧١.

Corresponding author: rachidyamlouli@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تهفو هذه المحاولة رصد ملامح علاقة الضرائب ومنها المعونة بالشرعية الدينية والسياسية، من خلال الإشكال الذي ظل يؤرق السلطة السياسية الوسيطية، والكامن في ضمان موارد مالية تستجيب للمنطلقات الدينية والسياسية التي كانت وراء ميلاد مشروعها السياسي، ومن جانب ثاني تدعم التزامات الدولة العسكرية والجهادية والسياسية، فما حدود ومظاهر هذا الإشكال في التجربة المرابطية؟ وتكمن قيمة هذا العمل في طبيعته التي تفصح عن جوهر التقاطع والانفصال بين المجال الضريبي ووجهه السياسي والديني، وتحدد مسار شرعية الدولة في علاقتها بعموم المحكومين.

فرضية البحث

تتأسس فرضية هذا المجهود على وجود رابط وعلاقة وطيدة في مسألة فرض المعونة - بوصفها ضريبة حربية طارئة - والأساس الديني والسياسي الذي ينظم مسألة فرضها وأسلوب جبايتها، وعلى حدود الالتزام بهذه الأسس الناظمة سواء للمنطلق الديني أو المنطلق السياسي.

المنهجية المعتمدة

إن فحص وتتبع علاقة الضريبة بالشرعية السياسية والدينية، قد فرض علينا في مرحلة أولى تحديد مضامين المفاهيم المهيكلة للعمل، وفي مستوى ثاني تقويم الحصيلة المصدرية في علاقتها بموضوع العمل بالوقوف عند سماتها وخصائصها في رصد هذا الإشكال، والمقارنة فيها بين الرواية التاريخية والرواية الخاصة بفقه النوازل المعتمدة في هذا العمل، أملا في ترجيح وتقديم رواية "بديلة"، وفي مستوى ثاني مناقشة هذه الروايات في سياقها التاريخي، أي في علاقتها مع السلطة السياسية القائمة سواء في الجوانب المتعلقة بالشرعية الدينية أو السياسية.

تمهيد

إن الحديث عن المجال السياسي من دون استحضار أدواته المفاهيمية الأساس، والقادرة على تجلية الغموض وتعرية الالتباس، يعد حديثا من دون جدوى علمية، ولا يكتسي أي قيمة لأنه يرفل في معين الكلام المرسل وغير المؤطر بالحجة اللازمة، وسعيا منا للالتزام بهذا المعطى المنهجي نقدم في المستوى الأول المفاهيم المهيكلة لهذا المجهود وتحديدا مفهوم الشرعية والمشروعية لارتباطها بموضوع هذا المجهود، على أن نقف في مستوى ثاني عند الضريبة وعلاقتها بالأساس الشرعي والمعيار السياسي الذي يحكمها من خلال التجربة السياسية المرابطية، ومحاولة إضاءة هذا المستوى بالسياق السياسي والاقتصادي الذي واكب مسألة فرضها أو جبايتها، من خلال نموذج ضريبة المعونة في فترة محددة من العصر المرابطي أي فترة حكم يوسف بن تاشفين (٤٦٠ -٥٠٠هـ).

إن ما يضفي الشرعية على السلطة السياسية في المجال الحضاري الإسلامي هو مدى انسجامها مع الشروط التي أقرتها الشريعة وكتب الأحكام، وفي طليعتها الماوردي[١] والذي حددها في معيار العدالة، والعلم، وسلامة الحواس والأعضاء، والرأي المؤدي إلى سياسة الرعية وتدبير مصالحها، بالإضافة إلى النسب القرشي. وهذه المقاييس وإن كانت تخص الشروط الواجب توفرها في الخليفة، فهي أسس تقاس بها شرعية الحاكم، غير أنها تنحل عند ابن خلدون[٢] إلى شرط العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء والاختلاف بشأن النسب القرشي. والذي يستشف من خلال المقارنة بين الرأيين أننا بصدد انتقال يعني في جوهره تساقطا تدريجيا أملته الضرورة التاريخية، وتطور سلبي أباح لنفسه تجاوز هذه المبادئ والاكتفاء برسومها لصالح العمل بالمقتضيات التي تمليها المنفعة، هذا الفكر الذي تطور من شرعية دينية نحو شرعية سياسية فرضها الواقع عبر عنه الماوردي[٣] بقوله:" وثبات الملك بأن تكون القوة للسلطان ليصير قاهرا لهم ولا تكون القوة لهم فيصير مقهورا بهم"، وزكاه الغزالي بتأكيده على أن الولاية تتبع الشوكة فمن بايعه صاحبها فهو الخليفة[٤]، وقد أكمل ابن خلدون المنحى بتنصيصه الصريح على الشوكة والعصبية بوصفها وسيلة فعالة لإقرار الشرعية السياسية وتثبيتها[٥]، بشكل يدعو إلى التساؤل حول مضمون ودلالة هذه الشرعية، بمعنى مدى توافقها مع الشرع أو مع المصلحة السياسية وإرادة السلطان وسلطته الشخصية لا "المؤسساتية"[٦]، أم أن هذه الشرعية واكتسابها إنما يتوقف على واقع الأحداث وتطورها لا على أساس أحكام النصوص ومضامينها[٧].

يظل التساؤل القلق قائما حول إلحاح المرجعية السنية على مقوم القوة والردع بوصفهما الآليات الرئيسة المؤدية إلى اكتساب الشرعية والوصول إلى الحكم والإلحاح على ذلك، مما يفرض إعادة تقويم هذه الأطر، والفصل بين القول وآلية التفكير، خاصة وأن الفقه السياسي في الحضارة الإسلامية قد أعرض عن الدفاع عن القيم الدينية للسلطة السياسية، وأحال نفسه إلى أداة سياسية هدفها التبرير والتسويغ في أحايين كثيرة، لذا حق لأحد الدارسين[٨] أن يميز بين تصورين للمجال

السياسي؛ تصور فقهي شرعي يرى أن الدولة أداة لتحقيق الشرع، وتصور سلطاني يرى أن الشرع أداة لتحقيق الدولة، ومعناه أن هذا التصور يفترض الانفصال بين الشرعية الدينية والسياسية، يؤول بموجبها الشرع إلى وسيلة في يد الدولة لتحقيق شرعية مشكوك فيها، والحال فالشرعية التي تستمد منها الدولة أسس وجودها واستمراريتها وامتدادها السياسي، إنما تتأسس على القواعد التي تتوسل بها لبناء وجودها وممارسة سلطتها وتنفيذ قراراتها[9]، والتي تتخذ شكلين للسيطرة شكل مادي للإكراه، وشكل روحي ومظهر معنوي للقسر لكي لا تبدو متناقضة مع نفسها[10]، على هذا المنوال حسب ابن خلدون أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة إلى جانب العصبية إذ تؤدي إلى التقليل من التنافس والتحاسد وتفرد الوجهة إلى الحق[11]، والذي يبد وأن الشرعية المادية والسياسية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون بمعزل عن الهيمنة الرمزية الناعمة المتأتية من الدين، والتي تحفظ للدولة صورتها حتى تبدو راعية للدين وحامية له.

أما المشروعية فهي الحالة السياسية التي تعجز فيها السلطة القائمة عن تنفيذ مضامين القواعد الشرعية التي نادت وبشرت بها على مستوى الوجود والتنفيذ[12]، لذا تعيد صياغة الشرعية بما ينسجم والخطاب المؤسس ولو على مستوى التصور والنظري تحظى سلطتها بالرضى، وتضمن وجودها السياسي بضمان ولاء وطاعة المجتمع المحكوم سعيا منها للتوفيق بين المبادئ والأسس وبين الفعل والممارسة[13]، والذي يبد وأنه سواء كانت الشرعية مبدأ مؤسسا لأي سلطة، والمشروعية وسيلة لإعادة بناء الشرعي، فإن الذي يجمعهما هو مبدأ السيادة باعتباره المقياس الذي يضمن الهيمنة والسيطرة المادية منها والمعنوية، حتى وإن كان الدين قد استعمل في جل مراحل الدولة في التاريخ الإسلامي مجرد قناة وظفها الحكم حتى يبدو منسجما مع الشرع[14]، الذي توارى وغدا فقه النصيحة، وهو مفهوم حسب علي أومليل[15] ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم لفائدة الحاكم بعد أن انتهى إلى تقرير الأمر والتسليم له بمقولة الصبر على الظلم ولوجار السلطان، فهذا الغزالي يقول: " لأن السلطان الظالم مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه، وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه، ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء"[16]، وقد ارتقى هذا التسويغ إلى مرتبة التنازل والتغاضي عن الخطط الدينية وعدم الإلحاح عليها، و" تفضيل " الخطط السلطانية والعناية بها باستثناء مبدأ حراسة الدين[17]، واختفت عن الأنظار المناداة بالحكم الرشيد والراشد لفائدة الترويج لموقف السلطة بوصفها سلطة السنة والجماعة التي لا تجتمع على ضلالة[18].

أولاً: الضريبة بين الشرعية السياسية والشرعية الدينية

توصف الضريبة والحدث الجبائي عموما بأنها من الآليات الفاعلة في تحديد الشرعية السياسية للحكم السياسي الوسيط، الذي ساد لدى المرابطين والموحدين وبدرجة أقل لدى بني مرين وخلال فترة محددة من عمر الدولة، وتفهم هذه الشرعية ليس فقط في مرحلة الدعوة التي تستند إلى الضرائب التي أقرها الشرع، ولكن تناط أيضا بمجمل المشروع الإصلاحي والسياسي الذي يتجسد في مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يتجاوز إطاره الديني نحو تقعيد سياسة إصلاحية ذات توجه اقتصادي واجتماعي تمثل على وجه التحديد في محاربة المنكرات والرغبة في استئصال شأفتها، ووجه مادي من علاماته إسقاط المكوس والمغارم[19]، فالدولة قيد الدراسة سارت على السبيل الضريبي المبني على إصلاح الوضع الجبائي وما يتطلبه من إدانة باسم الدين، والوضع الاجتماعي وما يفرضه من تغيير بالرجوع إلى السلف الصالح وعمله في محاربة البدع والانحرافات[20]، ولكي يضمن السلطان شرعيته لا يتردد في تدشين عهده بحذف الجبايات المجحفة والجائرة، والسير على هدي الشرع في استخلاص ما فرضه الدين، ولا تخفى الغاية السياسية من هذه العملية، إذ تهفو نحو ضمان مباركة السلطة الجديدة واحتضانها بالدعم والمساندة القبلية المالية منها والعسكرية، وعليه نجاري أحد الدارسين[21] الذي أكد أن الحق في فرض الضرائب أو إسقاطها ليس إلا مظهرا من مظاهر السيادة، على أساسها يتحدد الولاء للدولة، كما تعد كذلك وسيلة من وسائل الهيمنة حيث تبيح مراقبة القبائل، وبواسطتها تقاس أيضا قوة الدولة وامتداد سلطانها، أو ضعفها واستهانة القبائل بها[22]، بحيث أن الرابط بين الدولة والمجتمع إنما يجد مظهره في مسألة البيعة التي تعني الهيمنة الرمزية، وإن كانت على المستوى التاريخي شكلية فهي ضرورية، والمظهر الثاني يتجسد في الالتزام الدوري بأداء الضريبة والإسهام في العمل العسكري، وبهذا فالمعنى السياسي للضريبة يتوقف بشكل كبير على الدلالة التي تمنحها لها الدولة وللدور الذي تنيطه بها[23]، وصيغة القوة هاته والمبنية على " العنف المشروع " و المتمثلة في الضرائب والمكوس والتي توظفها للحصول على الموارد والمكاسب هوما يجعل من

الدولة حسب الشدادي[٢٤] تقوم بدورين مزدوجين في هذا المجال دور في نظام التبادل ودور آخر في نظام التوزيع.

يقدم ابن خلدون[٢٥] صورة تاريخية عن الضريبة وعلاقتها بالزمن السياسي أو اللحظة التاريخية التي تمر منها الدول، ونحسب أن المرحلة الثانية من هذا " التمرحل " الضريبي حسب هذه الرؤية هو المقياس الذي سنعتمده لفهم الشرعية الدينية والسياسية، على اعتبار أن اللحظة المؤسسة غالبا ما تجنح فيها السلطة القائمة إلى الالتزام بالضرائب التي نص عليها الشرع، على خلاف مرحلة الدولة التي تقتضي الضرورة فيها فرض ضرائب جديدة تتنازعها شرعية دينية تنطلق من إمكانية حل الأزمة باللجوء إلى الضريبة المؤقتة والطارئة، وشرعية سياسية قوامها فرض الضريبة متى دعت الضرورة إلى ذلك[٢٦]، وقد اخترنا للتدليل على ارتباط الضريبة خاصة المعونة بالشرعية الدينية والسياسية نموذجا مرابطيًا في ظل فترة قوة الدولة حتى يتسنى لنا قياس درجة وشرعية هذا الرابط وهذه العلاقة.

ثانيًا: ضريبة المعونة بين الشرعية الدينية والسياسية عند المرابطين

صنف الشاطبي المعونة ضمن المصالح المرسلة التي تفرض المصلحة العليا ـ السيادة بالمفهوم الذي أشرنا إليه سابقا ـ فرضها مراعاة لأوضاع البلد والأخطار المحدقة به أو تلك التي تهدد كيانه[٢٧]، ويبدو أن الشاطبي كان محكوما في هذا التنصيص بالوضعية الأمنية التي كانت تعيشها الأندلس لكثرة الحاجة لما كان يأخذه العدو من المسلمين[٢٨]، ويضيف أحد الباحثين[٢٩] أنه حتى في حالة الخوف على الاقتتال لدى أهل الملة الواحدة فيما بينهم يجوز التوظيف عليهم لأن الغاية واحدة وهي إطفاء نار الفتن، وأهمية هذه الضريبة دفعت ابن الأزرق[٣٠] إلى ترتيبها ضمن الحق الرابع من الحقوق الواجبة اتجاه السلطان من قبل الرعية. وهكذا اجتهد بعض القضاة الفقهاء في تحديد الشروط الواجب توفرها شرعا لفرض هذه الضريبة واستخلاصها، ومنهم القاضي أبو عمر بن منظور، بحيث أن ما يجعلها مشروعة هو تعين الحاجة، وضرورة فرضها على أساس العدل، وأن يتجه دخلها للإنفاق حسب المصلحة لا بحسب الغرض، وأن يراعى في ذلك شرط الاستطاعة من غير ضرر، وأن يتم تفقد هذه الشروط في كل وقت وحين، حتى إذا سقط أحدها سقط معه شرط فرضها وجبايتها[٣١]. فهل التزم يوسف بن تاشفين بهذه القواعد الشرعية وهو يرغب بفرض معونة الجهاد، ذلك ما سنقف عنده من خلال بعض المؤشرات المصدرية سواء تلك المتعلقة بالرواية التاريخية أو بفقه النوازل.

يبدو من خلال التتبع أن الرواية التاريخية المشار إليها غلب عليها التشابه في المضمون[٣٢]، مع تسجيل بعض التباين، فرواية ابن عذاري تسجل أن فقهاء العاصمة أفتوا بجواز فرض المعونة ومنهم أبو الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس، على عكس رواية صاحب الاستقصا التي ترد عامة دون ذكر أسماء، وتتفق الروايتان في تحديد موقف قاضي ألمرية المعروف بابن البراء الذي أقر الأمر بشروط تتفق عليها الروايتان معا، إلا أن الاختلاف يبقى ظاهرا في مسألة فرض المعونة أم لا، ففي الوقت الذي تصرح فيه رواية ابن عذاري برد القاضي الرافض، لا تذكر أي شيء بخصوص فرضها أو التراجع عنها، بخلاف الناصري الذي يذكر أن يوسف بن تاشفين وعظه الله بقول القاضي ولم يعد في ذلك قولا، ويختم بقوله إنما الأعمال بالنيات، وهي إشارة مزدوجة إلى اتعاظ الأمير المرابطي وفي الآن ذاته حسن نيته في الرغبة في فرض هذا النوع الضريبي.

نخلص من البناء العام لكلا الروايتين، أن الغموض يلف مسألة فرض هذه الضريبة أم لا، وحتى يستوي الأمر عندنا لابد من إيراد الرواية الخاصة بالنوازل، وهي للبرزلي والونشريسي[٣٣]، والتي لم تسلم من التشابه والتناص ويتقوى ذلك إذا علمنا أن كلا الروايتين استقتا الكثير من نوازلها من ابن رشد، والونشريسي إنما كان في عمله موسوعيا يجمع النوازل دون اجتهاد كبير. ويبدو من المقارنة بين هذه الروايات أن رواية البرزلي توحي بإشارات أكبر خاصة تلك التي لها علاقة بالقاضي والنازلة التي أفتى فيها بعدم موافقته على خطوة ابن تاشفين، فقد أعفاه بمجرد وصول رده إلى الأمير المرابطي، وأكره على ولاية القضاء إلى أن مات شهيدا، في الوقت الذي لم تضف رواية الونشريسي جديدا وسارت على منوال الرواية السابقة للناصري[٣٤].

إن إجالة النظر في الروايات الأربع، يدفعنا إلى ترجيح مقولة فرض المعونة من قبل يوسف بن تاشفين استنادا إلى الشرعية الدينية التي قدمها فقهاء المغرب والأندلس معا، مع استبعاد إمكانية توقف ابن تاشفين عند رفض فقيه وقاضي وحيد، وبناء كذلك على الشرعية السياسية التي يتمتع بها الأمير بوصفه صاحب الأمر والسيادة، ونخالف في ذلك رأي دارس نبيه[٣٥] الذي افترض أن المعونة وعلى الرغم من محاولة ابن تاشفين فإنها لم تجب إلا في عهد ابنه علي بن يوسف، والقرائن التي نعتمدها

في ذلك تخص من جانب أول طبيعة السلطة التي أباحت لنفسها تجاوز النص ومن ثم رأي الفقهاء بإيعاز من الشروط الموضوعية التي فرضت تعبئة الموارد المالية لتغطية النفقات المتزايدة على المستوى الداخلي والخارجي، ومن جانب ثاني هناك إشارة لدى صاحب الأنيس يقول فيها أنه بعد وفاة الأمير يوسف وجد في بيته قدر مالي قوامه ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعون ربعا من مطبوع الذهب[٣٦]، كما أن انتصاراته العسكرية وتمهيده لبلاد المغرب من جزائر بني مزغنة إلى طنجة، وإلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب[٣٧] لم تكن لتتم دون موارد إضافية، والاعتماد فقط على الموارد المالية الشرعية وغنائم الحرب، ومما له دلالته في هذا السياق أن الأمير المرابطي تصرف سابقا في تحويل الملك لصالحه مع ابن عمه أبوبكر بن عمر بطبيعة سياسة محضة؛ وآية ذلك التدابير الاستباقية التي تؤكد نزوعه نحوالملك والاستحواذ عليه بوسائل " ترهيب " رمزية[٣٨] حيث وبعد سماعه بمقدم ابن عمه أركب الرجال وجمع القبائل والأموال وحشد الجيوش، وسلك في أهل المغرب قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت حسب ابن عذاري[٣٩]، وفي تقديرنا من الجائز افتراض موقف الغزالي من أموال السلاطين دعامة قد تؤيد رأينا، حيث رأى أن أموال السلاطين في عصره كلها حرام أوجلها[٤٠]، بل ويضيف حتى الخراج المضروب ـ بله المعونة ـ والمصادرات وأنواع الرشوة فهي حرام كلها، وهذا النقد لا يمكن أن يكون من فراغ، وعليه يمكن فهم عملية الإحراق التي وإن تمت في عهد علي بن يوسف من الصعب عزلها عن هذا السياق، إذ المعروف أن الغزالي وإلى جانب الطرطوشي قد أفتوا سابقا بتزكية الحكم المرابطي ومنحه الشرعية اللازمة[٤١]، لذا من شأن رواج هذا النقد من خلال رواج الإحياء كان يعني تهديدًا لشرعية السلطة المرابطية وثم صدر أمر الإحراق.

قرينة أخرى قد تفيد في دعم افتراضنا القائم على هيمنة الشرعية السياسية في فترة قوة الدولة على حساب المنطلق الديني، وتدعيما لمسألة فرض معونة الجهاد، هي ضريبة التعتيب التي لا تنفصل في طبيعتها عن المعونة بوصفها ضريبة عسكرية مرهونة بظروف الحرب، فقد ارتبطت في العصر المرابطي بترميم أسوار مراكش في عهد علي بن يوسف بعد تزايد الخطر الموحدي[٤٢]، وقد تم تعميم هذه العملية في الأندلس بتزكية من القضاة والفقهاء وفي طليعتهم أبو القاسم بن ورد، فبنيت على إثر ذلك الأسوار حول ألمرية وقرطبة واشبيلية بيسير من المعونة ودون ضرب ولا سجن [٤٣]. وكل هذه القرائن توضح حجية افتراضنا السابق والقائم على فرض المعونة لا بشرطها الديني فقط، وإنما بمنطلقها السياسي حسب السلطات المخولة للأمير بوصفه سلطانا يجلب المصالح ويدفع المفاسد بتدافع وصراع يميز الحياة السياسية في طبيعتها لا مثاليتها إذ هي في المقام الأول موسومة بالاستيلاء على السلطة والحفاظ عليها واستعادتها من أجل السيادة[٤٤]. ومن الأمور الدالة في هذا المستوى أن مسألة الإعفاء الجبائي لا تخضع لمنطق ديني بل تعود إلى طبيعتها وصفتها السياسية التي اعتمدها السلاطين لتقوية النسيج السياسي سواء الموالي والداعم لهم أو المسهم في غلبتهم، وهي كما أشار أحد الدارسين[٤٥] وسيلة الغاية منها الموافقة والاعتراف والرضى بالسلطة مقابل الإنعام على النابهين بالمال وألقاب التوقير والاحترام، ومنه الامتيازات التي خصصها المرابطون للعديد من الفعاليات بداية من الهدايا التي أتحف بها يوسف بن تاشفين أصحاب أبي بكر بن عمر الوافدين معه لاستعادة الملك[٤٦]، أوفي حق الجنود المرابطين الذين يظهرون النجدة والشجاعة فيكرمون بولاية موضع ينتفع بفوائده[٤٧]، أو بعض الرباطات كرباط تيط بأزمور[٤٨]، وبعض القوى السياسية التي بإمكانها تهديد الدولة مما يجبرها على دفع الثمن بمقابل سياسي هو اتقاء شرها وضمن ولائها مقابل تحريرها من الجباية، وهوما تعنيه عملية استحواذ العصبية اللمتونية على أعلى المناصب والامتيازات[٤٩]، وتلك عملية ذات وجهين في تصورنا؛ وجه سياسي يحاول تدجين المعارضة وضمان تقوية النسيج القبلي الحليف والموالي بتوسيع دائرة المستفيدين والمنتفعين، ووجه اجتماعي يفت في مسألة العدالة الضريبية بوصفها من المبادئ المؤسسة للشريعة، وجميع النظريات والآراء حتى تؤدى عن رضى وطواعية، وتكون سليمة في مبناها ومعناها[٥٠]، وكل محاولة للتميز بين من يؤدي ولا يستفيد، ومن يستفيد ولا يؤدي تؤول حتما إلى تقويض وضرب النسيج الاجتماعي، وإفراغ مفهوم العدالة وحتى الدولة من أي مضمون تعاقدي.

ومن الطبيعي أن يهدد ذلك الأمن الاجتماعي والسياسي، على عكس ما تبغيه سياسة السلطان من وراء عملية الإعفاء وظهائر التوقير ، فتقوية نسيجها السلطوي على حساب الفئات الاجتماعية القادرة وغير القادرة على الأداء، لا محالة آيل إلى التفقير وإضعاف القوى المنتجة حسب الطرطوشي :" وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرض فيتركونها فتخرب الأرض وتهرب الزراع فتضعف العمارة فيضعف الخراج وينتج عن

ذلك ضعف الأجناد"[٥١]، وهذا ما قد يحول الدولة من خادمة للمجتمع إلى جهاز ضريبي قائم عنوانه التكاليف المالية الكثيرة والمتنوعة كما ونوعا، وليس ذلك وحسب بل حتى الأسلوب المستعمل في الجباية ـ اليد الثقيلة بتعبير عبد الله العروي ـ قد يكون دالا في هذا المعنى خاصة في فترات الضعف، وذلك ما جعل الدولة تبدو وكأنها جهاز طفيلي يقتات على الفائض الاقتصادي الهزيل، دون أن يفيد الفئات المنتجة كبير فائدة[٥٢]. انسجاما مع ذلك، نتساءل عن السياق السياسي والاقتصادي الذي كانت تعيشه الدولة في عهد الأمير المرابطي هل كان موجها أو محددًا لفرض هذا النوع من الضريبة؟

لا شك أن الصعود المرابطي قد أسهم سياسيا في توفير الظروف المناسبة للاستقرار في الإنتاج من خلال توحيد المجال، وقطع دابر الفوضى السياسية فيما يعرف بمفهوم الدولة الموحدة ، وليس خافيا أن طبيعة الفترات الأكثر إنتاجا تتوافق وفترة الاستقرار السياسي الذي يجسده بشكل خاص يوسف بن تاشفين ومرحلة حكمه (٤٦٠ – ٥٠٠هـ) إذ لم تتردد غالبية الروايات التاريخية ومنها ابن أبي زرع[٥٣]، والناصري[٥٤] في تقديم صورة عن مستوى الأمن الذي عرفته فترة حكم الأمير يوسف من خلال نفي أي تجاوز جبائي عنه، أو شطط مرتبط به، وهوما قد نلمسه في غياب أي ثورة اجتماعية، باستثناء تمرد أهل القبلة من سجلماسة [٥٥] والذي نفتقر لقرائن قوية تفسره. وبصرف النظر عن الهدوء الذي عرفته الدولة في عهد هذا الأمير، فإن بعض الإشارات التي حوتها بعض المصادر، تدفعنا إلى ترجيح مسألة فرض المعونة، بحيث التزم ابن عباد وهومن ملوك الطوائف بتوفير مئونة عملية الجهاد في الأندلس -التي دشنها يوسف بن تاشفين- والتي يسميها صاحب الحلل الموشية الضيافة، وما رافقها من لوازم سواء في إشبيلية أو الجزيرة الخضراء[٥٦] وذلك طيلة مراحل العبور المرابطي إلى الأندلس، مما يقوي من مسألة فرض المعونة ارتباطا بالجهاد انسجاما مع أزمة طارئة، أو عدم كفاية المقدرات المالية للقيام بهذه المهمة.

أما السياق الاقتصادي، فمن المعلوم أن الدولة المرابطية استفادت تجاريًا من قرار تحويل مسالك التجارة الشرقية من قبل ابن طولون في القرن ٤هـ/١٠م، لأسباب أمنية وطبيعية[٥٧]، وازدهر بالمقابل الطريق الغربي بانتقال الثقل الاقتصادي نحوه، بحيث كان له أثر كبير في دعم التجربة المرابطية وتقويتها ماليا، والتي منحت الحيوية لنظام القوافل البرية[٥٨]، بالمزاوجة بين مراقبة هذه المسالك وقبض الرسوم المترتبة عنها وفق ما تجسده الطريق اللمتونية التي جمعت بين طريق التجار وطريق الجند[٥٩]، لدرجة أن أحد الدارسين[٦٠] ظن أن التجربة المرابطية إنما اكتفت بتتبع المحاور التجارية والتمركز بمحطات القوافل عند غزوها لباقي مجال المغرب الأقصى، وإذا كان من الثابت أن هذا الطريق لم يبدأ في التحول إلا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وفق ما جاء عند عز الدين عمر موسى[٦١]، فإن الذي يمكن افتراضه هو أن المداخيل المتأتية من التجارة قد تم إنفاقها في مجالات غير منتجة وعابرة ـ ريعية بالأساس ـ ومنها الإنفاق الذي لجأ إليه يوسف ابن تاشفين لتركيز حكمه وتثبيته[٦٢]، وذلك الذي قد يفسر اللجوء إلى فرض ضرائب جديدة ومنها المعونة بغاية تغطية نفقات الحروب المتتالية خاصة على الجبهة الأندلسية التي استنزفت مالية الدولة المرابطية.

خاتمةٌ

تبين من خلال عرض بعض مظاهر الموضوع أن الضريبة وجهت الشرعية السياسية للدولة المرابطية، بإجبارها على ترسيم أسس العدالة الضريبية في مرحلة الدعوة، من خلال الاقتصار على الضرائب التي أقرها الشرع وما قدمته غنائم الحرب، بدت مع ذلك حركة إصلاحية لها مقومات الوجود بالمفهوم الديني المعروف بسياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مستوياتها المتعددة الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

غير أن مسار تطور الدولة وانتصاب الخطر النصراني في الأندلس وتهديده لدار الإسلام، قد فرض عليها ضرورة تنويع المصادر المالية ـ نسق الضرورة ـ بقرار سياسي توسل بالدين فيما يعرف بالمصالح المرسلة، لتبدو هذه الضرائب ومنها المعونة مبنية على أساس ديني، وهو الإجراء الذي حفز بعض الفقهاء إلى الوقوف في وجه هذا المستحدث الضريبي والوقوف في وجهه حسب ما تمثله حالة الفقيه والقاضي ابن البراء قاضي ألمرية، متعللاً في ذلك بافتقار سلطة يوسف بن تاشفين لمقومات حكم السلف الصالح وأكثر تحديدا ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب والتدابير التي اتخذها في سبيل الحصول على منفعة المعونة.

إذا كانت العدة المصدرية قد وفرت لنا بعض العناصر الخاصة بمحاولة الأمير المرابطي فرض المعونة، فقد كانت قاصرة بحكم طبيعتها المتمثلة في التناص والنمطية وإن بدرجات مختلفة، عن تفسير هذا التدبير في ظل الغموض الذي طال مآل الرغبة في فرضها، حيث لا تقدم الروايات المعتمدة أي معطى يخص إقرارها من قبل ابن تاشفين، لدرجة تدفعنا إلى

الاعتقاد أن هذه الروايات اكتفت بعرض الخبر وإيراد المعلومة، دون الإحاطة بملابساتها وسياقاتها ومآلها، وهكذا دفعتنا القراءة الواعية والحذرة في الآن ذاته للأحداث التاريخية والأساس الذي يحكمها إلى افتراض وترجيح إقرار هذه الضريبة بناء على مؤشرات عدة؛ ومنها أن يوسف بن تاشفين وقبل أن يراسل قاضي ألمرية تسلح بفتوى قضاة وفقهاء العدوة المغربية والأندلسية، وأنه كان يبحث فقط عن قرار التزكية والموافقة والنصيحة لإقرار هذا الإجراء، فلا يعقل والحالة هاته أن يكون فقيه وقاضي وحيد حائلاً ومانعًا أمام فرضها ، ولا معنى هنا للرواية التاريخية ممثلة في الناصري، أو الرواية النوازلية ممثلة في الونشريسي لاتعاظ صاحب الأمر وتراجعه عن قرار فرض المعونة، وذلك للعديد من القرائن التي تدل على استناد الأمير المرابطي على سلطته السياسية في اتخاذ القرار، ومنها أسلوبه في تنحية ابن عمه عن الملك والذي تم بطريقة سياسية محضة اعتمدت الترهيب الرمزي الدال عليه طبيعة الهدية ومحتواها وقيمتها، وما رافقها من مراسيم استقبال "ملوكية" كان فيها الهاجس السياسي والمصلحة حاضرين بقوة على حساب المنحى الأخلاقي والديني الذي حاولت الروايات التاريخية إسباله على عملية انتقال السلطة من أبي بكر بن عمر إلى ابن عمه، والمؤشر الثاني الدال في هذا السياق هو المقدرات المالية التي توفر عليها يوسف بن تاشفين لاستكمال مهمته العسكرية في بلاد المغرب والأندلس، والتي من الصعب أن تتم دون وجود مدخرات مالية رجحتها إشارة ابن أبي زرع والناصري بخصوص القدر المالي الذي خلفه بعد وفاته، ويمكن أن يسندها في مرحلة لاحقة إقرار ضريبة التعتيب[٦٣] والتي لاقت قبولا واستحسانا من قبل الفقهاء والسكان. ويتجلى المؤشر الرمزي في ظهائر التوقير والتحرير الجبائي التي همت فعاليات عدة، والتي انطلقت من أساس سياسي لا شرعي بغرض تقوية الحلف المساند للسلطة. وآخر هذه المؤشرات تتعلق بالنقد اللاذع الذي وجهه الغزالي لأموال السلاطين والتي حسبها كلها خارجة عن نطاق الشرع، لكل ذلك بدا لنا أن يوسف بن تاشفين قد فرض وأقر ضريبة المعونة مستندا في ذلك على شرعية دينية قدمها له فقهاء السلطة، وعلى قرار سياسي - سيادي، والحال أن القرار قد تم بمحدد اقتصادي قوامه عدم قدرة المتوفر ماليًا على تغطية نفقات باهظة لعملية العبور إلى الأندلس، بالإضافة إلى المحدد السياسي الذي يجد سنده في التهديد الذي شكلته دار الحرب على دار الإسلام في الجبهة الأندلسية.

الملاحق

ملحق رقم ١

يقول ابن عذاري: "وقد روي أيضًا أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المعونة على ما هو بدده، فوصل كتابه إلى ألمرية في هذا المعنى، وذكر فيه أن جماعة أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أهل ألمرية لقاضي بلدهم وهو أبو عبد الله ابن الفراء أن يكتب جوابه، وكان القاضي من الدين والورع على ما ينبغي، فكتب إليه: أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة، وتأخري عن ذلك وأن الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها وكان صاحب رسول الله (ﷺ) وضجيعه في قبره، ولا شك في عدله وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله (ﷺ) ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلة في العدل فالله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك. وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وحلف أن ليس عنده درهم واحد في بيت للمسلمين ينفقه عليه، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين وحينئذ تستوجب ذلك والسلام"

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج٤، ١٩٨٠، ص ١١٨.

يقول الناصري: "ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضا ما نقله غير واحد من الأئمة أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال على ما هو بصدده من الجهاد، وأنه كتب إلى قاضي ألمرية أبي عبد الله محمد بن يحيد عرف بان البراء - يأمره بفرض معونة ألمرية ويرسل بها إليه، فامتنع محمد بن يحى من فرضها، وكتب إليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك. فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء قد أباحوا فرضها، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه، فراجعه القاضي عن ذلك بكتاب يقول فيه: الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا. وبعد فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية، فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله (ﷺ) ووزيره وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله (ﷺ) ولا بوزيره ولا بضجيعه

في قبره، ولا ممن يشك في عدله، فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر رضي الله تعالى عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى عليه وسلم، وحصر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم، فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته، والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته" فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله تعالى بقوله، ولم يعد عليه في ذلك قولا. والأعمال بالنيات.

أبو العباس الناصري، الاستقصا، ج٢،، ص ٥٣-٥٤.

ملحق رقم ٢

يقول البرزلي: "فقد نزلت بالأندلس في أيام الأمير يوسف بن تاشفين، وكتب فيها إلى القاضي أبي عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكرياء المقري الزاهد الأنصاري من أهل ألمرية وكان زاهدا ورعا فاضلا، فكتب إليه الأمير يوسف بن تاشفين كتابا في ولايته الأولى يعلمه أنه احتاج إلى شيء من المعونة وأن يعينه في اقتضائها من الرعية، وأنه سأل في ذلك الفقهاء والقضاة وأهل العلم فأفتوه بذلك وأعلموه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعل ذلك عند الحاجة، فكتب إليه القاضي المذكور مجاوبا على ذلك الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه اتكالنا. ما ذكره أمير المسلمين وناصر الدين من اقتضاء المعونة وفتوى الفقهاء والقضاة بذلك وان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد اقتضاها فالفقهاء والقضاة الذين أفتوه بذلك من القبور إلى النار بغير زبانية، لأنه إذا كان عمر قد اقتضاها فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه صهر النبي (ﷺ) وصاحبه ووزيره وضجيعه في قبره، ولا شك في عدله. وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد النبي (ﷺ) بحضرة أصحابه وحلف أنه ليس عنده من مال بيت المسلمين شيء ينفقه عليهم في سبيل الله، وحينئذ اقتضاها على أبروجه وأحسنه وأعدله، ولست ـ يا أمير المسلمين ـ بصهر النبي (ﷺ) ولا وزيره ولا صاحبه ولا ضجيعه في قبره، وقد يشك في عدلك، فإن كان الفقهاء والقضاة قد أنزلوك منزلة عمر من العدل فالله سائلهم عن تقليدهم فلتدخل المسجد بحضرة من هناك من أهل العلم وتحلف أنه ليس عندك من مال بيت المسلمين درهم فأعفاه من خطة القضاء ثم بعد ذلك وليها كرها بشروط، وبقي حتى خرج غازيا إلى كتندة فاستشهد فيها سنة أربع عشرة وخمس مئة"

أبو القاسم بن أحمد البلوي البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم وتحقيق الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي بيروت ط١، ج١، ٢٠٠٢، ص ٥٦٦-٥٦٧.

يقول الونشريسي: "وفي هذا المعنى من اقتضاء المعونة كتب الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى قاضي ألمرية محمد بن يحيى عرف بابن البكراء (وفي الهامش ابن الفراء) رحمهما الله يأمره بفرض المعونة ويرسل إليه بها، فامتنع محمد بن يحيى من فرضها، وكتب إليه يخبره أنه لا يجوز له فرضها فجاوبه الأمير يخبره بأن القضاة عنده والفقهاء قد أباحوا له فرضها ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه فراجعه القاضي ولي أمير المسلمين في الله تعالى محمد بن يحيى: الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا وبعد، فإنه بلغني كتبك تذكر فيه ما كان من تأخري عن المعونة وقبضها وأن القضاة والفقهاء أفتوك بقبضها وأن عمر رضي الله عنه اقتضاها فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية فإن عمر قد اقتضاها فكان صاحب رسول الله (ﷺ) ووزيره وضجيعه في قبره، ولا شك في عدله. وأنت لست مصاحبا لرسول الله (ﷺ) ولا وزيره ولا ضجيعا له في قبره، وقد يشك في عدلك وما اقتضاها عمر حتى دخل المسجد بحضرة من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده درهم غي بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فإن كان الفقهاء والقضاة قد أنزلوك كمنزلته في العدل، فالله حسيبهم وسائلهم على تقلدهم ذلك، فلتدخل المسجد بحضرة من هناك من أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك في بيت مال المسلمين درهم تنفقه عليه، وحينئذ تجب تقويتك والله تعالى على ذلك كله الحق والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" فلما بلغ ذلك أبا يعقوب، وعظه الله بقوله ولم يعد عليه في ذلك أمرا والأعمال بالنيات.

الونشريسي، المعيار المعرب، ج ١١، ص ١٣٢-١٣٣.

الاحالات المرجعية:

(١) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق سمير مصطفى رباب، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠١، ص ١٤.

(٢) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٥، ص ١٨٠.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **قوانين الوزارة وسياسة الملك**، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص.١٤٥

(٤) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، تقديم ومراجعة محمد جميل العطار، دار الفكر بيروت ط١، ج٣، ٢٠٠٢، ص ١٢٢.

(٥) عبد الرحمن ابن خلدون، المرجع السابق، ص١٤٣-١٤٨، ولمزيد من التوسع انظر: الفصل الأول والسادس، والعناوين المعبرة عن ذلك "في أن الملك والدولة العامة إنما يحصان بالقبيل والعصبية"، و "في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم".

(٦) حنا ميخائيل، **السياسة والوحي الماوردي وما بعده**، ترجمة شكري رحيم، مراجعة رضوان السيد، دار الطليعة بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص ٧٨.

(٧) علي الإدريسي، **الإمامة عند ابن تومرت**، ديوان المطبوعات الجزائرية، ص٣٦.

(٨) عز الدين العلام، **الآداب السلطانية**، مجلة عالم المعرفة، عدد ٣٢٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ٢٠٠٦، ص ٢٠١.

(٩) الفقيه الإدريسي، **الجباية في عهد الدولة السعدية**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب سيدي محمد بن عبد الله فاس ١٩٩٤-١٩٩٥، رسالة مرقونة، ص ١٦٠.

(٩) عبد الحق الطاهري، **الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي**، دار أفريقيا الشرق الدار البيضاء ٢٠١٥، ص ١٠١.

جاك دونديو دوفابر، **الدولة**، ترجمة سموحي فوق العادة، منشورات عويدات بيروت ط٢، ١٩٨٢، ص٦-٩.

(١١) ابن خلدون، المرجع السابق، ص ١٤٠.

(١٢) الفقيه الإدريسي، المرجع السابق، ص ١٦٠.

(١٣) عبد الحق الطاهري، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(١٤) كمال عبد اللطيف، **في تشريح أصول الاستبداد قراءة في نظام الآداب السلطانية**، دار الطليعة بيروت ط١، ١٩٩٩، ص ٢٣٤.

(١٥) علي أومليل، **السلطة الثقافية والسلطة السياسية**، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط١، ١٩٩٦، ص.١٥

(١٦) الغزالي، المرجع السابق، ص١٢٢.

(١٧) علي أومليل، المرجع السابق، ص ١٣٧-١٣٨، كمال عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ١٩٦.

(١٨) إبراهيم بيضون، **المماليك ومأزق الشرعية**، مجلة الاجتهاد، السنة ٦، العدد ٢٢، دار الاجتهاد بيروت ١٤١٤/١٩٩٤، ص ٤٠.

(١٩) الكبير بزاوي، **دور الدعوة في نشأة الدولة المغربية**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٨٦-١٩٨٧، رسالة مرقونة، ص٣٢٨.

(٢٠) محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ١٩٨٧، ص.٧٩

(٢١) عبد الكريم فتحي، **الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي**، دار التوفيق النموذجية، ط٢ ١٩٨٤، ص٥٥.

(٢٢) علي أومليل، **الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون**، معهد الإنماء العربي بيروت، ص ١٤٢-١٤٣.

(٢٣) صباح نعوش، **الضرائب في الدول العربية**، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط١، ١٩٨٧، ص٦.

(٢٤) عبد السلام الشدادي، **ابن خلدون من منظور آخر**، ترجمة بشرى الفكيكي ومحمد الهلالي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ط١، ٢٠٠٠، ص٨.

(٢٥) ابن خلدون، المرجع السابق، الفصل ص٢٥٥.

(٢٦) عبد الغني خالد، **الهوية التاريخية للنظام الضريبي المغربي**، مجلة مسالك في الفكر والسياسة والاقتصاد، العدد٤، ٢٠٠٥، ص٤٦.
وحول مزيد من التفاصيل، انظر: رشيد اليملولي، **الضرائب في الغرب الإسلامي وأثرها في التاريخ السياسي ٤٤١-٥٨٦٨/١٠٤٩-١٤٦٤م**، رسالة لنيل دكتوراه وطنية، جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس ٢٠١٠-٢٠٠٩، رسالة مرقونة.

(٢٧) إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الاعتصام**، اعتنى به وراجعه هيثم طعيمي ومحمد الفاضلي، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٠، ص ٣١٤.

(٢٨) أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب**، دار الغرب الإسلامي ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، ج١١، ١٩٨١. ص١٢٧ – ١٢٨.

(٢٩) محمد مفتاح، **التلقي والتأويل مقاربة نسقية**، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط٢، ٢٠٠١، ص ١٣٨

(٣٠) أبو عبد الله محمد ابن الأزرق، **بدائع السلك وطبائع الملك**، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، ص ٥٦٥

(٣١) الونشريسي، المرجع السابق، ج ٥، ص ٣٢-٣٣.

(٣٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ط٢، ج٤، ١٩٨٠، ص ١١٨، انظر الرواية كاملة في الملحق رقم ١. أبو العباس الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر وامحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، ج ٢، ١٩٥٤، ص ٥٣-٥٤، انظر الرواية كاملة في الملحق رقم ١

(٣٣) هناك غموض كبير يلف نوازل ابن رشد الجد حين لم يأت على ذكر هذه النازلة وهو المعايش للحكم المرابطي، بل و كان له الدور الأساس في مسألة تسوير مراكش بفعل التهديد الآتي من ثورة ابن تومرت، ومما قد يرجح الأمر أنه توقف عند بعض النوازل المتعلقة بالسلطة المرابطية (ص ٥٥٢-٨٨٢) منها ما استرجعه يوسف بن تاشفين من الأملاك التي غصبها ابن عباد في اشبيلية (ص١١٩٧) ومن الصعب أن لا يكون ابن رشد قد سمع أو تلقى موقف ابن البراء أو نمي إلى علمه ذلك، باستثناء أن يكون ابن رشد يجيب بقدر ما يطرح عليه من مسائل آنية و مستعجلة. أبو الوليد ابن رشد (الجد) **مسائل أبي الوليد ابن رشد**، تحقيق ودراسة محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل بيروت ودار الآفاق الجديدة، ط ٢، ج ١ – ٢، ١٤١٤/١٩٩٣.

(٣٤) عمدنا كذلك إلى تقديم رواية البرزلي الونشريسي في شكل ملحق لأهميتهما في الملحق رقم ٢.

(٣٥) إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة ط١، ٢٠٠٦، ص ٢٢.

(٣٦) علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧٢، ص ١٣٧
(٣٧) نفسه، ص ٥٤
(٣٨) انظر مزيد من التفاصيل رشيد اليملولي، **الهدية ووظيفتها السياسية في العصر المرابطي والمريني**، المركز الدولي للأبحاث والدراسات الاجتماعية والإنسانية بريطانيا ٢٠٢٢ من ص ٧٨٩ إلى ص ٨٢٧.
(٣٩) ابن عذاري المراكشي، المرجع السابق، ص٢٢.
(٤٠) الغزالي، المرجع السابق، ص ١٢١.
(٤١) عبد الرحمن ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر**، تحقيق خليل شحاذة مراجعة سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ج٦، ٢٠٠٠، ص٢٤٩-٢٥٠.
(٤٢) ابن عذاري، المرجع السابق، ص٧٣.
(٤٣) نفسه، ص٧٤.
(٤٤) بول ريكور، **الأخلاق والسياسة**، ترجمة عبد الحي أزرقان، مجلة مدارات فلسفية، العدد ٦، ٢٠٠١، ص.١٢٦
(٤٥) عبد السلام حيمر، **المغرب الإسلام والحداثة**، منشورات الزمن ٢٠٠٥، ص ١١.
(٤٦) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء ط١، ١٩٧٩، ص ٢٦.
(٤٧) نفسه، ص ٨٢.
(٤٨) محمد المازوني، **رباط تيط من التأسيس إلى ظهور الحركة الجزولية**، ضمن الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، تنسيق نفيسة الذهبي، جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٦٩، الرباط ط١، ١٩٩٧، من ص ٣٩ وإلى ص ٤٠.
(٤٩) عز الدين جسوس، **المجتمع السياسي ونسق تداول السلطة الدولة المرابطية نموذجًا**، منشورات الزمن، العدد ٤٩، الرباط ٢٠١٥، ص.٨ وما بعدها ضمن المبحث الرابع لمزيد من التوسع.
(٥٠) صباح نعوش، المرجع السابق، ص٣٣.
(٥١) أبو بكر الطرطوشي، **سراج الملوك**، تحقيق جعفر البياتي، رياض الريس للكتب والنشر القاهرة ط١، ١٩٩٠، ص ٣٧٠.
(٥٢) عبد السلام حيمر، المرجع السابق، ص٥٨-٦٢.
(٥٣) علي ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص١٣٧ -١٦٧.
(٥٤) الناصري، ج٢، ص٥٨.
(٥٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٤، ص٢٢.
(٥٦) مجهول، **الحلل الموشية**، ص٥١ – ٥٢ -٥٣ - ٧١. الناصري، المصدر السابق، ص ٣٧ – ٣٨، وابن أبي زرع، المصدر السابق، ص١٥٢.
(٥٧) مصطفى ناعيمي، **الصحراء من خلال بلاد ثكنة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**، منشورات عكاظ الرباط ١٩٨٨، ص٤٢. محمد الشريف، **نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، ط١، تطوان ١٩٩٦، ص٨١.
(٥٨) هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٩٥، ص٣٧٢.
(٥٩) عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر ٢٠٠٩، ص ٢٤.
(٦٠) محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص٧٦.
(٦١) عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلا القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣، ص٣٠٥.
(٦٢) حول نماذج سياسة الإنفاق التي اتبعها يوسف بن تاشفين، انظر التفاصيل عند صاحب الحلل الموشية، ص ٢٥-٢٦-٢٧، وعن ابن أبي زرع في الأنيس، ص ١٣٦-١٣٧.
(٦٣) يقصد بضريبة التعتيب المساعدة في بناء الأسوار والتحصينات بعد تزايد الأخطار المسيحية في الأندلس، انظر ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٤، ص ٧٤ وقد شملت هذه العملية مدن ألمرية، و قرطبة و اشبيلية.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

النهضة العلمية في مدينة أصفهان في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٢م)



أ.د. شوكت عارف محمد الأتروشي
قسم التاريخ – فاكولتي العلوم الإنسانية
جامعة زاخو
جمهورية العراق

مُلَخّص

البحث الذي بين أيدينا مُحاولة لاستعراض جوانب الحركة العلمية بمدينة أصفهان على عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقي (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٣-١٠٩٢م)،باعتبار أن فترة حكمه كانت تُمثل مرحلة مُهمة في تاريخ أصفهان بعد أن اتخذها عاصمة لمملكته المترامية الأطراف، وترتب على ذلك القرار الكثير من الآثار الإيجابية، كانتعاش الحياة الاقتصادية، وازدهار الجوانب العمرانية، وبروز الحركة العلمية في أصفهان أكثر من أي وقت مضى حتى غدت المدينة في عهد ملكشاه من المدن الكبيرة، وشيدت فيها المباني الفخمة، كما غدت من المراكز العلمية المشهورة في العالم الإسلامي بفضل دعمه ورعايته للحركة العلمية، فقد عمل مع وزيره نظام الملك على تشجيع العلوم، وإكرام العلماء، والإحسان اليهم، كما عملا معًا على تشييد الكثير من دور العبادة، والعلم ليس ذلك وحسب، بل أصبحت مجالسهما الخاصة عامرة بالعلماء، مما أسهم في بروز نهضة علمية في أصفهان بدت مظاهرها جلية للعيان، وظهر بها الكثير من العلماء الأجلاء ممن ذاع صيتهم في أرجاء المعمورة، وشد لهم الرحال، وصارت أصفهان محط رحال الكثير من العلماء، ولذلك ارتأينا تخصيص بحثنا للحديث عن مظاهر النهضة العلمية التي شهدتها أصفهان في فترة حكم ملكشاه، والوقوف على أبرز النتائج والآثار التي تمخضت عن ذلك.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٦ يونيو ٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

ملكشاه؛ أصفهان؛ السلاجقة؛ النهضة العلمية؛ المشرق الإسلامي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.297240 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

شوكت عارف محمد الأتروشي. "النهضة العلمية في مدينة أصفهان في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥هـ/ ١٠٧٣ - ١٠٩٢م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٧٢ – ٨٨.

Corresponding author: Shawkat.a.mohammed@uoz.edu.krd
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُمثل مدينة أصفهان من المدن الإيرانية العريقة بتاريخها، وحضارتها، وقد أهلّها موقعها المتّميز، واعتدال المناخ، ووفرة المياه، والموارد الطبيعية فيها أن استقرت فيها مجموعات مُختلفة من الأعراق، والطوائف، سكنها بالإضافة إلى الفرس، الكرد، والعرب، واليهود، والنصارى، وغيرهم، وكانت بمثابة القاعدة الإدارية لبلاد فارس طيلة العصر الراشدي، وفي العصر العباسي شهدت المدينة الكثير من الأحداث والثورات الساخنة، كما حظيت أصفهان أيام السلاجقة بمكانة عظيمة، لا سيما في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه بن الب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٣-١٠٩٢م) الذي اتخذها عاصمة لمملكته المترامية الأطراف، وقد تميّز السلطان ملكشاه بامتثاله الآداب الإسلامية، ولعب دورًا كبيرًا في إرساء دعائم الدولة، وانتصاراتها العسكرية، والفكرية على أعداءها من الباطنية، والملاحدة، وأثبت مقدرة فائقة في الحرب، ورغبة جامحة في الإصلاح، والإعمار حتى عدّه البعض بأنه المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية وذلك بفضل جهوده ونشاطه وحنكته، وقد برزت مدينة أصفهان في عهده، وغدت من المراكز العلمية المشهورة بفضل دعمه ورعايته للحركة العلمية، فقد عمل مع وزيره نظام الملك على تشجيع العلوم، وإكرام العلماء، والإحسان إليهم، كما عملا معًا على تشييد الكثير من دور العبادة، والعلم ليس ذلك وحسب، بل أصبحت مجالسهما الخاصة عامرة بالعلماء، مما أسهم في بروز نهضة علمية في أصفهان بدت مظاهرها جلية للعيان، وظهر بها الكثير من العلماء الأجلاء ممن ذاع صيتهم في العالم الإسلامي، وشد لهم الرحال، وصارت أصفهان محط رحال الكثير من العلماء، ولذلك ارتأينا تخصيص بحثنا للحديث عن النهضة العلمية التي شهدتها أصفهان في فترة حكم ملكشاه رغبة منا في الاطلاع على مظاهر الحركة العلمية، وعوامل ازدهارها، والآثار الإيجابية وانعكاسها على واقع الحياة في أصفهان بعد أن أصبحت عاصمة السلاجقة.

وتمّ تقسيم البحث الى أربعة مباحث، المبحث الأول: تمّ فيه التعريف بمدينة أصفهان، تسميتها، ومقوماتها الاستراتيجية، وأبرز عناصر السكان فيها، مع استعراض مُوجز لجوانب التاريخ السياسي للمدينة قبل سيطرة السلاجقة عليها. والمبحث الثاني: تمّ التطرق الى الجهود السياسية، والعسكرية التي بذلها السلاجقة في عد السلطان طغرلبك من أجل ضم مدينة أصفهان وإخراجها من دائرة النفوذ الغزنوي، كما تمّ استعراض الجهود التي بذلها السلطان ملكشاه من أجل توسيع حدود دولته، وترسيخ سلطته في أصفهان، فقد بذل جهوداً حثيثة لإعادة الأمن، والاستقرار للمدينة، وعموم مملكته المترامية الأطراف، حيث أنفق فيها الكثير من الأموال لتثبيت دعائم حكمه، وأقام بها الكثير من دور العلم، والمشاريع، والعمائر الفخمة، والحدائق، حتى بلغت أصفهان في عهده من العمران، والاستقرار درجة تحسدها عليها كبريات المدن الأخرى.

والمبحث الثالث: خُصّص للحديث عن اهتمام السلطان ملكشاه، والسلاجقة عمومًا للحركة العلمية، وماهية العوامل التي ساهمت في النهضة العلمية بأصفهان، خاصة فيما يتعلق باهتمام ملكشاه، ووزيره نظام الملك بالعلم، والعلماء، وبنائهم للمراكز العلمية، وحضورهم مجالس الوعظ، وإكرامهم للعلماء، كما تطرقنا الى أهمية الرحلة في طلب العلم، وكذلك الصراع الفكري، والمذهبي في أصفهان، وأثره على الحركة العلمية آنذاك. والمبحث الرابع، والأخير: خُصّص للحديث عن مظاهر الحركة العلمية في أصفهان على عهد السلطان ملكشاه مُستعرضين العلوم التي حظيت باهتمام الناس كعلوم الدين، واللغة، والأدب، وبعض العلوم العقلية كالفلك، مع الإشارة الى أهم المراكز العلمية التي تمّ تشييدها في المدينة، ومشاهير العلماء، ونتاجاتهم العلمية، واختتم البحث بذكر أبرز الاستنتاجات البحثية.

ولعّل من أبرز المصادر والمراجع التي تمّ الرجوع إليها في كتابة هذا البحث هي المصادر الخاصة بتاريخ السلاجقة، وكتب الرحالة، والبلدانيين نذكر منها على سبيل المثال تاريخ أصفهان، لأبو نعيم الأصفهاني(ت: ٤٣٠هـ/ ١٠٣٧م)،وكتاب محاسن أصفهان للمافروخي (من علماء القرن ٥هـ/ ١١م)، وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر، قسم أصفهان، وخراسان، للأصفهاني (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، وزبدة التواريخ، أو أخبار الأمراء والملوك السلجوقية لصدر الدين الحسيني (ت: بعد ٦١٢هـ/ ١٢٢٥م)، وكتاب تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري (ت: ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، وراحة الصدور وآية السرور، للراوندي (ت:٥٩٩هـ/ ١٠٩٩م)، كما تمّ الرجوع للعديد من المراجع، من أهمها: كتاب الحياة الفكرية في أصفهان حتى الغزو المغولي، لمؤلفه: يوسف، محمد عبدالعظيم، وأصفهان منذ الفتح الإسلامي الى نهاية العصر العباسي الأول، لغادة كمال السيد. وغيرها من المراجع والدوريات.

أولًا: لمحة تاريخية عن مدينة أصفهان

تمُثل مدينة أصفهان[١] من المدن الإيرانية العريقة بتاريخها، يعتقد البعض أن الأريون هم من بنوا المدينة استنادًا الى بعض الأدلة والشواهد، وكانت تسمى طابة[٢]، بينما يرجع البعض بناءها إلى الإسكندر المقدوني[٣]، وتقع في الطرف الجنوبي الشرقي من إقليم الجبال[٤]، وكان يضم أربع مدن هي: قرميسين (كرمنشاه الحالية)، وهمدان، والري، وأصفهان ، ضمن الإقليم الرابع وفقًا لتقسيمات البلدانيين المسلمين[٥] على بعد ٣٤٠كم جنوب طهران، يحدها من الشمال الشرقي المفازة الكبرى(الصحراء)، وحدد أبو نعيم الأصفهاني حدودها بأنها تمتد "ما بين أطراف همدان، وماه، ونهاوند الى أطراف كرمان، وما بين أطراف الري، وقومس الى أطراف فارس، وخوزستان"[٦]، وقدّر البعض مساحة أراضيها الشاسعة بثمانين فرسخًا في مثلها[٧]، وذكر ياقوت أنّ طول أصفهان أربع وسبعون درجة وثلثان، وعرضها أربع وثلاثون ونصف[٨].

وقد أهلّها موقعها أن تكون مركزًا للمواصلات، فهي تقع في قلب منطقة تنفتح شرقًا نحو باقي ايران، كما أنها تشرف على الممرات المتجهة غربًا، والتي تخترق جبال زاكروس الى سهول الفرات، وبفضل موقع أصفهان، وتاريخها، وعراقتها أصبحت تتمتع بمكانة عالية بين كافة المدن الإيرانية مما جعل القزويني(ت: ٦٢٨هـ/ ١٢٨٣م):يصفها "أنها من أعلام المدن ومشاهيرها، جامعة لاشتات الأوصاف الحميدة"[٩]، وقال الاصطخري (ت: توفي النصف الأول من القرن ٤هـ/ ١٠م) أنه ليس من العراق الى خراسان مدينة بعد الري اكبر من أصفهان، وأكثر خيرًا منها[١٠]، وقال عنها المافروخي (ت: من علماء القرن ٥هـ/ ١١م) بأنها "سرة الأرض وغرتها وسيدة البلدان "[١١].، وأشاد ابن حوقل (ت: ٣٧٠هـ/ ٩٩٢م) بمكانتها بقوله:" أنها فرضة لفارس والجبال وخراسان وخوزستان"[١٢]، ووصفها ياقوت الحموي(ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) بأنها: "مدينة عظيمة "[١٣]، أما الرحالة ناصر خسرو الذي زارها سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م فقال عنها: بأنها اكبر مدن ايران[١٤]، ووصفها ابن الفقيه بأنها "بغداد الثانية".[١٥]

واشتملت أصفهان على مدن وقرى مشهورة، ومن مدنها جَيّ، واليهودية الى جانب العديد من النواحي والرساتيق والكور والقرى المتناثرة، وكان أصفهان تضم مدنًا عديدة قبل الإسلام لم يبقى منها بعد الفتح الإسلامي سوى مدينة جَيّ[١٦]. وما يلفت النظر أن مدينة اليهودية لم يرد لها ذكر عند الفتح الإسلامي لأصفهان، ويبدو أنها كانت قد بُنيت في طرف مدينة جَيّ أو اقتطعت منها لذلك اعتبرها المسلمون جزءًا من جَيّ، ثمّ ما لبثت أن استقلت عن مدينة جي بعد تمصيرها في العصر العباسي، فأصبحت أصفهان تتكون من مدينتين هما جَيّ، واليهودية، وبمرور الزمن فقدت جي أهميتها وخربّت في الوقت الذي ازدهرت فيه اليهودية، وعمّرت حتى أصبحت أصفهان يُشار إليها فيما بعد باسم اليهودية، وكانت أصفهان تضم عدداً كبيرًا من الرساتيق قدّر عددها بستة عشر[١٧]، أو أكثر من ذلك[١٨]،ونحو خمس الأف قرية إلا أنّ ذلك لم يكن ثابتًا على الدوام بل نالته يد التغيير على مر العصور.

وطبقًا لما ذكره البعض كانت أصفهان تضم اثنتي عشر محلة، كل محلة منها كالمدينة، والمنعوت منها شهرستان، ويمر بها نهر (زاينده رود) الذي يُعد من أعظم أنهار أصفهان، ويبلغ طوله أكثر من ٣٦٠كم، فضلًا عن أنهار أخرى تنبع من المدينة، كنهر طاب، ودجيل، ونهر ساوة، بالإضافة إلى مياه الينابيع، والعيون، والأبار، والأمطار الموسمية التي ساهمت في ازدهار المدينة، وكثرة وارداتها الزراعية، والحيوانية [١٩].

وامتازت مدينة أصفهان بموقعها المُتمّيز، وتضاريسها الجغرافية المتنوعة، ووفرة المياه، والجبال المنيعة، تحيط بها الجبال من الجنوب، والغرب، أما شمالها، وشرقها فهي سهول، وأراضي خصبة[٢٠]، لذلك فقد تميّزت بتباين درجات الحرارة، والأمطار فيها، وعلى العموم امتاز مناخ أصفهان بالاعتدال، وانتظام فصول السنة، وكان مناخها محل إشادة البلدانيين، قال ابن حوقل عن مناخها بأنه: "يستوقف النظر، وترتاح له النفس ولا يسامه البصر.." [٢١]، ولذلك فضل ملكشاه أصفهان عن سائر المدن في مملكته لتكون عاصمته ومقرًا لحكمه، وأنها كانت أحب البلاد إليه، وكانت مقره الصيفي، وبغداد مقره الشتوي[٢٢]، كما اشتهرت أصفهان ببساتينها، وحدائقها الغناء، وقد تميّز هواء المدينة بالاعتدال، والنقاء، أشاد بها ناصر خسرو وقال: " ..أنها مُشّيدة على أرض مستوية ماؤها عذب وهواءها عليل"[٢٣]، وقال ياقوت أن هواء أصفهان طيب، وصحي للأبدان.[٢٤]

واشتهرت تربة أصفهان بأنها من أخصب الترب في إقليم الجبال[٢٥]، كما تميّزت بوفرة وعذوبة مياهها الذي تستمده من نهر زنده رود، إضافة الى مياه الأبار والينابيع التي تعتمد عليها قرى ورساتيق المدينة[٢٦]، وكان لثروتها المائية الوفيرة أثر في انعاش الزراعة، وتنوع المحاصيل على اختلافها، كالقطن ،والزيتون، والفواكه مثل المشمش، والتفاح، والرمان، والكمثرى ، والفستق، والبندق، وغيرها من المحاصيل، كما اشتهرت بإنتاج العسل[٢٧].

كما تمتّعت أصفهان بثروتها الحيوانية الكبيرة لما كان فيها من المراعي، والمروج، وكان أهلها يعتمدون على قطعان الأغنام، والماشية في الحصول على الألبان، كما انتشرت في المدينة تربية الابل، والخيول، وحرص أهلها على الاستفادة من ثرواتهم المعدنية كالذهب، والفضة والحديد، والنحاس لاستخدامها في الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها المدينة، كصناعة الحديد والأواني النحاسية، والمعدنية النفيسة[٢٨]، ويبدو أن تنوع المنتجات الزراعية، والصناعية فضلاً عما تمتّعت به أصفهان من موقع استراتيجي جعلها مركزًا تجاريًا هامًا، وذكر ناصر خسرو أنه شاهد فيها أسواقًا كثيرة عامرة [٢٩]، وكانت تربط المدينة بغيرها من البلاد، والأقاليم شبكة مواصلات تسلكها القوافل التجارية باستمرار، وتدفقت عليها بضائع الشرق والغرب، وكانت المنسوجات من أهم صادراتها التي كثر عليها الطلب[٣٠]،كما صدّرت الكثير من النتوجات الزراعية وخاصة الفواكه التي كانت تحمل الى العراق وسائر النواحي[٣١]، كما اشتهرت بتصدير الزعفران، والعسل، والسمن[٣٢].

أما بالنسبة الى التركيبة السكانية في أصفهان، فقد كان يعيش فيها خليط من السكان من الفرس، والعرب، والترك، والأكراد، وكان الفرس يُشكّلون الغالبية العظمى من السكان، وقد اعتنق الكثير منه الإسلام عقب الفتح الإسلامي[٣٣]، وأصبحت من حينها أصفهان ولاية تابعة للخلافة الإسلامية تتابع على إدارتها عدد من الولاة كان أولهم السائب بن الأقرع الذي تولى إدارتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه"، وكانت أصفهان تتبع والي العراق في العصر الأموي، ونظرًا لغلبة العنصر الفارسي فيها فقد كانت في كثير من الأحيان مركزًا للثورات، والحركات المعادية للدولة الأموية، وملجا لكل هارب[٣٤].

وكان يعيش بالمدينة الكثير من أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية وفي مُقدمتهم السنة لا سيما الشافعية الذين انتشروا في بعض أحيائها [٣٥]، وذكر المقدسي عن مدينة اليهودية أن أهلها:" أهل جماعة وسنة، جامعهم عامر بالجماعات على الدوام"[٣٦]، كما وجد في أصفهان الشيعة الذين انتشروا في أماكن مُتعددة من المدينة، وكان بعضهم من الغلاة المتطرفون[٣٧].

كما كان فيها من بقي على المجوسية (عبدة النار)، وكانت لهم أماكن عبادة خاصة، فقد ذكر ابن حوقل أنه كان في خان لنجان تل عظيم كالجبل عليه قلعة وفيها بيت نار فيقال أن ناره من قديم الأزل[٣٨]، ووجد بيت نار في ماربين غرب أصفهان[٣٩]، كما كان بالمدينة أتباع الديانة اليهودية الذين سكنوا المدينة منذ القدم حيث يرجع وجودهم الى عهد الملك البابلي بختنصر عندما أجلاهم من الأرض المقدسة فرحلوا الى أصفهان وبنوا لهم في طرف مدينة جي محلة نزلوها وعرفت باسم اليهودية[٤٠]، وأشار ابن الفقيه (ت: أواخر ق ٣هـ/ ٩م) الى كثرة اليهود في أصفهان بقوله" أنه لم ير مدينة أكثر يهودًا ويهودية من أصفهان"[٤١] ، كما كان بها النصارى إلا أنّ أعدادهم كانت قليلة مقارنة مع اليهود[٤٢]، وقد أدى التنوع الديني، والعقائدي فضلًا عن التنوع الاثني في أصفهان الى ازدهار الحركة الفكرية بها.

وفي العصر العباسي زاد الاهتمام بأصفهان ولا سيما في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م) الذي كاد أن يتخذ من أصفهان عاصمة لدولته نظرًا لطيب هوائها وعذوبة مائها إلا أنه عدل عن ذلك، وركّز اهتمامه في إقامة العاصمة بغداد[٤٣]، وكان لأهل أصفهان دور في الكثير من حركات المعارضة للعباسيين كحركة سنباذ سنة (١٣٧هـ / ٧٥٤م) والذي أخذ يطالب بدم أبو مسلم الخراساني[٤٤]، كما ساهموا بحركة الغلاة من الراوندية – نسبة الى قرية روانـد القريبة من أصفهان- ، وغيرها من الحركات المناهضة، وخضعت أصفهان لحكم وإدارة عدد من الدول المستقلة كالدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٢م)، والدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/ ٨٩٧-٩٠٣م)، والبويهيون قبل أن يستولي عليها الغزنويون، ومن بعدهم السلاجقة الذين اعتنقوا الإسلام، وأصبحوا يُمثلون قوة كبيرة في المشرق الإسلامي، لا سيما بعد أن بسطوا نفوذهم على أملاك الدولة الغزنوية، وتأسيس دولتهم التي اعترفت بها الخلافة العباسية.[٤٥]

ثانيًا: أصفهان في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي

نالت أصفهان اهتمام السلاجقة منذ عهد السلطان طغرلبك (٣٨٥-٤٥٥هـ/ ٩٥٥-١٠٦٣م) الذي تمكن من إخضاع المدينة لنفوذه المباشر بعد حصاره للمدينة التي كانت تخضع لحكم ظهير الدين أبو منصور فرامرز الكاكوي سنة (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م)، ودام الحصار عليها ما يقارب السنة، جرت خلالها الكثير من الحروب، والمناوشات بينهما، وفي تلك الأثناء أرسل فرامرز الى طغرلبك يعرض عليه الأموال مقابل فك الحصار إلا أن طغرلبك لم يسمع له، فلما نفذت الأقوات في أصفهان، ووصل الأمر الى درجة أن قام أهل أصفهان بهدم الجامع من أجل استخدام أخشابه في التدفئة، ولم تستطع أصفهان مقاومة حصاره وانتهى الأمر بدخول طغرلبك المدينة سنة (٤٤٣هـ/

١٠٥١م)، واستطابها، ونقل ما كان له بالري من أموال وسلاح، وجعلها دار مقامه[٤٦]، وعندما دخلها هدم جزءًا من سورها، وقال: إنما يحتاج الى الأسوار من تضعف قوته فأما من حصّنه عساكره وسيفه فلا حاجة له إليها"[٤٧].

وكان لأصفهان عند طغرلبك مكانة عظيمة لذلك اختارها مقرًا لإقامته، واتبّع سياسة لينة مع أهلها، وأعفاهم من الضرائب، مما ساعد على استتباب أمنها، وازدهارها الاقتصادي، وقد لاحظ ذلك الرحالة ناصر خسرو أثناء زيارته للمدينة، حيث قال: "وصلنا من هناك الى محلة لنجان، ورأيت اسم طغرلبك مكتوبًا على بوابة المدينة، والمكان يبعد عن أصفهان سبع فراسخ، ويعيش أهل لنجان آمنين، هادئين، مُنشغل كل منهم بعمله، وشؤون بيته.."[٤٨]، وذكر خسرو أن السلطان طغرلبك بعد سيطرته على المدينة ولّى عليها شابًا نيسابوريًا لقّبه (الخواجة العميد) [٤٩]، وأمره أن لا يطالب الناس بشيء مدة ثلاث سنوات، فسار على ذلك، وأعاد المهاجرين الى أوطانهم، ثمّ أضاف خسرو بأن أصفهان مرّت بقحط شديد قبل وصوله إليها، وختم حديثه عن أصفهان بأنه لم ير في كل البلاد الفارسية مدينة أجمل ولا اكثر سكانًا وعمرانًا منها، وأنه كان يذهب إليها للاستشفاء[٥٠].

ثمّ تولى السلطة بعد طغرل بك ابن أخيه الب أرسلان، وحكم حتى سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) بمعونة وزيره نظام الملك الطوسي، فأصبحت أصفهان يومئذ محط أنظار السلطان ووزيره، وعامل أهلها معاملة طيبة، واختارها محلًا لإقامة ولي عهده، لذا عُدّت الأعوام العشرة لحكومة الب أرسلان مُقدمة لاتخاذ أصفهان عاصمة للسلاجقة، فبعد مقتله خلفه ابنه ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م)[٥١]، وكان حينها يبلغ السابعة عشرة من عمره، وخطب له ببغداد، وكتب الى حكام الأقاليم، والأطراف بذلك حتى يطيعوا أمره ويخضعوا له وتوّلى وزارته نظام الملك[٥٢]، ورغم نصيحة البعض لملكشاه باتخاذ نيسابور عاصمة لمملكته[٥٣]، إلا أنه لم يوافقهم الرأي، وفضل أصفهان لتكون عاصمة له، ويبدو أن هناك جملة عوامل شجّعته الى اتخاذ هذا القرار لعّل من أبرزها: تعلقه بأصفهان كونه قد نشأ وترّبى فيها [٥٤]، وأنه على دراية بطبيعة أهلها، وتعلقهم، وحبهم له[٥٥]، فضلًا عما تتمتع به المدينة من موقع مُتّميز، ومناخ معتدل، وطبيعة ساحرة،[٥٦] كما لا ننسى تشجيع وزيره نظام الملك له لكي يجعل من أصفهان مقرًا لحكمه[٥٧]،حكم منها أكبر إمبراطورية إسلامية، إذ وصلت دولة السلاجقة في عهده أقصى اتساعها، وازدهارها، وامتدت حدودها من الصين الى البحر المتوسط، ومن شمال بحيرة خوارزم، وصحراء قبجاق حتى حدود اليمن، وهناك العديد من التحديات التي واجهته عند توّليه السلطة، وكان لوزيره نظام الملك الفضل الأكبر في القضاء على تلك المصاعب وفي إرساء دعائم دولته وانتصاراتها الحربية[٥٨].

وكان أول التحديات التي واجهته هو خروج عمه قاورد ومخالفته له حيث أعلن أنه أحق بعرش السلطة منه بعد وفاة أخيه الب أرسلان، ثمّ كتب الى السلطان ملكشاه: "أنا الأخ الكبير وأنت الولد الصغير وأنا أولى بميراث أخي السلطان الب أرسلان منك"[٥٩]، فأجابه ملكشاه قائلًا: "الأخ الأكبر لا يرث في وجود الابن"،[٦٠] ثمّ توجه على رأس جيش الى أصفهان ودارت معركة بين الطرفين بظاهر همذان في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٤٦٦هـ ودامت المعركة ثلاث أيام وانتهت بهزيمة قاورد الذي انهزم ثمّ وقع في الأسر[٦١]، ولما أسر أخرج مجموعة من الرسائل وقال لملكشاه امراؤك كاتبوني فخاف الأمراء، وأخذ ملكشاه هذه الرسائل وأعطاها لنظام الملك الذي أحرقها، أما الأمراء فسكنت قلوبهم وأخذوا يبذلون طاقتهم في إظهار الطاعة، وكانت هذه من أكثر الأفعال التي ثبتت ملكه،[٦٢] أما قاورد فقد قام نظام الملك بقتله، وأبقى كرمان بيد سليمان شاه بن قاورد وتوارثها أبناءه من بعده الى سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)،[٦٣] وأقام السلطان ملكشاه في هذه السنة في أصفهان وأنفق بها أموالًا كثيرة على الفقراء، وفي عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م)، أسقط من العسكر سبعة الأف رجل لم يرضى عن حالهم فمضوا الى أخيه تكش، وهو ببوشنج فقوي بهم، وأظهر العصيان على أخيه ملكشاه، واستولى على مرو الروز، ومرو الشاهجان وترمذ وغيرها، وسار الى نيسابور طامعًا في ملك خراسان، وهنا يظهر حسن تدبير نظام الملك وحنكته في تثبيت دعائم السلطة لملكشاه حيث قال لمكشاه عندما أمر بإسقاطهم: "أن هؤلاء ليس فيهم كاتب ولا تاجر ولا خياط ولا من له صنعة غير الجندية فاذا اسقطوا لا نأمن أن يقيموا بينهم رجلًا وقالوا هذا السلطان فيكون لنا منهم شغل ويخرج عن أيدينا أضعاف ما لهم من الجاري الى أن نظفر بهم، فلم يقبل السلطان قوله فلما مضوا الى أخيه واظهر العصيان ندم على مخالفة وزيره حيث لم ينفع الندم ولكن في النهاية تمّ الصلح بينهما[٦٤]،وكان دور نظام الملك بارزًا وكبيرًا في تثبيت عرش ملكشاه وتقديرًا للخدمات الجليلة التي أداها ملكشاه قال له:" قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك فأنت الوالد، وحلف له وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك ثمّ لقبه بلقب (الاتابك).[٦٥]

وكانت أصفهان لها منزلة خاصة عند نظام الملك، ويؤكد ذلك المافروخي: "... ومنها أن مولانا الأجل نظام الملك.. منذ سعد العراق تدبيره الصائب ونظره الثاقب يعتقد في أصفهان أحسن الاعتقاد، ويعتمد على أهلها أوفى الاعتماد ويعتد بالقليل من خدمتهم أكثر الاعتداء ويهمها من بين الأمصار في جميع الأبواب أوفر الحظوظ من الاعتناء بها والانصباب.." [٦٦]، وقد قام ملكشاه ووزيره نظام الملك باقة العديد من المشاريع في المدينة كونها العاصمة لدولته، وأحب المدن الى قلبه[٦٧]، وتوسعت المدينة في عهده كثيرًا، وأصبحت من المدن المشهورة في العالم الإسلامي، تدفق إليها العلماء، والتجار من كل صوب وحدب، وازدادت توسعًا وسكانًا حتى صارت محط اهتمام كبير للسكن، ومن الناحية الاقتصادية تدفقت عليها الأموال من الجزية، والخراج ، فضلًا عن ضرائب الأرض الواسعة للسلاجقة التي زادت من ثروة المدينة، وقيل أن شعب العاصمة اغتنى في عهد ملكشاه إذ يشربون في أوان من الذهب[٦٨].

ولم ينكر دور وزيره نظام الملك، إذ قام هو والسلطان، والعمال، والأعيان السلاجقة الأخرين ضمن عملية تشاركية بتشييد الكثير من العمائر الفخمة، والحدائق الغناء فيها ما زالت أثارها خالدة الى اليوم، وأنشأ حدائق ملكية، كحديقة كاران، وتسمى باغ كاران، وزينّت جميعها بأنواع الورد والرياحين، ومن الأثار الباقية من عهد السلطان ملك شاه في أصفهان، قبة نظام الملك وتقع في جنوب المسجد الجامع، وقد كتب عليه اسم السلطان، ووزيره نظام الملك انشات سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م)، وقد عّد عصره عصر العمارة الإسلامية الإيرانية الخالية من أي مؤثر خارجي، فعدت العمارة السلجوقية عمارة أصيلة امتازت بالقوة والصلابة والجمال.

وقد بقيت أصفهان عاصمة لخلفاء السلطان ملكشاه، وهم: (بركياروق، ومحمد بن ملك شاه، ومحمود بن محمد) ولمدة قرن من الزمان بعد موت ملكشاه، إلا أنها تراجعت كثيرًا بسبب الصراعات المستمرة بين هؤلاء وعدم جدارة أحدهم لم يعنى أي منهم بإنشاء مشروع مهم من أجل توسيع رقعة أصفهان، ويمكن القول أنه بانتهاء عهد ملكشاه، ووزيره نظام الملك انفرط عقد الدولة السلجوقية، وتمزقت وحدتها وقوتها[٦٩]، فقد أصاب السلاجقة بعدهما التفرقة والتفكك وبموتهما اشتعل نار التنافس على العرش، وقطع ما بينهم من رحم[٧٠]،وفي ذلك يقول ابن العبري " وانحلت الدولة ووقع السيف"[٧١]، ولم تعد الدولة السلجوقية تخضع لحاكم واحد بل كان هناك سلطان في أصفهان وآخر في الري وفقد البيت السلجوقي هيبته وسطوته، وأصبحت مدينة أصفهان هدفًا للمتنافسين على العرش من ال سلجوق[٧٢].

كما شهدت أصفهان أحداثًا، واضطرابات كثيرة من النواحي السياسية، والاقتصادية، وذلك نتيجة للسياسة المذهبية المتعصبة، فتسببت بثورات الإسماعيلية الباطنية، وتعّصبهم بقتل الكثير من أهلها، وأهم من قتل على أيديهم الوزير المشهور نظام الملك، ويرى البعض أن ظهور فرق الباطنية الإسماعيلية، وكانوا في البداية يعملون بالسر، وأول عمل إجرامي لهم هو قتلهم لنجار اتهموه بقتل أحد أتباعهم، ثمّ قتلوا الوزير نظام الملك، وكانت أول حادثة مشهورة تنسب لهم، وافدو بعدها الى أصفهان وعلى أثر الحروب بين بركياروق وأخوته تجمع أتباع فرقة الإسماعيلية فيها، واتخذوا قلعة شاه دز مقرًا لهم، ويبد وأهم قد استغلوا حالة الصراع بين السلاجقة ليسيطروا على أصفهان.

ثالثًا: دعم السلطان ملكشاه للحركة العلمية بأصفهان

لقد أدرك السلطان ملكشاه كغيره من السلاجقة أنّ العلم هو سياج الدولة وعمادها، فعمل على تشجيع العلوم، وبنى المدارس، والخوانق، والربط وغيرها من المراكز العلمية، وأكرم العلماء وأحسن وفادتهم وجزل لهم العطاء، كما أدرك أن خير من يضمن بقاء دولته ورقيها هم العلماء ورجال الدين، لذا فقد حرص على تزين مجالسه بالعلماء، والأدباء، والشعراء، وازدهرت الحركة العلمية بأصفهان في عهده أكثر من أي وقت مضى نتيجة عوامل عديدة لعّل في مُقدمتها دعمه للعلم، والعلماء، وبذله الأموال إيمانًا منه بدورهم الرائد في خدمة المجتمع، ورقي دولته، وإدراكًا منه أيضًا أنه يمكن من خلال العلماء من تعزيز وتقوية حكمه لما لهؤلاء العلماء من مكانة، واحترام لدى العامة، ومن ثمّ سعى كغيره من السلاطين الى التقرب الى العلماء لأن في احترامهم والتقرب منهم استرضاءً للناس كافة والى ما في ذلك خدمة للدين، وأهله من ثواب عند الله، ونتيجة للرعاية المتّميزة من قبل السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك أصبحت أصفهان من المراكز العلمية المشهورة التي شّد إليها العلماء الرحال، وشهدت المدينة في عهده نهضة علمية، لا سيما بعد أن اتخذ منها ملكشاه عاصمة لدولته.

كما كان لاستقرار الأمن في المدينة منذ أيام السلطان طغرلبك أثر في تطور الحركة العلمية فيما بعد[٧٣]، فقد تمكن طغرلبك من بناء دولة قوية، راسخة الأركان متينة البنيان،

وكان طغرلبك محافظًا على الصلوات، شديد الحب للعلماء يحترمهم، ويجلهم، وكان حليمًا ومتسامحًا معهم[٧٤]، كما كان كثير البر والصدقات، حريصًا على بناء المساجد، وكان يقول: "إني استحي من الله تعالى أن أبني دارًا ولا أبني مسجدًا "[٧٥]، قام ببناء العديد من المساجد في أصفهان، وأنفق عليها ما يقارب خمسمائة الف دينار حسب رواية المافروخي.[٧٦]

وخلف طغرلبك ابنه السلطان الب أرسلان الذي سار على نهج والده، فقد كان كريمًا، وعادلًا، رحيم القلب وكان العلماء في عهده يتمتعون بمنزلة رفيعة[٧٧]، وكان يذهب الى العلماء للتبرك بهم[٧٨]، واستطاع الب أرسلان أن يقضي على الثورات الداخلية في دولته، ويؤمن حدود دولته الخارجية، كما قام باتباع سياسة اقتصادية حكيمة في أصفهان مما نتج عنه استقرار سياسي وأمني، كان له أثره على الحركة العلمية، فقد تمتّعت أصفهان في عهده بالحرية الدينية فكان لا يوجد اضطهاد لمذاهب بعينها، وبنيت في عهده العديد من المساجد، والربط، والمدارس.[٧٩]

وبعد موت الب أرسلان سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) تولّى السلطة من بعده ابنه الأكبر ملكشاه الذي استطاع القضاء على التحديات والثورات التي واجهته في البداية بسبب النزاع على السلطنة، ومنها قضاءه على ثورة عمه قاورد سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) وتمكن من قتله[٨٠]، ودخل أيضًا في مصاهرة مع الدولة الغزنوية حيث زوج ابنته " كوهر ملك" من السلطان مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة[٨١]، وبذلك أمنّ حدود دولته من ناحية الدولة الغزنوية، واستطاع ملكشاه وبقدرة فائقة أن يحافظ على استقرار دولته، ويقضي على ثورة عمه تكش في (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) وتمّ الصلح بينهما[٨٢] واتخذ ملكشاه من أصفهان عاصمة لملكه[٨٣]، وقد اتبع سياسة حكيمة في إدارة دولته المترامية الأطراف أدت تلك السياسة الى النهوض علميًا في أصفهان خاصة والدولة السلجوقية عامة، وقام السلطان ملكشاه ببناء الكثير من العمائر الفخمة، والحدائق الغناء بأصفهان وأجرى فيها قنوات المياه[٨٤]، واليه يعزى تجديد الجامع العتيق، أو الكبير بأصفهان[٨٥]، وكان من المساجد الكبيرة والمشهورة بأصفهان[٨٦]، أشاد به المقدسي بالقول: "لم أرى جامعًا أعمر بالجماعة بعد جامع مصر من جامعها"[٨٧]، ويمكن القول أنه كان في مُقدمة المراكز العلمية بالمدينة في عهده، وكان مُكتظًا بالمصلين، وطلبة العلم، وكان عدد الحضور فيه يزيد على خمسة آلاف رجل، وكانت تقام فيه حلقات العلم[٨٨].

وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان من أحسن الملوك سيرة، حتى كان يُلّقب بالسلطان العادل، وكان يجلس للمظالم بنفسه، ويقضي بين الناس بالعدل، وكان بابه مفتوحًا لكل قاصد بحيث يستطيع أي شخص من أفراد رعيته أن يدخل عليه بسهولة ويسر لرفع ظلامته أو التعبير عما لحقه من اضطهاد ، وكانت السبل في أيامه سالكة، والمخاوف أمنة تسير القوافل من ما وراء النهر الى أقصى الشام وليس معها خفير ويسافر الواحد والاثنين من غير خوف ولا رهب[٨٩]،وكل ذلك أدى الى ازدهار الحركة العلمية، وقد قام ملكشاه سنة (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م) بإنشاء مرصد فلكي في أصفهان اجتمع عليه جماعة من أعيان المنجمين وأنفق عليه أموالًا كثيرة وبقي يعمل حتى وفاته[٩٠].

كما قام ملكشاه بالإعلان عن مسابقة لتأليف كتاب عن سير الملوك الأقدمين يتضمن اقتراحات المؤلفين لإصلاح نظام الحكم، فتقدم عدد من الكتاب فقدّموا ما جال بخاطرهم، ثمّ تمّ اختيار كتاب وزيره نظام الملك (سياسة نامة) الذي ألفّه ليكون دستوراً يتبع في إدارة الحكم والدولة وأعجب به السلطان ملكشاه وأعلن أنه سيتخذه دليلًا يسير على هداه.

وكان ملكشاه يختار رجال دولته ووزرائه من العلماء، ومن أمثلة هؤلاء الوزير مستوفي المملكة أبو سعد شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي الذي قام ببناء مدرستين للحنفية، وإسماعيل الطغرائي الكاتب الأصفهاني.[٩١]

وكان ملكشاه يستمع الى الوعاظ ويحضر مجالسهم، وكانت مجالس السلطان عامرة بالعلماء، وكان لعلو مكانة العلماء عنده أنه كان يلبي طلباتهم فعلى سبيل المثال جاء الفقيه الشافعي أبو طاهر بن علك مفتي سمرقند شاكيًا من أحمد خان حاكم سمرقند، وكّلمه فما كان من ملكشاه إلا أن ذهب الى سمرقند، وسيطر عليها ورتب فيها من ينشر العدل[٩٢]، ومما يدل على مكانة العلماء عنده أيضًا أنه كان يرسلهم كسفراء ورسل في قضاء حوائج دولته[٩٣]، ونظرًا لارتفاع مكانة العلماء عند ملكشاه، واحترامه لهم كان الخليفة العباسي يرُسل إليه العلماء لقضاء حوائجه، ففي سنة (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) أرسل أمير المؤمنين المقتدي (٤٦٧-٤٨٧هـ/ ١٠٧٤-١٠٨٤م) بأمر الله أبا اسحق الشيرازي الى السلطان ملكشاه في أصفهان ليشكو عميد العراق إليه ولما حضر أبا إسحاق الشيرازي عند السلطان أجاب جميع مطالبه ورفعت يد العميد عن كل ما يتعلق بالخليفة[٩٤].

وكان ملكشاه كريمًا مع العلماء فعندما سافر أبو نصر الصباغ محمد بن عبدالرحمن بن عبدالواحد الفقيه الشافعي في العراق، وكان قد ولي النظامية ببغداد أكرمه ملكشاه وأحسن إليه وفعل معه كل جميل[٩٥]، وكان ملكشاه من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالملك العادل[٩٦]، فكان يقف للمسكين، والضعيف، والمرأة فيقضي حوائجهم، وقام بالكثير من أعمال البر والخير التي أدت الى استقرار دولته، حيث عمّر العمارات، وبنى القناطر، وأسقط المكوس والضرائب، وحفر الأنهار،[٩٧] كما قام ببناء الرباطات وهو الذي بنى جامع السلطان ببغداد، وبنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة في أصفهان[٩٨].

وصفوة القول لقد ازدهرت الحياة العلمية بأصفهان في عهد السلطان ملكشاه بسبب الاستقرار الأمني، والاجتماعي والازدهار الاقتصادي الذي نعمت به المدينة في عهده، وبنائه للعديد من المراكز العلمية والمساجد، والمدارس منها مدرسة للحنفية بأصفهان، وبسبب عدله، وحسن معاملته لرعيته وخاصة أهل العلم.

كما كان للوزراء السلاجقة دورهم الفاعل في دعم الحركة العلمية وقام الكثير منهم ببناء المساجد، والمدارس، والربط والمكتبات، وتأليف الكتب، وقاموا بتشجيع العلماء ودعمهم وكان العصر السلجوقي من العصور التي راجت فيها سوق العلم وانصهرت في بوتقته جميع التيارات والثقافات الإسلامية بفضل دعم السلاطين ووزرائهم للحركة العلمية، وامتلك الكثير من الوزراء ثقافة عالية مثل وزير السلطان طغرلبك عميد الملك منصور بن نصر الكندري الذي امتلك ناصية العلم، وكان يجيد التحدث بثلاث لغات التركية، والفارسية، والعربية.[٩٩]

كما كان للوزير نظام الملك أبو علي حسن بن علي بن اسحق الطوسي وزير آب أرسلان، وملكشاه دور كبير في ازدهار الحركة العلمية بأصفهان، وفي ذلك يقول السبكي: "ونعش من العلم وأهله ما كان خاملًا مهملًا في أيام من قبله"[١٠٠]، وكان راس الدولة المفكر وكان له علم ومعرفة كبيرة في علوم شتى منها علوم الدين كالفقه، والحديث، والعلوم الأخرى كالعلوم الرياضية، والحساب، والمنطق، واللغة، والنحو، والتاريخ، وكان يجيد اللغتين العربية، والفارسية وله مصنّفات عديدة من أهمها سياسة نامة حيث أنه في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) بناءً على طلب السلطان ملكشاه الذي طلب من رجال بلاطه بأن يضع كل واحد منهم كتابًا في نظام الحكم وبأن يقترحوا خير الوسائل لنظام الحكم مُسترشدين في ذلك بما حفظ التاريخ من أخبار الملوك السابقين، فكتب كل واحد منهم كتابه ورفعوا كتبهم جميعًا الى السلطان فأعجبه ما كتبه نظام الملك فأعلن أنه سوف يتخذ ما كتبه نظام الملك إمامًا يسير على هداه[١٠١]، كما ترك نظام الملك عددًا من الرسائل حفظتها لنا كتب التراجم والتاريخ، ولشدة اهتمام نظام الملك بالعلم والعلماء أدرج في ثنايا كتابه سياسة نامة فصلًا تحدث فيه عن العلم والاهتمام بالعلماء[١٠٢].

وكان نظام الملك الطوسي من اعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق وواحد من أعظم الوزراء في تاريخ المشرق الإسلامي جمع في يده كل مهام ممالك الدولة السلجوقية، وتميّز بحكمته، وحلمه، كثير الصفح على المذنبين[١٠٣]، كما كان عادلًا ما جلس قط إلا على وضوء ولا توضأ إلا تنفل ويقرأ القرآن، ولا يتلوه مستندًا عظامًا له، ويستصحب المصحف معه أينما توجه واذا أذن المؤذن أمسك عن كل شغل هو فيه، ويصوم الاثنين والخميس[١٠٤]،وكان شديد الحب للفقراء والمساكين، ويشاركهم في طعامه[١٠٥].

ويرجع الفضل الكبر الى نظام الملك في تثبيت آلب أرسلان في السلطة واستقرار الأوضاع في دولته، كما كان هو المتصرف في مملكة ملكشاه، والحاكم الفعلي للبلاد، وكان له الكثير من الإنجازات والأعمال التي أدت الى استقرار الأوضاع السياسية، والأمنية وازدهار الحركة العلمية منها على سبيل المثال لا الحصر نظام الإقطاع الذي سّنه حيث خفف من الأعباء المالية على الدولة، وكان سببًا في عمارة البلاد وكثرة الغلات[١٠٦]، ويعزو إليه توسطه عند السلطان الب أرسلان لكي يسقط الضرائب في أصفهان، واصدر الب أرسلان بناءً على نصيحته مرسومًا سلطانيًا علق على أبواب المساجد حتى بلغت أصفهان درجة كبيرة من الاستقرار الاقتصادي تحسدها عليه المدن الآخرين وربما عصمة الخلافة بغداد نفسها[١٠٧]، وترتب على ذلك ازدهار الحياة العلمية، وكان ملكشاه يسمع مشورته، وتعد الفترة التي كان فيها نظام الملك وزيرًا من الفترات الزاهية التي ازدهرت فيها الحركة العلمية في أصفهان بفضل جهود هذا الوزير الذي أخذ بتقريب العلماء والإغداق عليهم، كما يرجع إليه الفضل في بناء المدارس، والربط، والمساجد لاعتقاده الراسخ بأن العلم قوام الدين، وأن الدين قوام الدولة وعمادها[١٠٨].

وكان نظام الملك شديد الأدب مع العلماء يحترمهم ويجّلهم[١٠٩]، وكان ينفق بسخاء ،وقد حظي أهل العلم بأصفهان، وعلمائها بعناية كبيرة من نظام الملك وبإنفاقه عليهم وفي ذلك يقول المافروخي: "..ولم يبق بها صاحب فضل ولا طالب علم ولا راوي حديث ولا ناظم بيت ولا كاتب كلمة ومورد نكتة ولا متقن

مسألة ولا حامل محبرة إلا أدر عليه مرسومًا، وأقام له رزقًا معلومًا أو أقطعه حصة أو رد عليه بالملكية مزرعة فيعيشون منه .."[١١٠]، وكان شديد الإكرام للعلماء، فعندما ذهب إليه الإمام الغزالي في أصفهان أكرمه وعظّمه وبالغ في الإقبال عليه.[١١١]

واعترافًا من العلماء بجميل نظام الملك فقد ألّف العديد منهم الكتب باسمه فمن الكتب التي الفّت باسمه ثلاث رسائل هي: "الغياثي، والنظامي، والعقيدة النظامية" صّنفها له الإمام الجويني فقوبلت من النظام بترحيب، وتشجيع كما قوبلت بالخلع والهدايا[١١٢]، كما أهدى إليه غريب بن محمد بن يوسف القزويني (ت: ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وهو أحد شيوخ المعتزلة ببغداد أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها فقد اهدي إليه (غريب الحديث) و(شعر الكميت بن زيد) في ثلاثة عشر مجلدًا ، ومنها (عهد القاضي عبد الجبار)[١١٣]، وكانت مجالسه معمورة بالعلماء مأهولة بالأئمة، والزهاد لم يتفق لغيره ما اتفق له من ارتحال العلماء عليه في داره، وقد دأب أن يجعل من داره ندوة كل يوم الاثنين من الأسبوع يرتادها العلماء، والأدباء دون قيد أو شرط في مذهب فكان من بينهم الحنبلي، والشافعي، والمالكي، والحنفي، والمعتزلي والأشعري[١١٤]، وكان مجلسه يضم كل المذاهب وليس أدل على ذلك ما قاله أبو يوسف القاضي عندما دخل عليه فقال له:" أيها الصدر قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار فقال النظام كيف؟ فقال القزويني: "أنا معتزلي وهذا مشبه، وذاك اشعري وبعضنا يكفر بعضًا"[١١٥].

وعلى الرغم من اهتمام نظام الملك بالعلوم الدينية إلا أنه لم يغفل النواحي الأدبية بل أنه نفسه ساهم في النهضة الأدبية وكان يميل الى الشعر، ويقرب الشعراء منه ويغدق عليهم الأموال ومدحه الكثير من الشعراء منهم الباخرزي الذي كان يحضر مجالسه وظل ملازمًا له[١١٦].

ويرجع الفضل الى نظام الملك في بناء العديد من المنشآت العلمية في الكثير من المدن ومن ضمنها أصفهان التي كانت حاضرة دولته، فقد أقام العديد من المدارس التي أطلق عليها النظاميات نسبة له[١١٧]، فقد قال السبكي:" وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصفهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو ،ومدرسة بامل طبرستان ،ومدرسة بالموصل".[١١٨]

وبالنسبة الى مدرسة أصفهان التي بناها نظام الملك فقد أخذت تنافس نظامية نيسابور وبغداد بأساتذتها وتلاميذها وفي وصف نظامية أصفهان قال المافروخي: "وأمر بابتناء مدرسة تجاوره جامعها للفقهاء الشفعوية فابتنيت كأحسن ما رؤي هياة وهيكلًا وصنعة، وعمل منزلًا على طرفها منارة عجيبة الوضع رائقة الأصل والفرع يصعد ثلاثة أنفس الى أعلاها في ثلاث درجات فلا يرى أحد صاحبه الى أن يعلوها وقدرها انصرف في نفقاتها والموقوف عليها من الضياع والمستغلات الموسوم ابتياعها للوقوف عليها عشرة الأف دينار"[١١٩]، وقد بلغت نظامية أصفهان شأنًا عظيمًا بعيدًا في السمعة وحسن الصيت، فأخذ طلاب العلم يشدون إليها الرحال من كافة أرجاء العالم الإسلامي، ومن الأعمال العظيمة التي كان لها أبلغ الأثر في ازدهار الحركة العلمية وتشجيع الناس على طلب العلم المعاليم والأموال التي قررها لطلاب العلم، ويقول السبكي :...وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدّر المعاليم للطلبة .." [١٢٠]، وبذلك يعتبر العصر السلجوقي عصر انطلاقة الحركة المدرسية في الإسلام خاصة بعد توّلي نظام الملك الوزارة، وكان لنظام الملك مكتبة خاصة غاية في القيمة وكان يصرف مكافأة لمن يسافر إليها من الطلاب، وكان قد جمعها عن طريق الإهداء والشراء.[١٢١]

ومن المنشأت الأخرى التي أقامها نظام الملك المساجد، والربط، والبيمارستانات[١٢٢]،كما اهتم بعلم التنجيم والفلك، واتخذ منهم الندماء ولا تكاد تخلو حاشيته من واحد منهم وكان له منجمه الخاص الذي لا يفارقه وقد حرص على غرس حب العلم والعلماء واحترامهم في نفوس أبنائه فأوصاهم بتقريب العلماء وإكرامهم[١٢٣]، مما سبق يتضح دور نظام الملك الكبير في ازدهار الحركة العلمية في أصفهان خاصة من حيث اهتمامه بالعلماء والإنفاق عليهم، واحترامهم، وإنشائه المراكز العلمية من مساجد، ومدارس، وأربطة، وخوانق، وبيمارستانات، وتوفير ما يحتاجونه وإنشاء المكتبات ومن أبرزها مكتبته التي بناها في أصفهان، وكذلك الحرية التي تمتع بها العلماء في عهده وسياسة التسامح المذهبي التي كان يتبعها.

اتسمت مدينة أصفهان بتعدد الأديان والطوائف، والفرق الدينية، وقد شهدت المدينة العديد من الصراعات الداخلية بين هذه الفرق، وهذا الخلاف المذهبي كانت له أثار سلبية وإيجابية فمن أثاره السلبية إهانة العلماء، وحبسهم، ونفيهم من بلادهم وأحيانًا تصفيتهم وقتلهم. أما الأثار الإيجابية فتمثلت في ازدهار الحياة العلمية في أصفهان حيث أن علماء كل فرقة كانوا يبذلون قصارى جهدهم لنشر مبادئ مذهبهم وإثبات صحته وتفوقهم على المذاهب الأخرى، وادى ذلك الى انعاش الحركة العلمية وهذا ما سّنركز عليه فقد ساعد وجود الفرق الدينية المختلفة على تنشيط الفكر العلمي لأن هذه الفرق اتخذت من العلم

وسيلة لترويج تعاليمها، ومحاولة الإقناع بصحة تعاليمها، وكان الجدل الذي ثار بين علماء هذه الفرق من وسائل ترويج الثقافة، وأوضح دليل على صحة ذلك الآثار العلمية الوفيرة التي خّلفها علماء الفرق الدينية المختلفة برغم ما أحدثته هذه الفرق من انقسام بين المسلمين، وإضعاف لقوتهم، كما أن الكبراء المنتمين الى المذاهب الأربعة لأهل السلف كان لهم دور كبير في تنشيط الحركة العلمية في ذلك العصر تمثل في إنشاء المدارس الشافعية، والحنفية، والحنبلية، والزوايا والأربطة فكان لكل مذهب مدارسه الخاصة[١٢٤]، وكان هناك صراع بين الباطنية من ناحية واهل السنة من ناحية أخرى، وأدى ذلك الصراع الى تنشيط الحركة العلمية في أصفهان حيث كان رجال الأمة الحريصيين على مصالح الإسلام جادين في العمل على دعم النشاط العلمي وإشاعة العلوم الشرعية، واستخدام المنطق والجدل للدفاع عن عقيدة أهل السلف، وأدى ذلك الى انتشار المصّنفات المختلفة للدفاع عن العقيدة وشرح أصولها، وإبراز وجهة النظر الفقهية المذهبية، وإخراج تراجم لرجاله، والكتابة عن مناقب شيوخ المذاهب[١٢٥]ويذكر أن السلاجقة كانوا على المذهب الحنفي، بينما وزرائهم كانوا ما بين الحنفي، والشافعي[١٢٦].

وقد حرص السلاجقة على تأكيد تمسكهم بمذهب أهل السنة، وحرصهم على جهاد أهل المذاهب والملل المنحرفة، ولولا غلبة السلاجقة على إيران لزالت الخلافة العباسية السنية[١٢٧]، وفي ذلك قال ابن كثير: "وجاء بعد بني يويه قوم آخرون من الأتراك السلجوقية الذين يحبون أهل السنة، ويوالونهم ويرفعون قدرهم.." [١٢٨] .

ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة الصراع الديني، والمذهبي لم يكن صراعًا دينيًا بل كان صراعًا سياسيًا هدفه التوسع والهيمنة على مناطق الخلافة العباسية، وعلى الخليفة العباسي، وبما أن السلاجقة كانوا سنة فقد روجوا للمذهب السني واتخذوا وزراء يشجعون على المذهب السني كالوزير الكندري الذي كان حنفيا، وكان شديد التعصب على الشافعية، ونظام الملك الذي كان يعد شخصية كبيرة شافعي المذهب مصوف حفظ القرآن ، وأسس المدارس النظامية لتكون أشبه بالجامعات اليوم، وأسس المكتبات ووقف العلماء بوجه الحركات الباطنية من الشيعة ، وقد مهدت المدارس النظامية السبيل فيما بعد أمام نورالدين، وصلاح الدين، والأيوبيين والمماليك لكي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات، وتتمثل في العمل على سيادة المذهب السني على الرغم من أن الصراع لم يكن مذهبيًا بحتا بل سياسيًا خاصة في المناطق التي كانت موطنًا لنفوذ الشيعة كالشام، ومصر، وغيرها.[١٢٩]

وتُعَدّ الفترة السلجوقية من أهم الفترات التي اشتدت فيها الخلافات الدينية، والعقائدية وراجت فيها العلوم الدينية، فقد كان عميد الملك الكندري شديد التعصب على الشافعية وبلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان فأذن في ذلك فأمر بلعنهم وأضاف اليهم الأشعرية وقد رفعت الى السلطان مقالات للأشعرية في العقيدة فما ارتضاها؟ فأمر بلعنهم فضج من ذلك أبي القاسم القشيري والأمام أبي المعالي الجويني، وغيرهما وعمل أبو القاسم القشيري رسالة سماها: "شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة" وقد حاول الإمام القشيري مع طغرلبك في أن يترك ما أمر به فما قبل[١٣٠]، وما أن تولى نظام الملك الوزارة لألب أرسلان أبطل ما كان عليه الوزير الكندري من لعن الأشعرية، وأعاد الفارين الى أوطانهم، مثل أبو المعالي الجويني الذي ذهب الى مكة المكرمة في تلك الفتنة وأخذ يدرس بها أربعة سنوات ولذلك لقب بإمام الحرمين[١٣١].

ومع أن نظام الملك كان شافعيًا ويميل الى العلماء الشافعية إلا أنه كان يتبع سياسة التسامح الديني مع المذاهب الأخرى، وليس ادل على ذلك ما أورده ابن الجوزي عندما دخل على نظام الملك أبو يوسف القزويني كان عند النظام أبو محمد التميمي، ورجل أخر اشعري فقل للنظام:" أيها الصدر قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار فقال كيف؟ فقال: أنا معتزلي، وهذا مشبه وذاك اشعري، وبعضنا يكّفر بعضًا" ولم ينل أحد من أصحاب المذاهب الأخرى أذى في عهده وحتى أوقات الفتن التي كانت تنشأ بين المذاهب حيث كان يتعامل معها بحكمة وحسن تصرف تنم على مدى ما كان يتمتع به من عقلية وأيضًا ما يتمتع به من سماحة لكافة المذاهب السنية وليس ادل على ذلك ما حدث في سنة ٤٦٩هـ، من فتنة بين الأشعرية والحنابلة والتي كانت بسبب أبو نصر القشيري فمال أبو إسحاق الشيرازي الى ابن القشيري وأرسل كتابًا الى نظام الملك يشكوا إليه الحنابلة، ويساله المعونة عليهم، فرد عليه نظام الملك برسالة تحمل في طياتها السماحة الدينية، وعدم اضطهاده لأي مذهب من مذاهب السنة، وتدل على حسن تصرفه حيث قال في كتابه الذي أرسله الى أبي إسحاق ردًا على رسالته :" ورد كتابك بشرح اطلت فيه الخطاب وليس توجب سياسة السلطان إلى أن نميل في المذاهب الى جهة دون جهة

ونحن بتأييد السنة أولى من تشييد الفتن .." (١٣٢)، ويتضح أن السماحة الدينية كان التي اتبعها نظام الملك كان لها تأثير كبير على ازدهار الحركة العلمية بأصفهان حيث إن حرية الراي تسهم في نمو العلم ولا ينمو العلم إلا في إطار الحرية.

وهناك الكثير من الدلائل التاريخية التي تدل على أن الصراع المذهبي كان له دور في تنشيط الحركة الفكرية ولعّل السبب وراء بناء ملكشاه مدرسة للحنفية في أصفهان هو غيرته على المذهب الحنفي عندما قام نظام الملك بتشييد العديد من المدارس للشافعية(١٣٣)، وقد نتج عن الصراع الذي دار بين الباطنية وأهل السنة في أصفهان أن ازهرت الحركة العلمية حيث أن الباطنية اعتمدوا على أسلوب الإقناع والحجة والحوار في كسب اتباعهم فاراد نظام الملك مقاومة الباطنية بنفس السلاح حيث أراد توجيه الناس وجهة دينية سنية صحيحة، ومناقشة العوام بمسائل الخلاف فالحجة لا تقرع إلا بالحجة، والعقل لا يقبل مناظرًا إلا العقل، ولأن الفكرة الفاسدة لا يحميها السيف، بل ربمّا ينميها، وأن التشريد والنفي تجعل من الميل للفكرة تصديقًا لها وإيمانًا بنفعها وصحتها ولان الجيش، والحرب، والسياسة المجحفة وحدها لا تجدي نفعًا(١٣٤)لذلك قام نظام الملك ببناء العديد من المدارس في المدن والحواضر ومن بينها أصفهان.(١٣٥)

كما عمل نظام الملك على تقريب الصوفية الذين كانوا بعيدين عن التعصب وكانت أصفهان مليئة بالصوفية فعمل نظام الملك على تقريبهم ورعايتهم، ومن الأشياء التي أدت الى ازدهار الحركة العلمية هي مجالس المناظرة التي كانت تعقد في الدور والقصور والمساجد وخاصة المجالس التي كانت تعقد في دار نظام الملك حيث أدت تلك المناظرات والمجالس العلمية الى انتعاش الحركة العلمية لأن العلماء كانوا يحرصون في مجلس المناظرة على بحث الموضوع المعروض للمناقشة بحثًا عميقًا حتى يظهر العالم أمام كبار رجال الدولة بمظهر لائق يكسبه مكانة مرموقة بين الناس، وأدت الخلافات في الرأي إلى إثراء الحركة الفكرية وازدهارها، وشجعت العلماء على مواصلة البحث والدرس وإعداد أنفسهم إعدادًا جيدًا في تلك المجالس.

وكانت المناظرات تتم في علوم شتى مثل الفقه والأدب والشعر وغيرها من العلوم، وكانت مجالس المناظرة تظهر الحقائق للناس والراي العام وتدحض الباطل(١٣٦). ومن مجالس المناظرة التي عقدت في أصفهان عند نظام الملك مناظرة حدثت بين علي بن أبي يعلى بن زيد الدبوسي (ت: ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) وأبي المعالي الجويني وكان قبل تلك المناظرة حدثت مناظرة أخرى بينهما في نيسابور فتعرض الدبوسي للأذى من أصحاب أبي المعالي فاحتمل الدبوسي وما قابلهم من شيء وخرج الى أصفهان فاتفق خروج أبي المعالي إليها في أثره في مهم يعرضه الى نظام الملك وكانت تلك المناظرة في حضرة نظام الملك فظهر كلام الدبوسي على إمام الحرمين فقال لإمام الحرمين "أين كلابك الضاربة"(١٣٧)، ومن المناظرات التي تمت في أصفهان أيضًا المناظرة التي كانت بين أبي اسحاق الشيرازي وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني وكانت بحضور نظام الملك سنة (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م)(١٣٨).

وما يدل أيضًا على أن مجالس المناظرة تؤدي إلى إنعاش الحركة الفكرية وازدهارها ما أورده السبكي: ".. فان ما يقع في المغالطات، والمغالبات في مجالس النظر يحصل به تعليم إقامة الحجة ونشر العلم، وبعث الهمم على طلبه وما يعظم في نظر أهل الحق.." (١٣٩)، وكان من يتفوق في تلك المجالس، وتظهر سعة علمه يوّلى المناصب الرفيعة في الدولة مثل التدريس في المدرسة النظامية، مثلما حدث مع الإمام الغزالي عندما ذهب الى نظام الملك في أصفهان، وحضر مجلسه وكان محاطًا بالعلماء ورجال الدين وبعد خوضه معهم ومناظرته لهم تبيّن لنظام الملك علو شانه فأقبل عليه ولاه التدريس بنظامية بغداد سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)(١٤٠).

ومن الدوافع الأخرى التي ساهمت في ازدهار الحركة العلمية آنذاك الرحلة في طلب العلم، فقد كانت الحدود مفتوحة بين المدن والحواضر الإسلامية، وكان الطلاب يرحلون في حماسة بالغة متحملين مشاق الطريق من أجل كسب المعرفة ولقاء الشيوخ.

رابعًا: مظاهر الحركة العلمية في أصفهان في عهد السلطان ملكشاه

حظيت العلوم الدينية في أصفهان باهتمام خاص من قبل السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك بسبب الصراع الفكري، والمذهبي الذي كان مُحتدمًا بين الشيعة الباطنية من ناحية، والمذاهب السنية من ناحية أخرى، ونتيجة لذلك الدعم ظهر في أصفهان كبار المحدّثين، والمفسرين، والفقهاء، والوعاظ، والصوفية ممن ورد ذكرهم في كتب التراجم، والطبقات، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: المقريء الحسن بن أحمد الحداد الأصفهاني(ت: ٥١٥هـ/ ١١٢١م)، شيخ أصفهان في القراءات، واليه انتهى الاقراء(١٤١)، والشيخ أبو القاسم المفضل بن محمد الأصفهاني، الذي عُدّ من كبار مُفسري أصفهان في القرن ٥هـ/١١م، من مُصنّفاته في التفسير:(مفردات القرآن الكريم)،

و(جامع التفاسير)، وكتاب (حل متشابه القرآن الكريم) [١٤٢]، كما برز فيها عدد لا يحصى من المحدّثين، وكانت أصفهان من المدن المشهورة التي شدّ إليها العلماء الرحال من أجل السماع، وكان بها :" من الحفاظ خلق لا يحصون..." [١٤٣]، ومن أشهر المحدّثين في عهد ملكشاه نذكر: الإمام الحافظ الثقة أبو نعيم عبدالله بن الحسن الأصفهاني (ت: ٥١٧هـ/ ١١٢٤م) [١٤٤]، والمحدّث محمد بن أحمد بن موسى بن مردويه الأصفهاني (ت: ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م)[١٤٥]،والمحدّث أبو مطيع محمد بن عبدالواحد المديني الصحاف الناسخ (ت:٤٩٧هـ/ ١١٠٤م)، وإليه انتهى علو الإسناد بأصفهان[١٤٦]، والحافظ محمد بن عبدالواحد الأصفهاني الدقاق (ت: ٥١٦هـ/ ١١٢٣م)، وكان من المهتمين بطلب الحديث والرحلة في تحصيله، كتب ما يزيد عن الف شيخ من أصفهان [١٤٧]، والمحدث الحافظ يحى بن عبدالوهاب بن محمد الأصفهاني (ت: ٥١٢هـ/ ١١١٨م)، وكان مُحدّثًا جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ثقة حافظًا مُكثرًا صدوقًا كثير التصانيف سمع الكثير بأصفهان، وغيرها من المدن [١٤٨] والمحدّث محمود بن الفضل بن محمود أبو نصر الأصفهاني سمع الكثير، وكتب وكان حافظًا ضابطًا ثقة مفيدًا لطلاب العلم توفي سنة (٥١٢هـ/ ١١١٨م)[١٤٩]، كما كان يوجد بأصفهان عدد من المحدّثات مثل: آمنة بنت عباد بن علي بن حمزة بن طباطبا العلوية من مُحدّثات أصفهان في القرن الخامس، والسادس الهجري بأصفهان[١٥٠].

وفي مجال الفقه برز في أصفهان فقهاء كبار لا سيما من المذهبين الشافعي، والحنفي، نذكر منهم: الفقيه محمد بن ثابت بن الحسن الخجندي الشافعي (ت: ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) مدرس نظامية أصفهان، وشيخ الشافعية بها، انتشر علمه في الأفاق، وتخرّج عليه كثير من طلبة العلم[١٥١]، والفقيه الحنفي صاعد بن محمد بن عبدالرحمن البخاري الأصفهاني، تولى الإفتاء، وكان مُقدمًا على أقرانه فضلًا، وعلمًا، وديانة، وزهدًا، وتواضعًا، تفقه على مذهب أبي حنيفة، ونبغ فيه حتى صار مفتي أصفهان، وكانت نهايته أن اغتيل على يد الباطنية في الجامع الكبير بأصفهان يوم عيد الفطر سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)[١٥٢]، كما عاش بأصفهان في عهد ملكشاه عدد من الفقهاء الحنابلة نذكر منهم: الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن اسحق الأصفهاني الحنبلي(ت: ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)،وكان قدوة أهل السنة بأصفهان، وشيخهم في وقته كان مُجتهدًا وما كان في بلده مثله في علمه، واجتهاده، وورعه، وزهده[١٥٣]، ومن شيوخ الحنابلة أيضًا: الفقيه إسماعيل بن محمد بن الحسن بن داود الأصفهاني الخياط (ت: ٥٠٨هـ/ ١١١٤م) [١٥٤].

وعلى الرغم من أنّ العلوم الدينية قد شغلت حيزًا كبيرًا من الاهتمام في أصفهان في عهد ملكشاه، إلا أن ذلك العصر لم يخلو من الاهتمام ببقية العلوم، كالعلوم اللغوية، والأدب، والشعر، وظهر في أصفهان عدد كبير من الأدباء والنحاة نذكر منهم : علي بن الحسين الضرير النحوي الأصفهاني كان بارعًا في النحو، له كثير من المصّنفات منها: (شرح اللمع)، وله كتاب (كشف المشكلات)، و(إيضاحات المعضلات في علل القرآن الكريم)، وغير ذلك[١٥٥]، ومحمد بن الفضل بن يحى العنبري الأصفهاني النحوي (ت: ٤٨٢هـ،/١٠٨٩م) [١٥٦]، ومحمد بن الحسن بن الحسين الوثابي الأديب اللغوي النحوي (ت:٥١١هـ،/١١١٨م) كان أحد الفضلاء في النحو، تخرج عليه فضلاء أصفهان[١٥٧].

وعرف عن الوزير السلجوقي نظام الملك أنه كان بارعًا في علوم اللغة، والإنشاء حتى قيل عنه:" أنه لم يكن في زمانه أكفأ منه في صناعة الحساب، وصناعة الإنشاء" ومما يدل على تضلعه في اللغة العربية أنه قابل رجلًا أثناء سفره في زي العلماء وقد بدأ عليه التعب والإرهاق فسأله نظام الملك " أيها الشيخ اعييت ام اعييت؟" فأجابه بل أعييت ففهم نظام الملك قدره لأنه فرّق بين العي في اللسان والإعياء وهو التعب في الجسم فأمر له بزاد وراحلة"[١٥٨].

وكان أكثر المشتغلين في جمع اللغة هم من العجم لحاجتهم الى ذلك أكثر من العرب ، وكان في أصفهان خلال عصر ملكشاه الكثير من علماء اللغة، وكان لبعضهم مصّنفات قيّمة في ذلك مما أدى الى تطور وازدهار علم اللغة في أصفهان أكثر من غيرها من المدن، ومن أشهر علماء اللغة نذكر على سبيل المثال: أبو عبدالله الحسين بن عبدالملك بن محمد الأصفهاني، وأطلق عليه شيخ العربية ولد سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م)، وتوفي سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)[١٥٩]، والمفضل بن محمد الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ، /١١٠٨م)، وله العديد من المصنّفات منها:(مفردات القرآن)، و(افانين البلاغة)، و(المحاضرات) [١٦٠]، والحسين بن إبراهيم أبو عبد الله الملقب بذي اللسانسين (ت: ٤٩٩هـ/ ١١٠٦م)، كان من أئمة اللغة بأصفهان من مؤلفاته: (دستور اللغة المستعملة المعتمدة الماثورة)[١٦١].

كما راج الأدب في أصفهان ويعود ذلك الى تشجيع سلاطين السلاجقة، ووزرائهم للشعراء والكتاب، وكان بعض الوزراء على درجة كبيرة من البلاغة مثل نظام الملك، كما أنّ استخدام الصوفية للنثر والشعر الفارسي في مؤلفاتهم أدى الى ازدهار الأدب الفارسي، وكذلك كان للصراع المذهبي كان له دور كبير في ازدهار الأدب الفارسي في ذلك العصر، وصّنفت الكتب

العلمية باللغة الفارسية على يد أهل المذهب تتضمن الرد على خصومهم، وذم معتقداتهم وامتداح مذهبهم(١٦٢)، كما أن إنشاء المدارس أدى الى تدريس اللغة العربية، واحتلال علوم اللغة العربية مكانة مرموقة في المدارس ما أدى الى نهضة أدبية، وقد امتزجت اللغتين العربية، والفارسية وتجلى الاعتزاز باللغة العربية في العصر السلجوقي فنظم بها أدباء الفرس، وافتخروا بها حتى صاروا يلقّبون ب ذي اللسانين، وكثر عدد أدباء الفرس الذين كانوا يجيدون العربية، كما أجاد العرب اللغة الفارسية، والفوا بها رغم أن الطابع العربي كان هو الغالب(١٦٣).

وبرز في أصفهان كثير من الشعراء كان بعضهم مُقربًا من السلاطين والوزراء نذكر منهم: الحسين بن علي بن عبدالصمد الطغرائي كان من أبرز الشعراء الأصفهانيين، وصف بأنه كان آية في الكتابة، والشعر وأنه حامل لواء النظم والنثر، وكان يسمى بالإسناد لغزارة علمه خدم السلطان ملكشاه، وكان صاحب ديوان الإنشاء في عهد السلطان محمد بن ملكشاه، واستوزره السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، وامتدح العماد الأصفهاني شعره، وله قصائد كثيرة في مدح سلاطين السلاجقة، وله قصيدة أيضًا في مدح نظام الملك(١٦٤)، ومن أدباء أصفهان أيضًا: الحسين بن علي عبدالصمد الطغرائي توفي (٥١٥هـ/ ١١٢١م) وكان حامل لواء النظم والنثر قال عنه العماد الأصفهاني أنه فاق أهل عصره في النظم والنثر(١٦٥)، والأديب هارون بن محمد بن هارون بن محمد أبو غالب الأصفهاني(ت: ٤٩١هـ/١٠٩٨م) كان أديبًا بارعًا عاش في أصفهان(١٦٦).

كما برز الاهتمام بالتدوين التاريخي، وتنوّعت المواضيع التي تصدى مؤرخوا أصفهان للكتابة فيها، وكان أغلب هؤلاء المؤرخين يتصّفون بالموسوعية حيث اختصوا بعدة علوم، وصّنفوا بالإضافة في التاريخ في علوم أخرى، ومن أبرز هؤلاء المؤرخين نذكر: مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الأصفهاني، وكان معاصرًا للسلطان الب أرسلان، ومن بعده للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وقام المافروخي بتدوين كتاب عن تاريخ أصفهان سماه " محاسن أصفهان"، تحّدث فيه عن محاسن أصفهان، وخصائصها، وأحوالها، ووصف مدنها وقراها، وأحوال أهلها خلال فترة حكم السلاجقة(١٦٧)، والمؤرخ المحّدث أبو زكريا يحيى بن عبدالوهاب بن محمد اسحق الأصفهاني(ت:٥١١هـ/ ١١١٨م) من مُصّنفاته التاريخية" تاريخ أصفهان"(١٦٨).

وفي مجال الطب والصيدلة: ظهر عدد من الأطباء ممن مارسوا هذه المهنة بأصفهان نذكر منهم: الطبيب أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن علي الأصفهاني، وكان من الأطباء المشهورين، توفي بأصفهان في نيف وثلاثين وخمسمائة للهجرة(١٦٩)، والطبيب أبو الفضل المظفر بن أحمد، وكان مُقربًا من السلطان ملكشاه، وكذلك تربطه علاقة ود مع وزيره نظام الملك(١٧٠)، وكان غالبية الأطباء ذو دراية بصناعة الأدوية، وزرعت في أصفهان العديد من النباتات الطبية التي كانت تستخدم في صناعة الأدوية مثل الزعفران(١٧١)، وكان في كل بيمارستان صيدلية ملحقة بها يطلق عليها (خزانة الشراب)، وكان يشرف عليها طبيب أو خبير صيدلاني، كما كانت الأدوية تصنع في دكاكين العطارين(١٧٢).

كما برع آخرون في العلوم الرياضية من الحساب، والهندسة وكانت لهم فيها مؤّلفات قيمة نذكر منهم: أبو المعالي محمد بن مسعود القسام الذي تفرد بعلم القسمة، والمساحة وتوفي بعد الستين والخمسمائة(١٧٣)، ومحمد بن لمرة الأصفهاني الحاسب، وكان رجلا ًفاضلًا في أهل هذه الصناعة، وله كتاب (الجامع في الحساب)، وقد تطور علم الحساب على يديه آنذاك(١٧٤).

وفي علم الفلك أو كما كانت تعرف بعلم الهيئة(١٧٥)، كان للفلكين، والمنجمين مكانة عالية لدى سلاطين السلاجقة، ولكنهم كانوا أحيانًا يتعرضون للمعاقبة اذا ما أخطأوا في حساباتهم(١٧٦)،وكان السلاجقة لا يبرمون أمرًا ولا يخوضون حربًا إلا بعد الرجوع لأراء الفلكيين والمنجمين، وعرف عن السلطان ملكشاه أنه كان مُولعًا بعلم الفلك، والتنجيم حيث أقام هذا السلطان ووزيره نظام الملك مرصدًا فلكيًا في أصفهان سنة (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م) اجتمع عليه جماعة من أعيان المنجمين، وأنفق أموالًا طائلة، وبقي المرصد يعمل الى أن مات السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، وبطل بعد موته، وكان السبب في بناء ملكشاه ذلك المرصد أنه كان يريد أن يجعل عيد النيروز بداية السنة الجديدة، وأطلق على هذا التقويم اسم التقويم الجلالي(١٧٧)، وكان للسلطان ملكشاه منّجمه الخاص، وهو بهرام ومعه مجموعة من المنجمين يشيرون الى السلطان بمحاسن الأيام في الخروج الى الصيد أو الحروب أو تعيين موقع المحراب عند بنائه جامعًا ، كما حدث عندما بنى جامع السلطان ببغداد(١٧٨)، ومن مشاهير المنجمين في أصفهان في العصر السلجوقي: أبو المناقب عبدالله بن شاكر المعداني (ت: ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م) كانت له اليد الطولى في عمل النجوم.(١٧٩)

وفي علم الفلسفة والكلام فقد أصابها الانهيار، وتراجعت كثيرًا بسبب موقف علماء الدين من علوم الأوائل، وكذلك اهتمامهم بالدرجة الأولى بالعلوم الدينية واللغة، كذلك موقف

السلطة من الفلاسفة، وقد تعرض الكثير من الفلاسفة للمضايقات والسجن والمصادرة، وحرقت مصنفاتهم مثلما حدث مع مؤيد الدين إسماعيل الطغرائي(١٨٠)، على عكس علم الكلام الذي انتشر وازدهر وهو الذي يتناول العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة، وعرف ابن خلدون علم الكلام قائلاً: "هو علم يتضمن الحجاج على العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذهب السلف وأهل السنة ..." (١٨١)، شهدت أصفهان تقدمًا ملحوظًا العقلية إلا أنها لم تضاهي العلوم النقلية التي كان الاهتمام بها كبيرًا ، إلا أن ما يؤسف له أن النهضة الحضارية للسلاجقة، والإنجازات الحضارية، والفكرية التي تحققت على أيديهم تعرضت لتحديات، ومصاعب كبيرة بسبب الاجتياح المغولي، والصليبي، فضلًا عن التمردات، والاضطرابات الداخلية.

خاتمِةٌ

لعّل من أهم الاستنتاجات البحثية التي يمكن الخروج بها:

- تمتعت مدينة أصفهان بمكانة مُهمة لدى السلاجقة عامة، والسلطان ملكشاه خاصة نظرًا لموقعها الجغرافي المتمّيز، فضلًا عن طيب مناخها، ومواردها، وخيراتها التي ساهمت في بروزها كأحد الحواضر الإسلامية المشهورة، وهذا ما دفع السلاجقة للاهتمام بها، وكان السلطان طغرلبك قد رحل إليها للاستشفاء، كما زاد الاهتمام بها في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي الذي اتخذها مقرًا، وعاصمة لمملكته.
- بلغت الدولة في عهد ملكشاه ذروة مجدها، وعظمتها والذي استمر في السلطنة عشرين عامًا تقريبًا استطاع أن يستثمر ما حققه طغرلبك، والب أرسلان على أحسن وجه، وأصبحت مدينة أصفهان في عهده مركزا من مراكز الإشعاع الثقافي، وعرف عنه دعمه، ورعايته للعلماء وطلبة العلم، وأنشئت في عهده العديد من المساجد، ومدارس النظاميات، والمكتبات، كما بنى بها ملكشاه مرصدًا فلكيًا، ومنشآت خدمية أخرى كثيرة، مما أدى الى نهضة علمية لم يسبق لها مثيل.
- من العوامل التي ساهمت في ازدهار الحركة العلمية بأصفهان هو سياسة التسامح التي انتهجها السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك مع أصحاب المذاهب، والقوميات المتنوعة بمدينة أصفهان، فقد استقر بالمدينة كثير من الفرس، والترك، واليهود، والعرب، ووجد بها أيضًا العديد من أصحاب المذاهب الإسلامية، كالحنفية، والشافعية، والحنابلة، والشيعة، وعاش الجميع في سلام، ووئام، وأدى ذلك إلى تلاقح الأفكار، وازدهار الحركة العلمية في أصفهان.
- عُرف عن السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك اهتمامهما بالحركة العلمية، ودعمهم للعلماء، وتشجيعهم للمجالس العلمية، والمناظرات، وإكرام العلماء، والإنفاق عليهم، مما كان له أبلغ الأثر على إنعاش الحركة العلمية في أصفهان.
- كانت الرحلة العلمية في طلب العلم تمُثل جانبًا مُهمًا في ذلك العصر، وكان للرحلات العلمية أثر فاعل في النهضة العلمية التي شهدتها المدينة، وغدت مركزًا من مراكز الإشعاع العلمي، والحضاري رحل إليها الكثير من العلماء وطلبة العلم.
- تمّيز ذلك العصر بازدهار العلوم الدينية، والأدبية، كما برز الاهتمام ببعض العلوم العقلية كالفلك، وذاع صيت كثير من العلماء الأصفهانيين، وانتشرت مُصنفاتهم خارج أصفهان.
- شكّل الباطنية من الإسماعيلية الشيعة مصدر خطر، وتهديد على السلاجقة في مدينة أصفهان، وقاموا باغتيال السلاطين، والوزراء، والعلماء السنة مما دفع السلاجقة الى التصدي لهم، ومحاربتهم بشتى الطرق، والوسائل.

الاحالات المرجعية:

(١) تعددت الألفاظ، والآراء حول تسمية أصفهان، فنطقها البعض أصفهان، أو اصبهان، بفتح الهمزة، وعند الفرس (اسباهان)، وتعددت اشتقاقات التسمية، ومعانيها، فعند البعض هي ذات مدلول ديني نسبة الى أصفهان بن فلوخ بن لنطي بن يونان بن يافث، أو نسبة الى أصفهان بن فلوج بن سام بن نوح، بينما هناك من يرى أن أصفهان مشتق (آسفاه آن)، وتعني بالفارسية جنود الله، وهناك من فسّر التسمية بأنها كلمة مرّكبة من مقطعين: الاصب، هان، وتعني بلاد الفرسان، وكانت تسمى قديمًا ايرانشهر أو شهرستان، وبعد أن عمرّت سميت جَيّ بالفتح ثمّ التشديد ومعناها الطاهر، ومن التسميات التي عرفت بها المدينة عبر تاريخها: "انزان، كما كانت تسمى كابيان، كابيه في العهد الأخميني، وكانت مقرأ لاقامة ملوكهم، ووردت في كتابات بطليموس باسم ابادان، ابادانا، اصبانة" إلى غير ذلك من التسميات والأراء. للمزيد ينظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت: ١٩٩٠)، ١/ ٢٠٧-؛ عماد الدين أبو الفداء، **تقويم البلدان**، (بيروت: د/ت)، ص٣٣٣؛ الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار** (بيروت: ١٩٨١)، ص٤٣؛ المافروخي، محاسن أصفهان، (طهران:د/ت)، ص٩٢؛ ميرزا حسن جابري أنصاري، **تاريخ أصفهان**، (طهران:١٣٧٨هـ)، ص٤.
(٢) وسن عبد العظيم فاهم الايدامي، **مدينة أصفهان في العهد الصفوي**، دراسة في اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، اطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة القادسية، ٢٠١٩، ص٢١.
(٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (القاهرة:١٩٧٧)، ١/ ٤٥٤؛ القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، (بيروت:د/ت)، ص٢٦٩.
(٤) أو ما اصطلح على تسميته في العصر السلجوقي بعراق العجم، تمييزًا له عن القسم الاسفل من بلاد ما بين النهرين أو عراق العرب، وقد أشار ياقوت أن تسمية العجم في أيامه غلط، وقد استعمل هو نفسه الاسم القديم فقال (اقليم الجبال)، وأشار القزويني الى ما يرادفه بالفارسية فسماه قوهستان أي (إقليم الجبال)، ومهما يكن من أمر فان تسمية الجبال قد بطل استعمالها بعد الغزو المغولي. للمزيد. ياقوت، **معجم البلدان**، ١/ ٢٦٩؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص٢٢٨؛ كي لسترانج، **بلدان الخلافة الشرقية** (بغداد:١٩٥٤)، ص ٢٢٠-٢٢١.
(٥) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** (دمشق:١٩١٨)، ٣/ ٧٥٥؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ١/ ٢٦٩.
(٦) أبو نعيم، **أخبار أصفهان**، أو ذكر أخبار أصفهان(بيروت: ١٩٩٠)، ١/ ٣٢-٣٣.
(٧) ابن الفقيه، مختصر البلدان(ليدن: ١٩٦٧)، ص ٢٩٣.
(٨) ياقوت، **معجم البلدان**، ١/ ٢٠٧.
(٩) القزويني، **آثار البلاد**، ص ٢٩٦.
(١٠) الاصطخري، **المسالك والممالك** (بيروت:١٩٦١)، ص ١١٧.
(١١) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص٤.
(١٢) ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض** (القاهرة: د/ت)، ص ٣٠٩.
(١٣) ياقوت، **معجم البلدان**، ٢٦٩/١.
(١٤) ناصر خسرو، **سفرنامة** (القاهرة:١٩٩٣)، ص ١٥٥.
(١٥) ابن الفقيه، **تاريخ البلدان**، ص٢٥٤.
(١٦) ابو نعيم، **ذكر أخبار أصفهان**، ص٣٢.
(١٧) ياقوت، **معجم البلدان**، ١/ ٢٧١.
(١٨) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك** (ليدن:د/ت)، ص٢١؛ أبو نعيم، **اخبار أصفهان**، ١/ ٣٤.
(١٩) ياقوت، **معجم البلدان**، ١/ ٢٠٧؛ وسن عبد العظيم فاهم الايدامي، **مدينة أصفهان**، ص٢٦-٢٧.
(٢٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٣٠٩.
(٢١) اليعقوبي، **البلدان**، (بيروت: ١٤٢٢هـ)، ص ٨٦؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ٢٧٢/١.
(٢٢) الراوندي، **راحة الصدور وآية السرور**، (بيروت: ١٩٦٠)، ص٢٠٦؛ البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق** (بيروت: ١٩٨٠)، ص٥٨.
(٢٣) ناصر خسرو، **رحلة**، ص١٥٤.
(٢٤) **معجم البلدان**، ١/ ٢٧١.
(٢٥) القزويني، **آثار البلاد**، ص ٤٤٢.
(٢٦) ناصر خسرو، **سفرنامة**، ص١٥٤.
(٢٧) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ٧؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ٢٧٢/١.
(٢٨) الاصطخري، **المسالك**، ص ١١٨؛ المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ٧؛ القزويني، **أثار البلاد**، ص٤٤٣.
(٢٩) ناصر خسرو، **سفرنامة**، ص ١٥٤.
(٣٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٣٠٩.
(٣١) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٣٠٩.
(٣٢) الاصطخري، **المسالك**، ص ١١٧.
(٣٣) اختلفت المصادر في تحديد السنة التي فتح فيها المسلمون أصفهان، كما تباينت الاأراء في فتحها هل فتحت صلحًا؟ عنوة؟ فقد ذكرت بعض المصادر أنها فتحت سنة (١٩ه/ ٩٤٠م)، بينما أشارت أخرى الى أن فتحها كان سنة ٢١ه، ٩٤٢م، أو سنة ٢٣هـ/ ٩٤٤م. وكان قائد فتحها هو عبد الله بن عبد الله بن عتبان ثمّ لحق به ابو موسى الاشعري. للتفاصيل ينظر: البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: د/ت)، ص ٤٣٩؛ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢/ ١٣٩؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ١/ ٢٧٣.
(٣٤) الطبري، **تاريخ الرسل**، ٩/ ٤٨٨.
(٣٥) القزويني، **آثار البلاد**، ص ٢٨٣.
(٣٦) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ٣٨٩.
(٣٧) بن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٣١٥؛ القزويني، **أثار البلاد**، ٤٤٢.
(٣٨) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٣١١.
(٣٩) ابن خرداذبة، **المسالك**، ص ٢٠.
(٤٠) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (القاهرة: ١٩٩١)، ص ٣٨٨؛ ياقوت، **معجم**، ١/ ٢٧٢.
(٤١) ابن الفقيه، **مختصر كتاب البلدان**، ص ٢٩٧.
(٤٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ٣٩٤.
(٤٣) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص٨-٩.
(٤٤) الطبري، **تاريخ الرسل**، ٧/ ٤٩٥.
(٤٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**(بيروت:١٩٨٢)، ٨/ ١٨٨.
(٤٦) ابن الأثير، **الكامل**، ٨/ ٢٩٣؛ ابن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت:١٩٧٧)، ٦٣/١٢.
(٤٧) ابن الأثير، **الكامل**، ٨/ ٢٩٣.
(٤٨) ناصر خسرو، **رحلة**، ص ١٧٤.
(٤٩) راوندي، **راحة الصدور**، ص٩٤.
(٥٠) ناصر خسرو، **رحلة**، ص ١٧٤.

(٥١) كان لالب ارسلان ستة من الأبناء، اياز، تكش، بوري برس، تتش، ارسلان ارغو، وكان لملكشاه النصيب الأكبر من تركة أبيه حيث آلت اليه السلطنة بعد أبيه. البنداري، آل سلجوق، ص٤٩؛ ابن الأثير، **الكامل**، ٨/ ٣٧٦.

(٥٢) ابن الأثير، **الكامل**، ٨/ ٤٠٣.

(٥٣) الحسيني، **زبدة التواريخ**، أو **أخبار الأمراء والملوك السلجوقية** (بيروت: ١٩٨٥)، ص١٢١.

(٥٤) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص١٠٢.

(٥٥) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ١٠٢.

(٥٦) ابن حوقل، **صورة الارض**، ص ١٠٩؛ القزويني، **اثار البلاد**، ص ٢٩٦.

(٥٧) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ١٠٣.

(٥٨) عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، (القاهرة: ١٤١٩هـ)، ص ٣٤٥.

(٥٩) الحسيني، **زبدة التواريخ**، ص ١٢٢.

(٦٠) الحسيني، **زبدة التواريخ**، ص ١٢٢.

(٦١) الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٩٨-١٩٩.

(٦٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (القاهرة:د/ت)، ٥/ ١٣٥.

(٦٣) الراوندي، **راحة الصدور**، ص ٢٠٠.

(٦٤) ابن الأثير، **الكامل**، ٨/ ٤٢٤.

(٦٥) البنداري، **تاريخ آل سلجوق**، ص٥٨-٦٠.

(٦٦) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ص١٠٣.

(٦٧) الراوندي، **راحة الصدور**، ص ٢٠٦.

(٦٨) وسن عبد العظيم الايدامي، **مدينة أصفهان**، ص٤٦.

(٦٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٥/ ١٣٥.

(٧٠) أحمد كمال الدين حلمي، **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، (الكويت: د/ت)، ص٤٥.

(٧١) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول** (بيروت: ١٩٥٨)، ص١٩٣.

(٧٢) للمزيد يُنظر: الراوندي، **راحة الصدور**، ص٢٧-٢٨؛ أحمد كمال الدين حلمي، **السلاجقة**، ص ٤٢-٤٦.

(٧٣) على الرغم من المتاعب التي واجهها طغرلبك في فتح أصفهان. إلا أنه انتهج مع أهلها سياسة حكيمة، اتصفت بالرأفة، والعدالة، وخفف عن كاهل أهلها بأعفائهم من الضرائب مدة ثلاث سنوات. المافروخي، محاسن أصفهان، ص ١٠١.

(٧٤) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** (بيروت: ١٩٩٢)، ١٦/ ٨٥.

(٧٥) الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٦٠؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** (بيروت:د/ت)، ٥/ ٦٦.

(٧٦) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ١٠١.

(٧٧) ابن الأثير، **الكامل**، ٦/ ٣٨٨.

(٧٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٦/ ١٣٥.

(٧٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٥/ ٧٠.

(٨٠) الحسيني، **زبدة التواريخ**، ٢ ١٢١-١٢٥؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٥/ ٢٨٤.

(٨١) الحسيني، **زبدة التواريخ**، ص ١٢٥.

(٨٢) ابن الأثير، **الكامل**، ٨/ ٤٢٤.

(٨٣) الراوندي، **راحة الصدور**، ص ٢٠٦.

(٨٤) الروانذي، **راحة الصدور**، ص ٢٠٦.

(٨٥) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ١٠١.

(٨٦) **مسجد أصفهان**، وهو مدرج على قائمة التراث العالمي منذ سنة ٢٠١٢، أنشاه الفاتحون المسلمون سنة (٢٣هـ/ ٦٤٤م) في معبد للنار للمجوسية، وكان أول أمره مسجدا صغيرًا ثمّ هدم، وبني مرارًا، فعلى سبيل المثال قام الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٢-٨٤١م) بتوسيع بناءه، وترميمه سنة (٢٦٦هـ/ ٨٤٠م)، كما أمر الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) أمير أصفهان سنة (٣٠٧هـ/ ٩١٩م) بزيادته مرة أخرى، وفي عهد السلاجقة قام السلطان ملكشاه بترميمه، واليه يعزى بناء قبة المسجد البديعة سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٨٠م، ولم يبق من المسجد الجامع في أصفهان اليوم إلا جدرانه. للمزيد يُنظر: ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٣٠٩؛ أبي نعيم، **ذكر أخبار أصفهان**، ج١/ ص٣٦.

(٨٧) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٣٨١.

(٨٨) المافروخي، **محاسن**، ص٨٤.

(٨٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٥/ ٢٨٥.

(٩٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٦/ ٤٠٨.

(٩١) عباس قبال، **الوزارة في عهد السلاجقة** (الكويت: ١٩٨٤)، ص٢٥٤.

(٩٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٤٥٨.

(٩٣) السبكي، **طبقات الشافعية** (بيروت: د/ت)، ٤/ ١٧٦.

(٩٤) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان**، (بيروت:١٩٨٣)، ٥/ ١٢.

(٩٥) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٦/ ٢٣٧.

(٩٦) البنداري، **آل سلجوق**، ص ٧٠.

(٩٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٥/ ٢٨٤؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٢/ ١٤٢.

(٩٨) ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** (بيروت:د/ت)، ٣/ ٣٧٧؛ ابن كثير، **البداية**، ١٢/١٤٢.

(٩٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٣٦٤.

(١٠٠) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٩.

(١٠١) نظام الملك الطوسي، **سياسة نامة**، (بيروت: ٢٠٠٧)، ص ٠١، ٣٠، ٣١.

(١٠٢) الطوسي، **سياسة نامة**، ص ٩٠.

(١٠٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٤٨.

(١٠٤) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٣.

(١٠٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، /٨/ ٤٦٢.

(١٠٦) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٧.

(١٠٧) عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، ص٣٨٢.

(١٠٨) الطوسي، **سياسة نامة**، ص ٩٠.

(١٠٩) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٠.

(١١٠) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص١٠٤.

(١١١) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٤/ ٤٥٣.

(١١٢) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣/ ٣٥٩.

(١١٣) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٥/ ١٢٢.

(١١٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٦/ ٣٠٦.

(١١٥) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٧/٢٢.

(١١٦) الباخرزي، **دمية القصر وعصرة أهل العصر** (الكويت: ١٩٨٥)، ص٣٠٤.

(١١٧) الحسيني، **زبدة التواريخ**، ص١٤٢.

(١١٨) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٣.
(١١٩) المافروخي، **محاسن أصفهان**، ص ١٠٥.
(١٢٠) السبكي، **طبقات الشافية**، ٤/ ٣١٤.
(١٢١) عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، ص ٣٩٨.
(١٢٢) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٢-٣١٤.
(١٢٣) عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، ص ٥١٤.
(١٢٤) مريزي سعيد عسيري: **الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي** (مكة المكرمة: ١٩٨٧م)، ص٢٥٣.
(١٢٥) مريزي سعيد عسيري، **الحياة العلمية**، ص ٢٥٣.
(١٢٦) أحمد كمال الدين حلمي، **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ص ٢٢٣.
(١٢٧) أحمد كمال حلمي، **السلاجقة**، ص ٢١٩.
(١٢٨) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٢/ ٦٨-٦٩.
(١٢٩) شكران خربوطلي، **"الحياة الفكرية في اقليم خراسان في ظل سلاطين ووزراء العصر السلجوقي"**، بحث مجلة دراسات تاريخية، كلية الآداب، جامعة دمشق، ٢٠١٢، العدد ١١٧-١١٨، ص١٩٢.
(١٣٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٣١٥.
(١٣١) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٥/ ١٧٠.
(١٣٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٧/ ١٩٠-١٩١.
(١٣٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١١٢/١٢.
(١٣٤) عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، ص٣٥٤.
(١٣٥) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٣١٣.
(١٣٦) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٥/ ١٧٤.
(١٣٧) السبكي، **طبقات الشافعية** ،٥/ ٢٩٧.
(١٣٨) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٢/ ١٢٣.
(١٣٩) السبكي، **طبقات الشافعية**، ٤/ ٦٢.
(١٤٠) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٦/ ٢٩٢.
(١٤١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٣/ ١٩٩.
(١٤٢) الداودي، **طبقات المفسرين**، ٢/ ٣٢٩.
(١٤٣) ياقوت، **معجم البلدان**،١/ ٢٧٣.
(١٤٤) الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (بيروت: ١٩٩٢)، ١٩/ ٤٨٦.
(١٤٥) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣/ ٤٠٨.
(١٤٦) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣/ ٤٠٧.
(١٤٧) الذهبي، **سير أعلام**، ١٩/ ٤٧٥؛ ابن العماد، **شذرات**، ٤/ ٥٣.
(١٤٨) الذهبي، **سير أعلام**، ٢١/ ١٥٢-١٥٥.
(١٤٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٧/ ١٦٨.
(١٥٠) عمر رضا كحالة، **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام** (بيروت: د/ت)، ١/ ١٤.
(١٥١) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣/ ٣٦٨.
(١٥٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ١٧/ ١١٣؛ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٤/ ٤.
(١٥٣) ابن يعلى البغدادي، **طبقات الفقهاء الحنابلة**، (القاهرة: ١٩٩٨)، ٢/ ٣٢٤.
(١٥٤) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٤/ ١٦٣.
(١٥٥) ياقوت، **معجم الأدباء**، (بيروت: ١٩٨٠)، ١٣/ ١٦٥-١٦٦.
(١٥٦) القفطي، **أنباه الرواة**، ٣/ ٢٠٠.
(١٥٧) القفطي، **انباه الرواة**، ٣/ ١١١.
(١٥٨) عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، ص٢٤٩-٢٥٠.
(١٥٩) الذهبي، **سير أعلام**، ١٩/ ٦٢٠.
(١٦٠) السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، (بيروت:د/ت)، ٢/ ٢٩٧.
(١٦١) القفطي، **انباه الرواة**، ١/ ٣٥٥.
(١٦٢) أحمد كمال الدين حلمي، **السلاجقة**، ص ٢٥٢.
(١٦٣) محمد محمود إدريس، **تاريخ العراق والمشرق الاسلامي خلال العصر السلجوقي**، (القاهرة: ١٩٨٥)، ص٢٧١.
(١٦٤) عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم أصفهان وخراسان، (طهران:١٩٩٩)، ص٦٢-٦٣؛ ابن العماد، **شذرات**، ٤/ ٤١-٤٣.
(١٦٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، / ٢/ ١٨٥؛ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٤/ ٤٢.
(١٦٦) القفطي، **انباه الرواة**، ٣/ ٣٦٣.
(١٦٧) المافروخي، محاسن أصفهان، **المقدمة**.
(١٦٨) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٤/ ٣٢.
(١٦٩) عمادالدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، ص ٢٢٣.
(١٧٠) عمادالدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، ص ٢٢٣.
(١٧١) القزويني، **آثار البلاد**، ص ٢٩٦.
(١٧٢) عبد المنعم ماجد، **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، (القاهرة: ١٤٢١هـ)، ص٢٥٩.
(١٧٣) السيوطي، **بغية الوعاة**، ١/ ٢٤٤.
(١٧٤) القفطي، **انباه الرواة**، ص١٨٨.
(١٧٥) **علم الهيئة أو الفلك**: وهو العلم الذي يهتم وينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة بطرق علمية وهندسية دقيقة. ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٢٨٧. ومن الالات التي كان المسلمون يستخدمونها لمراقبة النجوم الاسطرلاب، وقام علماء الفلك المسلمون بترجمة الكتب الفلكية من اليونانية والهندية، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، (القاهرة: ١٩٨١)، ص ١٣٤.
(١٧٦) أحمد كمال الدين حلمي، **السلاجقة**، ص ٣٩٥.
(١٧٧) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٤٠٨-٤٠٩..
(١٧٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٤٧٥.
(١٧٩) عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، ص٢٠٤.
(١٨٠) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ٤/ ٤٢-٤٣.
(١٨١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٤٥٨.


ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التنظيمات الإدارية للمؤسسة العسكرية العثمانية
ما بين عام ١٤٠٠م وحتى عام ١٦٠٠م

د. عبد الله ذيب عبد الله محمود
حاصل على الدكتوراه من الجامعة الأردنية
أستاذ مشارك بجامعة فلسطين التقنية
طولكرم – دولة فلسطين

مُلَخَّص

يُعَدّ الجيش العثماني من الجيوش القديمة، لكنه في البداية كانت تشكيلاته قبيلة اعتمدت على الاقطاع العسكري، مع الإشارة إلى أن النواة الأساسية تشكلات في عام ١٣٢٦م، حيث يُعتبر السلطان أورخان الأول مؤسس الجيش العثماني. اهتمت الدولة العثمانية بالجيش، وقد تم تقسيم الجيش العثماني الى أربعة أقسام وهي: القوات البرية، والقوات البرية المساندة، والقوات المدفعية والقوات البحرية، ويلاحظ أن كل قسم من هذه القوات ضم فرق عسكرية كثيرة، ولذلك كانت هناك حاجة لتمويل الجيش العثماني من خلال ما يسمى بالإقطاع العسكري، وبالتالي ركزت الدراسة على أقسام الجيش العثماني واختصاصاته، والفرق الكثيرة التي تكون منها هذا الجيش، وقد جاء الاهتمام بالجيش نظرًا للحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة العثمانية في بداية تشكلها، بالإضافة إلى اتساعها. وتأتي أهمية هذه الدراسة في أنها تسلط الضوء على التنظيمات الإدارية للمؤسسة العسكرية العثمانية، حيث إن الدراسات العلمية قليلة في هذا الموضوع، بالإضافة إلى أهمية دراسة وضع المؤسسة العسكرية العثمانية ودورها في توسع الدولة بشكل كبير في القرنين الخامس والسادس عشر.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	يوليو	٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر:	٢٢	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:
الجيش العثماني؛ القوات العسكرية العثمانية؛ الإقطاع العسكري؛ الدولة العثمانية؛ الإنكشارية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.298776 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الله ذيب عبد الله محمود. "التنظيمات الإدارية للمؤسسة العسكرية العثمانية ما بين عام ١٤٠٠م وحتى عام ١٦٠٠م".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة -العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٨٩ – ٩٥.

Corresponding author: abdullahmahmmoud@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدِّمَةُ

يعتبر الجيش العثماني من الجيوش القديمة، فقد تأسس في عام ١٣٢٦م، حيث يُعتبر السلطان أورخان الأول مؤسس الجيش العثماني الحقيقي[١]، حيث كانت البداية بتأسيس فرق تقوم على الإقطاع العسكري[٢]، بالإضافة إلى جيش البيادة أو اليايا والتي تمت على يدها الفتوحات الأولى للعثمانيين، ومن ثَمَّ قام السلطان أورخان الأول بتأسيس الجيش الإنكشاري[٣]، والذي يعتبر الجيش النظامي الأول في الدولة العثمانية[٤]، كما ساعده أخيه علاء الدين بن عثمان، والذي ساهم هو الآخر في بناء نظام للجيش[٥]. هذا وتنبع أهمية الدراسة في أنها تسلط الضوء على التنظيمات الإدارية للمؤسسة العسكرية العثمانية، فالمؤسسة العسكرية هي قطاه هام في الدولة العثمانية، وهي التي وفرت الحماية للعائلة المالكة والدولة للتمدد والتوسع، وبالتالي ساهمت التنظيمات الإدارية للفرق العسكرية المختلفة في جعل الدولة العثمانية دولة قوية في ذلك الوقت، بالإضافة إلى دورها في توسع الدولة بشكل كبير في القرنين الخامس والسادس عشر.

هذا ويمكن تصنيف القوات العسكرية في الأغلب إلى أربع أصناف حتى عهد الإصلاحات العسكرية سنة ١٨٤٠م:

الفرع الأول: القوات العسكرية البرية المقاتلة.

الفرع الثاني: القوات العسكرية المساندة.

الفرع الثالث: المدفعية.

الفرع الرابع: القوات العسكرية البحرية.

الفرع الأول: القوات العسكرية البرية المقاتلة

الفرق الإنكشارية: هم مشاة الجيش النظامي العثماني والذي يضم الخيالة والمشاة، ولفظ إنكشاري مكون من مقطعين(يني جيري) ويقصد بها الجيش الجديد[٦]، وقد أنشأ السلطان أورخان أول الأمر جيشًا نظاميًا مؤلفًا من فرق متعددة، وكان أبرزها (الجماعات[٧]، وبولك، والسيكمان، وعجمي أوغلان)، وكانت كل فرقة منقسمة إلى وحدات تتألف من عشرة أنفار، ومئة نفر، وألف نفر[٨]، ثم اختار ألفًا من أسرى الحروب، وأغلبهم من صغار السن[٩]، بين السابعة والعاشرة، وضمّ إليهم الأولاد المسيحيين المشردين[١٠] والأيتام الذين توفي آباؤهم أو أمهاتهم خلال الغزوات والمعارك، ثم صهر الجميع في بوتقة واحدة، وأنشأهم على الدين الإسلامي وعلى التعلق بشخصه والإخلاص له وللدين والوطن، فكان هؤلاء هم نواة جيش الإنكشارية (يكيچرى، أي الجيش الحديث)، حيث كان الانكشارية لا يعرفون حرفة ولا عمل إلا القتال والحرب، وكان كل جندي يتقاضى يومية بقدر ٢ أقجة، وتزداد هذه اليومية باضطراد نظرًا لبلاء كل جندي وأقدميته[١١]، حيث كانت هذه الفرقة تنقسم إلى بلوكات تعرف بإسم أورطة[١٢]، وكان على رأس كل بلوك قائد يعرف بإسم بلوكباشي (رئيس البلوك)، وكان للفرقة رئيسًا يعرف بأفندي، أما القائد الأعلى فيُعرف باسم "آغا الانكشارية"[١٣]، ونائبه فيدعى (السيكمان باشي و(كتخذا).

ويمكن تقسيم المناصب العسكرية في الجيش الإنكشاري إلى ما يلي:

أغا الإنكشارية: رئيس كل الجيش.

السيكمان باشي[١٤]: رئيس فرقة السيكمان، وهو نائب الأغا ويخلفه أيام الحرب[١٥].

كتخذا أو وكيل الفرقة: وهو مسؤول عن كل ما يتعلق بشؤونها المالية.

الزغرجي باشي[١٦]: رئيس الأرطة الرابعة والستين من فرقة الجماعات.

الصمصنجي باشي: رئيس الأرطة الواحدة والسبعين من فرقة الجماعات.

الطورنة جيب باشي: رئيس الأرطة الثالثة والسبعين من فرقة الجماعات[١٧].

وهؤلاء جميعًا يسمون أغاوات يؤلفون أعضاء الديوان ومجلس الشورى العسكري[١٨].

كم أن هناك مجموعة من الرتب العسكرية في الجيش الإنكشاري وهم على النحو التالي:

القواد الذين يدعون سرحاد باشي، ويرسلون إلى الحاميات الإنكشارية المرابطة في أهم الحصون، ويحصلون على رتب (طورنة جيب باسي).

استنبول أغا، قائد فرقة العجمي أوغلان، والرئيس الخاص للارطة الرابعة والثلاثين، وله نائبان، أغا الروم ايلي و أغا الأنضول[١٩].

السلك باشيوله، وله رتبة الزغرجي باشي، وهو جزء من الحرس الهمايوني.

أمام الأوجك، أو القائم بشؤون الجيش الدينية، وهو رئيس الأرطة الرابعة والتسعين من فرقة الجماعات.

بيت الملجي: رئيس الأرطة الواحدة بعد المائة من فرقة الجماعات، وهو من يجمع متروكات من مات من الإنكشارية، ويترتب عليه أن يمر برتبة أوجك امام لكي يصل إلى رتبة طورنة جيب اشي.

الباش شاويش: رئيس الأرطة الخامسة من فرقة البلك، ويقوم بحراسة قصر الصدر الأعظم[٢٠].

وكل أرطة ضباط يقتسمون قيادتها وإدارة شؤونها[٢١] وهم على النحو التالي:

الجوربجي: رئيس الأرطة.

أوده باشي، نائب الجوربجي في المناورات العسكرية.

وكيل الخرج: يولى أمر الطعام والشراب.

بيرقدار: يتولى الأعلام والبيارق.

باشي اسكي: يتولى قيادة القراقولات.

اشجي: الطاهي[٢٢]

وقد تكاثر عدد الإنكشارية مع الزمن فبلغ في بعض الأحوال ستين ألفًا، وكان النظام التي تميّز بها هؤلاء الجنود في العصر الذهبي للدولة نظامًا حديدًا، فلم يكن عندهم مكان للخمر أو للقمار أو غير ذلك من الآفات التي عرفتها جيوش أوروبا في تلك العهود، ولكن الفساد ما لبث أن دبّ إلى هذا الجيش مع الزمن[٢٣]، فاعتاد الانكشارية أن يتمردوا ويطالبوا بالهبات السخية كلما ارتقى العرش سلطان جديد، ولعلها الفرقة الأشهر في التاريخ، لاسيما أنها لعبت دورًا مهمًا في توسع الدولة العثمانية وفي انهيارها أيضًا.

فرقة الأنفاق أو القوات الشبكية "لاغمجيلار": وهي قوات تابعة لجيش الانكشارية، وكانت المهمة الأساسية له حفر شبكات الأنفاق حول القلاع الحصينة لاختراقها من الأسفل، وأكبر مثال على عملية فتوحات ناجحة من خلال الأنفاق عملية فتح إسطنبول عام ١٤٥٣م، في حصارات القلاع تُكلف بحفر نفق إلى الأسوار وتفجيرها من تحت الأرض، كما كانت هذه الفرقة تحفر أنفاقًا توصلها إلى قلب القلاع لتقتحمها من الداخل، أما في المعارك التي يستخدم السلاح فيها فيكلفون بحفر نفق إلى ما وراء ثكنات العدو وتفجيرهم، وهو أسلوب قتالي لا يزال مستخدمًا حتى يومنا هذا، وقد تم استخدامه في فتح القسطنطينية وكان ناجحًا في تقليص عمر المعركة، مع الإشارة إلى أن أغلب من ينتسبون إلى هذه الفرقة لابد أن يكونوا على مقدرة لصناعة القنابل اليدوية[٢٤].

الجيش الأعسري "سولاكلار": كانت المهمة الأساسية له حماية الجهة اليسرى للجيش المُنطلق نحو الفتوحات.

الجيش الأيمن "ساجيلار": على العكس من الجيش الأعسري كانت المُهمة الأساسية لهم حماية ميمنة الجيش المنطلق نحو الفتوحات[٢٥].

فرقة السباهية[٢٦]: أنشأ العثمانيون إلى جانب جيش المشاة جيشًا من الفرسان عُرف باسم "الفرسان السواري" أو سباهى، ويُعرفهم معظم الكتّاب العرب باسم "الفرسان السيباه"، وقد لعب هؤلاء دورًا كبيرًا في تقدم الفتوح عبر أوروبا، وهم فرسان عثمانيون على درجات[٢٧]، يقيمون في مزارع الأراضي التي سيطرت عليها الدولة العثمانية ويسمح لهم بالانتفاع بمحصولها ورسوم فراغها وانتقالها بصفتهم فاتحين[٢٨]، وكانوا يعفون من كل التكاليف مقابل الدفاع عن أهل تلك المناطق[٢٩].

فرقة حماة الحدود "إجارالي": القوات الخاصة بحماية الحدود، كانت تتواجد بشكل عام في القواعد والقلاع الخاصة بحماية ولايات الدولة العثمانية.

فرقة المجنونون "داليلار": أطلق على هذه القوات ذلك الاسم لشجاعتهم واقدامهم على مواجهة العدو والانقضاض عليه، كانت تتواجد في بداية صفوف الجيش المُحارب[٣٠].

ومن الفرق الأخرى التي يضمها الجيش العثماني والتي تعتبر غريبة نوعًا ما، كفرقة الـ "مساكين" المكلفة فقط بحماية راية الدولة وفرقة الدلّالين المكلفين باكتشاف الطرق والتي تحول اسمها فيما بعد إلى فرقة "المجانين"؛ نظرًا لشجاعتهم وجرأتهم، بالإضافة لفرقة مكلفة بنقل المعلومات التي يحصلون عليها من الأسرى للقصر الحاكم.

الفرع الثاني: القوات العسكرية المساندة

قوات الفوارس (سيباحيلار): القوات الخاصة بحماية السلطان ومشاركته في محاربة الأعداء أثناء المعارك، كما يتضمن هذه الفرقة الآغا حامل السلاح، وهو الرجل الذي يحمل سلاح السلطان ويقف بجانبه دومًا في المناسبات الرسمية والحروب، ويتم تعيينه من رجال مدرسة القصر الأكثر خبرةً والأقدم سنًا، ولكن السلاطين فضلوا تعيين من سيحمل سلاحهم بأنفسهم، فحامل السلاح يمتلك سلطات عالية جدًا ولا بد للسلطان أن يثق به ثقة عمياء[٣١].

قوات (حراس أو عبيد الباب) أو (كابي كولو اوجاكلري): وهي أكبر فرقة في الجيش العثماني، وتعد الأقرب والأكثر اتصالًا بالسلطان، وتضم الجنود العاديين والفرسان، وهي من العناصر

الأساسية للجيش العثماني التي تعمل في إطاره بشكل رسمي وتتبع للسلطان العثماني بشكل مباشر، كانوا يمتطون الخيل ويتولون المهام التقنية والتكتيكية داخل الجيش، وكانت المهام الأساسية لهم هي: رسم خطط الحرب، وحماية القصر، وحماية حدود الدولة، وصنع واستخدام المدافع والبنادق والسيوف والسهام والأرمحة، كانت تحكم هذه القوات قوانين صارمة شديدة، وتخضع لقوانين صارمة للغاية، حيث يُمنع جنودها من التواصل مع أسرهم وذويهم بأي شكل من الأشكال ولا يكون لهم أي اتصال عاطفي أو مادي إلا مع السلطان، حين حينما يعين الفرد في هذه الفرقة يقطع جميع صلته بدينه وأهله، ويتربى جميعهم على مبدأ أن "المسلم الحقيقي لا يكون عبدًا، ويخضعون إلى عدد من التدريبات الصارمة[٣٢].

قوات الحدائق (بوستانجي أوجاغي): تم تأسيسها لتخفيف العبء عن قوات حرس الباب، وكانت المهمة الأساسية لها حماية القصور العثمانية والحدائق والجدران المُحيطة بها، وكما تولت هذه القوات مهمة نقل الأدوات والمواد اللازمة لإجراء التعديلات الخاصة بالقصور ولإنشاء الجوامع القريبة منها.

قوات السقاية (سقا أوجاغي): تتبع قوات السقاية لجيش الإنكشارية وكانت المهمة الأساسية لها توفير المياه لجميع وحدات الجيش العثماني، وهي الفرقة الأقل مهامًا وسلطة في الجيش العثماني، فهي مسؤولة عن توفير الاحتياجات الأساسية لبقية الجنود.

قوات جيش الإمداد (جابي جي أوردوسو): القوات التي كانت مسؤولة على إمداد الجيش العثماني بالسلاح، تم تأسيس جيش الإمداد زمن السلطان العثماني "محمد الفاتح" فيما بين الأعوام ١٤٣٢ و١٤٨١م، وهي الفرقة المسؤولة عن تأمين الأسلحة للجيش في الحروب وحمياتها ونقلها إلى ساحات المعارك، ويقال عن منتسبيها "جبيجيلار".

العُزاب (الجي جي): وهو الجيش المعد لحراسة ونقل الأسلحة والمعدات الحربية ولم يحصل على نظام مستقر إلا في زمن السلطان محمد الثاني[٣٣].

ومن الفرق العسكرية المساندة فرقة (المسلّمون) وهي فرقة تابعة للجيش العثماني[٣٤]، ولكنها تؤدي العديد من الوظائف المتعلقة بشؤون الدولة وتشارك في الحروب، وكانت هذه الفرقة تنظف طرقات الجيوش ويصلحون الجسور ويقدمون العديد من الخدمات للجيش مقابل إعفائهم من جميع الضرائب في زمن السلم، ولهذا السبب أطلق عليهم هذا الاسم، وكذلك من الفرق العسكرية المساندة فرق الزعمات والتيمار[٣٥] واللذين يلتحقون بالجيش وقت الحروب، حيث يطلق عليهم عساكر البشاوات، وكذلك هناك بعض الفرق العسكرية المتطوعة، مثل فرقة العساكر المحلية المتطوعة وفرق السيوف المسلولة وغيرها[٣٦].

الفرع الثالث: القوات المدفعية (الطوبجية، والطوب عربة جي)

قوات حاملات المدافع (توب أرباجيلار): كانت هذه القوات هي وحدة المدفعية التابعة لجيش حراس الباب، كانت المهمة الأساسية لهذه القوات نقل المدافع إلى مناطق الحرب[٣٧].

قوات الضرب المدفعي (توبجو أوجاغي): هي القوات التابعة لقوات حراس الباب والمُوكلة بتجهيز مدافع الجيش وتنظيفها واستخدامها وقت الحرب، وتُعتبر هذه القوات هي القوات الوحيدة التي كانت تمتلك مقار عسكرية خارج إسطنبول، حيث كان لها مقار عسكرية في بلغراد وبودابست وغيرهما، ويعود السبب في ذلك إلى حجم العناء الذي كان يواجهه الجيش العثماني في نقل المدافع من مكان لآخر[٣٨].

قوات ضرب الهاون (هومباراجي أوجاغي): هي القوات التي تصنع الهاون وتستخدمه في إطار الجيش العثماني، وتعتبر هذه القوات أولى قوات ضرب هاون في التاريخ العسكري. أول فرقة صناع قذائف الهاون تم تأسيسها في العالم، ويرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر، حيث صنع عسكري يدعى "مصطفى" أول قذيفة هاون في التاريخ، وقد تم تطوير هذه القذيفة في العام ١٧٢٩م، على يد عسكري آخر يدعى (كونت بونفل)، حيث ترك دينه والتجأ إلى الدولة العثمانية معتنقًا الإسلام، وسمى نفسه "أحمد"، وفي العام ١٧٨٣م قام الصدر الأعظم خليل حامد باشا بتأسيس الفرقة التي وُسعت صلاحياتها في العام ١٧٩٢م، وبقيادة "أحمد باشا[٣٩]" أصبحت الفرقة من أكثر فرق الدولة العثمانية التزامًا بالقوانين وأكثرها نشاطًا، كانت تحتوي قذائف الهاون التي كانت تصنعها قوات ضرب الهاون، على خليط من الحديد والبرونز المسكوبين[٤٠].

الفرع الرابع: القوات العسكرية البحرية

يعود تعزيز الأسطول البحري العثماني إلى السلطان محمد الفاتح أولًا، كما تولى من بعده السلطان سليم الأول حيث عمل على تقوية الأسطول البحري العثماني، ثم جاء السلطان سليمان القانوني فزاد عدد سفنه فبلغت ثلاثمائة سفينة، ومن أشهر موظفي امارة البحر (قبطان باشا[٤١]، الترسانة أميني[٤٢]، القليون لر كاتب[٤٣]، العنبرلي أميني، العنبرلي ناظر[٤٤])، وكان

الأسطول العثماني يتألّف من دوارع ثقيلة وطرّادات خفيفة، وكان مزودًا بمدفعية قوية، ولكن الدولة أهملت الأسطول، في اواخر القرن السادس عشر، فقل عدد قطعه، واقتصر نشاطه على خفر السواحل تقريبًا(٤٥)، وفي عهد الإصلاحات والتنظيمات حاول السلطان محمود الثاني النهوض بالبحرية فبنى سفينة (المحمودية) التي كانت طيلة سنوات أكبر سفينة حربية في العالم، وحاول السلطان عبد العزيز الأول إحياء البحرية العثمانية من جديد وزيادة قطعها(٤٦)، فبنى أسطولًا كان الأكبر في العالم بعد أساطيل بريطانيا وفرنسا، واستحصل من بريطانيا على أوّل غواصة حربية من نوعها.

خَاتِمَةٌ

يُعَدّ الجيش العثماني من الجيوش القديمة، لكنه في البداية كانت تشكيلاته قبيلة اعتمدت على الاقطاع العسكري، مع الإشارة إلى أن النواة الأساسية تشكلات في عام ١٣٢٦م، حيث يُعتبر السلطان أورخان الأول مؤسس الجيش العثماني. وتصنف القوات العسكرية في تلك المرحلة الممتدة ما بين عام ١٤٠٠م وحتى عام ١٦٠٠م، إلى أربعة أصناف وهي: القوات البرية، والقوات البرية المساندة، والقوات المدفعية والقوات البحرية، هذا وتعد الفرق الإنكشارية أحد أهم الفرق في القوات البرية، والفرقة الانكشارية هم مشاة الجيش النظامي العثماني والذي يضم الخيالة والمشاة، ولفظ إنكشاري مكون من مقطعين (يني جيري) ويقصد بها الجيش الجديد، وكان له تنظيمات إدارية محددة وقواعد صارمة.

وكذلك من الفرق العسكرية الهامة والتي نظمها الجيش العثماني (الجيش الأعسري سولاكلار)، وكانت المهمة الأساسية له حماية الجهة اليسرى للجيش المُنطلق نحو الفتوحات، و(الجيش الأيمن ساجيلار) وهو على العكس من الجيش الأعسري كانت المهمة الأساسية لهم حماية ميمنة الجيش المنطلق نحو الحروب.

ومن الفرق العسكرية التي جعلت الدولة العثمانية تنظيمات إدارية خاصة (السباهية)، حيث أنشأ العثمانيون إلى جانب جيش المشاة جيشًا من الفرسان عُرف باسم "الفرسان السواري" أو سباهى، ويُعرفهم معظم الكتّاب العرب باسم "الفرسان السيباه"، وقد لعب هؤلاء دورًا كبيرًا في تقدم الانتصارات في الحروب عبر أوروبا، وهم فرسان عثمانيون على درجات، وقد أعطي لهم الحق بالانتفاع في الأراضي، وهو الذي سمي الإقطاع العسكري.

الاحالات المرجعية:

(١) هو السلطان الغازي شجاع الدين والدنيا أُورخان خان بن عثمان بن أرطُغرل القايوي (غازى سلطان اورخان خان بن عثمان بن ارطُغرل)، ويُعرف كذلك باسم أورخان بك؛ هو ثاني سلاطين آل عثمان والابن الثاني لِمؤسس هذه السلالة الملكية عثمان الأول، ولد في مدينة سكود عاصمة إمارة والده سنة ٦٨٧هـ الموافقة لِسنة ١٢٨١م، وقد أسس أول نظامٍ عسكريٍ جديد وأول جيشٍ نظاميٍ، وهو جيش الإنكشارية، حيث أصبح أقوى الجيوش على مستوى العالم لفترة طويلة من الزمن، وأن يُلقي الرعب في قلوب الملوك والأباطرة والأُمراء الأوروبيين لمدة أربعة قُرونٍ متتالية، بِالإضافة إلى ظُهور الإمارة العثمانية التي أصبحت تمتد من أنقرة إلى تراقيا، بعد أن ضاعف الأراضي التي ورثها عن والده ست مرات، وأرسى أول تنظيمٍ لِلدولة، وكما كان حال والده، عاش أورخان حياة زاهدة أقرب إلى حياة المتصوفين، ولم يلقَّب بِالسلطان رغم شيوع ذلك اللقب في المؤلفات التي تتحدث عنه، بل عُرف بِلقب (بك) أي (أمير). وعندما زار الرحالة المسلم ابن بطوطة الأناضول في فترة حكم أورخان وقابله هناك، قال عنه: (إنه أكبر الملوك التركمان، وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكرًا، وأن له من الحصون ما يقارب مئة حصن، يتفقدها ويقيم بكل حصن أيامًا لإصلاح شؤونه). انظر: محمد سهيل قطوش: **تاريخ العثمانيين**: من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، الطبعة الثالثة، دار النفائس، لبنان، ٢٠١٣، ص ٣٣.

(٢) ايرينا بيتروسيان: **الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية**، الطبعة الأولى، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراق، دبي، ٢٠٠٦، ص١٤.

(٣) الغالي غربي: **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (١٢٨٨ – ١٩١٦م)**، ديزان المطبوعات العربية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٣٧.

(٤) تم تطبيق أنظمة وقوانيين والتي تنظم جزء من عمل الإنكشارية في عهد السلطان مراد الثاني في القرن الخامس عشر، ومن هذه القوانين الطاعة المطلقة لضباطهم، ولا يجوز لهم إرسال لحاهم، أو الزواج، كما لا يجوز الابتعاد عن ثكناتهم، أو تعاطي عملاً غير الجندية، كما كان لهم نظام تقاعد، جورجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، الجزء الأول، مطبعة هنداوي، مصر، ٢٠١٢، ص١٧٧. للمزيد انظر: محمد فؤاد كويريلي: **قيام الدولة العثمانية**، ترجمه: احمدي السعيد سليمان، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، لبنان، ص١٨٩.

(٥) ساعد علاء الدين بن عثمان أحد المقربين منه ويدعى قره خليل، والذي أصبح وزير أو صدر أعظم باسم خير الدين باشا، في وضع نظام عسكري يقوم على عزل الشبان من أسرى الحرب وتربيتهم تربية إسلامية، ووضعهم ضمن الجيش، حيث تبنى الفكرة السلطان أورخان، انظر: بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني، مرجع سابق، ص٤٧. ومحمد فريد بيك: **تاريخ الدولة العليّة العثمانية**، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، الطبعة الأولى، دار النفائس، لبنان، ١٩٨١ م، ص١٢٢.

(٦) نيقو لوباربرو: **الفتح الإسلامي للقسطينينة (يوميات الحصار العثماني ١٤٥٣م)**، ترجمة حاتم الطحاوي، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٢، ص ١٢٢. محمد فريد بيك: **تاريخ الدولة العليّة العثمانية**، تحقيق: الدكتور إحسان حقي، الطبعة الأولى، دار النفائس، لبنان، ١٩٨١ م، ص١٢٢.

(٧) كانت فرقة الجماعات تعد مائة أرطة وأرطة، وذلك قبل أن يزيل السلطان مراد الرابع الأرطة الخامسة والستين عام ١٦٢٣م بسبب الاعتداء الذي قام به أحد أفرادها على السلطان عثمان الثاني عندما تمردت العساكر عليه، مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر**، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٣٩.

(٨) بسام العسلي: **فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني**، مرجع سابق، ص٤٨.

(٩) محمد فؤاد كويريلي: **قيام الدولة العثمانية**، ترجمه: احمدي السعيد سليمان، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، لبنان، ص١٨٩.

(١٠) محمود السيد: **تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها**، الطبعة الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، ٢٠٠٤، ص ٢٠.

(١١) فهيمة عمريوي: **الجيش الإنكشاري بمدينة الجزائر خلال القرن ١٢هـ/١٨م** (دراسة اجتماعية، اقتصادية من خلال سجل المحاكم الشرعية)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨، ص٣٤.

(١٢) مفردها أورط وهي الطابو الخامس في الجيش الإنكشاري، قسمت الإنكشارية إلى ١٩٦ فرقة تسمى إحداها أورطة، أنور محمود زناتي: **مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية**، الطبعة الأولى، دار زهران، الأردن، ٢٠١٠، ص ٤٨.

(١٣) يطلق لفظ آغا على قادة مختلف التشكيلات العسكرية العثمانية، حيث كانوا يحملون هذا اللقب حيث نجد آغا الإنكشارية، وكذلك آغا الديوان أو آغا الكرسي والذي يعين لمدة ستة أشهر. للمزيد حول أغا الإنكشارية انظر: مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون، أي في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر**، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٣٩.

(١٤) تحدث المؤرخ اللبناني جورجي زيدان أن نائب الاغا يسمى سكبا نباشي، وهو ينوب عن اغا الإنكشارية في إسطنبول، وبرأيي ربما تشابه في الأسماء أو المناصب، للمزيد انظر: جورجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، الجزء الأول، مطبعة هنداوي، مصر، ٢٠١٢، ص١٧٥.

(١٥) أماني جعفر الغازي: **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، الطبعة الأولى، دار القاهرة، مصر، ٢٠٠٧، ص ٦٢.

(١٦) أماني جعفر الغازي: **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، مرجع سابق، ص ٧٠ وما بعدها.

(١٧) عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مرجع سابق، ص ٤٧٠وما بعدها.

(١٨) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٤٠.

(١٩) للمزيد انظر: محمد فؤاد كويريلي: **قيام الدولة العثمانية**، ترجمه: احمدي السعيد سليمان، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٢٠) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢١) انظر: أماني جعفر الغازي: **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، مرجع سابق، ص ٦٣ وما بعدها.

(٢٢) جورجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٢٣) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، مرجع سابق، ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢٤) أماني جعفر الغازي: **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، مرجع سابق، ص ٦٣ وما بعدها.

(٢٥) عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، الجزء الأول، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، ١٩٨٠، ص ٤٧٠وما بعدها.

(٢٦) **سجل محكمة القدس الشرعية** رقم ١، لعام ٩٣٧ هـ/ ١٥٣٠م، ص ٢٠.

(٢٧) **سجل محكمة نابلس الشرعية** رقم ١، لعام ١٠٦٦هـ/١٦٥٥، ص٣١. و**سجل محكمة القدس الشرعية** رقم٢٧، لعام ٩٦٣ هـ /١٥٩٦م، ص٢١.

(٢٨) **شامخ علاونة**: أراضي التيمار والزعامة في لواء نابلس في الفترة العثمانية، مجلة جامعة الخليل للبحوث، المجلد ٩، العدد ١، فلسطين، ٢٠١٤، ص ٢٦٦. وزهير غنايم ومعتصم الناصر: **العساكر السباهية ودورهم العسكري والاقتصادي في فلسطين خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين**، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن والثلاثون (٢)، ٢٠١٦، ص٣٩٨.

(٢٩) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٦٧ وما بعدها.

(٣٠) عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٤٨٠وما بعدها.

(٣١) أماني جعفر الغازي: **دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، مرجع سابق، ص ٧١ وما بعدها.

(٣٢) عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٤٨١وما بعدها.

(٣٣) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٦٢.

(٣٤) للمزيد انظر: بسام العسلي: **فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني**، مرجع سابق، ص٤٨.

(٣٥) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ١، لعام ٩٣٧ هـ/ ١٥٣٠م، ص١٩.

(٣٦) للمزيد مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع

عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص١٧٣ وما بعدها.

(٣٧) عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص .٤٨وما بعدها.

(٣٨) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٦٣.

(٣٩) **باشا:** أصله باللغة التركية باش، وهي رتبة عسكرية ثم لقب مدني، وكان يمنح في بادئ الأمر لكبار ضباط الجيش والبحرية ممن يحملون رتبة لواء أو فريق، مصطفى الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦، ص١٥٩.

(٤٠) مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٦٣ وما بعدها.

(٤١) وهو لفظ عثماني يطلق على أمير الأسطول العثماني في الدولة العثمانية ويعرف أيضًا باسم "بيه البحر"، وأيضًا "قبطان البحر" سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ٢٠٠٠م، صفحة ١٧٧.

(٤٢) **الترسانة أميني:** وهو من يدير بناء وإصلاح السفن، وله الرقابة والإشراف على المستودعات، مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون**، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٩٥.

(٤٣) القليون لر كاتب: رئيس مكاتب البحرية، ومهمته تجنيد العساكر ودفع مرتباتهم، وتأمين المؤن للسفر. مرادجه دوسون: **نظام الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر**، ترجمه فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٩٦.

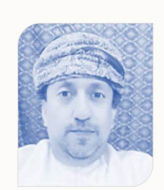
(٤٤) العنبرلي ناظر: وكيل العنابر.

(٤٥) مرادجه دوسون: نظام **الحكم والإدارة في عهد مرادجه دوسون، أي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر**، ترجمة فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في جامعة بيروت العربية، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢، ص ١٨٩ وما بعدها.

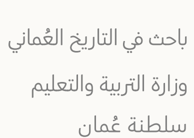
(٤٦) جورجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، الجزء الأول، مطبعة هنداوي، مصر، ٢٠١٢، ص.٢٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

النجدة العُمانية لتحرير قلعة يسوع من البرتغاليين سنة ١٦٩٦م
وأثر ذلك على وجودهم في شرق أفريقيا



د.خليل بن عبد الله بن سليمان العجمي



باحث في التاريخ العُماني
وزارة التربية والتعليم
سلطنة عُمان

مُلَخَّص

سيتناول هذا المقال الدور العُماني لنجدة قلعة يسوع في ممباسا والتي كان تعتبر المعقل الثاني لوجودهم في شرق أفريقيا باتخاذها مركزا لعملياتهم رغم محاولة العمانيون الاستيلاء عليه منذ عصر الإمام سلطان بن سيف الأول حينما كانت تأتيه نداءات الاستغاثة من أهالي مدن شرق أفريقيا كتبا وفازا لتحريرهم من البرتغاليين ورغم أن العمانيين أحكموا سيطرتهم على حصن ممباسا إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة على قلعتها المعروفة بقلعة بيسوع، نتيجة مناعتها وحجم الإمدادات التي كانت تتلقاها، إلا أنه في نهاية الأمر سيطرت عليها القوات العُمانية بعد حوالي ثلاثين سنة من هجومهم الأول على ممباسا زمن الإمام سيف بن سلطان الأول (١٦٤٩م –١٦٨٠م) نتيجة التعاون الذي حصل بين القوات العمانية وسكان الساحل الشرقي الأفريقي. تم تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، حيث خصصت المقدمة للحديث عن الحملات الأولى التي قام بها اليعاربة لشرق أفريقيا وخاصة الحملات التي وجهت إلى ممباسا، وسيستعرض الحصار الذي فرضه العمانيون على قلعة يسوع. ومحاولاتهم في حصار القلعة من خلال استمالتهم لحكام بتا وممباسا ومحاولاتهم المتكررة لكسر الحصار على القلعة، كما ستتبع الحملة البحرية التي أرسلها الإمام سيف بن سلطان الأول (١٦٩٢-١٧١١م) والمكونة من سبع سفن وتعرضها لإخطار العواصف البحرية، وكذلك عندما رست بالقرب من قلعة يسوع، وستصف مجريات الحصار والهجمات التي شنوها على القلعة، والدور الذي لعبته المدفعية العمانية في كسر ذلك الحصار رغم محاولة البرتغاليين المتواجدين في مراكزهم المختلفة من تقديم المساعدة لجنودهم المرابطين. أما المبحث الثاني فيتناول الآثار التي ترتبت على سقوط القلعة وأثر ضعف الروح المعنوية للبرتغاليين وتفشي مرض الطاعون على انهزام الروح المعنوية لجنودهم، كما سيتطرق لأبرز التكتيكات العسكرية التي اتبعها الأسطول العماني للهجوم على القلعة، وسياسة التسامح التي اتبعها الجيش العماني بحق المتواجدين في القلعة، وفي نهاية المقال سيتم التطرق لذكر النتائج المترتبة على سقوط القلعة بالنسبة للعمانيين والمتمثلة في اتساع وجودهم في شرق أفريقيا من جهة، ومن جهة أخرى اعتبر عدم تمكن البرتغاليين إحكام سيطرتهم على ممباسا وقلعتها الحصينة دليلا بدء ينخر جسم الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي. وستنتهي الدراسة بخاتمة والتوصية ومن ثم ذكر مصادر ومراجع البحث.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٦	يونيو	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٨	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الأسطول العماني؛ قلعة يسوع؛ قلعة ممباسا؛ الإمبراطورية البرتغالية؛ النجدة العمانية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299095 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خليل بن عبد الله بن سليمان العجمي. "النجدة العُمانية لتحرير قلعة يسوع من البرتغاليين سنة ١٦٩٦م وأثر ذلك على وجودهم في شرق أفريقيا".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٩٦ – ١٠٣.

Corresponding author: alhadi33@hotmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَة

بعد أن أحكم البرتغاليون سيطرتهم على ممباسا[١] في أواخر القرن السادس عشر الميلادي رغبوا في مواصلة إخضاعهم لمناطق مختلفة في شرق أفريقيا وخاصة بتا التي كان تحكمها قبيلة النباهنة العُمانية، وتمكنوا من ذلك سنة ١٦٣٢م، حيث لاقى سكان ممباسا سنة والعرب خاصة الويل من بطشهم وتحملوا مشاق العذاب لمدة نصف قرن من الزمن، وساد زنجبار حالة من الرعب صاحبها يأس من قبل السكان من جموع البرتغاليين، فاتصل السكان بالإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩م – ١٦٨٠م) [٢] لتقديم النجدة لهم فأرسل لهم الإمام شخص يدعى (شهداد شت) وبعض الجنود لقتال البرتغاليين، إلا أن شهداد كانت له رؤية في ذلك وأخبر الإمام بها وهي أن يذهب والجنود قبل أن يرسل الإمام جيشا، ويتنكر في زي السكان ويتأقلم معهم ويعمل على جمع كل المعلومات عن الحامية العسكرية البرتغالية هناك، بحجة المتاجرة مع سكان الجزيرة، لكي يكون على دراية بأوضاع الحامية العسكرية البرتغالية [٣].

بدأت أول العمليات الحربية العُمانية ضد البرتغاليين في شرق أفريقيا سنة ١٦٥٢م عندما أستنجد ملوك زنجبار وبمبا Pomba [٤] بالإمام سلطان بن سيف الأول بعدما ضاقوا ذرعا من أعمال البرتغاليين وممارستهم الظالمة بحق شعوبهم، فأرسل الإمام أسطوله الحربي إلى هناك لإعادة السيطرة على المنطقة، فتمكنت القوات العُمانية من هزيمة الحامية العسكرية البرتغالية في زنجبار وقتل قائدها[٥]، رغم قلة الجنود العُمانيين الذين استطاعوا ، بفضل قوة عزيمتهم، دحر القوات البرتغالية خارج جزيرة بتّا وزنجبار[٦]

وقد احترم العُمانيون الأديان الأخرى الموجودة هناك كالمسيحيين, مما أدى هذا الأمر إلى دخول الكثيرين في الإسلام. و بعد أن أنهى الأسطول العُماني مهمته أرسلت حكومة البرتغال القائد فرانسيسكو دي سكاس كابريرا Francisco De sexas Cabreira لمهاجمة سكان هاتين المدينتين مستغلا فرصة عودة الأسطول العُماني إلى مسقط ، لكنهم لم يتمكنوا من إخضاع المدينتين بسبب عودة الأسطول العُماني مستفيداً من مساعدة السكان المحليين له، فما كان من حكومة البرتغال سوى إرسال حملة ثانية يقودها الكابتن كابريرا تتكون من ١٢٠ جندي برتغالي و ٤٠٠ جندي هندي و١٢٠اجندي احتياط من عرب ممباسا الموالين لهم، حيث تمكنت تلك القوة من ضرب مصالح الأهالي هناك ، واستولت على سفن التجارة ، واستطاعت أن تخلص الأسرى الذين احتجزوا في بتا ، لكنها لم تستطيع ملاحقة الأسطول العُماني المتوجه إلى مسقط[٧]

وبعد هذه الحادثة دأب الأسطول العُماني على تلبية النداءات التي تأتيه من سكان شرق أفريقيا، فقلد لبى الإمام نداء أهالي بتا و فازا Faza لتحرير بلادهم من البرتغاليين ، وأرسل لذلك أسطوله الحربي سنة ١٦٦٠م لهاتين المدينتين ، وتمكن جيشه في النهاية من أحكام قبضته على فازا و ممباسا من دون أن يسيطر على قلعة يسوع[٨]، وعاد الإمام إلى مسقط بعد أن عين محمد بن مبارك المزروعي حاكما على ممباسا[٩] وبعد عودة الأسطول العُماني إلى مسقط استولى البرتغاليون من جديد على ممباسا ثانية سنة ١٦٦١م وحاولوا أن يكونوا أكثر إرضاء للسكان الذين أعطوهم حق تعيين حاكم مسلم منهم على المدينة على الرغم من كونه عميل لهم، ومارسوا سياسة التنكيل بالسكان وبرجال الدين، وحتى التجار العُمانيين لم يسلموا كذلك من المضايقات ، مما حدا بالأهالي لطلب النجدة من أمام عُمان من جديد[١٠]

لقد وجد أئمة اليعاربة استنجاد سكان شرق أفريقيا بهم فرصة سانحة للانتقام من البرتغاليين، وكواجب ديني أيضا يحتم عليهم تقديم المساعدة لإخوانهم في الدين، الذين ما ترددوا في تقديم المساعدة للأساطيل العُمانية في حربها مع البرتغاليين، بعد أن طردوهم من بلادهم، حيث أثبت الجيش العُماني في أول مقارعة بحرية له في تلك الأصقاع قدرته على فرض حصار بحري على حامية البرتغاليين في ممباسا، على الرغم من طلب قائد الحامية جوزيف بونلهو داسلفا Joseph Bottelho Silva المساندة من جوا، ولم يفكوا الحصار إلا في سنة ١٦٦٥م[١١]

لقد تمكن الإمام سلطان بن سيف الأول من إحكام سيطرته على حصن ممباسا بعد مرور خمس سنوات من استيلاءه على المدينة، فعمل على إصلاح الحصن، وترميمه وأمر بتزويد الجنود بالطعام بعد تعيينه محمد بن مبارك المزروعي قائدا على الحصن كما ذكرنا، لكن ذلك لم يستمر طويلا إذا تمكن البرتغاليين من استعادته [١٢]، وفي سنة ١٦٦٦م قام عرب الصومال ببعث رسالة سرية إلى الإمام سلطان بن سيف الأول أوضحوا فيها الظلم والمعاناة التي وقعت عليهم من جراء الأعمال التعسفية التي يمارسها البرتغاليون ضدهم، ورغبتهم في الخلاص منهم[١٣]، فاستجاب الإمام لهم، وبعث قائده محمد بن مسعود الصارمي على رأس جيش بحري، وقع الطرفان في معركة بحرية تمكنت قوات الإمام من طرد المحتلين من أراضي

الصومال من دون أن يستقروا بها، بل جعلوا إدارة شؤونها بتصرف القبائل المحلية هناك.

وقد عم الفرح أرض الصومال بعد أخراج البرتغاليين منها و"ورجع الأمير إلى عُمان مسرور الحال، وأخبر الإمام أخبار سارة عن نهاية القتال ضد الذين كانوا يفعلون أمور المكروه والمنكر، وذكر أن المسلمين يدعون له بالعمر الطويل، والخير الجزيل، لأنه دفع عنهم الذل والبلوى، وتفضل فسمع منهم الشكوى، وكان ذلك الوقت سنة (١٠٧٦هـ/ ١٦٦٦م) وطاب قلب الإمام لذلك"[١٤]. ولعل ما دفع الإمام لإرسال لتلك الحملات هو رغبته في نصرة بني دينه من العدو المحتل ولم تكن لديه نية في البقاء في أراضي الصومال وإنما فضل بقاء الحكم في يد أهلها، وفضل للأسطول العُماني الرجوع إلى مسقط دون أن تكون له نية في البقاء.

وفي سنة ١٦٦٩م شن الأسطول العُماني هجوما على الحامية البرتغالية في موزنبيق، وكانت هذه أولى المحاولات التي يصل فيها الأسطول العُماني إلى هذه المنطقة، كان الهدف منها تأديب البرتغاليين بسبب مضايقتهم للإمارات العربية على ساحل شرق أفريقيا من جهة ولكي يعمل العُمانيون على ترسيخ نشاطهم إلى ما بعد جنوب موزنبيق من جهه، ولتأمين حركة الملاحة البحرية العربية، وضرب مصالح البرتغاليين من جهة أخرى. كما نجح العُمانيون في استمالة الحاكم المحلي في بتا وممباسا من أجل حصار المدينة من دون أن يسيطروا على القلعة التي استمات البرتغاليون في الدفاع عنها[١٥]، ولم يفد التكتيك الحربي الذي أستخدمه العُمانيون والمتمثل في شق حفرة موصلة إلى القلعة، لان البرتغاليين اكتشفوا أمر السراديب وزرعوها بالمتفجرات التي أودت بحياة بعض المقاتلين[١٦]. ولكن في النهاية كان للعُمانيين استفادة من هذه الحملة تمثلت في الجوانب الآتية:

١- زيادة الثقة في أنفسهم وتيقنهم في مقدرتهم على الحصار الطويل.
٢- قدرة البحرية العُمانية على التعمق إلى أماكن بعيدة، بعد عشرين سنة من فتح مسقط، يدل على المكانة التي وصلت إليها.
٣- كانت هذه بداية لسلسة الحُصُرْ التي قامت البحرية العُمانية بفرضها على المواقع البرتغالية، وهذا ما سيتيح للعُمانيين بعد عشرين سنة أخرى من أن يفكوا الحصار على قلعة ممباسا.

ويصور لنا الشيخ خلف بن سنان فتوحات الإمام سلطان بن سيف الأول في شرق أفريقيا من خلال قصيدته الميمية التالية[١٧]:

وممباسا أذاقهم بأسا
ولقد في مفازة فاز منهم
بئيسا سيئت به الأصنام
بمفاز زلت به الأزلام

وفي شهر أغسطس سنة ١٦٧٨م أرسل البرتغاليون أسطولهم الحربي إلى شرق أفريقيا من أجل إحكام سيطرتهم على المنطقة، حتى لا يفقدوها على اعتبار أنها البوابة المؤدية إلى الهند، فعندما وصل الأسطول إلى هناك توجه إلى فازا ومناطق سيوSiyu ولامو Lamu وماندا Manda نتيجة تلقيه الإمدادات من جوا، لكنه تفاجأ بوصول الأسطول العُماني على رأس أربع سفن حربية في بداية سنة ١٦٧٩م التي أنزلت الجيش العُماني في اليابسة تمهيدا لشنهم عملية واسعة أدت في نهاية الأمر لانسحاب البرتغاليين إلى موزنبيق، وتم لهم تحرير المناطق هناك[١٨] مستفيدين من توافق المصالح بينهم وبين سكان تلك البلدان وكرهم للبرتغاليين، فالعُمانيون كانوا مصرّين على الانتقام منهم يدفعهم إلى ذلك فرحة الانتصارات السابقة والمكانة الدينية التي سوف يحظون بها إذا قتلوا في سبيل الدفاع عن دينهم، أما البرتغاليون فكان عليهم الصمود للمحافظة على أمجادهم البحرية في شرق أفريقيا بعد أن خسروا جميع ما لديهم في الخليج العربي[١٩].

وفي عهد الإمام بلعرب بن سلطان(١٦٨٠-١٦٩٢م) نجحت القوات العُمانية من إحباط محاولة للبرتغاليين للاستيلاء على بتا سنة ١٦٨٦م فما كان من القائد البرتغالي في ممباسا سوى المحاولة مرة ثانية في السنة التالية، لكن هذه المرة كان للعامل الطبيعي والمتمثل في الموجات البحرية دورا في دفع أسطولهم بعيدا عن المدينة، ولم تفد محاولات قائد الأسطول البرتغالي في استعادتها رغم إرساله حملة ثانية في مايو ١٦٨٧م وتلقيه دعم من أمير فازا للاستيلاء على المدينة إلا أنهم تفاجئوا بالسفن العُمانية معتصمة في ميناء بتا، فخشى الاصطدام به وفضل الانسحاب راجعاً إلى ممباسا، مفضلا استغلال عودة الأسطول العُماني إلى مسقط في شهر أغسطس في احتلال المدينة، من مما حدا بالسكان للاستنجاد بالعمانيين الذين تمكنوا من جديد من استعادتها[٢٠].

أولاً: العُمانيون وحصار قلعة ممباسا

بعد أن ضاق سكان ممباسا ذرعا من أعمال البرتغاليين التعسفية بحقهم وخصوصا أنها كانت موطناً لإفراد من قبيلة المناذرة العمانية، أخبرهم شخص من البلوش يدعى بـ " الجمادار جوت" والذي كان يعمل كمخبر سري للعُمانيين ليتقصى الحقائق عن البرتغاليين أن الفرصة قد حانت لطلب النجدة من إمام عُمان فقرروا تكوين وفدا من وجهاء ممباسا للسفر إلى عُمان لشكاية الحال للإمام سيف بن سلطان الأول(١٦٩٢-١٧١١م) من البرتغاليين، وأخبروه برغبتهم في الحصول على المساعدة [٢١].

وافق الإمام على طلبهم فأمر أسطوله الحربي بالتحرك في ١١مارس ١٦٩٦م على رأس حملة مكونة من سبع سفن تحمل زهاء ثلاثة ألاف رجل برفقة أمير مقاطعة لامو الذي يبدو أنه كان على اتصال بالإمام للتحالف معاً ضد البرتغاليين، حيث واجه الأسطول في رحلته أمواج المحيط، وعندما وصوله إلى ممباسا أرسى بالقرب من قلعتها، فأطلقت القوة التي كانت في القلعة إطلاق النار تجاه، وبدورها فتحت السفن العُمانية نيرانها باتجاه القلعة، التي كانت تضم في داخلها حوالي ثلاثمائة سواحلي من الموالين للبرتغاليين من سكان بتّا و ماليندي، وعدد بسيط من البرتغاليين يقدرون بخمسة أشخاص[٢٢].

اصدر قائد القوات العُمانية أوامره بالنزول إلى اليابسة بعد أن هرب الجنود المدافعين عن القلعة بداخلها، واستولى العمانيين على ما تبقى من مدافعهم المتروكة خارج القلعة في الهجوم على القلعة التي صمدت جدرانها، ودب التعب في العُمانيين بعدما تيقنوا من استحالة السيطرة على القلعة في هذه الحالة[٢٣] . رغم أنهم أحكموا سيطرتهم على القلعة بفضل المدفعية التي امتلكوها والتي عملوا بها على تدمير أجزاء مختلفة من القلعة، رغم محاولة البرتغاليين إرسال المساعدات للمحاصرين لهم من موزنبيق من دون أي نتيجة تذكر؛ حيث تم القبض على قواربهم، مما أشعل نوع من الخوف لدى السكان الموالين للبرتغاليين الذين اضطروا للهرب إلى داخل القلعة.

وفي ٢٥ أغسطس١٦٩٦م غادر قائد الأسطول العُماني ممباسا بعد علمه بطول الحصار تاركًا قوة تقدر بتسعمائة جندي ليستمروا في الحصار نتيجة مرض الم به من جهة والصدمة التي تعرض لها نتيجة رفض سكان بمبا Pomba تزويد العُمانيين بما يحتاجونه من المواد الأساسية من الغذاء والماء[٢٤].

وبنهاية سنة ١٦٩٦م تمكن البرتغاليون من إرسال النجدة التي استطاعت أن تمد المحاصرين بالطعام والمؤن والعتاد والسلاح دون أن يقوي ذلك حاميتهم رغم إغرائهم للقبائل الزنجية بالأموال لتحفيزهم على المشاركة معهم ضد العُمانيين، فانسحب قائد الأسطول البرتغالي إلى جوا[٢٥]، كما تمكن البرتغاليون من استغلال طريق (سان انطونيو) الأقل صلاحية الذي كان لا يسيطر عليه العُمانيون في الدخول والتسلل إلى القلعة وإنزال بعض التجار والبحارة فيها، وعندما علم العُمانيون بهذا العمل قاموا بإحراق إحدى سفن البرتغاليين وإعطابها، إذا أدركنا أن العُمانيين كانوا يسطرون على القسم الصالح من ميناء ممباسا والمعروف بـ (كلينديني)، حيث تحاشى البرتغاليون الاقتراب من هذا القسم خشية الاصطدام بهم[٢٦] .

ونتيجة طول فترة للحصار تفشت الأمراض بين الجنود البرتغاليين المرابطين داخل القلعة وانتشر بينهم مرض الطاعون مما أدى إلى موت ثلاثة إلى أربعة أشخاص يوميا وبنهاية يناير ١٦٩٧م بقى العدد القليل من الجنود داخل القلعة وتزايد عدد الأشخاص المتوفين داخلها [٢٧].

وفي صباح العشرين من يوليو سنة ١٦٩٧م شن العُمانيون هجوماً مباغتاً على القلعة، تمكن المحاصرين من صده، وانتهى هذا الهجوم من قتل ثمانية أشخاص وبعض النساء العاملات في القلعة، وثلاثة من البرتغاليين، وفضل من كان بداخل القلعة الموت على الهرب عندما حانت لهم الفرصة، بينما فضل القائد موجو دي ميلو Mogo De Mello الهرب.

وبعد هذه الحادثة ازدادت معنويات الجنود العُمانيين بوصول حملة مساندة لهم مكونة من سبع سفن تحمل ما يقارب مائة رجل من بتا بتاريخ ٢٣ نوفمبر١٦٩٧م حامله مجموعة من المدافع تتراوح في بعض السفن من ٢٢ – ٢٨ مدفعا، استخدموها في شن سلسلة الغارات من المفاجئة على القلعة، وإطلاقهم القنابل الحارقة على المحاصرين رغم أن المدافعين تمكنوا أحيانا من تدمير بعض البطاريات للمهاجمين[٢٨].

وفي شهر ديسمبر١٦٩٧م قام حاكم موزنبيق بإرسال أسطول لنجدة من في القلعة شاقاً طريقه وسط الأسطول العُماني، تمكن من تسلق أسوار القلعة بعد تلقيه مناوشات حربية لمساندة من في الداخل وكان عددهم حوالي مائة وخمسين برتغاليا وبين مائتين إلى ثلاثمائة من الهنود الذين تمكنوا من دخول القلعة خلال فترة الحصار، ومن سكان السواحل الذين استطاعوا أن يمدوهم بالمؤن والطعام والذخائر وتمكنوا من إنعاش المحاصرين لفترة قصيرة من الزمن، إلا أنه سرعان ما ساءت الأمور بعد نفاذ الإمدادات الغذائية والصحية داخل القلعة وعاد الموت يحصدهم من جديد، ولم تستطيع السلطات البرتغالية سواء في جوا أو

لشبونة تقديم المساعدة لهم[٢٩]، بينما أستمر العُمانيون في حصار القلعة رغم قدوم النجدات البرتغالية من عدة مناطق في شرق أفريقيا، فقدَولَّد فيهم طول فترة الحصار اليأس والهزيمة وفقد الشعور بالنجاة ، مما أدى لانهيار معنوياتهم[٣٠].

ولقد شاهد البحار البرتغالي الكابتن كيد Kidd من على سفينته ادفنشر جالي Adverntune Galley السفن العُمانية تحاصر القلعة أثناء تجواله في الساحل الشرقي لإفريقيا، وعند اقترابه من ممباسا، شاهد العلم العُماني الأحمر يرفرف على الأسطول العُماني رغم محاولته تقديم المساعدة للمحاصرين، لكنه لم يستطيع لصعوبة مواجهة الأسطول العُماني حسب اعتقاده، فكانت هذه المرة الأولى التي يحس فيها هذا البحار المغامر بالفشل بعد فترة حافلة بحب المغامرة [٣١]، ولقد استغل العُمانيون بقيادة ناصر بن عبدالله فرصة مرض قائد الحامية البرتغالي (باربوسا Barbosa) وحاجته للدواء حيث أرسل بهذا الخصوص بعض الشباب للبحث عن أعشاب للتداوي ، لكنهم تم إلقاء القبض عليهم من قبل العُمانيين، مما أدى لانتشار اليأس بين المحاصرين[٣٢].

ولعل وفاة قائد الحامية البرتغالي جعل المرابطين في القلعة في وضع لا يحسدون عليه، إذا أضفنا أن انتشار الأمراض بينهم، ونقص المؤن والأدوية وشعورهم بالمصير المجهول جعلهم في خوف دائم، في الوقت الذي كان فيه العُمانيون يتلقون الإمدادات من مسقط، وجنودهم يتم استبدالهم بين فترة وأخرى، ويتمتعوا بقدر كافي من الأطعمة والمياه بعكس الجنود في القلعة والذين فقدوا الأمل في البقاء على قيد الحياة، رغم أنهم كانوا مصممين على مواصلة الحصار وتيقنهم بإمكانية النصر، على الرغم من أن أطراف عرضت تقديم المساعدة للبرتغاليين بطريقة غير مباشرة كملكة زنجبار(الملكة فاطمة بنت حسن)[٣٣]، التي أرسلت رسالة إلى نائب الملك البرتغالي في جوا تحثه على سرعة إرسال النجدة لفك الحصار، خوفا على انتقال الحصار إلى عاصمة ملكها، فاستجاب نائب الملك لذلك وجهز حملة لفك الحصار إلا أنها لم تستطيع من الوصول في الوقت المناسب.

وبحلول الساعة السابعة من صباح يوم السبت ١٣ ديسمبر ١٦٩٨م أمر قائد الأسطول العُماني بالهجوم على القلعة، وهلل الجيش بنداء واحد "**الله أكبر**" بعد أن تسلقوا القلعة وقتلوا من بها، وأصيب قائد القلعة بطلق ناري في رأسه[٣٤]، وأثناء عملية الاقتحام لجأ العُمانيون إلى عمل ثقوب لأسوار القلعة، وأغروا بعض من في داخلها للاشتراك إلى جانبهم لجلب المعلومات عما يجري في القلعة مقابل منحهم العفو، وقد تلقى الجيش المقتحم عمليات مساندة من السفن العُمانية التي أطلقت نيرانها تجاه بعض المواقع في القلعة[٣٥]. وقد وصف الفقيه بشير بن عامر الفزاري(حي:١٦٩٨م) الحصار الذي شنه العُمانيين على القلعة [٣٦]

فأتاهم جيش الإمام كأنه
سيلٌ أبى بالردى يتحدر
حملتهم في البحر خيل سفائنٍ
من دونها الخيل الجياد الضمر
حتى أتوا ممباسه فثووا بها كالأسد
تمشي في السلاح وتخطر
صعدوا إليهم بعد طول حصارهم
بسلالم كادت تهي وتكسر
لكنما الرحمن أيد حزبه
والله يخذل من يشاء وينصر

وبعد دخول العُمانيين إلى الحصن لم يقتلوا أي أحد كان موجودا في القلعة من المسالمين، واستولوا على ثروات الحصن بعد أن دلهم عليها أحد البحارة، وهكذا تمكن العُمانيين من إحكام زمام الأمور في ممباسا والقوا القبض على ثمانية برتغاليين وثلاث هنود وامرأتين ممن كانوا في القلعة[٣٧]، حيث تم أخذهم إلى مسقط مقيدين بالحديد وأطلق سراح اثنين من الهنود وتمكن البعض منهم الفرار من قبضة العُمانيين[٣٨].

ونظرًا لتعاونها مع البرتغاليين أرسل الإمام سيف بن سلطان الأول أسطوله الحربي إلى زنجبار لإلقاء القبض على ملكتها فاطمة، بعد أن تبرأ الأهالي والجنود منها، وحملت إلى عُمان، حيث زج بها في السجن لمدة أثناء عشر سنة، ولم يفرج عنها حتى سنة ١٧١٠م عندما استجاب الإمام سيف لرغبة أبنها حاكم زنجبار المدعو حسن بن عبدالله الذي كان على علاقة جيدة مع العمانيين[٣٩].

وبعد الانتصار الذي حققه العُمانيون، تشكل وفد من زعماء قبائل ممباسا للقاء الإمام وتهنئته بالانتصار، وكان الوفد يضم في صفوفه مندوبين عن مختلف القبائل العربية والزنجية الموجودة في ممباسا، وعند وصولهم إلى عُمان استقبلهم الإمام وأكرمهم، وأمر لهم بالهبات والمساعدة، وأمر أن يحملوا إلى بلادهم على ظهر السفن الضخمة التابعة له وهي : كعب رأس، والملكي ، والفلكي، و أرسل معهم محمد بن علي العمري ليكون واليا على ممباسا بعد أن أباح القلعة للأهالي، واكتفى الإمام بأخذ الأسلحة، وحكم فيهم محمد العمري لفترة من

الزمن رجع بعدها إلى عُمان، وجعل عليهم على صالح بن محمد الحضرمي الذي أساء معاملة الأهالي فما كان منهم إلا إلى أن قدموا شكوى ضده إلى الإمام ، الذي أمر بالقبض عليه، وزج به في السجن[٤٠].

ثانيًا: ما بعد سقوط قلعة يسوع

على الرغم من طول فترة حصار قلعة ممباسا الممتدة من ١٥مارس ١٦٩٦م إلى ١٣ديسمبر ١٦٩٨م إلا أن ذلك أعطى القوات العُمانية المرابطة في شرق أفريقيا، وسكان الساحل الثقة في أنفسهم ليتعاونوا معا في طرد العدو المحتل من بلادهم، مما أشعل الحماس لديهم وأدى إلى قيامهم بثورات داخلية، كما أن وصول العُمانيين إلى تلك المناطق قد زاد الثقة في أنفسهم وإصرارهم على مواصلة الجهاد ضد البرتغاليين أينما وجدوا[٤١].

وأدى الانتصار لاضطرار البرتغاليون إلى ترك مواقعهم على طول ساحل شرق أفريقيا حتى خليج دلجادو Cape Delgado ، على الرغم من محاولاتهم المتكررة لانتزاع المدينة[٤٢] . وأذعنت للإمام سيف بن سلطان الأول مدينتي زنجبار وكلوه، واتجه جنوبا حتى وصل إلى حصن موزنبيق وحاصره ، وامتنع عن اقتحامه حتى لا يقع الجيش في الفخ الذي نصبه لهم البرتغاليون بعد ورود أنباء عن انفجار لغم أثناء الحصار أودى بحياة عدد من الجنود المحاصرين ، بينما أعترف سكان ممباسا بالولاء للإمام سيف[٤٣]، وبعد الاستيلاء على القلعة عرضت مدينة (مقديشو) الانضمام إلى لواء الإمام سيف[٤٤].

وكان احتلال ممباسا دليلاً على ضعف بدأ ينخر الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي، وأدركوا بعدها استحالة مقاومة العُمانيين لوحدهم وضرورة التحالف مع أعداءهم لمهاجمتهم، ومن اجل ذلك أرسل الحاكم البرتغالي في جوا مندوبا يدعى دوم غريغوريو بيريرا Dom Gregori Pereira لفارس للتحالف معاً لكنهم لم يجدوا آذان صاغية فاضطروا لعقد هدنة مع العُمانيين سنة ١٧٠٣م من أجل تسيير أمورهم في شرق أفريقيا وجاء هذا العرض من نائب الحاكم البرتغالي الذي أشار في اقتراحه قائلا: (.. أن العرب راغبون بالسلام، لأنهم يعرفون أن وارداتهم الأساسية من الرز يمكن قطعها بسهولة من قبل البرتغاليين.) [٤٥].

ويعلق كيركمان على نجاح العُمانيين في الاستيلاء على قلعة ممباسا بقولة: "كانت الحملة على ممبسه انتصارا كبيرا للعُمانيين حيث إنهم لم يفقدوا أي سفينة، كما أن خسائرهم في الأرواح لم تكن كبيرة على مدى ثلاث أعوام من الحصار"، وبالنسبة للبرتغاليين فلقد خسروا سفينة حربية وخمسا من سفن النقل وعدد كبير من الجنود. وبالسيطرة على الحصن أصبحت عُمان سيدة الساحل بأكمله حتى رأس دلجادو Cape Delgado في الجنوب[٤٦]. لكننا سنجد أن هذه الاتفاقية التي تم توقيعها بين الطرفين سنة ١٧٠٣م ستلغى وسيحاول الطرفان الانتقام من بعض، فقد قام الأسطول العُماني سنة ١٧٠٥م بمهاجمة دامان[٤٧] Daman وكبدوا البرتغاليين خسائر جسيمة[٤٨].

ولم يكن للعُمانيين أية نية في الإقامة في شرق أفريقيا وتكوين دولة خاضعة لهم فلقد حرص الأئمة على تعيين أشخاص لمنصب الولاة من سكان المنطقة، على اعتبار أنهم أدرى بشؤونها ، وخير دليل على ذلك بعد أن استولى الإمام سيف بن سلطان الأول على قلعة يسوع عين شخصاً من قبيلة المزارعة وهو الشيخ ناصر بن عبدالله المزروعي[٤٩]

ويفسر (سبنسر) ذلك: أن الأحداث التي عصفت بعُمان من صراعات داخلية وصراع بين أبناء البيت الحاكم قللت من اهتمام أئمة اليعاربة الذين أتوا بعد ذلك، مما جعلهم يصرفون عن الاهتمام بشرق أفريقيا مع أنهم قاموا بتعيين من ينوب عنهم حكامً مباشرين للاهتمام بتسيير شؤونها[٥٠]. لكن السلطة بقيت بيد أهلها، ولقد توفرت عدة عوامل هيئت لعُمان أن تتزعم حركة الجهاد ضد البرتغاليين في شرق أفريقيا أولها قرب الأراضي العُمانية من السواحل الأفريقية، وثانيا الاستفادة من الرياح الموسمية في تسيير السفن إلى تلك المنطقة مرتين في السنة، إذا أضفنا اكتساب أهل عُمان خبرة ملاحية منذ القدم للساحل الشرقي الأفريقي وما يحتويه من موارد طبيعية تمثل جل صادرات شرق أفريقيا مثل العاج والذهب والرقيق[٥١].

خَاتِمَةٌ

وهكذا رأينا الدوافع من إرسال الحملات العمانية إلى ممباسا خلال فترة حكم أئمة اليعاربة الأوائل، والآثار والمصاعب التي واجهها العمانيون في حصارهم للقلعة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي مكنتهم بعد سنتين ونصف من الحصار من احتلالهم للقلعة، وأدى هذا الفتح لسيطرتهم على مدن مهمة في الساحل الشرقي لأفريقيا كزنجبار وكلوه إلى موزنبيق جنوبًا من جهة كما أن احتلال الحصن أشارة إلى ضعف بداء ينخر الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي وخسروا مركز ثقلهم في شرق أفريقيا، حتى أصبح هذا الساحل تحت السيطرة العمانية من دون أن يفرضوا حكمهم على المنطقة بل جعلوا الأمر بيد أهلها.

وقد توصلت الدراسة إلى أن ازدهار قوة الأسطول العماني الذي لم يكتف بمقارعة البرتغاليين على سواحله، بل ذهب لحصارهم في أبرز معاقلهم في شرق أفريقيا مما يعكس تتطور قوة الأسطول العماني في أواخر عصر دولة اليعاربة. وقد كان من أهداف نشاط البحرية العمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي تقديم المساعدة والنجدة للشعوب التي تستجدي بأئمة اليعاربة.

وتوصي الدراسة بتبني مؤسسات البحث العلمي سياسة استقطاب الوثائق من الأرشيفات الأجنبية فيما يتعلق بفترة الاحتلال البرتغالي لعُمان. وقيام الباحثين بدراسة طبيعة العلاقات الاجتماعية والثقافية للعمانيين في شرق أفريقيا خلال فترة الدراسة.

الاحالات المرجعية:

(١) أحد المدن الساحلية التي تقع في شرق أفريقيا وتتبع دولة كينيا حاليًا، أما حصنها المشهور بيسوع فهو حصن بناه البرتغاليون في أواخر القرن السادس عشر الميلادي لحماية ميناء ممباسا.

(٢) الإمام سيف بن سلطان الأول ثاني أئمة دولة اليعاربة التي قامت في عُمان سنة ١٦٤٩م، للمزيد عن أعماله انظر: السالمي، نور الدين. **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**. ج٢، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط:٢٠٠٠، ص١٠٥.

(٣) حريز، سيد حامد. **المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية في شرق أفريقيا**. ط.١، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجبيل، بيروت:١٩٨٨م، ص ١٨

(٤) تعرف بالجزيرة الخضراء، وهي أحد الجزر التابعة لأرخبيل زنجبار.

(٥) العجيلي، غانم محمد رميض. **الصراع العُماني البرتغالي في البحار الشرقية ١٦٥٠-١٧٢٠م**.مجلة الوثيقة، ع١٣، س٧، مركز الوثائق التاريخية، البحرين: يوليو ١٩٨٨م، ص٨٥.

(6) Coupland, R. **East Africa and its invaders**. First edition. oxford at the Clarendon, London: 1938 pp67-68.

(٧) الغنيمي، عبد الفتاح مقلد. **الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا**. ط ١، عالم الكتب، القاهرة: ١٩٩٨م، ص١٨٩.

(8) Coupland, Op.Cit, P.66.

(٩) السيار، عائشة. **دولة اليعاربة في عُمان وشرق أفريقيا**. ط٢، مطابع دار صحف الوحدة، أبو ظبي: ١٩٩٢م.

(١٠) الغنيمي. **المرجع السابق**. ص ١٩١.

(١١) العجيلي، غانم محمد رميض. **قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عُمان ١٦٢٤-١٧٤٩م**. رسالة ماجستير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة: ديسمبر ١٩٨٧م، ص٦٧.

(١٢) جيان، المسيو. **وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية**. نقله إلى العربية يوسف كمال، ط١، القاهرة: ١٩٢٧م، ص٢٥١-٢٥٢.

(١٣) شلبي، أحمد. **موسوعة التاريخ الإسلامي**. ج٦، ط.١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة:١٩٨٣م، ص٦٦٧.

(١٤) **نفسه**. ص٦٦٧.

(١٥) أحمد، أحمد، عبد النبي علي. **الصراع العُماني البرتغالي في شرق أفريقيا**. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة:١٩٩٤م،، ص٥١.

(١٦) السيار. **المرجع السابق**. ص ١١٦.

(١٧) البطاشي، سيف بن حمود. **إيقاظ الوسنان في شعر وترجمة الشيخ خلف بن سنان**. ط ١، المطبعة الوطنية، مسقط: ١٩٩٥م،، ص٧٢.

(١٨) العجيلي. **قيام حكم**. ص٧١-٧٢.

(١٩) عثمان، عبد الرازق علي. **البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها**. أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج٢، مركز الدراسات والوثائق، الديوان الأميري: أغسطس ١٩٨٧م، ص٥٥.

(٢٠) العجيلي. **الصراع البحري**. ص٨٨

(٢١) المغيري، سعيد بن علي. **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**. تحقيق محمد علي الصليبي، ط.٤، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط:٢٠٠١م، ص ١٩.

(22) Boxer, C.R and Carlos De Azevedo. **Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593 – 1729**. London:1960, p59.

(٢٣) حنظل، فالح. **المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة في عصر التوسع الأوروبي الأول**.ج١، مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر، أبوظبي: د.ت، ص ١٠١.

(24) Boxer, **Op.Cit** , p60-61.

(٢٥) حنظل. **المفصل**. ص ١٠٢

(٢٦) أحمد. **المرجع السابق**. ص ٩٧

(27) Coupland, **Op.Cit**, P.68.

(28) Boxer, **Op.Cit** , p66.

(٢٩) أحمد. **المرجع السابق**. ص ٩٩.

(٣٠) حنظل. **المرجع السابق**. ص ١٠٥.

(٣١) أحمد. **المرجع السابق**. ص ٩٨.

(32) Eric, Axelson. **Portuguese in south East Africa 1600-1700**. first published, University press Johannesburg, cape town: 1960, p 174

(٣٣) أحمد، **المرجع السابق**. ص ١٠٠.

(٣٤) حنظل. **المرجع السابق**. ص ١٠٥

(٣٥) Axelson . **Op.Cit** , p174

(٣٦) الفزاري، بشير بن عامر. **ديوان الفزاري**. ط١، حققه: مهنا بن خلفان الخروصي، مكتبة المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، السيب:٢٠٠٧م، ص١٨٢.

(37) Coupland. **Op. Cit**, p 68.

(38) Axelson. **Op. Cit** , p.175.

(39) Hamilton, genesta.**in the wqke d agama the story of portuquese pioneers in east Afri**ca,London:1955: p.161-162.

(٤٠) المزروعي، الأمين بن علي. **مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في أفريقيا الشرقية**. تحقيق إبراهيم الزين صغيرون، منشورات البحر الأحمر، لندن: ١٩٩٥م، ص ١٢٣.

(٤١) لاندن، روبرت جيران. **عُمان من ١٨٥٦م مسيرا ومصيرا**. ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث لقومي والثقافة، مسقط: ١٩٨٥م، ص ٥٠.

(٤٢) قاسم، قاسم، جمال زكريا. **الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية**. دار الفكر العربي، مصر: ١٩٩٦م، ص١١١.

(٤٣) جيان. **المصدر السابق**. ص٣٥٥.

(٤٤) العجيلي. **قيام حكم**. ص ٧٦.

(٤٥) **نفسه**. ص٧٧.

(٤٦) أحمد. **المرجع السابق**. ص١٠١.

(٤٧) **دامان**: مدينة تجارية على ساحل البحر، تقع شمال بومباي في الهند، اشتهرت بالفن والطبيعة، بنيت هذه المدينة من جدران قوية، ويوجد بها كنيسة كاتدرائية ضخمة وبعض الكنائس الصغيرة وحصن قوي انظر:

Hamilton, Alexander. **A New Account of the east of the Indies**. Vol. 1, the Arconaut Press, London: 1930. p104.

(٤٨) العجيلي. **الصراع العُماني**. ص ٩٠.

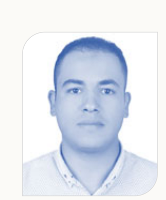
(٤٩) الفارسي، عبد الله بن صالح. **البوسعيديون حكام زنجبار**. ترجمة محمد أمين عبد الله سلسلة تراثنا، ع ٣، ط ٢، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٨٠، ص ١١٤

(٥٠) ترمنجهام، سبنسر. **الإسلام في شرق أفريقيا**. ترجمة وتعليق محمد عاطف النواوي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٧٣م، ص٥٦.

(٥١) عبد الحليم، رجب محمد. **العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام**. مطابع النهضة، مسقط: ١٩٨٩م، ص ١٦٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب
قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الأعداد (٢٨، ٢٩، ٣٠)



محمد الراشيدي
أستاذ الثانوي التأهيلي
باحث في سلك الدكتوراه
مراكش – المملكة المغربية

مُلَخّص

ستأتي مشاركتي المتواضعة هذه من خلال مقال سيسلط الضوء على التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب عن طريق قراءة في مجلة أمل التاريخية الأعداد ٢٨-٢٩-٣٠. هذه القراءة ليست مادة علمية مستهلكة بقدر ماهي إعادة الاعتبار لموضوع حي من جهة، ومن جهة أخرى إعادة النبش في معطيات مجلة تاريخية ذات قيمة علمية كبيرة، ولاختيارنا البحث في هذا المحور عديد المبررات من قبيل ما تعيشه بلادنا وواقع التعليم بها، بهدف وضع مقارنة بين الماضي والحاضر وهذا لا يتأتى لجميع التخصصات لكنه ليس بالعسير على تخصص كالتاريخ يمكننا من معرفة الماضي لفهم الحاضر واستكشاف المستقبل، طبعا هذه هي غايتنا القصوى من وراء البحث في موضوع التعليم عبر تاريخ المغرب من خلال مقاربة زمنية تمكن من مقارنة الأمس باليوم لوضع اليد على الاختلالات ومحاولة طرح حلول لتجاوز الأزمة الحالية. وعلى العموم فمساهمتنا ترمي الى المشاركة بعمل قيم وجبار ضمن الأعمال المهمة التي تسهر مجلتكم المحترمة على نشرها والاهتمام بها من جهة، ومن جهة أخرى رغبة في التشجيع على النبش في هذا المجال لعل الباحثين ينجحون في اكتشاف بعض الأسباب الحقيقية لأزمة وضعت قدمها في اتجاه الاستفحال. وستسلط هذه المساهمة الضوء على المسألة التعليمية في الفترتين الوسيطية والحماية الفرنسية من الناحية الزمنية، أما مجاليًا فسنزاوج بين البوادي والمدن لمعرفة الواقع التعليمي بهما في محاولة لرسم معالم واضحة عن التعليم بالمغرب عبر التاريخ. هذه الدراسة ستعيد النبش في المقالات التي جاءت بها أعداد مجلة أمل لضخ دماء جديدة في محور البحث حول التعليم وبعث هذه القضية من جديد لأنها قضية حاسمة في تاريخ البلدان، وذلك عبر قراءة رصينة، جادة ومسؤولة ملتزمة بقواعد البحث التاريخي والعلمي بعيدة عن الاجترار والمستهلك، ساعية الى تقديم إضافة نوعية من شأنها تدعيم الإصلاح التعليمي الذي تنخرط فيه بلادنا بشكل واضح.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٩ يوليو ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ٢٣ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

مدرسة تامكروت؛ المدرسة الاستعمارية؛ الحماية الفرنسية؛ تاريخ المغرب الحديث؛ المدرسة العصرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299324 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد الراشيدي. "التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب: قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الأعداد (٢٨، ٢٩، ٣٠)".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٠٤ – ١١٦.

Corresponding author: rachidi.histoire@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

يسلط المقال الضوء على التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب عن طريق قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الأعداد ٢٨-٢٩-٣٠. هذه القراءة ليست مادة علمية مستهلكة بقدر ماهي إعادة الاعتبار لموضوع حي من جهة، ومن جهة أخرى إعادة النبش في معطيات مجلة تاريخية ذات قيمة علمية كبيرة، ولاختيارنا البحث في هذا المحور عديد المبررات من قبيل ما تعيشه بلادنا وواقع التعليم بها، بهدف وضع مقارنة بين الماضي والحاضر وهذا لا يتأتى لجميع التخصصات لكنه ليس بالعسير على تخصص كالتاريخ يمكننا من معرفة الماضي لفهم الحاضر واستكشاف المستقبل، طبعا هذه هي غايتنا القصوى من وراء البحث في موضوع التعليم عبر تاريخ المغرب من خلال مقاربة زمنية تمكن من مقارنة الأمس باليوم لوضع اليد على الاختلالات ومحاولة طرح حلول لتجاوز الأزمة الحالية وهذه مهمة الكتابة التاريخية الحالية التي تجعل من الزمن التاريخي زمنًا واحدًا غير منفصل وتجعل من البحث التاريخي بحث متحرك غير ثابت قادر على إعطاء الحلول للأزمات.

بقية المبررات التي قادتنا الى هذا الاختيار تكمن في أن العلم والبرامج التعليمية، هي طريق التقدم، إذ أصبحت درجة التعليم مند بداية التاريخ المعاصر هي التي تحدد مكانة دولة أو أمة، ومند النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وبعض عناصر النخبة المغربية تدعو إلى إصلاح التعليم وعصرنته، وربطه بالواقع والمستقبل.

وستسلط هذه المساهمة الضوء على المسألة التعليمية في فترات متفرقة من تاريخ المغرب هذا من الناحية الزمنية، أما مجاليًا فسنزاوج بين البوادي والمدن لمعرفة الواقع التعليمي بهما في محاولة لرسم معالم واضحة عن التعليم بالمغرب عبر التاريخ. هذه الدراسة أيضا ستجعل من الأعداد ٢٨-٢٩-٣٠ من مجلة أمل قاعدة ومنطلق، وستعيد النبش في المقالات التي جاء بها كل عدد لضخ دماء جديدة في محور البحث حول التعليم وبعث هذه القضية من جديد لأنها قضية حاسمة في تاريخ البلدان، وذلك عبر قراءة رصينة، جادة ومسؤولة ملتزمة بقواعد البحث التاريخي والعلمي بعيدة عن الاجترار والمستهلك، ساعية الى تقديم إضافة نوعية من شأنها تدعيم الإصلاح التعليمي الذي تنخرط فيه بلادنا بشكل واضح.

أولاً: التعريف بـ "مجلة أمل"

هي مجلة مغربية علمية تعني بالتاريخ والثقافة والمجتمع. تصدر ثلاث مرات في السنة.
عنوانها: ص. ب ١٤٩١٠، البريد المركزي الدار البيضاء. المملكة المغربية.
هاتفها الثابت: ٠٢٢٥٠٦١٤٦
عنوانها الإلكتروني: maarouf-dafali@yahoo.fr
الإيداع القانوني: ٤٨ - ٩٢
مديرها ورئيس تحريرها: محمد معروف الدفالي.
هيئتها التحريرية: محمد الفلاح العلوي - المختار عنقا الادريسي - بوشعيب اهلال - عبد العزيز باقية - نوال متزكي - محمد المؤيد.
السحب والتوزيع: مطبعة النجاح الجديدة -سابريس
الأفكار الواردة في المواضيع تعبر عن آراء أصحابها والمقالات المرسلة الى المجلة لا ترد الى أصحابها سواء نشرت أو تنشر.

تُعَدّ هذه المجلة من بين أهم المجلات الصادرة في المغرب، تعالج مواضيعها أجناس معرفية متنوعة تمس خاصة الجانب التاريخي والاجتماعي والثقافي. تتضمن المجلة وثائق غميسة وتلامس ملفات معينة وهي مفتوحة لكل الباحثين، وتصدر في بعض الأحيان بأعداد مزدوجة.

أصدرت المجلة منشورات مهمة منها:

- جامع القرويين والفكر السلفي" لمحمد الفلاح العلوي.
- موجز تاريخ سلا " لكينيث براون ترجمة محمد حبيدة واناس لعلو.
- التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية " لالبير عياش ترجمة عبد العزيز بل الفايدة.
- الأنوثة في خطاب ابن عربي" لنزهة برادة.

صدر العدد الأول من "مجلة أمل: سنة ١٩٩٢ وكان من أبرز المواضيع التي تضمنه:

- أي منهاج لكتابة التاريخ؟
- جوانب من المسألة البربرية.
- مدرسة الحوليات.
- وثائق حول السياسة البربرية بمغرب الحماية.

وتقديمنا لهذا العمل سيتم عبر التحليل شكلاً ومضمونًا، فمن الناحية الشكلية تم تناول موضوع التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب من خلال إصدارين لمجلة أمل عن طريق نشر مقالات ضمن الإصدار الذي ضم العددين ٢٨- ٢٩ في مؤلف واحد حمل بين طياته ١٧ مقال كانت خمسة منها تعنى بالموضوع قيد الدراسة –التعليم- بشكل جد مباشر، ثم إصدار العدد ٣٠ سنة ٢٠٠٤ والذي تضمن ١٥ مقال، ستة منها لامست المسألة التعليمية بشكل مباشر هي الأخرى. أما من حيث المضمون فسنتطرق للموضوع اعتمادًا على المنهج التالي:

ثانيًا: قراءة في العددين (٢٨-٢٩)

تميز هذا الإصدار بدمج عددين ٢٨ و٢٩ في إصدار واحد من ٣٢٨ صفحة، وسبعة عشر مقالا حول التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب، حيث تمكنت المساهمات من تسليط الضوء على جميع الحقب التاريخية بداية مع الفترة القديمة من خلال عمل الأستاذ عبد العزيز بلفايدة حول الإبداع الروماني في مجال التعليم والتربية، ثم الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط للأستاذ الحسين أسكان إلى جانب مقال الأستاذ أحمد البوزيدي حول الدراسة والتدريس بمدرسة تامكروت، وكلاهما يغطيان الفترة الوسيطة من تاريخ المغرب، ثم نجد الباحث محمد اليازيدي تعرض للتنظير الذي حظي به التعليم الاستعماري في المغرب وهو عمل ينتمي للفترة الحديثة، هكذا إذن نجد أن المقاربة التاريخية المعتمدة في تصنيف هذه الأعمال لها دلالة كبيرة على احترام السياق التاريخي ومراعاة كرونولوجية الأحداث التي ارتبطت بالمسألة التعليمية داخل مجال جغرافي غير ثابت عبر الزمن التاريخي وهو بلاد المغرب. وهي مقاربة قيمة ومهمة تمكن الباحث من تتبع مسار تطور التعليم بالبلاد وتحديد سياقاته والمتغيرات المتحكمة في تطوره.

واحترامًا للمنهجية المتبعة في التسلسل الزمني للأحداث سنستهل قراءتنا المتواضعة هذه مع الفترة القديمة ثم الوسيطة فالحديثة للوقوف على مسار تطور القضية التعليمية بالمغرب وذلك عبر الطريقة التالية:

٢/١-الإبداع الروماني في مجال التعليم والتربية وهو عمل قام بترجمته الأستاذ عبد العزيز بلفايدة –أستاذ باحث بكلية الآداب /القنيطرة-لصاحبه Henri Irenée Marrou والذي تطرق فيه الى الأهمية التاريخية للتربية الرومانية وانتشار هذا النوع من التعليم، وذلك من خلال إبراز سياسة الرومنة وحدودها، دون إغفال للخريطة التعليمية والمدارس الرومانية سواء الابتدائية والإعدادية ومدارس النحو، وتجدر الإشارة هنا أن التعليم المتقدم لم يكن بإمكان جل الأطفال الوصول إليه لأن المجتمع الروماني ظل مجتمعا أرستقراطيا وأن الدراسات المعمقة ظلت حكرا على النخبة، وهي نفس الملاحظة التي سنجدها في الفترات التاريخية اللاحقة خصوصا زمن الحماية الفرنسية ونخبوية التعليم لتعميق الفوارق بدلا من تبديدها، هذا وذهب الكاتب الى التعليم العالي والمتعلق زمنها بفن الخطابة وتعليم القضاء، معتمدا في ذلك على مادة مصدرية متنوعة وغنية مكنت الباحث في الفترة القديمة من جمع معلومات قيمة حول مسألة تبدو عويصة البحث. وبالانتقال الى العصر الوسيط المغربي والذي شهد تطورا مهما مع الإمبراطوريتين المرابطية والموحدية وتقدما علميا مع المرينيين نسجل أن المجلة حملت مقالين من الأهمية بما كان، اهتما بتسليط الضوء على المدرسة كمؤسسة جديدة انضافت للمؤسسات التعليمية بالمغرب في القرن السابع الهجري ولعبت دورا مهما في تطور المسار التعليمي بالمغرب الوسيط وما بعده، إذ غيرت كثيرا من التقاليد التعليمية الإسلامية التي كانت سائدة قبل ظهورها في القرن السابع الهجري، وأرست تقاليد جديدة مؤثرة بصفة خاصةً في طرائق تمويله وأهدافه ومضامينه.

٢/٢-الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط للأستاذ الحسين أسكان-أستاذ باحث بكلية بنمسيك- تضمن هذا المقال عشرون صفحة تمكن من خلالها الأستاذ من إبراز دور المدرسة كمنشأة تعليمية في التعليم بالمغرب الوسيط من خلال إعطاء تعريف لها كبناية مستقلة عن أية بناية عمومية أخرى كالمسجد مثلا ومعتمدة على الأحباس في القيام بوظيفتها وباعتبارها أيضا مؤسسة حضرية تعليمية وسنية، ثم تحديد تاريخ ظهورها بالمغرب الأقصى والغرب الإسلامي، مع التعريف بالظرفية التاريخية العامة لظهورها، وتحديد الملابسات العامة لانتشارها الجغرافي في ربوع البلاد بعد ذلك، دون إغفال الوقوف عند تأثيرها في المسار التعليمي خلال القرن السابع الهجري وما بعده، مع التركيز على دورها التاريخي والذي استمدته من هدف تشييدها حيث أن الهدف الأساسي وراء بناء المدارس والذي تلح عليه النصوص التاريخية، هو إحياء العلم وتوفير الظروف المعيشية المواتية لطلاب العلم والمدرسين ليتفرغوا لتحصيل العلم وهذا ما نجده في أغلب وقفيات التحبيس على المدارس[1]. هذا ويخلص الكاتب في نهاية مقاله إلى أنه إذا كانت المدارس قد أحيت

العلم عند ظهورها ووسعت من شرائح المتعلمين لتشمل الى جانب الحكام قسطا من الرعية، فإنها أفرزت سلوكيات ساهمت بشكل كبير الى جانب عوامل أخرى في انحطاط وتدني مستوى العلم والتعليم بالمغرب عند نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

٣/٢-الدراسة والتدريس بمدرسة تامكروت على عهد الشيخ محمد بن ناصر لأحمد البوزيدي – أستاذ باحث بكلية الآداب/ فاس- والذي تطرق للمجال الذي انبثقت فيه هذه المدرسة وهو واحة فزواطة والتي شهدت بروز عدة مدارس كان لها دور مهم في تاريخ المنطقة، اكنها تراجعت خلال القرن السابع عشر الميلادي وخف نشاطها بسبب الاضطرابات السياسية التي عاشتها المنطقة إلا أنها ستنبعث من جديد مع الشيخ محمد بن ناصر الذي استرسل الكاتب في التعريف به وتأسيسه لمدرسة تامكروت، مع رصد بعض الحيثيات المتعلقة بأوقات الدراسة وطرائق التدريس الى خلوصه بأن الدراسة في عهد محمد بن ناصر بزاوية تامكروت الأنصارية، جعلت من مدرسة هذه الزاوية أشهر مدرسة بالجنوب المغربي على الإطلاق خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري، وذلك بفضل الجهود الحثيثة التي كان يبذل الفقيه محمد بن ناصر وطرائق تدريسه التي تعتبر أكثر تطورا بالمقارنة مع غيرها من المدارس في ذلك الإبان. وعن أهمية المدرسة قيد الدراسة يقول إنه لولا الشيخ محمد بن ناصر في درعة ومحمد بن أبي كر في الدلاء وعبد القادر الفاسي، لانقطع العلم في مغرب القرن الحادي عشر الهجري[٢].

بعد أخذ صورة عن تعليم المغرب القديم من خلال مقال الإبداع الروماني في مجال التربية والتعليم، ورصد الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط وكذلك تسليط الضوء على التعليم في الفترة الحديثة خلال القرن السابع عشر الميلادي من خلال مقال الدراسة والتدريس بمدرسة تمكروت نكون قد سلطنا الضوء على جوانب معتمة من تاريخ التعليم في المغرب، وكذلك تمكنا من جمع شتات معلومات متناثرة هنا وهناك من شأنها أن تمدنا بتصور واضح عن المسألة التعليمية في ثلاث حقب مختلفة من تاريخ بلادنا وتجعلنا قادرين على سبر أغوار تطور القضية قيد الدراسة في مرحلة حاسمة من تاريخنا الراهن وهي فترة الحماية، كذلك من شأنها أن تجعلنا قادرين على وضع مقارنة لتعليم المغرب قبل وبعد الحماية الفرنسية، وسنستهل الحديث عن هذه المرحلة بالمقال التالي:

٤/٢-التنظير للتعليم الاستعماري بالمغرب، لمحمد اليزيدي – باحث من الرباط- تطرق لموضوع التعليم باعتباره مجالا خصبا للعديد من الأطروحات الاستعمارية التي أكدت على أهمية هذا العنصر في ضمان الوجود الفرنسي واستمراره بالمغرب، وليس بهدف تحقيق ومناقشة هذه الأطروحات، ولكن رغبة في الإمساك بالمنطلقات التي حددت استراتيجية الحماية الفرنسية في مجال التعليم، وذلك من خلال تركيزه على ثلاث شخصيات محورية كان لها الأثر الكبير في تشكيل وهيكلة البناء التعليمي بالمغرب على عهد الحماية: وهم ليوطي، جورج هاردي، بول مارتي.

(٤/٢) ١-ليوطي والشبيبة المغربية: تم التعريف هنا بهذه الشخصية البارزة وعلاقتها بالشبيبة التي كان يعول عليها لربط علاقات الصداقة بين البلدين، والذي سيتجه نظره الى إنشاء تعليم خاص بأبناء الأعيان ومدارس ثانوية، أشرف هو على وضع برامجها واختيار تلاميذها، والذي سيشكل لجنة سنة ١٩١٦ لدراسة ومناقشة الأسس التنظيمية للتعليم الثانوي الإسلامي، لكن اختياره دوما كان ينصب على النموذج الأنكلوصاكسوني القاضي بعدم جعل المدرسة آلية للتغيير الاجتماعي، وبالتالي فهو يستعيد مثل آخرين في هذه الفترة بقايا الرومنة، ويسطر بصورة صريحة لما يوازي الإنجاز الروماني، وبالتالي بقيت وعوده مجرد خطاب ميت وظل مخلصا للنهج الاستعماري التقليدي.

(٤/٢) ٢-جورج هاردي: الهاجس السياسي والأيديولوجي للمدرسة الاستعمارية ويعتبر من أكبر منظري التعليم الاستعماري ، تم تعيينه على رأس إدارة التعليم سنة ١٩٢٠، الذي اعتبر التعليم ركيزة أساسية وسلاحا مكملا ضمن آليات اختراق البلدان المستعمرة، والذي لم يكن يرى في مبدأ الفصل بين المغاربة في التعليم وليد تمييز عرقي بل كان الهدف منه "خلق روح التعاون عن طريق توحيد الأفكار، فالحكمة تقتضي عدم المساس بالتقاليد وعدم جعل المدرسة أداة للفوضى"[٣] لكن أهم ما ميز فترته على رأس الشأن التعليمي بالمغرب هو تدشين سياسة التفريق بين العرب والبربر في مجال التعليم، وهو ما يبدو جليا مع زعيم التنظير للسياسة البربرية "بول مارتي".

(٤/٢) ٣-بول مارتي: توظيف المؤسسة التعليمية في مجال السياسة البربرية، حيث شكل التعليم مجالا خصبا لتطبيق هذه السياسة والتي استهدف الاستعمار من خلالها القضاء على الوحدة الفكرية والشعورية وفرض وجوده الثقافي

والسياسي والفكري، هذه المدرسة الفرنسية –البربرية يعرفها مارتي كونها مؤسسة فرنسية بالتعليم والحياة، وبربرية بالزبناء والوسط، فرنسية بمعلمها وبربرية بتلاميذها وبالتالي لا وجود للأجنبي، فكل تعليم بالعربية وكل تدخل للفقيه وأي نشاط إسلامي يجب إبعاده[٤]. وبالتالي كانت السياسة البربرية خطئا سياسيا في غاياتها وأهدافها أفضت الى نتائج عكسية لما كان يتوقع منها، ووحدت ما سعت فرنسا الى تفرقته، كما أبانت عن جهل أقطاب السيسيولوجيا الاستعمارية بحقيقة الوضع بالمغرب.

٥/٢-اتجاهات التعليم العمومي بالمغرب في العشر سنوات الأولى من الحماية، مقال لجورج هاردي قامت بترجمته أمينة بريدعة – باحثة من الرباط- إذ مع مستهل المقال نجد الصفحات الأولى منه حبلى بالإشكالات من قبيل تعقد المهمة الجديدة للفرنسيين مقارنة مع التعليم التقليدي؟ تعليم الفتيات المسلمات؟ التعليم لعالي الإسلامي –الفرنسي؟ الاتجاهات المتعددة وأبرزها العلمية؟ كلها مشاكل للتعليم بالمغرب جيء لها بحلول تخدم المنطلقات الاستعمارية وكلها رغبة في إعطاء دفعة قوية توجه عمل الحماية المدرسي، وتكمن قيمة وقوة هذا المقال في كونه معاصرا للحدث إذ صدر في بدايات فرض الحماية على المغرب من طرف جورج هاردي ضمن: la renaissance du maroc dix ans de protectorat 1912-1922 Résident général de la republique francaise au maroc Rabat pp 198-207

وقبل الختام وللأمانة التي يفرضها منطق العلم والبحث فان المقال المترجم يعبر بشكل صريح عن مدى شراسة التوجه الإمبريالي والاستعماري القاضي بخلق توجه علمي يتماشى والتوجهات العامة لسلطات الحماية غير آبه بالتعليم المحلي للبلد المستعمر.

ثالثًا: قراءة في العدد (٣٠)

بعد القراءة المتأنية لمقالات هذا العدد، ارتأيت تصنيفها الى مرحلتين تفصل بينهما معاهدة الحماية ١٩١٢ كحدث بارز غير مسار المسألة التعليمية بالمغرب وبالتالي سنتطرق للموضوع من خلال:

١/٣-التعليم بالمغرب قبل الحماية

تناول هذا العدد المسألة قيد الدراسة من خلال ستة مقالات كالتالي:

(١/٣) ١-تعليم الطفل وعلاقته بوضعية الأسرة، في مغرب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. لمحماد لطيف وهو أستاذ باحث من مكناس استطاع من خلال ١٠ صفحات تقديم منتوج يرجع للفترة الوسيطية عبر بيبليوغرافية متنوعة اهتمت بحالة الطفل الأسرية والاجتماعية، وأثرها في حياته العلمية، التي تجمع على ضرورة اكتساب التعليم وضرورة تعليم الأطفال، إلا أن ذلك غالبًا ما كان، ففي الواقع يصطدم الطفل بعديد المعوقات والعراقيل التي تقف حجرة عثرة وتحول بينه وبين دراسته. فبلم شتات المادة العلمية الخاصة بتعليم الطفل في مغرب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يتضح مدى تحكم الوضعية المادية للأسرة وبيئتها الاجتماعية في تعليم أبنائها وتوفير الظروف اللازمة والكاملة لذلك.[٥] وسيضع الكاتب مقارنة بين أبناء الطبقات الاجتماعية ويخلص الى أن عملية تعليم الطفل في الفترة المدروسة خضعت بشكل كبير للوضعية الاجتماعية للعائلات. وفرضت على غالبيتهم اقتحام مجال الإنتاج والتكسب منذ سن مبكرة، تمكن أطفال العائلات الموسرة، بفضل الظروف المالية والاقتصادية المواتية من توجيه كل اهتماماتهم نحو العلم والتعلم، مثلما كان للآباء داخل هذه الأسر الدور الهام في تكوينهم وتهييئهم لتولي المناصب العليا.[٦]

(١/٣) ٢-الحياة التعليمية في سبتة الوسيطية (القرنان ٧-٨/١٣-١٤م) لمحمد حقي أستاذ باحث من ورززات استطاع هو الأخر من خلال مقاله هذا (٢٦ صفحة) تعميق البحث في فترة زمنية مهمة من تاريخ المغرب في مدينة لعبت دور كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية مساهما في دراسة موضوع قلما يتم الاهتمام به، ومتطلعا إلى إعطاء لمحة سريعة عن الحياة اليومية لهذه المدينة وتركيز الاهتمام على مختلف جوانب نظامها التعليمي بالوقوف عند مختلف جوانب عملية التعليم والتعلم، وذلك من خلال تطرقه لملامح من حياة المدينة عبر رصد وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لأنه الأقرب للإشكالية المدروسة، وهي ظروف ملائمة حسب ما جاء به لازدهار الحياة العلمية والإقبال على العلم وطلبه وبالتالي نشاط حركة التعلم، بوجود بنيية ثقافية قارة مثل العلماء والمؤسسات التعليمية مثل المدارس والمساجد والجوامع والكتاتيب والزوايا دون إغفال وضعية المدرسين والتي كان يحظى فيها المدرس بمكانة مهمة وخطيرة باعتباره المصدر الوحيد للمعرفة، ولم يقف عند هذا الحد بل تسلل الى البحث في الوضع المادي والأجرة التي كانوا

يتقاضوها وزيهم والمواد التي يدرسونها من تفسير وفقه، لغة وآداب، تاريخ وطب ورياضيات، دون إغفال تسليط الضوء على طرائق التدريس من وقت الدروس والذي كان مرتبط بأوقات الصلاة في بدايته وإنهائه، مع العلم أن النظام المعتمد هو نظام الحلقة في إعطاء الدروس وفيه يستند الأستاذ الى جدار أو سارية في المدرسة أو الجامع، معتمدًا على الإلقاء والمحاضرة بينما يسود الصمت من جانب الطلاب، فلا يشاركون في مناقشة أو إبداء رأي اللهم بعض الاستفسارات النادرة. وفي أماكن إقامتهم تأتي المرحلة الصعبة وهي حفظ متن الدرس وشروح الأستاذ لأنها الطريق الوحيد إلى الإجازة.[٧]

ويخلص الى أن هذا النوع من التعليم يمجد الحفظ ويعتمد التذكر، وأن سبتة عرفت نشاطًا تعليميًا كبيرًا خلال فترة الدراسة بفضل توفر الشروط الموضوعية لذلك من مؤسسات وأساتذة وإقبال السكان إلا أن نظامها التعليمي عرف عقمًا وجمودًا في طرائقه حيث لم يعتمد الإبداع واعتماد العقل، كما ظل متمسكا بالعلوم النقيلة المرتبطة بالشرع والآداب، وهي تعكس الوضع الذي عرفته الحياة العلمية في المغرب والأندلس في نهاية القرون الوسطى.

(١/٣) ٣-التعليم الأصيل بالبادية المغربية نموذج السراغنة وزمران للحسن شوقي وهو أستاذ باحث من السراغنة تعرض للموضوع في عشر صفحات بتسليط الأضواء الكاشفة على طرائق التعليم وأساليبه بالبادية المغربية وخاصة الثقافة المكتوبة التي كانت تلقى بمساجد الدواوير والكتاتيب المنبثة هنا وهناك، لعامة الأولاد صغارًا وكبارًا، تم تستمر في المدارس المجاورة أو البعيدة في المدن العلمية الكبرى كمراكش وفاس وزوايا الجنوب والصحراء... كما تطرق لمراحل التعليم وأماكنه، ثم ظروف تلقي العلم وإلقائه وإقامة الطلبة والأساتذة وظروف عيشهم، وأساليب معاملتهم في مجتمع قروي مكون أساسا من رعاة وفلاحين، ضمنهم فقهاء وعلماء مقيمون، أو استقرار بالمدن وكانوا عدولا وقضاة ومدرسين، كما عرف ببعض المدارس العلمية العتيقة.

ومن خلال قراءتنا للمقال أثار انتباهنا فقرة تتحدث عن كيفية تقاضي الأساتذة والطلبة لأجرهم من خلال "الشرط" وهو عرف قديم متوارث في جميع التراب المغربي ومستمر بشكل قليل الى اليوم في ظل الدور الذي تقوم به المندوبية الإسلامية لتأطير الأئمة والطلبة والشرط هو عقد بين أهل الدوار ولفقيه مقابل أمهم والأذان وتعليم الصغار، يتناوبون على إطعامه من جهتهم بشكل يومي في اطار "نوبة الطالب" بتقديم الوجبات الثلاث وعند جز الصوف يحظى بنصيب لصنع كسائه، كما يمنحه الطلبة بعض النقود كل يوم أربعاء (الأربعية) تهييئا لتحريرهم من الدراسة يوم الخميس وصباح الجمعة إضافة إلى واجب العواشر أي الأعياد الإسلامية حيث يحرر الطلبة من الدراسة سبعة أيام. والأهم كذلك هو الحظوة التي كانوا يتمتعون بها والتقدير الذي يكنه لهم الأطفال وأوليائهم عكس ما نجد في زمننا الراهن، من تسيب وتطاول على المدرس وفقدانه لهيبته داخل المجتمع.

٢/٣-التعليم بالمغرب زمن الحماية

بعد نموذجين مهمين من التاريخ الوسيط والمسألة التعليمية به، سنشد الرحال عبر المجلة دائمًا إلى القرن العشرين وهو القرن الذي شهد حدثًا مهمًا يتمثل في الحماية الفرنسية على المغرب (١٩١٢-١٩٥٦) وهي مرحلة عرفت تحولات شملت ميادين مختلفة بما فيها التعليم، حيث عملت إدارة الحماية على إدخال إصلاح استهدف المنظومة التعليمية للمغرب عبر إدخال تعليم عصري والحفاظ على التعليم العتيق، حيث نجد:

الكتاتيب والمدارس الحرة

كان أبناء المغاربة يدرسون بالمسيد والمدرسة العصرية مما يخلق اضطرابا نفسيا وذهنيا للتلميذ بسبب الإرهاق الشديد، لدرجة يصبح غير قادر على الاستمرارية والانضباط والتوفيق بين النموذجين معا. وقد كان المغاربة يمتنعون عن أخذ أبنائهم إلى مدارس إدارة الحماية، كما كانوا يشتكون من الأساليب التقليدية للمسيد فهم يرغبون في تعليم حديث وجيد لكنه مشبع بالروح الدينية. ونتيجة لذلك تم تأسيس المدارس القرآنية الجديدة ابتداء من سنة ١٩٢٤ بمراكش. حيث أصبحت الكتاتيب تضطلع بالنشاط السياسي نتيجة عدم خضوعها لمراقبة إدارة الحماية لكون اهتمامها الأول هو القرآن الكريم، وأصبحت مكانًا لتجمع رجال الحركة الوطنية ومركزا للدعاية.

التعليم الإسلامي

خصصت المدارس الإسلامية لأبناء الأعيان ومنها: المدارس الإسلامية الحضري، المدارس الإسلامية المهنية، المدارس الإسلامية القروية، المدارس الإسلامية للبنات. وقد تجلت مهمة التعليم الإسلامي في تلقين التلاميذ تعليما وتربية تحترم المعتقدات، وتتماشى مع التقاليد والعادات، وقد سيطر على التنظيم المدرسي اهتمامان مزدوجان: تمثل الأول: في وضع قواعد صلبة وواسعة لانتقاء النخبة التي ستساهم في التنظيم الداخلي من خلال منحها بعض المناصب الإدارية، أما

الثاني، يهدف إلى تثبيت التلاميذ بالأوساط التي يعيشون فيها وتوجيههم نحو التعليم المهني، وإلى حدود الحرب العالمية الثانية ظل هدف المدرسة الأوربية المحافظة على هدفها المتمثل في خلق نخبة من المثقفين والمتعلمين لفائدة الاستعمار.

وبخصوص التعليم الأوربي حسب عبد الرزاق الكريط في كتابه مؤسسة الحماية الفرنسية في المغرب مخاض الأفول (1935-1945)، فقد اهتم بأبناء الجاليات الأوربية، وينقسم إلى مستويين ابتدائي وثانوي. لم تكن الأعمال الاجتماعية التي سطرتها إدارة الحماية تسعى إلى العناية بالمغاربة، بل تعمل على كسب مزيد من الاستغلال، فالبرامج التعليمية لم يكن لها مخطط استراتيجي يسعى لإدماج التلميذ في محيطه العلمي، أو يخلق أرضية صلبة لهذه التجربة، وإنما جاءت لربط التلميذ وإجباره على التعود على المناهج الفرنسية واستهلاك مقرراتها الدراسية وفق منظومة مستندة على التمييز بإقرار أنواع مختلفة من التعليم، كالتعليم الفلاحي والمهني الذي طبق خصيصا لإجبار التلميذ على التعلق بالأرض وخلق قوة عمل يدوية تساهم في الرفع من المنتوج.

وقبل الحديث عن واقع التعليم في المغرب إبَّان فترة الحماية، تجدر الإشارة إلى الدوافع الأساسية للسياسة التعليمية الفَرنسية، والتي يتحدث عنها "هاردي" - مسؤول السياسة التعليمية في المستعمرات الفَرنسية - بشكل واضح وصريح؛ إذ يقول: "إن القوة تبني الإمبراطوريات، ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرارَ والدوام، إن الرؤوس تنحني أمام المدافع، في حين تظل القلوب تغذي نارَ الحقد والرغبة في الانتقام، يجب إخضاعُ النفوس بعد أن تم إخضاعُ الأبدان."[٨]...

نحن إذًا أمام نصٍّ صريح واضح لا يحتاج إلى واسعِ نظر لاستنتاج الهدف الأساسي من السياسة التعليمية الاستعمارية في المغرب، إنها حصرًا - وكما يعبر "هاردي" - تهدف إلى إخضاع النفوس للمستعمِر؛ حيث يتم الاستفادة من المخزون البشري للمستعمَرات، لخدمة مصالح فَرنسا، وضمان تبعيَّة الجيل الذي ستتم تنشئته في المدارس الفَرنسية؛ أي إن الحديث عن "تطوير المغرب" وإخراجه من "ظلمة الجهل والتردِّي" - كما يحب أن يبشرنا بذلك (وايسرجر) - لم يكن إلا خطابًا ترويجيًّا لذرِّ الرماد في العيون، وليتمَّ ترويض المغاربة دون محاولة استشارتهم أو استعدائهم، ويتضح هذا جليًّا حين معاينة السياسة العملية التي اتَّبعتها فَرنسا، خصوصًا إذا ما تم النظر إليها تبعًا للأهداف المصرَّح بها، وبِناءً على ذلك سيتم اتباع سياسات تعليمية ممنهجة لتحقيق السيطرة وتسريعها، والحد من ممانعتها، أو التقليل منها في أقل الأحوال.

وقد اتَّبعت فرنسا في سبيل تحقيق أهدافِها خطةً تعليمية، اعتمدت في الأساس على التفرِقة والطبقية، فكان التعليمُ في عهد الحماية طبقيًّا بامتياز، لا على صعيد العِرق فقط، بل تجاوز ذلك إلى طبقة دينية وأخرى اجتماعية، فوَفْقَ هاردي فإن فرنسا ملزَمة بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب؛ الأول يفتح في وجه أرستقراطية مثقفة في الجملة...، إن التعليم الذي سيقدَّم لبناء هذه النخبة الاجتماعية تعليمٌ طبقي يهدف إلى تكوينها في ميادين الإدارة والتجارة، وهي الميادين التي اختص بها الأعيان المغاربة، أما النوع الثاني، وهو التعليم الشعبي الخاص بالجماهير الفقيرة والجاهلة جهلًا عميقًا، فيتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي؛ في المدن يوجَّه التعليم نحو المِهَن اليدوية، خاصة مهن البناء، وإلى الحرف الخاصة بالفن الأهلي، أما في البادية، فيُوجَّه التعليم نحو الفلاحة...، وأما المدن الشاطئية، فسيوجَّه نحو الصيد البحري والملاحة[٩].

فحسب رؤية "هاردي" فالمغاربة المسلمون ثلاث طبقاتٍ: طبقة الأعيان، وطبقة سكان المدن "الجهال"، ثم القرويون المنعزلون، الأكثر فقرًا وجهلًا! ويعطي "مارتي" رؤيةً تفصيلية لهذه الطبقات الثلاث والمنتمين إليها، فيقول" :هناك انقسام طبقي واضح في المغرب...؛ ففي أسفل السُّلَّم هناك الجماعات الدنيا، نصف مستعبدة ونصف مسخَّرة...، ثم هناك الشعب: فلاحون، ورعاة...، ثم هناك البرجوازية التجارية والقروية، وأخيرًا هناك في أعلى السُّلَّم "رجال المخزن"...، ورجال الدين[١٠]. وينبغي أن يكون لكلِّ طبقة تعليمُها الخاص، ومدارسها الخاصة بها، وموادُّها التي تناسب وضعيتَها الاجتماعية، وليس مِن المناسب أبدًا - كما يرى مارتي - أن تختلط هذه الطبقاتُ وجوديًّا وتعليميًّا ببعضها البعض.

و"يستطرد هاردي" لبيان الطريقة التي سيتم الاستفادة بها من المدارس الطبقية المخصصة للمسلمين، ومدى جدوى المواد المقرَّرة لتحقيق ذلك، فيقول: "إن أكثر ما يجب أن نهتمَّ به هو أن نحرِصَ على ألَّا تصنع لنا المدارس الأهلية رجالًا صالحين لكل شيء، ولا يصلحون لشيء، يجب أن يجد التلميذ بمجرد خروجه من المدرسة عملًا يناسب التكوين الذي تلقَّاه؛ حتى لا يكون من جملة أولئك العارفين المزيفين، أولئك اللا منتمون طبقيًّا، العاجزون عن القيام بعمل مفيد، والذين تنحصر

مهمتهم في المطالبة، هؤلاء الذين عمِلوا على جعل التعليم الأهلي يصبح منبعًا للاضطراب الاجتماعي.[١١]"

ولا بد من تسجيلِ ملاحظة بخصوص كلام (هاردي)، وهي توجُّسه مِن تحوُّل هذه المدارس الأهلية من إنتاج "آلات بشرية" تخدم مصلحة المستعمر وسياساته، إلى خريجين ذوي توجُّهات ثورية، "مهمتهم المطالبة"، فيجب أن يبقي التعليم خاليًا من الجانب القيمي، ومما من شأنه أن يعكر صفو السياسة الاستعمارية، أو يقف حاجزًا أمامها وعائقًا لاستقرارها! وهذا التوجُّس لم يكن خاصًّا بهاردي فحسب، بل هو عامٌّ عند السلطات الاستعمارية، يقول "مارتي" معبرًا عن نفس التوجه: "وإذًا فيجب ألَّا نهتمَّ بالكم، يجب ألا نصنع في المغرب سنةً بعد أخرى وبشكل مطَّرد - وعلى حساب مصلحة المجتمع المغربي ومصلحة الإمبراطورية الفَرنسية - رجالًا يُنمِّي فيهم التعليم أذواقًا وحاجات وآمالًا لن يقدروا هم على إرضائها بأنفسهم، ولن تقدر الحماية ولا المخزن، ولا المستعمرة، ولا الاقتصاد المغربي على تحقيقها لهم[١٢]".

ومن المهم جدًّا عند" مارتي "أن يكونَ للسياسة التعليمية في المغرب سقفٌ، وأن يكون "تحديث المغاربة" في مجال التعليم مرتبطًا بتحقيق الأهداف الاستعمارية الفَرنسية، ولا يتجاوزها إلى أبعد من ذلك، فليس المطلوب إذًا تخريجُ طبقات متعلمة واعية، بل مجرد تعليم مختلف الطبقات ليسخَّروا لخدمة فرنسا، وعليه؛ فإن أيَّ تطوير للوعي يعدُّ مخاطرة كبيرة في سياسة المستعمِر، فالتطوير المستمر يعني - حسب هاردي - "صناعة رجال ينمي فيه التعليم أذواقًا وحاجات وآمالًا"، لن تقدر ولن تقبل الحماية توفيرها؛ لأن ذلك سيكون ضد مصلحة فرنسا الاقتصادية والسياسة في المغرب.

لقد تم في هذا السياق الاهتمامُ البالغ بتطوير جامعة القرويين، وهو ما يظهر للوهلة الأولى بعيدًا عن النهج الفرنسي المتَّبع إزاء التعليم الأصيل ومبادئه الإسلامية ولُغة تدريسه، خصوصًا إذا ما تم استصحاب تصريح "هاردي" حول الوقوف بصرامة في وجه الفقهاء الذين يقِفون عقبة في ولوج طلبة المدارس "البربرية - الفَرنسية"، لكن ذلك لم يكن خارج السياق العامِّ، ولم يكن استثناءً، بل تم بتناسق شديد مع رؤية سلطات الاستعمار للأهداف التي ينبغي أن يحققها التعليم المغربي، وإبعاد أي عامل مشوش على تحقيقها أو مبطئ لسيرها العادي.

يُوضِّح المستشرق الفَرنسي "بيكي" ذلك مؤكدًا على أن هذا "الإصلاح" لا يتعارض ومصالح فَرنسا في المغرب، بل العكس، يجنِّبها خطرًا أكبر وشرًّا أعظم، فيقول: "لقد احتفظت الحماية، دون تردد، بالتعليم القائم في هذه المساجد، وعمِلتْ على ترميمه، وعلى إعادة جامعة فاس إلى سابق إشراقها، ومِن المؤكد أنه من مصلحتنا ألا يذهب المغاربة للبحث عن هذا النوع من التعليم في الخارج؛ كالجامع المشهور جامع الأزهر بالقاهرة.[١٣]" فأكبر هواجس فرنسا إمكانية احتكاك هؤلاء الطلبة بالحركات التحرُّرية القومية والإسلامية في مصر، أو أن يتم تزويدهم بجرعات ثقافية إنجليزية منتشرة آنذاك في مصر، وإنجلترا هي الغريم التقليدي للثقافة الفَرنسية، والمنافس على المستعمرات!

يضيف "مارتي" شارحًا المصلحة في إعادة ترميم القرويين متسائلًا:"ألا يعودون - الطلبة المغاربة - مزوَّدين بميول إنجليزية أو بروح النهضة الإسلامية والتعصب الوطني؟.[١٤]"

ويذهب "مارتي" بعيدًا حين يُقرِّر أن مما ينبغي على فرنسا أن تجعل نصب أعينِها ألا تقع فيما وقع فيه الإنجليز، فيتم إرسال بعثات من الطلاب المغاربة - خصوصًا من مدارس الأعيان - إلى فرنسا، وأنه ينبغي توفير الموادِّ المدروسة في المدارس المغربية؛ لأنهم سيتلقَّون في المقاهي وفي الجامعات وفي الشوارع آراء ومبادئ ثورية. أما فيما يخص المواد العامة ولُغة التدريس، فيقول "هاردي" :"إنها بطبيعة الحال اللُّغة الفَرنسية، التي بواسطتها سنتمكَّن من ربط تلاميذنا - المغاربة - بفرنسا، والتاريخ الذي يجب أن يعطيهم فكرة عن عظمة فرنسا.[١٥]"

"إن اللُّغة الفَرنسية في اعتبار (هاردي) هي أكثر من لُغة للتدريس - بالمعنى الديداكتيكي البيداغوجي - إنها أيديولوجية تعمل على ربط المغاربة بفرنسا وبتاريخها العظيم / المجيد، ومن هذه الأمجاد والعظمة التي لا تُدرَّس طبعًا الاستعمارُ الألماني لفرنسا، ودخول هتلر إلى قصر الإليزيه، وإلقاء خطابه التاريخي، إن اللغة الفَرنسية هي سلاح المعركة إذًا، ولربح الرهان لا بد من حسن استعمال هذا السلاح، حتى ولو تطلَّب الأمر اقتلاع الشعوب والأمم من امتدادها الحضاري، والرمي بها في مزابل التاريخ؛ إن الغاية تبرر الوسيلة؛ حسب جورج هاردي.[١٦]"

ويتضح جليًّا مدى حرص "هاردي" وغيرِه من المستشرِقين الاستعمارِيين على ربط أي إجراء دقَّ أو جلَّ بالهدف الأساس، وهو خدمة فَرنسا، والطبيعي أن يتم ذلك على حساب اللغة

العربية التي تم حصارها في المدارس العتيقة والتعليم الأصيل المضيَّق عليه أصلًا؛ إذ كان يتم" إغلاق كتاتيب تعليمِ القرآن، ومُحاربة معلِّمي القرآن، والتقليص من حصص تعليم العربية في المدارس الرسمية المزدوجة، وإحداث مدارس فَرنسية خالصةٍ، تابعة للبعثة التعليمية الفَرنسية، وخاضعة لوزارة التعليم الفَرنسية مباشرة، أو مدارس كاثوليكية تحت مُسمَّيات واضحة أو مُتستِّرة، ومدارس أخرى فَرنسية بربرية، كما عَمِلَتْ على إحداث معهد عالٍ لتعليم الدارجة المغربية؛ لتخريج الأطر والمساعدين القادرين على مخاطبة المواطنين بالدارجة عِوَضَ الفصحى.[١٧]"

أي إن السياسة اللُّغوية المعتمدة ذات شقَّينِ أساسين: أولهما: القضاء على اللُّغة العربية الفصحى، ثم إحلال اللغة الفَرنسية محلها، غير أنه لا بد لنا من تسجيل ملاحظة مهمة حول هذا التغير اللُّغوي الذي كانت تسعى فرنسا إليه في تعاطيها مع النظام التعليمي المغربي، وهو مركزية اللُّغة الدارجة - التي سُمِّيت حينها بالمغربية - في هذا المشروع الاستعماري، ذلك أن المحتل الفَرنسي سعى جاهدًا إلى أن تتبوأ اللغة الدارجة مكانةً استعمالية كبرى، كما ورد فيما ذكره الباحث سلمان بونعمان من إنشاء فرنسا معهدًا عاليًا لتعليم الدارجة المغربية؛ لتخريج الأطر والمساعدين القادرين على مخاطبة المواطنين بالدارجة، عِوَضًا عن الفصحى. "فإن سياسة فرنسا تُجاهَ اللغة العربية الفصحى كانت واضحةً لا لبس فيها، وهي محاربةُ هذه اللغة بكل وسيلة ممكنة، وقطعُ الصلة بكل ما يؤدي إلى نشرها وتعلُّمها؛ لأن الهدف المرسوم هو تطويرُ المغاربة - والبربر منهم بصفة خاصة - خارجَ إطار هذه اللغة والانتماء للحضارة العربية الإسلامية".

وما سُمِّي آنذاك بالتعليم الإسلامي لم يحمل مِن هذا الوصف غير الاسم، وقبل سنة ١٩٤٤"لم يكن هناك أي اهتمام باللغة العربية والمواد الإسلامية، فلقد كانت اللغة العربية والثقافة الإسلامية ممنوعةً أو شبه ممنوعة، إلا ما كان مِن بعض الدروس الدينية في مدارس الأعيان، أما بعد سنة ١٩٤٤م، فقد تم تخصيص ١٠ ساعات للغة العربية والمواد الدينية، مقابل ٢٠ ساعة للفَرنسية والمواد المدروسة، وفي الابتدائي ظلَّت حصص العربية هزيلةً مملة، غير خاضعة لأي توجيه أو مراقبة، فقد كانت طرائق التلقين تقليدية، وكان الأساتذة ضعفاء من جهة التكوين البيداغوجي، وفي الثانويات اعتُبِرت اللغة العربية لُغة ثانية، أما في "الليسيات"، التي كانت مدار نخبة بعد أن تم السماح بعد سنة ١٩٤٤ م للمغاربة بولوجها، فقد كانت العربية مادةً مهملة، مادتها قصص خرافية وحكايات تشوه المغرب وتاريخه. ومن جهة أخرى تم تقسيم سكان المغرب - بالنظر إلى الدين الذين ينتمون إليه - باعتبارهم ثلاثة كيانات غير متجانسة: المسلمون، واليهود، والأوربيون، وتم تخصيص نمط تعليم لكل طائفة من هذه الطوائف، وقد سبق الحديث عن التعليم المخصص للمغاربة المسلمين.

أما فيما يخص المدارس اليهودية، فإن أول ظهورها في المغرب كان قبل فرض الحماية، ليتم إنشاء حوالي ٢٠ مدرسة يهودية بتمويل من الرابطة الإسرائيلية العالَمية، ومنظمات يهودية أخرى في الفترة ما بين ١٨٦٢م إلى ١٩١١م، ولم يحتَجِ المستعمرُ إلى إدخال كثير من التغييرات على هذه المدارس، فقد فرضت اللجنة المركزية للرابطة الإسرائيلية العالَمية مقرَّرًا عامًّا في كل مدارسها، يعتمد على تعلُّم اللغات الأجنبية والتحدُّث بها بطلاقة، واعتماد اللُّغة الفَرنسية لغة تعليم، مع اعتماد اللغات الإنجليزية والإسبانية والإيطالية، والحساب والمواد التالية: الهندسة، والفيزياء، والكيمياء، بالإضافة إلى العِبْرية والتاريخ اليهودي، والتاريخ العام، والجغرافية[١٨].

ومما يثير الانتباهَ كون اليهود اعتمدوا مبكرًا في مدارسهم اللغة الفَرنسية لغةً أساسية، رغم أنهم في الأصل مواطنون مغاربة، ترجع جذور قسم منهم إلى وجود الفينيقيين في المغرب، وقسم آخر إلى ما بعد سقوط الأندلس؛ حيث هاجروا هم والمسلمون بعد الاضطهاد النصراني لهم، ولعل ذلك يرجع إلى كون اليهود ينظرون إلى أنفسهم كطائفة لا انتماء لها لهذا الوطن، ولا رابطة بينها وبين المغاربة المسلمين، فكانت هذه المدارس بعد الاستعمار نسخةً طبق الأصل من التعليم الأوربي، الذي كان بدوره يساير برامج التعليم الفَرنسية خطوة خطوة.

أما فيما يخص الأمازيغ يرى "ليوطي" أنه لا يمكن فرض اللغة الفَرنسية عليهم إلا بالقضاء على العربية وسلخهم من الإسلام؛ ليسهل بعد ذلك الانتقال من الأمازيغية للفَرنسية حسب تعبيره؛ فإنه يدرك شدة ارتباط الأمازيغ بالبُعْد الديني المتمثِّل في الإسلام، ومِن ثم التمسُّك بالبعد اللُّغوي المتمثل في العربية، فالحرب على العربية يتم باعتبارها أولًا عامل تجميع مجتمعي وربط أساسي للأمة بدينها، وثانيًا باعتبارها مانعًا يحول دون تبوُّء الفَرنسية المكانة العليا. وفي هذا الإطار تم إنشاء ما عُرِف بالمدارس البربرية - الفَرنسية، فبدأت سلطات الحماية مشروعًا لبناء هذه المدارس سنة ١٩٢٣ م، فأنشأت عدَّة مدارس في أكتوبر من السنة نفسها، في مناطق جبال الأطلس،

خاصة إيموزار، وعين الشكاك بناحية فاس وأزرو، وعين اللوح بناحية مكناس وخنيفرة والقباب، بالإضافة إلى مدرسة هرمومو بناحية تازة[١٩].

ويشرح "مارتي" هُويَّة هذا النوع من التعليم وأهدافه قائلًا: "لقد حصل الاتِّفاق بين إدارة التعليم العمومي وإدارة الشؤون الأهلية، وتحدَّدت بذلك مبادئ سياستِنا التعليمية البربرية، بكامل الدقة، إن الأمر يتعلَّق هنا بمدارس فَرنسية - بربرية، مدارس تضم صغار البربر، يتلقَّون فيها تعليمًا فَرنسيًّا محضًا، ويسيطر عليها اتجاه مهني، فلاحي بالخصوص، إن البرنامج الدراسي يشتمل على دراسة تطبيقية للغة الفَرنسية، لغة الحديث والكلام، بالإضافة إلى مبادئ الكتابة والحساب البسيط، ونُتَف من دروس الجغرافية والتاريخ، وقواعد النظافة، ودروس الأشياء...، إن أي شكل من أشكال تعليم العربية، إن أي تدخل من جانب الفقيه، إن أي مظهر من المظاهر الإسلامية - لن يجد مكانَه في هذه المدارس؛ بل سيُقصى بكل صرامة.

ويمكن تلخيص أهم معالم هذه المدارس فيما يلي:

- التعليم سيكون فَرنسيًّا محضًا.
- مجالات التدريس الأساسية هي المهن والفلاحة.
- اللغة التي ستدرس بها المقررات هي الفَرنسية فقط.
- اللغة العربية والحس الإسلامي مغيَّب بالكلية، بل ستواجه كلُّ محاولة للتدخل بصرامة.

ولم يتم حصر نظام التعليم هذا في المدارس الابتدائية فقط، بل تم تعميمه على المرحلة الثانوية والدراسات العليا أيضًا، فتم إنشاء ثانويات بربرية - فرنسية؛ كثانوية أزرو التي تم إنشاؤها سنة ١٩٢٧ م، والمدرسة العليا الفَرنسية البربرية سنة ١٩١٤م. غير أن نظام التعليم في عهد الحماية عامة، والمدارس البربرية - الفرنسية خاصة، عرف فشلًا ذريعًا وانهيارًا مدويًا؛ فمن مجموع المدارس البربرية - الفَرنسية، ظلت ثانوية أزرو الوحيدة المحافظة على طابعها غير العربي، وإلى حدود ١٩٤٨ م فقط. هذا السقوط والفشل بقدر ما كان مفرحًا ونصرًا للحركة الوطنية، بقدر ما خلف آثارًا كارثية على ساكنة الجبال، الذين حُرموا من التعليم نهائيًّا، خصوصًا أن السلطات الاستعمارية قد قامت بتصفية الكتاتيب القرآنية في سياق السياسة البربرية، وقد كانَتِ الملاذَ التعليمي الوحيد في هذه المناطق، ولم يكن الحال في البوادي المغربية بأحسن حالًا؛ إذ كانت هي الأخرى محرومةً من التعليم الحديث. وإذا علِمنا أن نسبة سكان البوادي والأرياف بلغت ٩٠ في المائة، يتضح لنا حجم الكارثة التعليمية التي تسبَّبت بها سلطات الحماية؛ أي إن نسبة غير المتمدرسين، أو الذين تلقوا تعليمًا ضحلًا، تتجاوز ٩٠ في المائة من مجموع الساكنة، باعتبار أن كثيرًا من البالغين سنَّ التمدرس لم يلتحقوا بالمدارس.

وقد عرَفت الفترةُ من ١٩٤٤ م فما بعد حراكًا وطنيًّا نشيطًا، وتحولت الحركة الوطنية من مجرد المطالبة بالإصلاح إلى الحديث عن الاستقلال، وقد كان لهذا الأمر أثرُه على التعليم؛ حيث عرَفت هذه الحقبة ظهورَ المدارس الخاصة العربية الوطنية، والتي كانت نوعًا من أنواع الممانعة ضد التعليم الذي وضعه المستعمر ومنافسة له، ولا بد من الإشارة أن التعليم في المدن أيضًا كان هزيلًا ضعيفًا، فلم تتجاوز نسبة المتمدرسين من البالغين سنَّ التمدرس في سنة ١٩٤٥ م ٢,٧ في المائة، وإنما وُصف بالأفضلية من جهة مقارنته بالتعليم في الأرياف والبوادي. والإشارة إلى غياب التعليم في البادية، يجب ألَّا يُفهم منه أن جماهير المدن كانت أحسن حظًّا في هذا الميدان، لقد بقي التعليم الفَرنسي في المغرب تعليمَ نخبة، ضيِّق الانتشار، قليل المردود.

التغيير الثاني الذي عرَفته هذه الحقبة هو سماحُ السلطات الفَرنسية بالولوج للمدارس الأوربية؛ حيث تم تخفيف شروط الولوج للطلبة المغاربة، ليتهافت الأعيان، وأبناء الطبقة البرجوازية والأرستقراطية على هذه المدارس؛ لأنها الوحيدة - إلى جانب اليهودية - التي كانت تقدِّم تعليمًا عصريًّا يضمن للمتخرجين فيه مستوى لائقًا، يمكِّنهم من متابعة دراستهم العالية، ليبلغ عدد التلاميذ المغاربة في هذه المدارس في السلك الثانوي ١٥٦٠، و٤٦٠٠ في السلك الابتدائي سنة ١٩٥٥، في حين لم تضم المدارس الثانوية المخصصة لأبناء المغاربة إلا ٤٢٣٣ بعد أن تحوَّلت المدارس الإسلامية لمدارس تلجُها الطبقة المتوسطة والفقيرة بعد هجرة أبناء الأعيان إلى المدارس الأوربية.

وقد عرَفت هذه الفترة تحولًا مهمًّا، وهو السماح بإنشاء المدارس الوطنية الخاصة، والتي كانت تُقدِّم محتوًى وطنيًّا يولِي القيم الإسلامية والوطنية والعربية أهميةً كبرى، وقد استقطبت جموعًا واسعة من أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة، وصارت هذه المدارس تتطور باستمرار وباطِّراد رغم التضييقات التي كانت تطول أطرها من معلمين ومديرين. ولئن كانت فرنسا قد وجدَتْ في فترة الحماية نظامًا تعليميًّا تقليديًّا ضعيفًا، كان من الممكن أن يتطوَّر ويتقدم لو هيِّئت له الإمكانات والظروف المناسبة، فإنها غداةَ الاستقلال تركت

نظامًا تربويًّا هزيلًا متهالكًا، ظلت الطبقةُ سمتَه البارزة، وأصبح لدينا ثلاثة أنواع من التعليم:

الأول: تعليم عمومي يلجه أبناء الطبقة الدنيا، ضعيف المحتوى والطرائق، يعاني مشاكل بِنْيَوية خطيرة، وظل رغم ضعفه متمسكًا بالطابع الفرنكوفوني.

الثاني: تعليم خاص كان من المفروض أن يكون نواةً لتعليم مغربي وطني مستقلٍّ، غير أنه سقط تحت الضغوط التِّجارية في محاولة مضاهاة التعليم الأوربي، فلم يحتَفِظ بطابعه الوطني المغربي، ولم يكتسب القيمة العلمية التي كان يرجوها، فظل مترنحًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، على أن الجرعة الفرنكوفونية كانت أشد تركيزًا في هذا التعليم من مثيله العام.

الثالث: تعليم أوربي حديث، تتوفر فيها الشروط البيداغوجية والديداكتيكية، لاكتساب القدرات المؤهلة لولوج المدارس العليا والجامعات العلمية المتخصصة، يلجه القلة الأوربيون وأبناء الأعيان والعِلية من القوم.

والغريب أن أقطاب الحركة الوطنية كانوا ممن تسابقوا ليستفيدَ أبناؤهم مِن هذا التعليم رغبةً في تأهيلهم لإتمام دراساتهم العليا، وبقيت هذه المدارس تابعةً لفرنسا حتى بعد الاستقلال، وكأنها مدارس فَرنسية في أرض المغرب لا تربطها صلة به، بل تخضع مباشرة للقنصليات والسفارات الأجنبية.

وبالرجوع إلى مضمون المجلة وفيما له الصلة الوثيقة بالمرحلة الكولونيالية نجد هناك ثلاث مقالات مست المسألة التعليمية بالمغرب خلال العهد الاستعماري بشكل كبير وهي:

(٢/٣) ١-نخبة بداية الحماية والمسألة التعليمية لمحمد معروف الدفالي، وهو أستاذ باحث بكلية الآداب عين الشق –الدار البيضاء- تمكن من خلال مقاله الذي تضمن عشر صفحات من رصد موقف الإصلاحيين من النظام التعليمي الجديد إذ أنه إزاء إصلاحات تلك المرحلة وإزاء النظام التعليمي الوافد، توزعت النخبة بين مواقف معارضة وأخرى مؤيدة تمجد العلم والمعرفة والتعليم منتقدة واقع التعليم القديم حيث فرض التعليم الوافد مع الحماية بنظامه ومناهجه، برامجه، ومضامينه، على النخبة قيد الدراسة المقارنة بينه وبين سالفه، وهي المقارنة التي أبرزت للإصلاحيين جدة التعليم الوافد ونفعيته، وكشفت عمق تأخر نظام التعليم المغربي [٢٠] كما ميز الكاتب في معرض حديثه عن التعليم بين ثلاثة أنواع من التعليم أفرزتها السياسة الفرنسية وهي:

١-تعليم فرنسي: وهو نسخة من التعليم الذي كان سائدًا بفرنسا وقتذاك.

٢-تعليم عبري: وهو تعليم فرنسي مضاف إليه حصص لتدريس اللغة العبرية وثقافتها.

٣-تعليم فرنسي إسلامي: خاص بأبناء المغاربة المسلمون، وكانت مدارسه موزعة بين مدارس حضرية وأخرى قروية لكل منها طبيعتها، ومناهجها وطرائق تدريسها.

(٢/٣) ٢-اليسار الفرنسي والمسألة التعليمية عهد الحماية لـ georges Oved وترجمة نوال متزكي، أستاذة باحثة بكلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، عملت على ترجمة هذا المنتوج العلمي في تسع صفحات تمكنت من خلالها تسليط الضوء على التمدرس والبرامج الذين تضاربت بشأنهما المواقف في صفوف الاشتراكيين بين معارض ومؤيد لمسألة الإصلاح، وخير موقف نسوقه هنا يرجع للاشتراكي Benistant " ليس لدينا الحق، فصل المغاربة عن ثقافتهم ولغتهم، لفسح المجال لحضارة أخرى، لإدماجهم فيها. لكن يجب تسهيل تطورهم داخل إطارهم الخاص بهم" لكنه الى جانب قليلين شكلوا أقلية والنقابة لم تستطع اتخاذ موقف واضح بخصوص تعليم اللغة العربية. كما عرض المقال لنقط الالتقاء والاختلاف مع الوطنين الذين كانوا يشتكون من برامج التدريس والحيز الضيق الممنوح للتاريخ والحضارة المغربية، واهتموا أيضًا بفتح مدارس حرة لنشر أصول الثقافة العربية لم يتعاطف معها اليسار الفرنسي رغم علمانيته بسبب تدريسها للعربية والقرآن[٢١].

(٢/٣) ٣-التعليم بمدرسة الدار البيضاء العسكرية بمكناس على يد الحماية (١٩١٨-١٩٥٦) لحسنة مازي وهي باحثة من تازة، إذ أنه بالموازاة مع التعليم في المدارس، خلقت إدارة الحماية التعليم والتكوين المهني الذي استقطب تلاميذه من المدارس بعد ملاحظة ميولاتهم لحرفة معينة، كما حظي تكوين الجنود باهتمام الإقامة العامة بالمغرب، فتم تأسيس مدرسة لتكوين الضباط المغاربة اتخذت من قصر الدار البيضاء بمكناس مقرا لها. وهكذا تناولت الباحثة دوافع تأسيس هذه المدرسة والاحتياطات المنهجية في التخطيط لإنشاء هذه المدرسة كالحفاظ على التقاليد ووضع شروط دقيقة لاختيار التلاميذ من أبرزها الانتماء الأسري، وخلصت الكاتبة الى أن المدرسة العسكرية تمكنت من تحقيق كل الأهداف التي سطرتها عسكريا وسياسيا، حيث تخرج منها ضباط كانوا همزة

وصل في العلاقات المغربية الفرنسية، لكنها في ذات الوقت لم تتمكن من تحقيق كل ما كان يطمح إليه ليوطي وهو ضمان ولاء التلاميذ الضباط التام لدولة الحماية، واستمرت المدرسة العسكرية في أداء مهمتها في تكوين الضباط المغاربة في عهد الاستقلال.

خَاتِمَةٌ

هكذا وعلى إثر معاهدة فاس بتاريخ ٣٠ مارس١٩١٢م، دخل المغرب محطة جديدة ووازنة في تاريخه، ألا وهي عهد الحماية الفرنسية، فظهرت بوادر المدرسة العصرية على المنوال المتعارف عليه الآن. إلا أن المدرسة التي أنشأها وهيمن عليها الفرنسيون في هذه المرحلة، لم تكن لتخدم إلا أجندة أملتها النوايا الاستعمارية البراغماتية للمحتل الفرنسي.

وإذا كان ظهور المدرسة بالجمهورية الفرنسية راجعًا إلى أسباب سياسية وأيديولوجية مرتبطة بالحرص على نشر قيم العلمانية في المجتمع الفرنسي، وذلك في إطار التضييق على الفكر الديني للكنيسة التي كانت تحتكر الفعل التربوي، وإذا كان ظهور المدرسة الأمريكية استجابة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، كالتفكير في جسر هوة التواصل بين مختلف فئات المجتمع[٢٢]، فإن مشروع المدرسة بالمغرب في هذه المرحلة لم يكن نابعا من قناعات ذاتية أو حاجيات المجتمع المغربي، بل كان هذا المشروع بمثابة خطوة ضمن تنفيذ مخططات المستعمر الفرنسي بالمغرب، لذلك فإنه يمكن الحديث عن عدة أهداف كان المحتل يرمي إليها من وراء إنشاء نظام ظاهره الرغبة في التعليم والتثقيف، كخدمة المشروع الفرانكفوني من طرف سلطات الحماية من خلال المدرسة الكولونيالية، وتكريس الطبقية داخل المجتمع على أساس تعزيز الطبقية وتكريس القطيعة بين مختلف فئاته لاعتبارات ثقافية، أو إثنية، أو اجتماعية أو لغوية.

وكان هذا الهدف واضحًا أيضًا في استراتيجياتهم، إذ صرح «هاردي» الذي كان مديرا للتعليم بالمغرب آنذاك، بقوله: «نحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب. الأول يُفتح في وجه أرستقراطية مثقفة في الجملة، متحضرة مهذبة، ولكنها أرستقراطية توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير العلوم الوسيطة (القرون الوسطى)، وأصبحت مهددة في وجودها المادي بسبب إهمالها للأساليب الاقتصادية الحديثة نتيجة اللامبالاة من جانبها. إن التعليم الذي سيقدَّم لهذه النخبة الاجتماعية، تعليمٌ طبقي يهدف إلى تكوينها تكوينا منظما.

الهدف الثالث: التطويع أو التجهيل إن ذلك التعليم الكولونيالي المبني على تكريس النخبوية، قضى على حق طائفة واسعة من المغاربة في التعليم النظامي، حيث كان الكثير منهم -ربما من باب الاحتراز للهوية الوطنية- يقاطعون التعلم في المدارس التي أنشأها المحتل الفرنسي حينئذ، إذ لم يكن يتجاوز عدد التلاميذ المغاربة المنخرطين في التعليم الفرنسي سنة ١٩٣٧ حوالي ١٨,٨٨٠ تلميذًا، بينما كان سكان المغرب آنذاك حوالي ستة ملايين نسمة٧. يقول محمد عابد الجابري مؤكدا على هذا المعنى: "«إن الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب المغربي قد بقيت طول عهد الحماية بدون تعليم، وإذا كان هذا يرجع بالدرجة الأولى إلى تخطيط رجال الحماية، فهو يعود كذلك إلى مقاطعة الشعب المغربي للمدارس التي أنشأتها فرنسا بالمغرب."

إن التعليم تحت نظام الحماية بسياسته الطائفية التي كان ينتهجها، كان يصبو إلى أحد شيئين، إما أن تحظى بحقك في التعليم، حتى إذا تعلمت وتخرجت كنت من عملاء المستعمر الذين يسعون معه إلى تنفيذ مخططاته في البلاد، وإما أن تُحرَم هذا الحق الحيوي. فقد كانت سلطات الحماية تسعى إما إلى تطويع النخبة من المواطنين وعزلهم عن وطنيتهم بالانخراط في سلك التعليم، ثم توظيفهم لخدمة المشروع الاستعماري، وإما إلى حرمانهم من حقهم في التعلم، ليظلوا رازحين تحت الأمية القاتلة التي تجعلهم -ربما-غير واعين بمخطط المستعمر. الأخطر في ذلك التعليم الفئوي أنه يذكي الطائفية بين فئات المجتمع، حيث إن الطائفة المقاطعة للتعليم الفرنسي لابد وأنها ستنظر إلى النخبة المنخرطة في هذا التعليم على أنهم خونة مرتدون عن وطنيتهم، متنكرون لأصولهم ومقومات هويتهم، فهم متورطون في تهمة العمالة لفرنسا، أو ما يسمى في القاموس السياسي المعاصر «الخيانة العظمى». فسلطات الحماية بتعليمها الطائفي ذاك لابد وأن تحقق أحد المطمعين، إما التمكن من مسخ الهوية عبر تخريج أطر مغاربة يسارعون في تنفيذ نواياها الاستعمارية عن وعي أو غير وعي، وإما ضرب حصار الأمية على المقاطعين، ولا يضرها أيَّ ذَيْنِكَ الهدفين حازت.

ونافلة القول، تمكنا من خلال هذا المقال المتواضع من تسلط الضوء على التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب عن طريق قراءة في مجلة أمل التاريخية من خلال الأعداد ٢٨-٢٩-٣٠. هذه القراءة مكنتنا من السفر عبر العصور التاريخية من قديم وسيط فحديث ثم معاصر بغية رصد واقع التعليم وتطوراته عبر الزمن، ومن جهة أخرى إعادة النبش في معطيات ذات قيمة علمية كبيرة، مكنتنا من وضع مقارنة بين الماضي والحاضر التعليمي وهذا لا يتأتى لجميع التخصصات لكنه ليس بالعسير على تخصص كالتاريخ يُمكننا من معرفة الماضي لفهم الحاضر واستكشاف المستقبل، وهو أمر تجلى في تحليلنا الذي كانت هذه هي مراميه الكبرى كما أن هذه هي مهمة الكتابة التاريخية الحالية التي تجعل من الزمن التاريخي زمنًا واحدًا غير منفصل وتجعل من البحث التاريخي بحث متحرك غير ثابت قادر على إعطاء الحلول للأزمات.

الاحالات المرجعية:

(١) **الدور التاريخي للمدرسة في التعليم بالمغرب الوسيط**، أسكان الحسين، مجلة أمل، العدد ٢٨-٢٩ ص ٢٩.

(٢) **الدراسة والتدريس بمدرسة تامكروت**، أحمد البوزيدي، مجلة أمل، ع ٢٨-٢٩ ص ٧٠.

(٣) **التنظير للتعليم الاستعماري بالمغرب**، لمحمد اليزيدي، مجلة أمل ع ٢٨-٢٩ ص٨١

(٤) **التنظير للتعليم الاستعماري بالمغرب**، لمحمد اليزيدي ص٨٧.

(٥) **تعليم الطفل وعلاقته بوضعية الأسرة، القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)**، محماد لطيف، مجلة أمل العدد ٣٠ الصفحة ١٩.

(٦) نفسه ص ٢٣.

(٧) **الحياة التعليمية في سبتة الوسيطية (القرنان ٧-١٣/٨-١٤م)** لمحمد حقي. مجلة أمل العدد ٣٠ ص ٤٨

(٨) محمد عابد الجابري، **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب** ص: ١٨، دار النشر المغربية - الدار البيضاء.

(٩) نفسه، ص ١٨.

(١٠) نفسه، ص٢١.

(١١) **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب**، ص ٢٠-٢١.

(١٢) نفسه، ص٢٢.

(١٣) نفسه، ص ١٠.

(١٤) **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب**، م س ص١١.

(١٥) نفسه، ص٢٣.

(١٦) إدريس الجنادري، **الفرنكوفونية أيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولُغوي**. ٢٠١٠.

(١٧) سليمان بونعمان، **النهضة اللغوية ومخاطر سياسة التلهيج اللغوية**.

(١٨) أحمد السوالم، **ومضات من تاريخ التعليم اليهودي بالمغرب**، موقع: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

(١٩) **أضواء على مشكل التعليم بالمغرب** م س، ص٣١

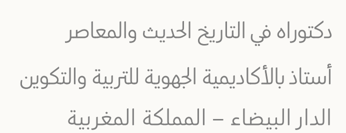
(٢٠) **نخبة بداية الحماية والمسألة التعليمية لمحمد معروف الدفالي.** مجلة أمل، ص٧٥.

(٢١) **اليسار الفرنسي والمسألة التعليمية** ترجمة نوال متزكي، مجلة أمل، ص٨٨.

(٢٢) عمر التاور، **منشورات مجلة المدرسة المغربية**، العدد: ٦ فبراير ٢٠١٤، (ص:٤٢-٤٣-٤٤).

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التتريك المخزني وآثاره على الوضع السياسي
في مغرب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

د.عبد الرحيم الربيعي
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
أستاذ بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخَّص

يعالج هذا المقال موضوع التتريك المخزني وآثاره على الوضع السياسي في مغرب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ويُعَدّ من المواضيع التي تستحق الدراسة والمعالجة التاريخية، باعتباره ظاهرة مغمورة ومسكوتًا عنها في أعماق التاريخ المغربي؛ لذلك بقي من الدراسات التي لم تلق الاهتمام الكافي من قبل المؤرخين والباحثين، والتي كان لها آثار كبيرة ومباشرة على الوضع السياسي والاقتصادي وكذا الاجتماعي؛ لذا سيهتم هذا المقال بنفض الغبار عن آثار التتريك المخزني على الوضع السياسي في مغرب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وما خلفته من آثار كارثية على المغرب والمغاربة، في ظل انعدام الثقة بين الرعية والحاكم، مما أدى في كثير من الأحيان إلى عدم استقرار نظام الحكم والإدارة، لتتوالى حالات الخلع للسلاطين ورجال المخزن تحت ذريعة الخيانة أو التماطل في أداء المهام، وهذا انعكس سلبًا على هيبة النظام السياسي للدولة. في ظل انعدام الثقة بين الرعية والحاكم، مما أدى في كثير من الأحيان إلى عدم استقرار نظام الحكم والإدارة، لتتوالى حالات الخلع للسلاطين ورجال المخزن تحت ذريعة الخيانة أو التماطل في أداء المهام، وهذا انعكس سلبا على هيبة النظام السياسي للدولة. وهو ما سنقوم بالتطرق إليه عبر ثنايا هذا المقال، وذلك اعتمادًا على مجموعة من الوثائق والمصادر والمراجع التاريخية التي تناولت الموضوع ولو بشكل ثانوي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٥	يوليو	٢٠٢٢
تـاريخ قبــول النشــر:	٠٨	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:
التتريك؛ المخزن؛ تاريخ المغرب الحديث؛ السلطة؛ الحماية الأجنبية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299550 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الرحيم الربيعي. "التتريك المخزني وآثاره على الوضع السياسي في مغرب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١١٧ – ١٢٨.

Corresponding author: rbiiabderrahim@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

خلف التتريك آثارًا سياسية بعيدة المدى، عادت على الدولة والمجتمع بنتائج سلبية أكثر من كونها إيجابية. بحيث انتشرت حركات مناهضة للحكم مطالبة بإسقاط النظام لأسباب لا تعد ولا تحصى، بعد فشل السلطة المخزنية في تحسين الأوضاع الاقتصادية الخانقة والمتردية ولجوئها لفرض ضرائب غير شرعية ومتتالية على السكان، والتي كانت تؤدي في الكثير من الأحيان إلى زعزعة الإدارة المركزية للدولة، عبر سلسلة من الأحداث المتصلة الحلقات، والتي أثرت على بعضها البعض، في ظل انعدام الثقة بين الرعية والحاكم، مما أدى في كثير من الأحيان إلى عدم استقرار نظام الحكم والإدارة، لتتوالى حالات الخلع للسلاطين ورجال المخزن تحت ذريعة الخيانة أو التماطل في أداء المهام، وهذا انعكس سلبًا على هيبة النظام السياسي للدولة.

ومما لا شك فيه أن سياسة التتريك، على الرغم من أثارها الإيجابية في تثبيت السلطة الحاكمة، كانت سلاحا ذا حدين على الحكام، إذ أدت في الكثير من الأحيان إلى زعزعة السلطة من خلال مجموعة من القوانين التي مهدت الطريق إلى انهيارها. ومن أبرز هذه القوانين، وضع ما يعرف بالحماية القنصلية التي منحت عدة امتيازات قانونية للرعايا المغاربة الذين أصبحوا من خلالها غير خاضعين للسلطة المخزنية، وغير مجبرين على أداء ضرائبها، وهذه كلها عوامل ساهمت في إضعاف هياكل الدولة وجرها إلى نظام الحماية، بعد سلسلة من الاتفاقيات التجارية المجحفة التي اكتسب الأوروبيون من خلالها مجموعة من الامتيازات التي عملت على تحويل جهاز المخزن إلى سلطة صورية، تطبق الإصلاحات المفروضة عليها من طرف الأجانب، والتي تخدم مصالحهم بالدرجة الأولى. وفي عهد الحماية أصبح الأمر أكثر وضوحا من خلال استثمار خيراته بصفة مباشرة، وليس بطرق ملتوية كما كان يحدث في القرن التاسع عشر(١).

أولاً: آثار التتريك المخزني في تثبيت السلطة

شكلت سياسة التتريك عبر تاريخ المغرب أداة فعالة في تثبيت السلطة واستمرارها، وذلك عبر خطوات ممنهجة اعتمدها المخزن كأسلوب لردع المخالفين وكل من حاول التطاول على السلطة. وفي هذا السياق نورد ما ذكره جوزف دي ليون (Joseph de Léon) بقوله: "كان مولاي إسماعيل يراقب بنفسه صناعة الخبز. ويأخذ عينات من أفران متعددة، فإذا وجدها من نوعية رديئة، أو دون الوزن الذي ينص عليه القانون، ضرب رقبة صاحب المخبزة عقابا له. وكان يتخذ نفس الإجراء مع تجار الفواكه. على أن المحتسب هو الذي كان يتعرض لعقوبة الإعدام، أو يخسر وظيفته وأملاكه، إذا كانت نوعية البضائع رديئة. زيادة على ذلك، كان السلطان يمارس مراقبته على كل ما يتعلق بالمواد الغذائية بواسطة العيون الذين يخبرونه بحالة البضائع، وكان الباشاوات والقواد يتحملون المسؤولية عن الغش والتدليس. في كل سنة يتم تحديد سعر الحبوب والفواكه تبعا لنوعية محصولها، ثم يعمد السلطان إلى بيع محاصيله بنصف الثمن لتخفيض السعر في الأسواق"(٢)، فكان الغلاء إذن هو المسؤول عن الأزمات الغذائية وليس الانعدام الكلي للحبوب.

من هنا تتجلى أهمية وجود جهاز مخزني قوي كعامل فعال لحماية الضعفاء من جشع المحتكرين. وبالفعل، فإن السلطان لم يكن يتردد في إنزال العقوبة الرادعة في هذا المجال. فعندما علم بأن أحد كبار الباشاوات لم يخرج سوى جزء من قمحه للسوق، أعطى مولاي إسماعيل، كما يخبرنا دي ليون (de Léon)، أوامره بتوثيقه من رجليه إلى دابة جرجرته عبر أزقة مكناس "إلى أن تمزق إربًا إربًا ووزع قمحه على الفقراء"(٣)، كأسلوب تم اتباعه لكسب ثقة رعاياه مع تثبيت واستقرار سلطته.

لكن في بعض الأحيان كان المخزن يحاول التقرب من الرعية، من خلال تتريك ممتلكاتهم وردها بعد مدة إلى أصحابها، أو إعفائهم من أداء الكلف والضرائب المخزنية، كأسلوب من الأساليب المتبعة في بدايات عهد سلطان جديد، وذلك بهدف تحسين صورة الحاكم عند الرعية. ويتضح ذلك من خلال إقدام مولاي إسماعيل سنة ١٦٨٥م على "إعادة نصف الزكاة لسكان توات وتيكورارين، جزاء لهم على طاعتهم وولائهم له، ثم ألغى مطالبتهم بالعشور تعويضا لهم عن ما خلفته قسوة حركة عامله أحمد بن علي الروسي على واحاتهم، إذ لم يتردد في تخريب قصورهم، وإجبارهم على أداء قنطار من المال نفقات يومية لجيشه، وقنطار في الأسبوع لفائدته"(٤)، وقد أدت هذه الطريقة في رد الممتلكات المتركة إلى استقرار وتثبيت السلطة وتحقيق رضى رعيته عنه؛ لهذا فقد وجد بعض السلاطين في التتريك المخزني ملاذا وموردًا رئيسًا لتثبيت سلطتهم، كما ساهم شيوخ وعلماء الدولة في تلميع صورة المخزن في شخص السلطان، حيث كانوا يوصون الناس على لزوم الطاعة للسلطان ويحضونهم على مساعدته في كل شيء "ويقولون

لهم سوف تندمون عليه إذ فقدتموه: والمرء ما دام حيا يستهان به ويعظم الرزء فيه حين يفتقد"[٥].

ومع مرور الزمن بدأت هذه السياسة تأخذ منعطفا آخر في تثبيت السلطة، خاصة عندما أدرك مولاي إسماعيل أهمية موارد بيت المال في استقرار الملك، وتثبيته عبر تكوين جيش قوي مضمون الولاء مع توفير مداخيل مالية للحفاظ على فعاليته وقوته، باعتباره "الضمانة الرئيسية لاستمرار المخزن"[٦]، ولامتلاك تلك القوة العسكرية الضخمة، كان على السلطان توفير مداخيل طائلة لتموينه وتجهيزه لتحقيق أهدافه وتثبيت سلطته، وكان الحل الذي لجأ إليه مولاي إسماعيل قاسيًا، تمثل في فرض نظام جبائي صارم على البوادي والمدن على حد سواء، باستحداث ضريبة النايبة المفروضة على القبائل بذريعة "توفير إمكانية لتحرير الثغور"[٧] عبر تكوين جيش نظامي قوي قادر على حماية المغرب، كما أرغم أهل فاس سنة ١٧٢١م وخاصة تجارها على دفع غرامات ثقيلة "لم يسلم منه أحد ولم يعرف له عدد، وخلت المدينة ولم يبق بها أحد من أهل اليسار"[٨]، وأمام هذا الوضع ظل مولاي إسماعيل مصرا على هدفه ومشروعه بتكوين جيش قوي بهدف تثبيت دعائم السلطة عبر "فرض نظام جبائي صارم"[٩] على الجميع، كما لجأ إلى تتريك ممتلكات رجال الدولة، باعتبار أن كل ما كان يوجد في حوزة خدامه من أموال وثروات زائدة على ما كان عندهم يوم توليتهم، هو في نهاية الأمر ملك للدولة، مادامت تلك الأمتعة والثروات قد جمعت من القبيلة وتكونت على حسابها[١٠]. كما قام بتقسيم التراب الوطني بين أبنائه لتثبيت دعائم السلطة، مع نهج سياسة صارمة بمعاقبة كل من امتنع عن الانخراط في ذلك.

ولا شك أن لهذا الفعل السياسي آثاره في تأمين الدولة من الداخل والخارج، مع فرض القوة والشراسة وعدم التراخي في تطبيق التعليمات السلطانية الصارمة. ويوضح مولاي إسماعيل ذلك في إحدى رسائله إلى ابنه المامون أن "الشراسة في الوالي هبة له يخافه بسببها القريب والبعيد، وينصف الناس، من الحقوق بعضهم من بعض اتقاء لها. فهي محمودة وإن لم تكن في الرجل طبعًا، فينبغي له أن يتطبع بها ويستعملها ليهابه الناس ويعملون بحسابه [...] واليوم حيث صرت بمنزله واحد منهم، فأي فائدة فيك وأي مزية لك وأي شيء يتقيك الناس لأجله، وعلى ماذا يؤثرك الناس على غيرك"[١١]. كما عاب السلطان العلوي (مولاي إسماعيل) على المامون في إطار مراقبة كيفية تسيير ولاياته، عن قيامه بتوظيفه لبعض القبائل العربية نظرا لكونها ليست أهلا للثقة، وأضرارها أكثر من منافعها، إذ خاطبه قائلا: "فأتكل على الله، لا تتكل على العرب، واعمل أصحابك الذين ينفعونك"[١٢].

هذه بعض سمات السياسة الداخلية، التي طبعتها شخصية مولاي إسماعيل ببصماتها، "وحرصت كل الحرص على الحفاظ على هيبة الدولة في كل المجالات لتحقيق الاستقرار السياسي المنشود"[١٣]، وهذا دومينيك بيسنو (D. Busnot) واحد من الدبلوماسيين الفرنسيين، والذي عاصر السلطان مولاي إسماعيل وحاول تشويه صورته في كتاباته، لكنه يعترف قائلاً: "وكان له عقل حاد وحاضر، كان يتنبأ بأفكار الذي يتحدث إليه، وأجوبته قصيرة ومركزة [...] يعرف دائما كيف يصل إلى هدفه"[١٤]، والحاصل أن مولاي إسماعيل "تمكن من توحيد المغرب تحت سلطانه وبث الأمن في جميع نواحيه"[١٥]، غير أن الحلول التي وضعها ومن أهمها إثقال السكان بالضرائب غير الشرعية، والتي تعد نوعا من أنواع التتريك غير المباشر لتهيئ جيش قوي ونظامي، كانت لها انعكاسات سلبية، بحيث "انهار ذلك الصرح الذي جاهد في بنائه مباشرة بعد وفاته"[١٦]، "بسبب تنازع أبنائه على الملك وتدخل جيش عبيد البخاري"[١٧] في شؤون الحكم. فهذا الجيش الذي كان يعتمد عليه مولاي إسماعيل في تثبيت دعائم الحكم المركزي وإحلال الأمن، سرعان ما أصبح بعد وفاته أداة لبث الفتن وتفكيك السلطة وإضعافها، إذ "أخذوا يتدخلون في تولية السلاطين وعزلهم"[١٨]؛ تحركهم في ذلك الإغراءات والمصالح المادية.

وازدادت الأزمة حدة بتدخل القبائل العربية والبربرية التي عانت من تعسف واستنزاف لممتلكاتها من طرف المخزن ورجالاته، وكانت وفاة السلطان مولاي إسماعيل فرصة مناسبة لإعلان تمردها و"التي كان لها دور خطير في هذا الصراع بمساندتها لهذا الطرف أو ذلك من الأمراء المتنازعين على الحكم أو القائمين به"[١٩]، وما رافقها من اضطرابات سياسية واقتصادية استمرت إلى حدود سنة ١٧٥٧م، وهي السنة التي تولى فيها سيدي محمد بن عبدالله الحكم. فكيف واجه مولاي محمد هذه الاضطرابات؟ وما هي السياسية التي اتخذها في تثبيت السلطة واستمرارها؟ وهل كان للتتريك نصيب في تثبيت السلطة في جو مشحون بالخيانة والغدر وانعدام الأمن؟

لما تولى سيدي محمد بن عبد الله دفة الحكم، كان العهد الذي قطعه في بداية عهده أنه سينقذ الناس من الخوف والبؤس والظلم، وسيحقق لهم الأمان والسلام، وسيعمل على تثبيت السلطة بالضرب بيد من حديد على كل من حاول المساس بأمن واستقرار البلاد، وبالتالي بدأت سنوات حكمه

بشن حملة تأديبية على قبائل لودايا سنة ١٧٥٩م وتمكن خلالها من اعتقال عدد كبير من أعيانهم وقوادهم، كما أمر الجيش بمصادرة ممتلكاتهم بفاس الجديدة[٢٠]، فصلحت أحوالهم ولم يعودوا بعد لما كانوا عليه من الغي والفساد[٢١]، ثم انتقل بإخضاع قبائل المغرب التي شقت عصا الطاعة[٢٢]، وهكذا بدل جيش مولاي محمد بن عبد الله أفضل ما لديه لإخضاع ما تبقى من البلاد بعدما خسر مئات القتلى.

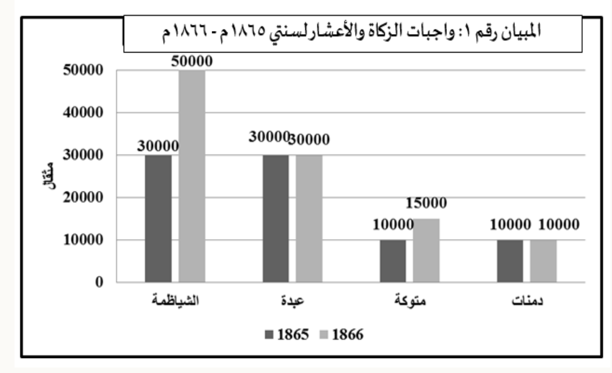
ولما استقام الأمر لمولاي سليمان، عمل هو الآخر على تثبيت سلطته وذلك بعد القضاء على إخوانه عبر تهدئة الأوضاع في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية من المملكة، فتوجه سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م إلى تازة[٢٣]، وغيرها من المناطق والأقاليم لإخماد بعض الفتن، كما عمل على مراجعة سياسته الجبائية في مناسبات عدة، "فأرهق القبائل بالمزيد من الضرائب والوظائف المالية"[٢٤]، التي شكلت نوعا من تتريك الممتلكات غير المباشرة؛ مما زاد من تمرد القبائل الذي كان "مستمرا ومتوازيا مع ما كانت تعرفه البلاد أحيانا من مجاعات وأوبئة تنال من قوة المخزن، وتشجع القبائل على الخروج عليه والتمرد على تعسف الحكام وترفض دفع الغرامات والضرائب؛ واستطاعت القبائل أن تكبد السلطان مولاي سليمان هزائم كبيرة تعرض فيها شخصه للخطر عدة مرات"[٢٥]، بعدما أجبر هذه القبائل على أداء مختلف أنواع الجبايات والتكاليف مع التعسف في استخلاصها، مما زاد من معاناتهم، بعد أن ساءت أحوالهم وتدنت مستويات معيشتهم.

وفي عام ١٨٢٤م خرجت أفخاذ اينولتان جنوب دمنات عن طاعة حاكمها، ولم تمض سنة على هذا التاريخ، حتى وقعت مسغبة عظيمة وغلاء شديد، تحدث عنهما صاحب " اختصار الابتسامة" بقوله: "وكانت فيها رحمة، حيث إن القبائل كانت في عتو من سوس إلى وجدة، فمهد الله للسلطان أمرهم، وسكنوا بسبب الجوع [...] وقد استمروا على الفساد وقطع الطرق سبع سنين، وما رجعوا للجادة إلا بقهر الجوع. ولقد عتوا على مولاي عبد الرحمن كعتوهم على عمه مولاي سليمان، وامتنعوا من الدخول في طاعته، وتعسر علاجهم لضعفه وقلة حاله وجنوده، وبقي ممنوعا من السير للحوز خائفا على نفسه وعساكره، حتى هيأ الله له جند الجوع فخلت به منازلهم، وهلكت خيلهم ومواشيهم، وقلت زروعهم، وجفت ضروعهم، وضعفت شوكتهم، وعظمت بليتهم، وماتت عتاتهم وأبطالهم. فعند ذلك تمهد الملك للمولى عبد الرحمن، وانقادت له الرعية لضعفها لا لقوته"[٢٦].

كما شهد المغرب بعد هذه الأزمة، انتعاشا اقتصاديا حاول من خلالها المخزن جباية بعض الضرائب سنة 1247هـ/١٨٣١م. لكن بعضا من ساكنة قبائل زعير، امتنعوا عن أدائها وحاولوا القضاء على المحلة المخزنية. وقد تحدث محمد داود عن هذه الحادثة قائلا: "فقتل منهم عدد كثير [...] وقبض على عدد كثير [...] ولولا أن الليل غشيهم لاستأصلت المحلة جميعهم"[٢٧]، فواجب الزكاة والأعشار كان ينعش بيت المال، ويمكن السلطان من دفع أجور الجند وغيرها.

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الكبير الذي كان لسياسة التتريك، عند التعرض لأزمات مالية حادة إما بسبب كوارث طبيعية ومجاعات أو حروب أو ما شابه ذلك، مما أدى بالمخزن إلى فرض ضغوط جبائية؛ خاصة بعد حرب تطوان سنة ١٨٦٠م، و مغارمها الثقيلة وما سبقتها من اتفاقيات تجارية أرهقت خزينة المغرب، وهو ما أكده السلطان محمد بن عبد الرحمن بقوله: "إنا دفعنا ما كان عندنا ببيت المال هنا بفاس وما كان ببيت مال مراكش حتى لم يبق تحت يدنا إلا ما نقضي به حاجة مع الجيش إذ لا يمكن صبرهم على الخدمة بالجوع والعري ومع ذلك فهو قليل لا يقنعون به"[٢٨]، وفرضت على جهازه المخزني واقعا ماليا وسياسيا صعبا، وغير مسبوق"[٢٩]، فاضطر السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى فرض مكوس على التجارة المارة بأبواب المدن لتغطية نفقات هذا الجيش سنة ١٨٦١م[٣٠].

شكلت هذه الضرائب حلا مؤقتا للأزمة الاقتصادية، وساهمت في تثبيت واستمرار الحكم المخزني وتقويته من خلال إخماد مجموعة من الثورات التي لا نهاية لها ضد النظام الحاكم، بفضل دعم بعض القبائل ماديا وبشريا للدفع عن وحدة المخزن واستمراره. لكن في بعض الأحيان كانت تشكل هذه القبائل خطرا على المخزن ورجالاتها، ومن بينها قبيلة زعير، التي كانت عنصرا مساندا لثورة قبائل الأطلس المتوسط التي تحدثنا عنها سابقا، وذلك عند محاولة جباية الضرائب الشرعية (الزكاة والأعشار).



المحمدي (علي)، **النسق المخزني...**، م. س، ص. ٤١.

ويبين لنا هذا المبيان أن المخزن اتخذ إجراءات صارمة تجاه كل من تماطل أو رفض تسديد الضرائب الشرعية. كما حدث في بداية عهد السلطان الحسن، الذي تولى الملك وسط ترحيب كبير من أهل الحل والعقد. لكن هذا الود لم يطل طويلا وسرعان ما وجد نفسه أمام تحديات كبيرة، أرغمته على التوجه إلى فاس بعد مضي أيام فقط على مبايعته للقضاء على خطر الفتنة التي تسبب فيها أرباب الحرف الذين تمردوا على الأمين المدني الحاج محمد بنيس المكلف بجباية الضرائب. فقام السلطان بقصف المدينة يوم 17 ماي 1874م، وتمكن من القضاء على هذه الفتنة، ليتقدم مجموعة من أعيان فاس للشفاعة عند السلطان فقبل شفاعتهم.

ولهذا فقد وجد بعض السلاطين في تريك الممتلكات بشكل مباشر أو غير مباشر عبر فرض ضرائب وتأديتها بالقوة، ملاذا وموردا رئيسيا لتثبيت سلطتهم. وخاصة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، مع التحكم في النسيج الاقتصادي كأبرز خيار راهن عليه الحاكم لتدعيم أسسه وضمان استمراريته، والتي ارتبطت في شكلها ومضمونها بمدى قدرته على احتواء القطاعات الحيوية، وخاصة التجارة باعتبارها "مصدرا للحصول على الإمكانيات المالية التي تعد عصب الحرب" [٣١]. لذا ارتبط إشعاع الكيان السياسي وامتداده في المجال، ارتباطًا عضويًا بقدرة مؤسسته العسكرية على مراقبة التجارة، وما دار في فلكها من أنشطة فلاحية وصناعية.

وعلى الرغم من هذه الآثار الإيجابية، نرى أن تريك الممتلكات كانت سلاحًا ذا حدين على المخزن، حيث أدت في كثير من الأحيان إلى زعزعة وضعه، وبالنهاية إلى فقدان هيبته ودخوله في أزمات سياسية كان لها آثار سلبية على جميع الأصعدة.

ثانيًا: آثار التريك المخزني على زعزعة نظام الحكم

كان لتريك الممتلكات آثاره الواضحة على الجسد المخزني، والتي كادت في كثير من الأحيان أن تعصف به لولا حنكة وحسن البداهة لبعض رجالاته، والتي وقفت كسد منيع للحيلولة دون تسرب داء الخيانة والفوضى المؤدية إلى الفتنة وانهيار الحكم، وهو ما كان يحدث دوما عند وفاة السلطان الحاكم، لتظهر تلك المكبوتات التي طالت شهورا وسنوات تنتظر الفرصة للانفجار في وجه السلطة المخزنية، حول ما كانت تعانيه الرعية من عنف مادي ونفسي، بسبب تلك السياسة الأحادية الجانب التي تدعو إلى تحقيق المصلحة الخاصة على حساب العامة الذين قال عنهم مولاي سليمان في إحدى رسائله "إنهم في عداد الأموات لا الأحياء"[٣٢].

غير أن هذه المقولة تعكس صورة غير صحيحة حول دور العامة في تطور أو تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للمغرب، والتي أدت عبر فترات تاريخية متكررة إلى فوضى وفتن، كادت في الكثير من الأحيان أن تهدم ذلك الجدار الفاصل بين السلطة والرعية. ومن أبرزها تلك السياسة التي نهجها مولاي إسماعيل عندما استخلف بعض أولاده على عدة أقاليم، ونقل أغلبهم رفقة أمهاتهم إلى تافيلالت، ومنحهم النخيل والأراضي الزراعية، كما قام سنة ١٧٠٠م بتوزيع ممالكه على من بقي منهم، وأناب آخرين حسب الحاجة[٣٣]، وهذه السياسة نهجها كل السلاطين منذ الدولة الإدريسة، ورغبة من مولاي إسماعيل "في معرفة من يحسن السيرة منهم ويكون أهلا لخلافته" [٣٤]، فإن ذلك أفضى إلى نتائج عكسية أدت إلى فوضى عمت المغرب بعد وفاته، بسبب سياسة الاستنزاف المادي للرعية عبر فرض ضرائب مجحفة، وما رافقها من تعنيف في استخلاصها تحت مظلة الجهاد لضمان الأمن والاستقرار للبلاد وللمجتمع. وبهذا يمكن القول إنه كلما ازداد وضع بيت المال سوءا، كلما ازدادت معه حدة تريك العامة، حتى أصبحت تفرض حسب أهواء النافذين في الجهاز المخزني، دون معرفة السبب في كثير من الأحيان.

ومما لا شك فيه أن السياسية التي نهجها مولاي إسماعيل، والتي تميزت بالصرامة تجاه المجتمع في كثير من الأحيان، أدت إلى اضطرابات وفوضى عقب وفاته والتي عرفت بأزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧م- ١٧٥٧م)، تزعزع من خلالها الكيان السياسي للدولة العلوية، وكانت فوضى لم يعرف الناس لها مثيلا، و"قاست الأمة بسبب تلك الاضطرابات فتنا وأهوالا"[٣٥]

عصفت بكل ما تم إنجازه خلال نصف قرن من حكم مولاي إسماعيل، وتراجعت أوضاع المجتمع إلى أسوأ مما كانت عليه، كما أضحى "الملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر جهدهم وما أكملوا نصفها مدة من نحو مائة سنة"(٣٦)، "وصار العرش بعد عظمته وجلاله ألعوبة في يد العبيد، فكانوا يولون ويعزلون من يشاؤون من أبناء السلطان"(٣٧). وبذلك انحرف الجيش عن الهدف الذي جند له؛ فبعد أن كان مصدر قوة الدولة أيام مولاي إسماعيل، أصبح عنوان تفكك السلطة المركزية (٣٨)، إلى الحد الذي شهدت فيه السنوات العشرون التي تلت وفاة مولاي إسماعيل، تنصيب اثني عشر سلطانا منهم ابنه عبد الله الذي تم تنصيبه ست مرات. وأصبح الشغل الشاغل لكل المتصارعين على الحكم تتريك الأموال بأي طريقة كانت، بما فيها الاقتراض التعسفي من التجار، والتسلط على أموال الناس، ليتمكن من الاحتفاظ بالعرش أو غزوه بحد السلاح(٣٩).

وخلال فترات الصراع هذه، تعرضت فاس والحواضر المغربية لهجمات الجيوش المتنازعة، وحرص كل من يصل إلى السلطة على جمع أكبر قدر من الأموال لدفع رواتب الجند والتجهيز للمعارك القادمة. وهذا ما أقدم عليه مولاي عبد الله بن إسماعيل حينما وجه حملة تأديبية لأهل فاس، الذين حرمهم من مستحقاتهم ورواتبهم. كما سعى إلى تتريك بساتينهم التابعة لهم، مما دفعهم إلى العصيان والتراجع عن بيعته وذلك بإغلاق أبواب المدينة، فعمد السلطان إلى محاصرة المدينة لمدة خمسة أشهر، قام خلالها بتخريب كل ما كان في أطرافها من بساتين وتهديم أسوارها، وقد أدى هذا الحصار إلى تعرض المدينة إلى مجاعة شديدة أجبرت سكان فاس على الاستسلام والرضوخ لأوامر السلطان بعد مقاومة مستميتة(٤٠)، واعتبر أن "طغيانهم ناتج عن امتلاكهم للمال الذي يفضي إلى الاستخفاف بالمملكة، وأن الحل يكمن في تجريدهم منه"(٤١)، ولم تستقر الأوضاع إلا بتولي محمد بن عبد الله الحكم، والذي سعى جاهدا للقضاء على الفتن الداخلية وإحلال الأمن والاستقرار من جديد.

لكن هذا الاستقرار الهش كانت بصمته البارزة التذبذب والتأرجح بين سلطان وآخر، وفي عموم هذه الحقبة وما قبلها نستنتج بأن إثقال كاهل القبائل المغربية بالضرائب بدعوى الجهاد، ينتج عنه قيام ثورات متعددة، وذلك لعدم قدرة الجيش المخزني على هزم الحاميات العسكرية المحمية المتواجدة في الثغور المحتلة، فيعود السلطان مجددا إلى فرض ضرائب جديدة، "لغرض التحضير للجهاد في سبيل الله لطرد الكفار. لكن التواجد الأجنبي يزداد يوما بعد يوم فيما ازداد فقدان الرعية لثقتها في السلطان"(٤٢)، مما يؤدي إلى زعزعة السلطة وتراجعها بشكل عام، ليصبح فرضها متوقفا على حملات عسكرية بالغة التكاليف.

هذا الأمر دفع بالمخزن إلى الضغط أكثر على القبائل الخاضعة، وهو الضغط الذي دفعها إلى التمرد أو التفكير فيه. هذه الوضعية ستتأزم بفعل الضغوط الأوروبية "التي كانت بدورها مسؤولة على إضعاف المخزن وعلى الركود الذي أصابه من خلال تدخلها في الشؤون الداخلية للمغرب وازدياد التنافس عليه" (٤٣)، في غياب قدرة المخزن على وضع حد للضغوط الخارجية وإيجاد حلول للمشاكل الداخلية، مما زاد من حدة وتفشي آفة الرشوة في أوساط الوزراء، لتمتد إلى القواد والشيوخ، وأصبح هؤلاء يأخذون أموال الناس جورًا بعدما دفعوا أموالاً كثيرة وقتما كانوا يبحثون عن المناصب، فيصرفون همتهم في "استرجاع ما دفعوه بغصب أموال الشعب وهكذا تضعضعت أسس الدولة"(٤٤)، الشيء الذي أدى بالحسن إلى تقبل الإصلاح المقترح للنهوض بالمغرب خوفًا من انهياره. وفي الوقت الذي كانت تعاني فيه خزينة الدولة من إفلاس وخصاص، نجد السلطان يسرف الملايين في البناء والتزويق بدل التقشف والبحث عن مصادر جديدة لتزكية بيت المال؛ لكن هناك أدلة أخرى تبرز تناقض السلطان مع رغبته في الإصلاح، "إذ في الوقت الذي أمكن تسجيل ارتفاع في المصاريف المتعلقة بشراء الأمتعة من أوروبا تماشيا مع الإصلاح"(٤٥)، يقدم الحسن على بناء أفخم القصور التي قل نظيرها في المغرب.

ويكفي لإبراز هذه الظاهرة أن نسوق مثالا ورد في كتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" يتعلق ببناء القصور؛ فقد بنى الدار العالية بفاس وفيها "قبة فارهة فائقة الحسن بديعة الجمال، يقال: إنه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد باشبيلية" (٤٦)، أما بناء الدار الكبرى فقد كان "بإزاء القبة وهي من عجائب الدنيا [...] في تنجيدها وتنميقها، وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزري بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب. وجلب لقبابها الأبواب من بلاد الروم ويقال إن ثمن أحد الأبواب خمسة عشر ألفريال، مسامره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التخريم والنقش ما يدهش الفكر ويحير النظر وباقي الأبواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب، وبها خوخات مركبة بهيئة بديعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الأبصار، وجلب

لذلك من الأثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال، وفيها من الفرش والحائطيات المزخرفة مالا يدرى ثمنه ولا يعرف معدنه وموطنه، إلى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البديعة الصنعة والرصف"[٤٧]، أما مصاريف السلطان فقد قدرها بنفسه بخمسة عشر مليون بسيطة فضية، منها "مليون ونصف خاصة بالسلطان وحرسه، وثمانمائة وخمسون ألف بسيطة لأقربائه القاطنين بفاس ومراكش والرباط" [٤٨]. وقد تبعه على هذا المنوال عدد من الوزراء وكبار التجار، بتشييد الدور الفخمة ولباس الأثواب الرفيعة.

هذه الأمثلة في اعتقادنا، كافية للقول بأن الحسن كان معارضا للإصلاح من الناحية العملية، لأن الإصلاحات كانت في حاجة ماسة إلى الأموال وإلى سياسة تقشفية عوض التبذير المفرط. ولما توفي الحسن عام ١٨٩٤م، اتضح أن ما حققه وبناه في الميدان السياسي سينهار بعد فترة وجيزة، لأنه لم يعمل أكثر في إطالة عمر سلطة هي في طريقها للزوال، و"إن ما ظهر للعيان مما حققه، ما هو في الحقيقة سوى مظاهر كاذبة"[٤٩]، لتقوم قبائل الحوز بالثورة على عمالها الذين كانوا أعمدة الهيكل المخزني في عهد السلطان الراحل، فالقبائل قد "انتظرت وفاة السلطان للقيام بثورتها"[٥٠]، و"كان من بين المنتفضين قبائل اينولتان"[٥١] التي ثارت واشتعلت فيها نار الفتنة، بسبب "الغرامة والتسخير وإهدار الكرامة [...]"[٥٢].

وبعدها اشتعلت نار الفتنة بالشاوية وهددت الدار البيضاء. وفي الوقت نفسه ثارت دكالة وهددت الجديدة. ثم جاء دور الرحامنة[٥٣] سنة ١٨٩٤م بزعامة القائد بن الطاهر، وفي هذا الإطار احتفظت الذاكرة الشعبية بمجموعة من القصائد الزجلية التي تؤرخ لهذه المرحلة من تاريخ المغرب، والتي تعكس بدايات التمرد والخروج عن السلطة:

"كتبت برية وصيفطها ليا
ومولاي عبدالعزيز ما عطانيش الجواب
وما كاين حق فمراكش
ما كاين حق فمراكش
ووجدوا العدة ووجدوا العدة
وشرجو الخيل للغوتة
هجموا على القبائل الشامخة
وداو ليكم العولة
وداو ليكم العولة
وابنيتي وربي والمدينة
والرجالة ماتوا
وكالوا للخليفة: آرا البارود آ لولاد" [٥٤].

وفي يونيو ١٨٩٦م، شقت قبيلة مزاب عصا الطاعة من جديد، وهاجمت ونهبت قصبة بني أحمد[٥٥]. كلها عوامل دفعت بالساكنة إلى محاولة الانتقام من رجالات المخزن، حيث تمت محاصرة دار القائد الجيلالي بالمدينة وطالب الثوار من السكان أن "يأخذوا بعض ما حاز منهم من قبل باسم الفرض وعاهدهم أن يقتصروا على ذلك ولا يتعدوه"[٥٦].

إن قيام سكان القبائل ضد الجهاز المخزني المحلي، لم يكن قياما صريحا ضد المخزن كمؤسسة، بل احتجاجا ضد جهاز متعسف في التسخير والجباية. ويدل على ذلك تمرد الحصادين قبل غيرهم، ومطالبة الثوار بإخلاء طريقهم ليأخذوا من دار العامل بعض ما أخذه منهم "على وجه الفرض"[٥٧]. أما السبب الثاني في قيام الانتفاضة فهو تسخير الفلاحين، في خدمات يؤذونها لا سيما في ميدان الزراعة، "ولا أدل على ذلك من كون الفلاحين المسخرين في حصاد زرع القائد في إحدى ضيعاته الكبرى هم أول من ثار من مجموع الإيالة"[٥٨]. وفي هذه الحركة إشارة إلى احتجاج وغضب وتعبير عن الإذلال وابتزاز الأموال، والاعتداء على الذمم لينتج عنه الانفجار، و"عادة ما تكون وفاة السلطان هي الفرصة المواتية لهذا العصيان"[٥٩]، "ويجد هذا التوجس تبريره في طغيان هاجس عدم الثقة، لأن "المخزن لا أمان فيه"[٦٠].

وهكذا نرى من خلال هذه الأمثلة، أن تتريك العامة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عبر فرض ضرائب مجحفة، أدت في كثير من الأحيان إلى قيام مؤامرات ضد السلطان، مع ترك المجال لهؤلاء للتعاون مع أي عنصر معاد له، كما حدث على عهد مولاي عبد العزيز عندما فرض ضريبة الترتيب سنة ١٩٠١م "للتسوية بين الشريف والمشروف والقوي والضعيف، وكف يد الولاة والعمال عن التعدي على أموال الناس بغير حق"[٦١]. إلا أن هذه الضريبة رفضت من طرف الرعية، مما أدى إلى تراجع مداخيل الدولة، "وما بقي للمخزن من ضرائب غير مباشرة تم رهنها لأداء بعض الديون، وهكذا كانت الصناديق فارغة في نهاية سنة ١٩٠١م"[٦٢].

وبعد احتلال الجيش الفرنسي مرسى الدار البيضاء سنة ١٩٠٧م وغيرها، دون موقف حازم من قبل السلطان مولاي عبد العزيز الذي دعى إلى المهادنة بدل الجهاد، ليفقد السلطان مهمته الدينية كقائد مدافع عن بلاد الإسلام وهي بالذات

أساس سلطته[٦٣]، بعد أن "اتهم بالكفر والتبذير لأموال الرعية فتم عزله وتعيين مكانه أخيه المولى عبد الحفيظ بعد مبايعته من طرف علماء وأعيان مراكش وباقي القبائل المغربية بعد انتصاره على محلة أخيه في ٦ شعبان الأبرك ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م"[٦٤].

من هنا نلاحظ أن آثار سياسة التتريك تبدو كسلسلة متصلة الحلقات، كل أثر لها يقود إلى آخر، والأثر الأساسي الذي تؤدي إليه جميع الآثار هو فقدان الدولة لهيبتها، وزعزعة كيانها.

ثالثًا: آثار التتريك المخزني في الاحتماء بالأجنبي

منح ملوك المغرب في قرون غابرة عددًا من الامتيازات للدول الأوربية، وقدمت لها تنازلات مارست بموجبها في بلادهم (الملوك) مهام هي من صميم ما تختص به السيادة الوطنية؛ ومن هذه الامتيازات نظام الحماية القنصلية. وهو نظام يسمح للأجنبي بحماية رعاياه وتمتعيهم بنفس "الحقوق التي يتمتع بها رعايا الدولة التي قبلت حمايتهم"[٦٥]، مع منحهم امتيازات قانونية جعلت من المحميين غير خاضعين لقوانينه، وغير ملزمين وهم فوق أراضيه "بأداء ما يجب على سائر مواطنيهم أداؤه من ضرائب، والقيام بما يقومون به من خدمات وطنية"[٦٦].

وكان للتجار الأجانب دور كبير في استفحال ظاهرة الحماية، والمخالطة داخل الحواضر والبوادي المغربية، حيث عملوا على استغلال حاجة الفلاحين للقروض اللازمة لأداء ديونهم أو للقيام بأعمالهم الفلاحية. فيقدمون لهم ديونا ربوية على المحاصيل الزراعية، وأحيانًا يحوزون لهم رسوم أملاكهم كضمانات، وفي هذا السياق حذر السلطان مولاي الحسن عماله وقضاته، من تفويت الأراضي المغربية للأجانب، ومنع عدول البادية من تسليم شهادة البيوع والمعاملات والمخالطات التي يكون أحد أطرافها أجنبيًا أو محميًا، وخاصةً في مدينة الدار البيضاء التي شهدت انتشارا واسعا لهذه الظاهرة، مما دفع بالسلطان مولاي الحسن إلى توجيه رسالة إلى عامل الدار البيضاء عبد الله حصار بتاريخ ١٩ ربيع النبوي عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م بقوله:

"خديمنا الأرضى الحاج عبدالله حصار وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد: فقد بلغنا أن بلاد السواحل الحوزية كلها أو جلها ملكها، أهلها للنصارى، واليهود الذين في حمايتهم، بالبيع أو الرهن، بأن يذهبوا إليهم برسومها ويطلبون منهم دينا، أو بيع قوت أو شبه ذلك، فيعطونهم ما طلبوه، ويحوزون الرسوم ولا يبقى لأهلها فيها إلا الاستغلال، من تحت أهل الحمايات، وهذا أمر إن لم يتدارك بالقرب، اتسع الخرق فيه على الراقع، ولا يكون هذا إلا مع تجار المراسي الحوزية لقربهم منهم. وعليه فاستفهم تجار بلدك عما دفعوه لأرباب هذه البلاد من دين أو شبهه، ما هو على وجه الرهينة، والقدر الذي وقع به البيع أو الرهن، وأسماء الذين رهنوه لهم، وأعلمنا به على التفصيل، وإن أمكنك أن تتلطف في حوز الرسوم منهم وتوجيهها إلينا فذلك المراد والسلام"[٦٧].

هذا الوضع المعقد الذي أفرزه نظام الحماية القنصلية، كنظام شاذ عجيب لا يقبله طبع قويم ولا يسلم به منطق سليم. لأنه يتنافى مع سيادة الدولة وانبساط سلطاتها وقوة قوانينها وأحكامها التي يجب أن تطبق على جميع المقيمين فوق أرضها، سواء كانوا وطنيين أصلاء أو أجانب دخلاء، والذي قسم المجتمع المغربي إزاءه بين مؤيد، ومعارض للسلطة. مخلفا عواقب بالغة الخطورة، إذ صار المغاربة المحميون أداة لتفكيك بنيات المجتمع المغربي ووسيلة لتوسيع النفوذ الأجنبي ومؤثراته داخل المغرب، وما فتئت أن تحولت مع مرور الوقت إلى سرطان شل كل الذات المغربية. إذ شملت الحواضر والبوادي وخاصتهم فتخوف مولاي الحسن من "اتساع عدد المحميين وامتيازاتهم التي قد تمتد إلى أشخاص عديمي الذمة"[٦٨]، مما دفعه إلى الدعوة لعقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠م، بهدف الحد من تفشيها بين أفراد المجتمع المغربي، لكن هذا المؤتمر خرج بقرارات عكسية لما كان يتوقعه الحسن، حيث منحت امتيازات أخرى للأوربيين داخل المغرب. "ولم يحصل المغرب على شيء مما كان يرغب فيه ويتمناه"[٦٩]، لأن المؤتمرين اتفقوا على تأكيد نظام الحماية، وإعطائه صبغة قانونية. وفي هذا المعنى قال الشاعر حافظ إبراهيم بيته الشهير:

"لَقَد كانَ فينا الظُلمُ فَوضى فَهُذِّبَت   حَواشـيهِ حَتّى باتَ ظُلماً مُنَظَّما"[٧٠].

وعلاوة على ذلك، لم يعد الأمر مرتبطا بحماية رعايا ملحقين بالقنصليات، أو بخدمة التجار الأجانب، بل تعدى ذلك إلى رعايا مغاربة، انسلخوا عن سلطة المخزن ليتحصنوا بالحماية القنصلية وامتيازاتها القانونية. ولقد شكلت "الحماية القنصلية إحدى المعضلات التي عانى منها مغرب آخر القرن التاسع عشر، وكان المستهدف الأساسي منها هو النظام المخزني"[٧١].

أحدثت سياسة التتريك المخزني تحولات عميقة داخل المجتمع المغربي، وعرفت ازديادا مع انتشار المخالطات، مع الأجانب وذلك بواسطة "مشاركة التاجر الأجنبي للفلاح المغربي في ملكية قطيع من البهائم، قد يدفع التاجر ثمنه أو يشتريه للفلاح، ولكن كثيرًا ما كانت المخالطة، تنشأ نتيجة لرغبة الفلاح في حماية التاجر الأجنبي، ومقابل ذلك يصبح شريكه في قطيع من الغنم أو البقر"(٧٢)، وعن طريق ملكية أزواج من البهائم في الحرث والزراعة، للتهرب من أداء الواجبات والكلف غير الشرعية. كما لجأ عدد كبير من سكان البوادي إلى المخالطة لتحقيق مكاسب مادية "ليؤدوا بها الفروض المتعددة التي يطالبهم بها القواد، مما أدى إلى تزايد عدد المحميين والمخالطين باستمرار"(٧٣). وبذلك نلاحظ أن العديد من الرعايا المغاربة قد تواطؤوا مع الأجانب الذين عملوا على تدعيم نفوذ دولهم بالمغرب. وقد كرس هؤلاء ذلك من خلال أداء الكلف والجبايات المخزنية غير الشرعية، والتي كانت تشكل وجها من أوجه التتريكات المخزنية غير المباشرة.

هذه الوضعية دفعت بالسلطان مولاي عبدالعزيز إلى إرسال رسالة غاضبة لنائبه بطنجة محمد طريس، توضح دور الأجانب في انتشار الحمايات والمخالطات في منطقة الغرب "خديمنا الأرضى الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبعد، فقد كتب لحضرتنا السنية الخديم إدريس الجباسي بأن روميا فرنصيصيا [...] وآخر اصبنيوليا [...] اشتغلوا بالطواف على الدواوير بالغرب على طلب المخالطة ومن خالطهم يتعرضون عليه حتى صارت جماعات من الغرب ممتنعة من الواجبات والكلف بسببهما، وإذا تكلم الأشياخ مع أحد من الجماعات يأتيان إليهم ويهددانهم بدعاوى الباطل وعليه فنأمرك بالكلام مع باشدور الاصبنيول [...]"(٧٤).

وهكذا انتشرت الحمايات والمخالطات بين القبائل، التي كان المخزن يعتمد على جبايتها، ومنها قبائل الغرب ودكالة والشاوية وعبدة. مما تسبب في مشاكل وصعوبات في استخلاص الكلف والواجبات المخزنية، من المحميين والمخالطين للأجانب، دفعت بالقواد إلى رفع شكواهم إلى السلطة المركزية. ومن بينهم محمد اللبادي قائد قبيلة المزامزة بالشاوية، الذي أرسل رسالة إلى النائب السلطاني محمد الطريس بطنجة يقول فيها: "[...] فلتعلم سيدي أن المخالطين من تجار الأجناس بنواحينا هذه منعونا من أداء الكلف الواجبة، كالزكاة والخرص ومصالح المخزن، وطالما عالجنا ذلك ولا حصلنا على طائل حتى أداهم الحال لمنع كل من نزل معهم وخيم بدواويرهم من الكلف المذكورة. وقد أعيانا ذلك لما صار فيه من حل الأحكام والفساد على المخزن، ومنذ مات سيدنا المقدس ونحن نكلف عليهم بعدما طالبناهم بأداء ذلك. فامتنعوا امتناعا كليا وأطلعنا سيادتك لتباشر الكلام مع باشدورات الدول الفخام هناك ليكلموا قنصلاتهم يلزمون المخالطين معهم دفع ما بذمتهم من الواجب والخرص والكلايف ويتركون التعرض على الناس [...]"(٧٥).

كما شملت الحماية القنصلية ضباط وأعيان ووزراء، ناهيك عن زعماء الزوايا،الذين كانوا يلعبون دور الوسطاء بين مختلف الفئات الاجتماعية الذين التحقوا بخدمة الأجانب تاركين الأمور تسير من السيئ إلى الأسوأ مما ساهم في إرساء أرضية متينة للتوتر وتدهور الوضع(٧٦)، السياسي والاقتصادي الذي دفع بالعديد من الناس فرادى وجماعات إلى التنكر لهويتهم، طالبين الخلاص بواسطة الحماية الشخصية. وفي هذا الإطار يسجل الحجوي شهادته قائلا: "لم يبق غني بفاس بل وبالقبائل القريبة من فاس أو الثغور وبمكناس ومراكش وغيرها من المدن إلا وقد نال الحماية الأجنبية"(٧٧). كما لجأ مجموعة من الأغنياء إلى شراء الحمايات، فيما نشد الفقراء خلاصهم بفرارهم من قبائلهم، أملا في الهروب من جحيم القهر الجبائي، فأجبروا على الرجوع " فمن رجع منهم فهو يطلب باب الله بالدواوير ليعتق رقبته ورقبة أولاده"(٧٨). من خلال دفع أموال للمخزن.

أما في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين الميلادي، فإن سيف المصادرة لم يعد يعمل عمله، بحيث "أصبح بالإمكان المحافظة على الثروات العقارية بل وتوسيعها. وكانت الحماية القنصلية خير وسيلة لصيانة هذا الحق وإحاطته بكافة الضمانات"(٧٩)، ولتوضيح ذلك نعود إلى رسالة مؤرخة في ٢٦ ربيع الثاني ١٢٨٠هـ/ ١٠ أكتوبر سنة ١٨٦٣م، وأصلها محفوظ بقسم الوثائق بالخزانة العامة، ومنه نسخة مصورة محفوظة بمديرية الوثائق الملكية، وهذا نصها: "خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد، فقد أخبر أمناء الدار البيضاء إن يهوديًا بها يقال له ابن هليل امتنع من إعطاء القدر ٧٨ الواجب للمخزن عن كل شهر في حوانيت بيده. فتكلموا في ذلك مع قونصو الصبنيول لكون الذمي المذكور في حمايته لا يعطي شيئًا عملاً بما في الشروط، مع أن ما يسقط عمن في حمايتهم هو المغرم الذي يلزم غيرهم، أما الحوانيت التي يتصرفون فيها فإن النصف من الكراء الذي يلزمهم إعطاؤه هو في مقابل الأرض لبيت

المال لا لهم، وليس لمن بنى فيها إلا البناء. فلا بد تكلم مع باشدورهم في ذلك لينهى نائبه عنه، والله يعينك، والسلام"[٨٠].

هذا الوضع أدى إلى فقدان السلطة لهيبتها بعدما تحولت الجرثومة الصغيرة الضئيلة التي تكاد لا تلفت النظر، "ثم نمت وربت حتى صارت ثعبانًا قويًا يلف جسم المغرب بشدة، ويضغط عليه بقوة ويغرز فيه أنيابه السامة حتى أنهك قوته وأعجزه عن كل مقاومة ودفاع"[٨١]، لتفتح الباب على مصراعيه للأوربيين، عبر اتفاقيات غير متوازنة مهدت الطريق فيما بعد إلى عقد الحماية. الذي كان بمثابة إعلان عن فقدان المغرب لاستقلاله وسيادته.

خَاتِمَةٌ

وفي الختام يمكن القول إن التريك المخزني كان له انعكاسات سلبية أكثر ما هي إيجابية على الاستقرار السياسي والاجتماعي للمغرب والمغاربة، والتي أدت في كثير من الأحيان إلى زعزعة نظام الحكم و زواله لولا حنكة بعض رجال السلطة، بسبب حركات مناهضة للحكم ومطالبة بإسقاط النظام لأسباب لا تعد ولا تحصى مما أدى إلى انعدام الأمن والاستقرار السياسي، لتتولى حالات الخلع لرجال الدولة تحت ذريعة الخيانة أو التماطل في أداء المهام مما انعكس سلبًا على هيبة السلطة واستمرارها.

الاحالات المرجعية:

(1) ABUN-NASR (Jamil Mir'i), A history of the Maghrib in the Islamic period, Cambridg University Press, Cambridge, 1999, pp. 369-370.

(2) LA VERONNE (Chantal De), Vie de Moulay Ismaïl, roi de Fès et de Maroc d'après Joseph de Léon, 1708-1728, lib. Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1974, p. 48.

(3) Ibid, p. ٤٩.

(4) MARTIN (Alfred-Georges-Paul), Quatre Siècles d'Histoire Marocaine, lib. Félix Alcan, Paris, 1923, p. 65.

(٤) اليفرني (محمد الصغير)، **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف**، تح. عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. ٢، الرباط، ١٩٩٥، صص. ٤٩-٥٠.

(٥) بوكبوط (محمد)، "**المخزن الإسماعيلي بين رهانات ضبط المجتمع وانفلات المؤسسات العسكرية**"، ضمن **مجلة أمل**، ع. ٣٥، ٢٠٠٩، ص. ١١٤.

(٦) **نفسه**، ص. ١١٨.

(٧) الزياني (أبو القاسم)، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، ج. ١، در. تحقيق. رشيد الزاوية، الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٩٢، ص. ١٨٦.

(٨) بوكبوط (محمد)، **المخزن الإسماعيلي**...، م. س، ص. ١١٥.

(٩) اكنينح (العربي)، **أثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقات المخزن بالقبائل في القرن التاسع عشر نموذج قبيلة بني مطير (أيت انظير)**، مطبعة أنفو-برانت، فاس، ٢٠٠٤، ص. ١٨٨.

(١٠) أبو إدريس (إدريس)، "المولى إسماعيل ودور شخصيته في تدعيم الدولة المركزية (١٠٨٢-١١٣٩هـ/ ١٦٧٢-١٧٢٧م)"، ضمن **مجلة مكناسة**، ع. ٣، ١٩٨٩، ص. ٩.

(١١) جادور (محمد)، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص. ٤٠٦.

(١٢) أبو إدريس (إدريس)، **المولى إسماعيل**...، م. س، ص. ١١.

(١٣) BUSNOT (Dominique), Histoire du regne de Moulay Ismaël roy de Maroc, Fez, Tafilet, Souz, Guillaume Behourt, Rouen, 1714, p. 38.

(١٤) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، م. ٢، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٦٤، ص. ٢٠٠.

(١٥) بوكبوط (محمد)، **المخزن الإسماعيلي**...، م. س، ص. ١١٩.

(١٦) كارل (بروكلمان)، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر. نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1974، ص. ٦٣١.

(١٧) الأرقش (دلندة) وآخرون، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، مركز النشر الجامعي ميدياكوم، تونس، ٢٠١٣، ص. ٣٠.

(١٨) العقاد (صلاح)، **المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، تونس والمغرب الأقصى**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣، ص. ٦

(١٩) حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية**، ج. ٣، دار الرشاد الحديثة، ط. ٢، الدار البيضاء، ١٩٩٤، ص. ٩.

(٢٠) ابن زيدان (عبد الرحمن)، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. ٣، تحقيق. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص. ١٩٤.

(٢١) **نفسه**، ص. 200.

(٢٢) هلالي (العربي)، "فگيگ (تاريخ)"، ضمن **معلمة المغرب**، ج. ١٩، مطابع سلا، الرباط، ٢٠٠٤، ص. ٦٤٨٦.

(٢٣) اكنينج (العربي)، **أثار التدخل الأجنبي**...، م. س، ص. ٤٣.

(٢٤) المنصوري (عثمان)، **العلاقات المغربية البرتغالية، ١٧٩٠-١٨٤٤**، ج. ١، مطبعة فضالة، ٢٠٠٥، ص. ١٢٨.

(٢٥) التوفيق (أحمد)، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠-١٩١٢)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط. ٢، الرباط، ١٩٨٣، ص. ١٤٤.

(٢٦) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، م. ٨، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٦٤، صص. ٢٢٩-٢٣٠.

(٢٧) ابن المجدوب الحسني (عبد الحق)، **الحالة الاجتماعية بفاس في القرن الثاني عشر الهجري من خلال الحوالة الإسماعلية**، ج. ٢، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٦، ص. ١٠٢.

(٢٨) سلا **"المدينة المقفلة" الانفتاح الحذر على الغرب من القصف إلى الاحتلال ١٨٥١-١٩١٢**، مطابع الرباط نت، الرباط، ٢٠١٧، ص. ١٥٢.

(٢٩) الناصري (أحمد بن خالد)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج. ٩، تحقيق. تعليق. جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، صص. ١٠١-١٠٢.

(30) LEFEBVRE (Henri), De L'Etat, De Hegel à Mao par Staline: la théorie «marxiste» de L'Etat, t. II, Union générale d'éditions, Paris, 1976, p.29.

(٣١) المنصور (محمد)، **المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، ١٧٩٢-١٨٢٢**، تعريب. محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، ط. ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص. ٢٢٦.

(٣٢) الزياني (أبو القاسم)، **البستان الظريف في دولة ...**، ج. ١، م. س، ص. ١٨٠.

(٣٣) ابن الحاج السلمي (أحمد)، **الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن**، ج. ٦، مخ. خ. ح، رقم: ١٢١٨٤، ص. ٤٠٦.

(٣٤) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**...، م. ٢، م. س، ص. ٢٠٠.

(٣٥) ابن زيدان (عبد الرحمن)، **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف**، تقديم. تحقيق. عبد الهادي التازي، مطبعة اديال، ط. ١، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ص. ٣٨٥.

(٣٦) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**...، م. ٢، م. س، ص. ٢٠٠.

(٣٧) الداودي (عبدالله)، **أطلس تاريخ المغرب**، دار الشرق العربي، بيروت، ٢٠١٣، ص. ١١٤.

(٣٨) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، كلية الآداب - والعلوم الإنسانية، د ط، الرباط، ١٩٩٢، ص. ٤٢.

(٣٩) الناصري (أحمد بن خالد)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج. ٧، تحقيق. تعليق. جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص. ١٣٢.

(٤٠) الزياني (أبو القاسم)، **البستان الظريف في دولة ...**، ج. ١، م. س، ص. ٢٤٨.

(٤١) معريش (محمد العربي)، **المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول**، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت- لبنان، ١٩٨٩، ص ٩٨.

(42) MIEGE (Jean-Louis), Le Maroc et L'Europe: 1830-1914, t. III , P.U.F, Paris, 1964, p. 257.

(٤٣) بنشنهو (عبد الحميد)، **النظام الإداري بالمغرب**، مطبعة الأمنية، ط ٤، الرباط، 1963،، ص. ٢٤.

(44) MIEGE (Jean-Louis), Le Maroc et L'Europe: 1830-1914, t. IV, P.U.F,Paris, 1964, p. 1٢٢.

(٤٥) الناصري (أحمد بن خالد)، **الاستقصا**...، ج. ٩، م. س، ص. ١٤٥.

(٤٦) **نفسه**.

(٤٧) بنشنهو (عبدالحميد)، **النظام الإداري**...، م. س، ص. ٣٠.

(٤٨) معريش (محمد العربي)، **المغرب الأقصى**...، م. س، ص. ٨٩.

(٤٩) التوفيق (أحمد)، **المجتمع المغربي**...، م. س، ص. ٥٧٨.

(٥٠) **نفسه**، ص. ٥٦٥.

(٥١) **نفسه**، ص. ٥٧٩.

(٥٦) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات**...، م. س، ص. ٣٤١.

(٥٧) ادموند (دوتي)، **مراكش: قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة (١٩٠١-١٩٠٢)**، تر. محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو برانت، فاس، ٢٠١١، ص. ٢٨٣.

(٥٨) البزاز (محمد الأمين)، "تفاحش مشكلة الحماية القنصلية بعد مؤتمر مدريد: قضية نهب قصبة مزاب بالشاوية من خلال الوثائق (١٨٩٦-١٨٩٩)"، ضمن **مجلة دار النيابة**، ع. ١، ١٩٨٤، ص. ٧٥.

(٥٩) التوفيق (أحمد)، **المجتمع المغربي**...، م. س، ص. ٥٧٩.

(٦٠) **نفسه**، ص. ٥٨٧.

(٦١) **نفسه**، ص. ٥٨٠.

(٦٢) **نفسه**، ص. ٥٩٣.

(٦٣) التسافتي (عبد الله)، **رحلة الوافد**، تحقيق علي صدقي، ازايكو، منشورات كلية الآداب، القنيطرة، ١٩٩٢، ص. ١٥٠.

(٦٤) بياض (الطيب)، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010، ص. ٢٧٩.

(٦٥) **نفسه**، ص. ٢٨٦.

(٦٦) **نفسه**، ص. ٤٤.

(٦٧) بخصوص **وثيقة بيعة أهل مراكش للسلطان مولاي عبد الحفيظ. أنظر**: المنوني (محمد)،)، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ج. ٢، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، صص. ٣٥٤-٣٥٨.

(٦٨) ابن عبود (محمد أحمد)، **مركز الأجانب في المغرب**، مطبعة الشويخ، ط. ٢، تطوان، ١٩٨٠، ص. ٧١.

(٦٩)ابن منصور (عبد الوهاب)، **مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠**، المطبعة الملكية، ط ٢، الرباط، ١٩٨٥، ص. ٥.

(٦٧) ابن زيدان (عبد الرحمن)، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج. ٥، تح. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨، صص. ١٣١-١٣٢.

(٦٨)MIEGE (Jean-Louis), Le Maroc et L'Europe..., Op. cit, p. 153.

(٦٩) ابن منصور (عبد الوهاب)، **مشكلة الحماية القنصلية**...، م. س، ص. ١٠٣.

(٧٠) حافظ (إبراهيم)، **ديوان حافظ إبراهيم**، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتب، ط. ٣، ١٩٨٧، ص٣٣٩.

(٧١) عمراني (محمد)، **الشرف والمجتمع والسلطة السياسية بالشمال الغربي المغربي**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١٥، ص. ٣١١.

(٧٢) الخديمي (علال)، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، ١٨٩٤-١٩١٠، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، أفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، ١٩٩١، ص. ١٥٩.

(٧٣) بنطالب (علي)، **المخزن والقبائل...**، م. س، ص. ٣٦١.

(٧٤) **رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى نائبه بطنجة محمد الطريس**، بتاريخ١٤ محرم ١٣١٣ه/ ٧ يوليوز ١٨٩٥م، م. و. م. ر، مح. محرم ١٣١٣ه، تحت رقم: A18-025.

(٧٥) **رسالة من قائد قبيلة المزامزة بالشاوية إلى خليفة النائب السلطاني محمد الطريس بطنجة**، بتاريخ ٢٨ شوال ١٣١٤ه/ فاتح أبريل ١٨٩٧م، م.و.م. ر، مح. شوال ١٣١٤ه، تحت رقم: A18–046.

(٧٦) عياش (جرمان)، **دراسات في تاريخ المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، ١٩٨٦، صص. 50-٥١.

(٧٧) بولحية (يحيى)، **البعثات التعليمية في اليابان والمغرب**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط. ١، بيروت، ٢٠١٦، ص. ١٢٦.

(٧٨) اكنينح (العربي)، **أثار التدخل الأجنبي...**، م. س، ص. ٢٩٧.

(٧٩) البزاز (محمد الأمين)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، م. س، ص. ٢٣٤.

(٨٠) **رسالة من السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمن إلى وزير الأمور البرانية محمد بركاش**، بتاريخ ٢٦ ربيع الثاني ١٢٨٠ه/ ١٠ أكتوبر ١٨٦٣م، مح. عام ١٢٨٠ه، تحت رقم: A16-009.

(٨١) ابن منصور (عبد الوهاب)، **مشكلة الحماية القنصلية...**، م. س، ص. ٩.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المقاومة الريفية بقيادة أحمد الريسوني
من خلال الصحافة الفرنسية



د. عبد السلام بوطافي

حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

هذه هي الدراسة الثانية التي خصصناها للحديث عن المقاومة ضد الاحتلال الإسباني بشمال المغرب من خلال الصحافة الفرنسية، والتي سنتناول فيها المقاومة الريفية بقيادة شخصية أخرى ظهرت على مسرح أحداثها. سنلامس كيف طرحت ولامست الصحافة الفرنسية الأبعاد الذاتية والسياسية والاجتماعية والنفسية للريسوني، وهي تتناول سيرته، وكيف بررت ازدواجيته وزئبقيته بين معاداة الاستعمار، والارتماء في أحضانه، وما الذي جعلها ترى فيه نموذج السياسي المغربي بامتياز. هذا النموذج الذي يمكن أن نستنتج ضمنيًا صفاته من خلال ما كتبت عنه أنه: مخادع، شرس، عنيف، شره للمال والسلطة، وفي هذا يستجيب لغرائزه الطبيعية، ويستسلم لحلول اليأس، ويذعن للقوي الذي لا قبل له بمواجهته، تحت تأثير عقله. عقلاني وغريزي، ذلك هو الريسوني خاصة، والسياسي المغربي عامة. والملاحظ أن الصحافة الفرنسية قد وجدت ضالتها في الريسوني لتفجر مكبوتها الاستشراقي، فكتبت عنه، وخطابها ينوس بين الواقعي/ الحدثي والاستشراقي/ التخييلي/ النمطي. ورغم كل هذا فهي تظل، ذات أهمية خاصة، لأنها كانت تكتب في الخط الموازي للحدث، بعيدًا عن التنظير الذي لا يزدهر إلا بعد نهايته "أي الحدث"، وإن كان كل ذلك قد تم بنفحة استعمارية واضحة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ يوليو ٢٠٢٢

تاريخ قبـول النشـر: ١٢ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الاحتلال الإسباني؛ الصحافة الفرنسية؛ المقاومة الريفية؛ المقاومة المغربية؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299578 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام بوطافي، "المقاومة الريفية بقيادة أحمد الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٢٩ – ١٤٠.

Corresponding author: abdesselamb5@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يعتبر أحمد الريسوني أحد أعمدة المقاومة المغربية بشمال المغرب، الذي صنع مجده في جو مفعم بالتحولات العاصفة محليًا ودوليًا، واستطاع في سياق الأحداث الصاخبة، التي كان يمر بها العالم ومعه المغرب، أن يستشرف المستقبل، فيتحول من مجرد إنسان بسيط مشهور بالورع والتقوى، بين عشيرته، ينحدر من سلالة النبي محمد، إلى لص وقاطع طريق، تحت ضغط الواقع وجبروته، بعد تعرض متاعه القليل للنهب ووالدته للقتل، إلى سيد الريف المطلق، الذي أخذ على نفسه الوقوف في وجه الهجمة الاستعمارية الزاحفة على المغرب. وكان من الطبيعي أن تثير أفعاله انتباه الصحافة الفرنسية اللاهثة وراء تسارع الأحداث بالشمال المغربي، تغطية للخبر، وخدمة لمشروع حكومتها الفرنسية الاستعماري. فكيف أرخت للأحداث التي كان يمور بها الشمال؟ وكان الريسوني طرفا فاعلا فيها. وكيف تفاعلت مع شخصيته المتقلبة؟ التي دفعتها إلى اعتباره -في توصيف يتأرجح بين المدح والقدح- نموذج السياسي المغربي بامتياز؟ وكيف رثت مصيره البائس؟

أولاً: سيرة الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية

لم تتعرض الصحافة الفرنسية لسيرة الريسوني، على كثرة ما تناولت من أخباره، إلا مع نشرها لخبر رحيله، وما أثاره من مصاعب لإسبانيا، خاصةً وأنه تزامن مع حدوث انقلاب سياسي بإسبانيا كان السبب الأول فيه ما حل بالقوات الإسبانية من هزائم على يد المقاومة الريفية، كما تزامن مع خلو منصب خليفة السلطان، وما طرحه هذا الأخير من صعوبة في إيجاد خليفة له يكون محط رضا كل الأطراف الفاعلة في الريف وعلى رأسها السلطان والإسبان[١]. اعتبرت الصحافة الفرنسية رحيل الريسوني حدثا مفاجئًا[٢]، واتخذت منه مناسبة لتعريف قرائها به، وسبر أغوار هذه الشخصية الفاتنة، التي مارست إغراءها على المؤرخين والأدباء على حد سواء، فقد كان مثالا للنبيل المتوحش، الذي انطوت جوانحه على عاطفة عذبة برقاقة رغم عنفه وقسوته. وقبل أن يصبح أحد أعمدة السياسة الإسبانية بالريف، كان قد بدأ مشوار حياته ثائرًا على الظلم (أيًا كان مصدره: المخزن أو الاحتلال)، ليتحول إلى قاطع طريق، ثم أضحت الصفتان صفة واحدة ذات كيان واحد لا يقبل التجزيء والانفصال.

وبلغة استشراقية واضحة تعرضت الصحافة الفرنسية لأهم المحطات التي ساهمت في بناء شخصيته، فأشارت إلى أنه قد ألقي عليه القبض على عهد الحسن الأول، الذي رمى به في غيابات سجن موكادور الرهيب مدة سنوات طوال. وحين خرج من السجن خرج أشد ما يكون متعطشا للحرية في أبهى تجلياتها. وفي طريقه لتحقيق هذه الحرية، لم يكن جبارًا متعطشًا للدماء، كما قد يتوهم البعض، فقد كانت تنطوي جوانحه على روح عذبة، لم تزدها الرزايا والإخفاقات، التي ابتلي بها إلا رهافة. ونلمس ذلك من خلال عبارات العرفان بالجميل، التي تدفقت بها ألسنة سجنائه من الأجانب، الذين أشادوا بأخلاقه الفروسية.

وعلى ذكر سجنائه ذكرت الصحافة الفرنسية بأهم العمليات التي كانت وراء انتشار اسمه خارج حدود المغرب، حيث أصبح محط اهتمام الرأي العام الأوروبي، الذي انشغل بعمليات السطو والاختطاف التي قادها بطنجة ونواحيها، بدءا باختطافه لجزائريين رعايا فرنسا، مما دفع بهذه الأخيرة إلى إرسال فرقة عسكرية إلى طنجة. بعدها قام الريسوني باختطاف الإنجليزي هاريس مراسل (Times) من منزله بطنجة، ولم يطلق سراحه إلا بعد حصوله على فدية كبيرة وإطلاق جميع المعتقلين من أتباعه[٣]. وبعد نجاح العملية السابقة، قام الريسوني باختطاف الثري الأمريكي بيرديكاريس رفقة نجله فالري (M.Varley)[٤] ليلا من قلب فيلاته بطنجة[٥]. ومن المعروف **أن** الريسوني لم يطلق سراح بيرديكاريس إلا بعد تسلمه لفدية بلغت ٣٥٠,٠٠٠ فرنك، إضافة إلى إطلاق سراح كل أتباعه، الذين رمي بهم في السجون على فترات زمنية متباينة. ومن سخرية الأقدار، وجدت الولايات المتحدة نفسها مجبرة إضافة إلى دفع الغرامة على تمتيعه وعائلته بالحماية الإنجليزية والأمريكية.

وبذلك أصبح الريسوني واثقًا من قدراته لما أحرزه من نجاح، فوسع من عملياته بطنجة ونواحيها. ومعها لم يعد السلطان المولى عبد العزيز، العاجز عن مجابهته عسكريا يطيق صبرًا على أفعاله، فوجه إليه المؤطر العسكري للقوات الشريفية ماكلين في سفارة من أجل التفاوض معه لوضع حد لعملياته، فما كان من الريسوني إلا أن قام باعتقال المؤطر الإنجليزي ورميه في السجن في انتظار افتدائه من طرف المخزن. ومع اعتلاء المولى عبد الحفيظ سدة الحكم، لعب الريسوني ورقة الخضوع بدل التمرد، فأذعن للسلطة الجديدة وأصبح قايدا للغرب (غرب الريف)، ولم يكن خضوعه سوى تبعية إسمية، إذ ظل يتمتع باستقلال تام، ويمارس سلطات واسعة غير محدودة. وكذلك

فعل مع إسبانيا حين تغلغلت داخل الريف فظلت علاقته بها تتأرجح بين التبعية والاستقلال (بين التحالف والتمرد). كما استفاد كذلك من الدعم الألماني، بوساطة إسبانية. وبذلك يكون الريسوني قد أتقن اللعب على تناقضات مصالح الدول الأوروبية، ومنافساتها الدبلوماسية، التي اتخذت طابعًا وصف حينها بالصبياني.

شكلت هذه التجربة الحياتية الكبرى التي استعرضتها الصحافة الفرنسية حول الريسوني لبنة أساسية في هيكل العلاقات الذي أقامه مع محيطه من الخصوم والمنافسين، فقد أفادته كثيرا في تعامله مع إسبانيا، عديمة الخبرة، وقليلة الحيلة، فوقف منها موقف الأستاذ من تلميذه. تلك الأستاذية، التي مارسها على عهدي سيلفيستري وبرنكر، حيث تمكن بسهولة من القضاء على كل الشيوخ صنائع إسبانيا لمنازعته النفوذ بالريف الغربي. وأدى فشل سياسة الصنائع والدمى إلى خروج برنكر إلى العلن والدخول مع الريسوني في مواجهة عنيفة، انتهت بتقليص نفوذ الريسوني، فلم يعد (نفوذه) يتجاوز بضع كيلومترات مربعة. وبعد رحيل برنكر وتعويضه ببركيت (Burguette) استعاد الريسوني نفوذه القديم، بفضل سطوة الفتنة التي مارسها على الجنرال الإسباني، الذي افتتن بعظمة الشريف، الذي أضحى ورقة ضرورية لا يمكن تجاهلها لفرض السلم بالمنطقة.

وبخصوص هذا السلم، الذي انخرط فيه الريسوني طواعية، ونرجح انتصار الريسوني لهذه القيمة الإنسانية، أن يكون بدافع من التقدم في السن، وبفعل تجربته الطويلة الحافلة التي عرك فيها الحياة، وجعلته يحتك عن قرب بالعالم المعاصر، ويبدي إعجابه به، ويعبر صادقا عن الرغبة في الانخراط فيه، وركوب أمواجه الهادرة، ويعلن أن انتماءه الأول والأخير لن يكون إلا للغد الحتمي، بما يحمل في طياته من مصير محتوم. وفي هذا السياق عمل، كما تنبهت الصحافة الفرنسية، على تلقين أبنائه تعليمًا عصريًا، كفيل بمنحهم وسائل جديدة لتحقيق التحرر والانعتاق من سيطرة الآخر[٦]. ومن خلال ما دبجته الصحافة الفرنسية عن الريسوني يتبين لنا أنه لم يكن مجرد مغامر قاطع طريق محدود الأفق، وابن بيئته المحلية الضيقة، بل كان كائنا كوسموبوليتيا/ عالميًا ومثقفًا، والدليل في ذلك أنه كان على دراية كبيرة بمجريات الحياة السياسية بإسبانيا، فكان يتابع الأحداث عن كثب، فيكفي الإشارة إلى أنه علم بحدوث الانقلاب الإسباني في وقته، فسارع بتوجيه تلغرامين إلى الديكتاتور ريفيرا، الذي بتأثير منهما سرعان ما غير من موقفه المعادي للريسوني، وأصبح يرى فيه حليف المستقبل.

إن السرد التفصيلي المخصص من طرف الصحافة الفرنسية لسيرة الريسوني، الذي اعتبرته نموذج السياسي المغربي بامتياز، يجعلنا نقول بأن الرجل لم يكن بالخائن المرتمي في أحضان المستعمر، بل داهية عرف كيف يلعب على تناقضات مصالح الدول الغربية، ساعده في ذلك إطلاعه الحي والمباشر على الأحداث السياسية بإسبانيا وغيرها، من خلال ما كان يترجم له من جرائدها. كما كان في نفس الوقت على دراية تامة بقوة الأعداء، وبالمصير المحتوم، الذي كان ينتظر الريف، لذلك استسلم لحلول اليأس أحيانا كثيرة. والدليل على ما ذهبنا إليه سابقًا هو ما رسمته الصحافة الفرنسية له كسياسي زئبقي، متلون، لا يقر على قرار واحد في هذه الجملة، التي يمكن أن نعتبرها القول الفصل في طبيعة العلاقة التي ربطته بإسبانيا "...الريسوني الحليف والخصم في آن واحد، الذي كان يتحكم بمنطقة الريف الغربي، فكان ينشر فيها الأمن والانضباط، أو الاضطراب والقلاقل، تماشيا مع طبيعة علاقته مع إسبانيا، تلك العلاقة التي تأرجحت بين الهدنة والتوتر"[٧]. والواقع أن الصحافة الفرنسية لم تنته إلى هذه النتيجة إلا بعد تغطيتها لأحداث ووقائع العلاقة بين الطرفين مدة من الزمن.

بقي في الأخير أن نشير إلى أن هذه السيرة التي وضعتها الصحافة الفرنسية للريسوني جاءت على مراحل، وذلك كلما أعلنت عن موته معتبرة إياه كأهم حدث تناولته أعمدتها، وتم ذلك على ثلاث مراحل إذ سرعان ما كان يتبين لها زيف الخبر، وأنه لا يتعدى الإشاعة، واستمرت تكذب نفسها ما إن يتبين لها أن الرجل لا يزال على قيد الحياة، واستمرت على ذلك إلى أن جاءت الثالثة، وكما يقال الثالثة ثابتة، وهذا ما سنتطرق إليه في النقطة الأخيرة من المقال.

ثانيًا: الريسوني بين البطولة والخيانة أو بين المقارعة والممالأة من خلال الصحافة الفرنسية

لم تتطرق الصحافة الفرنسية لأحمد الريسوني إلا من خلال عرضها لطبيعة العلاقة بينه وبين إسبانيا، حيث ارتبط في البداية معها بعلاقات (طيبة)، وساعدها على احتلال القصر الكبير، فوعدته بجعله خليفة على منطقة النفوذ الإسباني[٨]. كما استعملته أداة لترهيب القبائل، ووأد الانتفاضات التي كانت تندلع ضدها نواحي القصر الكبير، والعرائش، وأصيلا[٩]. ثم عرجت

على نتوءاتها من خلال تحليلها لتصريحات كنليخاس التي أصر فيها على تكذيب خبر احتلال أصيلا من لدن القوات الإسبانية، وقد تناولت الخبر بكثير من الدهشة التي لم تخلو من السخرية بطرحها لسؤال: ألا تعتبر مدينة أصيلا محتلة بحكم الواقع، مادامت القوات الإسبانية تتواجد على أبوابها[١٠]. والواقع أن كنليخاس كان يتلاعب بالكلمات، ويقدم تصريحات مراوغة، ويزيف الحقيقة (احتلال المدينة) التي يجليها دخول خمسين جنديًا من طابور العرائش إلى أصيلا، واستقراره بالقصبة. الأمر الذي لم يكن ليخفى عن الصحافة الفرنسية، فقد تساءلت جريدة "لادبيش ماروكين" عن مغزى السر الثاوي وراء هذا الغموض الذي ينشره كنليخاس، حول حقيقة احتلال مدينة أصيلا، ما دام هذا الأمر لا يزعج أحدًا سوى الريسوني، ولا يثير أدنى اهتمام في أوساط الرأي العام والدبلوماسي بأوروبا.

عززت الصحافة الفرنسية استنتاجاتها بشأن احتلال أصيلاً بما ورد في مراسلات مراسلها من أخبار عن أحداث يومي ١٥ و١٧ غشت، حيث تحدث عن دخول فرقتين من مشاة البحرية، إضافة إلى تواجد ١٥٠ عنصر من عناصر البوليس[١١]. وفي ١٨ غشت كانت القوات الإسبانية على أتم استعداد لدخول المدينة عنوة، في حالة عدم تنازل الريسوني عن الحكم بها[١٢]، إلا أن الريسوني رضخ للأمر الواقع، وقام بتقديم مفاتيح المدينة لقائد القوات الإسبانية، وهكذا أضحت المدينة مشرعة الأبواب.

وبذلك تكون الصحافة الفرنسية في أول تأريخ لها لأحمد الريسوني، تصطدم به وهو يدخل التاريخ من أضيق أبوابه، من باب الخضوع والخنوع، والاستسلام للأمر الواقع. لكن يبقى السؤال: هل سيستمر الريسوني على طريق الانبطاح والوهن؟ أم هل سينتفض على هذا الواقع المر، وينحاز لخيار الثورة مفضلا إياه على حياة الذل والمسكنة، رغم ما توفره من ترف ودعة. ذلك ما ستجيب عنه الصحافة الفرنسية وهي تلتقط دقائق وقائع أيام الريف المسربلة بالدم والنار والدخان[١٣].

الواقع أن علاقة الريسوني بالاحتلال تطرح أكثر من علامة استفهام، فهو وإن بدا متواطئا معه، أو بعبارة أخف وقعا متعاونا، فإن هذا لم يكن إلا تحت ضغط الواقع وإكراهاته، وأنه لم يكن يسلك سبيل ودرب، ما نراه اليوم خيانة، إلا بعد أن يكون قد استنفذ جميع خيارات المناورة، التي برع في إتقان أبجدياتها، والدليل في أن خضوعه لم يكن يعني الخضوع المطلق لإرادتها، بل كان خضوع إكراه واضطرار، فقد احتج بشدة ضد رغبة إسبانيا في منح أزقة وشوارع مدينة أصيلا أسماء[١٤] (إسبانية) ووضع علامات التشوير بها. إذن توترت العلاقة بين الطرفين، وأضحت منذورة للقطيعة، خاصة مع احتلال إسبانيا لأصيلا، وإجبار الريسوني على التنازل عن حكمها، وتسليم مفاتيحها.

ومن خلال تحليل الصحافة الفرنسية لآليات هذه العلاقة الملتبسة بين الطرفين، يتبين لنا أن الريسوني لم يكن يرضى أن يكون مجرد قطعة من قطع الشطرنج تحركها إسبانيا كيف شاءت وأنى شاءت، فهو سيد الريف، الذي خبر المحن والأهوال، وتسلق سلم المجد، بعد أن صهرته التجارب، ووضعته وجها لوجه مع قوى عظمى، فخرج منها غانمًا سالمًا، متوجًا على عرش الريف دون منازع. ويا له من درب طويل ذاك الذي قادته فيه الأقدار، فمن البراءة والضياع، من أقبية سجن موكادور الرطب المعتم، إلى ذروة المجد بجلوسه سيدا مطلقا على عرش الريف. أما إسبانيا فلم تعد ترى في هذا الشخص المعتد بنفسه، في هذا الوقت بالذات الذي انعكست أحداثه ووقائعه على مرآة الصحافة الفرنسية بالمغرب، سوى عبئ ثقيل، فهو لم يعد عامل تهدئة، بل على العكس من ذلك فقد ساهمت سياسته في إثارة القلاقل داخل القبائل الجبلية[١٥]. وكانت هذه السياسة موضوع تداول ونقاش بين الكولونيل سيلفيستري وقنصل إسبانيا بالعرائش زوكاستي (M. Zugasti) والريسوني[١٦]، كما بحث الطرفان موضوع الإجراءات الواجب اتخاذها لدرء قلاقل جديدة قد تشهدها المنطقة.

تضع الصحافة الفرنسية على عاتق هذه القلاقل توتر العلاقة بين إسبانيا والريسوني، وازدادت شدة التوتر مع اتخاذ إسبانيا لها ذريعة ومبررًا لاحتلال أصيلاً، حيث أخذ القائد العسكري أوفيلا (Ovila) في الاستعداد لاحتلال المدينة بتنظيم حملة من المشاة[١٧]، مهددًا باحتلالها في حالة استمرار القلاقل التي كانت وراءها السياسة الجبائية للريسوني. وقد وجهت إسبانيا بالفعل حملة مكونة من مئتي رجل من المشاة البحرية وجزء من الخيالة نحو أصيلا[١٨]، على غير رغبة الريسوني، الذي وجد نفسه مرغما على الرضوخ للأمر الواقع[١٩]، غير أن هذا الإذعان لم يكن سوى إذعان مؤقت، فما إن استرجع الريسوني أنفاسه، حتى بادر إلى المواجهة مع المحتل، ليدشن صفحة جديدة من صفحات الريف المقاوم.

ثالثًا: الريسوني وإسبانيا وجهًا لوجه من خلال الصحافة الفرنسية

لم تهتم الصحافة الفرنسية بأحداث المنطقة الشمالية الواقعة تحت النفوذ الإسباني، طيلة سنوات الحرب العالمية الأولى، انشغلت عنها بالحرب الدائرة رحاها بأوروبا، ولم تعد

لمتابعة وقائع المقاومة بالريف إلا بعد أن أصبحت أحداثها تلقي بتداعياتها على الوضع داخل منطقة النفوذ الفرنسي[٢٠]، وبالرجوع إلى تلك الصحافة نسجل أنها تغاضت عنها تماما و لم تحفل بها إلا حينما اشتدت المواجهة بين الريسوني والاحتلال الإسباني، وبلغت ذروتها التي تزامنت مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وعبرت عن ذلك الحملة التي وجهها سيلفيستري (Sylvestre) في ٢٧ شتنبر ١٩١٩ [٢١]، حيث تمكنت القوات الإسبانية المتمركزة بتطوان من احتلال موقع مرتفع كونيكو (Mont Conico)، الذي يوجد جنوب الطريق المؤدية إلى الفنيدق[٢٢]، لهذا شكل مرتفع كونيكو موقعا استراتيجيا بإطلالته على الطريق (بين تطوان والفنيدق)، وحمايته لها من الغارات القادمة من الجنوب، وقد كلف احتلال هذا الموقع ثماني عشرة ضحية بين قتيل وجريح. في نفس اليوم؛ وجهت إسبانيا فرقة أخرى في اتجاه الفنيدق، التي من المرجح، استنادا على الصحافة الإسبانية، أنها هي التي احتلت مرتفع الحرشة (Mont Harcha).

ولأن الصحافة الفرنسية كانت تتخذ من الصحافة الإسبانية مصدرا لها في تغطية أحداث الريف فقد عبرت عن تأففها من شح المعلومات التي توفرها هذه الأخيرة فيما يتعلق بما يجري من أحداث على أرض مسرح نفوذ إسبانيا، وهو ما عكسته الشكوى التي عبرت عنها جريدة لافيجي ماروكين من عدم تغطية الصحافة الإسبانية؛ بشكل كاف، لتحركات القوات التي وجهتها إسبانيا في اتجاه الغرب والشرق (ضمن نفس الحملة، وفي نفس اليوم) على هدف الالتقاء بالفنيدق. واستنادا على مصادر خاصة (في غياب المعطيات الإسبانية) أشارت الجريدة إلى تمكن الريفيين من إيقاف الزحف الإسباني شمالاً، ومهاجمة موقع ركيا (Ragaïa)، الذي يوجد بالقرب من واد راس.

وبالرجوع إلى الصحافة الفرنسية يتبين لنا أن ما أثار قلق إسبانيا في مواجهتها للريسوني تبنيه لتكتيكات عسكرية عمادها مهاجمة مؤخرة القوات الإسبانية بدل المجابهة المباشرة[٢٣]. وبفضل هذه الخطة تمكن الريسوني من أسر مؤخرة القوات التي كانت تحت قيادة الليوتنو طابيا ريانو (Tapia Ruano)، الذي وقع بدوره أسيرا، كما اعتمد كذلك على خطة عسكرية استهدفت نشر الفوضى داخل الجيش الإسباني، وتفتيت وحدته بتحريض الأهالي العاملين بالجيش الإسباني على التمرد، وكانت هذه الخطة تأتي أكلها أحيانا حيث شهدت قوات الاحتلال المتمركزة بمليلية تمردا لفرقة المية[٢٤]، المتكونة من مئة أهلي.

تنبهت الصحافة الفرنسية إلى أن هذا التكتيك العسكري الذي اعتمده الريسوني لم يكن حكرا عليه وحده، بل تبناه جميع المغاربة تقريبا في مواجهتهم للخصوم، والذي كان فيه يتحاشى المواجهات الحاسمة، التي كانت تسعى إليها القوات الإسبانية. هذه الخطة الإسبانية (المواجهة الشاملة/ العامة والحاسمة) عمد الريسوني إلى تدميرها بتبني الحرب المرحلية والمباغتة[٢٥]، فكان تارة يهاجم مؤخرة القوات الإسبانية، وتارة أخرى يصب غضبه على القبائل الخاضعة للاحتلال مع العمل على قطع وسائل الاتصال والمواصلات.

ومن خلال الصحافة الفرنسية ندرك أن طبيعة المواجهات بين إسبانيا والريسوني وتكتيكات هذا الأخير، فرضت على الاحتلال الإسباني التحلي بكثير من الصبر والجلد، ومعها أدركت أن الإخضاع التام للمنطقة لازال بعيد المنال، وأن عليها الاعتماد على نفسها إن هي أرادت الاحتفاظ بالمواقع التي احتلتها خاصة تلك التي تمكن الجنرال سيلفيستري من احتلالها بالمناطق المتواجدة خلف الفنيدق[٢٦].

نلمس هذا التكتيك العسكري الذي اعتمده الريسوني، والذي أنهك قوات الاحتلال الإسباني أيضا في تراجعه، إثر الزحف الإسباني على مواقعه، بلجوئه إلى قبيلة بني فحص (Beni Fas)، على بعد ٨٦ كيلومتر من الفنيدق[٢٧]. بعدها انتقل إلى تازورت، حيث أخذ منها يحث اجبالة على الاكتفاء بالدفاع، ورد الهجوم إلى وقت الانتهاء من زراعة الذرة (البيضاء)/الدخن (Sorgho)، وعدم المبادرة بالهجوم إلا بعد الانتهاء من الأشغال الفلاحية[٢٨]، وهذه ظاهرة عامة شهدها جل التراب المغربي، ففي فصول الاشتغال بفلاحة الأرض من زراعة وحصاد، كانت المقاومة المغربية تشهد فتورا في حدتها وتمددها، وكان المستعمر على وعي بذلك، وهو ما عكسته صحافته، وبالإضافة إلى الأشغال الفلاحية، كانت هناك عوامل أخرى، ساهمت في تراجع المقاومة وخفوت جذوتها كالصراعات البينية، التي كانت وراء وضع حد لمسيرة الريسوني.

رابعًا: إشارات نهاية أحمد الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية

تزامنت الإشارات الأولى، التي التقطتها الصحافة الفرنسية، لبداية أفول نجم أحمد الريسوني مع ما أصبح يشكله خصمه في بسط النفوذ على الريف: محمد بن عبد الكريم من خطر على الوجود الإسباني شمال المغرب، وما تسببت فيه معركة أنوال من تصدع في الجبهة السياسية الإسبانية، فقد أدى الإخفاق المتواصل لإسبانيا في المغرب، الذي بلغ ذروته مع هزيمتها في

أنوال، إلى خلق شرخ في صفوف وزراء الحكومة الإسبانية[٢٩]، وبلغ اختلاف الرأي فيما يتعلق بالمغرب بين الوزراء ومورا "رئيس الوزراء الإسباني" حد التناقض البين[٣٠]، مما دفع برئيس الوزراء الإسباني، بمطالبة وزرائه العودة إلى رؤساء أحزابهم قصد التشاور للخروج بموقف جلي وصريح ونهائي حول المغرب، قبل عرض البرنامج المتعلق بالمغرب على الكورتيس، ومناقشته.

تنبهت الحكومة الإسبانية إلى إحدى أخطائها بالمغرب، فسارعت إلى وقف عملياتها العسكرية بالريف، بهدف إنجاح المفاوضات المتعثرة، التي كانت تباشرها مع محمد بن عبد الكريم الخطابي لإطلاق سراح أسراها.

لم يكن هذا هو المعطى الوحيد، الذي دفع برئيس الحكومة إلى السعي للحصول على رأي الأحزاب، بل كذلك الاستياء العام الذي ساد جميع الأوساط حول الريف. وقد عكست مراسلات مراسلي الحزب الإسبان هذا الاستياء الشعبي، الذي فاقمت من حدته الأخبار الواردة من المغرب والمتعلقة بسقوط أربعين من الضباط[٣١]. أعلن مجلس الحكومة انتهاء الحملة العسكرية بالريف[٣٢]، إلا من بعض العمليات الثانوية الضرورية لدعم التغلغل العسكري، في انتظار ثمار عملية التهدئة السياسية، التي كانت تقودها بالريف. إلا أن مشاركة برنكر في اجتماع مالقة[٣٣]، عصف بأحلام مورا وحكومته، في عدم الاعتماد كليا على العمل العسكري بالريف، إذ وجدوا أنفسهم مجبرين – خلال اجتماع مالقة – على الرضوخ لمطلب برنكر الداعي إلى ضرورة توجيه عملية عسكرية ضد الحسيمة.

وعلى العكس من هذا، خرج اجتماع مالقة، فيما يتعلق بالمنطقة الغربية للريف، بوضع حد للعمليات العسكرية ضد الريسوني. هل يمكن أن نعتبر هذا استهانة من إسبانيا لما أصبحت عليه المقاومة التي يقودها الريسوني بالريف الغربي؟ هل يمكن أن نعتبره إشارة من الصحافة الفرنسية على بداية أفول نجم الريسوني؟ خاصةً إذا علمنا أنه في هذه الأوقات بالذات لم تستطع إسبانيا التخلي بشكل تام عن العمل العسكري بالريف ككل. فقد تأرجح الوزراء، في تناقض مع أنفسهم، بين الظهور بمظهر دعاة السلمية (تزلفا للرأي العام الإسباني، الذي ساءته الخسائر الجسيمة بالريف)، والتشبث باستمرار العمليات العسكرية، رضوخًا لمطالب العسكريين، خارجين بتوليفة قوامها: نهاية الحملات العسكرية الترهيبية، واستمرار العمليات العسكرية ذات الطابع الأمني والدفاعي المحض[٣٤].

ويتبين لنا استهانة الإسبان بقوة الريسوني فيما وجهت إليه من أوامر حتى وهي تمارس ما سمته الصحافة الفرنسية بسياسة العصا والجزرة، التي أضحت العنوان البارز لسياسة إسبانيا بالريف، فقد وجهت إنذارا لكل من الريسوني، وعبد الكريم[٣٥]، داعية الأول إلى إعلان الخضوع، في حين دعت الثاني إلى تسليم الأسرى الإسبان لديه، مهددة إياه في نفس الوقت، إلى أنه إن لم يفعل، فسوف تقوم بتوجيه عملياتها العسكرية ضده،كما قررت فتح قنوات التفاوض (من جديد) مع عبد الكريم من أجل تحرير أسراها، قبل الشروع في توجيه عملياتها العسكرية ضده. توجه القائد العسكري فرنانديز ألمييدا (Fernandez Alméida)، نحو الحسيمة حاملا معه إنذارا أخيرا لعبد الكريم، وفدية بقيمة أربعة ملايين بسيطة لإطلاق سراح الأسرى العسكريين والمدنيين، مهددا إياه في الوقت نفسه، في حالة الرفض، بالشروع – مباشرة – في الهجوم البري والبحري عليه.

في الوقت نفسه، وجهت حكومة إسبانيا إنذارا للريسوني، داعية إياه إلى إعلان الخضوع، علما أن برنكر كان قد صرح في اجتماع بيزارا Pizarra المنعقد في ٦ فبراير، بكون الحملة العسكرية بالجهة الغربية، ستتطلب – من الوقت – ثمانية أيام لإجبار الريسوني على الخضوع، إلا أن هذا الأخير لم يكن ينتظر العنف العسكري الإسباني، ليمارس عليه ليعلن خضوعه، بل أسرع إلى إبراز مؤشرات على ذلك، من خلال إقدامه على إطلاق سراح ناظر الحبوس سيدي السلاوي، وكريمة باشا تطوان، والتاجر التطواني سي المفوق(Si-El-Muffak) دون قيد أو شرط. وكان هؤلاء جميعا قد اختطفوا من تطوان – منذ شهر قبل إطلاق سراحهم – من طرف الثائر المعروف بالجهة الغربية من الريف فارتيتي (Fartiti)، الذي سلمهم إلى حميدو سوكان (Hamido Succan) أحد القادة الكبار (ليوتنو) ضمن قوات الريسوني.

لكل ذلك يمكن أن نقول إن إسبانيا كانت على علم بحجم قوة الريسوني، الذي انهار واستجاب للمطالب الإسبانية دون تعنت على غير المعتاد منه، والأنكى من ذلك أنه على الرغم من مؤشرات الخضوع[٣٦]، التي أبداها الريسوني لإسبانيا، فإنها أبدت رغبة شديدة في التخلص منه بشكل نهائي، فعزمت القيادة العسكرية العليا الإسبانية على إبعاد الريسوني إلى حدود منطقة النفوذ الفرنسي[٣٧]، وفي نفس الوقت عبرت، وهي تتخذ هذا القرار، عن تخوفها من سماح فرنسا للريسوني بتجاوز الحدود، واللجوء إلى أراضيها. وقد علقت الصحافة الفرنسية على

تخوفات إسبانيا بالقول: "إن إسبانيا لم تكن على علم بأن الريسوني قد راسل السلطات الفرنسية طالبا منها الحماية، إلا أن الماريشال ليوطي ومعاونيه لم يلقوا إليه بالا، وصموا آذانهم عن دعواته، التي بلغت العشرين دعوة"[٣٨].

وقفت الصحافة الفرنسية كثيرًا عند هذه التخوفات وأرجعتها إلى زيارة مجموعة من الريفيين لباريس[٣٩]، الأمر الذي عدته سلوكًا مستغربًا من دولة طالما استقبلت على أرضيها – خلال الحرب العالمية الأولى – الكثير من أعداء فرنسا، وكان على رأسهم المولى عبد الحفيظ. وأكدت على أنه على الرغم من الحملة الصحفية، التي تقودها الجرائد الإسبانية ضد فرنسا، فإن هذه الأخيرة كانت ولا تزال تنهج سياسة محايدة وقويمة إزاء إسبانيا. وبالفعل فقد حصل ما روجته الصحافة الفرنسية من استشعار إسبانيا ضعف الريسوني، وتراجع قوته بالريف الغربي، بإعلانه الخضوع لإسبانيا وفق جميع الشروط التي فرضتها، وإن اعتمدت في مصادرها على الإشاعات الرائجة بالمنطقة الغربية، التي تكاد ترقى إلى اليقين.

والواقع أن إسبانيا خدعها حدسها فيما يتعلق بالريسوني، حيث أبدى تصلبا في مفاوضاته معها، وأثبت أنه شخصية سياسية بامتياز لها القدرة على استشراف المستقبل السياسي للمنطقة، بناء على قراءته للحالة السياسية التي كانت تعيشها إسبانيا. فقد قدم برنكر، الذي عهد له بمفاوضة الريسوني، استقالته[٤٠]. وهذا ما توقعه الريسوني قبل حدوثه. بل الأكثر من ذلك كان تعثر المفاوضات معه من بين أحد العوامل التي أدت إلى سقوط حكومة مورا. وفي هذا تقول جريدة "لافيجي ماروكين" وهي تعدد مظاهر فشل حكومة مورا في الريف "مماطلة الريسوني ومراوغته، وهو المحاصر من كل الجهات، من طرف قوات الإسبانية، مما جعله قاب قوسين أو أدنى من قبضة الاحتلال، التي كانت لا تحتاج سوى لخطوة واحدة فقط، ليقع في براثنها، لكن سياسة المراوغة والمماطلة والتسويف، التي نهجها، كانت تؤجل تلك الخطوة الأخيرة"[٤١].

ومع سحب برنكر لاستقالته كقائد للقوات الإسبانية بالريف، تحت الضغط الشعبي، وحصوله على التزام من وزير الحربية في الحكومة الجديدة الجنرال أولاكر (Olaguer)، الذي صرح بأنه سيدعم خطة برنكر، ويولي كامل الرعاية لها، على الرغم من اختلاف رؤيتيهما[٤٢]. هنا ستبدأ مرحلة جديدة من مراحل العلاقات بين إسبانيا والريسوني شمال المغرب. مرحلة ستبصم على نهاية المقاوم المغربي، لكن ليس بيد إسبانيا، على أي حال، التي انقلب عليها تحت سحر فتنة استعادة أمجاده القديمة، بعد أن أبدى بعض مؤشرات الخضوع. عزت الصحافة الفرنسية هذا التغير في موقف الريسوني إلى الأحلام التي أضحت تراوده في العودة إلى وضع ما قبل ١٩١٨، الوضع الذي كان فيه الريسوني سيدا مطلقا بالجهة الغربية، في حالة هزيمة إسبانيا واستسلامها للأمر الواقع، وإعلان عجزها عن السيطرة على المنطقة، لذلك كان يميل كل الميل إلى التسويف والمماطلة، وتأجيل الحلول النهائية ما أمكن له ذلك.

خامسًا: انهيار الريسوني من خلال الصحافة الفرنسية

قبل سقوط الريسوني، بدت الصحافة الفرنسية متعاطفة معه إلى الدرجة التي استهجنت معها طريقة التعامل الإسباني مع سلطان الجبال، كما نعتته، فقد رأت في التفاوض المباشر للجنرال أيثبورو (Aizpuru) معه، حيث عقدا لقاء في حصن سيدي موسى (الإسباني) بنواحي تازورت في ١٩ أكتوبر[٤٣] ١٩٢٣، تناولا فيه مجموعة من القضايا، كان على رأسها مسألة النفوذ والامتيازات المطلقة، التي كان قد حازها، من قبل في عهد الحكومة السابقة، والتي أثارت حينها غضب وسخط الكثير من الأوساط بمدريد. وكان قد تم تجديد التعبير عن هذا الغضب والسخط، من لدن المجلس العسكري، الذي صرح بصدد الريسوني أنه غير معني بالاتفاقات السابقة، التي عقدت معه، وخولته الكثير من الامتيازات.

رأت الصحافة الفرنسية في التعامل الإسباني مع الريسوني بهذه الطريقة خطأً دبلوماسيًا، فاعتبرت جلد الماضي بكل هذه القسوة، والتنصل من اتفاقياته، واعتباره سوادًا مطلقًا، بالعمل غير السياسي، وينم لدى المجلس العسكري عن قصور وضآلة في الحس البرغماتي، الذي يُعد جوهر كل عمل سياسي، خاصة إذا ما تم استحضار الاستقبال الحاشد والحافل بالأنصار، الذي خصصه الريسوني للمندوب السامي الإسباني، كإشارة منه على أنه ليس بالرجل (الضعيف) الذي يقبل بشروط الاحتلال كلها، وبإملاءاته.

على الرغم من مظاهر الود التي رصدتها الصحافة الفرنسية بعد نهاية المفاوضات بين الطرفين، فإنها شككت صراحة في نوايا إسبانيا اتجاه الريسوني، في قراءة منها للواقع الجيوسياسي للمنطقة، فكتبت "لافيجي ماروكين": "على الرغم من هذا الود الظاهر بين الريسوني وإسبانيا، فإن هذه الأخيرة لم تكن لتحجم عن أية فرصة تعرض لها، لتحقيق التوازن داخل النسيج الأهلي، ولم تكن ترضى بالركون لقوة واحدة ووحيدة، ووضع الريف الغربي كله في سلة الريسوني، فقد كانت تتلكأ،

وتناور، وتسوف، في انتظار ما ستتمخض عنه حركة عبد المالك[٤٤]، الذي طالما سعت إلى جعله منافسا للريسوني بالمنطقة، ونقطة ارتكاز لسياسة فرق تسد"[٤٥].

رغم هذا الطعن، من الصحافة الفرنسية، في مصداقية إسبانيا، والتشكيك في التزاماتها، ووعودها اتجاه الريسوني، إلا أن الصحافة الأمريكية رأت في ذلك مخاضًا لميلاد سياسة جديدة عنوانها السعي للانتقال من نظام الحماية، الذي أثبت فشله إلى نظام الصداقة. النظام الجديد، الذي شكل محور العقد الذي تم إبرامه مع الريسوني وكانت إسبانيا تريد تطبيقه كذلك مع محمد بن عبد الكريم الخطابي.

غير أن هذه السياسة التي قادها برنكر بالريف، والتي كانت محط إشادة من لدن الصحافة الفرنسية، واعتبرتها نموذجا للسياسة الناجحة، المستلهمة من النموذج الفرنسي، وهي السياسة التي يمكن أن نطلق عليها: سياسة التهدئة المسلحة[٤٦]، التي كان بإمكانها أن تحرز النجاح لولا تظافر مجموعة من العراقيل التي حدت من امتداداتها، وهي عراقيل كان منشأها السياسة الممارسة داخل إسبانيا، وليست تلك الممارسة بالريف.

سادسًا: تداعيات انهيار الريسوني على الوضع في الريف من خلال الصحافة الفرنسية

كان للصحافة الفرنسية وقفات مع تداعيات انهيار الريسوني على الوضع السياسي بالريف، وقبل أن تخوض في ذلك مهدت له واصفة منحدره نحو مغيبه الأبدي بلغة حزينة مشفقة على نهايته المأساوية: "حوصر الريسوني، الذي طالما نعت بكونه الرجل الذي لا يقهر، داخل قلعته بتازورت بالجبل المقدس، حيث يرقد جثمان مولاي عبد السلام."[٤٧]

وفي مقالات تمتزج وتتقاطع فيها الرؤية الأنثربولوجية والسياسية لهذه النهاية الدرامية، كتبت «L'Echo du Maroc» "لقد سلم الريسوني المريض المتهالك، الذي هده المرض وأضناه، نفسه لقوات عبد الكريم معلنا تبعيته المطلقة لهذا الأخير، مفتديا نفسه بذبح عدد من العجول على شرف قوات عبد الكريم، وواضعًا رهن إشارتها قلعة تازورت بعتادها وعدتها، بما فيها الأسلحة التي تركتها إسبانيا بعد إخلائها للريف الغربي الخاضع لنفوذه، في إطار سياسة الانسحاب، التي نهجها ريفيرا، بشمال المغرب، بعيد انقلابه ...وفي الأخير توج الريسوني سقوطه المدوي بمبايعة عبد الكريم قائدًا أعلى، وتمترسه خلفه في حربه المقدسة على الاحتلال. وعلى إثر ذلك نال الريسوني عفو عبد الكريم وصفحه، شرط عدم مغادرته لقلعته بتازورت."[٤٨]

وفي مقال آخر بسطت الوضع السياسي الناتج عن انهيار الريسوني، وفق قراءة لجريدة "التايمز" البريطانية "كان من نتائج سقوط الريسوني، أن انضم أكثر أتباعه إلى عبد الكريم، بينما هرب بعضهم. وأسفر هذا السقوط كذلك عن أسر شيخ جبال حبيب (Jibal Habib)، أما قايد بني مسوا (Beni Msoua) جلال (Zallal)، فقد هرب لاجئا بالقرب من حدود منطقة طنجة الدولية."[٤٩]

وإذا كانت "التايمز" البريطانية قد رأت في انهيار الريسوني بعثرة لخريطة الولاءات القبلية بالريف[٥٠]، لأنه أصبح من المتوقع وحدة منطقتي الريف الغربية والشرقية، فإن الصحافة الفرنسية، وهي تعرض تحليلها للأوضاع بالريف، وجدت فرصة للتعبير عن مخاوفها من وقوع الريف تحت وصاية قوة ثالثة، فذكرت بالوعد الذي أخذته إسبانيا على نفسها لفرنسا في اتفاقية ١٩١٢، التي أبرمت بين الدولتين، والقاضي بعدم تنازل إسبانيا عن حقوقها بالريف لقوة ثالثة.

وقد جاءت هذه المخاوف نتيجة لانهيار السلطة الظاهرية لدولة الاحتلال بالريف الغربي بانهيار الريسوني الذي شكل الريف الغربي في عهده منطقة خلفية ذات أهمية استراتيجية خاصة لثغر سبتة المحتلة، ومع هذا الانهيار لم يعد أمام إسبان الثغر المذكور سوى التطلع بأبصارهم نحو وجهة جبل طارق، يستمدون العون من الحامية البريطانية هنالك في حربهم الدفاعية، التي كانوا يخوضونها بسبتة ضد الهجومات الريفية. وأمام غياب سيطرة فعلية لإسبانيا على الريف، دعت الصحافة الفرنسية حكومة المتروبول إلى ضرورة التدخل بالمنطقة والحلول محل إسبانيا، وحثت – قبل القيام بذلك – على القيام باستشارة إيطاليا، وابريطانيا التي لن تقبل بسيطرة قوة أخرى، وإن كانت أوروبية صديقة على الساحل الإفريقي المقابل لجبل طارق، إلا بعد حصولها على ضمانات تحفظ حقوقها[٥١].

لم تكتفي الصحافة الفرنسية بتحريض حكومتها على ضم الريف فقط، بل وجهت نقدًا لاذعًا لسياسة إسبانيا بالريف، فقد عابت عليها زئبقيتها بتبرئها من الريسوني المهزوم، وادعائها أنه لم يكن يتصرف إلا بما تقتضيه مصلحته الخاصة[٥٢]، وزعمها أنها لم تعترف ولن تعترف بشرعية أية سلطة كانت بالريف سوى بشرعية سلطة المخزن. كما استهجنت الصحافة الفرنسية هذا الموقف الإسباني من الريسوني الذي زعمت أنه كان يحارب

باسم إسبانيا ولمصلحتها بهدف استنزاف قوى عبد الكريم[٥٣]. والملاحظ أن هذا التعاطف مع الريسوني من لدن الصحافة الفرنسية، ظل قائما حتى بعد أفول نجمه، وفرض الإقامة الإجبارية عليه من طرف منافسه على الريف، وخصمه محمد بن عبد الكريم الخطابي، داخل قلعته **بتازورت**، نلمس ذلك فيما ستخصصه من مراثي حزينة بمناسبة رحيله عن الدنيا إلى الأبد.

سابعًا: مرثية الصحافة الفرنسية الحزينة لرحيل الريسوني

كانت الصحافة الفرنسية كلما تناولت موضوع رحيل الريسوني، الذي وقعت في زلات عدة بشأنه، إذ أعلنت عن رحيله أكثر من مرة خطأ، إلا وتناولته من زاوية تداعياته على الوضع السياسي للإسبان بالمنطقة، "رحل الريسوني تاركًا وراءه تركة ثقيلة، في نظر إسبانيا، ومخلفا مجموعة غير منسجمة من الورثة ممثلين في قادته العسكريين المنقسمين على أنفسهم أشد الانقسام بين مؤيد لإسبانيا تأييدا مطلقا، ومعارض لها أشد المعارضة، معارضة يستحيل معها قيام أي تفاهم بين الطرفين، وكان الخريرو من أبرز عناصرها وكان قد اكتسب شهرة واسعة بفعل عمليات الغزو والاختطاف، التي نفذها داخل تطوان نفسها، فكان بذلك نموذجا مصغرا لأستاذه الريسوني"[٥٤].

الواقع أن مرد هذا التخبط الذي كانت تقع فيه الصحافة الفرنسية فيما يتعلق برحيل الريسوني، يرجع بالأساس على أنه ظل مادة دسمة يرددها من حين لآخر مراسلو الصحافة الدولية بطنجة. كما شاب هذه القضية الكثير من الالتباس، واعتبر قضية أمن دولة من طرف البعض لتداعياتها على الوضع السياسي والعسكري الإسباني بالريف، وقد وقعت –أي الصحافة الفرنسية- لمرتين اثنين في هذا الخطأ، وكانت تتناول واقعة موته، وتحيطها بالألغاز، ولم تستطع الانفلات من إسار رؤيتها الاستشراقية، بأن جعلت الغلمة والشبق والعشق اليائس، وراء موته مسمما، نتيجة ما كان يعرفه القصر الضاج بالجواري والإماء من صراع ومناكفات على قلب السيد[٥٥].

لقد أخبرت برحيله في المرة الأولى بتاريخ: ١٦ شتنبر[٥٦] ١٩١٤، ثم مرة ثانية بتاريخ: ٢٠ دجنبر ١٩٢٣، وكانت في كل مرة تحيط الخبر بالدراسة والتحليل، وكانت قراءاتها تهتم أكثر بما هو سياسي، مادام الأمر يهم ويؤثر على منطقة نفوذ فرنسا بالمغرب، وكانت تتعاطف مع وجوده ليس حبا فيه، ولكن لما يخلقه من توازن في منطقة النفوذ الإسباني. فوجوده كان بمثابة رمانة الميزان بين كفتي قوة محمد بن عبد الكريم الخطابي وإسبانيا "الدولة التي كانت في نظرها لا ترقي إلى مستوى دولة استعمارية"، وهذا ما كان يحفظ مصالحها، فوجود دولة استعمارية ضعيفة على تخومها تنافسها على أرض المغرب، هي مسألة في صالحها، وانشطار المقاومة المغربية بين رأسين، كان أيضا في صالحها. وقد كانت على حق فما إن تمكن محمد بن عبد الكريم الخطابي من إخضاع الريسوني لسلطته، وفرض الإقامة الإجبارية عليه، حتى اختلت موازين القوى، وأصبحت ليس فقط منطقة النفوذ الإسباني مهددة لوحدها، بل كذلك المنطقة الفرنسية، مما سيدفع بالقوتين الاستعماريتين المتنافستين إلى توحيد جهودهما للقضاء عليه.

نقول هذا لنعرف فقط مغزى هذا التعاطف الذي لقيه الريسوني من طرف الصحافة الفرنسية، وجعلها تؤبنه، حين تأكد لها بشكل جازم رحيله، وهو ما أكدته لقرائها. وقد أوردت مقالا رائعا لبول مودينا، في تأبين سلطان الجبال، لم يخلو من براعة أدبية، آسرة، وفاتنة، وحزينة.

نشرت "لاديبش ماروكين" مقالاً في رثاء الريسوني لبول مودينا، الذي أكد فيه، بما لا يدع مجالاً للشك، بكون الريسوني قد لبى داعي ربه، وأن الموت قد غيب قسمات شريف تجري في عروقه دماء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأبد، وصرح الكاتب في أسى أن نقيب الشرفاء قد رحل عن الدنيا، ومعه رحلت المهابة، ورحل الجلال في أبهى صوره البشرية. وختم مودينا مقاله بالإشارة إلى أن الموت قد أنجى سلطان الجبال من مهانة وذل الأسر، الذي فرضه عليه عبد الكريم، وتمنى على الله أن يتلقى الريسوني لقاءً كريمًا يليق بمكانته[٥٧].

خَاتِمَةٌ

إن أقل ما يقال عن الصورة التي رسمتها الصحافة الفرنسية للريسوني، أنها صورة رجل ارتقت توصيفاتها له به إلى مستوى الأسطورة، وقد كان بالفعل كذلك فقد اختلفت، تمامًا كالأساطير، الكتابات والآراء في تفسير مواقفه، لأنه بقدر ما كان مهمومًا بمحاربة الاستعمار، كان كذلك يبحث عن تحقيق مصالحه الذاتية، وبناء مساره السياسي، وفرض نفسه سيدًا مطلقًا على الريف كله، مما جعله يلجأ إلى طلب مساعدة الاحتلال الإسباني من أجل فرض سطوته على قبائل الشمال المغربي، حين كانت تعوزه قدراته الذاتية على تحقيق ذلك، وهو ما لم تكن تفهمه القبائل، أو تستسيغه، مهما بذل من الأعذار، مما فرض عليه التظاهر أمام القبائل بمعاداة الإسبان، في الوقت الذي كان يخدم مشروعهم التوسعي بالشمال، لعلمه أن مستوى إدراكها لن يستوعب أبدا أن الهدف من سياسته ترويض الاستعمار، والتخفيف من بطشه، ليقينه أن لا قبل له، ولا لغيره بالوقوف في وجهه. عمومًا فإن ما يشفع له أنه حين أفل نجمه، فضل الخضوع لغريمه ومنافسه، ابن جلدته، على الارتماء في أحضان المحتل الغازي.

الاحالات المرجعية:

(١) أدى انتحار خليفة السلطان بالشمال إلى إرباك سياسة الإسبان في مرحلة حساسة وانتقالية، وشغلت بال سياسييهم، وعطلت رحلة الجنرال (Aizpuru)، على الرغم من الطابع الصوري لمنصبه، الذي لا يتعدى الواجهة التمثيلية (للسلطان)، فسي المهدي وإن كان صديقا للدولة الحامية، فإنه لم يسجل له يوما أن كان ذا جدوى لدولة الاحتلال، أو قدم لها منفعة أو غوثا في أوقات العسرة إلى الدرجة التي جعلت البعض من الإسبان يتساءل عن جدوى العمل بالاتفاق الفرنسي – الإسباني لسنة ١٩١٢، الذي حدد طريقة تعيين خليفة السلطان. وعلى الرغم من هذه الأصوات المستهينة بالموضوع، فقد كانت إسبانيا حريصة على تعيين أخلص خلصائها في المنصب المذكور، وروجت صحافتها لأسماء مغربية، لتولي منصب خليفة السلطان بمنطقة نفوذها، ورشحت (الجرائد) بقوة سي عبد الرحمان الصديقي، الذي أثنت عليه « A.B.C » كأحد باشوات الشمال، الذي اشتهر بحياديته، فقد كان يقف على مسافة واحدة من السلطان والقوى الغازية، الأمر الذي أثار استغراب جريدة (La Vigie Marocain)، واندهاشها، وتساءلت كيف تثني جريدة « A.B.C » على شخص مثل هذا، وخليفة السلطان يضطلع بدور الوسيط والناطق باسم السلطان مع القوى الخارجية، إلا أن ريب المنون وضعت حدًا لتضارب الصحافة الأجنبية، في جدارة واستحقاق عبد الرحمان الصديقي لهكذا منصب، حين اختطفته بطنجة أياما قلائل بعد ترشيحه، واختارت له مقاما (بين الأموات) غير مقام خليفة السلطان (الدنيوي). ومن الأسماء، التي تم تداولها بشدة، آنذاك، كان اسم إدريس الريفي عامل المخزن بالريف، الذي حظي بدعاية كبيرة من طرف الصحافة الإسبانية.

من المعروف، فإن مراسيم اختيار خليفة السلطان تتم عبر ترشيح اثنين من الأهالي، وتقديم اسميهما إلى السلطان، الذي له الحق في اختيار أحدهما. وتساءلت الجريدة: إن كان مولاي يوسف سيعين أحد الأسماء المرشحة من لدن إسبانيا، دون أن يأخذ منه المواثيق والعهود، خاصة وأنه سيفقد سلطته على الخليفة فور تعيينه، الأمر الذي عانى منه أشد المعاناة زمن الخليفة سي المهدي، الذي تطاول على جميع سلط واختصاصات السلطان، ولم يعد يرجع إليه في أمر من أمور المنطقة الشمالية. رجحت الجريدة لجوء السلطان مولاي يوسف إلى أخذ العهود والضمانات من الخليفة الجديد، تفاديا لتكرار تجربة سي المهدي المريرة. هذا الأخير الذي تولى الخلافة منذ سنة ١٩١٣، وبذلك يكون أول خليفة للسلطان بمنطقة النفوذ الإسباني، ولم تطرح مشكلة الخلافة منذ ذلك التاريخ إلى حين وفاته، انظر:

La Vigie Marocaine, Qui succédera au Khalifat ? Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4587, (Casablanca, dimanche 04 novembre 1923), p, 1.

La Vigie Marocaine, Sous le parasol, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4581, (Casablanca, dimanche 28 octobre 1923), p, 1

(2) **La Vigie Marocaine**, Raissouli est mort. Paris 19 décembre, Le Daily Mail annonce que Raissouli est mort, On pense qu'il a été empoisonné, 16(ème) année – N° 4626, (Casablanca, jeudi 20 décembre 1923), p, 1.

(٣) تحدث والتر هاريس عن تجربة الاعتقال في الفصل الثامن من كتابه "المغرب المختفي"، انظر:

Haris, Walter, **Le Maroc disparu**, Edition Dar Al Aman 2011, Rabat, de 197 à 267.

(٤) ألهمت هذه الحادثة السينما الأمريكية، فأنتجت فيلما سنة ١٩٧٥ تحت عنوان: العاصفة والأسد، وكان من إخراج جون ميليوس وبطولة الممثل الشهير شون كونري.

(5) **La Vigie Marocaine**, G.L, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4629, (Casablanca, dimanche 23 décembre 1923), p, 1.

(6) Ibidem.

(7) **La Vigie Marocaine**, Raissouli est mort. Paris 19 décembre, Le Daily Mail annonce que Raissouli est mort, On pense qu'il a été empoisonné,…op, cit, p, 1.

(8) **La Dépêche Marocaine**, Raïssouli deviendrait Khalifa de la zône espagnole, 8(ème) année – N° 2285, (Tanger, vendredi 5 juillet 1912), p, 2.

(9) **La Dépêche Marocaine**, Dans la Zone Espagnole, 8(ème) année – N° 2308, (Tanger, dimanche 28 juillet 1912), p, 1.

(10) **La Dépêche Marocaine**, L'occupation d'Arzila, Dans la zone espagnole, 8(ème) année – N° 2332, (Tanger, mercredi 21 août 1912), p, 1.

(11) **La Dépêche Marocaine**, L'occupation d'Arzila, 8(ème) année – N° 2333, (Tanger, jeudi 22 août 1912), p, 1.

(12) Ibidem.

(١٣) لم يكن اضطراب الأوضاع وعدم استقرارها وقفا على الضفة الجنوبية للمتوسط بل طالت كذلك ضفته الشمالية، التي بلغت مستوى عاليا من الاحتراب السياسي، انظر في هذا بالنسبة للضفة الجنوبية:

La Dépêche Marocaine, Les Tribus se battent entre elles à Alhucemas, Dans le Rif, 8(ème) année – N° 2392, (Tanger, dimanche 20 octobre 1912), p, 1.

بالنسبة للضفة الشمالية:

La Dépêche Marocaine, Le premier Ministre est tué d'un coup de revolver, Assassinat de M. Canalejas, 8(ème) année – N° 2415, (Tanger, mercredi 13 novembre 1912), p, 1.

(14) **La Dépêche Marocaine**, Billet d'Arzila (de notre correspondant). Arzila, 30 juillet, 8(ème) année – N° 2312. (Tanger, jeudi 1(er) août 1912), p, 2.

(15) **La Dépêche Marocaine**, Le Chérif battu compte 30 hommes tués, Ahl Sherif contre Raissouli, El – Ksar, le 24 juillet, 8(ème) année – N° 2307, (Tanger, samedi 27 juillet 1912), p, 1.

(16) **La Dépêche Marocaine**, Dans la zone espagnole, 8(ème) année – N° 2308, (Tanger, dimanche 28 juillet 1912), p, 1.

(17) **La Dépêche Marocaine**, Les Troubles autour d'Arzila,.Dans la zone espagnole, 8(ème) année – N° 2327, (Tanger, vendredi 16 août 1912), p,1.

(18) **La Dépêche Marocaine**, Pour Arzila, (De notre correspondant particulier). Larache, 17 août, 8(ème) année – N° 2330, (Tanger, lundi 19 août 1912), p, 2.

(19) **La Dépêche Marocaine**, L'occupation d'Arzila, 8(ème) année – N° 2338, (Tanger, mardi 27 août 1912), p, 1.

(٢٠) علقت على ذلك حرفيًا بالقول:

« ….et que cette affaire présente pour nous-mêmes, par ses répercussions fatales, une grande importances… » Voir : G (Louis), **La Vigie Marocain**, En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919), p, 1.

(21) G (Louis), **La Vigie Marocaine**, Le mouvement du Général Sylvestre. En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919), p, 1.

(22) G (Louis), **La Vigie Marocaine**, Occupation deux objectifs, En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919).p.1

(23) **La Vigie Marocaine**, G (Louis), Le travail d'arrière de Raissouli, En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195. (Casablanca, samedi 4 octobre 1919).p.1.

(24) **La Vigie Marocaine**, Révolte militaire en zone espagnole, Au Maroc, 12(ème) année – N° 3193, (Casablanca, jeudi 2 octobre 1919), p, 1.

(25) **La Vigie Marocaine**, G (Louis), Deux postes espagnols enlevés. En zone espagnole, 12(ème) année – N° 3195, (Casablanca, samedi 4 octobre 1919), p, 1

(26) **La Vigie Marocaine**, Au Maroc. Espagne, 12(ème) année – N° 3204, (Casablanca, lundi 13 octobre 1919), p, 1.

(27) **L'Echo du Maroc**, La retrai de Raïssouli, 7(ème) année – N° 2052, (Rabat, samedi 11 octobre 1919), p, 1

(28) **La vigie Marocaine**, Raïssouli et les espagnols, Le Maroc militaire, 13 (ème) année – N° 3352, (Casablanca, vendredi 19 mars 1920), p, 1.

(29) **La Vigie Marocaine**, Le Cabinet Maura est divisé sur la question marocaine, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3939, (Casablanca, vendredi 3 février 1922), p, ٢.

(٣٠) كانت طبيعة الخلاف بين مورا ووزرائه ترجع إلى طبيعة الأطروحة التي يتبناها (مورا)، والتي تجعله بمنأى عن أنصار الحل العسكري المطلق، إذ كان دوما من دعاة عدم الاستكانة إلى القوة العسكرية وحدها، التي لا يجب أن تعتمد إلا في أدنى مستوياتها، كما اتكأت أطروحته على فكرة تتلخص في فرض السيطرة على السواحل، واعتماد التغلغل السياسي البطيء في المناطق الداخلية. وكان السبب الثاوي وراء تبني مورا لهكذا أطروحة، يتمثل في كون القضية المغربية –في نظره- لا ترقى إلى مستوى قضية احتلال أو حتى حماية فعلية، بل هي مجرد قضية حدود ليس إلا.

(31) **La Vigie Marocaine**, On retrouve quarante officiers, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3939, (Casablanca, vendredi 3 février 1922).p.1.

(32) **La Vigie Marocaine**, L'Espagne décide l'arrêt des opérations, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3942, (Casablanca, lundi 6 février 1922), p, 1.

(33) La Campagne continue… . L'Espagne au Maroc, **La Vigie Marocaine**, 15(ème) année – N° 3945, (Casablanca, jeudi 9 février 1922), p, 1.

(34) **La Vigie Marocaine**, La Campagne finie tout en continuant, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3947, (Casablanca, samedi 11 février 1922), p, 1.

(35) **La Vigie Marocaine**, Un double ultimatum à Raïssouli et Abd –El – Krim, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3948, (Casablanca, mercredi 15 février 1922), p, 1.

(٣٦) كان الوحيد في الحكومة الإسبانية، الذي شكك في نوايا الريسوني، وخرج عن التوجه الرسمي فيما يتعلق بالريسوني، رئيسها مورا، حيث صرح بهذا الصدد:

« Avec Raïssouli on ne peut jamais être sûr, dit-il ». Voir: **La Vigie Marocaine**, G.L, Dans le Riff, 15(ème) année – N° 3979, (Casablanca, mardi 21 mars 1922).p,1.

(37) **La Vigie Marocaine**, La France Sait rester neutre, L'Espagne au Maroc, 15(ème) année – N° 3949, (Casablanca, jeudi 16 février 1922), p.1.

(38) Ibidem

(٣٩) أشارت جريدة (La Vigie Marocaine) إلى حديث الصحافة الفرنسية عن زيارة ثلاث شخصيات ريفية لباريس، كان من بينهم ابن أخ محمد بن عبد الكريم الخطابي. وقد اعتبرت الصحافة الفرنسية، زيارة هؤلاء لباريس، لا تكتسي طابعا سياسيا، ولا علاقة للسلطة الفرنسية بها، انظر:

Des Riffains à Paris. L'Espagne au Maroc, **La Vigie Marocaine**, 15(ème) année – N° 3942, (Casablanca, lundi 6 février 1922), p, 1.

(40) **La Vigie Marocaine**, Un départ gros de conséquences, La démission du général Bernguer, 15(ème) année – N° 3972, (Casablanca, dimanche 12 mars 1922), p, 1.

(41) **La Vigie Marocaine**, G, L, Deux démissions, Choses du Riff, 15(ème) année – N° 3973, (Casablanca, lundi 13 mars 1922), p, 1.

(42) **La Vigie Marocaine**, G.L, Reprise de démission et reprise d'offensive, 15(ème) année – N° 3979, (Casablanca, dimanche 19 mars 1922), p, 1.

(43) **La Vigie Marocaine**, Une entrevue avec Raissouli, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4575, (Casablanca, dimanche 21 octobre 1923), p,1.

(٤٤) يجعل ميشو بيلير عبد المالك، الذي ولد بدمشق، نجلا للأمير عبد القادر الجزائري في حين يراه جرمان عياش حفيدا له، أما جريدة (Le Progrès Marocain) فتزعم كونه ابن أخ عبد القادر. بدأ حياته العملية داخل الجيش العثماني، وترقى فيه إلى درجة ضابط، وعند نزوله بالجزائر انخرط في جيش بوحمارة. ولما ساءت العلاقة بينهما التحق بالمخزن العزيزي في عز صراعه مع حركة عبد الحفيظ المعارضة له، ومع هزيمة المولى عبد العزيز ألقى عليه المولى عبد الحفيظ القبض، إلا نه سرعان ما تم إطلاق سراحه بفضل الوساطات، التي قامت بها المفوضية الفرنسية بالمغرب، بعدها عين مفتشا لطابور البوليس بطنجة وفق قرارات الجزيرة الخضراء. ومع اندلاع الحرب الأوروبية ١٩١٤ ودخول تركيا إلى جانب ألمانيا في نونبر من نفس السنة، اختار عبد المالك معسكره الذي أملته عليه قناعاته الدينية، التي كان يرى وفقها أن الإسلام أمة واحدة، فتخلى عن فرنسا التي كانت تؤمن له معاشه الدنيوي. ومع نهاية الحرب لجأ إلى منطقة النفوذ الإسباني ليستقر بتطوان، ومنها انتقل مع جيشه إلى غياثة وذلك بعد محاولة فاشلة للاستقرار داخل غمارة، ومن غياثة توجه صوب سوق الأحد بكزناية، وانتهى به المطاف في الأخير بكيفان على بعد عشرين كيلو متر من مركز بومهيريس المشيد من طرف الإقامة العامة لمنع القبائل المحاذية للريف من التسلل عبر ممر تازة إلى منطقة النفوذ الفرنسي، انظر:

- **Le Progrès Marocain**, Situation Politique et Militaire du Maroc, Région Fez, 5(ème) année – N° 910, (Casablanca, mardi 7 mars 1916), p, 2.

- Rivet (Daniel), **Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc** 1912 – 1925 (tome 3), Editions l'Harmattan, Paris, p, 108.

(45) **La Vigie Marocaine**, La harka d'Abd – El – Malek. Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4575, (Casablanca, dimanche 21 octobre 1923), p, 1.

(46) «La politique de pacifisme armé» Ibid.

(47) **L'Echo du Maroc**, La capitulation du Raissouli, Raissouli au pouvoir d'Abd – el – Karim, Devant la carence de l'Espagne, 11(ème) année – N° 3761, (Rabat, samedi 31 janvier 1925), p, 1.

(48) **L'Echo du Maroc**, Raissouli aura la vie sauve, La carence de l'Espagne au Maroc, 11(ème) année – N° 3762. (Rabat, dimanche 1(er) janvier 1925), p, 1.

(49) Une version du «times» ce qu'on soit à Tanger. Dans le Riff. **La Vigie Marocaine**. 16(ème) année – N° 4976. (Casablanca, samedi 31 janvier 1925).p.1.

(٥٠) تعني بذلك بعثرة خريطة الولاء بين إسبانيا وخصومها.

(51) **L'Echo du Maroc**, Les conséquences de l'événement, Devant la carence de l'Espagne, 11(ème) année – N° 376٢. (Rabat, dimanche 1(er) janvier 1925), p, 1.

(52) **L'Echo du Maroc**, L'Espagne ne connait pas Raissouli, La carence Espagnole au Maroc, 11(ème) année – N° 376٢, (Rabat, dimanche 1(er) janvier 1925), p, 1.

(53) **La Vigie Marocaine**, Madrid signale que son allié Raissouli aurait été fait prisonnier par les gens d'Abd-el-Krim, Dans le Riff, 16(ème) année – N° 4975, (Casablanca, 30 janvier 1925), p, 1.

(54) **La Vigie Marocaine**, G.L, Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4629, (Casablanca, dimanche 23 décembre 1923), p, 1.

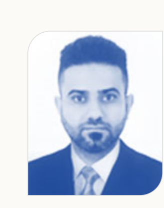
(55) **La Vigie Marocaine**, Cherchez la femme. Choses du Riff, 16(ème) année – N° 4587, (Casablanca, dimanche 4 novembre 1923), p, 1.

(٥٦) **La Vigie Marocaine**, Zone Espagnole. Mort de Raissouli, 7(ème) année – N° 1364, (Casablanca, mercredi 16 septembre 1914), p, 1.

(57) **La Dépêche Marocaine**, Paul Modena, Le sultan des montagnes, 20(ème) année – N° 7306, (Tanger, vendredi 24 avril 1925), p, 1


ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

جوانب من العلاقات الإيرانية – المصرية في وثائق وزارة الخارجية الإيرانية ١٩٢٢ - ١٩٤٥


أ.د. أحمد شاكر عبد العلاق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة الكوفة
جمهورية العراق

مُلَخّصْ

تُعدّ العلاقات الإيرانية – المصرية من بين الموضوعات التاريخية المهمة للغاية على اعتبار أن كلا الدولتين كانتا وما زالا يشكلان مناطق جذب سياسي واقتصادي واجتماعي ليس على المستوى العربي أو الإسلامي، بل على المستوى العالمي. لقد تناولنا محور العلاقات الإيرانية – المصرية خلال مدة تاريخية حرجة للغاية ومهمة وفيها تطورات دولية وكانت غايتنا إعطاء وصف سريع لما تضمنته وثائق وزارة الخارجية الإيرانية التي جاءت باللغة الفارسية وقد رأينا لزامًا علينا كباحثين ومؤرخين إظهار ذلك الوجه المميز والمشرق من تاريخ العلاقات بين البلدين، وبالفعل وجدنا أن تلك الوثائق بما احتوته من معلومات مهمة للغاية تخص بعض جوانب العلاقات بين البلدين منها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهذا ما ضمناه في ثنايا البحث. الهدف الرئيس من البحث هو تسليط الضوء على واحدة من أبرز حلقات العلاقات الدولية بين إيران ومصر من خلال وثائق وزارة الخارجية الإيرانية ولقد أخذنا بالحسبان انتقاء نوع الوثيقة وطبيعة محتواها لكي نبين للقارئ الكريم أهمية أن تكون هنالك روابط تاريخية وعلاقات حقيقية بين بلدين إسلاميين. وقد توصل البحث إلى أن الجانب السياسي والدولي كان هو العلامة الأبرز والحلقة الأهم في محور العلاقات الإيرانية المصرية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ يوليو ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ١٩ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الوثائق الفارسية؛ الوثائق الإيرانية؛ العلاقات التجارية؛ تاريخ إيران؛ علاقات ثنائية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299580


الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد شاكر عبد العلاق. "جوانب من العلاقات الإيرانية – المصرية في وثائق وزارة الخارجية الإيرانية ١٩٢٢ - ١٩٤٥".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٤١ – ١٤٧.

Corresponding author: ahmedalalaq@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تهدف الدراسات الوثائقية لزامًا إلى بيان حقائق لم ترد في المصادر التاريخية العادية تلك المصادر التي اعتدنا واعتاد المؤرخون على تداولها واستخدامها، نحن هنا بصدد استخدام مجموعة وثائقية باللغة الفارسية صادرة عن وزارة الخارجية الإيرانية تضمنت محتوى علمي تاريخي غاية في الأهمية. لذا وجدنا لزامًا علينا البحث في ثنايا هذه الوثائق وتفصيلها وطرح ما تضمنته على شكل بحث علمي يبحث في علاقات أبرز دولتين على المستوى الإسلامي تقريبًا وهما إيران ومصر. الهدف الرئيس من البحث هو تسليط الضوء على واحدة من أبرز حلقات العلاقات الدولية بين إيران ومصر من خلال وثائق وزارة الخارجية الإيرانية ولقد أخذنا بالحسبان انتقاء نوع الوثيقة وطبيعة محتواها لكي نبين للقارئ الكريم أهمية أن تكون هنالك روابط تاريخية وعلاقات حقيقية بين بلدين إسلاميين.

أولاً: معاملة الرعايا الإيرانيون

في ملاحظة عند قراءة نصوص الوثائق الفارسية الخاصة بالعلاقات مع مصر وجدنا أنها اهتمت بشكل كبير للغاية بموضوع طرق التعامل مع الرعايا الإيرانيين في مصر وان حكومة إيران كانت تعمل جاهدة على توفير الأمن والحماية اللازمة لهؤلاء الرعايا، ولا يخفى أيضًا بالمقابل أن حكومة مصر كانت وبحسب تلك الوثائق تعمل على تشديد العقوبات على كل من يثبت تورطه بتهديد أو قتل أو إيذاء جميع الرعايا الأجانب في بلادها بما فيهم الإيرانيين.

وبهذا الصدد وجدنا نص برقية بعث بها القنصل الإيراني في مدينة دمنهور بتاريخ العاشر من حزيران عام ١٩٢٢ الى السفير الإيراني في القاهرة أخبره فيها أنه وبناءً على تعليمات صدرت من وزارة الداخلية المصرية نشرت في جريدة الأهرام تفيد أن جميع الدبلوماسيين والرعايا الأجانب يعاملون كبقية أبناء المجتمع المصري وانهم ليس لديهم أية حصانة أي بمعنى انهم يحاكمون في المحاكم المحلية.[١] حقيقية بقيت هذه المسالة محل خلاف وجدل كبيرين بين إيران ومصر وجرت جملة مخاطبات بين الجانبين بهذا الخصوص، سيما بعد حالات التهديد والتسليب التي تعرض لها عدد من الرعايا والتجار الإيرانيين في مصر.

وفي أعقاب تقديم السفير الإيراني بعريضة احتجاج الى وزارة الخارجية المصرية بهذا الخصوص استلمت القنصلية الإيرانية بدمنهور أيام الثاني من أيار والثاني عشر منه والسادس من حزيران عام ١٩٢٥م رسائل رسمية من الأمانة العامة للحكومة المصرية متضمنة رأي الادعاء العام في الحكومة المصرية بخصوص التعامل مع الرعايا والموظفين الإيرانيين اعتبار أن جميع هؤلاء الموظفين رسميين يجب التعامل معهم بخصوصية أسوة ببقية موظفي الدول الأجنبية، وعليه صدر في ملحق جريدة البصير المصرية يوم الحادي عشر من حزيران عام ١٩٢٥م تعليمات حول معاملة الرعايا الإيرانيين في مصر صدرت عن وزارة الخارجية وبتعليمات الادعاء العام تفيد أن موظفي البعثة الدبلوماسية والقنصليات الإيرانية جميعًا يتمتعون بنفس المزايا المنصوص عليها في المواد القانونية الخاصة بمعاملة الموظفين الأجانب.[٢]

وبتاريخ الحادي عشر من حزيران عام ١٩٢٥م أرسلت وزارة الخارجية المصرية إلى النائب العام المصري، تعميمًا تضمن إبلاغ الأخير بشأن تعامل المحاكم الخاصة بالرعايا الإيرانيين في مصر، إذ أرسلت وزارة العدل رأي لجنة الشؤون الحكومية المصرية في هذا الشأن وجاء ملخصه : أولاً، يتمتع موظفو الهيئة السياسية والقنصلية التابعون للحكومة الإيرانية، بمن فيهم الوزراء المفوضون والسكرتارية السياسيون والقناصل ووكلائهم ومترجمو القنصليات، بنفس المزايا المنصوص عليها في مواد القانون الجنائي للموظفين السياسيين من القنصليات الأجنبية الأخرى. ثانيًا، مأمورو أشغال قنصليات دولة إيران وتراجمه هذه المأموريات يعاملون بصفة عامة بنفس ما يعامل به الرعايا الإيرانيون بمعنى انهم خاضعون للقضاء الأهلي بشرط أن تخطر السلطات القنصلية الإيرانية بإبلاغ الجهات ذات العلاقة بهذا الأمر ليتسنى لها التصرف في المستقبل[٣].

وبتاريخ الحادي عشر من أذار عام ١٩٢٦م، بعث ستة تجار إيرانيين يقيمون في الإسكندرية برقية احتجاج وتظلم الى السفير الإيراني بالقاهرة وهو كل من هم حسن مصطفى وعلي أبو زيد ومصطفى جمعة وإسماعيل علي ومصطفى إسماعيل ومحمود شعبان شرحوا فيها طبيعة الاعتداءات التي تعرضوا لها من قبل مجهولين وذكروا في برقيتهم أنهم تجار يحملون الجوازات الإيرانية انطلقوا من مدينة همدان مع عائلاتهم ومن بينهم اثنان وعشرون امرأة اقدموا إلى مصر للتجارة وذكروا انهم قد وصلوا الإسكندرية في الثالث من أذار ١٩٢٦ ونصبوا خيامهم بالقرب من أماكن سكنى بعض العوائل المصرية وضعنا، وكان لديهم ماشية وممتلكات خاصة، وتذكر البرقية انهم تعرضوا للهجوم المباغت وتمت سرقة مبالغ مالية قدرت بـ ٦٠ ليرة تركية و ٦ ليرات مصرية وعملة ورقية من فئة الليرة الواحدة ومبلغ ٥٠ قرشًا إضافة الى ملابس بقيمة عشرين ليرة

مصرية، وقد أصابوا احدهم برصاص أصابت يده، وأخرى أصابت فخذه، وقد قدم التجار الإيرانيين شكوى عند اقرب مركز شرطة ونقل المصاب إلى مستشفى الأميري[٤]

وبتاريخ السادس عشر من أذار عام ١٩٢٦م بعث السفير الإيراني بالقاهرة برقية الى محافظ الإسكندرية اخبره فيها بالاعتداءات التي كان يتعرض لها الرعايا الإيرانيون في الإسكندرية والمناطق المحيطة بها، وطالبه بضرورة توفير الحماية القصوى واللازمة بما كفلته لهم التعليمات النافذة بحماية الرعايا والدبلوماسيين والموظفين الأجانب[٥]. وبتاريخ الخامس والعشرين من أذار عام ١٩٢٦م بعث حاكم الإسكندرية برقية أخبار إلى محافظ القاهرة بخصوص الشكوى التي تقدمت بها السفارة الإيرانية بمصر يوم التاسع عشر من أذار بخصوص حوادث السرقات والاعتداءات المتكررة التي تعرض لها الرعايا الإيرانيين في الإسكندرية، وقد تضمنت البرقية أخبارًا بأنه تم إلقاء القبض على عدد من المشتبه بهم وما زالت التحقيقات جارية بحسب البرقية[٦]

وبتاريخ الحادي والثلاثين من أذار عام ١٩٢٦ تم إخبار السلطات المصرية العليا بحيثيات الهجمات التي تعرض لها التجار والرعايا الإيرانيين وقد وعد حاكم القاهرة محمود صدقي باتخاذ الإجراءات الرادعة لمنع تكرار مثل هكذا حوادث[٧]. وردًا على تلك التحركات التي عبرت عن النوايا الصادقة والرغبة الحقيقة لدى الجانب المصري بالإمساك بالجناة الحقيقيين بعث السفير الإيراني برقية شكر وعرفان الى محافظ القاهرة يوم الخامس من نيسان توجه فيها بتقديم شكر حكومته وبالنيابة عن زملائه الموظفين بالسفارة ونيابة عن جميع الرعايا الإيرانيين في مصر[٨].

ثانيًا: الجوانب الاجتماعية في العلاقات المصرية - الإيرانية

لا يخفى على كاتب أو مؤرخ أن يسلط الضوء على أدق التفاصيل واصغرها وهو بصدد دراسة تاريخ علاقات بين بلدين مهمين كمصر وإيران وهذا ما لاحظناه في نصوص بعض الوثائق التي تضمنت معلومات مهمة حول توثيق عرى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين البلدين، فعلى سبيل المثال بتاريخ السابع والعشرين من أيار عام ١٩٢٢م بعثت السفارة الإيرانية بالقاهرة برقية الى وزارة الخارجية تخطرها فيها بموعد انعقاد مؤتمر الجغرافيا والمناخ الذي تعتزم القاهرة على عقده في الأشهر القادمة وقال السفير في برقيته أن حكومة مصر تعتزم دعوة جميع الدول منهم الوفود الإيرانية وطالب بالإسراع بتشكيل الوفود لهذا الغرض وإعداد مشروعات دراسات حول الجغرافيا والمناخ ليتم تقديمها خلال جلسات المؤتمر[٩] وفي هذا الصدد بدأت وزارة المعارف الإيرانية بناءً على برقية وزارة الخارجية الإيرانية بالتحضير لحضور جلسات المؤتمر وتم إعداد دراسات وخطط وتشكيل لجان علمية على مستوى عال لتمثيل إيران في المؤتمر[١٠] وطالبت وزارة الخارجية السفير الإيراني بتقديم شكرها وعرفانها إلى حكومة مصر وإلى اللجان القائمة على المؤتمر لتوجيهها دعوة رسمية لإيران بحضور المؤتمر وأضاف أنه لمن دواعي السرور أن يحضر وفد علمي ممثلاً عن حكومة وشعب إيران للقاهرة.[١١]

وبتاريخ التاسع والعشرين من حزيران عام ١٩٢٤م طالبت وزارة الخارجية الإيرانية سفيرها في مصر بتقديم مجمل التسهيلات اللازمة وتذليل العقبات أمام الطلبة المصريين الذين يرومون إكمال دراستهم في الجامعات الإيرانية وممَنْ يرغب بتعلم اللغة الفارسية في جامعات ومعاهد إيران[١٢] وفي السياق نفسه وبتاريخ السابع من تموز عام ١٩٢٦م بعثت وزارة الخارجية الإيرانية برقية الى جميع الوزراء المفوضين في الدول الإسلامية والعربية ومنهم مصر بأرسال أسماء وعديد المدارس الإيرانية الموجود في مصر وبالتالي حتى يتسنى لوزارة المعارف إرسال وتكليف المدراء والمدرسين وتوفير المناهج الدراسية الخاصة بها[١٣] ومن الجدير بالذكر أن لإيران مدرسة واحدة بمصر وهي المدرسة الخيرية ومديرها ميرزا محمد علي بك[١٤]. كما جرت بتاريخ الثالث عشر من أذار عام ١٩٢٧م مراسلات بين وزارة الخارجية المصرية والجانب الإيراني بخصوص موافقة حكومة مصر بتزويد إيران بنسخة من كتاب (معجم المصطلحات الطبية) للدكتور محمد شرف للإفادة منه في المدارس والمعاهد الإيرانية[١٥] وكانت السفارة الإيرانية قد رحبت بالعرض وقدمت عن طريق سفيرها شكرها الى الحكومة المصرية والى القائمين على تأليف المعجم[١٦]

كما لم تغفل الوثائق الإيرانية موضوع الارتباط (الزواج) بين الرعايا الإيرانيين والمصريين فبتاريخ العشرين من نيسان عام ١٩٢٦م جرت مراسلات بين وزارت الخارجية الإيرانية وغرفة تجارة إيران بالقاهرة بخصوص تذليل العقبات وحل المشكلات أمام الإيرانيين الذين يرغبون بالزواج من النساء المصريات ومنها على سبيل المثال عدم التزام الطرف الإيراني بأخبار السفارة الإيرانية عند إجراء العقد الشرعي والقانوني وهو من شأنه أن يضع صعوبات وعراقيل وبالتالي مشكلات قانونية في المستقبل، وعليه الزمت وزارة الخارجية كل شخص إيراني يرغب

بالارتباط بامرأة مصرية أن يحضر إلى السفارة أو إلى أي قنصلية إيرانية في مصر وتقديم جميع الأوراق الثبوتية لكلا الطرفين، وللأطفال إذا كان هنالك أطفال يتم تبنيهم بعد الحصول على إذن رسمي من المحاكم المصرية المختصة(١٧).

وحلاً للمشكلات التي وقع بها الكثير من الرعايا الإيرانيين بخصوص الارتباط بالنساء المصريات بدأت سلسلة من المفاوضات بين الجانب المصري والإيراني بخصوص تعليمات ممن يحق لهم الحصول على الجنسية المصرية من الرعايا الإيرانيين، فبتاريخ الثلاثين من تموز عام ١٩٢٧م بعثت وزارة الخارجية الإيرانية برقية الى السفارة الإيرانية بالقاهرة حملت عنوان "قانون الجنسية المصرية" تضمنت تعليمات خاصة للذين منحوا الجنسية الإيرانية من العرب وذكرت البرقية أن إيران تستند في مطالبها باحترام التبعية الإيرانية وحاملي جنسيتها في الدول العربية أسوة ببقية الرعايا الأجانب وهي تستند في تعاملها على اتفاقية المواطنة والتبعية التي كانت قد عقدتها مع الدولة العثمانية، وبخصوص الإشكالات الحاصلة بخصوص مدى تمتع حاملي الجنسية الإيرانية من العرب العاملين بمصر بالامتيازات التي يتمتع بها الرعايا الإيرانيون طالبت وزارة الخارجية السفير الإيراني بمفاتحة الجانب المصري بتشكيل لجنة خاصة للنظر بهذه القضية وحلها بالطرق الدبلوماسية والقانونية(١٨).

وبتاريخ العاشر من نيسان عام ١٩٢٧م بعث وزير الخارجية المصري برقية الى وزارة الخارجية الإيرانية بخصوص حاملي الجنسية الإيرانية من غير الإيرانيين المتواجدين في مصر وذكر بها إشارة إلى البرقيات السابقة التي بعث بها يومي الخامس والعشرين والثامن والعشرين من كانون الثاني بخصوص إجراء تحقيق قانوني بخصوص الحقوق والمزايا التي يتمتع بها حاملي الجنسية الإيرانية، وأوضح ردًا على التضييق على هؤلاء بأن حكومة مصر لا تتعامل مع هؤلاء أسوة بجميع الرعايا الأجانب ومنهم الإيرانيين، إلا إذا كان حامل الجنسية مضى حصوله على الجنسية الإيرانية ما يقل عن عشرين عام، وأضاف أنه كان قد أبلغ القنصلية الإيرانية بإيران بجميع ظروف وملابسات القضايا المتعلقة بالرعايا الأجانب وأنه على استعداد للقاء السفير الإيراني وعقد اجتماع "ودي" لحل جميع المشكلات العالقة بين الطرفين(١٩).

وفيما يتعلق بقضايا الخضوع للمحاكم القنصلية تضمنت بعض الوثائق الفارسية معلومات حول تشكيل هيئة المحاكم القنصلية الإيرانية بمصر، فبتاريخ الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٢٨م بعث أربعة عشر بهائيًا إيرانيًا يقيمون في مصر برقية الى الوزير المفوض الإيراني بمصر ميرزا غفار خان جلال ابلغوه فيها انهم بصدد تقديم شكوى بخصوص انتخاب ممثلين وموظفين في القنصلية الإيرانية وممثلين في المحاكم القنصلية الإيرانية في مصر،(٢٠) وأنهم تفاجئوا أنهم غير مشمولين بهذا الأمر سوى الطائفة الشيعية، وأضافوا أنهم يسعون في ظل حكومة الشاه بهلوي إلى نيل حقوقهم كاملة أسوة بأقرانهم من الطوائف الأخرى، وأنهم أعلنوا أن الانتخابات التي جرت باطلة غير قانونية، وأنهم إذا ما تعرضوا إلى أي حدث معين، فأنهم غير ملزمين بمراجعة المحاكم القنصلية الإيرانية أو الموظفين العاملين بها، كما أنهم لا يعتبرون أي حكم صادر منها الزاميًا بالنسبة لهم.(٢١) وبنفس الصدد بعث اليهود الإيرانيين المقيمين في مصر برقية الى الوزير المفوض شكروه فيها على دعوتهم لانتخاب أعضاء المحاكم القنصلية الإيرانية في مصر يوم ٢٤ حزيران، وأنهم متأسفون جدًا لما حصل في أثناء الاجتماع من عدم حصول من اليهود على العضوية وحملت برقيتهم نوع من العتب للسفير الإيراني ومما جاء فيها "أن اليهود وطنيون وهم من قلب إيران وروحها وجميعهم لديهم الإخلاص تجاه الملك والنظام السياسي في إيران وانهم يلتمسون منكم اختيار عضوا من طائفتهم في عضوية لجان المحاكم القنصلية"(٢٢).

ثالثًا: الجانب الاقتصادي والدولي في العلاقات الإيرانية – المصرية

وعلى الصعيد الاقتصادي لم تشأ كلا الدولتين أن تغيب موضوع توثيق العلاقات التجارية والمالية بينهما وهنا نضع ما ورد بمتن إحدى الوثائق إذ بتاريخ الثلاثين من آب عام ١٩٢٢م بعثت الوكالة السياسية الإيرانية بمصر برقية إلى وزارة الفلاحة والفوائد العامة الإيرانية برقية فيها تفصيل للنسب المالية التي تستحصلها المؤسسات المالية المصرية جراء التجارة والرسوم الجمركية والضرائب كنوع من التحفيز على مفاتحة الوزارة لتأسيس غرفة تجارة إيرانية لإدارة العمليات التجارية الإيرانية بمصر ورعاية مصالح التجار وأرباب الأملاك الإيرانيين والرعايا(٢٣).

وتعزيزًا للشراكات الاقتصادية بين البلدين وبتاريخ الثامن والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٨م وقع الجانب الإيراني والمصري اتفاقية (مودة وإقامة) وقد جاءت الاتفاقية من اثنتا عشرة مادة جاء في ديباجيتها "إن جلالة إمبراطور إيران وجلالة ملك مصر يسعون إلى إقامة علاقات صداقة حقيقية فقرروا عقد اتفاقية قنصلية وجمركية وتجارية لتنظيم العلاقات بين البلدين" ولهذا الغرض خولوا كل من فتح الله خان باكروان

ممثلاً عن وزارة الخارجية الإيرانية وحسن نشأت باشا الوزير المفوض في إيران وبعد تبادل وجهات النظر وتقديم الأوراق المعتمدة من طرف كل جانب وقعوا على مواد الاتفاقية، إذ جاء في المادة الأولى "الدعوة إلى إقامة سلام دائم وصداقة كاملة بين إيران ومصر ومواطني البلدين" فيما تناولت المادة الثالثة أن من حق كل طرف من الأطراف المتعاقدة إن تعين المسؤولين الدبلوماسيين أو مَنْ تجدهم في موقع المسؤولية بعد الحصول على إذن من الطرف الأخر، وسمحت المادة الرابعة مواطني كل طرف دخول البلد الأخر بكل حرية كما يحق له العيش في البلد المتعاقد معه والحصول على الإقامة وفقًا للوائح والقوانين السارية وأقرت المادة الزام حكومة البلد الأخر بتوفير الحماية اللازمة للرعايا والمسؤولين الدبلوماسيين والتجار وهذا ما أقرت به المادة الخامسة من انه يحث لجميع رعايا البلدين ممارسة حق التجارة وامتلاك المنشآت الصناعية والعمل بها أو الحصول على وظيفة مدنية في دوائر الدولة كما يحق لهم بيع وشراء الأراضي والعقارات أسوة بالمواطنين المحليين فيما أوجدت المادة السادسة من نص الاتفاقية حلاً لمسألة خضوع رعايا كلا البلدين للمحاكم الجنائية والجزائية وحتى المسائل الضريبية والإدارية للبلد المتعاقد معه وما إلى ذلك، من القوانين واللوائح الحكومية ونصت المادة الثامنة على حث الخطى والإسراع بالاتفاق بين الطرفين المتعاقدان على إبرام العقود الدبلوماسية والجمركية والتجارية في أسرع وقت ممكن على أساس المساواة التامة في الحقوق والواجبات، فيما حددت المادة التاسعة مدة الاتفاقية بخمس سنوات قابلة للتجديد إلا إذا رغب أحد الأطراف بإلغائها فيقوم بأخبار الطرف الثاني قبل ستة اشهر[٢٤]. كما شهد اليوم ذاته مراسلات على مستوى عال بين الوزير المصري المفوض في طهران حسن نشأت وبين ممثل وزارة الخارجية الإيرانية باكرون تضمنت مفاتحة كل طرف على تفعيل نص المادة السادسة من الاتفاقية والتي نصت على إيجاد حل لمسألة عرض رعايا كلا البلدين للمحاكم القضائية الخاصة بالبلد المقابل وخضوعهم خضوعًا تامًا لمجمل القوانين واللوائح والتشريعات القانونية بعد أن كانت هذه المسألة تؤرق كلا الطرفين وتسببت في خلق كثير من المشكلات القانونية فيما أشار باكرون أن الرعايا المصريين ليسوا مسؤولين أمام المحاكم الدينية الشرعية في إيران وتم تحديد المحاكم المدنية باعتبارها هي الجهة المخولة والمسؤولة الوحيدة عن محاسبة المصريين[٢٥].

لم تمضي إجراءات تطبيق الاتفاقية أنفة الذكر من دون معارضة بعض رعايا الدولتين فعلى سبيل المثال بعث عدد من تجار الإيرانيين برقية اعتراض الى وزير الخارجية الإيراني طالبوه فيها بإعادة النظر ببعض مواد الاتفاقية وذكروا انهم تعرضوا للضرر نتيجة المباشرة بتطبيق الاتفاقية ووضعها موضع التنفيذ سيما مسالة الوقوف أمام المحاكم الأهلية المصرية والخضوع للقوانين واللوائح المصرية السارية إذ طالبوا بأن تكون محاكمتهم أمام المحاكم الأجنبية المختلطة أسوة بأقرانهم من الرعايا الأجانب على اعتبار أن المحاكم المختلطة تكون فيها الإجراءات سريعة للغاية وفيها نوع من "اللين" تجاه الرعايا الأجانب على عكس المحاكم الأهلية المصرية "بطيئة الإجراءات وفيها مضيعة للحقوق" فيما يفصل في المحاكم المختلطة بالقضية بأسابيع معدودة تبقى القضية في المحاكم الأهلية شهور بل سنوات. وأضافوا بما أن أغلبية الرعايا الإيرانيين المتواجدين في مصر هم من طبقة التجار وأرباب العمل والحرف فمثل هكذا إجراءات تكون مضرة بهم وبمصالحهم وطالبوا السلطات المختصة بعدم تجديد نص الاتفاقية التي تنتهي في الحادي والعشرين من تموز عام ١٩٣٤م[٢٦] كما بعث بتاريخ التاسع من أيلول عام ١٩٣٣ أحد أبرز تجار إيران محمد حسين أصفهاني برقية الى سفير إيران بمصر طالبه فيها بعدم تجديد الاتفاقية أنفة الذكر لأنها "ضارة بمصالح الإيرانيين سيما طبقة التجار وأصحاب الأملاك" وتضمنت البرقية رجاءً حارًا من قبل هذه الطبقة الى حكومة إيران بعدم تجديد نص الاتفاقية[٢٧].

وبتاريخ الرابع من تشرين الأول عام ١٩٤٥م بدأت المخاطبات الرسمية بين مصر وإيران بخصوص انتخاب ممثلي الدول الإسلامية في محكمة العدل الدولية وبعث السفير الإيراني في مصر محمود جام برقية تطمين الى وزير خارجية بلاده اخبره فيها أن وزارة الخارجية المصرية ممثلة بوزيرها عبد الرحمن بدوي كانت قد أعطته وعدًا أنها بصدد الضغط وممارسة دورها على بعض الدول الإسلامية للتصويت لممثل إيران في المحكمة[٢٨] وبتاريخ العاشر من كانون الأول عام ١٩٤٥م وفي برقية أخرى قال السفير الإيراني انه نال استحصال موافقة كل من سوريا ولبنان بخصوص التصويت لصالح مرشح إيران في محكمة العدل الدولية وانه بصدد استحصال موافقات مبدئية من بعض الدول الإسلامية برعاية مصرية.[٢٩]

خَاتِمَةٌ

بعد رحلة علمية شيقة للغاية أبصرت عدد من الوثائق الفارسية التي تضمنت مادة علمية حقيقية النور عن هذه الأوراق المتواضعة التي أضعها بين يدي القراء والمهتمين والمؤرخين. هذه الأوراق تتعلق بواحدة من أهم الجوانب التاريخية التي من المفروض أن تبحث ويدقق في حيثياتها، إلا وهي العلاقات الدولية. ونحن هنا بصدد الحديث عن واحدة من تلك الجوانب المهمة التي أطرت علاقات بلدين مهمين على المستوى الدولي ألا وهما إيران ومصر، المطلع على البحث يجد أن البلدين كانت علاقتهما ضاربة ومتينة وعلاقات طيبة كانت قائمة على أساس المودة والمصالح المتبادلة واحترام خصوصيات الطرف الآخر.

جاءت وريقات البحث لتسلط الضوء على جوانب منها الجانب الاقتصادي وهو المهم الذي أطر تلك العلاقات التجارية وبالتالي تنظيم علاقات البلدين التجارية بالشكل الذي يرضي رعايا كلا الدولتين، كما بحثنا الجانب الاجتماعي وفيه بينا وبحسب الوثائق كيف أن كلا الدولتين سعيًا إلى وضع الحلول الناجحة ووضع برامج قوانين وتشريعات نظمت العلاقات الاجتماعية وقضية وجود الرعايا في كلا البلدين. وهكذا الجانب السياسي والدولي الذي لطالما كان هو العلامة الأبرز والحلقة الأهم في محور العلاقات الإيرانية المصرية.

الاحالات المرجعية:

(١) اسناد وزارت امور خارجه، رفتا ربا اتباع ايراني در كشور مصر، تاريخ خرداد ماه ١٣٠١ش، از: سر كنسول ايران در دمنهور به: سفير ايران در مصر، نمره ١٨٣.

(٢) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: رفتا ربا اتباع ايراني در كشور مصر، تاريخ ١٣٠٤ش، از: سر كنسول ايران در دمنهور به: سفير ايران در مصر، نمره ٢٩٤.

(٣) اسناد وزارت امور خارجه، رفتا ربا اتباع ايراني در كشور مصر، تاريخ ١١ زوئن ١٩٢٥م .

(٤) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: حمله اعراب به ايرانيهاي مقيم اسكندريه، از: شش تن از تاجران ايراني به: سفير دولت ايران در مصر، تاريخ ٢٠ اسفند ١٣٠٤ش، نمره ٧١٦.

(٥) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: حمله اعراب به ايرانيهاي مقيم اسكندريه، از: سفارت ايران در مصر به استاندارد اسكندريه، تاريخ ٢٨ اسفند ١٣٠٤ش، نمره ٧٣٢٦.

(٦) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: حمله اعراب به ايرانيهاي مقيم اسكندريه، از: استانداري اسكندريه به: استاندارد قاهره، تاريخ فروردين ١٣٠٥ش، نمره ٣٧٥.

(٧) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: حمله اعراب به ايرانيهاي مقيم اسكندريه، از: استاندار مصر محمود صدقي به: سر كنسول ايران در مصر، تاريخ فروردين ١٣٠٥ش، نمره ٤٢٤٢\٢١٩

(٨) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: حمله اعراب به ايرانيهاي مقيم اسكندريه، از: سفارت ايران در مصر به: استاندارد اسكندريه، تاريخ ١٧ فروردين ١٣٠٥ش، نمره ٣٥.

(٩) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: كنكره جغرافياي قاهره وحضور نمايندكان ايراني در ان، فرستنده: سفارت ايران در مصر، كيرنده: وزارت امور خارجه، تاريخ غره شوال ١٣٤٠ق، نمره ١٢١.

(١٠) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: كنكره جغرافياي قاهره وحضور نمايندكان ايراني در ان، فرستنده: وزارت امور خارجه، كيرنده: سفارت ايران در مصر، تاريخ ٢٤ اسد ١٣٠١ش، نمره ٢٢٢٢٩.

(١١) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: كنكره جغرافياي قاهره وحضور نمايندكان ايراني در ان، فرستنده: وزارت امور خارجه، كيرنده: ميرزا فتح اله خان امير ارفعي، تاريخ ١٣٠٤ش.

(١٢) اسناد وزارت امور خارجه،موضوع: انجام تسهيلات در ايران براي محصلين مصري واموزش زبان فارسي، فرستنده: زارت امور خراجه، به: سفارت ايران، تاريخ ٢٩ زوئيه ١٩٢٤م، نمره ٣٥٩.

(١٣) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: ارسال اسامي وآدرس مدارس ايراني در خارج، فرستنده: وزارت امور خارجه، كيرنده: مامورين دولت ايران در ممالك خارجه، تاريخ ١٥ تير ١٣٠٥ش، نمره ٣٥\٤٢٣٣.

(١٤) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: اسامي مدارس ايراني در مصر، فرستنده: سفارت ايران در مصر، كيرنده: ميرزا محمد علي بك رئيس مدرسه بنام خيريه، تاريخ ١١ شهريور ١٣٠٥ش، نمره ٦٧٤.

(١٥) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع اعطا يك نسخه از فرهنك اصطلاحات بزشكي به دولت إيران، فرستنده: وزارت امور خارجه مصر، كيرنده: وزير معارف، تاريخ ١٣ مارس ١٩٢٧م

(١٦) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع اعطا يك نسخه از فرهنك اصطلاحات بزشكي به دولت ايران، فرستنده: سفارت ايران، كيرنده: وزارت امور خارجه مصر، تاريخ ١٦ مارس ١٩٢٧م

(١٧) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: ازدواج ايرانيان با زنان مصري، فرستنده: سفارت دولت ايران در مصر به: اطاق تجاري ايرانيان در مصر، تاريخ ٣٠ فروردين ١٣٠٥ش، نمره ٨٦.

(١٨) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: قانون تابعيت مصر، از: وزارت امور خارجه به: سفارت دولت ايران در مصر، تاريخ ٧ مرداد ١٣٠٦ش، نمره ١٠٦٤\٣٥٠.

(١٩) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: تابعيت ايرانيان مقيم مصر، از: وزارت امور خارجه مصر به: وزير امور خارجه ايران، تاريخ ٢٠ فروردين ١٣٠٦ش، نمره (٧١٣) ١٤\٣١٨\١٠٠.

(٢٠) بتاريخ الرابع والعشرين من حزيران تم انتخاب عشرة اشخاص ممثلين في المحاكم القنصلية الايرانية بمصر وهم كل من: (احمد بك حسيني، حسن بك طهراني، حسن بك يزدي، اسماعيل بك علي، محمد رضا بك قزويني، احمد بك عبد الرسول شيرازي، محمود بك عبد الرسول شيرازي، مصطفى عبد الرسول شيرازي، محمد جعفر بيات شيرازي، ميرزا ابو طالب جهرمي). للتفاصيل ينظر: اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: سو كندنامه وامضاء اعضاي محاكمات ومجلس حبسي جنرال قونسولكراي، تاريخ ٣ مرداد ١٣٠٧ش.

(٢١) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: در جواب عدم عضويت بهائيان در محاكم قونسولي، از: جهار تن از بهائيان ايراني مقيم مصر به: ميرزا غفار خان جلال وزير مختار دولت عليه ايران، تاريخ ٣٠ تير ١٣٠٧ش.

(٢٢) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: در خواست تعيين يك نفر از كليميان براي محكمه قونسولي، از: تني جند از كليميان ايرانيان مقيم مصر به: ميرزا غفار خان جلال وزير مختار دولت عليه ايران، تاريخ ١٠\٤\١٣٠٧ش، نمره ٥٢٠.

(٢٣) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: كزارشي از اقدامات انجام شده در مصر، فرستنده: وكالت سياسي إيران در مصر، كيرنده: وزارت فلاحت وتجارت وفوايد عامه، تاريخ ٨ محرم ١٣٤١ق، نمره ٢٥١.

(٢٤) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: عهدنامه مودت واقامت بين إيران ومصر، تاريخ ٧ اذر ١٣٠٧ش.

(٢٥) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: بيرامون عهدنامه مودت واقامت، فرستنده: كفيل وزارت امور خارجه – باكرون، كيرنده: حسن نشئت باشا وزير مختار، تاريخ ٢٨ نوافمبر ١٩٢٨م.

(٢٦) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: اعتراض به معاهده ايرا ومصر ودر خواست لغو آن، فرستنده: جمعي از تجار اتباع إيران مقيم مصر، كيرنده: وزير خارجه إيران، تاريخ ١٣١٢ش.

(٢٧) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: در خواست عدم تجديد معاهده إيران ومصر، فرستنده: محمد حسين اصفهاني، كيرنده: سفير إيران در مصر، تاريخ ٢٨ شهريور ١٣١٢ش، نمره ٧٤٥ – ١- ١٦

(٢٨) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: معرفي نماينده مصري به ديوان دادرسي بين مللي، فرستنده: سفير كبير، كيرنده: وزارت امور خارجه، تاريخ ١٢ مهر ١٣٢٤ ش، نمره ٣٣٨.

(٢٩) اسناد وزارت امور خارجه، موضوع: معرفي نماينده مصري به ديوان دادرسي بين مللي، فرستنده: سفارت إيران در مصر، كيرنده: وزارت امور خارجه، تاريخ ١٩ اذر ١٣٢٤ش، نمره ٤٤٤.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

دور حركة ابن فودي السياسية في نشر اللغة العربية بخلافة سوكوتو الإسلامية خلال القرن التاسع عشر الميلادي



أمين البدادي

باحث في سلك الدكتوراه

جامعة الحسن الثاني

الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

واكب حركة عثمان بن فودي السياسية والجهادية في نيجيريا خلال القرن التاسع عشر أبعاد ثقافية ظهرت معالمها عندما اتخذ من الحرف العربي واللغة العربية أداة أساسية لتدوين فكره ونشره بين أتباعه والممالك المجاورة له، قصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدي للبدع، حتى يتمكن من بناء ملكه السياسي على أسس إسلامية على غرار الأسر التي حكمت المغرب في العصر الوسيط، ونتيجة لكل هذا، ساهم ابن فودي في تعريب وإرساء اللغة والحرف العربيين في مجالات جغرافية شاسعة من بلاد السودان الأوسط والغربي وأثمرت معاهده ومدارسه الرسمية إلى جعل اللغة العربية لغة دولة، ناهيك عن تشكيل جيل من النخب العالمة رجالا ونساء أنتجت أعمالاً ضخمة باللغة العربية أدت إلى إشعاع الحرف العربي إلى أن أصبحت اللغات المحلية الإفريقية تكتب به إلى حين مجيء الاستعمار الغربي. توصلت الدراسة إلى أن العلم كان من أهم تلك الشروط التي أعانت عثمان بن فودي في تمرير أفكاره وكسب الأتباع والنفوذ والتمهيد لتوجه دولته الجديدة، التي اتخذت من اللغة العربية، لغة رسمية للثقافة والحضارة، فقد أسهمت هذه الثورة بقيادة ابن فودي على مستوى التغيير والإصلاح إلى ازدهار وانتشار غير مسبوق للغة العربية نثرًا وشعرًا، حتى راحت عنصرًا مهيمنًا في التركيبة الثقافية لمجتمعات السودان الغربي، بمقابل اللغات المحلية التي تراجع دورها، وعليه سيساهم الأفارقة بدورهم خلال القرن التاسع في إغناء الثقافة العربية الإسلامية بمؤلفاتهم الغزيرة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	يوليو	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	١٧	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

عثمان بن فودي؛ الحرف العربي؛ اللغة العربية؛ الثقافة الإسلامية؛ خلافة صكتو؛ تاريخ الأديان والتصوف

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299586 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أمين البدادي، "دور حركة ابن فودي السياسية في نشر اللغة العربية بخلافة سوكوتو الإسلامية خلال القرن التاسع عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٤٨ – ١٥٧.

Corresponding author: boudadiamine2@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

نجح عثمان بن فودي في خلق كيان سياسي قوي بمقومات إسلامية، مترامي الأطراف بالسودان الغربي، كانت عاصمته صكتو خلال القرن التاسع عشر، لم يسبقه إليه أحد ممن سلف من الدعاة والإصلاحيين[١] الذين اتكلوا على منطق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع[٢]، تغطية على هدفه في امتلاك الملك، وبالتالي نرى أن التجربة السياسية الفودية استثنائية بجميع المقاييس، فهي لم تكن وليدة الجوانب الحربية فقط، وإنما نعتقد في هذا السياق أن فعالية الاستراتيجية التي اتبعها دان فودي في بناء ملكه أثناء البدايات الأولى لدعوته، مدينة إلى توظيفه العلم والتعليم العربيين معا في خدمة مشروعه السياسي، الذي أسهم في التعريف بحركته أولا، ثم ثانيا مهد له عددًا كبيرًا من الأتباع تحت تصرفه، اتخذهم حملة لفكره ودعامة لإشاعته بين العموم والدفاع عنه بمقابل أعداءه من أنصار النظام القديم الوثني، أو تلك الأنظمة التي تجمع بين الإسلام والوثنية[٣].

هكذا، اقتضى هذا التصور الإيديولوجي الحضاري المدعم الأساسي لروح دعوته، تأليف الكثير من المؤلفات والمخطوطات المأثورة، كانت غالبيتها باللغة العربية[٤]، تتناول مبادئه الدينية والروحية والدنيوية، شكلت يقظة فكرية على غرار ما شهده المشرق العربي في نفس المرحلة، وقد أغنت الثقافة العربية الإسلامية، وجعلت مجال الهوسا قلب الخلافة يدين كتابة وقراءة بالحرف العربي، ويقبل على اللغة العربية إقبالا منقطع النظير في أنشطته الثقافية، وهذا كله كان تحت تأثير سياقات المرحلة ومتطلباتها، التي فرضت ضرورة شن حملة تعريب واسعة مخطط لها، حتى يصير المجتمع صورة معكوسة للبلاط الفودي، الناشد التغيير والإصلاح بتدبير الواقع بفكر عربي إسلامي. عمومًا خلفت الحركة الفودية حضورا قويا للحرف العربي في خلافة صكت، وكذا في النسيج الثقافي لإفريقيا جنوب الصحراء برمتها[٥] سواء قبل الاستعمار أو بعده، ولو اختلفت حدة التأثير باختلاف المراحل والسياقات الفاعلة[٦].

تنبئ الرسائل المتبادلة بين السلطان سليمان وعثمان بن فودي على المكانة الاعتبارية للغة العربية هنالك، إذ أبرز السلطان المغربي أن "الرسول المبعوث إليه كان يتحدث بلسان طلق غير ذي عوج كما أن الرسائل صيغت باللغة العربية "[٧]، وفي هذا دليل ساطع على الازدهار والرقي الذي كانت تعيشه اللغة العربية في ظل خلفاء صكت الثلاثة (عثمان ابن فودي وأخوه عبد الله وابنه محمد بلو)، الذين برعوا في إتقانها، فأتاحت لهم التوصل إلى مصادر التشريع الإسلامي، وعهدوا بكثرة التأليف بها تاركين ورائهم موروثًا ثقافيًا مكتوبًا كثيفًا من المخطوطات العربية، ينيف عن ثلاثمائة مخطوط[٨]، وبهذا كان عثمان بن فودي من رواد نشر اللغة العربية والتأليف بها في السودان الغربي[٩].

إذن فمن هو ابن فودي؟ وإلى أي حد ساهمت حركته السياسية في ترسيخ الحرف العربي في السودان الغربي؟ وما هي العوامل التي ساعدته؟ وما آثار ذلك؟

تهدف هذه الدراسة البحثية، إلى البحث في مدى مساهمة حركة ابن فودي في ترسيخ اللغة العربية بالسودان الغربي، وذلك باستعراض أدواره الرائدة في هذا الصدد، بالتركيز أساسًا على الجوانب الشمولية الحضارية والثقافية، التي تساعد في استجلاء خصوصيات واقع اللغة العربية على عهد بن فودي، ثم تجدر بنا الإشارة إلى القول إن هذه المساهمة تكتسي قيمة مضافة هامة، من حيث انفتاحها على التاريخ الثقافي للسودان الغربي، الذي ظل مغيبا في بعض جوانبه من الدرس الأكاديمي، وفي توجهنا هذا ننفي تقييما أن تكون الحركة الفودية حركة تجديدية فقط[١٠]، دون الاعتراف والإشادة بباقي أدوارها المجتمعية الأخرى التي يشهد لها بها التاريخ.

فضلاً عن هذا سنعتمد في مقاربتنا الأكاديمية للموضوع السالف الذكر على المنهج التاريخي الاستقرائي، الذي يعيننا في الانطلاق للبحث في النشأة والتكوين المعرفي عند ابن فودي والوقوف على الجانب الذي حازته اللغة العربية وثقافتها فيه، ورصد درجة تأثيرها على فكره، ثم الانتقال إلى رحاب أوسع لتتبع الأهمية التي حازتها اللغة العربية ضمن سياساته وإجراءاته منذ بداية دعوته إلى وصوله للحكم.

أولاً: عثمان ابن فودي مسار النشأة والسيرة: أي دور للتعليم واللغة العربية في تكوين فكره السياسي؟

نشأ عثمان بن فودي في وسط أسري متدين، في إمارة غوبر Gobir، في مكان مرط Marta في أحد مناطق هذه الأخيرة المسماة غلم Galam، سنة ١١٦٢هـ، الموافق للثامن نونبر من سنة ١٧٥٢م. تلقى منذ صغره تعليما دينيا، شكل استمرارا للأصول التعليمية لعائلته، التي تكفل أفرادها نساء ورجالا من أمه وأبيه بالتناوب على تلقينه شتى المعارف، أساسا معارف الدين الإسلامي واللغة العربية دون أن يتركوا المجال لأطراف

غريبة على الأسرة والقبيلة أن تتدخل في تدريسه، ما عدا جبريل بن عمر الأقدسي[١١].

وهكذا، نجد أن أسرته كانت سببًا نحو انفتاحه وإعداده للتفوق في دراسة الثقافة الإسلامية ولغتها العربية، وإبعاده عن التأثيرات الوثنية المحلية، وغاية همها في ذلك كان تلبية احتياجاته العلمية والثقافية التي تنبأت في أنها ستساعده في إعداد مشروعه السياسي للوصول إلى الحكم، لذلك ركزوا مبكرا، على تلقينه بعناية قواعد اللغة العربية، لأنها اللغة الوحيدة آنذاك، التي بواسطة التمكن منها يستطيع بسهولة الاطلاع على الموروث الثقافي الديني الإسلامي، الذي يساهم في تثقيفه ويحيله على نظريات سياسية شرعية، تعينه في استنباط فكره السياسي، المنتظر أن يغير به أوضاع منطقته خلال القرن التاسع عشر المتخبطة في المظاهر الوثنية[١٢].

فكان أول ما استمد على يد أبيه فودي الفقيه، بعد اللغة العربية، في هذا الاتجاه، هو القرآن الكريم، كما ساهمت أمه وجدته وباقي كبار علماء محيطه الأسري في تربيته تربية دينية إسلامية. والظاهر أن وعاء ثقافة عثمان سيتسع عندما يقبل على الاهتمام بالتصوف بإيعاز من عمه وخاله المعروف ببدو بن الأمين بن عثمان بن حم بن عال، الذي فتح عينيه أثناء فترة مصاحبته، على اضطراب أحوال العامة في حوس وعدم تشبثها بالدين الإسلامي الحقيقي، موضحًا له أهمية الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل مسلم، وبالتالي يتضح أنه كان له دور كبير في تحفيز ابن فودي على بث دعوته الإصلاحية[١٣].

ولا يخفى أن استهلال ابن فودي تجربة التصوف دراسة وممارسة، والانتماء إلى الطريقة القادرية[١٤]، لا يمكن أن يسفر، إلا عن الزيادة في إلمامه بالثقافة الدينية الإسلامية والاحتكاك أكثر باللغة العربية، وإغناء فكره الذي سيصير متأثرا بعلم التصوف، ويشهد على ذلك إنجازه لعملين بارزين "هما لما بلغت" و"السلاسل الذهبية للسادات الصوفية" كانا بمثابة خلاصة تعريفية بمناقبه وسلاسل شيوخه وتجربته الأولية في التصوف القادري ومؤشرا على بلوغه مرحلة الولاية وحيازته للقب شيخو في منطقته[١٥].

ستسجل سنة ١٧٧٢م، على مستوى تجربته التعليمية، مغادرته للحلقات الدراسية لعائلته للالتحاق بالشيخ والمصلح السياسي جبريل عمر الأقدسي، الذي كان شد الرحال إلى المشرق وتشبع من ثقافة أعلام علمائه، سمحت له هذه الفرصة لا محالة بواسطة شيخه الجديد على إضافة إلى رصيده المعرفي بعضا من مستجدات الثقافة المشرقية، ناهيك عن تعرف وتتبع ما يجري في المشرق من سجالات وما تولد من تيارات دون أن يزوره. وفوق ذلك كان قد أجازه في علوم كثيرة ولقنه مبادئ الطريقتين الخلوتية والقادرية هذا من جهة. أما من جهة أخرى استفاد ابن فودي من بعض أخطاء مشروع شيخه الإصلاحي، الذي شرع في تجسيده مباشرة بعد عودته من الحج، وعمل على تجاوزها، حينما أهله لاستكمال تحقيق برنامجه الإصلاحي الذي فشله فيه[١٦].

كل هذ التجارب والمحطات الدراسية المتنوعة، ستتيح لابن فودي، الوصول إلى مستوى النضج الفكري في الدراية باللغة العربية وثقافتها. إلى درجة أنه سيكتب بلغة عربية تضاهي أعظم الكتاب العرب شعرا ونثرا[١٧]، وعليه سيتحول من متلقي إلى منتج ومساهم في إشاعة اللغة العربية والثقافة الإسلامية بغزارة، عند تصدره تحرير فكره في مجموعة مسترسلة من الكتب تركت صدى واسعًا في محيطه لدى الخاص والعام، مما يفيد أنه لا يمكن الحديث عن نجاح الدعوة الفودية سياسيًا دون استحضار المعطى التعليمي، القائم على الحرف العربي والثقافة الإسلامية، الذي ساعده على بناء شخصيته العلمية ووضع مشروعه السياسي الضخم، وبهذا يحق القول أن وجود الدعوة ونجاحها كان رهينا بتعليم الحرف العربي، ولعل ما يؤكد صحة هذا النظر أن طبيعة تكوينه ستنعكس على إنتاجاته العلمية[١٨]، التي لن تخرج عن إطار الثقافة الإسلامية واللغة العربية[١٩].

ثانيًا: النظام التعليمي الفودي ومساهمته في إشاعة الحرف العربي

برز دور التعليم في إشاعة الحرف العربي منذ أوائل دعوة بن فودي، فهو الجانب الأوحد الذي يعبر قبل كل شيء عن أصالة مشروعه[٢٠] لا سيما حين بادر إلى جعله منطلقا محركا لدعاياته السياسية، ولم يتردد في الخوض في ممارسته بنفسه ابتداء من سنة ١٧٧٥م، نظرا للأهلية العلمية المتوفر عليها، والتي تسنى له بفضلها التفوق فيه في حوس على الرغم من تعدد العلماء واشتداد المنافسة بينهم هنالك. وتقدر المدة التي أنفقها في التدريس بحوالي ثلاثون سنة، كان قد استهلها بالتعليم العام والتربية الروحية، ثم ما لبث أن اضطر إلى صياغة منهج دقيق يقضي، بتلقين العامة أصول الدين ومبادئ التوحيد وراعى عدم الخلط بين التعاليم الإسلامية الصحيحة والعادات الوثنية، وكان يلجأ إلى أسلوب التعليم المباشر، أي التدريس وجها لوجه، حتى يتقرب من الناس ويلقى دعما وإقبالا[٢١]، فقد أثمرت جهوده "في

دعوته الخلق إلى دين الله تعالى في كل مجلس حضر فيه"[٢٢] إحياء السنة وإماتة البدعة ونشر العلوم وتفسير القرآن[٢٣].

تنوع المقبلون على حلقاته الدراسية، فهناك العامة من ذوي سوء الأدب وشيوخ أجلة وعلماء حسدة، على الرغم من مناهضة أغلبية هذه الفئات له، تمكن من جعلهم ينصتون اهتمامًا لدروسه التعليمية والوعظية، وتغلب على عائق اللغة على مستوى التواصل في تبليغ أفكاره، لأن نسبة كبيرة من أفراد بيئة مجتمعه لا تتكلم اللغة العربية[٢٤]، عندها استعان باللغات المحلية، خاصة (حوس والفلفلدي)[٢٥]، في ترجمة دروسه وخطبه من لدن أبنائه بعد أن يلقيها باللغة العربية في الأصل[٢٦]، حتى تصل الفكرة للجميع دون استثناء[٢٧]، ولقد أشادت بعض الروايات التاريخية بالتعدد اللغوي الهائل لدى بن فودي، الذي سهل عليه التواصل وتمرير أفكاره للجميع، وفي هذا المقام لا يسعنا، إلا ذكر ما قاله الوزير عبد القادر بن محمد البخاري "أجمع أهل زمانه من المشائخ بل وجميع العوام الذين كانوا حاضرين بين يديه على أنه ما زاره أحد من الناس من أهل البلاد القاصية وأدانيها إلا ناداه باسمه ويسئله عن أهله وانسابه وجيرانه ويخبر الناس عن بلده ويكلمه بلغته ولو كان عجميا لأن من عاصروه لم يروا أحدا جاء إليه وهو لا يعرف لغته لأنه عارف بسبع مائة لغة وقد ذكر العلماء أن لغات بني آدم سبع مائة لغة"[٢٨]

وبخصوص برنامج التدريس الذي صاغه واتبعه ابن فودي في ظل نظامه التعليمي، فهو يتمثل فيما يلي[٢٩]:

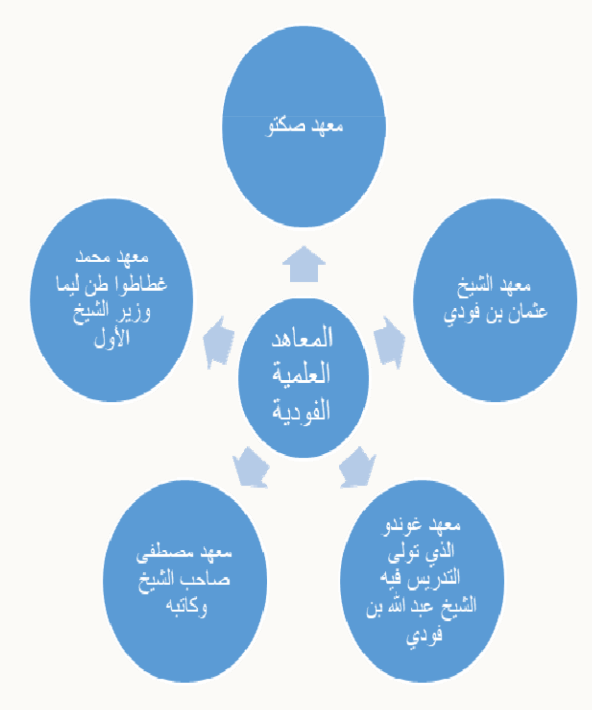
بعد صلاة العصر	تدريس الحديث والفقه والتصوف وتفسير القرآن
بعد صلاة العشاء	بث العلوم والإفادة بالغرائب
كل ليلة جمعة	وعظ وإرشاد

يلاحظ انطلاقًا من الجدول أن اللغة العربية والثقافية الإسلامية، كانت تحتل مكانة مركزية ضمن المواد المدرسة في البرنامج الفودي، ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة إلى هذا البرنامج، كان ابن فودي يضيف إليه تدريس بعض تأليفه، كما كان يستأثر الخروج إلى الآفاق والبلدان للدعوة والإرشاد، ثم يعود، فيجد في انتظاره الوفود من الشرق والغرب الراغبة في التتلمذ عليه. وكما كان كذلك من عادته أن يردد في بداية خطبه الوعظية خطبة شيخه عبد القادر الجيلاني، كدليل على تشبعه بعوائد الثقافة العربية، وهنا يلاحظ أن جميع الخطوات التي أقدم عليها بن فودي في تنفيذ تعليم جديد يتلاءم مع دعوته، كانت تخدم مستقبل الحرف العربي في الدولة الفودية وتضفي عليه صفة الرسمية، فالتعليم ساير جميع مراحل دعوته، وخدم مشروعه في تصحيح الاعتقاد، ونشر تعاليمه ومبادئه باللغة العربية التي كانت مختارة للتلقين، فالتعليم إذا قاد إلى نشر الدعوة التي قادت بدورها إلى نشر اللغة العربية[٣٠] في أجزاء كبرى من السودان الغربي[٣١].

ولم تكن المواد المدرسة على مستوى واحد بين جميع الفئات، بل خصص لكل فئة مواد معينة، فمثلاً فئة العوام خصص لها فروض الأعيان، بينما الفئة الخاصة اكتفى بتدريسها فنون العلم، في حين فئة المريدين والسالكين شملها بالتربية والإرشاد إلى الحضرة[٣٢]. كما أقر كتبًا مدرسية معيارية عن اللغة العربية لكل مستوى تعليمي تناسب أهل تلك الفترة[٣٣].

تنبه ابن فودي في بداية نشاط حركته التعليمية أنه يستحيل عليه حمل ثقل مهمة تعليم الناس ومحاربة البدع، وإنتاج أدبيات فكرية توجه موظفين في إدارة دولته الفتية لوحده[٣٤]، لذلك استعان بتلامذته، بعدما انتهى من تكوين جماعته المقربة بنفسه وأعدها علميا ونفسيا بغاية ممارسة التربية والدعوة إلى دين الله، عمل على تقسيمهم إلى قسمين حسب الوظائف المنوطة بهم، فإذا كان القسم الأول المسمى أهل البصيرة، عهد له بمهمة شرح دروسه ونسخ كتبه وجعلها في متناول الجميع وتبسيط رسالة الإسلام إلى الناس، فإن القسم الثاني بعد استكمال تعليمه أوكل له مهمة نشر دعوته في الأماكن القصية من السودان الغربي والأوسط وشحذ الجموع من التلاميذ وبعثها للشيخ للتلقي المباشر[٣٥]. ولم يكتف بهذا بل جسد في الواقع فكرة تشييد مجموعة من المعاهد العلمية داخل خلافته للعناية باللغة العربية وثقافتها وتخريج نخب علمية متخصصة فيها تحمل عبء الدعوة وتخدم مشروعه وهي كالأتي[٣٦]:





إن تصميم عثمان بن فودي على تصدير دعوته إلى جميع جهات وطنه، في سياق تعظيم نفوذه، حتم عليه تعليق آماله على التعليم وإقرار وجوبه وإشراك جميع الفئات في نشره[٣٧] من أجل تعميمه بين الخاص والعام والمركز والهامش، وهو الشيء الذي كان له تبعات إيجابية على دعوة ابن فودي، حيث ازدادت أعدادها، وفي نفس الوقت انتشر الحرف العربي وتزايد الإقبال عليه في التعليم والدراسة[٣٨]. واتخذت المناهج التعليمية والمعاهد التي أعدها بن فودي خصيصا للتدريس في دولة سوكوتو، من اللغة العربية، لغة رسمية في التدريس، وكذا في حفظ القرآن، وتفسيره ودراسة الفقه والتوحيد. فكتب مؤلفاته الرسمية (الدعوية) بها، لأنها لغة الدين والقرآن، وبالتالي كان انتشار الدين الإسلامي يسايره انتشار اللغة العربية، لأنه يستحيل إقامة فرائض وشريعة الدين الإسلامي، وفهمها بدون إتقان اللغة العربية[٣٩]، مما جعلها في نهاية المطاف، لغة الدولة ووسيلة إنتاج ثقافتها وحضارتها على عهد بن فودي. كما لا نغفل أن الكتب العربية المدرسة بالمعاهد المذكورة أعلاه، إلى جانب الكتب التي ألفها عثمان بن فودي وبطانته في مختلف التخصصات المعرفية والأدبية، أحدثت ثورة ثقافية عربية كان لها وقع كبير في دفع المجتمع الفودي إلى الارتباط باللغة العربية والرغبة في الإقبال على تعلمها وإرساء قواعدها[٤٠].

ومن الأسباب التي ساهمت كذلك في انتشار الحرف العربي، نذكر توظيف عثمان بن فودي في صراعه مع أمير إمارة غوبر اللغة العربية كسلاح للإطاحة به، مستغلا ذخيرة أدبية متنوعة شعرا ونثرا في سبيل نشر مبادئه الجهادية وكسر شوكة خصمه في مرحلة الحرب الكلامية قبل ولوج ساحة المعركة، ويصح الكشف أن الشعر شكل مادة أدبية لا غنى عنها في الحروب لدوره في إذكاء حماس المتحاربين، لذلك استوصى به عثمان بن فودي أقرباءه وأنصاره، حيث أسهموا فيه بقوة ويعتبر من أسرار نجاح معاركهم المتعددة، ويظل بن فودي أول من قرض الشعر بلغة الفلفلدي في السودان الغربي، كما كانت له مجموعة من القصائد باللغة العربية، كقصيدته "مرآة الفرائض" التي هيمنت على محتواها القضايا الدينية، وخصص قصيدة أخرى من تأليفه في مدح النبي[٤١]. كما يحتفظ لنا محمد بلو بعدد من القصائد الشعرية التي تتغنى بملاحم وبطولات وتؤرخ لمعارك انتصارات ابن فودي ففي وقعة كانو قال ما يلي:

بدأت باسم الله والشكر يتبع
على قمع كفار علينا تجمع
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من
بلادهم والله في الفضل أوسع[٤٢]

وبهذا ساهم التدوين الشعري، الذي كان يواكب المعارك الفودية في نشر اللغة العربية وجعلها أسلوب تعبير عما يختلج النفس من مشاعر الفرحة والسرور بالنصر[٤٣]. إدراكا من ابن فودي بأهمية العلم في الإيصال إلى السلطة، ضيق على العلماء، حتى لا يصير محط منافسة، إذ صاغ شروط يجب أن تتوفر فيمن ينوي التقدم للتدريس واستقبح سلوك بعضهم التي يسعون إلى الوصولية من باب العلم من خلال التقرب من السلاطين ومحاباتهم. وتفطن إلى استعمال اللين في الخطابة،

حتى لا ينفر منه أحد وتظل دعوته وحركته متواصلة النجاح وموحدة الصفوف، لأجل ذلك كان لا يدعو أتباعه، إلا بعبارة إخواني(٤٤).

ثالثًا: المرأة في خدمة نشر الحرف العربي

تميزت المرأة العالمة ضمن الدولة الفودية بأدوارها الرائدة على مستوى النشاطات العلمية والدينية المقررة، وذلك راجع لأن سياسة الدولة الأخيرة تجاه المرأة كانت مساعدة ومشجعة، مما أتاح بروز نساء عالمات كان لهن أثر بارز في الحركة العلمية التي قادها ابن فودي، الشيء الذي جعل الحقل العلمي آنذاك يحفل بإنتاجاتهن المتنوعة، زيادة على أدوارهن العملية المهمة في التعليم والوعظ، ومن النساء اللواتي اشتهرن في هذا الصدد بدرجة كبرى بالمقارنة مع أخواتها خديجة وصفية ومريم، نشير إلى السيدة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي التي كانت عضوا نشيطا في حركة أبيها الإصلاحية(٤٥).

جعل الإعداد السياسي القبلي ابن فودي يضع المرأة نصب عينيه، كطرف فاعل في دعوته ومساند لمشروعه، إذ أقحمها في تعليم وتدريس، كل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية واللغة العربية، وقد أعد زواجاته وبناته اللواتي أشرف بنفسه على تلقينهم، أطرا مدرسة لباقي النسوة الأخريات. وتعتبر ابنته أسماء أبرز من اشتغلت طويلا في تعليم النساء إلى جانب مشاركتها المتعددة في مختلف الأنشطة الاجتماعية والسياسية والركون إلى التأليف والإبداع، فاشتهرت إزاء ذلك بغزارة التأليف بلغات مختلفة وعرف تنظيمها التعليمي تحت اسم "ين تارو" Yon taro(٤٦).

تنحصر أسباب التركيز على دراسة نموذج السيدة أسماء بحكم أنها كانت كثيرة التأليف والترجمة والتمايز على مستوى شخصيتها الثقافية هذا من جهة، أما من جهة أخرى مبادرتها في الإشراف على إطلاق مشروع تعليمي مستجد، يكفل للمرأة التعلم سمي ب **"يان تارو"** كما مر ذكره، إذ كانت تستقبل النساء والفتيات من القرى وتسهر على تلقينهم المواد المعرفية المتعلقة بالتعليم العربي الإسلامي من قبيل القرآن والتفسير والحديث والفقه، ولم يتوقف دورها عند هذا الحد، بل اعتنت بتلقينهم قواعد اللغة وأبجديات الكتابة، ووضعت في متناولهم جملة من الكتب المساعدة وكانت أبوابها مفتوحة أيضا في وجه النساء المتفرغات من المسؤوليات الاجتماعية التي كانت تخصص لهن تدريبا يسمح لهن بممارسة مهمة التعليم بعد انقضاء مهلة التدريب(٤٧).

لقد أثمرت جهود العالمة أسماء بنت عثمان بن فودي على محاربة الجهل والأمية في صفوف نساء الأرياف، ومكنتهم من التعلم ونشر الثقافة العالمة في أوساطهن بعد انتهاء مسارهن التعليمي، ناهيك عن مساهمتها في تخريج فئات من المعلمات كانت كل واحدة منهن يناط لها مهمة تعليم مجموعة من النساء وتحمل لقب جاجي Jaji، وعموما كانت مهنة التدريس لصيقة أكثر بالمتعلمات من النساء في خلافة سوكوتو الإسلامية(٤٨).

نادى بن فودي بتعليم المرأة في فلسفته التعليمية داخل دولته، ولم يتراجع في ذلك أمام منتقديه(٤٩)، رغبة منه في تعميم دعوته بين جميع أجناس وفئات مجتمعه، حتى يكثر من أعداد أنصاره الذين من المنتظر أن يشغلوا وظائف في دواوين دولته العصرية. ولا شك أن هذه الالتفاتة المقصودة إلى المرأة، ستجعل من اللغة العربية أكثر مركزية ورسمية داخل الأوساط ليس السياسية فحسب، وإنما أيضا المجتمعية(٥٠)، مما سيجعلها في وضع مدعوم كلغة وافدة ـ تخدم مشروعه ـ تضاهي فيه وجود باقي اللغات المحلية السائدة(٥١).

بالجملة أن ما حمله ابن فودي من مشروع سياسي وضع له مقوماته الثقافية المعلومة، ومكنها في البداية من أفراد بيته من خلال إشرافه بنفس على تدريس زوجاته وأبنائه وبناته، لذلك كانوا من الأوائل الذين دعموا دعوته عبر قنوات التعليم والتوجيه وشاركوا في حركته الإصلاحية السياسية. ومن الآثار العلمية التي تركتها العالمة أسماء بنت عثمان بن فودي نذكر من أهمها تذكرة الغافلين الذي هو عبارة عن نصائح ونواهي، كما لها تصنيف حول خصائص القرآن وتصانيف عديدة في ميدان الترجمة، حيث كانت تعمل على نقل الأعمال المكتوبة باللغة العربية إلى لغات الهوسا والفلانية، ناهيك عن أعمالها الشعرية التي كانت مناهج دراسية تلقن في مدارسها للنساء وكانت مواضيعها تتعلق بالقرآن الكريم والتصوف ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام، فضلا عن دروس في الجهاد والتاريخ وطرق العلاج(٥٢).

رابعًا: آثار حركة ابن فوي السياسية على واقع اللغة العربية

على الرغم من قصر عمر التجربة العلمية الفودية، إلا أنها خلفت زخما علميا، استفاد منه ابنه محمد بلو، فألم كثيرا باللغة العربية وقواعدها، حتى صار معروفا بين العلماء بأهليته الكبيرة فيها، وبناء عليه اتخذه والده كاتبا خاصا لمراسلاته، حيث لعب دورا كبيرا في الاضطلاع بكتابة عدة رسائل في سياق المنافحة

عن شرعية والده لدى بعض الأمراء والعلماء في غرب إفريقيا، فكاتب أمير برنو موضحا له سبب قتال أبيه لأمراء الهوسا موصيه بعدم مساعدتهم وملتمسا منه الإجماع على تأييد حركة والده. والملاحظ إن الداعي إلى تبرير المواقف في خضم السجال السياسي بين الزعامات سيجعل من اللغة العربية وتناسل المخطوطات المدونة بها أداة أساسية للتواصل السياسي والدبلوماسي، كما يتبين أن اللغة العربية أضحت من الخواص الثقافية الأساسية في الشخصية العلمية لدى الحاكم العالم بالغرب الإفريقي[٥٣].

ومن آثار حركة ابن فودي التعليمية تشكيل جيل من العلماء الذين تتلمذوا على يديه يماثلونه التكوين العلمي، انبروا بدورهم إلى التأليف تاركين آثارا علمية مخطوطة في جميع الأصناف والألوان المعرفية، غطى حضورها جميع جهات الخلافة الصكتية، مما يجعلنا نقول إن عدم انقطاع حركة التأليف والإنتاج المعرفي باللغة العربية، زاد في تأكيد شعبيتها كلغة رسمية وخدمها على مستوى الحفاظ على مكانتها الريادية في المحافل الثقافية والدينية، ثم تأتي الترجمة بعدها كحل لتعميم المعلومة[٥٤]. كما أبانت حركة ابن فودي على دور الأفارقة جنوب الصحراء في مساهمتهم في إغناء الثقافة العربية بمؤلفاتهم في الميادين الأدبية والسياسية وحمل مشعل الحضارة العربية الإسلامية، بعدما تراجعت الحياة الأدبية المشرقية من جراء انهيار الخلافة العثمانية الوصية آنذاك على المشرق العربي[٥٥].

إن تميز اللغة العربية بحضور قوي في خلافة صكت، كلغة للتأليف والحكم والإدارة والقضاء والمراسلات جعلها تؤثر في أشهر اللغات المحلية الإفريقية (الفلانية ـ الهوساوية ـ السواحلية)، التي راحت تستعمل الحرف العربي في نمطها الكتابي، ثم ما لبثت أن استلهمت العديد من مفردات المعجم العربي ونقلتها إلى تركيبتها اللغوية[٥٦]. عمومًا تظل مرحلة ابن فودي أزهى مراحل ازدهار الحرف العربي واللغة العربية في السودان الغربي[٥٧]. ففي ظرف قرن واحد فقط حقق ما عجزت عنه كل الحركات الدينية الأخرى خلال سبعة قرون[٥٨]، إذ لأول مرة في عهده أصبح ميزان القوى لصالح اللغة العربية والثقافة الإسلامية بمقابل الثقافات الوثنية الأخرى[٥٩]. مهما يكن إن ظاهرة نشر الحرف العربي، التي غرسها ابن فودي في المجتمع الإفريقي، لازال بعض المتصوفة الأفارقة في زمننا الراهن لهم اهتماما بها، ولقد التقطت هذه الظاهرة مشاهدات القادري في زيارته خلال الثمانينيات لعدد من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء[٦٠].

خاتِمَةٌ

تطلب من عثمان بن فودي في إرساء هياكل تصوره السياسي الذاتي والعائلي، الهادف إلى إقامة إمارة بهوية إسلامية شرعية، وضع الشروط النظرية والعملية التي تؤهله لتحقيق ذلك الهدف، فكان العلم من أهم تلك الشروط التي أعانته في تمرير أفكاره وكسب الأتباع والنفوذ والتمهيد لتوجه دولته الجديدة، التي اتخذت من اللغة العربية، لغة رسمية للثقافة والحضارة، فقد أسهمت هذه الثورة بقيادة ابن فودي على مستوى التغيير والإصلاح إلى ازدهار وانتشار غير مسبوق للغة العربية نثرًا وشعرًا، حتى راحت عنصرًا مهيمنًا في التركيبة الثقافية لمجتمعات السودان الغربي، بمقابل اللغات المحلية التي تراجع دورها، وعليه سيساهم الأفارقة بدورهم خلال القرن التاسع في إغناء الثقافة العربية الإسلامية بمؤلفاتهم الغزيرة.

الاحالات المرجعية:

(١) من أبرزهم نذكر جلال الدين السيوطي ١٤٤٥-١٥٠٥م، كان من العلماء الذين زاروا بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط ورام بث حركة إصلاحية بعدما تبين له انحراف أهله عن الدين الإسلامي الصحيح، بانتشار احتراف السرقة واحتراف الوساطة بين النساء والرجال وجور الحكام وتحالف الفقهاء والعلماء والملوك... من زاوية تقديم النصح والإرشاد للنخبة الحاكمة من ملوك وأمراء، فقد اتصل في رحلته بأمير أكذز وكاشنة وغوبر الذين لازمهم بالنصح عدلا بين الرعية وتحكيم الشرع والنأي عن العادات المخالفة للدين الإسلامي، فضلا عن تحريره عدة رسائل كانت عبارة عن فتاوي مقدمة إجابة على بعض استفساراتهم الشرعية، وفي هذا الصدد ألف ذخيرة علمية كبيرة، بلغ تعدادها ستة مائة مؤلف، همت مواضيع متنوعة. بهيجة الشاذلي، الأوضاع الاجتماعية في السودان الغربي في النصف الأخير من القرن الخامس عشر من خلال رسائل الجلال السيوطي، **ضمن الثقافة العربية الإسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء غرب إفريقيا نموذجا**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات زغوان - أوت/آب ١٩٩٧، صص ٥١-٥٢-٥٥-٥٦.

وإلى جانب السيوطي يعد المغيلي كذلك من العلماء والمصلحين الذين زاروا بلاد السودان في نفس الفترة، وتردد على بلاطات أمرائها في أهير وتكدة وكاشنة الذين حظي بينهم بالحظوة، فأشاع دعوته الإصلاحية والتعليمية بين الخبة والعامة هنالك، ومن آثاره في ذلك تأليفه رسالة في أمور السلطنة لأمير كانو ينصحه فيها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

وقد أمضى مدة طويلة في رحاب إمارة كانو نزولا عند رغبة حاكمها أبو عبيد الله محمد، مشتغلا بالتدريس والإفتاء، ويبدو أن المغيلي، استغل إقامته ببلاد السودان والشرعية الدينية ،التي كان يضفيها على حكمهم ليمارس نشر مبادئه الإصلاحية وطريقته القادرية، لاسيما وأنه كان يتمتع بهامش من الحرية ويحظى بدعمهم السياسي. بهيجة الشاذلي، "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" لمحمد بن عبد الكريم المغيلي: ملاحظات أولية، **ضمن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني**، جامعة الحسن الثاني ـ عين الشق الدار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تقديم وتنسيق محمد العيادي، مطبعة فضالة ـ المحمدية، بدون تاريخ النشر، صص ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ١٩٨. ومبروك مقدم، محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والمخطوطات التراثية، **ضمن اليوم الدراسي حول أهمية الوثائق العائلية والعامة في كتابة التاريخ**، جامعة وهران، نونبر ١٩٨٨، بحث خاص بحوزة الأستاذة بهيجة الشاذلي، ص ١٨ ـ ١٩. والمميز في زيارة المغيلي لبلاد السودان، أنها كانت زيارة بحمولة علمية أكثر منها سياسية، نشر خلالها أفكاره العلمية في جميع المدن التي زارها، ودعا الأسكيا الأول إلى الاهتمام بالعلم والحركة التعليمية والاتكال عليه، لأنه أساس السياسة الشرعية. سامي سعيد، **مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط: الدين والعلم في عصر الاسكيين ١٤٩٣ ـ ١٥٩١م**، الجزء الأول: نص الدراسة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، السنة الجامعية ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ١٨٤.

نرى مما قيل إن تجربة عثمان بن فودي، ما هي إلا استمرار لما بدأه السيوطي والمغيلي، كما نظن أن اطلع واستفاد من مؤلفاتهما في إعداد واقتباس وصياغة مرجعية فكره السياسي، كما يبدو من الأعمال التي أنجزها أنه تأثر بنمط كتابتهما باللغة العربية ونحا منحاهما في التأليف.

(٢) من البدع التي كانت واسعة النطاق في المجتمع السوداني، نورد ما قاله محمد بل في إنفاقه: "**هؤلاء السودانيون عتاة مردة فيهم السحر الكثير**". محمد بلو بن عثمان فودي، **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ـ الرباط، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص ٧٢. شهد القرن التاسع عشر عصر انتشارا واسعا للعديد من البدع، فواكب ذلك انتشار عدة حركات إصلاحية في العالم الإسلامي، والتي منها حركة ابن فودي، والملاحظ أن بدع المجتمع السوداني، لم تظل حبيسة مجاله، بل انتقل بعضها مع الجالية السودانية التي نزحت إلى المغرب. إذ احتفظت لنا مشاهدات السوداني ابن القاضي، الذي زار المغرب في عهد السلطان سليمان العلوي ببعض مظاهرها. بهيجة الشاذلي، «نماذج من البدع الدخيلة على المجتمع المغربي من بلاد السودان من خلال رسالتي شكاية الدين المحمدي وهتك الستر لأحمد بن القاضي»، **دفاتر البحث**، المجلد الأول، جامعة الحسن الثاني ـ عين الشق الدار البيضاء، العدد الأول، السنة شوال ١٤٢٢/ دجنبر ٢٠٠١، صص ٢٩٤ ـ ٣٠٣.

(٣) بهيجة الشاذلي، **الفكر السياسي عند عثمان بن فودي**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، القسم الأول، جامعة الحسن الثاني ـ عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى ناعمي، السنة الجامعية ٢٠٠٠/٢٠٠١، ص ٢٣٨.

(٤) اكتساب السودانيين للغة العربية سابق لعصر ابن فودي، إذ يعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي حين خرج للوجود أول مؤلف سوداني باللغة العربية على الرغم من أن أهل السودان كانوا قد دخلوا في الإسلام منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي إلا أن بداية تأليفهم باللغة العربية استغرق منهم وقتًا طويلاً. سامي سعيد، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٥) لا نغفل إن المغاربة بدورهم ساهموا في نشر الحرف العربي ونقل الثقافة العربية الإسلامية إلى السودان الغربي قبل، أو على الأقل منذ عهد إمبراطورية غانا سواء أكانوا علماء أو تجارا. كما أسهم استقرار بعض العائلات المغربية هناك وامتهانها للتعليم كعائلة تعلي وعائلة الفلالي وعائلة البلبالي وعائلة الفاسي، في ترسيخ وتأصيل اللغة العربية وثقافتها الواسعة بالمجال السوداني. بهيجة الشاذلي، تنبكتو: تطورها التاريخي وعلاقاتها بالمغرب، **ضمن العلاقات المغربية الإفريقية حصيلة وآفاق**، أعمال مجموعة البحث حول المغرب وإفريقيا، الناشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق ـ الدار البيضاء، تنسيق وتقديم بهيجة الشاذلي، الطبع صايح كرياسيون، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ١٠٢. وللإشارة لقد ترك التأثير اللغوي المغربي أسماء عدة بضائع مغربية في لغة الهوسا والفلاني. علي هدهودي، المدارس القرآنية بإفريقيا الغربية ودور المغرب في نشر اللغة العربية، **ضمن العلاقات المغربية الإفريقية حصيلة وآفاق**، أعمال مجموعة البحث حول المغرب وإفريقيا، الناشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق ـ الدار البيضاء، تنسيق وتقديم بهيجة الشاذلي، الطبع صايح كرياسيون، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ١١٤.

(٦) مشهود للمملكة المغربية أنها تولي اهتماما خاصا لقضايا اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء، إذ سبق وأن دعمت مشروع ثقافي يستهدف محو الأمية في إفريقيا بالاعتماد على الحرف العربي. عبد العلي الودغيري، **اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح من التأثير المغربي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ـ جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ١١٠. سنة ٢٠٠٦، وشارك في هذا المشروع كل من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) والبنك الإسلامي للتنمية واليونسكو ومعهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، كانت تعقد اجتماعات دورية كل ثلاثة أشهر بغاية تتبع وتفقد مجريات المشروع، الذي أثبت فعلا نجاعته في إعادة كتابة إحدى وعشرين لغة إفريقية بالحرف العربي. خالد إبراهيم المحجوبي، الثقافة العربية والإفريقية بين التواصل والتفاصل، **ضمن الثقافة العربية الإفريقية (رؤية مستقبلية)**، الرابطة العامة للأدباء والكتاب، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ٢٣٨.

(٧) بهيجة الشاذلي، علاقة المغرب ببلاد الهوسا خلال القرن التاسع عشر نموذج خلافة صكتو، **ضمن العلاقات المغربية الإفريقية حصيلة وآفاق**، أعمال مجموعة البحث حول المغرب وإفريقيا، الناشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء، تنسيق وتقديم بهيجة الشاذلي، الطبع صايح كرياسيون، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ١٤٠.

(٨) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي... المرجع السابق، السنة الجامعية ٢٠٠٠/٢٠٠١، ص ١١٩.

(٩) عبد الله عبد الرزاق، الدور الثقافي للشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا، **ضمن اللغة والثقافة في أفريقيا**، أعمال المؤتمر الدولي الثاني، جامعة القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر، ٢٠٠٨، ص ٤٥٧.

(١٠) عمر جاه، «تقويم جديد لجهاد الحاج عمر الفوتي وعلاقته بجهاد الشيخ عثمان بن فودي»، **مجلة كلية العلوم الاجتماعية**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية، العدد السادس، السنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣٠٢.

(١١) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ١٢٢-١٢٣-١٢٥-١٢٦.

(١٢) نفسه، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ـ ١٢٧. بهيجة الشاذلي، «من أعلام الثقافة الإسلامية بإفريقيا محمد بلو نموذجا»، **مجلة المناهل**، العدد ٥٦، السنة الثانية والعشرون، جمادى الأولى ١٤١٨هـ/ شتنبر ١٩٩٧، ص٣٨٧.

(١٣) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ١٢٤-١٢٥-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠.

(١٤) ترسخت الطريقة القادرية خلال القرن الثامن عشر في بلاد الهوسا، وبات عثمان بن فودي من أبرز شيوخها ورموزها الجدد، وألف الكثير من القصائد بلغته المحلية وباللغة العربية، جاءت متضمنة لتقاليد وصور صوفية، ويعود السبب الحقيقي وراء بروز هذه الطريقة وتشكل أورادها إلى أسباب نفسية وشخصية، دفعت ابن فودي أن اختار القادرية، ووضع أسس فرع جديد طبعه بتصوره الروحي الخاص، ويظهر ذلك من خلال ما تركه من مؤلفات في الطريقة وسلسلتها ومنهجها والتي منها السلاسل الذهبية والسلاسل القادرية وتبشير الأمة المحمدية بفضائل الطريقة القادرية، وقد مكنت هذه المؤلفات الشيخ عثمان بن فودي من نشره لطريقته بصورة واسعة في السودان الأوسط ومحاربته البدع والخرافات المحلية، كما عهد عن أتباعه بقوة الدراسة والتعلم حتى صارت زوايا في عهده مراكزا للذكر وممارسة التعليم والصلاة وإصدار فتاوى التشريع الإسلامي. عطية عومار، **الحياة العلمية في خلافة سكوتو الإسلامية خلال الفترة ١٢٣٣ – ١٣٢١هـ/١٨١٧ – ١٩٠٣م**، جامعة غرداية ـ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، السنة الجامعية ١٤٤٢ – ١٤٤٣هـ/٢٠٢٠ – ٢٠٢١م، ص ١٤٣ – ١٤٤.

(١٥) نفسه، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣٦. ١٤٢ ـ ١٤٥. بهيجة الشاذلي، الفكر الصوفي والسياسي عند عثمان بن فودي، **ضمن الإسلام والمقاومات والدولة في إفريقيا الغربية**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ـ الرباط، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، صص ٧٤-٧٥-٧٧-٨٠.

(١٦) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩.

(١٧) آدم إبراهيم أحمد، الثقافة العربية الإسلامية في دولة صكة الإسلامية (إحدى ولايات جمهورية نيجيريا الاتحادية)، **ضمن الإسلام في إفريقيا**، المؤتمر الدولي ـ الكتاب الحادي عشر، جامعة إفريقيا العالمية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٣٤٩.

(١٨) نشير إلى أن التأليف الفودي يتوزع على ثلاث مراحل كل مرحلة ولها مميزاتها: فإذا كانت المرحلة الأولى التي تمتد من١٧٧٤ إلى ١٨٠٤، لم تخرج فيها مواضيع مؤلفاته عن التعليم والتربية الروحية وتفسير أمور الدين، فإن المرحلة الثانية ١٨٠٤ ـ ١٨٠٩، اقتصر فيها على مؤلفات تفرض آرائه ونصائحه وفي هذه المرحلة تمت بيعته. أما المرحلة الثالثة تقع زمنيا بين ١٨٠٩ ـ ١٨١٧، اتجهت فيها حركته التأليفية إلى الاهتمام بالتسيير السياسي. بهيجة الشاذلي، **المخطوطات العربية الإفريقية ودورها في إعادة قراءة التاريخ السياسي لإفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن التاسع عشر**، المملكة المغربية وزارة الثقافة والشباب والرياضة قطاع الثقافة، انظر الموقع الالكتروني:www. Minculture.gov.ma ، ٢٤ يوليوز ٢٠٢١.

(١٩) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ١٤٥-١٩٠-١٩١-١٩٢.

(٢٠) Moumouni Seyni, "'Ilm At-tasawwuf dans L'œuvre du Cheikh Uthman Dan Fodio (1754 – 1817)", **al-Maghrib Al-Ifriqi**, Revue spéciale dans Le patrimoine et Les Etudes Africaines, Rabat-Maroc, 7 (2006), p 84.

(٢١) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١.

(٢٢) عثمان بن فودي، **تنبيه الاخوان على أحوال أرض السودان ورسالة من عثمان بن فودي إلى أمير أهير ومسائل (١٤)**، مخطوط خاص، بحوزة الأستاذة بهيجة الشاذلي، ص ٢.

(٢٣) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وثيقة أهل السودان للشيخ عثمان بن فودي وآثارها، **ضمن البردي والمخطوطات العربية في إفريقيا**، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر، ٢٠٠١، ص ١٩.

(٢٤) على الرغم من ذلك، أبان أهل حوس قدرة على تعلم اللغة العربية والتعبير بها نثرا وشعر، خصوصا بعد إشعاع دعوة ابن فودي ونهضته وتكاثر عدد أتباعه. محمد أحمد بدين، **الفلاتة الفلانيون في السودان الأصل والتاريخ**، مركز الدراسات السودانية، القاهرة ـ جمهورية مصر العربية، ١٩٩٥م، ص ٢٨.

(٢٥) إن هذا التعدد اللغوي الذي كتبت به المخطوطات في عهد عثمان ابن فودي، سيتحول إلى عائق حينما تم تنفيذ مشروع فهرستها وتصنيفها في الستينيات والسبعينيات، نظرا لعدم إلمام معظم الباحثين باللغة العربية واللغات المحلية. أحمد محمد كاني، المخطوطات العربية في السودان الأوسط، **دراسات إفريقية**، العدد السابع والعشرون، السنة السابعة عشر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ١٩١.

(٢٦) نجد من بين الأسباب التي فرضت على ابن فودي اللجوء إلى الترجمة من العربية إلى اللغات المحلية، هو معارضة بعض الفئات له، معتبرة أن تعلم العقائد لا يمكن أن يتم بالعربية لوحدها بالنسبة للأعجمي.

(٢٧) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢٨) الوزير عبد القادر بن محمد البخاري، **تفسير الأحوال بأخبار الخلفاء في السودان**، مخطوط خاص، بحوزة الأستاذة بهيجة الشاذلي، ص ٢٧.

(٢٩) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، ص ٢٠٣.

(٣٠) نفسه، صص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣١) Musa Sulaiman, "The Da'wah Approach of Shaykh 'Uthman Dan Fodiyo", **Islamic Studies - Quarterly Journal**, Vol 28, 4 (1989), p 398.

(٣٢) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، ص ٢٠٣.

(33) Sulaiman Musa, op cit, p 399.

(٣٤) Tabiu Mohammed, "Shari'ah in An Era of Transition: Some Judicial Practices in The Early Days of Sokoto Caliphate", **Islamic Studies – Quarterly Journal**, Vol 28, 4 (1989), p 377.

(٣٥) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ ١٣٦. وأحمد محمد كاني، **الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا**، منشورات الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٧٥.

(٣٦) يونس جبريل حسن، حركة ابن فوديو الصوفية الإصلاحية في شمال نيجيريا وأبعادها النظرية، **ضمن التصوف ودوره في إرساء الروابط والعلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء**، منشورات جمعية الشيخ ماء العينين للتنمية والثقافة، تنسيق ماء العينين النعمة علي، مطبعة الأمنية ـ الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٧، صص ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

(٣٧) الطاهر دوباخ، **إمارة عثمان بن فودي في غرب إفريقيا ١٢١٨ ـ ١٢٣٨هـ/١٨٠٤ ـ ١٨١٧م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر ٢ ـ أبو القاسم سعد الله ـ كلية العلوم الإنسانية، السنة الجامعية ١٤٤٠ ـ ١٤٤١هـ/٢٠١٩ـ٢٠٢٠م، ص ١٧٧.

(٣٨) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، ص ٢٣٧.

(٣٩) الطاهر دوباخ، المرجع السابق، صص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٤٠) عبد الله عبد الرزاق، الدور الثقافي للشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا، **ضمن اللغة والثقافة في أفريقيا**، أعمال المؤتمر الدولي الثاني، جامعة القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر، ٢٠٠٨، ص ٤٦٧.

(٤١) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، ص ٢٧٧. عبد الله عبد الرزاق، الدور الثقافي للشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا، ضمن اللغة والثقافة في أفريقيا، أعمال المؤتمر الدولي الثاني، جامعة القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر، ٢٠٠٨، ص ٤٦٥.

(٤٢) محمد بلو بن عثمان فودي، المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٤٣) الطاهر دوباخ، المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٤٤) بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي...، نفسه، السنة الجامعية ٢٠٠١/٢٠٠٠، صص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٤٥) عوامر عطية، المرجع السابق، ص ٧٩ – ٨٠.

(٤٦) أحمد محمد كاني، المرجع السابق، ص ٧١.

(٤٧) عوامر عطية، نفسه، ص ٧٩ – ٨٠.

(٤٨) نفسه، ص ٨٠.

(٤٩) من العلماء الذين اعترضوا منحه الفرصة لتدريس النساء بجانب الرجال، نذكر العالم مصطفى عويني الزنفراوي البرناوي، فجاء رد ابن فودي في كتاب عنونه ب **"تنبيه الإخوان في جواز اتخاذ المجالس لأجل تعليم النسوان على فروض الأعيان"** برر في موقفه قائلا:" **أما أنني أخلط بين الرجال والنساء في حلقات تعليمي فأيهما أفضل أن تتعلم بهذه الصورة إلى أن نتمكن من فصلهن أم البقاء كالوثنيات؟ ثم إني أخلط بينهم كما خلطتهم الصلاة وذلك بجلوس الرجال في الصفوف الأمامية والنساء في الصفوف الخلفية"**. نقلا عن مصطفى الغديري، أسرة آل فودي ودورها في ترسيخ العقيدة الإسلامية ونشر اللغة العربية بشمال نيجيريا، **ضمن التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء**، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى ـ طرابلس، مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/١٩٩٩م، ص ٢٨٢.

(٥٠) Ibrahim M. Zakyi, "Islam in Africa the impact of Dan Fodio's reforms on the Muslim family", **Hamdard Islamicus**, Vol XXIX, 2 (2006), p 74.

(٥١) أحمد محمد كاني، نفسه، ص ٧١.

(٥٢) عوامر عطية، نفسه، ص ٨٠ – ٨١.

(٥٣) محمد بن علي بن محمد السكاكر، **محمد بل والدولة الصكتية في عهده ١٢٣٢ ـ ١٢٥٣هـ/١٨١٦ ـ ١٨٣٧م**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، صص ٥٧ ـ ٥٨.

(٥٤) محمد بن علي بن محمد السكاكر، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٥٥) بهيجة الشاذلي، دور زعماء الإصلاح الأفارقة (ق.١٩) في إغناء الثقافة العربية الإسلامية نموذج عثمان بن فودي، **ضمن نماذج مشرقة من جهود الإصلاح الإسلامي في إفريقيا إسهامات علماء الغرب الإفريقي في نشر الثقافة الإسلامية**، منظمة الدعوة الإسلامية ـ معهد مبارك قسم الله للبحوث والتدريب، مطابع السودان للعملة المحدودة، طبعة ٢٠١٤م، ص ٦٨.

(٥٦) عبد العلي الودغيري، المرجع السابق، ص ١١٠ ـ ١١١. وعلي هدهودي، المرجع السابق، ص ١١٤.

(٥٧) محمد أحمد بدين، المرجع السابق، ص ٧٧.

(٥٨) بهيجة الشاذلي، المخطوطات العربية الإفريقية ودورها في إعادة قراءة التاريخ السياسي لإفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن التاسع عشر، المملكة المغربية وزارة الثقافة والشباب والرياضة قطاع الثقافة، انظر الموقع الالكتروني:www. Minculture.gov.ma، ٢٤ يوليوز ٢٠٢١.

(٥٩) Sulaiman Ibraheem, "The Islamic State and The Challenge of History: Ideals Policies and Operation of The Sokoto Caliphate", **Islamic Studies – Quarterly Journal**, Vol 28, 1 (1989), p 87.

(٦٠) أبو بكر القادري، مذكرات إفريقية وآسيوية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص ٤١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الأزهر عبر التاريخ
مؤسسة حكومية أم كيان اجتماعي؟
إعادة النظر في تاريخ الأزهر الشريف



محمد جمال علي
باحث دكتوراه في العلوم السياسية
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
جامعة القاهرة – جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

لطالما تُستخدم القراءات غير الدقيقة لتاريخ الأزهر في نقد واقع الأزهر وعلاقته بالدولة في العصر الراهن من جانب بعض المعارضين السياسيين أو بعض التيارات الإسلامية أو حتى بعض القيادات الأزهرية والأصوات الأكاديمية التي تدرس المجال الديني. حيث يشيع بين المصريين –على المستويات الشعبية والسياسية وحتى الأكاديمية- أن الأزهر قديمًا، وحتى بداية الخمسينيات من القرن الماضي، كان مستقلًا تمام الاستقلال عن الدولة، ومتحيزًا بشكل كامل للمجتمع ومصالحه وقضاياه، ومساندًا لأي احتجاجات شعبية أو مطالب اجتماعية من الشعب في مواجهة السلطة. ووصل الأمر لأن يدعي البعض أن الأزهر كان ثوريًا كسمة رئيسية له خلال العصور الوسطى. تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة متعمقة لتاريخ الأزهر، ودور علمائه في المجال العام ومواقعهم المتغيرة على محور العلاقة بين الدولة والمجتمع، وذلك منذ افتتاحه الأول عام ٣٦٢هـ في العصر الفاطمي، وصولًا إلى يناير ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ. وتستخدم الدراسة إطارًا نظريًا لفهم وتحليل العلاقة بين الدولة والمجتمع ينطلق أساسًا من الخبرة التاريخية للمجتمعات الإسلامية خلال عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، وهو اقتراب "المجال المشترك" الذي يفترض شكلًا نموذجيًا للتكوينات التي تُسهم في تحقيق الهدوء وتقليل الصراعات في العلاقة بين الدولة والمجتمع. وخلافًا للتحليل الشائع للوضع التاريخي للأزهر باعتباره مجرد "مؤسسة وسيطة" تنتمي للمجتمع وتُمثل مصالحه أمام السلطات؛ تجادل الورقة بأن الأزهر –في صورته المثالية– يُمثل دائرة تجتمع فيها المصالح المتباينة بين الدولة والمجتمع، ولا يستهدف مجرد الضغط لتحقيق مصالح فئة اجتماعية بعينها، كما هو حال المؤسسات الوسيطة؛ ولكنه يستهدف بالأساس تحقيق الهدوء في علاقات المجتمع والدولة، ومنع الانفجارات الثورية الدامية، من خلال دفع الدولة للرضوخ لبعض المطالب المجتمعية، مقابل منحها الشرعية اللازمة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢١	يوليو	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

التاريخ المصري الحديث؛ المؤسسات الدينية في مصر؛ الأزهر؛ الدولة؛ المجتمع

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299633 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد جمال علي، "الأزهر عبر التاريخ: مؤسسة حكومية أم كيان اجتماعي؟ إعادة النظر في تاريخ الأزهر الشريف".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٥٨ – ١٧٥.

Corresponding author: Mohammed_jamal2020@feps.edu.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لطالما تُستخدم القراءات غير الدقيقة لتاريخ الأزهر في نقد واقع الأزهر وعلاقته بالدولة في العصر الراهن من جانب بعض المعارضين السياسيين أو بعض التيارات الإسلامية أو حتى بعض القيادات الأزهرية والأصوات الأكاديمية التي تدرس المجال الديني. حيث يشيع بين المصريين –على المستويات الشعبية والسياسية وحتى الأكاديمية- أن الأزهر قديمًا، وحتى بداية الخمسينيات من القرن الماضي، كان مستقلًا تمام الاستقلال عن الدولة، ومتحيزًا بشكل كامل للمجتمع ومصالحه وقضاياه، ومساندًا لأي احتجاجات شعبية أو مطالب اجتماعية من الشعب في مواجهة السلطة. ووصل الأمر لأن يدعي البعض أن الأزهر كان ثوريًا كسمة رئيسية له خلال العصور الوسطى.

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة متعمقة لتاريخ الأزهر، ودور علمائه في المجال العام ومواقعهم المتغيرة على محور العلاقة بين الدولة والمجتمع، وذلك منذ افتتاحه الأول عام ٣٦٢هـ في العصر الفاطمي، وصولًا إلى يناير ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى الإطار النظري الذي تتبناه الدراسة في تحليل دور الأزهر في المجال العام وموقعه على محور العلاقة بين الدولة والمجتمع؛ حيث يثير هذا الموضوع بعض الجوانب الإشكالية على المستوى النظري؛ فبينما يُفضل بعض الباحثين استخدام مفهوم "المؤسسة الوسيطة" لتحليل دور الأزهر في المجال العام وخاصة في العصور الوسطى، واعتبار الأزهر مؤسسة تنتمي للمجتمع وتُمثله أمام الدولة، بل وتقود الثورات ضد الدولة إذا لزم الأمر، وهو مفهوم يضع الأزهر مع المجتمع في مواجهة السلطة، يتبنى آخرون مفاهيم "السلطة الدينية" لتحليل دور الأزهر باعتباره سلطة عليا توازي أو تنافس قوة الدولة على غرار السلطات الكنسية في أوربا خلال العصور الوسطى، وهو مفهوم يضع الأزهر مع السلطة في مواجهة المجتمع.

وفي المقابل تتبنى هذه الدراسة مفهوم "المجال المشترك" الذي طرحه أستاذ العلوم السياسية المصري إبراهيم البيومي غانم؛ وهو نموذج نظري مثالي لعلاقات الدولة والمجتمع يفترض شكلًا من العلاقة التعاونية بين الطرفين، عرفه الاجتماع السياسي الإسلامي في بعض مراحله التاريخية، وفي بعض تجلياته المؤسسية، فضلًا عن كونه مُستنبطًا من الأصول النظرية والفلسفية للاجتماع السياسي الإسلامي؛ ويُعبر مفهوم المجال المشترك عن تكوينات مؤسسية لا تعتبر حكرًا على أي من المجتمع أو الدولة أو نقطة قوة لأحدهما –أو لأحد تكويناتهما- في مواجهة المكونات الأخرى؛ بل إنه يُعتبر منطقة مُشتركة ((common sphere)، يُسهم الجميع في تكوينها لتتولى وظائف وأدوار تصب في مصلحة جميع هذه الفئات؛ وبذلك يتم تعزيز العلاقات التعاونية على مستوى المجتمع والدولة.

ويحدد الكاتب ثلاثة عناصر رئيسة يتكون منها المجال المشترك، أولها: (القاعدة النظرية المستقلة في أصل وضعها)، "فلا هي من وضع سلطة الدولة، ولا هي من وضع سلطة اجتماعية ما، وإنما مصدرها هو أحكام الشريعة الإسلامية"، وثاني هذه العناصر هو: أن يُسهم في تكوين المجال المشترك الحكام والمحكومون على السواء، فلا يقتصر إنشاؤه على العمل الأهلي أو العمل الحكومي، وإنما يكون باب الإسهام فيه مفتوحًا لكافة الفئات الاجتماعية والسياسية، ولا يُمنع أحد من ذلك، وثالث هذه العناصر هو: تحقيقه للمصالح الجماعية التي تعود بالنفع على المجتمع والدولة معًا، دون أن تضعف من قوة أحدهما لصالح الآخر، أو تُسهم في زيادة قوة طبقة أو تكوين اجتماعي في مواجهة تكوينات اجتماعية أخرى [1].

وكما يبدو فإن هذا النموذج النظري يتحيز لنمط من العلاقات التعاونية بين الدولة والمجتمع، ويرفض النزعة الصراعية في العلاقة بين الطرفين، ويدعى أن الأزهر وغيره من المؤسسات والتكوينات التي أنتجتها الحضارة الإسلامية مثل المدارس العلمية والطرق الصوفية والأوقاف المختلفة كانت شكلًا من أشكال المجال المشترك التي يُسهم في تكوينها الحكام والمحكومون على السواء وتنعكس فيها مصالح الطبقات الاجتماعية والسياسية المختلفة.

وتستهدف الدراسة الحالية تحليل تفاعلات الأزهر مع الدولة والمجتمع في المجال العام انطلاقًا من هذا التصور النظري للأزهر كمؤسسة مجال مشترك تأسست خلال عصور الحضارة الإسلامية؛ وتمتعت بالأركان الثلاثة المذكورة آنفًا، وهي: القاعدة النظرية الصلبة المتمثلة في حالة الأزهر بالمرجعية الدينية والفقهية التي تُمثل محل اتفاق بين الدولة والمجتمع، وإسهام كل من المجتمع والدولة في تكوين الأزهر ودعمه وتمويله، وأخيرًا السياسات والممارسات التي يتبناها الأزهر والتي من المفترض –نظريًا على الأقل- أن تميل لتعزيز العلاقات التعاونية بين المجتمع والدولة وألا تكون أداة في يد أحدهما في مواجهة الآخر.

وأطروحة المجال المشترك تُقدم نموذجًا نظريًّا يرتكز أساسًا على دراسة موقع وحدة اجتماعية ما على محور علاقات المجتمع والدولة؛ وذلك من خلال قياس ثلاثة عوامل رئيسة، تُحدد موقع هذه الوحدة على ذاك المحور؛ وهذه العوامل هي: الإيمان المشترك بين المجتمع والدولة بقواعد نظرية وفكرية ثابتة، وحجم مساهمة كل من الدولة والمجتمع في تأسيس هذه الوحدة ورعايتها انطلاقًا من هذا الإيمان المشترك، وأخيرًا مدى تمثيل هذه الوحدة لمصالح كل من الدولة والمجتمع، أو أيٍّ منها على حدة[٢].

وتستخدم الدراسة تلك الرؤية النظرية لفهم تحولات موقع الجامع الأزهر -منذ نشأته وحتى قيام ثورة يناير- على محور علاقات المجتمع والدولة، وفي سبيل ذلك تنقسم الدراسة إلى ثلاثة مباحث بعدد عناصر المجال المشترك المذكورة؛ يدرس المطلب الأول عنصر القاعدة الإيمانية المشتركة بين المجتمع والدولة ودورها في تحديد دور الأزهر وعلمائه في المجال العام عبر العصور، ويتناول المطلب الثاني عنصر الإنفاق على الحياة العلمية وتوجيهها بين المجتمع والدولة، بينما يتناول المطلب الثالث العنصر الأخير، المتعلق بالأدوار الاجتماعية والسياسية لعلماء الأزهر، ومدى إسهامه في تحقيق مصالح كل من الدولة والمجتمع.

أولاً: التحولات المذهبية والأيديولوجية في الدولة والمجتمع كمحدد لموقع الأزهر على محور العلاقة بين الطرفين

نشأ الجامع الأزهر في ظل حالة من الصراع المذهبي على مستوى العالم الإسلامي بين المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي تبنته الدولة الفاطمية، والمذهب السني الذي تبنته الخلافة العباسية، وقد تسبب هذا الصراع في حدوث خلل كبير في علاقات المجتمع والدولة في المجتمعات الإسلامية بين القرنين الرابع والسادس الهجريين؛ حيث تدخلت السلطات بصورة متزايدة لتوجيه الحياة العلمية، وتشكيل عقول رعاياها وأفكارهم العقائدية والفقهية، وهذا الخلل في علاقات المجتمع والدولة عرفه المجتمع المصري خلال العصر الفاطمي خاصة، واستمر خلال الفترات الأولى من الحكم الأيوبي، قبل أن تتلاشى آثاره لاحقًا بعد تراجع الصراع المذهبي.

١/١-الأزهر بين المجتمع والدولة في ضوء الصراع المذهبي في العهدين الفاطمي والأيوبي

تميّز العصر الفاطمي في مصر بالخلاف الواضح بين مذهبي الأمة والدولة؛ حيث قامت الدولة الفاطمية على المذهب الشيعي الإسماعيلي، وحكمت في مصر مجتمعًا يدين مسلموه بالمذهب السني -بغض النظر عن نسبة المسلمين أصلًا بين المصريين آنذاك-؛ الأمر الذي كانت له بالتأكيد دلالات وانعكاسات مهمة على علاقات المجتمع والدولة في مصر الفاطمية، وعلى موقع الأزهر وعلمائه على محور هذه العلاقات. فقد مثّل الجامع الأزهر المرجعية الثقافية والعلمية للدولة الفاطمية، والأداة الدعائية للمذهب الشيعي الذي تتبناه هذه الدولة[٣]، كما كان يُستخدم لإذاعة الأخبار السياسية وقرارات الحاكم وتوجيهاته، وإعلان دخولها حيز التنفيذ[٤]؛ أي أن الجامع الأزهر بدأ جزءًا أصيلًا من المجال السياسي، مرتبطًا -أشد الارتباط- بالسلطة الحاكمة ومذهبها، كما استمر على هذه الحال طوال سنوات الحكم الفاطمي لمصر.

وعلى الرغم من أن سنوات الحكم الفاطمي لمصر لم تشهد صراعًا واضحًا مباشرًا بين الحكام والرعية يهدف إلى إجبار المصريين على اعتناق المذهب الشيعي الإسماعيلي بالإكراه؛ خاصة أن الغزو الفاطمي لمصر تم بصورة سلمية دون أية مقاومة عسكرية، ولاقى استبشارًا وترحيبًا من المصريين الذين كانوا يعانون من فوضى وانهيار الحكم الإخشيدي في مراحله النهائية[٥]؛ إلا أن طبيعة المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي تبنته هذه الدولة، وطبيعة العلاقة بين علماء المذهب والإمام الحاكم وفقًا للمعتقد الإسماعيلي، تُعد ذات دلالات قوية على طبيعة العلاقة بين الدولة والمجتمع في ظلال هذا الحكم.

فالحاكم في المعتقد الإسماعيلي هو إمام معصوم يجمع السلطتين الدينية والسياسية[٦]؛ حيث يمتلك حقًا أصيلًا في حكم الأمة وقيادتها كونه منحدرًا من سلالة النبي من أبناء علي وفاطمة؛ بصورة مطابقة لفكرة الحكم بالحق الإلهي؛ وهو المسئول الأول عن تفسير الرسالة الإسلامية على مر العصور خلفًا للنبي[٧]؛ فيُمثل بذلك المرجعية العليا لعلماء المذهب؛ ومن ثم فإن قدرة هؤلاء العلماء على بناء "مجال مشترك" بين الحاكم والرعية يُمكنهم من خلاله تبني بعض مطالب واعتراضات الرعية تجاه سياسات الحاكم محدودة للغاية إن لم تكن منعدمة؛ بينما ينحصر غالب حضورهم في المجال العام على الدعوة لمذهبهم الذي يتضمن التسليم المطلق للإمام الحاكم.

وكذلك يرفض المذهب الإسماعيلي مبدأ "الإجماع" كمصدر من مصادر التشريع؛ لأن مجموع الأمة في ذاته ليس معصومًا من الخطأ؛ كونه مجموع أفراد غير معصومين، بينما الإمام وحده هو المعصوم من الخطأ والزلل، وأنه هو الضامن للأمة من الانحراف والوقوع في الزلل؛ لأنه امتداد للنبوة واختيار من الله تعالى[٨]، فضلًا عن استحالة حصول الإجماع لكون الاختلاف أمر طبيعي بين البشر، وأنه لا دليل عليه في القرآن والسنة بل إنه مخالف لهما[٩]. وكما أشارت الدراسة آنفًا، فإن نظرية الإجماع في الفقه السني -إلى جانب قيمتي الحرية والشورى- تُعد من أهم عوامل البناء النظري للمجال العام في المجتمع الإسلامي[١٠]؛ وبالتالي فإن نقضها واستبدالها بقول الإمام الفرد يُعتبر قضاءً على المجال العام ذاته، بما فيه تكوينات المجال المشترك، وتكريسًا للاستبداد السياسي والدولة الدينية الثيوقراطية.

ومع صعود نجم صلاح الدين الأيوبي وسقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ، استمرت آثار الصراع المذهبي السني والشيعي تُلقي بآثارها السلبية على علاقات المجتمع والدولة في مصر الأيوبية؛ ففي سبيل التأكد من عودة مصر بالكامل إلى الحاضنة السنية وخلافتها العباسية، عزم صلاح الدين الأيوبي على القضاء على كافة مظاهر التشيع في مصر، مع تعزيز نشر المذاهب الفقهية السنية، وبخاصة المذهب الشافعي الذي يتبناه صلاح الدين، ونتجت عن ذلك سياسات رأى البعض تشابهها الكبير مع سياسات توجيه الحياة العلمية التي اتبعها الفاطميون لأغراض مذهبية[١١]. وبالتالي فإن الصراع المذهبي الذي عرفه العالم الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين ألقى بظلاله السلبية على علاقات المجتمع والدولة في مصر؛ حيث غاب الاتفاق بين الأمة والدولة حول قواعد إيمانية مشتركة يتم الاستناد إليها في إنشاء ورعاية تكوينات اجتماعية تُمثل مجالًا مشتركًا بين المجتمع والدولة.

١/٢-الأزهر بين المجتمع والدولة بعد تراجع الصراع المذهبي في العصرين المملوكي والعثماني

في أواخر العصر الأيوبي وبدايات العصر المملوكي تراجع الصراع المذهبي السني الشيعي بعد استقرار الحكم السني في مصر، وبدأت علاقات المجتمع والدولة تأخذ شكلًا طبيعيًّا يتمتع فيه العلماء بنفوذ اجتماعي كبير، يكتسبونه أساسًا من شهرتهم العلمية بين أبناء المجتمع، وقدرتهم على إضفاء الشرعية أو نزعها عن الحكام وسياساتهم، إلى جانب ما يُقدمه لهم الحكام من دعم بدوافع بعضها إيمانية بحتة، تعكس وجود القاعدة النظرية الصلبة التي يتأسس عليها المجال المشترك.

فثمة بعض الشواهد التاريخية التي تؤكد أن إقدام عمال الدولة على وقف ممتلكاتهم على العلماء لم يقتصر على الدوافع البرجماتية، وأن ثمة دوافع اعتقادية تتمثل في ابتغاء الثواب من الله ودعم العلم الذي يخدم الدين[١٢]، كما أن ثمة شواهد تاريخية كثيرة تؤكد احترام الكثير من الأمراء للعلماء وتبجيلهم؛ لما هو معروف عن هؤلاء العلماء والأولياء من كرامات؛ حيث يخشى هؤلاء الأمراء من حلول اللعنات عليهم إذا ما أغضبوا أولئك العلماء[١٣]، وهو اعتقاد تشارك فيه الحكام مع الرعية، واستفادت منه فئة العلماء بصورة كبيرة، مكنتهم من القيام بدور الوساطة بين الحاكم والرعية، وجعلت منهم جماعة صلبة صعبة المراس، وهذا بخلاف ما سيكون عليه الوضع من تعدد التيارات الفكرية والأيديولوجية، مع الدخول في مرحلة الحداثة في بدايات القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

١/٣-الأزهر بين المجتمع والدولة في ضوء الصراعات الأيديولوجية في مصر الحديثة

نظرًا للصدمة الحضارية الهائلة التي سببتها الحملة الفرنسية للمجتمع المصري، فقد دخلت مصر مرحلة التحديث التي قادها محمد علي بأسلوب ثوري استبدادي؛ يهدف لتقوية قبضة الدولة وتحكمها في كافة الفعاليات الاجتماعية، وبناء نخبة جديدة تُمكّنه من قيادة المجتمع والدولة نحو التحديث على النمط الأوربي، وقد أسفر ذلك -مع مرور الزمن- عن نشوء صراعات جديدة في المجال العام المصري، لم يكن لها فيه مكان من قبل، وعلى رأسها الصراع حول هوية الدولة والخلافات الأيديولوجية[١٤].

لم يعد علماء الشريعة من طلاب الأزهر وخريجيه يمثلون النخبة القانونية الوحيدة في مصر؛ حيث نشأت نخبة قانونية وثقافية جديدة، تلقت تعليمها في المدارس الحديثة التي تم إنشاؤها لتدريس المعارف القانونية والأدبية الغربية، وهي نخبة وجدت مكانها في النظام الاجتماعي الحديث الذي كان قيد التشكل، في مقابل نخبة علماء الشريعة، التي ظلت قائمة بأسلوبها القديم، دون جهود تجديدية تُذكر من شأنها تمكين العلماء من الاجتهاد والنظر في قضايا المجتمعات، بدلًا من الاكتفاء بمناقشة القضايا التراثية القديمة الموجودة بكتب الفقهاء المتقدمين[١٥]، ومع ذلك فقد ظلت هذه النخبة الدينية متمتعة بقدرة كبيرة على الضبط الاجتماعي والتأثير في قطاعات

مجتمعية واسعة، وإن بدرجة أقل مما كانت عليها قبل الدخول في عصر الحداثة.

نتج عن ذلك انقسام المجتمع فكريًّا وأيديولوجيا إلى تيارات ثقافية وفكرية متناحرة، وعجزت النخب المصرية حتى عن الاتفاق حول هوية البلاد وانتمائها الحضاري[١٦]؛ ومن ثم تعرّض العنصر الأول من عناصر المجال المشترك -نقصد القاعدة الإيمانية المشتركة- إلى انهيار شبه كامل، بعد أن بات الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية أو الانتماء للهوية العربية الإسلامية ذاته -وهي القواعد النظرية التي تأسس عليها النفوذ الاجتماعي والسياسي لعلماء الشريعة- محل جدال بين التكوينات والنخب الاجتماعية الحديثة.

أما عن السلطة، فقد بقيت على حال أقرب في الفكر والسلوك إلى النخبة العلمانية، مع محاولات لإرضاء النخبة الدينية، أو استخدامها سياسيًّا لإضفاء الشرعية الدينية على سياساتها، وهو أمر تفاوتت قدرات الحكومات المتعاقبة على النجاح فيه وفقًا للظروف السياسية والاقتصادية المُحيطة. فخلال عقود الدولة الحديثة تبلور مفهوم (الوسطية) كإطار فكري جامع لنمط التدين الذي يُمثله الأزهر، والذي ترتضيه الدولة وتتبناه[١٧]، خاصة في مواجهة جماعات الإسلام السياسي التي ظهرت نتيجة لتراجع دور علماء الأزهر في المجتمع، وحرمت الأزهر وعلماءه ومنهجه من الانفراد بالخطاب الديني في مصر؛ لتنشأ خطابات دينية متعددة بتعدد المدارس التي تنتمي إليها؛ من سلفية وإخوانية وجهادية وتكفيرية وغيرها[١٨]، وهي خطابات لقي بعضها رواجًا بين المصريين على حساب الخطاب الأزهري، الذي بات مُتسمًا بالتبعية للسلطة وعدم الفعالية الاجتماعية، في مقابل خطابات الجماعات الأخرى التي اتسمت بالفعالية والالتحام بمشكلات الجماهير وقضايا العالم الإسلامي، فضلًا عن ارتباط بعض هذه الخطابات بطابع ثوري معارض للسلطات العاجزة عن تحقيق النهضة؛ بسبب مشكلات الفساد والاستبداد، وكان ذلك أحد عوامل قوة هذه الخطابات وانتشارها بين قطاعات واسعة من الشباب.

ثانيًا: الأزهر بين التبعية والاستقلال: رعاية السلطة ودعم المجتمع

يتتبع هذا المبحث التحولات في طبيعة الإنفاق على الأزهر وعلمائه على مر العصور، وأثره في تحديد علاقة الأزهر بكل من المجتمع والدولة، انطلاقًا من إسهام كل منهما في دعم وتوجيه الحياة العلمية.

٢/١-احتكار السلطة لتوجيه الحياة العلمية في العصرين الفاطمي والأيوبي

إذا كان التعليم في معظم فترات التاريخ الإسلامي قد تميز بطابعه المجتمعي، المُستقل نسبيًّا عن توجهات الدولة؛ ومن ثم كان قادرًا على تخريج نُخبة متعلمة احتلت الموقع المركزي في المجال العام، واعتبرتها الأمة جديرة بالتعبير عنها وتمثيلها أمام الحُكّام، فإن التعليم في الدولة الفاطمية لم يكن على هذه الشاكلة؛ إذ توجهت الدولة بدعمها لقطاعات تعليمية هادفة إلى تخريج نُخبة من العلماء الشيعة، الذين يقومون بنشر المذهب الإسماعيلي بين أبناء المُجتمع المصري، وبالتالي ظل هؤلاء العلماء يُمثلون طبقة خارجة عن المجتمع المصري، وليست مُندمجة فيه، أو مُعبرة عنه، كما هو الوضع الطبيعي للعلماء في أوساط الأمة الإسلامية، كما أنه كان طبيعيًّا ألا يشارك المجتمع في دعم وتمويل تعليم وتنشئة هذه الطبقة من العلماء، وبالتالي حدث الانفصال بين المجتمع والدولة في القطاع التعليمي، بعد أن كانت دور العلم أحد أهم ثمار التعاون المشترك بين المجتمع والدولة.

اتسم التعليم في الأزهر الفاطمي منذ بداياته وحتى نهاية الدولة الفاطمية بالتدخل الحكومي في كل شئونه الداخلية، بدءًا من تحديد المواد التي ينبغي تدريسها، مرورًا بالأساتذة الذين يُدرّسون بالأزهر؛ والذين تُشترط فيهم الموثوقية من قبل السلطات الحاكمة، وانتهاءً باختيار -أو على الأقل إقرار السلطات- للكتب التي يقوم هؤلاء العلماء بتدريسها في الجامع الأزهر[١٩]، كما أوقفت الدولة أوقافًا كثيرة على الجامع، وتم تعيين خمسة وثلاثين عالمًا شيعيًّا إسماعيليًّا لتدريس الفقه على مذهب الفاطميين، إلى جانب دراسة الأدب واللغة والعقائد الشيعية، وأُطلق على هؤلاء العلماء اسم (المجاورون)، بعد أن بُنيت لهم المساكن والبيوت إلى جوار الجامع، ومُنحوا من العطايا والأرزاق ما يكفيهم ويغنيهم؛ وذلك بغرض إغراء غيرهم من العلماء وطلاب العلم في العالم الإسلامي لطلب مجاورة الأزهر والارتحال إليه واعتناق مذهبه[٢٠]، كما جاء ذلك في إطار سعي الفاطميين لتحويل القاهرة -باستخدام الجامع الأزهر- إلى حاضرة علمية شيعية منافسة لكل من بغداد وقرطبة السنيتين، في إطار المنافسة المذهبية المشتعلة آنذاك[٢١].

وبسقوط الدولة الفاطمية لم تنته آثار الصراع المذهبي المذكور؛ ففي سبيل القضاء على آثار التشيع الفاطمي في مصر، وفي سبيل تعزيز النفوذ السياسي لدولته الجديدة وحمايتها من

فلول الفاطميين الشيعة، الذين حاولوا إشعال الثورات ضده، قام صلاح الدين الأيوبي بالتدخل الصارم في الحياة العلمية وتوجيهها -وليس مجرد رعايتها ودعمها- بما يخدم توجهاته المذهبية ونفوذه السياسي، فقام بتشييد عشرات المدارس التي تُدرّس الفقه على المذاهب السنية المختلفة، والتي باتت تنتشر في كافة ربوع البلاد؛ بحيث صارت المصدر الأكثر حضورًا - إن لم يكن الأوحد- للتعليم في مصر في ذلك التوقيت، وهي سياسات رأى البعض تشابهها الكبير مع سياسات توجيه الحياة العلمية التي اتبعها الفاطميون لأغراض مذهبية[٢٢].

كما عملت الدولة الأيوبية على إضعاف كل رمز فاطمي شيعي تركه الفاطميون وراءهم، فكان الإهمال من نصيب الجامع الأزهر في هذه المرحلة، فلم يعد الجامع الرسمي للدولة بعد أن تم إيقاف صلاة الجمعة فيه طوال عهد الدولة الأيوبية التي استمرت مئة عام، وإن احتفظ ببعض المهام التعليمية البسيطة، إلى جانب اتخاذ أروقته مسكنًا للطلاب الغرباء الذين أتوا إلى مصر لطلب العلم في المدارس الأيوبية الجديدة[٢٣]، ومع ذلك فإن الحياة العلمية والثقافية في مصر لم تتضرر بإغلاق الأزهر؛ نتيجةً للاهتمام الأيوبي الكبير بدعم المدارس العلمية الجديدة، واستدعاء أفاضل العلماء في العالم الإسلامي السني إليها[٢٤].

هذا الاهتمام الأيوبي الشديد بتوجيه الحياة العلمية يُصنّفه البعض في إطار حركة الإصلاح والتجديد التي شهدتها الأمة الإسلامية، والتي بدأت على يد الدولة الزنكية في الشام؛ حيث عملت على إصلاح التعليم وتطهير الأمة من الأفكار والعقائد "الفاسدة"؛ تجهيزًا لها للمواجهة الفاصلة مع الصليبيين واسترداد بيت المقدس[٢٥]؛ ومع ذلك فإن ما يهم في هذا المقام -وفي إطار تحليل لدور العلماء في ضبط علاقات المجتمع والدولة- هو أن السلطات في هذه المرحلة تحكمت بقوة في عملية توجيه الحياة العلمية والثقافية، وتشكيل معتقدات الأمة وأفكارها في إطار الحرب المذهبية السنية - الشيعية من جهة، والحرب الإسلامية الصليبية على بيت المقدس من جهة أخرى، ومن هنا تفقد المدارس العلمية باعتبارها من أهم تكوينات المجال المشترك بين المجتمع والدولة أحد أهم دعائمها، وهو الإنفاق المشترك عليها بين المجتمع والدولة؛ إذ تحتكر الدولة النصيب الأعظم من هذا الإنفاق، وتقوم بموجبه بتوجيه الحياة العلمية وفقًا لانتماءاتها المذهبية وتوجهاتها السياسية.

٢/٢-إسهام المجتمع في توجيه الحياة العلمية في العصرين المملوكي والعثماني

بعد انتهاء حكم الأيوبيين عام ٦٥٧هـ، واصل المماليك الدعم الكبير الذي بدأه الأيوبيون للمدارس السنية وعلمائها، ولكن ليس بدافع الصراع المذهبي كما كان حال الدولة الأيوبية في بدايتها؛ ولكن كان الدافع الرئيس هو اكتساب الشرعية اللازمة للحكم المملوكي الجديد، والقضاء على الصورة الذهنية الراسخة عنهم في عقول المصريين كعبيد ومرتزقة، وهي وصمة عار لم يكن انتصارهم في عين جالوت، ولا إقرار الخليفة العباسي لسيادتهم على مصر كافيين لمحوها[٢٦].

وقام الظاهر بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى دائرة الاهتمام مرة أخرى، مُقدِّمًا له الدعم اللازم؛ استثمارًا لموقعه الاستراتيجي في قلب القاهرة، والذي يجعله جديرًا بأن يكون المسجد الجامع والمدرسة الأم في الدولة المملوكية الجديدة، خاصة بعد تحول مركز الثقل السياسي والثقافي والاقتصادي من بغداد إلى القاهرة؛ حيث إن انهيار الدولة العباسية في بغداد بعد الغزو التتري أسفر عن عودة مصر وموانئ البحر الأحمر مجددًا إلى مركز اهتمام التجارة العالمية بين الشرق والغرب بعد أن كان الخليج الفارسي قد احتل هذا الموقع؛ بسبب السياسات الاقتصادية للدولة العباسية؛ مما أكسب مصر مكانة كبيرة على المستوى العالمي، انعكست في قوة الدولة المملوكية الناشئة اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا[٢٧].

كما أن فاجعة الغزو المسيحي للأندلس، وسقوط كل مدنها عدا غرناطة آنذاك، وانهيار ما كان فيها من مساجد ومدارس عملاقة، وعلى رأسها جامع قرطبة، أدى كل ذلك إلى احتلال الجامع الأزهر موقع الزعامة العلمية والثقافية لمدارس العالم الإسلامي، خاصة بعد إيوائه لرموز العلماء الذين جاءوه من الشرق والغرب، وعلى رأسهم العلامة الشهير عبد الرحمن بن خلدون، الذي ألقى دروسه في الأزهر وعدد من المدارس المصرية، وتولى منصب قاضي قضاة المالكية في العهد المملوكي[٢٨].

وانطلاقًا من هذه اللحظة التاريخية التي ظهرت فيها دولة المماليك وقويت شوكتها في مصر، سيُصبح الجامع الأزهر -وسيستمر- المسئول الأول عن تخريج النخبة الدينية وعلماء الشريعة في مصر[٢٩]، وستتزايد مظاهر الاحتفاء المجتمعي بالأزهر وعلمائه، وأشكال الدعم المادي والمعنوي الذي يقوم المجتمع بتقديمه لهم؛ حيث تذكر المصادر التاريخية أن التجار والميسورين كانوا يتعهدون علماء الأزهر وطلابه بالرعاية

المادية، ويغدقون عليهم من الذهب والفضة، فضلًا عن ألوان الطعام المختلفة؛ تقربًا إلى الله، ودعمًا للعلم والعلماء(٣٠)، كما أن إدارة الجامع الأزهر -ممثلة في ناظره الأمير الطواشي بهادر(٣١)- عملت على توفير مصادر تمويل ذاتية للجامع وعلمائه، وذلك من خلال إصدار قرار بتحويل ممتلكات كل مجاور من مجاوري الأزهر بعد موته للإنفاق على طلاب العلم بالجامع الأزهر، وذلك في حالة عدم وجود ورثة لهذا المتوفى(٣٢)، وهو مظهر من مظاهر تنويع مصادر تمويل الأزهر وعلمائه، وعدم قصرها على تبرعات المحسنين من أبناء المجتمع، أو من رموز السلطة.

وفي العصر العثماني تراجع -نسبيًّا(٣٣)- الدعم المالي الحكومي للأزهر؛ نتيجة ما تميزت به سياسات الدولة العثمانية بشكل عام من عدم الاهتمام بالتدخل المباشر في القطاعات الخدمية –بالمفهوم الحديث- مثل الصحة والتعليم وغيرها، بينما تركزت أوجه الإنفاق الحكومي في الأنشطة الإدارية والعسكرية بشكل رئيس(٣٤). وفي الوقت ذاته، تزايد الدعم المعنوي للجامع الأزهر من قبل السلطات العثمانية؛ فقد احترم العثمانيون حرمة الأزهر ومكانته المقدسة في نفوس المصريين منذ اللحظات الأولى لفتحهم البلاد؛ حيث حظي بالأمان كل من لاذ بالجامع الأزهر وقت دخولهم القاهرة(٣٥)، كما لم يعبث العثمانيون بأوقاف الأزهر التي ورثها من عصر المماليك، والتي صارت حقًّا خالصًا للأزهر وعلمائه، بعد أن كانت من قبل تُعتبر في أغلب الأحيان منّة من الحاكم وإحسانًا منه على الرعية(٣٦)؛ مما أورث الأزهر قدرًا من الاستقلال في إدارة شئونه المالية والعلمية مقارنة بالعصور السابقة(٣٧).

وفي الوقت ذاته تزايد الإنفاق المجتمعي على الجامع الأزهر بصورة كبيرة؛ حتى ذكر الرحالة العثماني أوليا جلبي في حديثه عن الأزهر أن "أوقافه هائلة، يقصر اللسان عن وصفها"، كما كان للواقفين من أبناء المجتمع رأي فيما يختصون به أوقافهم من أنواع العلوم التي يتم تدريسها والمشايخ الذين يتولون التدريس(٣٨)، وكذلك ذكر أن المصريين من شدة إيمانهم بفضل الأزهر كانوا يتصدقون عليه كثيرًا، ويؤدون زكاة أموالهم له، وأن الصرر والعطايا كانت ترسل إلى الجامع وعلمائه من سائر الأقاليم المصرية(٣٩)، وذلك من مظاهر الارتباط المجتمعي الشديد بالجامع الأزهر وعلمائه، خاصة في العصر العثماني.

أما عن الإشراف على أوقاف الجامع الأزهر فقد كانت مهمة ناظر الأزهر بشكل رئيس، ومع ذلك فقد شاركه فيها علماء الأزهر، ممثلين في شيوخ الأروقة الذين أشرفوا على إدارة الأوقاف المخصصة لأروقتهم، وقد أتاح هذا الإشراف لكبار العلماء وصغارهم على أموال الأوقاف فرصًا لزيادة دخولهم وتحسينها(٤٠)، فضلًا عن ذلك فإن المجاورين الفقراء مارسوا رقابة صارمة على أموال الأوقاف وتوزيعها؛ حيث لم يكن هؤلاء يصبرون على تأخر جراياتهم ومرتباتهم، فيقومون بإغلاق الجامع، وتعطيل الدراسة وإحداث الضجيج؛ بل وصل الأمر في إحدى المرات إلى احتجاز أحد كبار العلماء، وهو الشيخ محمد العروسي؛ احتجاجًا على تأخر جراياتهم، وهو ما تكون نتيجته غالبًا الانصياع لرغباتهم وتنفيذها(٤١).

وجدير بالذكر أيضًا أن الإنفاق على الأزهر في العصر العثماني لم يقتصر على التمويل المصري المحلي فقط؛ بل تلقى الجامع الأزهر تمويلًا كبيرًا من سلاطين المسلمين، مثل سلطان المغرب، الذي كان يرسل أموالًا وصدقات كثيرة بشكل دوري؛ ليتم توزيعها على طلاب العلم بالجامع الأزهر(٤٢)، ولعل من أهم أسباب ذلك فتح الأزهر لأبوابه أمام طلاب العلم من جميع أنحاء الأمة الإسلامية، التي سُميت أروقة الجامع بأسماء أبنائها، مثل رواق المغاربة والشوام والأتراك والجاوة وغيرها، وهو ما يؤكد أن الجامع الأزهر مثّل أحد تكوينات تعزيز العلاقة التعاونية بين بلدان الأمة الإسلامية جمعاء، وليس بين الفئات المجتمعية المصرية وحدها(٤٣).

وفي العصر العثماني تزايد نفوذ الجامع الأزهر بشكل كبير، وصار المدرسة الأم في مصر التي تتركز فيها كافة أشكال الدعم، وينصرف إليها طلاب العلم عن غيرها من المدارس، كما ابتدع الحكام العثمانيون منصب شيخ الأزهر؛ ليكون بمثابة المُمثّل للعلماء لدى السلطات، وذلك في إطار السياسات العثمانية الثابتة في التعامل مع أتباعهم؛ حيث كانوا يُفضلون التعامل مع طوائف وجماعات منظمة، ولها قيادات موحدة تتحدث باسمها(٤٤)، كما أن العثمانيين حافظوا على استقلال الأزهر وشيخه، فظل تعيين شيخ الأزهر شأنًا خاصًّا لعلماء الأزهر، يختارونه فيما بينهم، وليس للسلطان أو الوالي حق التدخل المباشر في تعيينه(٤٥)، كما أنهم لم يشترطوا انتماء شيخ الأزهر للمذهب الحنفي -الذي هو مذهب الدولة الرسمي والمتبع في التشريع والقضاء- احترامًا للتنوع المذهبي الذي يتميز به النظام التعليمي بالجامع الأزهر(٤٦).

كما برزت في العصر العثماني الجهود الأهلية الحرة في دعم الحياة العلمية والثقافية؛ حيث قام الأثرياء بإنشاء العديد من المدارس العلمية المستقلة والمنتشرة في ربوع البلاد، بعد أن تلاشى وجود تلك المدارس المدعومة من الدولة -والتي كانت

قائمة ومنشرة في العصرين الأيوبي والمملوكي- حيث اختصت تلك المدارس الجديدة بتدريس العلوم المختلفة وفقًا للمنهج الأزهري، كما تولى التدريس في هذه المدارس خريجو الجامع الأزهر، الذين أنهوا دراساتهم في القاهرة وعادوا إلى أقاليمهم لنشر العلوم الأزهرية فيها[٤٧]، ولممارسة أدوارهم الاجتماعية المهمة في مجتمعاتهم المحلية، وهو ما كان له أثر كبير في تحكّم الجامع الأزهر ومنهجيته العلمية في تشكيل عقول المثقفين المصريين وتربية النشء؛ ومن ثم في تكوين الشخصية المصرية ذاتها.

بناءً على ما سبق، يمكن القول إن الصراع المذهبي الذي سيطر على الحياة العلمية في العصرين الفاطمي والأيوبي تسبب في تدخل الدولة بصورة كبيرة في توجيه الحياة العلمية؛ ومن ثم التحكم شبه الكامل في العلماء، وحرمان المجتمع من الإسهام في توجيه الحياة العلمية بما يخدم مصالحه؛ ومن ثم حرمان الكيانات العلمية والعلماء من القيام بوظيفة المجال المشترك، الكفيلة بتحقيق التوازن في علاقات المجتمع والدولة، بينما في العصرين المملوكي والعثماني -ومع تراجع الصراع المذهبي- تمكن المجتمع من الإسهام في توجيه الحياة العلمية، والارتباط بعلاقات وثيقة مع العلماء ومدارسهم.

٣/٢-إخضاع التعليم الأزهري لبيروقراطية الدولة في العصر الحديث

في إطار سعي محمد علي لتأسيس دولته الجديدة على أسس علمية؛ لمسايرة التطور العالمي، قام بتأسيس مدارس حديثة لتدريس العلوم العسكرية والهندسية وغيرها، كما قام بإرسال البعوث التعليمية لنقل المعارف الغربية المتطورة إلى مصر، من خلال الطلاب المبعوثين، وقد كانت تلك السياسات التعليمية البوابة الأولى لظهور نخبة حديثة يرتبط ولاؤها الكامل بالدولة التي تتولى الإنفاق الكامل عليهم، وتتولى تعيينهم، والاستفادة منهم في جهاز الدولة الحديث[٤٨]، ويرى البعض أنه بوقوع مصر في براثن الاحتلال الإنجليزي ومقدماته - من تدخلات اقتصادية وثقافية في الشأن المصري، وتزايد إنشاء المدارس الأجنبية التي تشرف عليها الإرساليات التبشيرية وغيرها- اتسمت هذه النخبة الحديثة بالطابع التغريبي العلماني، خاصة بعد أن باتت أغلب دراساتها متركزة في المعارف الأدبية والاجتماعية الغربية، وليس مجرد المعارف والعلوم الطبيعية والهندسية[٤٩]. في عهد محمد علي تم تشكيل النواة الأولى لما يعرف حاليًا بوزارة التربية والتعليم، من خلال إنشاء (لجنة شورى المدارس)، ثم (ديوان المدارس)؛ وذلك للإشراف على تلك المدارس الحديثة، وخصصت لها نصيبًا معينًا من الموازنة العامة، ظل يتزايد مع مرور الزمن ومع تضخم الجهاز الإداري للدولة[٥٠].

ونظرًا لمقتضيات التحديث كان طبيعيًّا أن تلتفت الدولة إلى الأزهر وعلمائه ونظامه التعليمي؛ بهدف إجراء بعض التعديلات التي تُحكم سيطرة الدولة على نظام التعليم بالأزهر؛ ليتوافق مع النظام الاجتماعي الحداثي الجديد المُزمع تأسيسه؛ والذي يتسم بتزايد النزعة المركزية التي تستهدف تعزيز سيطرة الدولة ومؤسساتها البيروقراطية الحديثة على كافة الفعاليات الاجتماعية والمؤسسات الأهلية؛ فبدأت عملية سن القوانين المُنظمة للجامع الأزهر ونظام الدراسة فيه؛ حيث صدر أول قانون نظامي للأزهر ١٢٨٨هـ / ١٨٧٢م؛ ليقوم بتنظيم عملية الامتحان والإجازة لطلاب العلم بالجامع الأزهر، وتعددت القوانين المنظمة للعملية التعليمية بالجامع الأزهر بعد ذلك، وكان أبرزها القانون الذي صدر في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني عام ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م، والذي فرض على شيخ الأزهر -لأول مرة- أن يعمل من خلال مجلس للإدارة، يكون في عضويته موظفان حكوميان؛ وذلك بهدف إحكام سيطرة السلطات ورقابتها على مجريات الأمور داخل الجامع الأزهر، كما ظهر ذلك بوضوح فيما تم النص عليه في بعض هذه القوانين من فصل بين الدين والدنيا، والرغبة في حصر اختصاص علماء الأزهر في الشأن الديني والتعبدي المحض بعيدًا عن الأمور السياسية؛ حيث نص قانون رقم (١٠ لسنة ١٩١١) –الذي تم به تأسيس هيئة كبار العلماء- على أن "كل وما خُلق له؛ أهل الدين للدين وأهل الدنيا للدنيا"[٥١].

كما عملت الدولة –في عهد محمد علي خاصة-على التحكم في أرزاق علماء الأزهر التي كانت تضمنها لهم الأوقاف؛ حيث تم إلحاق بعض الأوقاف الموقوفة على الأزهر للإدارة الحكومية، على أن تقوم الحكومة بتعويض العلماء عن ريعها بمرتبات نقدية مما يُسمى "فائض الرزنامة"، وكان ذلك أول مظاهر تلقي العلماء مرتباتهم من الحكومة كحال الموظفين الحكوميين[٥٢].

ومن جهة أخرى، ومن أجل مزيد من التحكم في تشكيل النخب التي ستتولى الوظائف في الجهاز الحكومي، تم إنشاء مدرسة القضاء الشرعي لتتحكم في تكوين قضاة المحاكم الشرعية، كما تم تأسيس كلية دار العلوم لتتحكم في تخريج المتخصصين في اللغة العربية، وهي مدارس بدت منافسة للجامع الأزهر، الذي لن يتمكن طلابه من الحصول على وظائف قضائية دون الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي، ومن الحصول

على وظائف تدريس اللغة العربية في المدارس الحديثة دون الالتحاق بمدرسة دار العلوم، وهاتان المدرستان تنتميان -بشكل كامل- للمجال الحكومي، وتتولى الدولة الإنفاق عليهما بشكل كامل؛ تكريسًا لهيمنتها على توجيه الحياة العلمية، وذلك قبل أن يقوم الملك فؤاد عام ١٩٢٣ بإصدار قرار بإلحاق مدرسة القضاء الشرعي بالجامع الأزهر مرة أخرى، في إطار مساعيه للتقارب مع العلماء في إطار صراعه مع حزب الوفد وحكومته[٥٣].

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره عن مساعي دولة محمد علي لتكريس هيمنتها على الأزهر والحياة العلمية، إلا أن المجتمع لم يفقد دوره في توجيه الحياة العلمية بشكل كامل إلا بعد يوليو ١٩٥٢م / ١٣٧١هـ، كما أن الدولة وممثليها مع ذلك لم يتخلوا بالكامل عن دعم الأزهر وعلمائه، من خلال وقف ممتلكاتهم للإنفاق عليه وعلى سائر قنوات التعليم الشرعي؛ فمنذ تزايد التدخلات الأجنبية في الشأن المصري -وصولًا إلى الاحتلال الإنجليزي- فتحت السلطات أبواب الدعم الحكومي والمجتمعي للكتاتيب ومدارس التعليم الشرعي بما فيها الأزهر؛ حتى أن الخديوي إسماعيل أوقف أوقافًا هائلة لدعم العلوم الشرعية ومدارسها وكتاتيبها في مختلف المحافظات، وكذلك فعل سعد زغلول إبان توليه منصب وزير المعارف، وكان ذلك في إطار المواجهة الاقتصادية والثقافية مع المحتل الإنجليزي والإرساليات التبشيرية المدعومة من قِبَله، كما أن الفئات الاجتماعية المختلفة تزايدت أوقافها على الأزهر بصورة كبيرة في تلك الفترة، خاصة مع اتساع نطاق الملكية الخاصة في ذلك التوقيت؛ ونتيجة لذلك لم يُحرم الأزهر من أوقافه بشكل كامل، وظل متمتعًا بقدر من الاستقلالية، مكّنت علماءه من ممارسة أدوار اجتماعية وسياسية مهمة، وإن جاءت في سياق صراعي استقطابي في ظل الازدواجية التعليمية، وفي ظل غياب الاتفاق المجتمعي حول الهوية والقواعد الإيمانية المشتركة[٥٤].

في العهد الناصري تم إلحاق كافة الأعيان الموقوفة إلى الجهاز البيروقراطي للدولة، ومن ثم أصبحت الدولة هي الجهة الوحيدة المنوط بها التخطيط للعملية التعليمية وتوجيهها[٥٥]، كما تم إلغاء القضاء الشرعي؛ ومن ثم القضاء على أهم مصادر الرزق والوجاهة الاجتماعية لطلاب الأزهر وعلمائه، وباتت الفرص الوظيفية لطلاب الأزهر محدودة بصورة غير مسبوقة؛ مما مثّل تهديدًا كبيرًا لاستقرار النظام الناصري، دفعه للسعي الجاد نحو احتواء هذه النخبة الدينية، وإدماجها في النظام السياسي الجديد[٥٦]. وبموجب قانون تنظيم الأزهر لعام ١٩٦١م، تحوّل الأزهر إلى مؤسسة دينية حكومية، مرتبطة بالسلطة السياسية بدرجة أكبر بمراحل مما كانت عليه من قبل؛ حيث بات الأزهر يملك تنظيمًا إداريًّا مُحكمًا وتابعًا لجهاز الدولة البيروقراطي، كما اعتُبر علماؤه موظفين حكوميين، يتلقون رواتبهم من الدولة فقط ومباشرةً، وصار تعيين شيخ الأزهر مسئولية رئيس الجمهورية وحده، ويتم اعتباره بدرجة وزير، إلى جانب إلغاء هيئة كبار العلماء، واستبدال مجمع البحوث الإسلامية بها[٥٧].

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات التي من شأنها القضاء على استقلال الأزهر، وتهميش دور علمائه بصورة كبيرة، إلا أن حاجة النظام الناصري لكسب قدر من الشرعية الدينية لمواجهة الإخوان المسلمين محليًّا، ومواجهة النفوذ الديني للمملكة السعودية إقليميًّا، ألجأت النظام لاتخاذ إجراءات من شأنها تعزيز موقع المؤسسة الأزهرية كـ "جهاز سلطوي قوي، أشبه ما يكون بمؤسسة كهنوتية" محتكرة للخطاب الديني؛ بهدف إضفاء الشرعية على المشروع الاشتراكي الناصري، والقيام بأدوار الدعاية له في الخارج[٥٨].

إذ لم يقم النظام الناصري بتحجيم التعليم الأزهري أو إلحاقه بالتعليم الحديث استجابةً للدعوات المتصاعدة آنذاك بتوحيد التعليم المصري، ودمجه في جهاز تعليمي واحد، بعد أن تم توحيد القضاء بإلغاء المحاكم الشرعية -على أن تتحول الكليات الدينية إلى كليات لأصول الدين داخل الجامعات المصرية المدنية، على غرار ما فعله النظام التونسي بجامعة الزيتونة- وإنما اختار النظام الناصري الحفاظ على استقلال التعليم الأزهري عن وزارات التعليم العالي والتربية والتعليم، مع إغراق التعليم الأزهري ذاته بالمعارف الحديثة التي يتم تدريسها في المدارس والجامعات المدنية، فتم إنشاء المعاهد الأزهرية التي تم استبدالها بالكتاتيب التقليدية، والتي يدرس بها الطلاب مواد التعليم الحديث إلى جانب العلوم الإسلامية، وتمت توسعة جامعة الأزهر، وإنشاء العديد من الكليات التي تُدرّس العلوم الطبيعية، فضلًا عن دراسة القانون الوضعي في كلية الشريعة والقانون، وقد تجاوز النظام الناصري بذلك غضب العلماء الذين أثارتهم المقترحات المذكورة بتوحيد التعليم تحت مظلة التعليم المدني وحده، وضمن كذلك إدماج نظام التعليم الأزهري في النظام الحديث، وإدماج خريجي التعليم الأزهري في المشروع التحديثي الناصري، فلم يعد الأزهري بالضرورة رجل دين أو عالمًا بالشريعة، يطالب بوظائف قضائية ومجتمعية لم تعد موجودة، وإنما انفتحت أمامه السبل للاندماج في الوظائف

الحديثة؛ طبيبًا أو مهندسًا أو محاسبًا وغير ذلك، وباتت شخصية الأزهري وأنماط حياته متقاربة إلى حد كبير مع طلاب الجامعات المدنية الأخرى(٥٩).

ثالثًا: علماء الأزهر أنصار الثورة أم أتباع الدولة؟

في ضوء أطروحة المجال المشترك -التي تفترض ممارسة تكوينات المجال المشترك لأدوار من شأنها تقديم الخدمات لصالح كل من الدولة والمجتمع، وتعزيز العلاقة التعاونية بينهما- يناقش هذا المبحث تحولات دور علماء الأزهر في المجال العام؛ اقترابًا من، وابتعادًا عن هذه الفرضية، وذلك في ضوء ما تقدم في المطلبين السابقين من مناقشة للعنصرين الآخرين للمجال المشترك.

١/٣-دور علماء الأزهر في المجال العام في العصرين الفاطمي والأيوبي

نظرًا لاحتكار الدولة في العصر الفاطمي لتوجيه الحياة العلمية، ونظرًا لتبني الدولة المذهب الإسماعيلي، واتخاذه مرجعًا وحيدًا لأحكام القضاء، فقد خرجت العملية التشريعية من نطاقها المُجتمعي الحر، وصارت حِكرًا على الدولة والعلماء الشيعة المرتبطين بها، خاصة من أسرة بني النعمان، الذين قادوا عملية تدريس المذهب الشيعي في الجامع الأزهر، وتولي مناصب القضاء العليا في العهد الفاطمي، وبالتالي فقد احتكر الحكام الفاطميون سلطة التشريع، الذي كان يضمن احتفاظ علماء الأمة المُستقلين بها -من خلال اجتهاداتهم الفقهية- حيوية المجال العام، وتحقيق التوازن في علاقات الدولة والمجتمع، وقد أشارت الدراسة من قبل إلى المعتقد الشيعي الفاطمي بتقديس الأئمة والحكام، واعتقاد العصمة فيهم، وتقديم قولهم على إجماع الأمة؛ ومن ثم فالتشريع في هذه الحالة سلطة أصيلة من سلطات الحاكم الذي لا يعلو على قوله تشريع.

كما كان نشر الدعاة الفاطميين في مختلف البلدان؛ للترويج للمذهب الإسماعيلي، واجتذاب الأنصار للدولة الفاطمية مسلكًا رئيسًا من مسالك السياسة الفاطمية، يُمارس من خلال منصب (داعي الدعاة) الذي يلي في الأهمية منصب قاضي القضاة، ويتزيا بزيّه(٦٠)، وقد اعتنى الخلفاء الفاطميون بهذا الأمر عناية فائقة، وعملوا على استقطاب العلماء والنُخب من مختلف بلدان العالم الإسلامي، ودفعهم إلى اعتناق المذهب الشيعي، وإغداق العطايا والأموال عليهم؛ ليقوموا بدور السفراء للمذهب الشيعي والدولة الفاطمية، وتدل قصة اعتناق الرحالة الفارسي الشهير ناصر خسرو للمذهب الشيعي -وتأييده الشديد وإيمانه المُطلق بقدسية الدولة الفاطمية وخلفائها وترويجه لهذه الأفكار(٦١)- على هذا المسلك الفاطمي المُعتمد على القوة الناعمة في إحداث التغيير الثقافي في العالم الإسلامي.

وقد كان يعمل تحت قيادة داعي الدعاة هذا حوالي تسعة آلاف داعية شيعي، منتشرين في ربوع مصر المختلفة، يحاولون إقناع المصريين باعتناق المذهب الشيعي، والترويج للتفسيرات الدينية التي تؤيد الحق الإلهي للخلفاء الفاطميين في إمامة المسلمين، وبالتأكيد فإن هؤلاء الدعاة تلقوا قدرًا من التعليم الذي يؤهلهم لممارسة هذه المهنة في الجامع الأزهر وفي دار الحكمة(٦٢)، وذاك شاهد جديد على موقع دور العلم من المجال السياسي في العهد الفاطمي، كأداة دعائية لمذهب الدولة أو كجهاز أيديولوجي للدولة بتعبير ألتوسير.

بعد سقوط الدولة الفاطمية، عادت المذاهب السنية الأربعة إلى صدارة المشهد التشريعي والقضائي في مصر، وهي مذاهب فقهية، نشأت واستقرت على يد علماء الأمة ومجتهديها المتقدمين، كما أنها لا تمنح الحكام تلك السلطات الدينية المطلقة التي يمنحها لهم الفقه الإسماعيلي الشيعي، وهو ما يجعل العملية التشريعية -ومن ثم أحكام القضاء- مستقلة إلى حد كبير عن السلطات الحاكمة؛ فقد "**كانت** السلطة القضائية تأتي من الخليفة، إلا أن الشرع الذي سيطبق يأتي من العلماء"(٦٣)، كما كان من شأن هذا النمط من العلاقات أن يؤهل العلماء للقيام بدور كبير على المستويين السياسي والاجتماعي.

في العصر الأيوبي انفرد علماء الشافعية بمنصب قاضي القضاة، وعلى الرغم من كون العلماء والقضاة في العصر الأيوبي لم يكونوا ينتمون إلى الجامع الأزهر –الذي هو محل اهتمام الدراسة- والذي كان معطلًا آنذاك، إلا أن إشارة مختصرة إلى مواقف شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام -أشهر من تولى منصب قاضي القضاة في أواخر العصر الأيوبي- كفيلة بتقريب الأفهام إلى طبيعة تطور علاقات المجتمع والدولة وموقع علماء الشريعة منها في هذا العصر.

فعلى الرغم من الإنفاق الحكومي الأيوبي الضخم على علماء الشريعة، لم يمنع ذلك من احتفاظ الكثير من العلماء باستقلالهم في مواجهة السلطات؛ انطلاقًا من قوة علمهم، وشعبيتهم الجارفة التي يخشى بسببها الحكام إغضاب هؤلاء العلماء، هذا فضلًا عن الإجلال والهيبة الكبيرة لهؤلاء العلماء

في نفوس الحكام أنفسهم؛ تلك الهيبة التي هي من دلائل الدعامة الأولى من دعائم تكوينات المجال المشترك؛ حيث يشترك الحكام والرعية في قاعدة نظرية صلبة، محلها الإيمان بقيم ثابتة، يكون منها احترام علماء الشريعة وتبجيلهم.

فقد نجح العز بن عبد السلام في تحدي سلطة المماليك في مصر في أواخر عهد الدولة الأيوبية وفي بدايات العهد المملوكي، وتمثّل ذلك النجاح في إجباره للملك الصالح نجم الدين أيوب على القبول ببيع المماليك -الذين هم عسكر السلطان وسواعده- في مزاد علني؛ ليتم إيداع عوائد بيعهم في بيت مال المسلمين، وهو ما كانت نتيجته تكبد الملك الصالح مبالغ مالية ضخمة نظير شرائه للمماليك مرة أخرى بأسعار عالية، تفوق كل ما عُرض في المزاد[٦٤]، كما وجه للملك الصالح في قلعته توبيخًا شديدًا لسماحه بوجود بعض الحانات التي تبيع الخمور، وقابل الملك الصالح هذا التوبيخ بالاستجابة لمطالب القاضي، وإغلاق هذه الحانات[٦٥].

كما تحدى العز سلطة المماليك مجددًا في بدايات تأسيسهم لدولتهم الجديدة، وفي عهد السلطان سيف الدين قطز، عندما أراد فرض الضرائب على المصريين؛ لجمع نفقات تجهيز الجيش لمواجهة التتار، فرفض العز ذلك، مطالبًا إياه بالبدء بما لدى أمراء المماليك من كنوز وأموال طائلة، ومؤكدًا أن فرض الضرائب على المصريين لتجهيز الجيش لا يجوز إلا في حالة فراغ بيت المال، ومساواة الأمراء بالعامة في هذا المقام، وبالفعل استجاب له سيف الدين قطز، مُجرّدًا نفسه وأمراء المماليك من أموالهم الباهظة، وتم بفضل هذه الأموال تجهيز الجيش لمواجهة التتار في وقت قياسي، وقد كان العز في ذلك الحين مجرد مدرس للفقه الشافعي بالمدرسة الصالحية، منذ أن عزل نفسه من منصب القضاء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان قطز يدعوه لمجالس مشورته[٦٦]، وهو ما يعكس حجم تأثير العلماء في صياغة السياسات، وحجم احترام وإجلال بعض الأمراء لأولئك العلماء، والانصياع لآرائهم.

٢/٣-دور الأزهر وعلمائه في المجال العام في العصرين المملوكي والعثماني

تواصلت مظاهر قدرة علماء الشريعة على مواجهة الحكام، ورفض الكثير من سياساتهم، وتحقيق التوازن في علاقاتهم بالمجتمع خلال العصرين المملوكي والعثماني؛ فقد قام الظاهر بيبرس بإحداث تعديلات واسعة في النظام القضائي ذاته؛ بحيث يتم تعيين أربعة علماء بعدد المذاهب الأربعة في منصب قاضي القضاة، ويكون لكل قاض منهم نواب على نفس مذهبه، منتشرين في الأقاليم المصرية المختلفة[٦٧]، وقد أسهمت هذه التعديلات في تعزيز شرعية سلاطين المماليك لدى علماء مصر، الذين باتت فرصهم الوظيفية في المناصب القضائية أكبر بكثير بعد إدماج المذاهب الأربعة في المؤسسات القضائية[٦٨].

ولم يخلُ العصر المملوكي من تدخلات للسلاطين في أحكام القضاء؛ بغية التحكم في التشريع ذاته، وحرفه عن وجهته الشرعية بما يتوافق مع أهواء الحكام، كما لم يخلُ هذا العصر من وقفات عنيدة للقضاة وجمهور العلماء "المشرّعين" في وجه هذه التدخلات السلطانية، وبعض هذه الوقفات نجح في لجم الحكام وإيقافهم عند حدودهم، كما في حالة قاضي القضاة ابن دقيق العيد، الذي وقف بالمرصاد لمحاولات نائب السلطنة (الأمير منكوتمر) للاحتيال بشأن إحدى التركات الكبيرة لأحد كبار تجار القاهرة، فوقف ابن دقيق العيد موقفًا عنيدًا، معلنًا للناس احتيال نائب السلطنة، ورغبته في الاستيلاء على تركة التاجر؛ كما جمع القضاة والعلماء، وأعلن عزل نفسه؛ مما أحدث ضجة كبيرة في المجتمع، وصل صداها للسلطان، الذي سارع إلى توبيخ نائبه، واسترضاء القاضي وتنفيذ حكمه[٦٩].

كما فشلت بعض هذه الوقفات -على عظمتها- في كبح جماح الحكام الظلمة، ومنع تدخلاتهم في أحكام القضاء، كما في حالة السلطان الغوري، الذي أجمع قضاة مصر وعلمائها على خطئه في إصدار حكم برجم رجل وامرأة قامت السلطات مباشرة بإدانتهما بالزنا، اعتمادًا على اعترافاتهما التي قيلت تحت ضغط التعذيب والضرب المبرح، فاعترض القضاة والعلماء على تنفيذ حد الرجم عليهما، مقرين لهما حق الرجوع عن اعترافاتهما، طالما كانت تحت الإكراه، وهو ما أشعل غضب السلطان الغوري، الذي عزل جميع القضاة ونفاهم إلى أماكن نائية، واتخاذه قرارًا منفردًا بتنفيذ حكمه فيهما، وهذه الحادثة -على فجاجتها- لا تعكس انهيار الوضع الدستوري في المجتمعات الإسلامية الوسيطة؛ ولكنها استثناء، ربما يؤكد القاعدة القائلة إن العلماء والقضاة كان لهم دور كبير في ضبط الحكام، والعمل على إلزامهم بحدود الشرع، كما أن هذه الحادثة جاءت في وقت كانت الدولة المملوكية فيه قد بلغت مرحلة كبيرة من الانحطاط، وأشرفت على الزوال على يد العثمانيين الذي فتحوا مصر، وقتلوا السلطان الغوري بعد أيام من هذه الحادثة[٧٠].

في العصر العثماني تراجع نسبيًّا الدور القضائي لعلماء الأزهر؛ وذلك نتيجة لاتخاذ الدولة العثمانية المذهب الحنفي مذهبًا رسميًّا لها، واحتكار العلماء الأحناف -والأتراك منهم بالتحديد-منصب قاضي القضاة في الولايات العثمانية، فكان

القاضي تركيًا تُعيّنه إسطنبول بشكل مباشر، مع الاحتفاظ بدور محدود لعلماء المذاهب الأخرى في المجال القضائي، من خلال تعيين نواب لقاضي القضاة العثماني من كل مذهب من العلماء المصريين؛ للنظر في قضايا أتباع مذاهبهم تحت إشراف القاضي العثماني أيضًا[٧١].

ومع ذلك، فإن أكثر ما أزعج علماء مصر وعامتها هي القوانين العثمانية الجديدة، التي عقّدت إجراءات الزواج، وعلى رأسها الرسوم الجديدة التي تم فرضها على عقود الزواج، ومنع العلماء المحليين من تسجيل هذه العقود، واشتراط تسجيلها لدى قاضي القضاة ونوابه، وهو ما حرم العلماء المحليين من عوائد تسجيل هذه العقود، كما اعتبر العلماء هذه الرسوم بدعًا، لم يأت بها الدين، ومخالفة صريحة للشريعة الإسلامية، وظهرت معارضة علماء الأزهر لهذه القرارات الجديدة إلى العلن، من خلال اجتماعاتهم المتكررة بالوالي؛ لمطالبته بإلغاء هذه الرسوم، وإقدامهم على رفع الشكاوى إلى السلطان العثماني ذاته؛ ليعلنوا له معارضتهم لهذه الرسوم المخالفة للشريعة، وقد نتج عن ذلك -مع الوقت- تخفيض جزئي للرسوم، ارتبط بأزمات اقتصادية مرت بها الدولة[٧٢].

لم يقتصر دور علماء الأزهر على الجانبين القضائي والتشريعي وحدهما، وإنما ارتبط ذلك بنشاط اجتماعي وسياسي واسع، يجدر ذكر بعض مظاهره ودلالاته في هذا المقام؛ فقد كان الشروع في طلب علوم الشريعة هو بوابة الصعود الاجتماعي للطبقات الفقيرة والمتوسطة، التي يجد أبناؤها دعمًا كبيرًا من المجتمع والدولة عند سلوك طريق العلم، وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بقدراتهم العلمية والاجتهادية، والحجج التي يقدمونها على آرائهم[٧٣]، وعلى مستوى علماء الأزهر، فقد حفظ التاريخ أسماء الكثير من العلماء دون الإشارة إلى أسماء عائلاتهم، ولكن فقط كان يحتفظ الشيخ باسمه الأول، ملحقًا به مذهبه أو إقليمه أو كلاهما معًا، فهذا فلان الشافعي أو المالكي، وذاك فلان الدمنهوري أو الطنطاوي أو الشرقاوي، وغير ذلك، وكان من هؤلاء العلماء الذين بلغوا منزلة اجتماعية كبيرة -بفضل اجتهادهم في العلم وحده- الشيخ عبد الرحمن العريشي الحنفي -نسبة إلى مدينة العريش والمذهب الحنفي- الذي كان يتيمًا فقيرًا، جاء إلى الأزهر، وجدَّ في طلب العلم حتى أتقن المذاهب الأربعة، وتمكن من الإفتاء وفقًا لكل مذهب على حدة، وقد بلغ منزلة كبيرة أهّلته لبلوغ منصب شيخ الأزهر، قبل أن يقوم صراع كبير بين الشافعية والأحناف على مشيخة الأزهر، انتهى باعتزال العريشي للحياة العامة حتى وفاته[٧٤].

ومن هذه المظاهر أيضًا أن علماء الأزهر تمتعوا بصلات وروابط اجتماعية مهمة مع التجار والصناع والزراع والفئات الاجتماعية المختلفة، وخاصة في العصر العثماني، الذي شهد نوعًا من التنظيم النقابي لهذه الفئات، وفي ظل انتشار التصوف بصورة كبيرة في هذا العصر؛ الأمر الذي أهّل مشايخ الطرق الصوفية -وكثير منهم من علماء الأزهر- لممارسة سلطات الضبط الاجتماعي على مريديهم المنتمين لمختلف الجماعات المهنية، إلى جانب الموقع الجغرافي للجامع الأزهر في قلب أسواق القاهرة ودكاكينها؛ الأمر الذي أهّل الجامع الأزهر للقيام بدور مركزي في المجال العام؛ إذ يلجأ إليه الناس في حالة وقوع ظلم شديد من الولاة؛ لاستثمار ما يتمتع به هذا الجامع من قدرة على شل الحياة في القاهرة بشكل كامل، وإثارة الاضطرابات التي تُلجئ الحكام لسماع مطالب الجماهير؛ فقد كان يكفي فقط إعلان مجاوري الأزهر وعلمائه العصيان، وإغلاق أبواب الجامع، والصياح فوق المنابر، حتى يقوم التجار بإغلاق دكاكينهم المحيطة بالجامع؛ خوفًا من الاضطرابات المتوقعة[٧٥].

كما ارتاد الكثير من العلماء ميدان التجارة، وكانت لهم دكاكين في القاهرة وأحيائها الرئيسة، مثل الغورية وخان الخليلي، وعلاقات تجارية على المستوى المحلي والدولي؛ حيث استورد بعضهم بضائع من الخارج مثل البن اليمني، وتاجروا بها في مصر، وغير ذلك الكثير من مجالات التجارة والاستثمار، خاضها كبار علماء الأزهر في عصور ما قبل الدولة الحديثة، وضمنت لهم دورًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا هائلًا، دعّم وزنهم كعلماء للشريعة على محور علاقات المجتمع والدولة[٧٦]، ونتيجة لهذه الأنشطة التجارية والاستثمارية للعلماء، ارتبطت مصالحهم بمصالح التجار والزراع والفئات الاجتماعية المختلفة؛ الأمر الذي أسفر عن قيادة علماء الأزهر لاحتجاجات وثورات ضد الولاة، الذين بالغوا في فرض ضرائب تضرر منها كبار العلماء ذاتهم، وهو ما يظهر بجلاء في حالة قيادة شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي للانتفاضة الشعبية الكبرى في أواخر العصر العثماني عام ١٧٩٥م / ١٢٠٩هـ[٧٧].

ولا ينبغي أن يُفهم من مظاهر ارتباط المجتمع بالأزهر وعلمائه وقيادة هؤلاء العلماء لثورات الجماهير، وتعبيرهم عن مظالمهم أمام الحكام، أن الأزهر في أصله كيان ثوري، ينبغي أن يكون صوتًا للجماهير، كما هو شائع بين الكثير من الإسلاميين المعاصرين، فقد اقتضت طبيعة الأزهر كأحد تكوينات المجال

المشترك أن يتمتع علماؤه بصلات وثيقة مع الحاكم، وأن يُسهموا بدور فعّال في حفظ شرعية هؤلاء الحكام، ومساعدتهم في تحقيق الاستقرار المجتمعي، وارتبطت هذه العلاقات الوثيقة مع الحكام بشخصية الأزهر وعلمائه؛ فقد كانت الانتفاضات التي قادها العلماء، والتي تحفل بها كتب التاريخ، تنتهي بمصالحات وتسويات مع الحكام، سرعان ما ينقضها الحكام أنفسهم دون ردة فعل تُذكر من العلماء، الذين يُستثارون غالبًا عند مبادرة الجماهير بالهيجان، دون أن تكون لهم المبادرة بالمطالبة بوقف ظلم الحكام وبغيهم[٧٨].

وقد ظهر تأثير هذا الأمر في شخصية الأزهر وعلمائه بوضوح في إضفاء كبار علماء الأزهر الشرعية على الحملة الفرنسية، وقبولهم بمشاركتها في حكم البلاد وتدبير الشأن العام، ووصول الأمر إلى إعلان شيخ الأزهر تأييده لنابليون من على منبر الأزهر، وتحذيره للمصريين من إثارة الفتن أو الخروج عليه؛ بحجة وجود نية صادقة لدى نابليون في دخول الإسلام[٧٩]، وهو الموقف الذي يبرره البعض بدافع الخشية من تدمير القاهرة، والرغبة في حماية الأهالي بالدرجة الأولى، بعد سقوط حكم المماليك وفرار عساكرهم بعد هزيمتهم من الفرنسيين[٨٠]، وإن صح ذلك فإنه يؤكد أيضًا ما أشارت إليه الدراسة من رسوخ العلاقة التعاونية بين العلماء والسلطات في وعي علماء الأزهر على مر العصور.

وقد شهدت مصر في سنوات ما بعد خروج الحملة الفرنسية دورًا اجتماعيًّا وسياسيًّا غير مسبوق لعلماء الأزهر، في ظل الضعف الشديد الذي عانت منه السلطات المملوكية والعثمانية التي عادت للحكم بعد غياب ثلاث سنوات؛ حيث عمل العلماء والقادة المجتمعيون -وعلى رأسهم السيد عمر مكرم- على إقرار نظام دستوري جديد، يكون للأمة فيه حق اختيار حكامها والمراقبة الصارمة عليهم، وهي محاولة تُوجت بإجبار السلطان على تولية محمد علي حكم مصر، قبل أن تفشل هذه المحاولة في الاستمرار والتطور؛ نتيجة استثمار محمد علي لما ثار بين العلماء من ضغائن وأحقاد، وتمكنه من تفتيت قوتهم كنخبة اجتماعية مؤثرة[٨١]؛ لينفرد بالحكم، مؤسسًا دولته الحديثة، التي شهد فيها دور العلماء في المجال العام تراجعًا غير مسبوق.

٣/٣-تحولات الدور السياسي والاجتماعي لعلماء الأزهر في عصور الدولة الحديثة

نظرًا لتمتع الأزاهرة بقدر من الاستقلال المالي في العهود الخديوية والملكية، فإن علماءه قد مثّلوا قوة سياسية مهمة وضاغطة، وإن تحول دورها من القيام بضبط التوازن في علاقات المجتمع والدولة، وتعزيز العلاقة التعاونية بينهما، إلى الدخول في الصراعات السياسية، ولعبة توازنات القوى السياسية، كأحد محاور الصراع الاجتماعي بين الدولة والتكوينات الاجتماعية المختلفة، وبرز ذلك بوضوح في عهد الملك فؤاد، واستخدامه لعلاقاته الوثيقة بعلماء الأزهر في صراعه مع الحكومة الليبرالية[٨٢]. صحيح أن علماء الأزهر ظل لهم دورهم وكلمتهم في المجال العام، خاصة في الأحداث الجسام، مثل الثورة العرابية، إلا أن دورهم ذاك ظل متغيرًا تابعًا للعوامل الأخرى؛ بينما احتلت النخب الحديثة صدارة المشهد السياسي والاجتماعي، هذا فضلًا عن وجود انقسامات واضحة وشديدة في مواقف العلماء أنفسهم، تصل إلى حد التناقض[٨٣].

تراجعت -بلا شك- مكانة علماء الأزهر في الجوانب التشريعية والقضائية، بعد أن حلت القوانين الحديثة تدريجيًّا محل التشريع الإسلامي التقليدي، وبعد أن نافست المحاكم المختلطة -ثم المحاكم الأهلية-المحاكم الشرعية، إلى أن انتهى الأمر بحل المحاكم الشرعية بشكل كامل؛ حيث وصل تراجع دور العلماء التشريعي والقضائي إلى ذروته في العهد الناصري. فضلًا عن ذلك، تحول علماء الأزهر في العهد الناصري إلى مُبررين ومُشرعنين لسياسات النظام الناصري وتوجهاته على الصعيدين الداخلي والخارجي، مع إضفاء الصبغة الشرعية على المشروع القومي الاشتراكي للدولة الناصرية، وتأكيد اتساقه مع الدين الإسلامي، والترويج للمشروع الاشتراكي الناصري في البلدان الإسلامية المختلفة، وخاصة في القارة الأفريقية التي أولاها النظام الناصري اهتمامًا كبيرًا، وعمل على تعزيز الدور الأزهري فيها، من خلال زيادة أعداد المنح الدراسية للطلاب الأجانب في الأزهر، وإرسال بعثات دعوية وخيرية من علماء الأزهر لهذه البلدان؛ تدعيمًا للقوة الناعمة للمشروع الناصري.

وقد كان ذلك النشاط الأزهري –داخليًّا وخارجيًّا- أهم أسباب تجنب النظام الناصري للقيام بالقضاء على المؤسسة الأزهرية، واختزالها في كلية محدودة لأصول الدين تابعة للجامعة الحديثة كما أراد البعض؛ في ظل حاجته للشرعية الذي سيضفيها عليه الأزاهرة في صراعاته الداخلية مع الإخوان المسلمين، وصراعاته الإقليمية مع المملكة السعودية صاحبة الشرعية الدينية القوية[٨٤]، وهو أمر يُذكّر بالاستخدامات الفاطمية للأزهر وعلمائه في صراعات الفاطميين المذهبية مع المجتمع المصري داخليًّا، ومع العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس خارجيًّا!

أسفرت علاقة التبعية شبه الكاملة -التي أنتجتها الحقبة الناصرية بين علماء الأزهر والسلطة السياسية- عن ضعف قدرة هؤلاء العلماء على التأثير في المجتمع المصري بصورة فعّالة؛ نتيجة لفقدانهم المصداقية اللازمة لذلك التأثير، مع ضعف القدرات العلمية لوعاظ الأزهر المنتشرين في ربوع البلاد، إلى جانب الصعود الكبير لجماعات الإسلام السياسي ونشاطها الاجتماعي منذ السبعينيات، والتي عملت على سحب البساط من تحت أقدام علماء الأزهر، وقد تأكد ذلك مع ظهور عدم جدوى الحملات التي نظمتها وزارة الداخلية بالتعاون مع علماء الأزهر، والمتمثلة في نقاشات ومناظرات علماء الأزهر ووعاظه مع الشباب المتأثرين بالجماعات الإسلامية في الجامعات، ومع المعتقلين منهم في السجون[٨٥].

وقد لاحظ بعض الباحثين وجود علاقة طردية بين تزايد نشاط الجماعات الإسلامية وأخطارها المتمثلة في ممارسة العنف -من عمليات اغتيال وغيرها- وبين مساحة الحرية التي تمنحها الدولة للنشاط الأزهري في المجال العام؛ حيث تُدرك الحكومات أن تراجع الدور الاجتماعي لعلماء الأزهر، وانحسارهم في دائرة الوظيفة الحكومية، واقتصارهم على التبرير لسياسات الحكومات، مدعاة لفقدانهم المصداقية لحساب الجماعات الإسلامية المُعادية للحكومات، والمطالبة بنزع الشرعية الكاملة عنها، ومن هنا مُنح الأزهر في فترات معينة في عصري السادات ومبارك مساحات كبيرة من الحرية؛ لانتقاد سياسات الحكومات، والمطالبة بتطبيق الشريعة، وممارسة أدوار رقابية على بعض المنتجات الثقافية والإعلامية والفكرية.

إلا أن هذه الحكومات كانت عادة ما تعود للتضييق مرة أخرى على الأزهر بعد تفاقم آثار انتقاداته السلبية على الحكومات ومشروعاتها، وهو ما ظهر بوضوح من إفشال الأزهر لمخططات (المؤتمر الدولي للسكان والتنمية) الذي عقدته الأمم المتحدة في القاهرة، والذي كان يعتبر انعقاده في القاهرة من إنجازات نظام مبارك؛ لما يوفره من فرص لتبوّئه موقعًا رياديًّا بين البلدان النامية؛ فقد تضمنت توصيات المؤتمر عددًا من السياسات المتعلقة بحقوق الإجهاض والمثلية الجنسية وتحديد النسل وغيرها؛ مما أسفر عن قيادة الأزهر هجومًا كاسحًا على المؤتمر ومنظميه؛ مما أدى إلى إفشاله، وانتشار صورة ذهنية عن مصر في الإعلام الغربي، مفادها وجود صراع بين الحكومة والأزهر، ووجود سطوة كبيرة لعلماء الدين في المجتمع والدولة المصريين[٨٦].

أسفر ذلك عن عودة الدولة مرة أخرى للعمل على تكريس هيمنتها على الأزهر وعلمائه، من خلال تعيين الشيخ محمد سيد طنطاوي شيخًا للأزهر بعد وفاة الشيخ جاد الحق عام ١٩٩٦ / ١٤١٧هـ، وكانت اللحظة مناسبة لتعيين أحد العلماء من أصحاب المواقف المؤيدة للحكومة في كافة سياساتها، بما فيها تلك السياسات المتعلقة بالجوانب الأسرية الدقيقة التي تلاقي رفضًا من جمهور علماء الأزهر؛ حيث تراجع خطر الجهاديين الإسلاميين في النصف الثاني من التسعينيات، وبات الوضع مُهيّئًا للاستغناء عن الصوت الأزهري المُعارض[٨٧]؛ ليعيش الأزهر حقبة من الخمول، والتأييد الكامل لسياسات الدولة، والوقوف إلى جانبها في كافة صراعاتها مع الأحزاب والقوى المجتمعية والإعلامية المختلفة، ولو لم تكن صراعات متعلقة بالشأن الديني[٨٨]، حتى وصل الأمر إلى أن يُصرّح الشيخ طنطاوي علانية بأنه مجرد موظف من موظفي الدولة، لا يتحرك إلا في حدود ما تسمح به الجهات الحكومية السياسية والأمنية[٨٩].

انتهى الأمر بوفاة الشيخ طنطاوي في عام ٢٠١٠م / ١٤٣١هـ، وخلافة الشيخ أحمد الطيب له قبل أشهر من اندلاع ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١م / ١٤٣٢هـ؛ لتدخل علاقات المجتمع والدولة في مصر، ويدخل المجال الديني المصري -والأزهر في القلب منه- مرحلة تاريخية من التحولات في الوظائف والأدوار والعلاقات.

خاتمةٌ

تقدم هذه الدراسة نقدًا مهمًا للتناول التقليدي السائد للدور التاريخي للأزهر وعلمائه، وعلاقتهم بكل من المجتمع والدولة؛ حيث يتحدث الكثير من الكتاب والمفكرين -وخاصة من المؤسسة الأزهرية الرسمية- عن أدوار ثورية حاسمة للأزهر في مواجهة الدولة تضامنًا مع المجتمع ومظالمه؛ إلا أن القراءة التاريخية لدور الأزهر في المجال العام في ضوء أطروحة المجال المشترك أثبتت خلاف ذلك؛ إذ إن الأزهر بطبيعته كأحد تكوينات المجال المشترك، الذي يعتمد في جزء كبير من تمويله وتوجيهه على الدعم الحكومي، لا يُمكنه أن يكون ثوريًّا تطهّريًّا وفق الرؤى التقليدية الحالمة المنتشرة؛ ولكنه عبر التاريخ -ونظير دعم الدولة لعلمائه واحترامها للشريعة الإسلامية- عمل على توفير الشرعية اللازمة للحكام، وعلى تهدئة الانفجارات الثورية، من خلال القيام بأدوار الوساطة بين الجماهير وبين السلاطين، حتى لو ظهر بعض علماء الأزهر بمظهر قادة هذه الثورات.

فقد كشفت هذه القراءة التاريخية أن تحرك العلماء دائمًا ما يكون تابعًا لتحرك الجماهير، وأن نتيجته كانت تؤول -في غالب الأحيان- لرضوخ الدولة نسبيًا لمطالب الجماهير بوساطة علماء الأزهر، ولو لفترة مؤقتة، لحين انتهاء الموجة الثورية، كما أن تحرك العلماء يكون أكثر حدة وجذرية عندما تمس مظالم الدولة بعض المصالح الاقتصادية الخاصة بهم، أو عندما تتعدى الدولة على اختصاصاتهم القضائية؛ فحينها تكون دوافعهم للمشاركة في الحراك الثوري وقيادته أكبر، وتكون احتمالات الصدام بين الأزهر والدولة أوضح، إلا أن هذا الصدام المباشر لم يقع أبدًا، وظلت حالة التوازن والهدوء قائمة في غالب فترات التاريخ.

كما أن بعض الكُتاب يستخدمون مفهوم "المؤسسات الوسيطة" للحديث عن طبيعة دور الأزهر في المجال العام في العصور الإسلامية، وهذا المفهوم وليد الخبرة السياسية للدولة القومية الحديثة، وتحدث عنه أليكس دي توكفيل خلال دراسته للنظام السياسي الأمريكي، ولا يصح -في رأي الباحث- انطباقه أبدًا على الأزهر ودوره التاريخي في المجال العام؛ فالمؤسسات الوسيطة تعني تلك التجمعات المهنية والاجتماعية المُمثلة للفئات المختلفة من الشعب، والتي تنقل رؤى هذه الفئات ومصالحها إلى السلطات، مثل النقابات والأحزاب وغيرها؛ وبالتالي فهي مؤسسات مجتمعية بالأساس، لا دخل للدولة في إنشائها أو دعمها أو توجيهها، بخلاف الأزهر، الذي هو أحد تكوينات المجال المشترك، التي تعتمد في تمويلها وتوجيه نشاطها بصورة كبيرة على دعم الدولة، إلى جانب الدعم المجتمعي.

ومن ثَمَّ فالأزهر ليس مجرد مؤسسة وسيطة، تُمثل مصالح الجمهور أمام السلطات؛ ولكنه –في صورته المثالية-يُمثل دائرة تجتمع فيها المصالح المتباينة بين الدولة والمجتمع، ولا يستهدف مجرد الضغط لتحقيق مصالح فئة اجتماعية بعينها، كما هو حال المؤسسات الوسيطة؛ ولكنه يستهدف بالأساس تحقيق الهدوء في علاقات المجتمع والدولة، ومنع الانفجارات الثورية الدامية، من خلال دفع الدولة للرضوخ لبعض المطالب المجتمعية، مقابل منحها الشرعية اللازمة.

الاحالات المرجعية:

(١) إبراهيم البيومي غانم: **الأوقاف والمجتمع والسياسة في مصر**، القاهرة، مدارات للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص ٣١-٣٤.

(٢) للمزيد من التفصيل حول هذا الإطار النظري للعلاقة بين الدولة والمجتمع وموقعه بين الاتجاهات والمداخل الأخرى في تحليل العلاقة بين الدولة والمجتمع انظر: محمد جمال علي، **دور الأزهر في المجال العام في ضوء تحولات علاقات الدولة والمجتمع في مصر (٢٠١١ – ٢٠١٨)**، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ٢٠١٩، صـ ٣٠ – ٥٥.

(٣) عمار علي حسن: **الإصلاح السياسي في الأزهر والإخوان المسلمين قبل الثورة وبعدها**، القاهرة، هلا للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣، ص ١٠٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩:٢٤. انظر أيضًا: عبد الحميد يونس وعثمان توفيق: **الأزهر**، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٤٦، ص ٢٥،٢٤. كانت هذه الوظائف منوطة بكافة الجوامع الكبرى في العالم الإسلامي، ولم يكن ذلك حائلاً دون قيامها بوظائف المجال المشترك أيضًا، ومع ذلك فإن في حالة الأزهر الفاطمي كانت هنالك عوامل أخرى كرّست بقاء الأزهر حكرًا على المجال السياسي، وهي عوامل مُوضحة في هذا المبحث.

(5) Hienz Halm, **fatimis and their traditions of learning**, London, I.B Tours publishers – The institution of ismaili studies,2001, pp: 30,31.

(٦) سعيد إسماعيل علي: **دور الأزهر في السياسة المصرية**، كتاب الهلال، القاهرة، دار الهلال، العدد ٤٣١، صفر١٤٠٧، نوفمبر ١٩٦٨، ص، ١٠.

(٧) **الإمامة الإسماعيلية**، معهد الدراسات الإسماعيلية. https://iis.ac.uk/ar/about-us/ismaili-imamat

(٨) محمد عمارة: **الإسلام والسلطة الدينية**، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٩، ص ٢٢:٢٨.

وانظر أيضًا: محمد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح: **الأزهر في ألف عام**، مرجع سابق، ص ٣١:٣٥.

(٩) إسماعيل سامعي، **الدولة الفاطمية وجهود القاضي نعمان في إرساء دعائم الخلافة الفاطمية والتطور الحضاري ببلاد المغرب ٤هـ/١٠م**، الجزائر، مركز الكتاب الأكاديمي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، صـ٣٠٣، ٤٧٨.

(١٠) إبراهيم البيومي غانم: **ميراث الاستبداد**، مرجع سابق، ص ١٥٠:١٥٨. كما يمكن الرجوع للفصل الأول من هذه الدراسة لمزيد من التفصيل.

(١١) عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، الجزء الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣، ص ٩٦:١٠٢.

(١٢) ومثال ذلك قصة بناء المدرسة الطيبرسية المُلحقة بالجامع الأزهر على يد الأمير علاء الدين الطيبرس الخازنداري -في عهد الناصر محمد بن قلاوون-؛ إذ رفض مراجعة حساب بناء المدرسة حين أتوا له به؛ آمرًا بإحضار إناء به ماء وغسل الكتابات المدون عليها هذه الحسابات قائلاً: (شيء خرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه). انظر: أحمد محمد عوف: **الأزهر في ألف عام**، مرجع سابق، ص ٤٢.

(١٣) حلمي النمنم: **الأزهر.. الشيخ والمشيخة**، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠١٢، ص ٦٤. وحقيقة الحال أن الأمور لم تستمر على وتيرة واحدة خلال عصور ما قبل الدولة الحديثة؛ حيث وجد من الأمراء والحكام من يوقر الأزهر وعلماءه بصورة كبيرة، ووُجد منهم من يُحقّرهم ويعاديهم لأسباب مفهومة أحيانًا، وغير مفهومة في أحيان أخرى، وكانت بالطبع شوكة العلماء تضعف وقدرتهم على التأثير تتراجع في حالة وجود أمراء مُعادين لهم، غير مؤمنين بأهميتهم للدين والدولة والمجتمع، وللمزيد انظر: المرجع السابق، ص ٧٥:٩٣.

(١٤) للمزيد حول مشكلات الهوية في مصر وظهورها بعد الدولة الحديثة انظر: شريف يونس: **البحث عن خلاص .. أزمة الدولة والإسلام والحداثة في مصر**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

(١٥) للمزيد حول الجمود الفقهي وأثره في انهيار المكانة الاجتماعية لنخبة علماء الشريعة واستبعادهم من دوائر التأثير في عمليات صنع السياسات العامة وتدبير مصالح الأمة انظر: إبراهيم البيومي غانم: **ميراث الاستبداد**، مرجع سابق، ص ٥٧:١٥٩.

(١٦) طارق البشري: **منهج النظر في النظم السياسية لبلدان العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٢٤:٢٧.

ويقدم الدكتور عمرو الشلقاني رؤية مختلفة لطبيعة الصراع والتنافس بين النخب القانونية في مصر، قد يكون مفيدًا للقارئ الراغب في المزيد من المعرفة بشأن هذا التحول النخبوي في مصر الرجوع إليه. انظر: عمرو الشلقاني: **ازدهار وانهيار النخبة القانونية المصرية ١٨٠٥-٢٠٠٥**، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١٣.

(١٧) للمزيد بهذا الشأن انظر: مصطفى عبد الظاهر: **الوسطية كأيديولوجيا .. دور الأزهر في نشوء القومية المصرية**، منتدى العلاقات العربية والدولة، ٢٦ نوفمبر ٢٠١٤. متاح على الرابط: https://goo.gl/cTzi5X

(١٨) مليكة الزغل: **حراس الإسلام .. علماء الأزهر في مصر المعاصرة**، مرجع سابق، ص ٢٨ وما بعدها. وانظر أيضًا:

Tamer Mostafa , **conflict and cooperation between the state and the religious institutions in contemporary Egypt**, int. J. Middle east stud, the united states of America, 32 (2000), pp: 3-22.

(١٩) عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢٠) عبد الحميد يونس وعثمان توفيق: **الأزهر**، مرجع سابق، ص ٢٨، ٢٩.

(٢١) أحمد فتحي عبد الرحمن حجازي: **هكذا علم الأزهر الأمة.. استقراء تاريخي للتعليم الأزهري عبر العصور**، القاهرة، رواق البحوث العلمية والتحقيق بالأزهر الشريف، ٢٠١٧م، ص ٤٦، ٤٧.

(٢٢) عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، مرجع سابق، ص ٩٦:١٠٢.

(٢٣) أحمد فتحي عبد الرحمن: **هكذا علم الأزهر الأمة ...**، مرجع سابق، ص ٨٣:٨٨. وانظر أيضًا: سعيد إسماعيل علي: **دور الأزهر في السياسة المصرية**، مرجع سابق، ص ٣٣:٣٥.

(٢٤) المرجع السابق نفسه.

(٢٥) انظر مثلاً: ماجد عرسال الكيلاني: **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، الإمارات العربية المتحدة، دار القلم، ٢٠٠٢.

(26) Jackson A. Sherman, **The Primacy Of Domestic Politics;IBN BINT Al-AZZ And The Establishment Of Four Chief Judge Ships In Mamlouk Egypt**, Journal Of The American Oriental Society, Vol. 115, No. 1. (Jan. - Mar., 1995), pp. 52. Available at: http://cutt.us/noHi5

وكان الظاهر بيبرس قد استضاف أحد أبناء الخلفاء العباسيين -الفارين من الغزو التتري- بالقاهرة، وعينه في منصب الخليفة كمنصب شرفي، بينما تحكم بيبرس في مقاليد الأمور كنائب للخليفة؛ وذلك بهدف اكتساب الشرعية اللازمة التي تؤهله لزعامة العالم الإسلامي، انظر: محمد عبد المنعم خفاجي: **الأزهر في ألف عام**، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٢٧) سعيد إسماعيل علي، مرجع سابق، ص ٣٦، ٣٧.

(٢٨) أحمد فتحي عبد الرحمن: **هكذا علم الأزهر الأمة ...**، مرجع سابق، ص ٩٢:٩٥. وانظر أيضًا: عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، مرجع سابق، ص ١٢٧:١٣٠. مليكة الزغل، مرجع سابق، ص ٢٩، ٣٠، ٣١. وانظر: محمد رجب البيومي: **المسجد في الإسلام...**، مرجع سابق، ص ٨٠:٨١. محمد فوزي رحيل: **من غرناطة إلى القاهرة .. لماذا هاجر العلماء الأندلسيون إلى مصر؟**، الحياة، نوفمبر ٢٠١٠. http://cutt.us/50Htt

(٢٩) لم يصبح الأزهر المسؤول الأوحد عن تخريج صفوة العلماء في مصر إلا في العصر العثماني، بينما استمرت المدارس الأخرى ذات مكانة كبيرة في العصر المملوكي إلى جانب الأزهر، ولكن مع تفوق نسبي للأزهر.

(٣٠) بيارد دودوج، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٣١) منصب ناظر الأزهر هو منصب إداري بحت، يتولاه أحد عمال الدولة أو أمرائها، وتكون مهمته الإشراف على أوقاف الأزهر وعماله ونظافته، وغير ذلك، وليس له التدخل في الشئون العلمية الداخلية بالجامع الأزهر، وقد نشأ هذا المنصب منذ بداية العصر المملوكي، واستمر حتى في ظل وجود شيخ للأزهر في العصر العثماني، قبل أن يتم إلغاؤه في عصر محمد علي. انظر: حلمي النمنم: **الأزهر.. الشيخ والمشيخة**، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠١٢، ص ٢١.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٧١.

(٣٣) تراجع الدعم نسبيًّا وليس كليًّا؛ فعلى الرغم من الكثير من الكتابات التاريخية التي تزعم ركود الأزهر ماليًّا وعلميًّا في العصر العثماني، إلا أن ثمة كتابات وشواهد تاريخية كثيرة تؤكد على وجود دعم عثماني مالي كبير للجامع الأزهر وعلمائه، وأن هذا الدعم الحكومي للجامع الأزهر في العصر العثماني كان أهم مصادر تمويل الجامع الأزهر وعلمائه، بينما تأتي الأوقاف والهبات والتبرعات الخيرية في المرتبة الثانية. انظر: حسام محمد عبد المعطي: **شيخ الأزهر في العصر العثماني ٩٤٥-١٢٢٧هـ / ١٥٣٨-١٨١٢م**، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٦، ص ١٤:١٧، ٦٥:٦٩. وانظر أيضًا: عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، ص ١٩١: ١٩٦/ ٢٣٣:٢٥٤. وفي هذه الصفحات تجد وصفًا لأروقة الأزهر المختلفة، يتضمن الكثير من إسهامات الحكام الولاة العثمانيين في إنشائها ودعمها، ومع ذلك يبقى هذا الدعم والاهتمام الرسمي العثماني بالحياة العلمية أقل كثيرًا من نظيره المملوكي أو الأيوبي.

(٣٤) عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣٥) بيارد دودوج، مرجع سابق، ص ٨١.

(٣٦) محمد رجب البيومي: **فصول من كتاب: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر**، تقديم: إبراهيم صلاح الهدهد، هدية مجلة الأزهر، عدد شوال ١٤٣٧ – يوليو ٢٠١٦، ص ١٥.

يُذكر أن الأيوبيين كانوا قد استولوا على أوقاف الأزهر التي تم وقفها عليه في العهد الفاطمي. انظر: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ٨٩. ويبين ذلك الفارق بين الدولة الأيوبية التي عملت على توجيه الحياة العلمية والتدخل الصارخ فيها، والدولة العثمانية التي أتاحت مساحة كبيرة من الحرية للجهود الاجتماعية والأهلية الحرة للقيام بهذه المهام.

(٣٧) أحمد فتحي عبد الرحمن: **هكذا علم الأزهر الأمة...**، مرجع سابق، ص ١٠٩:١٠٧.

(٣٨) زوات عرفان المغربي: **هيئة كبار العلماء...**، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٣٩) أوليا جلبي: **الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش ١٠٨٢-١٠٩١هـ/ ١٦٧٢-١٦٨٠م، الجزء الثاني: كنوز مصر ومآثرها وعمائرها واحتفالاتها**، الصفصافي أحمد القطوري (مترجم)، القاهرة المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠، ص ١٠٤.

(٤٠) حسام عبد العاطي: **شيخ الأزهر في العصر العثماني**، مرجع سابق، ص ٧٩:٦٩.

(٤١) المرجع السابق نفسه.

(٤٢) المرجع السابق، ص ٧٧.

(٤٣) عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، مرجع سابق، ص ٢٧٢:٢٣٤.

(٤٤) حسام عبد المعطي، **شيخ الأزهر في العصر العثماني**، مرجع سابق، ص ٢٥،٢٤.

(٤٥) ومع أن الوالي لم يكن يتدخل بشكل مباشر في تعيين شيخ الأزهر، إلا أن عملية التعيين كانت تخضع -بشكل أو بآخر- لعلاقات المشايخ بالولاة والسلاطين وبعض الفئات الاجتماعية، وكان دور الولاة يظهر بشكل كبير في حالات الخلاف الشديد بين علماء الأزهر حول من له أحقية التعيين؛ للمزيد انظر: حلمي النمنم: **الأزهر الشيخ والمشيخة**، مرجع سابق، ص ٧١:٥٥.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٢٧، ٢٨.

(٤٧) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ١٥٤، ١٥٥.

(٤٨) وربما مثل ذلك أحد جذور الفكرة الوطنية المصرية التي تبرز فيها الدولة بصورة واضحة ككيان معنوي راع للمواطنين المصريين، وليس كمجرد أسرة حاكمة جابية للضرائب.

(٤٩) طارق البشري: **منهج النظر في النظم السياسية لبلدان العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٢٧-٢٤.

إبراهيم البيومي غانم: **الأوقاف والمجتمع والسياسة في مصر**، مرجع سابق، ٢٠١٥، ص ٢٠٩-٢١٤.

(٥٠) المرجع السابق، ص ٢٠٩-٢١٤.

(٥١) زوات عرفان المغربي، مرجع سابق، ص ٣٩:٣٧، ٨٠. وانظر أيضًا لمزيد من التفصيل عن هذه القوانين: ماجدة علي صالح: **الأزهر في قرن**، مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٥ فبراير ٢٠١٣، ص ٢٨٦:٢٨٢. http://cutt.us/xKUQJ

(٥٢) إبراهيم البيومي غانم: **الأوقاف والمجتمع والسياسة...**، مرجع سابق، ٢٠٩-٢١٤.

(٥٣) محمد علي حلة: **الأزهر في الأرشيف المصري .. من وثائق القرنين التاسع عشر والعشرين**، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٥، ص ٣٧:٢٥.

(٥٤) للمزيد عن هذه القضية وأسبابها انظر: إبراهيم البيومي غانم: **الأوقاف والمجتمع والسياسة...**، مرجع سابق، ص ٢١٥-٣٠٧. وفي هذه الصفحات يجد القارئ صورًا متنوعة للدعم الحكومي الرسمي للأزهر وطلبة العلم الشرعي، وللدعم المجتمعي المباشر والمستقل عن الدولة للأزهر الشريف وعلمائه وطلابه، بما يمثّل بوضوح كيف احتل الأزهر موقع المجال المشترك بين المجتمع والدولة وبين فئات اجتماعية متفاوتة في هذه المرحلة.

(٥٥) انظر أيضًا مزيدًا من التفصيل حول ملابسات هذه السياسات وتداعياتها: المرجع السابق، ص ٤٧٨:٦٠٥.

(٥٦) زوات عرفان المغربي، مرجع سابق، ص ٣٧٥، ٣٧٦.

(٥٧) مليكة الزغل: **حراس الإسلام .. علماء الأزهر في مصر المعاصرة**، ص ١٣٢، ١٣٣.

(٥٨) المرجع السابق، ص ٣٧، ٣٨.

(٥٩) المرجع السابق، ص ١٤٧-١٦٠.

(٦٠) سعيد إسماعيل علي: **دور الأزهر في السياسة المصرية**، مرجع سابق، ص ٢٦، ٢٧.

(٦١) علي بن إبراهيم الطرابلسي: **التشيع في طرابلس وبلاد الشام .. أضواء على دولة بني عمار**، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٧، ص ١٥-١٨.

(٦٢) بيارد دودج: **الأزهر في ألف عام**، حسين فوزي النجار (مترجم)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٢٧/٢٦. وإن كان الأرجح تاريخيًّا أن هؤلاء الدعاة تلقوا تعليم الطقوس السرية والغريبة للفاطميين تحديدًا في دار الحكمة تحديدًا وليس الأزهر؛ حيث كان الأزهر مكانًا لتعليم العلوم الدينية واللغوية العامة، خاصة بعد خفوت نزعته المذهبية بإنشاء دار الحكمة، وانتقال هذه النزعة إليها، وقد قدم الدكتور عبد العزيز الشناوي في كتابه المذكور مقارنة بين الأزهر ودار الحكمة يمكن الرجوع إليها في: عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعا وجامعة**، مرجع سابق، ص ٦٤-٧٠.

(٦٣) نوح فيلدمان: **سقوط الدولة الإسلامية ونهوضها**، مرجع سابق، ص ٦٦.

ومع ذلك فقد وقعت انحرافات كثيرة على مستوى الممارسة خلال مراحل التاريخ؛ حيث استقرت بعض المقولات الفقهية السنية التي تُكرّس استبداد الحكام وطاعتهم، وانفرادهم بتحديد المصالح العامة للمسلمين، وهو انحراف -مع عِظمه وخطورته- لم يصل إلى حد الاعتقاد في تمتع الحاكم بسلطة إلهية، تمنع من مواجهته ومعارضته بشراسة إذا لزم الأمر، كما كان حال العلماء الشيعة في الدولة الفاطمية، وللمزيد حول هذا الانحراف الفقهي في الفقه السني انظر: إبراهيم البيومي غانم: **ميراث الاستبداد**، مرجع سابق، ص ٧٥-١٠٥.

(٦٤) أنور الجرف: **العز بن عبد السلام .. سلطان العلماء وبائع الملوك (٥٥٧-٦٦٠هـ)**، ملتقى المذاهب الفقهية والدراسات العلمية. متاح على الرابط: http://cutt.us/Ws7th

(٦٥) Sherman A. Jackson, **the primacy of domestic politics** .. , OP.CIT, pp60.

(٦٦) راغب السرجاني: **قطز وإنهاء الأزمة الاقتصادية**، موقع قصة الإسلام، ٢٢ ديسمبر ٢٠١٠. متاح على الرابط: http://cutt.us/kO30s

(٦٧) للمزيد حول أسباب هذه التعديلات انظر:

Sherman A. Jackson, **the primacy of domestic politics** .. OP.CIT, pp54, 57:65.

(٦٨) عبد الجواد صابر إسماعيل: **مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني ١٥١٧-١٧٩٨م**، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٦، ص ١٦.

(٦٩) محمد رجب البيومي: **فصول من كتاب الأزهر بين السياسة وحرية الفكر**، مرجع سابق، ص ٢٣،٢٢. وللمزيد من مواقف العلماء والقضاة الذين تمكنوا من توجيه سياسات الحكام ومنع طغيانها انظر: عبد الجواد صابر إسماعيل: **مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني ١٥١٧-١٧٩٧م**، مرجع سابق، ص ١٦، ١٧.

(٧٠) المرجع السابق، ص ٢٤:٢٦.

(٧١) عبد الكريم رافق: **معارضة علماء الأزهر للقوانين العثمانية وأهميتها في تاريخ مصر إبان العصر العثماني**، أحمد محمود إبراهيم (مترجم)، بيروت، أوراق نماء (١٣٤)، مركز نماء للبحوث والدراسات، ١٦ فبراير ٢٠١٧، ص ٢٨، ٢٩. متاح على الرابط: http://cutt.us/BW2bi

(٧٢) المرجع السابق.

وقد كانت الدولة العثمانية -على أي حال- من أكثر الدول الإسلامية تدخلاً في شئون القضاء والتشريع؛ الأمر الذي كان له تداعيات مهمة على علاقات المجتمع والدولة، وآثار بعيدة المدى على دور العلماء في المجتمع والدولة، وليس هذا موضع التفصيل في هذا الأمر؛ إذ إن ما يهمنا هو استمرار احتفاظ الأزهر في العصر العثماني بقدرته على ممارسة وظيفته كأحد تكوينات المجال المشترك بين المجتمع والدولة، وللمزيد من التفصيل حول قضية التشريعات العثمانية وآثارها على دور العلماء يمكن الرجوع إلى: إبراهيم البيومي غانم: **تقنين الشريعة الإسلامية بين الدولة والمجتمع**، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١، ص ٣٢:٣٥، ٤١:٤٦. ونوح فيلدمان: **سقوط الدولة الإسلامية ونهوضها**، مرجع سابق، ص ٩٥:١٠٢.

(٧٣) نوح فيلدمان، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٧٤) لمزيد من التفصيل انظر: حلمي النمنم: **الأزهر الشيخ والمشيخة**، مرجع سابق، ص ٥٥:٧٢.

(٧٥) حلمي النمنم، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٧٦) لمزيد من التفاصيل حول الأنشطة التجارية والاستثمارية لعلماء الأزهر في العصر العثماني انظر: عبد الجواد صابر إسماعيل: **مجتمع علماء الأزهر في العصر العثماني**، مرجع سابق، ص ٥٧٣:٦١٣.

(٧٧) للمزيد انظر: عبد العزيز الشناوي: **الأزهر جامعًا وجامعة**، مرجع سابق، ص ٢٧٨:٢٨١.

(٧٨) زوات عرفان المغربي: **هيئة كبار العلماء (١٩١١-١٩٦١)**، مرجع سابق، ص ٢٦،٢٧. وانظر أيضًا: كارين آرمسترونج: **معارك في سبيل الإله .. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام**، القاهرة، فاطمة نصر – محمد عناني (مترجمان)، كتاب سطور، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ٨١، ٨٢. وكدليل على ذلك انظر مصير الانتفاضة الشعبية التي قادها الشيخ الشرقاوي في: عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٧٩) حلمي النمنم، مرجع سابق، ص ٩٣:٩٦.

(٨٠) هاني محمود: **المقاومة الحضارية .. دراسة في عوامل البعث في قرون الانحدار**، مركز الحضارة للدراسات السياسية، دار البشير، القاهرة ٢٠١٧، ص ١٧٤،١٧٥. جدير بالذكر أن موقف الأزهر من الحملة الفرنسية لم يُختزل في موقف كبار العلماء المهادن للحملة، وإنما استقل المجاورون وصغار طلاب العلم بمواقف ثورية مُشرّفة .. انظر: محمد رجب البيومي: **الأزهر بين السياسة وحرية الفكر**، مرجع سابق، ص ٤٧:٥٢.

(٨١) وشريف يونس: **البحث عن خلاص .. أزمة الدولة والإسلام والحداثة في مصر**، مرجع سابق، ص ١٤٠، ١٤١

(٨٢) مليكة الزغل، مرجع سابق، ص ١٠٤:١٠٦.

(٨٣) زوات عرفان المغربي، مرجع سابق، ص ٣١،٣٢،٣٣.

(٨٤) مليكة الزغل، مرجع سابق، ص ١٢٣:١٣٩، ومواقع أخرى متفرقة.

(85)Tamer Mostafa, **conflict and cooperation**…., OP.CIT, pp: 3-22. المرجع السابق، ص ٢٩٥:٣٠٠.

(86) Tamer Mostafa, OP.CIT, pp: 3-22.

مليكة الزغل، مرجع سابق، ص٢٩٥-٣٠٠.

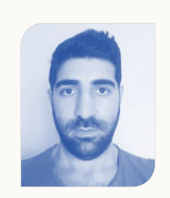
(87) Tamer Mostafa, OP.CIT, pp: 3-22.

(٨٨) حلمي النمنم، مرجع سابق، ص ٥ ، ٦.

(٨٩) محمد سليم العوا: **أزمة المؤسسة الدينية**، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٣:١٥.

ملف العدد
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

سكان الجولان
رحلة نصف قرن من التهجير والنزوح إلى اللجوء



محمد هاني الأغبر

باحث ماجستير في التاريخ الحديث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الجامعة اللبنانية – الجمهورية اللبنانية



د. حبيب البدوي

أستاذ مشارك التاريخ الحديث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الجامعة اللبنانية – الجمهورية اللبنانية

مُلَخّصْ

منذ أربعة وخمسون عامًا وقعت هضبة الجولان تحت الاحتلال الإسرائيلي، هذه الهضبة الاستراتيجية التي ضمت للأراضي السورية عند تحديد الحدود الدولية عام ١٩٢٣، وبعد إعلان قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين المغتصبة عام ١٩٤٨، تحول موقع المرتفعات الاستراتيجي هاجسًا يؤرق الأمن القومي للكيان الدخيل. مع تثبيت الحدود النظرية وفقًا لاتفاقيات وقف إطلاق النار، بقيت التلال والمزارع الجولانية عرضة لمناوشات مسلحة بين حرس المستوطنات الحدودية والمقاومين العرب لحوالي العشرين عامًا، حتى حلت نكسة العام ١٩٦٧، حيث في ستة أيام فقط، احتلت إسرائيل كل من شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس القديمة ومرتفعات الجولان. من هنا بدأت مأساة أهل الجولان، من التهجير القصري إلى النزوح الداخلي والتي تضاعفت بعد الأزمة السورية عام ٢٠١١، حيث بدأت محاولات اللجوء إلى الدول الأخرى. لذا ستتناول هذه الدراسة المحاور التالية: (جغرافيا وديمغرافيا هضبة الجولان، تاريخ الجولان الحديث، النزوح القسري لأهل الجولان بعد هزيمة ١٩٦٧، محاولات الحل السلمي، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لنازحي الجولان، تأثير الأزمة السورية على نازحي الجولان، من نازحين في الوطن إلى لاجئين في المعمورة). أما المنهج المتبع في هذه الدراسة، فهو المنهج التاريخي السردي، بعد التحقق من صحة الأحداث والروايات التاريخية، واعتماد السرد مع النقد والتسلسل التاريخي اللازمين لوحدة الدراسة وترابطها، ومن البديهي أن يكون للمنهج الجغرافي حصة فيه لأن الموقع الجغرافي للجولان هو الذي رسم تاريخها ومأساة سكانها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ يوليو ٢٠٢٢

تاريخ قبول النشر: ١١ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

سكان الجولان؛ الأزمة السورية؛ الشرق الأوسط؛ سوريا؛ تهجير؛ نزوح.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

doi 10.21608/KAN.2022.299662

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حبيب البدوي، محمد هاني الأغبر، "سكان الجولان: رحلة نصف قرن من التهجير والنزوح إلى اللجوء".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٧٦ – ١٩٣.

Corresponding author: habib.badawi@ul.edu.lb
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

سكان الجولان.. لجوء ونزوح مستمران منذ أكثر من نصف قرن

خلفت حرب الستة أيام عام 1967 موجات نزوح كبيرة للمدنيين بعد طرد الجيش الاحتلال الإسرائيلي لسكان قرى وبلدات الجولان الأصليين(Aloudat, 2021)، مما نتج عنه نزوح ما يقارب من مئة وثلاثين الى مئة وخمسين (موقع وزارة الخارجية والمغتربين- الجمهورية العربية السورية) من سكان الجولان إلى دمشق وريفها، حيث تم استقبال المُهجرين في مدينة دمشق وريفها وبعض القرى ومدن درعا وريفها.

عند وصول المهجرين الى العاصمة دمشق، تم حصرهم بداية في مخيمات اللجوء الفلسطينية، والتي تمت إقامتها بعد نكبة ١٩٤٨، وعندما فاض العدد في تلك المخيمات المنكوبة بطريقة مأساوية، تم إرسال عائلات من المهجرين الجدد إلى المدارس والمرافق العامة في سائر أنحاء سوريا، حيث جهُزت من قبل الحكومة كحل مؤقت لاستيعاب موجات النازحين المتزايدة، وذلك لحين إيجاد حلّ للأزمة التي خلفها احتلال الجولان، كما ادعت الإذاعات الرسمية العربية، إن في دمشق أو سائر العواصم.

عام ١٩٧٣ تمت "حرب التحريك"، والتي أفسد بدايتها الصاعقة العثرات التكتيكية على الجبهات العسكرية العربية، فتم تطويق الجيش الثالث الميداني المصري بعد ثغرة الدفرسوار، بينما تمكن المدد المدرع العراقي من الحد من توسع ثغرة سعسع على الجبهة السورية. بدأ حلم المهجرين البؤساء في أماكن الإيواء بالعودة يتضاءل، بخاصة بعد مهادنات العام ١٩٧٤، وأبرزها توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار بين سوريا وإسرائيل، والتي تركت جلّ أجزاء هذه الهضبة تحت السيطرة الإسرائيلية، بينما التزم الطرف السوري، من جهته، بإجراءات صعبّت احتمالية الاقتراب من خطوط التماس الجديدة.

في العام ١٩٨١ تم تمرير قانون من قبل الكنيست لتطبيق قوانين الدولة الإسرائيلية على أراضي الجولان (Golan Heights Law, n.d.). وتجدر الإشارة إلى أن آخر تلك القوانين الظالمة صدر خلال الأزمة السورية العام ٢٠١٧، وذلك حين أعلنت إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب اعترافها بسيادة إسرائيل على الجولان(“Golan Heights,” 2019)، فسارعت تل أبيب عبر الكنيست لشرعنة هذا التطفل العنجهي الأمريكي. بعدها لحوالي النصف قرن بقي وضع نازحي الجولان على حاله الميؤوس دون حلّ يضمن لهذه المجموعة السكانية عيشًا يوميًا كريمًا، والأهم تعويض ما خسروه من ممتلكات غنية وأراضي خصبة. بل على العكس، مع مرور السنوات زاد التهميش الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، مع وسم يفتقر للوطنية بوصفهم "نازحين"، وكأن هذا الفعل كان باختيارهم، لا بجبر قوات الاحتلال.

وتتفاقم مأساة الجولانيين مع اندلاع الاحتجاجات في سوريا عام ٢٠١١، ومع اختيار النظام للحل العسكري والأمني كرد على المطالبات الشعبية، تحولت المخيمات والقرى والأحياء الثكلى بالنازحين إلى مناطق صراع مسلح عنيف، أجبر معظم السكان على الهروب، ليتجدد النزوح القسري، وهذه المرة إلى الداخل السوري، بمعنى الانتقال الجماعي الى مناطق أكثر أمنًا داخل سوريا نفسها، ومع مرور السنوات بدء طرح معادلة "اللجوء" الى بلدان الجوار، لتستمر التغريبة الجولانية داخل الوطن المكلوم وخارجه.

مع تجاوز الأزمة السورية عامها العاشر، طرحت إشكالية "اللجوء السوري" على الصعيد العالمي، لتتحول إلى مأساة أممية، أما معاناة سكان الجولان فأصبحت مضاعفة، فهم اجبرو على النزوح الداخلي واللجوء الخارجي، مرتين، فسكنهم ومنازلهم ومناطقهم التي استقروا بها لحوالي نصف قرن، وأصبحت جزءً من كيانهم، أجبروا على التهجير منها، وبعد أن كانوا يعتقدون أنهم سيبقون بها لفترة وجيزة لحين عودتهم الى قراهم وبلداتهم في الجولان، أصبحت هي موطنهم المسلوب الجديد.

تبقى معاناة سكان الجولان مقارنة بباقي فئات الشعب السوري، أعمق وأكثر إيلامًا، وذلك نظرًا للظروف التي شهدوها وعاشوها في وطنهم الأم لما يقارب الثلاثة والأربعين عامًا التي سبقت بدء الأزمة السورية.

كانت هذه الأوضاع الاجتماعية الصعبة والتهميش المتعمد الذي عاشه سكان الجولان هي العامل الرئيسي بمشاركة مناطقهم بشكل واسع في الموجة الأولى من الاحتجاجات السلمية عام 2011، وسرعان ما لبثت هذه الاحتجاجات البيضاء أن تحولت (مثلها مثل سائر المناطق السورية الأخرى) إلى بؤر مواجهات مسلحة بين القوات الموالية للحكومة السورية، ومن يدعمها من الإيرانيين واتباعهم اللبنانيين والعرب والأفغان، ضد فصائل المعارضة، المتناحرة فيما بينها. وبالتالي خلفت هذه المواجهات العسكرية دمارًا هائلًا أباد فعليًا، وليس نظريًا، موطن سكن أهل الجولان المؤقت كما كانوا يوعدون، لتهيم عائلاتهم بحثًا عن مأوى جديد، وأصبح الفقد مزدوج، فمع غياب أي حلّ يسمح بإعادة إعمار المناطق التي دُمرت في دمشق وريفها، يتسلل الشعور باليأس وعدم اليقين من عودة قريبة

إلى الديار، وللمصادفة المؤلمة، هذه الظروف تتشابه بشكل كبير، أو تكاد أن تكون مطابقة، للظروف التي عاشها أهل الجولان بعد تهجيرهم من ديارهم الأصلية عام 1967.

أولاً: هضبة الجولان (جغرافيًا وديمغرافيًا)

يقع الجولان في أقصى جنوب غرب سورية على امتداد حدودها مع فلسطين المحتلة. وتقدر مساحته الإجمالية بـ ١٨٦٠ كم٢، وتأخذ شكلا متطاولا من الشمال إلى الجنوب على مسافة حوالي ٧٥ كم بعرض متوسط يتراوح بين ١٨-٢٧ كم. تقع كتلة جبل الشيخ في شمال الجولان وتفصله عن البقاع الجنوبي في لبنان. ويفصل وادي اليرموك في الجنوب بين الجولان ومرتفعات عجلون والأردن الشمالية الغربية. أما في الغرب فإن الجولان يطل على سهل الحولة وبحيرة طبريا. في حين يقع وادي الرقاد في الشرق بين الجولان ومنطقة حوران. وإذا ألقينا نظرة عامة على سطح الجولان نجد تفاوتًا في الارتفاعات، حيث تصل إلى ٢٥٠٠ م في شمال الجولان والى ١٥ م في جنوبه، فقمة جبل الشيخ المطلة على الجولان تصل ارتفاعاتها إلى ٢٨١٤م في قصر شبيب ثم تنخفض إلى ١٢٠٠ م في مجدل شمس ثم إلى ما دون سطح البحر في منطقة البطيحة حيث تصل إلى ٢٠٠ م تحت سطح البحر، والى ١٢٥ م في الحمة جنوبي الجولان. وهكذا نلاحظ انخفاضًا تدريجيًا في سطح الجولان من الشمال باتجاه الجنوب.

للجولان خصوصية جيولوجية حيث الصخور المنتشرة على أرضه هي صخور بازلتية ناتجة عن انفجارات بركانية. إن تاريخ الجولان الجيولوجي يرجع إلى الفترة "الكارتيكونية" (قبل ٦٥-١٣٥ مليون عام)، حيث غطت أرضه صخور كلسية تظهر في منطقة جبل الشيخ، ثم الفترة الـ "آوكنية" (قبل ٤٤-٥٠ مليون عام)، حين غمر البحر أجزاءً من المنطقة فتشكلت صخور كلسية، ثم انحسرت المياه إلى الغرب لتعود ثانية في فترة الـ "الأوكن المتأخرة" (قبل ٣٥ مليون عام) قادمة هذه المرة من الشرق ناحية الخليج العربي، إذ تظهر في طبقات الأرض التي تعود لتلك الفترة أصداف وبقايا كائنات بحرية.

وفي فترة الـ "ميوكن" (قبل ٢٥ مليون عام) انحسرت المياه مرة أخرى، وتشكلت طبقتان من التراب: طبقة صفراء مفتتة تنتشر جنوب الجولان وطبقة يصل سمكها إلى ٢٥٠م، تختلف تركيبتها من منطقة إلى أخرى. قبل ٥ مليون عام تشكل لسانًا بحريًا امتد من منطقة حيفا ليغمر قسمًا من الجولان. فتشكلت بحيرات وأنهر ذات مياه غير مالحة.

١/١-المجموعات الأثنية والعرقية في الجولان

تعتبر هضبة الجولان من المناطق المتنوعة عرقيًا وطائفيًا، فقد كانت منطقة جذب للقبائل الرحالة على مدار التاريخ، ومن أهم مكوناتها السكانية:

(١/١) ١-القبائل والعشائر العربية

استقرت القبائل العربية في الجولان منذ فترات تاريخية بعيدة بسبب وفرة المياه والمراعي فيه. استمرت هذه العشائر في ترحالها على المرور الموسمي مع اتباع نفس نمط العيش الرعوي والعمل التقليدي حتى بداية القرن الماضي، حيث شهد الجولان في بداية القرن العشرين مرحلة استقرار وإعمار، حيث استقرت فيه بعض العشائر العربية وبدأت تعمل في الزراعة والفلاحة، وبعض الأعمال التقليدية.

غالبية الجولانيين العرب ينتمون الى كل من عشيرة آل الفضل وعشيرة النعيم، الذين استقروا في الجولان لعقود زمنية طويلة قبل النكسة، وبعد هزيمة ١٩٦٧ تم تهجيرهم، فنزح معظمهم باتجاه مدينة دمشق وريفها. لا ينحصر مناطق هاتين العشيرتين في الجولان فقط، فعشيرة النعيم فمضاربها متواجدة في عدة مناطق في سوريا، وكذلك في الأردن ولبنان وفلسطين، كذلك عشيرة الفضل ذات الامتداد المحلي، وفروعها "أفخاذها" على كافة الأراضي السورية.

استقر لاحقًا قسم من النازحين العرب في قرية جديدة الفضل الملاصقة لقرية جديدة عرطوز عند المدخل الغربي لمدينة دمشق. كما استقر جزء كبير منهم في حي الحجر الأسود في جنوب دمشق. كما لهم مخيّم لجوء كبير عند مدخل مدينة دوما الشرقي، في ريف دمشق، وسمي لاحقًا "بمخيم الوافدين"، حيث استقبل نحو ٣٠ ألف من العائلات النازحة. حين بدأت أحداث العنف في سوريا، اندلعت الاشتباكات المسلحة العنيفة في المناطق التي استقر فيها النازحين العرب الجولانيين، كحي الحجر الاسود وحجيرة وجديدة الفضل، مما اضطر الكثير من الأهالي والعائلات للنزوح إلى مناطق أكثر أمنًا في الداخل السوري، وكذلك اللجوء إلى دول الجوار ومحاولة الهجرة الأوروبية.

(١/١) ٢-الشركس

لقد شهد الجولان وتحديدًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر توافد اللاجئين الشركس الهاربين من الحروب العثمانية -الروسية في منطقة القوقاز. كانت أولى موجات اللجوء في العام ١٨٦٤ واستمرت حتى عام ١٨٧٨، حيث وصل الهاربون من البطش الروسي إلى عدة مدن وقرى في بلاد

الشام. يقدر عدد الشركس في سوريا بنحو ١٠٠،٠٠٠ نسمة استقروا في العديد من المحافظات السورية (The Circassians of Syria, n.d.)، وكانت نسبة تركزهم الأكبر في محافظة القنيطرة. (Collelo & Library Of Congress. Federal Research Division, 1988)

اعتبرت مدينة القنيطرة حتى العام ١٩٦٧ عاصمة الشركس في سوريا، لكن بعد حرب الأيام الستة ١٩٦٧ وحرب تشرين ١٩٧٣، نزحت مجموعات كبيرة من شركس الجولان الى مناطق دمشق وريفها واستقرت في قرى قدسيا وضاحية قدسيا ودمر وقرية مرج السلطان في الغوطة الشرقية. وتجدر الإشارة، أنه خلال فترات الهدوء والهدنات، وخلال استقرار الأوضاع في منطقة القنيطرة بالذات، عادت مجموعات من الشركس الى قرى بريقه وبير عجم في محافظة القنيطرة. هؤلاء الشركس الذين ينتمون الى قبائل الأديغية، سكنوا الجولان إلى جانب القبائل العربية والعشائر البدوية، لكن الاختلاف عن جيرانهم من ناحية العادات والتقاليد والزي (Schumacher, 2010, p. 57,58,59)_جعلهم منغلقين اجتماعيًا، يتقوقعون داخل مجتمعاتهم الخاصة.

(1/1) ٣-التركمان

يعتبر التركمان من الشعوب المسلمة الناطقة باللغة التركية، والتي انتقلت من وسط أسيا واستقرت في عدة مناطق في الشرق الأوسط، ومنها سوريا (Collelo & Library Of Congress. Federal Research Division, 1988). استقر التركمان في الجولان منذ ألف عام تقريبًا، ومعظمهم ينتمون لقبيلة اليورك التركية. يشير الأرشيف العثماني إلى أن التركمان بدأوا بالاستقرار في الجولان بعد عام ١٨٦٠، حيث بلغ عدد القرى التركمانية نحو ١٢ قرية (الجولان – المجلس التركماني السوري). وبما أن أفراد قبيلة اليورك التركمانية من الرحّل، فكانوا يقيمون في الصيف في الجولان، أما في فصل الشتاء فكانوا ينتقلون إلى مدينة ريف حلب (Schumacher, 2010, p. 55,56). وهناك عرف هؤلاء التركمان بلهجتهم الخاصة بهم، والتي عرفت "باللهجة الجولانية".

بعد حرب الستة أيام، وعند احتلال هضبة الجولان، قام الجيش الإسرائيلي بطرد السكان التركمان من قرى ودفعهم الى النزوح القسري. توجه معظمهم نحو العاصمة دمشق، حيث استقروا في العديد من أحياء مدينة دمشق الجنوبية الشعبية الفقيرة، كمنطقة الحجر الأسود وحي القدم وحي التضامن. بين العام ٢٠١١ والعام ٢٠١٨، وبسبب أحداث العنف والاشتباكات المسلحة بين القوات الحكومية وقوات المعارضة، اجبر تركمان الجولان على ترك منازلهم وبيوتهم التي نزحوا إليها، والهروب الى مناطق سورية أكثر أمنًا. كما يتواجد على الحدود السورية التركية مخيم "دير البلوط" (تركمان الجولان في مخيم دير البلوط يطالبون بالدخول إلى تركيا - روزنة)، والذي يضم العديد من العائلات التركمانية التي نزحت من جنوب دمشق. وبما أن تركيا تعتبر الموطن القومي للتركمان، فقد استقبلت أعداد كبيرة منهم، ويعيش معظمهم اليوم في محافظة "عثماني" ومدينة إسطنبول.

(1/1) ٤-الدروز

يعود تاريخ استقرار الدروز في الجولان الى القرن الحادي عشر الميلادي عندما فروا من اضطهاد الخليفة الفاطمي لهم في مصر. عاش الدروز لقرون عديدة في حالة انغلاق نتيجة للملاحقات التي تعرضوا لها، لكنهم ما لبثوا أن انخرطوا في الحياة السياسية الإقليمية، حيث لعب الدروز دورًا هامًا في تاريخ بلاد الشام وخصوصًا بعد بداية صدامهم مع الموارنة في جبل لبنان وخوضهم الحروب الأهلية أعوام ١٨٤١ و١٨٦٠. ساهم الدروز الذين استقروا في مدينة السويداء والجولان وفي بعض نواحي دمشق بشكل فاعل في تاريخ سوريا الحديث، خصوصًا على الصعيد السياسي، حين شارك الدروز بشكل فاعل في الثورة السورية الكبرى في عشرينيات القرن العشرين، والتي قادها سلطان باشا الأطرش[1]، أشهر الشخصيات الدرزية في تاريخ سوريا الحديث.

حافظ الدروز على تواجدهم في الجولان منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، حيث يسكن دروز الجولان اليوم على جانبي الحدود بين إسرائيل وسوريا. ففي الجانب المحتل من الجولان، هم يقطنون في قرى مجدل شمس وعين قنية ومسعدة وبقعاثا وسحيتا ويحضر وعرنة، وبعض القرى الصغيرة الأخرى عند سفوح جبل الشيخ. قامت الإدارة العسكرية الاسرائيلية في آب ١٩٦٧ بإحصاء للسكان الدروز في الجولان. بلغ عدد سكان قرية مجدل شمس 2918 نسمة، و 1425 نسمة في بقعاثا، و 705 نسمة في مسعدة، و 578 نسمة في عين قينية، و 173 نسمة في سحيتا(Aloudat, 2021)._منذ بداية أحداث العنف في سوريا، اتخذ الدروز، بشكل عام، موقف حياديًا من كافة الأطراف

[1] سلطان بن ذوقان بن مصطفى بن إسماعيل الأطرش، المعروف باسم سلطان باشا الأطرش (١٨٩١ –١٩٨٢) قائد وطني ومجاهد ثوري سوري ينتمي إلى طائفة الموحدين الدروز ويُعدُّ القائد العام للثورة السورية الكبرى التي اندلعت ضد الاستعمار الفرنسي عام ١٩٢٥.

المتصارعة. لم يخل هذا الحياد وخصوصًا في منطقة الجولان من مواجهات مع تنظيمات إسلامية متشددة، ولكن تلك هذه الاشتباكات الصغيرة لم تتعد المناوشات التي لم تجبر أحدًا من سكان قرى القنيطرة الدرزية على النزوح الى مناطق أخرى.

(1/1) ٥-العلويون

تواجد المزارعين العلويين (فلّاحو سورية, ٢٠١٤., p. 44) في الجولان كذلك. تكونوا هناك من أقلية صغيرة هاجرت في القرن الثامن عشر من جبال اللاذقية نحو هضبة الجولان لتعمل في زراعة التبغ خصيصًا. وتوزعت العائلات العلوية في عدة قرى أبرزها قرى الغجر والزعرورة وعين فيت (Schumacher, 2010, pp. 59–60, 76–77). نزح العديد من سكان القرى العلوية نحو جنوب مدينة دمشق بعد احتلال الجيش الإسرائيلي لهضبة الجولان، واستقر جميع من نزحوا إلى أحياء مدينة دمشق الجنوبية، وكانت الحظوة لأبناء قرى عين فيت والزعرورة، حيث استقروا في حي التضامن.

ثانيًا: تاريخ الجولان الحديث

أن موقع الجولان يمثل بعدًا تاريخيًا للشعب اليهودي، حيث تم ذكرها في العهد القديم في سفري التثنية ويشوع[٢]. كما أن المؤرخ اليهودي الروماني يوسيفوس فلافيوس[٣] وصف منطقة الجولان في كتابه "حروب اليهود" وبعض المعارك التي دارت بها (أهمها الحرب بين الملك اليهودي إسكندر يناي الحشموني والملك العربي النبطي عبادة، وكذلك الحملة الرومانية على المتمردين اليهود في مدينة جملا).

في التاريخ الحديث، كانت هذه المنطقة جزءًا من ولاية سوريا خلال الحقبة العثمانية والتي استمرت لنحو أربعة قرون. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قامت الدولة العثمانية بالعديد من التعديلات القانونية سعيًا منها لتحديث النظام الإداري للولايات، ضمن خطة طالت كافة أرجاء الدولة العثمانية.

انطلاقًا من محاولة التطوير، أصدرت إسطنبول في العام ١٨٦٤ قانون تشكيل الولايات، والذي أُعيد فيه النظر في تشكيل وحدات الحكم المحلية القائمة سابقًا. وقد نالت بلاد الشام نصيبًا كبيرًا من هذه التغيرات والتقسيمات الجديدة. كان التغير الأكبر إلغاء ولاية صيدا، وإعادة تقسيم "المشرق" الى ولايتين. ضمن هذه التقسيمات الإدارية الجديدة، كان الجولان من نصيب ولاية سوريا، وتم توزيعه بين لواء الشام الذي ضم قضاء وادي العجم، ولواء حوران الذي ضم قضاء القنيطرة (عبدالكريم، ١٩٥١, p. 73)

لقد صاحب هذه التغيرات الكبيرة على صعيد السلطنة العثمانية تطوير الأداء الإداري للدولة العلية على كافة الأصعدة، ومنها تحديث قوانين تملك الأراضي والذي سمي بقانون الطابو في عام ١٨٦١ (محمد ١٩٦٩، p. 233)_حيث كان المراد منه تأكيد سلطة الدولة المركزية على الأراضي والمشاعات بهدف تقليص سطوة العشائر المتنفذة والملاك الكبار. لكن سوء التنفيذ والرشاوي أدى الى نتائج عكسية للإصلاح الذي سعت إليه السلطنة. وكمحاولة جديدة (كانت أخيرة) للنهوض، أدخلت على قانون تسجيل الأراضي تعديلات العام ١٩١٣، والذي سمحت بموجبه الدولة العثمانية ضمن شروط خاصة تملك الأراضي الأميرية.

لقد أولت الدولة العثمانية لولاية سوريا، والتي كانت تضم منطقة الجولان، أهمية خاصة خلال تلك الفترة، بخاصة بعد ما شهدته المنطقة العربية من ثورات قبائلية وصراعات أهلية، كما زاد تدخل الدول الغربية في المنطقة بشكل كبير بعد قيام متصرفية جبل لبنان عام ١٨٦٠. وفي خلال نفس الفترة الزمنية، ازدادت الهجرة الاستيطانية اليهودية من قارة أوروبا نحو الأراضي الفلسطينية، وكان الهدف الخبيث تملكهم للأراضي في سنجق القدس وكافة أرجاء الأراضي الفلسطينية.

---

[٢] " قال الرب لموسى ارحل أنت وبني إسرائيل من صحراء مصر إلى الأرض التي وعدتها لنسل إبراهيم وإسحاق ويعقوب (يقصد هنا ارض فلسطين) والتي تفيض بالعسل واللبن ... وها أنا مرسل أمامك ملاكي لتطرد الكنعانيين والاموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين من أرضهم... ولن ارحل إليها معكم ... لان بني إسرائيل شعب صلب الرقبة فان اخطأ بحقي هذه المرة سأفتك به ... ولما سمع بني إسرائيل ما قاله الرب لموسى دعوا بالويل والثبور ... ارتحل بني إسرائيل من الصحراء متوجهين إلى فلسطين ولما وصلوا إلى جبل (حوريب) أمر الرب موسى نزع حُليته فنزعها ثم أمر بني إسرائيل بنزع حليهم خوفا من تكرار حادثة العجل مرة أخرى .... وعند الجبل نصب موسى خيمة الاجتماع بعيدا عن مساكن بني إسرائيل وقال لهم كل من طلب الرب فليتوجه إليها ... فكلما خرج موسى من خيمته متوجها إلى خيمة الاجتماع وقف بنو إسرائيل على أبواب خيامهم ينظرون إلى (ملاك الرب) عامود السحاب كيف يرافقه إليها فإذا دخلها ليتكلم مع الرب وجها لوجه توقف العامود ساكنا أمامها أما بني إسرائيل سجدوا له كل من أمام خيمته".

[٣] يوسف بن ماتيتياهو (יוסף בן מתתיהו) (100-38 للميلاد) كان أديبا مؤرخا وعسكريا يهوديا عاش في القرن الأول للميلاد واشتهر بكتبه عن تاريخ منطقة يهوذا، والتمرد اليهودي على الإمبراطورية الرومانية والتي تلقي الضوء على الأوضاع والأحداث في فلسطين خلال القرن الأول للميلاد في حين انهيار مملكة يهوذا، ظهور الديانة المسيحية والتغييرات الكبيرة في اليهودية بعد فشل التمرد على الرومان ودمار هيكل هيرودس.

كان الجولان ضمن المخططات اليهود للشراء في أراضيه والتملك به لما يملكه من أهمية دينية. ورغم الامتيازات التي أعطيت للأجانب داخل أراضي السلطنة العثمانية إلا أنها لم يسمح لهم بتملك الأراضي والعقارات إلا بعد صدور قانون عام ١٨٦٩، والذي سمح للأجانب بالتملك في أراضي الدولة العثمانية (تملك الأجانب للعقارات في الدولة العثمانية, ٢٠٢٠)، وهو جاء نتيجة للضغوط الأوربية الساعية الى دعم مشروع إقامة دولة لليهود في المشرق، وتراخي قادة السلطنة بسبب ازدياد ديون الخزانة العثمانية. كما شهدت تلك الفترة موجات تهجير ولجوء ونزوح داخل أراضي الدولة العثمانية نفسها، خصوصًا بعد سقوط منطقة شركيسيا عام ١٨٦٤ على يد القوات القيصرية الروسية، والتي نتج عنها موجة لجوء الشركس الى بلاد الشام هربًا من البطش الروسي. ونتيجة للحروب العثمانية الروسية استمرت موجات النزوح من بلاد القوقاز بأكملها حتى ربيع عام ١٨٧٨.

لتخفيف مأساة رعاياها خصصت الدولة العثمانية بعض من الأراضي في منطقة جرش والجولان لاستقبال اللاجئين الشركس الذين وصلوا أولًا الى عكا، وبعدها انتقلوا وتوزعوا على اثنتي عشرة قرية رئيسية في قضاء القنيطرة، والذي يتكون من ثلاث نواحي و٧٧ قرية و٢٧ مزرعة، إضافة الى تمركزهم في مركز القضاء. شهد الجولان في تلك الفترة أول عملية مسح جغرافي وديمغرافي، ووضُعت له خريطة مفصلة على يدّ المهندس الأميركي من أصل ألماني "غوتليب شوماخر"[٤]، والذي عينته الدولة العثمانية بغية القيام بمسح مناطق حوران والجولان وعجلون تجهيزًا لبناء سكة حديد دمشق-حيفا. لذا شهدت تلك الفترة تطورًا وإعمارًا أدى الى استقرار أعداد أكبر من سكان القبائل العربية المحلية، وكذلك المهجرين من قبائل التركمان، والذين باتوا يعرفون "بتركمان الجولان".

أصبحت المناطق التي يقطنها الشركس المهجرون عامرة بنشاطهم، وتميزت حسبما وصفها شوماخر في كتابه "الجولان" عن غيرها من القرى بنظافتها، ووسع حجمها، وأبنيتها الحجرية. هذا أدى إلى إقبال التجار عليها، لكونها تتوسط الطريق بين دمشق، والتي لا تبعد عنها سوى ٦٧ كم، وأراضي الجليل الأعلى، ومدن حيفا، ويافا، وعكا. مع نهاية القرن التاسع شهد الجولان أول عملية صهيونية لشراء أراضي في العام ١٨٩٤، حين قام المصرفي الفرنسي-اليهودي إديمود دي روتشيلد[٥] بشراء قطعة أرض كبيرة في الجولان تمهيدًا لمنحها للمستوطنين اليهود (Baron Edmond de Rothschild | French Banker, n.d.)، وكان سبقها عدة محاولات أجهضت لشراء أراضي في الجولان الأوسط وعلى ضفة بحيرة طبريا.

ففي العام ١٨٨٤ قامت مجموعة من يهود مدينة صفد بمحاولة لشراء ١٥،٠٠٠ دنم في منطقة الرمثانية، لكن لم تكلل محاولتهم بالنجاح. بعد تلك المحاولة بثلاث سنوات، اشترت مجموعة من المستوطنين ٢،٠٠٠ دنم في قرية بير الشجوم غربي الجولان، ولكن تم إبطال عقد البيع. لم تكلل محاولات إقامة مستوطنات وشراء الأراضي في الجولان بالنجاح كمثيلتها من عملية شراء الأراضي في الداخل الفلسطيني، والتي تبعتها موجات الاستيطان في القدس خاصة وفلسطين بشكل عام ، وذلك مرجعه لرفض الدولة العثمانية بيع الأراضي في منطقة حوران المجاورة للجولان(Sicker, 1999, p. 60)، ربما بسبب أهميتها الزراعية.

تمت هزيمة الدولة العثمانية وحلفائها في الحرب العالمية الأولى، واضطرت لتوقيع سلسلة معاهدات مهينة. بدأت التنازلات مع هدنة مودرس في ٣٠ تشرين الأول عام ١٩١٨، والتي أنهت رسميًا العمليات القتالية ضدّ دول الحلفاء. (Armistice of Mudros | Turkish History [1918] | Britannica, n.d.) شهد الشرق استيلاء القوات العربية بقيادة الشريف حسين وقوات الحلفاء على بلاد الشام وعموم ولاية سوريا، حيث اتسمت عملية السيطرة على المدن بالسرعة والمناورة، فتقدمت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي[٦] نحو مدينة دمشق من جهة الأراضي الفلسطينية، والتي شهدت عدة معارك ومواجهات. أثناء التقهقر للجيش العثماني، والذي كان يتعرض لإغارات القبائل الثائرة واللصوص، وصلت قوة من فرقة الخيالة الاسترالية في الثامن والعشرين من أيلول لعام ١٩١٨ إلى مدينة القنيطرة التي تقع في هضبة الجولان، وتبعد عن مدينة دمشق مسافة ٦٢ كم، واكملت طريقها دون مقاومة تذكر، نحو مدينة

٤ غوتليب شوماخر غوتليب شوماخر (١٨٥٧-١٩٢٥) مهندس مدني، مهندس معماري وعالم الآثار الذي كان شخصية مهمة في الاستكشافات الأثرية في وقت مبكر من فلسطين

٥ البارون إدموند جيمس دي روتشيلد (١٨٤٥ - ١٩٣٤) أحد زعماء الفرع الفرنسي لعائلة روتشيلد المالية اليهودية الثرية. كان روتشيلد داعم قوي للصهيونية وأضفت تبرعاته السخية دعماً كبيراً للحركة خلال سنواتها الأولى، مما ساعد في إنشاء الكيان الإسرائيلي.

٦ إدموند هنري هاينمان ألنبي (١٨٦١ - ١٩٣٦) ضابط وإداري بريطاني، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى حيث قاد قوة التجريدة المصرية في الاستيلاء على فلسطين وسوريا عامي ١٩١٧ و١٩١٨.

دمشق عبر قرى سعسع والكسوة وسهل كوكب (Cutlack, 2018, p. 167)

أما من ناحية درعا فكانت القوات العربية التي يقودها الأمير فيصل بن الحسين[٧] تسيطر على المدن والقرى على طول طريق الحج. كانت القوات العربية أولى طلائع القوات التي وصلت إلى مدينة دمشق في الثلاثين من أيلول عام ١٩١٨، وذلك وسط تهليل الشعب المخدوع بوعود الحلفاء بقيام مملكة عربية موحدة، ليستيقظ الغافلون في الأول من تشرين الأول مع وصول الجنرال اللنبي الى دمشق، بتنسيق مع حليفه الفرنسي. لتبدأ عندئذ مرحلة جديدة مليئة بالتغيرات السياسية والجيوسياسية، والتي كانت بدايتها مع تعيين الأمير فيصل بن الحسين حاكمًا على سوريا، حيث شكل حكومة علي باشا الركابي[٨]، والتي تضمنت تشكيلتها العديد من الشخصيات البارزة من لبنان وسوريا والمناطق العربية الأخرى.

استمر هذا الوضع الصوري على ما هو عليه في كافة الأراضي التي كانت تعرف بولاية سوريا حتى الثامن من آذار ١٩٢٠، عندما انعقد المؤتمر السوري في دمشق بحضور ممثلين عن كافة المناطق والمدن السورية، وكان بينهم أمير قبيلة الفضل في الجولان محمد الفاعور بن العباس[٩] (أعضاء المؤتمر السوري العام ١٩١٩، ١٩٢٠) ممثلًا عن مدينة القنيطرة. صدر عن المؤتمر المناداة بالأمير فيصل بن الحسين ملكًا على سوريا، والتي ضمت لبنان وفلسطين وأجزاء من العراق بحضور العديد من قناصل الدول الأوروبية، لتصدر كل من لندن وباريس موقفهم الرسمي الرافض لإعلان المملكة السورية. وبينما العرب في أوهامهم، تم عقد مؤتمر سان ريمون ١٩٢٠، بمشاركة كل من بريطانية وفرنسا وإيطاليا واليابان والولايات المتحدة بصفة مراقب.

كانت نتائج المؤتمر فيما يخص منطقة سوريا والعراق عبارة عن تطبيق وترجمة لاتفاقية سايكس – بيكو، والتي قامت بموجبها كل من بريطانيا وفرنسا بتقسيم منطقة بلاد الشام وأرض الرافدين الى مناطق نفوذ تابعة لهما، فتم وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي (باللون الأزرق)، أما فلسطين وشرق الأردن (كدولة عازلة) والعراق، فتحت الوصاية البريطانية (باللون الأحمر).

في ١٤ تموز ١٩٢٠ أرسل المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو[١٠] إنذارًا إلى الملك فيصل للانصياع وقبول الانتداب. بعد تلقي الإنذار بعدة أيام، غادر الملك فيصل دمشق الى مدينة درعا ومنها إلى الأردن (الحكيم، ٢٠١٩, p. 9). وفي ٢٥ تموز ١٩٢٠ احتلت القوات الفرنسية دمشق بعد معركة "ميسلون"، لتبدأ حقبة جديد من الانتداب الفرنسي المباشر على كافة الأراضي السورية. فرضت حكومة الانتداب في ٣ آب ١٩٢٠ غرامة حربية على جميع المناطق السورية، وكان نصيب قضاء القنيطرة ٣٠٠٠ دينار ذهبي، بينما دفع قضاء وادي العجم ٢٠٠٠ دينار ذهبي وذلك لكون القضائيين الذين يقعا منطقة الجولان التابعة للنطاق الأزرق الفرنسي (الحكيم، ٢٠١٩, p. 15,).

الجولان وبعض مناطق وقرى درعا كانت تقع على الخط الحدودي الفاصل ما بين منطقتي النفوذين البريطاني والفرنسي، والتي كان تم تحديدها ضمن الاتفاقية الفرنكو-بريطانية في ٢٣ كانون الاول ١٩٢٢ في باريس لترسيم الحدود، بعد إقرارها لاحقًا بشكل نهائي، وهي رسمت بشكل كبير الحدود الحالية التي تفصل ما بين سوريا والعراق، وتم توقيع اتفاق البروتوكول النهائي في ٣١ تشرين الاول ١٩٣١ (The Geographer Office, 1969, p. 14). عاشت سوريا الطبيعية مع بداية مرحلة الانتداب الفرنسي عدة تغيرات جيو-سياسية محورية كان على رأسها قيام دولة لبنان الكبير، والذي ضم خمس أقضية إضافية إلى متصرفية جبل لبنان، وكانت مناطق حاصبيا وراشيا ومرجعيون اللبنانية على تخوم الجولان السوري. وطبقًا للمخطط الفرنسي (في ذلك الحين!!!)، كان الجولان تابعًا لدولة دمشق، ضمن كوكتيل

٧ الملك فيصل الأول بن الحسين بن علي الهاشمي (١٨٨٣ - ١٩٣٣) ثالث أبناء شريف مكة الحسين بن علي الهاشمي وأول ملوك المملكة العراقية (١٩٢١-١٩٣٣) وحاكم سوريا (مارس ١٩٢٠ - يوليو ١٩٢٠).

٨ علي رضا باشا الركابي (١٨٦٨ - ١٩٤٢)، سياسي سوري من دمشق، كان ضابطاً في الجيش العثماني وشكل أول حكومة في سورية بعد استقلالها عن الدولة العثمانية، ثم أصبح رئيساً للوزراء في إمارة شرق الأردن. رشح نفسه لانتخابات رئاسة الاتحاد السوري الفيدرالي عام ١٩٢٣ ولأول انتخابات رئاسية في الجمهورية السورية عام ١٩٣٢. ولكن الحظ لم يحالفه فاعتزل العمل السّياسي وعاش في دمشق حتى وفاته عام ١٩٤٢.

٩ الأمير محمود الفاعور بني العباس زعيم سياسي من زعماء الجولان الذين برز اسمهم في بدايات القرن العشرين، لعب دوراً كبيراً هو وأبناء الجولان بإنهاء العهد العثماني ومقاومة الاحتلال الفرنسي، تزعم الحركة الوطنية في الجولان. في عام ١٩٠٥ تم تنصيبه أميراً على "قبيلة الفضل" بعد مقتل والده "الأمير محمد الفاعور بني العباس" بالخطأ على يد الأمير سعيد باشا الجزائري.

١٠ الجنرال هنري جوزيف أوجين غورو (١٨٦٧ - ١٩٤٦) ولد في باريس وبها تلقى علومه. أسرته مكونة من ستة أبناء كان هنري فيها أكبر إخوته. انتسب إلى المدرسة العسكرية في سان سير وتخرج فيها برتبة ضابط عام ١٨٨٨م، خدم بسلاح القناصة، وظهرت موهبته عسكرياً واستراتيجياً في أثناء خدمته العسكرية في مالي، وكان من أنصار النظرية العسكرية الفرنسية القائمة على «الهجوم حتى الإبادة».

الدويلات السورية المقترحة. ولكن سرعان ما تم إلغاء هذا التقسيم، لتشكيل الدولة السورية الموحدة.

أثناء الانتداب الفرنسين كان للجولان وسكانه مشاركة فاعلة في الحياة السياسية ومواجهة الاستعمار الفرنسي، وعندما اندلعت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، لم يغيب الجولان وأهله عن معاركها. كان أشهر الشخصيات التي برزت في تلك الفترة الشيخ احمد مريود[11] الذي ينحدر من قبيلة المهداوي التي سكنت قرية جباتا الخشب في الجولان(عبيدات ١٩٩٧، p. 25) . استقلت سوريا في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦، لتحل النكبة الفلسطينية – العربية الكبرى بعد عامين، لتتدفق موجات اللاجئين للفلسطينيين الهاربين من المجازر والبطش الصهيوني نحو لبنان، والأردن، ومصر، وسوريا. الجولان هي ممر قوافل المنكوبين باعتبارها نقطة الاتصال المباشرة بين سوريا والمناطق الداخلية الفلسطينية، فكان على اللاجئين الهاربين، بخاصة من مدينة صفد والجليل الأعلى، أن يعبروا هضبة الجولان الى الداخل السوري، فيما استقر بعض العائلات الفلسطينية في قرى وبلدات ومزارع الجولان.

بعد عام من النكبة، في ٢٠ تموز ١٩٤٩، تم توقيع هدنة بين الطرف إسرائيل وسوريا برعاية الأمم المتحدة، وتم الاتفاق على تحديد منطقة منزوعة السلاح بين الطرفين (S/1353 of 20 July 1949, 2011). بذلك، وقعت كامل المنطقة المنزوعة السلاح ضمن أراضي الجولان، وساد الهدوء المصطنع بين الدولتين، مع كثير من الخروقات المتبادلة والمناوشات المحدودة. تكثفت الاشتباكات في العام ١٩٦٤، ودافعها النزاع على استغلال مياه نهر الأردن، الذي يعد الجولان السوري والينابيع في الجولان هي الرافد الأساسي له.

طوال الأشهر الأولى من عام ١٩٦٧ كانت الجبهة السورية مع إسرائيل مشتعلة بنيران متقطعة بين الجانبين. كانت المدفعية السورية تقوم بقصف المواقع الإسرائيلية الحدودية، مع تسلل مجموعات من الفدائيين الفلسطينيين إلى الداخل الإسرائيلي، حيث ديارهم المحتلة، بالمقابل كان الطيران الحربي يقصف بعنف التحصينات العسكرية على الحدود والمدنيين في الداخل السوري. صعدت إسرائيل عملياتها الجوية ضد القواعد السورية، وقامت بقصف الوسائط والمعدات التي كانت تعمل في المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن، ما أدى إلى زيادة حدة المواجهات، والتي بلغت ذروتها في الاشتباك الجوي يوم ٧ نيسان ١٩٦٧، وهذا دفع مصر إلى التهديد بالوفاء بالتزامها وفقًا لمعاهدة الدفاع المشترك المصرية-السورية، والتي كان تم التوقيع عليها في ٤ تشرين ثاني ١٩٦٦، فأوفدت رئيس أركان قواتها المسلحة إلى دمشق لتقدير الموقف على الطبيعة الميدانية وتنسيق التعاون العسكري.

بعدها أعلنت مصر حالة التعبئة العامة، وقامت القوات المصرية بعراضات عسكرية اخترقت شوارع القاهرة في ١٥ أيار١٩٦٧ متوجهة نحو سيناء، دعمًا للجبهة السورية، ثم أعلن الرئيس جمال عبد الناصر[12] يوم ٢٣ أيار١٩٦٧ إغلاق مضايق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية. يوم السادس من حزيران عام ١٩٦٧ حلت النكسة بالأمة العربية عندما انهارت جيوشها السلطوية في ستة أيام فقط على الهجوم المعادي. والجدير ذكره أن الهجوم الإسرائيلي على الجبهة السورية بدء اليوم الخامس، ١١ حزيران، وخلال ٤٨ ساعة واصلت القوات الغازية اختراقها للدفاعات السورية على طول الجبهة فوصلت إلى مدينة القنيطرة، حيث صدرت أوامر الانسحاب "التكتيكي" والتقهقر العشوائي للجنود السوريين، وأعلنت الحكومة السورية قبولها وقف إطلاق النار الساعة السادسة والنصف مساء من ذلك اليوم.

خلال ستة أيام انتزعت إسرائيل قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء من السيادة المصرية، وانتزعت الضفة الغربية، بما فيها القدس الشريف، من العرش الهاشمي الأردني. على المحور السوري، استولت إسرائيل على ١١٥٨ كلم من إجمالي مساحة هضبة الجولان، البالغة ١٨٦٠ كلم، وحققت باستيلائها المكاسب الإستراتيجية التي كانت تحلم بها، وذلك لما يتميز به الجولان من تضاريس فريدة من الناحية العسكرية وتبدأ مع النكسة التغريبة الجولانية.

ثالثًا: النزوح القسري لأهل الجولان بعد هزيمة ١٩٦٧

لقد انقسمت روايات النزوح الشعبية من الجولان الى روايتين رئيسيتين. الأولى ذكرت أن هروب عدد كبير من أبناء

---

١١ أحمد بن موسى بن حيدر مريود (١٨٨٦ – ١٩٢٦)، أسهم بتأسيس الجمعية العربية الفتاة والتي توسعت فيما بعد لتصبح حزب الاستقلال العربي الذي ضم نخبة الرجالات في سورية والأقطار العربية. قام أحمد مريود برفع العلم العربي على بلدية دمشق في ١٩١٨ عند إعلان استقلال سورية عن الدولة العثمانية، وقتل على يد الاستعمار الفرنسي.

١٢ جمال عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠)، قام عبد الناصر بقيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والتي أطاحت بالملك فاروق وكانت بداية مرحلة جديدة في تاريخ مصر تحت حكم العسكر. وكان مناهضا للاستعمار ودعم الثورات العربية في الجزائر، ليبيا، العراق واليمن، وكان له دور رئيسي في وحركة عدم الانحياز.

الجولان تم بإرادتهم نحو مناطق أكثر أمنًا بعد الانسحاب العشوائي للقوات السورية، واتجه معظم العائلات الخائفة مشيًا ناحية قرية خان ارنبة وقرية سعسع الجارتين، وكانوا على أمل العودة حالما تهدأ الأمور، ويتحقق النصر الموعود عبر أثير الإذاعات العربية. أما الرواية الثانية، وهي الرواية الأكثر انتشارًا بين النازحين الجولانيين، والتي لم ينكرها العديد من جنرالات الجيش الإسرائيلي في مذكراتهم الخاصة، وهي أن جنود لواء المظليين الإسرائيلي هبطوا من المروحيات العسكرية وبدأوا بتمشيط التلال، ومن ثم إجبار السكان المحليين على مغادرة منازلهم (Aloudat, 2021)، وتم توثيق ذلك في الحادي عشر من شهر حزيران بعد انهيار الدفاعات السورية بشكل سريع (Collelo & Library Of Congress. Federal Research Division, 1988).

وسط أجواء من الرعب والترهيب قام جنود الاحتلال بتجميع واعتقال كل من رفض الامتثال للأوامر التي تقضي بمغادرة قرى الجولان نحو الداخل السوري، وتم إجبار المدنيين على مغادرة الجولان قصرًا وتحت التهديد والوعيد. كان عدد سكان الجولان ككل حينئذ حسب الإحصاءات الرسمية السورية ١٥٣ ألف نسمة، عدد سكان المناطق المحتلة ١٣٨ ألف نسمة، شردت إسرائيل ١٣١ ألف نسمة منهم وأجبرتهم على النزوح نحو الداخل السوري. موقع وزارة الخارجية والمغتربين- الجمهورية العربية السورية(n.d._، القرى التي لم يتم تهجير سكانها وفقًا للخطة الإسرائيلية بلغت ستة، هي مجدل شمس، مسعدة، بقعاثا، عين قنية، والغجر وسحيتا. ولكن لاحقًا سنة ١٩٧١ قام الاحتلال الإسرائيلي بتهجير سكان قرية سحيتا (داخليًا) إلى قرية مسعدة، وتم تحويل القرية الى منطقة عسكرية.

شكل نزوح سكان مدينة القنيطرة في الستينيات وريفها خمس معدل الهجرة الداخلية في كل أنحاء القطر بسبب ظروف الحرب وما ترتب عليها من نتائج كارثية (Khawaja, 2002, p. 28,31,46). هذا الواقع لم يتغير بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ وما تلاها من توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار بين الجانبين السوري والإسرائيلي، حيث أعادت الأخيرة مدينة القنيطرة وحوالي ١٠٠ كلم متر مربع للسيادة السورية بموجب الاتفاقية. تلك المساحة المستعادة بما تضمه من قرى لم تكن صالحة لعودة النازحين والعيش بها بسبب ما قامت به إسرائيل من تسوية للمنازل والمباني بالأرض، فبقيت خاوية من السكان، إلى أن قامت الحكومة السورية في الثمانينيات بإعادة تأهيل بعض القرى المحاذية للشريط الحدودي, كما وعملت الحكومة السورية على إنشاء مدينة البعث بالقرب من بلدة خان أرنبة (Refugees, n.d.).

هذه المشاريع المتفرقة لم يخطط لها أن تستوعب الأعداد الكبيرة من النازحين الذين استقر معظمهم على أطراف العاصمة دمشق وريفها. ففي دمشق سكن النازحون في حي الحجر الأسود والقدم ومنطقة القاعة التابعة لحي المديان، كما سكن العديد من النازحين في المخيمات الفلسطينية لقربها من حي الحجر الأسود. كما اعتبرت غوطة دمشق الغربية من أكثر المناطق استقبلا للنازحين وخصوصًا بلدة حجيرة وبلدة السيدة زينب وبلدة الذيابية وبلدة السبينة، والتي بني فيها مخيم للنازحين الأكثر فقرًا. كما استقر عدد كبير من النازحين في قرية جديدة الفضل عند المدخل الغربي لمدينة دمشق، بالإضافة الى مخيم الوافدين الذي بنته الحكومة في منطقة عدرا شمالي العاصمة دمشق، بجانب الطريق الدولي الذي يربط العاصمة بمدن الوسط والشمال.

رابعًا: محاولات الحل السلمي

منذ احتلال الجولان عام ١٩٦٧، مرت المنطقة بتحولات كبيرة وتغيرت طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي، وخصوصًا بعد حرب التحريك عام ١٩٧٣، والتي تبعتها التنازلات المصرية وصولًا إلى توقيع اتفاقية سلام منفردة مع إسرائيل عام ١٩٧٩، والتي تمكن عبرها الرئيس السادات[١٣] من استعادة شبه جزيرة سيناء، وإن كانت منقوصة السيادة ومنزوعة السلاح. والجدير ذكره أن الاتفاقية الثنائية نصت على تطبيق قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، والمتعلق بانسحاب إسرائيل إلى حدودها ما قبل توسع ١٩٦٧، مما بعث بعض الأمل لنازحي الجولان بالعودة.

ولكن على الجانب السوري، كان الرفض تامًا لتلك الخطوة المنفردة المصرية، وساهمت دمشق في قيام جبهة عربية لعزل القاهرة عن مكانتها الشرق أوسطية. ومن هنا تشكلت "جبهة الصمود والتصدي"، وهي حلف ضم كل من ليبيا، وسوريا، والعراق، والجزائر، ومنظمة التحرير الفلسطينية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. قررت جبهة الصمود والتصدي في أوّل قمة لها تجميد العلاقات الدبلوماسيّة مع مصر بهدف عزلها

١٣ محمد أنور السادات (١٩١٨ – ١٩٨١)، أحد الضباط الأحرار، خاض حرب أكتوبر التي حقق الجيش المصري في بدايتها انتصارا كبيرا على الجيش الإسرائيلي بعد أن عبر قناة السويس. اقترن اسمه باتفاقية كامب ديفد التي كانت أول معاهدة سلام توقعها دولة عربية مع إسرائيل، مما أثار عليه سخطا واسعا وأدى إلى مقاطعة مصر عربيا. اغتيل يوم ٦ تشرين الأول ١٩٨١ على المنصة أثناء عرض عسكري لذكرى العبور.

عن عالمها العربيّ. وتمكنت جبهة الصمود والتصدي من أخذ موافقة أعضاء جامعة الدول العربية على قرار ينص على طرد مصر من جامعة الدّول العربيّة ونقل مقرها من القاهرة إلى العاصمة التونسيّة. بعد ذلك تم عقد القمة العربية في بغداد عام ١٩٧٨. وهي القمة التي رفضت نهج السادات واعتبرت اتفاقية كامب ديفيد عملية استسلام من قبل النظام المصري للعدو الصهيوني، وضربة للتضامن العربي والنضال الفلسطيني. وفي قمتها الثالثة في العاصمة السورية دمشق، أعلنت الجبهة رفضها التام اتفاقية كامب ديفيد.

سوريا في ذلك الوقت، وقعت مع الإتحاد السوفياتي معاهدة الصداقة (Collelo & Library Of Congress. Federal Research Division, 1988, p. 227) وحصلت على الدعم السياسي والعسكري والتمويني من موسكو. ولكن مع انهيار جدار برلين وهزيمة حلف وارسو، بدأت القيادة السورية مد خطوط التواصل والتفاهم مع المعسكر الغربي، وشاركت القوات السورية في حرب الخليج الأولى ضمن قوات التحالف الغربي، الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية لإنهاء الاحتلال العراقي لدولة الكويت.

بدأت أولى جولات المفاوضات بين الجانب السوري والجانب إسرائيلي برعاية أمريكية في مؤتمر السلام في مدريد عام ١٩٩١ والذي بنيت عليه جولات المفاوضات التالية، وتم تسمية نقاط التفاوض "بمرجعية مدريد". شكّل مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ بداية محاولة السلام في الشرق الأوسط، حيث شهد جلوس الإسرائيليّين مع العرب إلى طاولة المفاوضات للمرة الأولى منذ مؤتمر جنيف كانون الأول ١٩٧٣، كما كانت المرة الأولى تجلس دول خط المواجهة العربيّة الأربع جميعًا مع الإسرائيليّين منذ مؤتمر لوزان ١٩٤٩. استمرت جولات المفاوضات طيلة فترة التسعينيات برعاية إدارة الرئيس بيل كلينتون، لكنها لم تفض الى حلّ يضمن عودة الجولان الى سوريا وعودة سكانه إليه.

مرّ ما يقارب الاثنين والعشرين عامًا منذ أن جرت جولة مفاوضات مباشرة جرت بين الجانبين، حيث تغيرت الظروف الدولية خلال تلك الفترة وخصوصًا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، والتي ألقت بثقلها وآثارها وتداعياتها على العالم برمته، ومن ضمنه الشرق الأوسط بالتأكيد، بخاصة الحملات العسكرية الأميركية على أفغانستان والعراق والصومال. كانت الحكومات الإسرائيلية اليمينية المتعاقبة مستفيدة من الوضع القائم كونها لا ترغب باستئناف المفاوضات مع الجانب السوري ومناقشة مستقبل الجولان. ولكن خلال العقد الذي سبق الأزمة السورية عادت المفاوضات السورية الإسرائيلية الى دائرة الضوء من خلال وساطة تركية. ففي العام ٢٠٠٧، حاولت أنقرة إحياء المفاوضات بين الطرفين، لكن تلك المحاولة لم تثمر عن استئناف المفاوضات، كما أنها لم تفض إلى نتيجة تذكر، بخاصة فيما يتعلق بوضع الجولان المحتل، مع ترجيح تفاهمات ثنائية بالنسبة للتماس السوري – الإسرائيلي على الأرض اللبنانية.

أن السمة الأساسية التي ميزت المفاوضات الإسرائيلية السورية كانت المماطلة والتسويف، حتى جاء إعلان اعتراف الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب بسيادة إسرائيل على كامل مرتفعات الجولان في آذار ٢٠١٩ بمثابة الدفعة الكبيرة للآمال الإسرائيلية باعتبار الجولان جزء لا يتجزأ من الدولة اليهودية. فالقرار الأمريكي جاء ليدعم "قانون مرتفعات الجولان"، حين صدق الكنيست الإسرائيلي في ١٤ كانون الأول ١٩٨١ على قرار يطبّق فيه القانون الإسرائيلي في المناطق المحتلة من الهضبة(Golan Heights Law, n.d.). هذا الإعلان اعُتبر مخالفًا للقانون الدولي ولقرارات الأمم المتحدة التي تعتبر الجولان أرضًا محتلة في العام ١٩٦٧ من قبل إسرائيل. الأمر الذي أكده تصريح الأمين العام للأمم المتحدة بأن الاعتراف الأميركي لن يغير من وضع الجولان بشيء ("U.N. Chief Clear That Golan Status Has Not Changed," 2019).

خامسًا: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لنازحي الجولان

عندما طُرد الجزء الأكبر من النازحين من بيوتهم وأرزاقهم بدأت رحلة المعاناة الأولى في البحث عن مأوى، وعندما استقر الحال البائس في مناطق جنوب العاصمة دمشق وقرى ريف الغوطة الغربية وجديدة الفضل والمخيمات والقرى والأحياء، شكل هؤلاء المستضعفون الغالبية المطلقة في تلك الأحياء والقرى والمناطق الفقيرة على أطراف العاصمة وريفها. أطلق السكان المحليون في مدينة دمشق على مناطق تجمع نازحي الجولان تسمية "قرية النازحين - حي النازحين - شارع النازحين" وكانت التسمية المتداولة على أهالي الجولان أنفسهم بـ"النازحين"، وهذه الصفة التي أصبحت تستخدم بشكل أو بأخر كنوع من أنواع التمييز ضدهم.

كان معظم سكان القنيطرة وجوارها من الريفيين الذين علموا طوال حياتهم بالزراعة والرعي، وكان معظمهم من الفلاحين الفقراء البسطاء الذين تأثروا كغيرهم من الطبقات الفلاحية الكادحة في سوريا بالمدّ القومي العروبي في خمسينات وستينيات القرن الماضي، ومن هنا كانت كثرة أعداد المنتمين

لحزب البعث العربي الاشتراكي، فالأغلبية من سكان القنيطرة قاموا بالانتساب الى الحزب البعث، حالهم حال كافة فلاحي سوريا، لكن مع استقرارهم في مدينة دمشق وريفها وفي العام واصل أهالي القنيطرة الانتساب في حزب البعث (فلّاحو سورية, ٢٠١٤, p. 354,355)

وصلت أعداد المنتسبين لحزب البعث من محافظة القنيطرة الى أرقام قاربت عدد سكانها النازحين. يعزى هذا الإقبال الكبير للانتساب للحزب الحاكم لعدة أسباب أهمها، الحصول على الوظائف في مؤسسات الدولة والانضمام للأجهزة الأمنية. قامت مؤسسات القطاع العام بتوظيف أعداد كبيرة من نازحي الجولان، بل وأشارت تقارير إلى تفضيل أبناء الجولان على أبناء الأرياف الأخرى في مؤسسات الدولة . (A View From Damascus: Internal Refugees From Golan's 244 Destroyed Syrian Villages, by JoMarie Fecci, June 2000, n.d.)

الوظائف التي شغلها أبناء الجولان كانت وظائف موزعة بين التعليم في المدارس الابتدائية الرسمية لحملة الشهادات الثانوية، والتطوع في جهاز الشرطة والاستخبارات، كما تم توظيف عدد كبير من غير المتعلمين عمالًا لقطاعات مختلفة في بلدية دمشق، كعمال نظافة، أو بستانيين في مديرية حدائق دمشق. في نفس الفترة الزمنية، وبسبب كونهم من المسلمين السنّة، انضمت الى تنظيم الإخوان المسلمين مجموعات من الشبان المتعلمين والحرفيين الجولانيين، أبرزهم عدنان العقلة الذي ينحدر من عائلة مزارعة بسيطة (فلّاحو سورية, ٢٠١٤, p. 493) كان عدنان العقلة[١٤] مهندسًا في الثلاثينيات من عمره عندما عين قائدا للطليعة المقاتلة وأصبح من أبرز شخصيات في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا في بداية الثمانينيات. (فلّاحو سورية, ٢٠١٤, p. 293)

تصاعدت أواخر السبعينيات من القرن الماضي المواجهات المسلحة بين جماعة الإخوان المسلمين وأجهزة السلطة في سوريا، بخاصة في مدن الشمال، أما في المناطق التي يقطنها أهالي الجولان والموزعة بين دمشق وريفها فلم تشهد أي مواجهة تذكر. السبب الواضح هو أن هذه المواجهات لم تحمل مطالب اجتماعية أو اقتصادية، لذلك لم تحظ بأي دعم يذكر من قبل شرائح كبيرة من المجتمع الجولاني.

حملت فترة الثمانينات تغيرًا نفسيًا جديدًا، حيث ولد جيل جديد لم ير الجولان قطّ، وبدأ بالتأقلم مع حياة النزوح في المخيمات التي اقمت في أحياء دمشق وريفها، كما بدأ هذا الجيل بممارسة بعض الحرف والعمل في القطاعات الخدمية الحكومية. هذا بخلاف الجيل الأكبر سنًا الذي امتهن الزراعة والرعي قبل التهجير، وبالتالي استمر يلاقي الصعوبات في الانخراط في سوق العمل، وذلك لعدم الدراية بأي مهنة حرفية وانعدام التحصيل العلمي بين أبناء ذلك الجيل. وبشكل عام لم تتوفر للنازحين بمختلف أجيالهم فرصة المنافسة في سوق العمل، وكان الحل في العمل في قطاع البناء، والذي تعتبر ظروف الشغل فيه بشكل عام قاسية وذات مدخول محدود.

ترافق توسع المناطق التي يقطنها سكان الجولان وازدياد أعدادهم في فترة الثمانينات مع فترة عدم استقرار واضطرابات عاشتها سوريا، حيث تتالت الأحداث السياسية والأمنية، والتي أثرت سلبًا على اقتصاد البلاد. بالإضافة الى إدراج السلطة الحاكمة على قائمة العقوبات من قبل الدول الغربية، فخسرت الليرة الكثير من قيمتها. ففي خلال عشر سنوات تراجعت قيمة الليرة السورية أمام الدولار بشكل كبير، في حين بدأت السلع الأساسية تنقص بشكل تدريجي في الأسواق. (Collelo & Library Of Congress. Federal Research Division, 1988, pp. 109–111)

مع اشتداد الأزمة الاقتصادية في سوريا زادت من المعاناة الاقتصادية والاجتماعية التي واجهها أهالي الجولان بشكل كبير أكثر من غيرهم. فبعد أن فقد الجولانيون أراضيهم وأرزاقهم، دخلوا بسبب الحاجة والعوز في منافسة لم يريدوها مع سكان دمشق وريفها في مجالات صناعية وزراعية متعددة. في كانون الأول عام ١٩٨١ صدق الكنيست الإسرائيلي على "قانون مرتفعات الجولان" الذي ينص على تطبيق حكومة إسرائيل قوانينها على الهضبة المحتلة. وكانت مجاورة نازحي الجولان للاجئين الفلسطينيين في مخيماتهم وأحيائهم عاملًا نفسيًا محبطًا بدوره، فهم مثلهم فقراء ومهجرون، وعليهم التنافس على سوق العمل المحدود. ومع انهيار الاقتصاد الريفي في سوريا، تصاعدت الهجرة الداخلية، وخصوصًا هجرة أهل الريف نحو المدن الرئيسية، والتي شكلت فيها العاصمة دمشق اهم وجهات الاستقطاب، وفي عام ١٩٩٠ وصلت نسبة اللاجئين

---

١٤ عدنان عقلة (١٩٥٠ – ١٩٨٢)، كان زعيم حركة تسمى الطليعة المقاتلة؛ وهي جماعة مسلحة متصلة بالإخوان المسلمين الذين بدأوا في انتفاضة مسلحة ضد النظام العلوي، ولكن باءت بالفشل الزريع. لوحظ كونه أكثر شخصية مؤثرة وكاريزمية في الطليعة.

والنازحين والمهجرين حوالي ٣٠% من سكان دمشق (Khawaja, 2002, p. 41) .

مع اكتظاظ أطراف العاصمة، وخصوصًا المنطقة الجنوبية فيها بالقادمين الجدد من أرياف المحافظات الأخرى، شكلت زيادة السكان المضطردة في المدينة عاملًا ضاغطًا على فرص العمل الشحيحة أصلًا، وبالتالي أثرت بشكل سلبي على نازحي الجولان، وهم الأكثر فقرًا ولا مكان يمكن أن يعودوا إليه. بالمقابل استفاد المواطنون السوريون، ومنهم النازحين من الجولان، من الأنظمة السياسة ذات الطابع الاشتراكي للدولة، بخاصة على الصعد التموينية والتعليمية والاستشفائية. المحرك الرئيس للاقتصاد السوري هو "القطاع العام"، والذي يركز على الاستثمار في المشاريع الكبرى المرتبطة بالبنى التحتية والصناعة، كما أن الدولة كانت توفر الدعم لكافة القطاعات الخدمية بدءً من الطبابة مرورًا بالتعليم وانتهاء بدعم المحروقات والمواد الأولية كالخبز والأرز والسكر. فكانت كل عائلة تتلقى مخصصات تختلف كمياتها طبقًا لعدد أفراد الأسرة، وتعطى من قبل وزارة التموين والتجارة. (Shamel, n.d., pp. 11, 12)

استمرت تلك السياسات الاقتصادية التعاونية لتحقيقها نوعًا من الاستقرار الاجتماعي، خصوصًا فيما يخص دعم قطاعي الزراعة والصناعة. فهذان القطاعان يضمان حوالي نصف القوة العاملة السورية، وكانت المساعدات الحكومية جوهرية لتأمين قوت الشعب، بخاصة بعد تضاعف عدد السكان من ١٢ مليون في العام ١٩٩٠ الى ٢١ مليون عام ٢٠١٠ (مؤشرات التنمية العالمية | بنك البيانات, n.d.) مقابل عيش تلك الفئات الكادحة، ظهر نوع جديد من العلاقة الانتفاعية بين النظام الحاكم والعائلات البرجوازية التقليدية الثرية في المدن الرئيسية، على وجه الخصوص مدينتي دمشق وحلب. هذه العلاقة التي اتصفت بالمحاباة والزبائنية بين تلك الطبقة الغنية وأجهزة الدولة، وكان الغرض من تلك العلاقة هو التوجه لنموذج اقتصادي جديد يدعم القطاع الخاص، على حساب القطاع المملوك للدولة.

لذلك، ومنذ بداية الألفية بدأت مرحلة جديدة اتسمت بتغيير سياسات الدولة الاشتراكية وسيرها نحو تبني نهج نيو ليبرالي، عززت فيه الخصخصة الاقتصادية وزاد الانفتاح على الاستيراد. نتج عن تلك السياسات انعدام الأمن الاقتصادي والاجتماعي لدى الطبقات الفقيرة والريفية من السوريين، بينما بدأت العوائل البرجوازية والأنسباء والأقارب والمقربين من مركز صنع القرار في النظام بالتنعم بفوائد التحول الاقتصادي والوفورات المالية المتدفقة. في ظل التحول نحو الأنماط النيو ليبرالية، تزايدت الهجرة نحو المدن بشكل كبير، خصوصًا بعد الجفاف الذي ضرب منطقتي الجزيرة وحوران، فزاد الاكتظاظ السكاني في المناطق الأكثر فقراً، كما زادت المنافسة في سوق العمل الرخيص، خاصة قطاع البناء.

سادسًا: تأثير الأزمة السورية على نازحي الجولان

تُعَدّ الأزمة السورية التي بدأت بموجة من الاحتجاجات على الأوضاع المعيشية في سوريا تماهيًا مع "الربيع العربي"، من أقسى وأفظع الأزمات التي واجهت سكان كافة مناطق السورية منذ الحرب العالمية الأولى، حيث تتالت فصول أحداثها لتتحول من المظاهرات السلمية الى صراع مسلح مستمر منذ ما يقارب الأحد عشر عامًا. لا يمكن ربط الاحتجاجات في سوريا فقط بتأثرها بدول الجوار، وخصوصًا ان الاحتجاجات في سوريا بدأت في المناطق الريفية المهمشة والتي تأثرت بشكل كبير جدًا بالتحول الاقتصادي الكبير وعوامل التغير المناخي والجفاف. فمع بدأ أهالي مدينة درعا في جنوب سوريا بالتظاهر، انضمت سريعًا العديد من المناطق الريفية الفقيرة في كافة أرجاء سوريا للاحتجاجات.

من الجدير بالذكر هنا أن مدينة درعا هي مدينة متاخمة لمنطقة القنيطرة ويقطنها العديد من أهالي الجولان، وخصوصًا منطقة درعا البلد المنطقة التي تعتبر مركز المدينة. منذ نزوح سكان الجولان الداخل السوري سكن أفراد من عشرة السرحان الجولانية في مدينة درعا، وكان مخيم درعا من أكثر المناطق اضطرابًا في بداية الأحداث، وتوافد سكانه للتظاهر في مدينة درعا. وحين امتدت الاحتجاجات الى مدن وبلدات دمشق وريفها، كان نازحي الجولان الذين يقطنون منطقة الحجر الأسود من أوائل الذين شاركوا في الاحتجاجات، نظرًا لتردي الوضع المعيشي في المناطق، والفقر المدقع الذي يعانونه.

سرعان ما امتدت الاحتجاجات إلى منطقة جديدة الفضل ومخيم السبينة وحجيرة والذيابية وأحياء القدم والتضامن، والتي يقطنها أهالي الجولان، وبالتالي تحولت إلى بؤر احتجاجات ساخنة، استمر سكانها بالتظاهر السلمي لنحو عام. مع بداية العام ٢٠١٢، أخذت الانتفاضة منحًا أكثر عنفًا وأكثر دموية. فمع الاعتقالات التعسفية والقمع والاستخدام المفرط للقوة في إرهاب السكان، بدأت بوادر مقاومة مسلحة في عدة أماكن في الظهور ومواجهة قوات الأمن الحكومية. وسرعان ما تطورت الأمور ليبدأ سكان العديد من المناطق بالتسلح وشن هجمات

على قوات الأمن لتتحول المواجهات بين المتمردين والقوات الحكومية الى حرب شوارع بدأ معها استخدام الأسلحة الثقيلة والقصف التدميري.

مع صيف العام ٢٠١٢ ("Syria Unrest," 2012) كانت عدة أحياء يقطنها نازحي الجولان كالحجر الأسود والتضامن والقدم ونهر عيشة تحت سيطرة الأهالي بعد طرد القوات الحكومية وأجهزتها الأمنية. مع استمرار المواجهات في جنوب العاصمة دمشق، سيطر المنتفضون على العديد من الأحياء المتاخمة، فيما اتخذت المواجهات في منحى طائفيًا بحتًا. وكانت المواجهة الأعنف في ربيع العام ٢٠١٣ بين منطقة جديدة الفضل، التي يقطنها أبناء عشيرة الفضل الجولانية، ومنطقة مساكن ميسلون المجاورة التي تقطنها أغلبية علوية ("Syria Army Seizes Jdaidet Al-Fadl 'Killing Dozens,'" 2013) .

مع اشتداد المواجهات في تلك الأحياء ازدادت موجات نزوح السكان نحو مناطق أكثر أمنًا بعيدًا عن الاشتباكات. وتركزت موجات النزوح نحو حدود الجولان، نظرًا لهدوء المنطقة المتاخمة لإسرائيل وخلوها من المواجهات والاشتباكات العنيفة. ولكن خلال العام ٢٠١٣ تحولت الاحتجاجات في سوريا الى صراع مسلح دامي عم كافة أرجاء الأراضي السورية. وعندئذ، عادت منطقة القنيطرة الى واجهة الأحداث مجددًا، بخاصة بعد أن شنت فصائل المعارضة عمليات عسكرية عديدة ضدّ القوات الحكومية المتمركزة على خطوط التماس الدولية. وفي ربيع العام ٢٠١٣ أصبحت منطقة القنيطرة في واجهة الأحداث الدولية بعد أن تم اختطاف ٢١ جنديًا من قوة الأمم المتحدة لمراقبة فضّ الاشتباك ("Syrian Rebels Seize U.N. Peacekeepers near Golan Heights," 2013) ، وفي صيف العام ٢٠١٤، تمكنت المعارضة السورية بعد معارك طاحنة استمرت حتى منتصف شهر أيلول من السيطرة على مدينة القنيطرة، والتمركز على بعض المعابر الحدودية مع العدو الإسرائيلي.

لقد لعب قرب محافظة القنيطرة من الحدود مع إسرائيل، ووقوعها ضمن المنطقة المنزوعة السلاح، دورًا كبيرًا في تراجع القوات الأمنية السورية، وتحول المنطقة إلى ملاذًا آمنًا للهاربين من الاشتباكات والمعارك في مناطق جنوب سوريا. كانت مناطق الجنوب السوري تشهد معارك متفرقة بين الطرفين، خلفت أعدادًا ضخمة من الضحايا وأرتالًا من النازحين الجدد. وفي العام ٢٠١٤ أجريت دراسة ميدانية أعدتها مجموعة من الجمعيات غير الحكومية المحلية بالتنسيق مع مكتب الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية، لدراسة أوضاع سكان القنيطرة والنازحين إليها، شملت الدراسة ٢٧٣ ألفًا شخصًا نحو ٦٠ بالمئة منهم نازحون. ما مجموعه ١٦٧ ألف نازح الى محافظة القنيطرة. (Quneitra Governorate Assessment Report_FINAL.Pdf, n.d.)، وكانت الخلاصات مأساوية في شرحها لهول أوضاع السكان المحليين والهاربين نحوهم من جيرانهم السوريين.

استمر الوضع بالتدهور في سوريا بشكل عام والقنيطرة بشكل خاص لما يقارب الست سنوات، دفع فيها المدنيون الثمن الأكبر للصراع الدائر في مناطقهم، بخاصة بعد تدخل إيران وأتباعها من مقاتلين لبنانيين وعراقيين وأفغان، وبدء التلاعب بالتوازن الديمغرافي للمجتمع السوري. تدهورت الأوضاع الإنسانية بشكل كبير جدًا وخصوصًا أن المدينة وريفها التي لا تمتلك البنى التحتية والمرافق لاستقبال هذه الأعداد الكبيرة من النازحين. وكان قسم من الهاربين يلجؤون للسكن عند أقاربهم، ولكن الشريحة الأكبر، والأقل حظًا، سكنت المرافق العامة، كالمدارس العامة والمباني الحكومية المهجورة، وبعد ذلك المخيمات الجديدة على مقربة من الحدود الدولية.

أدى توازن القوى بين قوات المتمردين والقوات الحكومية وحلفائها، بإرادة دولية (وإسرائيلية) الى استعصاء الحل العسكري للحسم لأحد الطرفين. كما كان لاتباع النظام الحاكم سياسات حصار المدن والبلدات وقطع طرق المواصلات الرئيسية، وفي هذه الحالة قطع الطريق الرئيسي الذي يربط المحافظة بالعاصمة دمشق، آثار كارثية اقتصادية واجتماعية فاقمت أوضاع النازحين. في ظل تلك الظروف وطول تلك الفترة الممتدة بين العام ٢٠١٣ حتى العام ٢٠١٨ بدأ العديد ممن نزحوا الى الجولان بالبحث عن ملاذ أكثر أمنًا، وخصوصًا عندما كانت تزيد حدة الاشتباكات والاقتحامات المتبادلة. كان الخيار الوحيد المطروح لدى أهالي الجولان هو اللجوء الى دول الجوار وخصوصًا لبنان والأردن، الدولتان التي يرتبط معهما الجولان بحدود برية.

طرأ تغير كبير في صيف العام ٢٠١٨ م فمع التدخل الروسي لصالح النظام، رجحت الكفة الميدانية لقواته، وبدأت ميليشياته باستعادة المدن والقرى والبلدات التي خسرتها لصالح الثوار طوال الفترة السابقة. كانت محافظة القنيطرة من المحافظات التي تمت فيها "المصالحات"، بخاصة أنها لم تشهد معارك فاصلة، بسبب وقوعها ضمن منطقة فض الاشتباك مع إسرائيل، وبالتالي كانت الصدامات السورية – السورية

بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة، بسبب دخول أليات ثقيلة واستخدام المدفعية والطائرات. تمت المصالحات بين النظام والمتمردين بوساطة روسية ضمنت خروج الكثيرين ممن يردون مغادرة القنيطرة الى مدن الشمال السوري، بخاصة محافظة إدلب. وهكذا غادرت أعداد كبيرة من المسلحين وعائلاتهم الى مناطق المعارضة الشمالية، ومن ثم غادر العديد منهم الى تركيا. على جبهة دمشق، وبدعم روسي أيضًا، سيطرت القوات الحكومية على كافة أحياء نازحي الجولان في العاصمة وريفها، ولكن تلك الأحياء لم تعد صالحة للسكن لشدة المعارك التي دارت بها وتعرضها للقصف بالبراميل المتفجرة ومختلف أنواع الذخائر الانشطارية.

سابعًا: من نازحين في الوطن إلى لاجئين في المعمورة

خلفت الأزمة السورية أكبر موجة لجوء دولية منذ الحرب العالمية الثانية، حيث بلغ عدد الهاربين السوريين في دول الجوار وحدها نحو ٦,٦ مليون لاجئ، توزعوا بين لبنان، والأردن، والعراق، ومصر.

تركيا، الجارة الشمالية، والفاصل الجغرافي العائق للوصول إلى الجنة الأوروبية، كانت جسر العبور الأهم إلى القارة العجوز. أنقرة كانت قد وقعت على "اتفاقية جنيف" لعام ١٩٥١ والمتعلقة باللجوء، إلا أنها تحفظت حينها، ولأسباب قومية طورانية، على بند "القيود الجغرافية" في الاتفاقية، وبهذا لا تمنح تركيا صفة "لاجئ" من الناحية القانونية لمن قدم إلى أرضها من غير الأوروبيين. وعليه، لم تستقبل تركيا السوريين بصفة "لاجئين"، إنما تم توفير وضعية "الحماية المؤقتة"، استنادًا إلى المادة ٩١ من قانون الأجانب والحماية الدولية المرقم ٦٤٥٨، والصادر في ٤ نيسان ٢٠١٣، إضافة إلى تشريعات نظام الحماية المؤقتة المرقم ٢٠١٤/٦٨٨٣ الصادر في ١٣ تشرين الأول ٢٠١٤، استنادًا إلى المادة ٩١ من قانون الأجانب والحماية الدولية.

أما بالنسبة إلى أعداد السوريين في تركيا، بحسب آخر تحديث لوزارة الداخلية التركية والمديرية العامة لإدارة الهجرة، في ٨ أيار ٢٠٢٠، فقد بلغ عددهم ٣,٧٥٩,٠٠٨، وهم المسجلون في قيود دائرة الهجرة وشعبة الأجانب في الولايات التركية. ويتوزع السوريون على الولايات الواحد والثمانين التركية، وتختلف أعدادهم، بحسب كل ولاية، تبعًا للبيئة الاجتماعية الحاضنة، أو للبيئة التي قدموا منها، أو لتوفر فرص عمل تناسب كفاءاتهم وقدراتهم. تركيا هي منطقة عبور للوصول إلى الحاضنة الغربية، والهدف الأهم لرغد العيش المأمول هو ألمانيا، والتي استقبلت نحو ٩٠٠ ألف لاجئ سوري، تليها، السويد حيث استقبلت أكثر من مئة ألف لاجئ. إضافة الى اللاجئين الموزعين في كافة أنحاء المعمورة، يعيش اليوم في سوريا نحو ٦,٧ مليون نازح داخلي(Syria Operational Update, n.d.). النازحين الداخليين يعيشون ظروفًا أكثر صعوبة من اللاجئين إلى الخارج، فحسب برنامج الغذاء العالمي، شهد العام ٢٠٢١ ارتفاع مستوى انعدام الأمن الغذائي الى مستويات غير مسبوقة، وصلت لنحو ١٢,٤ مليون شخص يعانون من سوء التغذية وانعدام الاستشفاء (٢٠٢١ من أصعب السنوات التي مرت على سوريا World Food | Programme, n.d.)

تعكس هذه الأرقام الوضع الذي وصل إليه حال السوريون داخل سوريا وفي بلدان اللجوء المجاورة لسوريا، تلك الأوضاع التي وصل إليها النازحون واللاجئون دفعت معظمهم بما فيهم مواطني وأهالي الجولان الى التفكير ببديل يوفر لهم حياة كريمة بعيدة عن الصراعات والنزاعات، والنزوح واللجوء، وحالة الحرمان والعوز التي يعشونها منذ ما يقارب الخمسين عامًا، والتي ازدادت سواء بفعل الأزمة السورية وتبعاتها الكارثية على الإنسان السوري. وفقًا لهذه الأرقام المهولة، نصف عدد سكان سوريا اليوم هم بين لاجئ ونازح، أما أهالي الجولان المحتل منذ العام ١٩٦٧، فمأساتهم مزدوجة، فهم مهجرين ونازحين للمرة الثانية، وباتوا لاجئين في دول الجوار والكثير منهم يسعى للهجرة غير الشرعية، والمميتة، عبر البحر المتوسط.

إن الأحياء التي نزح إليها سكان الجولان بعد العام ١٩٦٧ م والتي أصبحت ملاذًا أمنًا لهم لما يقارب الأربعين عامًا مدمرة بشكل شبه كامل وتحتاج لفترات طويلة لإعادة إعمارها. إضافة الى ذلك، لا يملك أهالي الجولان، كغيرهم من أقرانهم من السوريين في مناطق الصراع الأخرى، خيار العودة الى قراهم وبلداتهم الأصلية، بسبب استمرار وقوعها تحت قبضة الاحتلال الإسرائيلي. لعل نازحي الجولان واللاجئين الفلسطينيين في سوريا من الجماعات القليلة في الشرق الأوسط التي عاشت مأسي اللجوء والنزوح عدة مرات، لدرجة أنه أصبح الفرد منهم لديه الشعور بعدم الانتماء لأي مكان، خصوصًا أن الأجيال التي ولدت بعد العام ١٩٦٧، واللذين يشكلون فئاتها العمرية الممتدة ما بين الخمسين عامًا والعشرين عامًا، لم يعرفوا موطنهم الأصلي، ومن ثم تم طردهم من أماكن سكنهم.

في ظلّ هذه المآسي التي يعيشها أهالي الجولان وتحول نسبة كبيرة منهم من نازحين الى لاجئين في دول عدة، وتعذر عودتهم الى سوريا، لعدة أسباب أهمها، الخوف من معتقلات

السلطة، إضافة إلى خسارتهم لمنازلهم وأحيائهم التي كانوا يقطنوها قبل الأزمة، أصبح الحلم الأوروبي هو الحل الأمثل، ويجمع المعظم منهم على الرغبة بالانسلاخ عن كل ما يربطهم بوطنهم الأم. للأسف، مع تطور فصول الأزمة السورية وتعذر عودة اللاجئين إلى مخيماتهم، لم يعد التفكير بالعودة الجولان من ضمن أولويات النازحين اللاجئين، خصوصًا في ظل الجبروت الإسرائيلي والضعف العربي، لتتضاعف المأساة الإنسانية الجولانية.

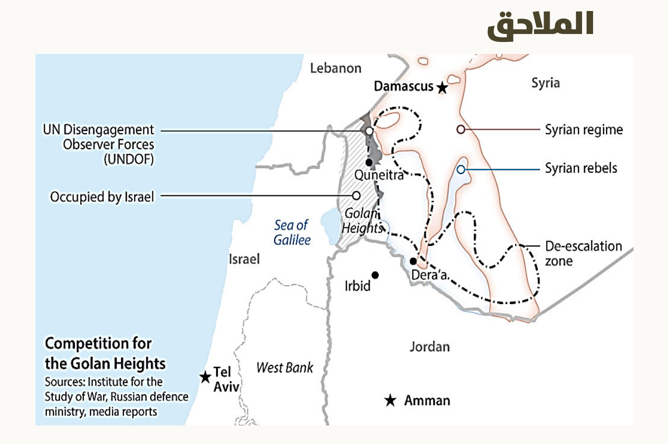
خَاتِمَةٌ

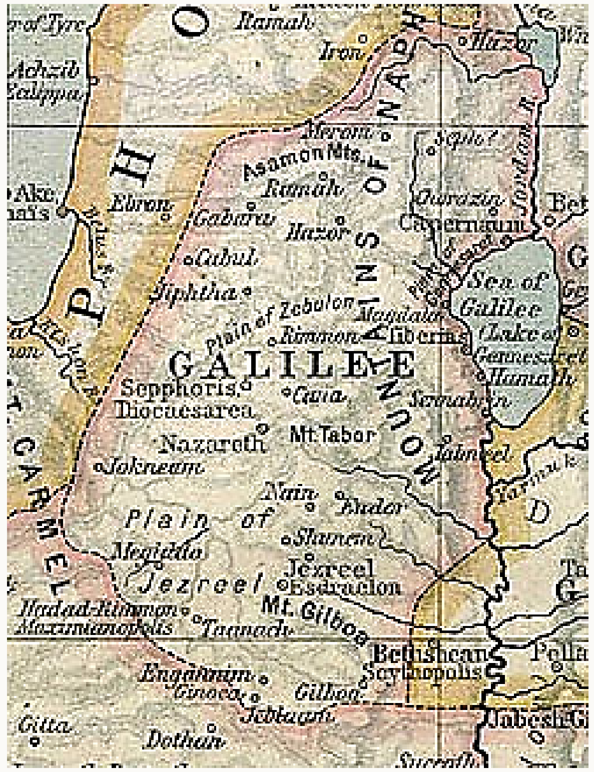
لقد القت الأزمة في سوريا بظلالها على احتمال استئناف المفاوضات بين سوريا وإسرائيل، وعلى الوضع السياسي العام في منطقة الشرق الأوسط، الذي يمر بدوره بالعديد من التحولات. اليوم تسيطر الدولة السورية بدعم إيران وميلشياتها على حوالي ٤٠% من الأراضي السورية، وينقسم الباقي بين الأفرقاء المتناحرون. وكما توضح الخريطة رقم (٧) يسيطر على الشمال الشرقي للبلاد مجموعات كردية مدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية، كما يوجد جيب من مليشيات محلية مدعومة من قبل تركيا تسيطر على مناطق واسعة على طول الحدود بين سوريا وتركيا، كما تتواجد مجموعات جهادية تسيطر على مدينة إدلب في الشمال السوري. هذا التفكك والتشتت الذي تعيشه سوريا اليوم الذي انعكس على وضع الجولان المحتل، كما أن احتمال إجراء مفاوضات على المدى المنظور مع الجانب الإسرائيلي لعودته سلميًا مستبعدة حاليًا.

تعيش سوريا اليوم واحدة من أسوء الأزمات السياسية والاجتماعية التي مرت بها عبر تاريخها. كما أن الوضع الاقتصادي الصعب الذي تعيشه البلاد جراء تبعات الحرب يضع ما تبقى من أحلام وأمال لدى أهالي الجولان الذين يعيشون أوضاعًا كارثية في مهب الريح. إن المؤشرات لا تدل على تحسن الوضع الداخلي بعملية تعافي على المستويين الداخلي والخارجي للنهوض بالبلاد من جديد.

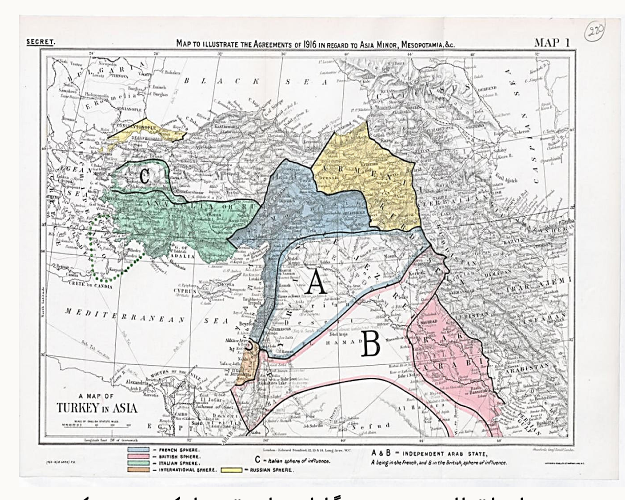
تبقى قضية الجولان معُلقة من دون حلّ سياسي يعيد الأمور الى نصابها، ويبقى أهالي الجولان يعيشون اليوم ليس فقط كنازحين داخليين، بل كلاجئين منتشرين في كافة أصقاع الأرض يبحثون عن انتماء جديد ينهي خمسين عامًا من التشرد والمأساة.

الملاحق

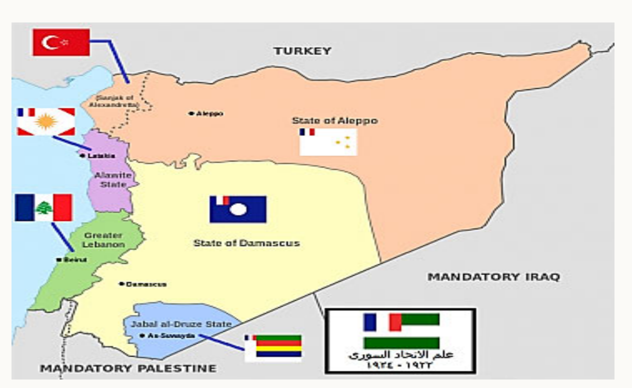




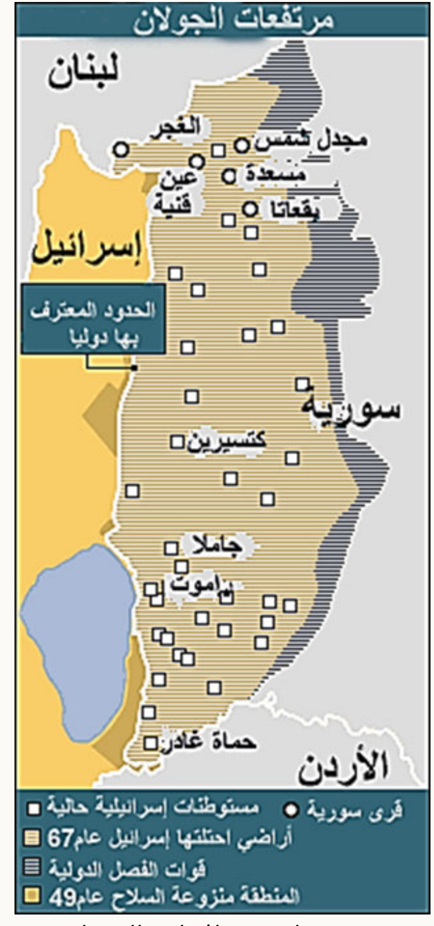
١ -الجولان أثناء الحرب اليهودية – الرومانية



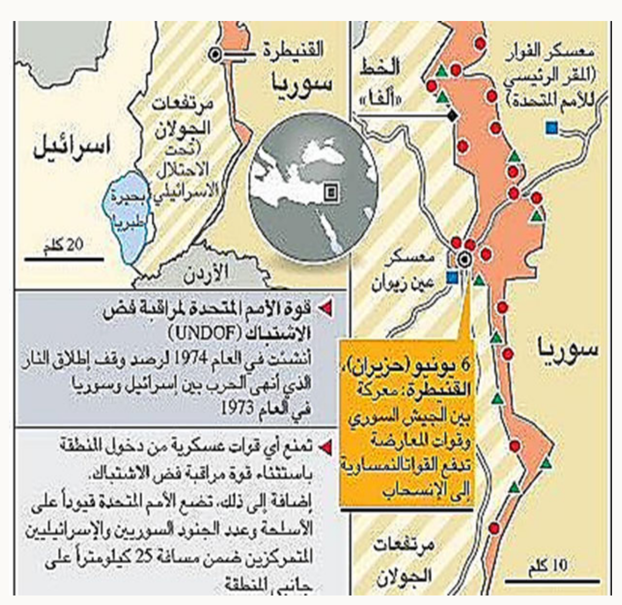
٢ -خارطة التقسيم وفقًا لاتفاقية سايكس - بيكو



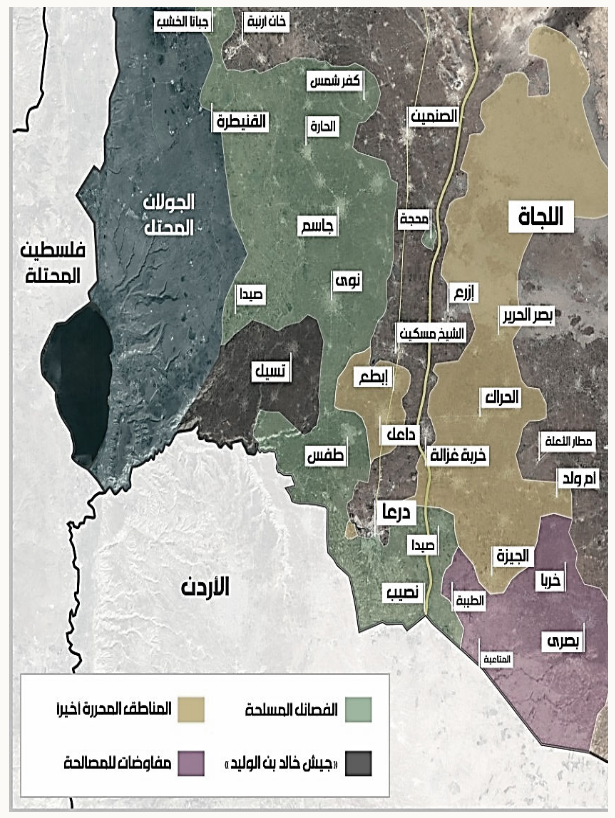
٣ – خريطة المستعمر الفرنسي لتقسيم سوريا



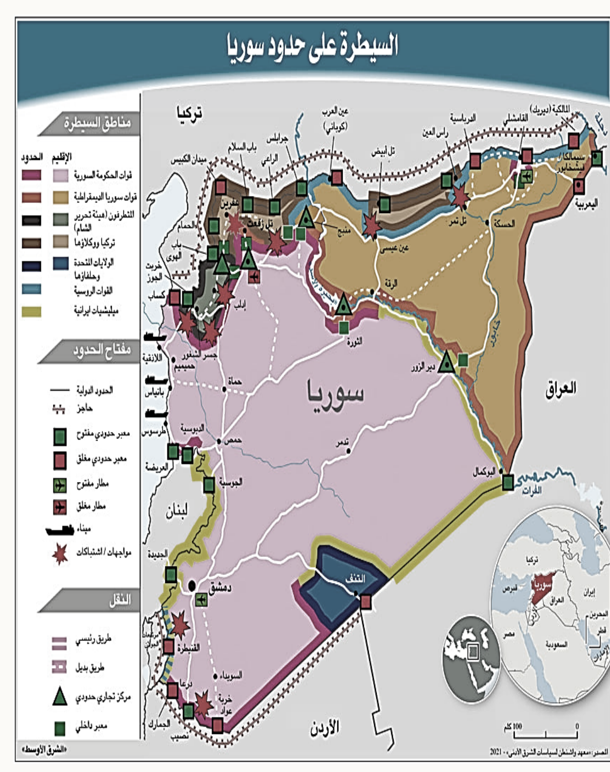
٤-خريطة قرى الجولان المحتل



٥ -خريطة الصراع بين قوات النظام ومسلحي المعارضة



٦ -تغير الواقع العسكري بعد التدخل الروسي



٧-الواقع الميداني حاليًا

المصادر والمراجع:

- A View from Damascus: Internal Refugees from Golan's 244 Destroyed Syrian Villages, by JoMarie Fecci, June 2000. (n.d.). Retrieved January 24, 2022, from http://web.archive.org/web/20011112045101/www.washington-report.org/backissues/062000/0006010.html
- Aloudat, B. (2021, January 17). طرد السوريين من الجولان (٣): "قصة الدروز" من وجهة النظر الإسرائيلية. من https://www.harmoon.org/reports/%D8%B7%D8%B1%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D9%8A%D9%86-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%86-%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D9%88%D8%B2-%D9%85%D9%86/
- Armistice of Mudros | Turkish history [1918] | Britannica. (n.d.). Retrieved March 15, 2022, from https://www.britannica.com/event/Armistice-of-Mudros
- Baron Edmond de Rothschild | French banker. (n.d.). Encyclopedia Britannica. Retrieved October 15, 2021, from https://www.britannica.com/biography/Baron-Edmond-de-Rothschild
- Collelo, T., & Library of Congress. Federal Research Division. (1988). Syria: A Country Study. Library of Congress Cataloging in Publication Data.
- Cutlack, F. M. (2018). The Australian Flying Corps in the Western and Eastern Theatres of War, 1914-1918. Creative Media Partners, LLC. https://books.google.com.lb/books?id=8EA7zgEACAAJ
- Golan Heights Law. (n.d.). Retrieved February 25, 2022, from https://www.mfa.gov.il/mfa/foreignpolicy/peace/guide/pages/golan%20heights%20law.aspx
- Golan Heights: Trump signs order recognising occupied area as Israeli. (2019, March 25). BBC News. https://www.bbc.com/news/world-middle-east-47697717
- Khawaja, M. (2002). Internal migration in Syria: Findings from a national survey. Fafo, Institute for Applied Social Science. http://worldcat.org
- Quneitra Governorate Assessment Report_FINAL.pdf. (n.d.).
- Refugees, U. N. H. C. for. (n.d.). Refworld | U.S. Committee for Refugees World Refugee Survey 2002—Syria. Refworld. Retrieved November 15, 2021, from https://www.refworld.org/docid/3d04c1522c.html
- S/1353 of 20 July 1949. (2011, July 26). https://web.archive.org/web/20110726121056/http://unispal.un.org/UNISPAL.NSF/0/E845CA0B92BE4E3485256442007901CC
- Schumacher, G. (2010). The Jaulân: Surveyed for the German Society for the Exploration of the Holy Land. Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511706011
- Shamel, A. (n.d.). Uprising of the Marginalised. 28.
- Sicker, M. (1999). Reshaping Palestine: From Muhammad Ali to the British Mandate, 1831-1922. Westport, Conn: Praeger.
- Syria army seizes Jdaidet al-Fadl "killing dozens." (2013, April 22). BBC News. https://www.bbc.com/news/world-middle-east-22240540
- Syria operational update. (n.d.). Global Focus. Retrieved February 19, 2022, from http://reporting.unhcr.org/document/1713
- Syria unrest: Second day of fierce Damascus clashes. (2012, July 16). BBC News. https://www.bbc.com/news/world-middle-east-18859453
- Syrian rebels seize U.N. peacekeepers near Golan Heights. (2013, March 6). Reuters. https://www.reuters.com/article/us-syria-crisis-idUSBRE92516Q20130306

- The Circassians of Syria: Opting for the Rightful Cause. (n.d.). Retrieved October 22, 2021, from http://circasvoices.blogspot.com/2012/07/the-circassians-of-syria-opting-for.html
- The Geographer Office. (1969). International Boundary Study No. 94 – December 30, 1969 Jordan – Syria Boundary.
- U.N. chief clear that Golan status has not changed: Spokesman. (2019, March 25). Reuters. https://www.reuters.com/article/us-usa-israel-un-idUSKCN1R623E
- ʿAlawite | Shīʿite sect | Britannica. (n.d.). Retrieved November 14, 2021, from https://www.britannica.com/topic/Alawite
- أعضاء المؤتمر السوري العام ١٩١٩ .(1920, March 8) .التاريخ السوري المعاصر/https://syrmh.com/1920/03/08 .أسماء-أعضاء-المؤتمر-السوري-العام-١٩٢٠/
- الجولان – المجلس التركماني السوري .(n.d.). Retrieved November 8, 2021, from https://www.meclisturkmen.org/ar/category/%d8%a7%d9%84%d9%82%d8%b1%d9%89/%d8%a7%d9%84%d8%ac%d9%88%d9%84%d8%a7%d9%86/
- الحكيم، ي. (٢٠١٩). سورية والانتداب الفرنسي . http://archive.org/details/sorya.w.al.intidab
- بالصور: ٢٠٢١ من أصعب السنوات التي مرت على سوريا | World Food Programme. (n.d.). Retrieved February 22, 2022, from https://ar.wfp.org/stories/2021-photos-people-heart-one-syrias-toughest-years
- تركمان الجولان في مخيم دير البلوط يطالبون بالدخول إلى تركيا—روزنة .(n.d.). Retrieved November 8, 2021, from https://www.rozana.fm/ar/news/2019/06/23/%D8%AA%D8%B1%D9%83%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%86-%D9%81%D9%8A-%D9%85%D8%AE%D9%8A%D9%85-%D8%AF%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%84%D9%88%D8%B7-%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%88%D9%86-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%AE%D9%88%D9%84-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%AA%D8%B1%D9%83%D9%8A%D8%A7%E2%80%8E
- تملك الأجانب للعقارات في الدولة العثمانية: أنموذج بلاد الشام . (2020, June 5).مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي . http://https%3A%2F%2Fal-furqan.com%2Far%2F%25d8%25aa%25d9%2585%25d9%2584%25d9%2583-%25d8%25a7%25d9%2584%25d8%25a3%25d8%25ac%25d8%25a7%25d9%2586%25d8%25a8-%25d9%2584%25d9%2584%25d8%25b9%25d9%2582%25d8%25a7%25d8%25b1%25d8%25a7%25d8%25aa-%25d9%2581%25d9%258a-%25d8%25a7%25d9%2584%25d8%25af%25d9%2588%25d9%2584%25d8%25a9-%25d8%25a7%25d9%2584%25d8%25b9%25d8%25ab%25d9%2585%25d9%2585%2F
- عبد الكريم، أ. ع. (١٩٥١). التقسيم الاداري لسورية في العهد العثماني: الباشويات العثمانية والعصبيات الإقطاعية. حوليات كلية الآداب, ١, ١٢٧–١٨٤.
- عبيدات، م. (١٩٩٧). أحمد مريود ١٨٨٦—١٩٢٦ قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن.Riad El-Rayyes Books Ltd .
- فلّاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأناً وسياساتهم . (2014). https://le-calligraphe.com
- مؤشرات التنمية العالمية | بنك البيانات .(n.d.). Retrieved February 14, 2022, from https://databank.albankaldawli.org/reports.aspx?source=2&country=SYR
- محمد، ع. ع. ا. (١٩٦٩). الادارة العثمانية في ولاية سورية، ١٨٦٤-١٩١٤. دار المعارف،
- موقع وزارة الخارجية والمغتربين- الجمهورية العربية السورية .(n.d.). Retrieved October 21, 2021, from http://mofaex.gov.sy/ar/pages535/%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%AA%D9%84

ترجمات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

العلاقات بين بلاد فارس ومصر
في ظل الإسلام حتى العصر الفاطمي



احسين حمد احسين محمود الفقيه

عضو هيئة التدريس برتبة محاضر

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

بنغازي– دولة ليبيا

الدِّرَاسَةُ

Rhuvon Guest, "RELATIONS BETWEEN PERSIA & EGYPT UNDER ISLAM UP TO THE FATIMID PERIOD", A VOLUME OF ORIENTAL STUDIES (presented to professor G. Browne).- London: Cambridge university Press, 1922. Pp. 163 – 174.

إن هذا البحث مستل من كتاب يضم عدة بحوث، وهو بعنوان: (مجلد الدراسات الشرقية)، الذي نشر فيه نخبة من المستشرقين الأوروبيين، بحوث متخصصة في الاستشراق في التاريخ الإسلامي، وتم تقديم هذا المجلد إلى البروفيسور "إدوارد جرانفيل براون" في ذكرى عيد ميلاده السادس بتاريخ (٧ فبراير ١٩٢٢م). وتم نشر هذا المجلد عن طريق مطبعة جامعة كامبردج، لندن، المملكة المتحدة، عام ١٩٢٢م. وقام بالإشراف عليه كل من المستشرقان: توماس أرنولد ورينولد نيكولسون. يناقش هذا البحث دراسة لتاريخ العلاقات التي ربطت بلاد فارس بمصر منذ بداية فتحها وصولًا إلى العصر الفاطمي، حيث ركزت الدراسة حول الولاة الذين تم تنصيبهم من قبل الخلافة الإسلامية في المشرق على ولاية مصر، والذين يعود أغلبهم إلى أصول فارسية، وتوصل الباحث إلى عدة نتائج ذكرها في الخاتمة التي وردت في نهاية البحث. إن المستشرق اعتمد على منهجية البحث السردي النقلي التحليلي المقارن، حيث اعتمد في دراسته على المصادر التاريخية لعدة مؤرخين من المسلمين، بالإضافة إلى اعتماده على عدة مؤلفات لمستشرقين سابقين ناقشوا هذا الموضوع. أما عن منهجيتي في الترجمة؛ فقد ترجمت النصوص دون أي انحراف عن المعنى، وتركت الهوامش والإحالات التي وضعها المؤلف كما وضعها المؤلف في البحث الأصلي، عدا بعض الإشارات التي أضفتها مذيلة بكلمة (المترجم)، وذلك لتمييزها عن هوامش المؤلف.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة:	٢٨	يونيو	٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر:	١٧	أغسطس	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

بلاد فارس؛ العصر الفاطمي؛ الخلافة الإسلامية؛ المستشرقين؛ مصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299721 

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

روفون جويست."العلاقات بين بلاد فارس ومصر في ظل الإسلام حتى العصر الفاطمي"، ترجمة: احسين حمد احسين محمود الفقيه.- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة - العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ١٩٤ – ٢٠٠.

Corresponding author: h.alfageeh.s@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

العلاقات بين بلاد فارس ومص
في ظل الإسلام حتى العصر الفاطمي

أظهر البروفيسور "براون" في كتابه *Literary History of Persia* (تاريخ بلاد فارس الأدبي) أهمية الدور الذي لعبته بلاد فارس في تطوير الأدب الإسلامي. وفي واقع الأمر، من المُرَجَّح أنه لا يكاد يوجد عنصر بين جميع مكونات النظام الإسلامي العام؛ إلا وهو يثبت أن بلاد فارس قد قدمت فيه مساهمة كبيرة. وفقًا لذلك، يجدر النظر في كيف وبأي درجة امتد تأثير بلاد فارس تحت حكم المسلمين إلى الغرب. يبدو أن الآثار كانت محسوسة بقوة في مصر؛ مثل أي مكان آخر.

يتناول البحث التالي؛ الفترة التي اتحدت فيها مصر سياسيًا مع بلاد فارس كعنصر في الخلافة، وهي فترة زمنية تمتد لأكثر من ثلاثة قرون بدءًا من الفتوحات الإسلامية. إن بلاد ما بين النهرين السفلى (العراق) تُعامل على أنها فارسية لهذا السبب. إن المراجع المعتمدة هي مؤلفات المؤرخون العرب المعروفون. والكثير من المواد التاريخية التي يقدمونها هي مجزأة ومنفصلة. حتى لو كان من الممكن جمع كل حقيقة ذات صلة من مؤلفاتهم، فهناك جوانب من الموضوع ستظل غامضة. من المؤكد أن المخطوطات المعاصرة لتلك الفترة، عندما تصبح متاحة، ستضيف إلى معرفتنا كل ما يتعلق بها. يبدو لي أن الاختصارات التي استخدمتها في المراجع لا تتطلب تفسيرًا، باستثناء ما يلي:

(Ibn Abd el Hakam=Br. Mus. MS. Stowe or. 4. Khitat = El Maqrizi's Khitat. El Mukafa'ah by Ahmad ibn Yusuf. Cairo, 1914.)

كانت هناك فرقة من الفرس تعرف باسم "الفارسيين" *El Farisiyin*"؛ قد رافقت القائد "عمرو بن العاص" في أثناء غزوه لمصر. ووفقًا لإحدى الروايات، فإنهم كانوا بقايا جنود "باذان *Badan*"، الذي كان حاكم اليمن لملك بلاد فارس قبل الإسلام. وكانوا قد اعتنقوا الإسلام في الشام ثم تطوعوا للخدمة في الحرب الدينية[١]. ويتساءل المرء؛ كيف كان بإمكانهم الوصول إلى الشام دون أن يعتنق أهله الدين الإسلامي. وتقول الرواية الثانية: "يُزعم أن بينهم مجموعة من الفرس كانوا في صنعاء"[٢]، مما يعني أن معظمهم، إن لم يكن جميعهم، جاءوا من بلاد فارس، ويُفترض أنهم أسرى أُخذوا في غزوات بلاد ما بين

(١) Khitat, vol I, 298.

(٢) Ibn Abd el Hakam, fol. 49 a.

النهرين. يبدو أن هؤلاء الفارسيين، الذين كانوا قليلي العدد، استقروا في الفسطاط، حيث كان لديهم خُطَّةً خاصةً بهم ومسجد، وكان هذا الأخير لا يزال معروفًا في القرن الثالث من الهجرة[٣].

كان "كعب بن عُدَي التَّنوخي العِبادي"، وهو صحابي، كان أبوه في السابق أُسقف الحيرة، وكان شريكًا لعمر بن الخطاب قبل الإسلام. أُرسل كعب في مهمة إلى المقوقس سنة ١٥هـ، وشارك في فتح مصر. استقر في مصر ولابد أنه كان له أتباع كثيرون هناك، لأن أحد الفرق الأولى للعرب في مصر سميت باسمه "كعب بن عُدي التنوخي"[٤].

تسبب الانشقاق الكبير في الإسلام في حركة امتدت من العراق إلى مصر. إن "حجر بن عُدي"، وهو مؤيد بارز لعلي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ)، ويبدو أنه استقر في الكوفة، يظهر في مصر كمبعوث من "محمد بن أبي بكر" إلى معاوية[٥]. و"عمرو بن الحمق"، أحد المقتدين المرتبطين بحجر والكوفة، هو مرتبط بمصر أيضًا[٦]، وإن لم يتضح ما إذا كان ارتباطه بالكوفة يعود إلى ما قبل ارتباطه بمصر. إن "عبد الله بن سبأ"، وهو يهودي ذو شخصية غامضة من صنعاء، قيل إنه كان في قاع المؤامرة على عثمان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ)، استقر في مصر بعد سفره إلى الكوفة والبصرة[١]. وكان "زياد" قد نَفَى حوالي ١٣٠ أزدي من البصرة إلى مصر عام ٥٣هـ، واستقروا في الفسطاط[٢]. إن "حنش بن عبد الله الصنعاني"، من قبيلة سبأ، هو من فرس اليمن وكان مع علي بن أبي طالب في الكوفة، ثم جاء إلى مصر بعد اغتيال علي بن أبي طالب واستقر فيها. ويبدو أن حنش الصنعاني كان قائدًا لبعض الفِرَق في الغرب الإسلامي؛ وكان لديه سيرة مليئة بالمغامرات في شمال أفريقيا وإسبانيا[٣].

كان موسى بن نصير، فاتح إسبانيا، هو ابن لأسير سابق عام ١٢هـ من "عين التمر" التي تقع بالقرب من الأنبار، وقبل دخوله في خدمة "عبد العزيز بن مروان" في مصر؛ كان يشغل منصبًا إداريًا في البصرة. يبدو أن عائلة موسى استقرت في مصر، إذ كان

(٣) do, fol. 48 b.

(٤) Mushtabih, 334; Ibn Duqmaq, iv, 39; Suyuti, i, 131; Kindi, 70

(٥) Kindi, 28.

(٦) Suyuti, i, 128.

(١) Tabari, i, 2942-4; Sam'ani, 288.

(٢) Khitat, i, 298.

(٣) Ibn Sa'd, v, 391; Sam'ani, 288 b; Ibn Adari, i, 15; Maqqari, i, 3.

اثنان أو ثلاثة منهم في الخدمة العامة هناك في نهاية العصر الأموي[٤].

إن "عبد الله بن خُذامر الصنعاني" وهو مولى لقبيلة سبأ، كان قاضيًا في مصر من عام ١٠٠ إلى ١٠٥هـ، وشغل ابنه "يزيد" نفس المنصب عام ١١٤هـ[٥]، ويبدو أن اسم خُذامر هو بالتأكيد اسم فارسي.

"الليث بن سعد"، الفقيه المشهور، المولود في مصر بقلقشندة عام ٩٤هـ، ينتمي إلى عائلة من أصفهان، وكانت عائلته موالي لعائلة من زعماء قبيلة "فهم" في مصر. كانوا مرتبطين بشكل خاص بـ "خالد بن ثابت"، أول أولئك الزعماء في مصر، لذلك من المحتمل أن تكون العلاقة قد أقيمت في النصف الأول من القرن الأول. إن خالد، الذي كان صحابيًا وشارك في فتح مصر، ظهر مرة أو مرتين في التاريخ المصري، كان حيًّا في عام ٥٤هـ. ويقال إن والد الليث كان من قبيلة قريش؛ ثم دخل في الخدمة العسكرية (*iftarad*) مع قبيلة فهم، وهكذا أصبحوا مرتبطين بالقبيلة[٦].

إن مصطلح "الديوان"، و"القيروان" وهو المصطلح المستخدم للدلالة على كامل المنطقة التي يغطيها معسكر العرب في الفسطاط[١]، ومصطلح (الفورانق *furaniq*)[٢] أو رجل البريد، هي مصطلحات فارسية كانت سائدة في مصر في القرن الأول.

يأتي المرء إلى العصر العباسي. لقد غزت أعداد كبيرة من الفرس مصر عند قيام الخلافة العباسية عام ١٣٢هـ = ٧٥٠م. وشاهد العيان الذي حفظ "سيفيروس" روايته يقدِّر عدد أفراد الجيش العباسي الذي طارد "مروان" إلى مصر بحوالي ١٠٠ ألف فارس[٣]، مما يعني ضمنًا أن العدد الإجمالي أكبر، لأن الجيش لم يكن ليتكون بالكامل من الفرسان، ورأى في هذا الحشد شعبًا مختلفًا عن العرب الذين كان يعرفهم. كان يسميهم دائما الخرسانيين. لم يكن هؤلاء "المسودة *Musauwidah*" كانوا بالطبع من الفرس بالكامل، بل حتى العرب الذين كانوا بينهم من الممكن أنهم ينحدرون في أصلهم من بلاد فارس والشرق. الفصيل العربي الوحيد من الجيش المسمى في الواقع باسم "المضرية"، كان تحت قيادة زعيم كان فردًا في قبيلة تميم[٤]، وهي مجموعة عشائرية مرتبطة بالكوفة والبصرة ومرو وأصفهان والشرق عمومًا؛ ويبدو أنها لم يكن لديها امتداد نحو الغرب على الإطلاق حتى جلبتها الحركة العباسية إلى مصر وشمال أفريقيا. وأما قاتل "مروان" المدعو "عامر بن إسماعيل" الذي كان قائد طليعة الجيش القادم من البصرة[٥]؛ كان ينتمي إلى مجموعة القبائل العربية من "مذحج *Madhij*"، ولكن ربما كان من الموالي. في جميع الأحوال، نطق بالفارسية لرجاله وحثهم على الهجوم بعبارة: "يا جوانكثان دهيد *ya jawanagdn dihid*"[٦].

عاد جزء من الجيش العباسي إلى المشرق بعد انتصارهم بفترة وجيزة، وعندما غادر صالح بن علي مصر عام ١٣٧هـ = ٧٥٥م، وقعت معظم معسكراتهم في منطقة "العسكر"(*) في حالة دمار. ومع ذلك، فقد تم الحفاظ على العسكر حتى عهد "أحمد بن طولون"، ويبدو أنها ظلت حتى ذلك الحين؛ هي المسكن المعتاد للحكام العباسيين وقواتهم[١].

تُظهر قائمة ولاة مصر بين عام ١٣٢هـ = ٧٥٠م؛ والحرب بين الأمين والمأمون عام ١٩٦هـ = ٨١٢م، أن أولئك الذين تم تعيينهم كانوا من المؤيدين البارزين للعباسيين الذين كان لهم دور فعال في وصول السلالة إلى السلطة. في وقتٍ لاحق، تم منح هذا المنصب بشكلٍ متكررٍ لبعض أفراد الأسرة العباسية، وهم من أقرباء الخليفة الحاكم. خلال ذلك الوقت، كان هناك عدد من الولاة الآخرين، تم تمييز بعضهم كقادة عسكريين وبعضهم كانوا ولاة لولايات أخرى في الإمبراطورية وكانوا ينتمون إلى طبقة بيروقراطية أكثر من كونها عسكرية. في ثلاث أو أربع مناسبات، وضع عرب مصر ولاة؛ لكن هذا كان غير عادي، وكقاعدة عامة، كان الولاة يجري تنصيبهم من المشرق. وقد تم تعيين نسبة لا بأس بها من الولاة الفرس، مثل "أبو عون" من

(٤) Tabari, i, 2064; Ibn 'Adari, i, 24; Kindi.
(٥) Kindi.
(٦) Er Rahmat el ghaithiyah, 3, where Thabit is to be read for Nashir; Suyuti, i, 114; Kindi.
(١) Suyuti, ii, 7.
(٢) Kindi, 62.
(٣) Seybold, 191.

(٤) Kindi, 99, 1. 9.
(٥) Kindi, 96.
(٦) Tabari, iii, 51.
(*) **مدينة العسكر**: هي المدينة التي أسسها صالح بن علي العباسي أول والٍ للعباسيين في مصر سنة (١٣٣هـ/٧٥٠م) شمال الفسطاط وأنتهى من بنائها عام ١٣٥هـ، وتعتبر إحدى المدن الثلاثة المكونة لمدينة قاهرة المعز. وكانت في البداية مقصورة على الجنود العباسيين، ولعل هذا السبب جعل الناس يطلقون عليها العسكر، واستمر ذلك الحال حتى جاء السري بن الحكم واليا على مصر عام (٢٠١هـ/٨١٦م) فأذن للناس بالبناء فتهافت الناس على البناء بالقرب من مقر الحكم ونمت المدينة حتى اتصلت بالفسطاط. (**المترجم**)
(١) See Khitat, i, 304.

جرجان، و"هرثمة بن أعين" من بلخ[٢]. وإن الغالبية من العرب، كانوا مرتبطون ارتباطًا وثيقًا ببلاد فارس بحيث يشيرون إلى أتباع وممتلكات فارسية. وبالتالي يبدو أن "موسى بن كعب" الذي أمضى سنوات كداعية عباسي في أقصى مناطق خراسان[٣]، و"محمد بن الأشعث" والي بلاد فارس عام ١٣٠هـ في عهد "أبي مسلم الخراساني"[٤] وعائلة "المهلب" التي ينتمي إليها "يزيد بن حاتم"، قد تم تنصيبهم ولاةً لخراسان أكثر من مرة. ويمكن اعتبار أن الولاة العباسيين قد دافعوا عن بلاد ما بين النهرين وحاشية البلاط في بغداد. كانت إحدى السمات حول سلسلة الولاة هذه بأكملها هي تواتر للتغييرات. كان متوسط مدة المنصب أقل من عام ونصف. وبالتالي يجب أن يؤدي السفر المستمر ذهابًا وإيابًا من الولاة وحاشيتهم في حد ذاته؛ إلى تسريع العلاقات بين بلاد فارس ومصر.

إن تنظيم القوات المصرية تحت حكم العباسيين ليس واضحًا تمامًا. فالوالي صالح بن علي "أضاف ٢٠٠٠ مقاتل إلى مصر"[١]؛ ولعل هذا يعني رفع المؤسسة العسكرية إلى أعلى حد. يبدو أن العباسيين أسسوا "الأربعة *arba'*" في مصر[٢]، ويفترض أن هذا يدل على أنهم قسموا القوات هناك إلى أربع فرق.

من خلال مؤلف للجاحظ يشير إلى تاريخ ليس أبعد من ذلك بكثير، يبدو أن جيش الخليفة قد تم تقسيمه إلى خمسة أقسام تتكون من: الخراسانيين، والأتراك، والموالي، والعرب، و"البناويين *Banawis*"[٣] أي "الأبناء"، وهذا يشير إلى احتمال وجود فرقتان فارسيتان في مص، وهم الخراسانيين والأبناء. ووصول ١٠٠٠ من الأبناء إلى مصر تم تسجيله عام ١٩٤هـ[٤].

يبدو أن المؤسسة المعروفة باسم "الشرطة *shurtah*" كانت تمثل قوة على أساس عسكري دائم، يتم تعزيزها عند الضرورة من بقية "أهل الديوان *ahl ed diwan*". في عهد الولاة العباسيين، كان هناك شرطتان في مصر هما شرطة العسكر، والشرطة العليا[٥]، وشرطة الفسطاط. قدم لنا الكندي قائمة كاملة بنقباء الشرطة، وخلال الفترة المعنية كانوا معظمهم تقريبًا من عرب مصر. لكن هذه القائمة تتعلق بشرطة الفسطاط، وأما أسماء نقباء شرطة العسكر تظهر مرة أو مرتين فقط[٦].

من المحتمل أن تكون القوات المصرية قد انقسمت إلى قسمين رئيسين: عرب مصر الذين يمثلون شرطة الفسطاط، والقوات المشرقية، الذين كانوا الداعمين الأساسيين للولاة وكانوا يتألفون إلى حد كبير من الفرس، وكانوا مرتبطين بالشرطة الأخرى.

تم تدوين وصول القوات من الخارج إلى مصر في القرن الثاني تحت حكم العباسيين في السنوات ١٤٣ و ١٦٩ و ١٧٢ و ١٧٨ و ١٩١ و ١٩٤هجري. لكن مما لا شك فيه أن هذه لم تكن المناسبات الوحيدة. في الواقع، يقرأ المرء أن الوالي "السَّري بن الحكم"، الذي كان خراسانيًّا، ينتمي إلى الجيش الذي يتبع جُند (*jund*) "الليث بن الفضل"، ودخل مصر في عهد الرشيد[١]، وبالتالي، على ما يبدو، بين عامي ١٨٢ و ١٨٧هـ. عندما لم يكن الليث واليًا في أحد التواريخ المشار إليها. ربما جند معظم الولاة بعض القوات الخاصة بهم، وهناك شواهد على أن بعض العائلات التي أتت من المشرق في الفترة المذكورة استقرت في مصر. تم ذكر عضوين من عائلة المهلب كانا في مصر لمدة ٢٤ و ٢٩ سنة على التوالي بعد رحيل "يزيد بن حاتم"[٢]. ظهرت عائلة "عبد الجبار الأزدي"، الخرسانيون، الذين اتصلوا بمصر لأول مرة عام ١٥٠هـ، في التاريخ المصري خلال بقية القرن. وكان عبد الجبار من قادة "المنصور"، قد ثار في خراسان عام ١٤١هـ، وتم اقتياده وإعدامه. تم نقل عائلته إلى "دهلك"(*)، حيث تم القبض على بعضهم في غارة هندية، وهرب آخرون وتمكنوا من فدائهم فيما بعد[٣]. يبدو أنهم وصلوا إلى مصر بهذه الطريقة. كان استيطان القوات العباسية في مصر قد شكل مستعمرات مثل المستعمرات الخراسانية في القيروان وبجاية في شمال أفريقيا كما ألمح إليها اليعقوبي[٤].

تظهر قوة الحزب الخراساني في مصر في الحرب بين المأمون والأمين، عندما قدم الخراسانيون بشكل طبيعي الولاء للأول. واستولوا في نهاية المطاف على الولاية، التي كانت تحت سيطرة سلالة خراسانية شبه مستقلة من "السَّري بن الحكم"

(٢) Bib. G. Ar., vii, 305.
(٣) El Akhbar et Tiwal, 337.
(٤) Tabari, ii, 2001.
(١) Kindi, 103.
(٢) Kindi, 71.
(٣) Translated by Mr Harley Walker, J.R.A.S. 1915, p. 637.
(٤) Kindi, 147.
(٥) Khitat, i, 304, l. 30.
(٦) e.g. Kindi, 102.
(١) Kindi, 148.
(٢) Kindi, 135, 138.
(*) **أرخبيل دهلك:** هو مجموعة جزر إريترية تقع في البحر الأحمر بالقرب من مصوع بإريتريا. (**المترجم**)
(٣) Tabari, iii, 134-6.
(٤) Bib. Geo. Arab., vii, 348, 350.

وأبنائه لمدة ١١ عامًا تقريبًا، من عام ٢٠٠ إلى عام ٢١١هـ. وكان الخراسانيون قادرين، ليس فقط على ضبط عرب مصر وإبقائهم تحت السيطرة، بل حتى في القتال فيما بينها. فيما يتعلق بهذه الأحداث، يُذكر أن عائلة عبد الجبار، المشار إليها آنفًا، كانت من بين أعيان خراسان في مصر في نهاية القرن الثاني للهجرة(٥).

أدت الإطاحة بسلالة السَّري على يد عبد الله بن طاهر، الفارسي من بلدة "بوشنج" بالقرب من "هراة"(٦)، إلى إدخال المزيد من القوات الفارسية إلى مصر.

ضم أتباع عبد الله بن طاهر بطبيعة الحال العديد من الفرس. وتم تقديم أسماء بعضًا منهم. ومن بين هؤلاء، أحد أفراد العائلة السامانية، الذي كان واليًا للإسكندرية(١). بعد حوالي أربع سنوات، خلف عبد الله الجنرال الفارسي الشهير "الأفشين"، الذي جاء لقمع الاضطرابات، وكان لا يزال مستمرًا في زيارة المأمون عام ٢١٧هـ. بعد عبد الله بن طاهر، كانت نسبة كبيرة من ولاة مصر هم من الفرس. وسرعان ما اختفى العرب بالكامل تقريبًا من المجال العسكري، ووجد المرء العديد من الأسماء الفارسية في قائمة نقباء الحرس؛ لكن الأتراك، الذين ظهروا لأول مرة في مصر عام ٢١٤هـ(٢)، قاموا تدريجيًا بإزاحة العنصر العسكري الفارسي هناك؛ وبحلول عهد ابن طولون كان نجمهم قد انخسف. ولم يظهر الفرس كجنود مرة أخرى بأي منصب بارز.

لم تظهر الكثير من المعلومات عن معظم المسؤولين العباسيين غير العسكريين في مصر في القرن الثاني لدرجة أن جنسيتهم نادرًا ما تظهر. كان الخراج بشكلٍ عام في أيدي الولاة، وكان "أبو قطيفة" (١٦٤هـ)(٣) و"عمر بن مهران" (١٧٦هـ)(٤) واليان خاصان بالخراج جاءا من المشرق. نادرًا ما تُذكر أسماء صاحب البريد: "واضح" (١٦٩هـ)(٥) و"يزيد بن عمران" (١٧٤هـ)(٦) كانا مشرقيين. كان قضاة مصر في البداية من العرب المصريين. أول قاضي أجنبي تم تعينه سنة ١٦٤هـ من الكوفة. بعد ذلك أصبح تعيين قضاة من الشرق أكثر تكرارًا وفي القاضي "عبد الرحمن بن عبد الله العُمَري" (١٨٥-١٩٤هـ) مثال لمن جلب معه الأخلاق الفاسدة والرشوة لبغداد في زمن الرشيد. شمل رواة مصر في القرن الثاني اثنين من خراسان، الذين يجب أن يكونا قد أتيا إلى مصر في وقتٍ مبكرٍ، ربما مع جيش الفتح العباسي، واثنان ينتميان إلى البصرة وأربعة أو خمسة ينتمون إلى الكوفة(٧). عندما تولى "عمر بن مهران" مسؤولية الخراج، تم وضع "الضِّياع *diya*" أيضًا تحت سيطرته. ويتضح هذا التعبير من خلال الإشارة إلى عامل "زبيدة" على البحيرة عام ١٨٤هـ(٨)، مما يدل على أن قطعة أرض كبيرة في مصر كانت في ذلك الوقت ملكًا لزوجة الخليفة الرشيد. ويسمع المرء عن وكيل "هرثمة بن أعين" على ضيعته في مصر عام ١٩٦هـ(١)، وكان هرثمة قد غادر مصر قبل ما يقرب من عشرين عامًا.

يمكن للمرء أن يلاحظ أن "صالح بن شيرزاد"، الذي كان مسؤولًا عن الخراج عام ٢١٤هـ(٢)، كان فارسيًا بشكل واضح.

يبدو أن "أحمد بن محمد بن المُدَبِّر"(٣) أصبح مديرًا للخراج في مصر عام ٢٤٧هـ(٤)، وتولى المنصب فور وصول "ابن طولون" عام ٢٥٤هـ، وكان إبراهيم شقيق أحمد، مسؤولًا بارزًا في بغداد(٥)، ونسبه لعائلة "الراستيساني"(٦)، على الرغم من أن المكان الذي يشير إليه يبدو غير معروف، إلا أنه يشير إلى أصل فارسي. وكان لأحمد ضياع في مصر(٧).

"يوسف بن إبراهيم بن الدّاية"، أخ بالرضاعة لـ "إبراهيم بن المهدي"، أو على الأرجح "المعتصم بالله"، كان وزيرًا للأول ووظفه في سامراء. بعد وقتٍ قصيرٍ من وفاة إبراهيم بن المهدي عام ٢٢٤هـ، رحل يوسف إلى مصر مع أسرته وحاشيته، من أجل تنظيم زراعة إقطاعات الأشخاص الذين حصلوا على أراضٍ في مصر. في ذلك الوقت، كان القادة الأتراك يتمتعون بالسلطة المطلقة في بلاط المعتصم بالله؛ وكان نفوذ رعاتهم العرب يتلاشى. كانت مصر دولة زراعية غنية وقد تم منح الكثير من أراضيها في شكل منح. وكان دخلها بيد أحمد بن المدبَّر

---

(٥) Kindi, 165.
(٦) Ibn Khallikan, i. 235, 260.
(١) Kindi, 184.
(٢) Kindi, 188.
(٣) Kindi, 123.
(٤) Tabari, iii, 626.
(٥) Tabari, iii, 561.
(٦) Kindi, 384.

---

(٧) According to the lists of Suyuti.
(٨) Kindi, 392.
(١) Kindi, 149.
(٢) Kindi, 185.
(٣) أو "المُدَبِّر Mudabbir" كلا النطقين ينسبان إليه.
(٤) Khitat, ed. Wiet, ii, 81, Note i.
(٥) Tabari; Aghani.
(٦) Ibn Khallikan, ii, 344.
(٧) Ibn Sa'id, Frag. 16.

وأعوانه. كما أنها بعيدة عن الاضطرابات والاضطرابات التي أحدثها القادة[٨].

إن يوسف بن إبراهيم له ضياع كثيرة باسمه في سجل مصر لعام ٢٥٠هـ[٩]، وتوفي في مصر في عهد ابن طولون[١٠]. ويذكر شقيقه إسحاق في مصر[١١]، أن يوسف ابن أحمد، مؤلف سيرة ابن طولون وأعمال أخرى، الذي توفي ما بين ٣٣٠ و ٣٤٠هـ، يبدو أنه قضى حياته في مصر[١].

وهنا يمكن ملاحظة أن "وثيمة بن الفرات"، وهو تاجر فارسي للأشياء المطرزة، الذي رحل غربًا من بلاد فارس حتى إسبانيا ويبدو أنه استقر في مصر، حيث توفي هناك عام ٢٣٥هـ، ويُصنفه ابنه "عمارة" المتوفى عام ٢٨٩هـ على أنه مصري. كان كل من وثيمة وعمارة مؤرخين لبعض الشخصيات الشهيرة[٢].

في حوالي عام ٢٤٧هـ، وجد أحد أنصار الخليفة "المنتصر بالله"، الذي فر إلى مصر متخفيًا، أن هناك الكثير من سكان بغداد في الفسطاط لدرجة أنه لم يشعر بالأمان من اكتشافه في المدينة[٣].

كان معظم أتباع ابن طولون من الأتراك، لكن القائمة تضم بعض الأفراد من الفرس أو من بلاد ما بين النهرين، مثل "الواسطي". يمكن ملاحظة المؤرخ "أحمد بن أبي يعقوب"، وهو من نسل "واضح" المذكور أعلاه، والذي يبدو أنه قد قضى السنوات الأولى من حياته في المشرق، ولكنه كان مسؤولًا عن خراج برقة عام ٢٦٥هـ[٤]. وباعتباره مؤلفًا لقصيدتين يندب ويرثي فيهما الإطاحة بالطولونيين عام ٢٩٢هـ، يتبين من ذلك أنه قضى وقتًا طويلًا في مصر، إن لم يكن قد جعل مصر موطنًا له[٥]. من خلال تعيين وزير مصري بدلًا من وزير من العراق، يتبين أن ابن طولون قد تخلى عن التقليد المتبع[٦].

كانت عائلة "المادرائيون *Mâdarâ'is*"، هي إحدى العائلات المشرقية البارزة التي استقرت في مصر في زمن الطولونيين. يعتقد السمعاني أنهم جاءوا من البصرة[٧]. يدل اسم أحد أجدادهم، "رستم *Rustam*"، على أنهم من أصل فارسي، ويشير إليهم الإسطخري على أنهم من العائلات الفارسية التي تمكنت من اكتساب مكانة عالية في العالم الرسمي، مثل عائلة "البرامكة *Barmakids*" وعائلة "سهل *Sahl*". التي ينتمي إليها "ذو الرياستين"[١]. يبدو أن الأسرة كانت في وضع متواضع في بلاد ما بين النهرين في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري[٢]. يبدو أن أحدهم "علي بن أحمد" جاء إلى مصر عام ٢٧٢هـ[٣]، وأصبح وزيرًا لـ "خمارويه" و"الجيش" من بعده، واغتيل في مصر عام ٢٨٣هـ[٤]، وقد ورد ذكر أفراد الأسرة الآخرين في التاريخ المصري في هذا الوقت تقريبًا. اثنان من الشخصيات البارزة هما أبو "زنبور *Abu Zunbur*" و"محمد بن علي"، نجل وزير خمارويه، وكلاهما؛ كانا على اتصال وثيق بالحكومة الرسمية المركزية في بغداد، وتم اقتراحهما كوزيرين للخليفة في أوقات مختلفة[٥]. تولى أبو زنبور مناصب مهمة في مصر مرتبطة بالخارج بشكلٍ عام، وتوفي عام ٣١٧هـ[٦]، وكان محمد بن علي وزيرًا لآخر العهد الطولوني من عام ٢٨٣ إلى عام ٢٩٢هـ، وبعد ذلك كان في مناصب رفيعة. وقد خلف أبو زنبور في منصب إداري على الخراج عام ٣١٨هـ، وكان الحاكم الفعلي لمصر وقت دخول الإخشيد، الذي عارضه، لكنه نال بعد ذلك حظوة لدى سلالة الإخشيد. توفي سنة ٣٤٥هـ[٧]، وقد قام أبو زنبور بتغريمه ١٠١٠٠٠٠ دينار في إحدى المرات[٨]. بلغ صافي إيرادات أملاك محمد بن علي في مصر، باستثناء ضريبة الخراج، ٤٠٠ ألف دينار[٩]. توفي آخر من ذُكر من المدرائيين وهو مصنف كمصري عام ٣٩٢هـ[١٠].

هناك عائلة مشرقية أخرى تميزت في مصر وهي عائلة ابن الفرات. في أواخر القرن الثالث كان لها نفوذ كبير في الحكومة الرسمية في بغداد. كان اثنان من أعضائها وزراء. يقال إن العائلة جاءت من النهروان بالقرب من بغداد[١١]. إذا كان الدكتور "تالفيست *Tallqvist*" محقًا في ربط "نوفل بن الفرات" بها

(٨) ElMukafa'ah, introduction, xiv.
(٩) El Mukafa'ah, 115.
(١٠) Yaqut, Irshad, ii, 159.
(١١) El Mukafa'ah, 11.
(١) Yaqut, Irshad.
(٢) Ibn Khallikan, ii, 171.
(٣) El Mukafa'ah, 36.
(٤) Ibn Sa'id, Frag. 62.
(٥) Kindi, 250, 252.
(٦) Ibn Sa'id, Frag. 16.
(٧) Fol. 499.

(١) Bib. Geog. Arab, i, 146.
(٢) Hilal, 92.
(٣) His son came to Egypt in this year at the age of 14. Khitat, ii, 155.
(٤) Ibn Sa'id, 163.
(٥) 'Arib, 73; Hilal, 347.
(٦) See Hilal and 'Arib.
(٧) Hilal; 'Arib; Ibn Said; Khitat, ii, 155.
(٨) Hilal, 45.
(٩) Khitat, ii, 155.
(١٠) Sam'ani. Fol. 499.
(١١) Hilal, 8.

(الذي كان مسؤولًا عن خراج مصر في الفترة ١٤١-١٤٣هـ)[١]، ووثيمة وابنه عمارة، المذكورين أعلاه[٢]، فإن ارتباطها بمصر امتد لفترة من الزمن، ولكن يبدو أن العلاقة لم تثبت لفترة طويلة. "الفضل بن جعفر بن الفرات"، ابن شقيق وزير "المقتدر" السيئ الحظ، كان لتحالفه بالزواج من الإخشيد، وبتحريض منه وبدعم منه، استحوذ الإخشيد على مصر. كان الفضل "مفتشًا" للشام ومصر؛ وكان في مصر لبعض الوقت في عهد الإخشيد. بعد وفاة الفضل عام ٣٢٧هـ، أصبح ابنه جعفر، المعروف باسم "ابن حنزابه"، من كبار ضباط الأسرة الإخشيدية، وكان وزيرًا عند وصول الفاطميين إلى مصر[٣].

لم يكن قضاة مصر في القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري في الغالب من العرب المصريين. قلة منهم من مواليد الشام، لكن غالبيتهم جاءوا من بغداد. تتضمن روايات مصر في القرن الثالث، حسب القوائم التي ذكرها السيوطي: ٢ من الكوفة، ٢ من البصرة، ٢ أو ٣ من بغداد، ١ من واسط، ١ من الرقة، ٣ من مرو، ١ من جرجان، ١ من الرّي. في جزء من القرن الرابع حتى عام ٣٦٠هـ، كان هناك ٢ من بغداد، ١ من واسط، ١ من مرو، ١ من الرّي، ١ من دينور، ١ من قزوين، ١ من نيسابور، ١ من نسا.

تم تضمين بعض المؤلفين المشرقيين المرتبطين بمصر في الفترة المشار إليها، باستثناء علماء الدين وكُتّاب القانون، فيما سبق. قد يكون من المفيد إعطاء قائمة كاملة عنهم. "أبو نواس" الشاعر الشهير لبلاط "الرشيد"، والذي ربما كان من أصل فارسي رغم أن اشتقاقه وتاريخه المبكر غامض، زار مصر إما عام ١٩٠ أو ١٩١هـ. و"عبد الملك بن هشام"، من مواليد البصرة، وهو صاحب السيرة النبوية المشهورة، توفي في الفسطاط عام ٢١٨هـ، ووثيمة ٢٣٥هـ، وابنه عمارة ٢٨٩هـ، الذين سبق ذكرهما، وكلاهما كان من المؤرخين. كذلك "أبو بشر الدُّولابي"، أصله من الرّي، مؤرخ، جاء إلى مصر حوالي ٢٦٠هـ[٤]، وتوفي عام ٣١٠هـ، واليعقوبي، الجغرافي والمؤرخ الذي ينتمي إلى نفس الفترة. كذلك "يموت بن المُزَرِّع" من البصرة، زار مصر مرات عديدة، وتوفي سنة ٣٠٤هـ. والمؤرخ "أحمد بن يوسف بن الداية" الذي ذُكِرَ أعلاه، يروي في كتابه "المُقَفَّى" روايتين أو ثلاث روايات رواها اليعقوبي. والمسعودي ربما يكون أعظم مؤرخ عربي في عصره، قد زار مصر أكثر من مرة وتوفي هناك عام ٣٤٥هـ، وهو من عائلة بغدادية. يبدو أن "عبد الله الفرغاني"، وهو أحد المُذَيِّلين على تاريخ الطبري، قد سكن في مصر منذ وقت ما قبل عام ٣٢٩هـ؛ حتى وفاته عام ٣٦٢هـ[١].

يمكننا تلخيص نتيجة ما سبق باختصار فيما يلي:

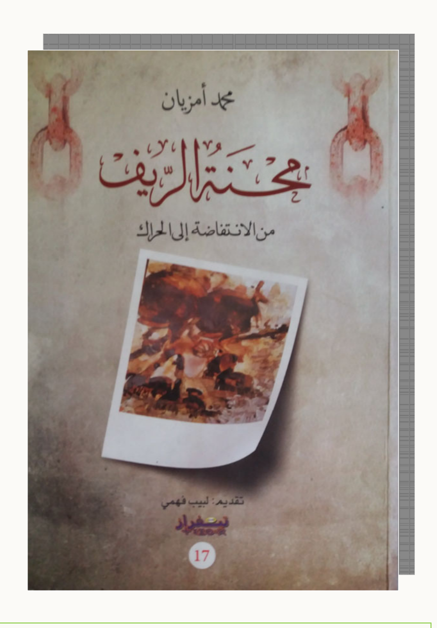
لا توجد إشارة على وجود ارتباط كبير بين بلاد فارس ومصر حتى نهاية العصر الأموي. ورغم ذلك، ظهر عدد قليل من الفرس في مصر حتى في القرن الأول للهجرة، وكان هناك بعد ذلك بعض التحركات من "العراق إلى مصر". تحت حكم العباسيين، سيطرت بلاد فارس على مصر. كان هناك احتلال عسكري فارسي افتراضي دام في الجزء الأكبر لقرن من الزمان، تلاه إدارة فارسية بشكلٍ عام قام بها كَتَبَة من العراق واستمرت لمدة طويلة تقريبًا. يمكن ملاحظة أن استغلال مصر لصالح التابعين في بلاط بغداد والمشرقيين الآخرين قد بدأ مبكرًا ويبدو أنه استمر طوال الوقت. كان هذا من شأنه أن يجلب عددًا من الفرس أو المتفرسنين ليس فقط إلى الفسطاط، ولكن إلى أجزاء من البلاد في مصر. جاء آخرون من نفس النوع إلى هناك لمناسبات أخرى، على سبيل المثال للبحث عن المعتقدات. يشتبه أحدهم في وجود تدفق منتظم للتجارة بين بغداد ومصر، على الرغم من أن المؤلفات التاريخية تذكر تاجرًا فارسيًا واحدًا فقط.

---

(١) Kindi, 108, 109; Tabari, iii, 142.
(٢) Ibn Sa'id, 93, 94.
(٣) See Ibn Sa'id; Ibn Khallikan, i, 110.
(٤) Sam'ani, fol. 233 b.

(١) Brit. Mus. MSS. Safadi, Add. 23358, fol. 20; Dahabi, or., 48, fol. 79 b.

محنة الريف
من الانتفاضة إلى الحراك



سليمان المسعودي

مرشح للدكتوراه

كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية

جامعة محمد الأول – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: محمد أمزيان

عدد الصفحات: ١٩٨ صفحة

الناشر: منشورات "تيفراز ناريف"

المطبعة: مطبعة الخليج العربي، تطوان.

الطبعة: الأولى.

سنة النشر: ٢٠١٨

مكان النشر: مكتبة الطالب -وجدة- المغرب.

الترقيم الدولي: 9789920744003

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299725 

كلمات مفتاحية:

الريف؛ المخزن؛ الذاكرة؛ الحسيمة؛ الحراك الشعبي

الريف والسلطة المركزية

محطات توتر مستمر من الانتفاضة إلى الحراك

"قليلة" هي الكتابات والدراسات التي تطرقت إلى علاقة منطقة الريف بالمخزن- منها ما وجد الطريق إلى النشر خلال العقدين الأخرين- بالدراسة والتحليل الرصين، محاولة إبراز جذور وأسباب تلك العلاقة المتوترة والمستمرة بينهما. على سبيل المثال، لا الحصر، الكتاب الأول للأستاذ مصطفى أعراب "الريف: بين القصر وجيش التحرير وحزب الاستقلال"[١]؛ الترجمة الكاملة للكتاب/ المجلد "آيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي: دراسة إثنوغرافية وتاريخية"[٢] لصاحبه الأنتروبولوجي الأمريكي دايفيد مونتغمري هارت.

ومع انطلاق احتجاجات الحراك الشعبي بالحسيمة أواخر أكتوبر ٢٠١٦ طفى من جديد على السطح نقاش هذه العلاقة المتوترة بين الريف والمركز/ المخزن؛ نقاش الذاكرة الجريحة في علاقتها مع التاريخ. وكانت مناسبة، للبحث والتقصي -مجددًا- في أسباب هذا التوتر القائم بين الريفيين والمخزن. في هذا السياق، ظهرت إلى الوجود مجموعة من الكتابات والدراسات. منها ما صدر عن مراكز أبحاث؛ وأخرى على شكل مقالات في مواقع إلكترونية وجرائد ورقية، البعض منها أعيد تجميعها وتصفيفها في شكل كتب[٣].

سنحاول عبر هذه "الورقة البحثية" "تقديم قراءة تركيبية" لأحد أهم "الأعمال البحثية" التي تندرج ضمن الدراسات والكتب[٤] التي صدرت في سياق عام

يشهد عودة هذا النقاش الخاص بالعلاقة المتوترة بين الريف والمحزن، وسياق خاص، طال فيه القمع والاعتقالات العديد من نشطاء ومحتجي "الحراك الريفي الأمازيغي" بالحسيمة.

إن الأمر يتعلق بكتاب يحمل عنوان "محنة الريف.. من الانتفاضة إلى الحراك" للصحفي والكاتب الأستاذ محمد أمزيان، وذلك عبر التطرق لأبرز المضامين والقضايا التي استأثرت اهتمامات المؤلف، وأثارت فضولنا. خاصة، وأن الكتاب عبارة عن "نصوص"؛ ظروف صياغتها يختلف من مرحلة إلى أخرى؛ رغم اتفاقها في كون الريف هو الرابط بينها. ولعل أحد أهم الاعتبارات التي كانت وراء "تفضيل" هذا الكتاب عن غيره من الإصدارات الأخرى للدراسة، - ليس تنقيصًا من قيمتها العلمية والمنهجية- إنما الأمر يتعلق بكاتب[٥] نال نصيبه من ضريبة التوتر القائم بين الريف والسلطة المركزية/ المخزن، ومن محنة الإقامة الجبرية التي خضعت له عائلته من داخل ثكنة عسكرية بمدينة الحسيمة بعد إخماد انتفاضة الريف ١٩٥٨-١٩٥٩.

أيضًا، فإن قيمة وأهمية إصدار "أمزيان" تكمن في أن أغلب مضامينه كتبت خلال فترة الحراك، مما شكل - كما يقول الأستاذ لبيب فهمي- "في كل مرة نقطة نظام.. فلم يكن مرتاحا-أي أمزيان- لمستقبل الحراك، لأنه ربما لم يفقد بوصلة فهم طبيعة المخزن. فتعامل السلطات المغربية مع أي تحرك اجتماعي يعتمد على موازين القوى الداخلية والخارجية.."[٦]

لكل ذلك، وأخذا بعين الاعتبار أن "المؤلف" لم يكن مرتاحا للمستقبل- مستقبل الحراك- فإن مساهمتنا هاته، ستحاول كلما استدعت الضرورة المنهجية؛ استبدال صيغة الماضي بالحاضر منها إلى المستقبل، وبالاعتماد على تسلسل "الأفكار" وترابطها "دون أخذ أي "اعتبار" لتاريخ كتابة نصوص الكتاب، مع "تطعيمها" بمراجع ذات صلة بالموضوع. وكلنا أمل في أن تجد من يستخلص الدروس منها ومن هذا الماضي الأليم. حتى لا يكرره المعنيين به، ولتكون هذه "الدروس" - بمثابة "مدخل" و"أرضية"، من أجل البحث عن "مدخلات" و"ممكنات" المصالحة مع المنطقة. دروس؛ لتفويت الفرصة-مستقبلاً- على من يتربص بهذه المنطقة غير ما مرة، ويرميها بـ "تهم" جاهزة، لتبرير أي تدخل واعتقال في حق من يردد كفى من التهميش والإقصاء؛ كفى من الحكرة..!.

قراءة في غلاف الكتاب

الكتاب صدر في طبعته الأولى ٢٠١٨ عن منشورات "تيفرازنّاريف" العدد ١٧، مطبعة الخليج العربي تطوان، من تقديم الأستاذ الصحفي "لبيب فهمي"، أما الإخراج الفني والتصميم فيعود للأستاذ جمال أمزيان.

أول ما يصادفنا عند تناول الكتاب؛ توسط عنوانه الرئيس "محنة الريف" وعنوانه الفرعي "من الانتفاضة إلى الحراك، سلاسل حديدية على جانبي الغلاف.. إضافة، إلى تلك اللوحة التشكيلية التي تتوسط الغلاف، أسفل العنوان؛ غلاف ولوحة تشكيلية، أعتقد، أنها جد معبرة؛ قد تختلف التأويلات بشأنها؛ لكن جلنا سيجمع وسيتفق على أنها تختصر "كل شيء": محنة الريف؛ تهميش الريف؛ قمع الريف، دماء سقطت من أجل هذا الريف ما تزال تنتظر من ينصفها؛ دماء من لونها الداكن المتخثر قديمة تلخص قصة العلاقة المتوترة والمستمرة بين المخزن والريفيين؛ أو قل القمع والقتل الذي تعرض له الريفيون، من مجزرة بوشتى البغدادي أواخر القرن ١٩ التي استهدفت قبيلة بقيوة، إلى أحداث انتفاضة ١٩٥٨-١٩٥٩ مرورا بنكبات ربما أقل حدة من السابق ١٩٨٤، ١٩٨٧، ٢٠١١، ١٩٨٤. وصولاً إلى القمع والاعتقال الذي طال مجددا، بشكل قوي أهل الريف في إطار الحراك الشعبي بالحسيمة، فعادت بهم الذاكرة إلى أحداث ٥٨-٥٩، وأستيقظ ذاك الجرح الغائر الذي كان ينتظر فرصة للاندمال!

"لوحة تشكيلية" من إنجاز الأستاذ محمد أبطوي أحد أعضاء فرقة تيدرين الموسيقية[٧] تلخص محنة الريف أو بالتحديد، عندما نلمح تلك الكتابة الصغيرة بالحرف اللاتيني في إحدى جوانب اللوحة 'ARIF NALHOCIMA'أريف ن الحسيمة". ربما تأكيد من الفنان أن هذه المنطقة "أكثر" محنة واصطداما مع المخزن. أيضا، وفي جوانب أخرى أدخنة تنبعث، إحالة إلى القنابل المختلفة التي استخدمت في هذه المنطقة على مر التاريخ، من القصف الكيماوي، بالغازات الخانقة زمن الاحتلال الاسباني، وصولا إلى "القنابل المسيلة للدموع" التي استعملت خلال احتجاجات الحراك الريفي، وبشكل مكثف في مسيرة ٢٠ يوليوز ٢٠١٧ بالحسيمة.

بالجانب الآخر من " اللوحة التشكيلية" تتراءى لنا لدا ممسكة بعمود حديدي إشارة إلى الاعتقال والسجن الذي طال العديد من المواطنين. إضافة إلى بروز تلك القبضة المعروفة خلال الحراك لدى المعتقل "محمد جلول" أكثر من رفاقه. "قبضة جلول"؛ قبضة تعبر عن صمود الريفيين في وجه "الغطرسة والآلة المخزنية"؛

عرض كتـــاب

تلك القبضة المنبعثة من وسط الجثث والدماء ذات اللون الداكن التي تملأ اللوحة بنسب كبيرة، وكبصيص أمل في بحر من الدماء، ورمز ثبات حتى التحرر والانعتاق من هذه المحنة المستمرة والمتواصلة.

قراءة في صفحات " محنة الريف"

الكتاب الذي يتضمن ١٩٨ صفحة، موزعة بين التقديم، ومقدمة المؤلف، وأربعة فصول، قد يكون مؤلفه استقى عنوانه من دراسة صدرت عن مركز ابن خلدون بواشنطن شتنبر/أيلول ٢٠١٢ باللغة الإنجليزية، تحت عنوان: " The plight of the Rif: Morocco's restive northern periphery"[٨] "محنة الريف.. منطقة مضطربة بشمال المغرب". ومهما تعددت العناوين وتشابهت؛ فالقاسم المشرك بينهما البحث والتقصي في أسباب "محنة الريف" عن طريق فهم تلك العلاقة المتوترة والمتأزمة بين الريفيين والمخزن.

في تقديم الصحفي لبيب فهمي "حراك الريف.. في الحاجة إلى رؤية براغماتية" عد الكتاب توثيقا لمرحلة مهمة من تاريخ المغرب بدء بانتفاضة ٥٩/٥٨، وصولا إلى الحراك ومرورا عبر ملفات أخرى كالأمازيغية وغيرها[٩] . واعتبر صدوره فرصة للتذكير بمحنة الريف الفعلية: غياب رؤية براغماتية تعتمد العقلانية لتنقذ الريف والوطن. فالريف في حاجة إلى تنمية اقتصادية وثقافية تمنحه الثقة في المستقبل؛ مستقبل يقبل بمواطنين أذكياء يطالبون بحقوقهم عبر الوسائل السلمية والحوار.[١٠]

مقدمة المؤلف، توجهت مباشرة إلى القارئ للتأكيد على أن هذا الكتاب عبارة "عن جهد متواضع عن الريف الذي يمر اليوم بمحنة حقيقية. فهو لا يقدم تاريخا مضى أو تأريخا للحظة يائسة من الزمن الريفي القاسي والحزين، ولكنه يقاسم القارئ بعض انطباعاته وآرائه التي كتبت في ظروف تختلف في الزمان والمكان.. وتتشابه من حيث الملابسات والحيثيات.."،[١١] والتذكير مرة ثانية على أن الكتاب عبارة عن مقالات لا رابط بينها سوى الريف في جغرافيته وتاريخيه وثقافته ومحنه.[١٢]

"سوء الفهم" و"جراح" لا تريد أن تندمل!

كتاب الأستاذ "محمد أمزيان" يفتح أمامنا عدة منافذ لفهم بعض جوانب هذه العلاقة المتأزمة بين الطرفين، كما يعيد إلى الواجهة بعض المحطات التي ينقصها الكثير من البحث والتدقيق، خاصة مرحلة أحداث الريف ١٩٠٨-١٩٠٩. وهو ما تعزز بتضمينه مقطعا من مذكرات والده قائد انتفاضة ٥٨-٥٩ محمد سلام أمزيان، الذي جاء تحت عنوان: "نحن وإياكم على طرفي نقيض"[١٣]. حيث "يمكن اعتباره مساهمة لتوضيح أسباب "سوء الفهم" الكبير بين الريف والمركز، وكيف تعامل هذا الأخير مع مطالب الريفيين أواخر الخمسينات من القرن الماضي."[١٤]

هذا الكتاب، وعلى الرغم من كون محتواه، جله كتب خلال فترة الحراك الذي انطلق عقب استشهاد الشاب محسن فكري أواخر أكتوبر ٢٠١٦ بمدينة الحسيمة. إلا أن الكاتب كان ذكيا عندما التجأ إلى استعادة بعض مما كتب خلال مراحل "متقطعة" من التاريخ. تجسد ذلك في "التقسيم" الذي سار عليه، والتصنيف الذي خص به مقالاته، حسب كل مرحلة - قضايا تطرق إليها الكاتب؛ من"جرح الانتفاضة" مرورًا بـ "جرح الثقافة والهوية"، وصولاً إلى "جرح الحراك"، هذا المحور طعمه بحوار مطول مع المعتقل السياسي "ناصر الزفزافي "باعتباره واحد من بين الآخرين المتواجدين بالحراك، لا قائدا أو زعيما للحراك[١٥].

الملاحظ، أن تكرار عبارة "جرح" في عناوين فصول الكتاب، هي محاولة تأكيد لفكرة تسيطر على شعور الكاتب، مفادها أن هذا الجرح أعمق بكثير مما يمكن تصوره، وصرخة ضمنية إلى الجميع للمساهمة في "علاج" هذا الجرح الغائر، و"تجاوز" ذاك المرض المزمن المسمى "سوء الفهم".

جرح لم يندمل بعد؛ جرح "مزمن" مستمر في النزيف؛ يتسع ويكبر وراء كل "حدث- صدام" بين الريفيين والمخزن؛ ألم يحن وقت اندماله وشفاءه؟ أم أنه سيظل ما ظل الشك والريبة بينهما قائما، أو كما يسميه الكاتب بـ"سوء الفهم" القائم بين الريف والمركز.

فـ "قد يكون المخزن الجديد أبدى بعض المرونة تجاه منطقة الريف، لكن عقودا من الشك والريبة بين الطرفين ما تزال تعرقل انطلاق مصالحة تاريخية تقوم على الثقة المتبادلة والمواطنة الحقيقية"[١٦]، لكن، يتساءل الكاتب في موضع آخر: كيف تدهورت ثقة الريفيين في السلطة "الجديدة" بهذه السرعة بعدما "رممت" الزيارات الملكية المتتالية بعض الثقة في ثقب الجدار العازل بين الريف والمركز/ المخزن؟[١٧] سؤال طرحه الكاتب بمناسبة أحداث "بوكيدان" بإقليم الحسيمة سنة ٢٠١٠.

السؤال يطرح من جديد، بحدة أكبر. كيف لنا بتجاوز هذا المرض المزمن المسمى بسوء الفهم؟ وأي خطاب مصالحة ننتظر؟ فما كان يُحكى وأصبح متواترا؛ موشوما في ذاكرتنا الجماعية، نعيشه في حاضرنا؛

فما أشبه الليلة بالبارحة كما يقال. أو كما عبرت إحدى اللافتات التي رفعت بالحسيمة في احتجاجات الحراك الشعبي "جراحتنا لم تندمل بعد.. وأنتم مازلتم تقتلون فينا"؟؟

في الفيلم الوثائقي "كسر جدار الصمت" للمخرج طارق الإدريسي (٢٠١٤)، الذي تناول إحدى الفترات المؤلمة في تاريخ المغرب المعاصر، فترة الانتفاضة التي جرت بالريف في خريف ١٩٠٩-١٩٥٨، سئل الضحايا الذين وافقوا على تقديم شهاداتهم في هذا الشريط:

"هل تصفحون؟ رفضوا. هذا يعني أن الجرح ما يزال طريا، والدم ينزف سيالا. لا أرى السؤال سؤالا بقدر ما أراه استفزازا. عمن يكون الصفح؟ فوجه الجلاد ما يزال ضبابيا، يمشي بيننا، يخطف، يغتصب، ينفي. الضحايا ما يزالون يتساقطون كأوراق ذلك الخريف، في تلك المنطقة النائية من الريف.. قبل أكثر من خمسين سنة.[١٨]"

إن ذاكرة المنطقة، ذاكرة قوية، وتنتعش في كل مرة، فهناك إصرار من جيل إلى جيل على تذكر ما عانه الأجداد؛ وإصرار على واجب حفظ الذاكرة من النسيان والتزييف. كل هذا يقوي تلك الهوة بين الطرفين، حتى وإن خدع الكثير بشعار "المصالحة مع الريف" أو ما سمي بـ "ترميم" بعض من الجراحات، فهي لم تكن سوى "تصالح النظام مع بعض الأشخاص فقط وليس مع المنطقة ككل[١٩]". إذ "تولدتْ لدى ساكنة الريف قناعة أن الدولة بتنصيبها خُدَّام جُدد أو وُسطاء بينها وبين الريف فهي لمْ تتصالح مع الريف وإنمّا مع من تعتقد أنّه يمُثّل الريف. هذه القناعة، حتّى وإنْ لم تكنْ صحيحة وسليمة، أدّت هي الأخرى إلى عودة ثقافة الرّفض والمُمانَعَة التي سادتْ منذ انتفاضة ١٩٥٨[٢٠]".

زيف المصالحة مع الريف؛ "يؤكده" المؤلف، خاصة، عندما قاده الأمر إلى استحضار نصين، فترة كتابتهما تعود إلى زمن إنشاء هيئة "الإنصاف والمصالحة". الأول يحمل عنوان: "في جدلية العلاقة بين المركز والهامش.. انتفاضة الريف نموذجًا (١٩٥٨-١٩٥٩)" كتب في شهر سبتمبر ٢٠٠٣[٢١]. في حين جاء النص الثاني تحت عنوان "حول المصالحة ودفن الماضي"، وهو في الأصل حسب ما أشار إليه المؤلف، كان مساهمة منه في إطار التحضير لمبادرة "الإنصاف والمصالحة"، عندما حل وفد الحقوقيين المغاربة بمدينة أمستردام الهولندية يوم الجمعة ٨ أكتوبر٢٠٠٤. كأن المؤلف يود القول إن لا شيء تحقق من مبادرة "الإنصاف والمصالحة المغربية"، لذلك فاستحضار النصين يعني راهنيتهما، رغم كل ما يحتاجانه من "تعديل" و"تطعيم" وفق المستجدات التي حصلت، وكل ما تستوجبه المرحلة الآنية.

إن الأمور تزداد يومًا بعد يوم سوءًا؛ "سوء الفهم" يتسع ويكبر؛ تعامل المخزن مع المنطقة لا يريد أن يتغير، و"آلة القمع تتشابه حتى في التفاصيل".[٢٢] فالإقصاء (الحكرة) ما يزال كما كان وكأنه قدر مقدور، والدولة المركزية (المخزن) لم تتخل عن المعالجة الأمنية المصبوغة بالعنف والانتقام، وكأنها أيضا قدر مقدور. هذه المعالجة عمقت هوة عدم الثقة بين الريف والمركز حتى وصلت إلى مستوى خطير جدا".[٢٣] و"المركز مع الأسف لا ينظر للريف إلا على أساس أنه خصم؛[٢٤] هو الفيصل والحكم دائمًا. وعلى هذا الأساس لم يدخل المركز منهج الحوار وحكمته في الحساب، ولم يفكر في الاستماع الذي يؤدي حتما إلى إيجاد بدائل حضارية في التدافع، ترتقي بمستوى العلاقة بين الطرفين من حالة الحيوانية إلى عقد اجتماعي متوافق عليه"[٢٥].

أمام هذا، فمنطقة الريف، وبشكل أصح واضح وأدق؛ منطقة الحسيمة؛ قابلة للانفجار في أية لحظة، فهي أشبه –أو هي كذلك- في وضعية الحليب الموضوع على نار ساخنة، ولا أحد يعرف أو يتوقع متى سيفيض، وما سيحدث بعد ذلك؟؟ فـ"الحسيمة تتنفس الموت، تختنق، تصرخ في صمت رهيب"[٢٦]. وكما يقول الكاتب في معرض حديثه عن المرحلة الآنية: " الآن.. وقد وقع ما وقع، ما زلت مؤمنا بوجود "مخرج" للأزمة التي تعيشها منطقة الريف منذ عقود، وما هذا "الحراك" إلا وجها من أوجه هذه الأزمة، وما زلت مؤمنا كذلك بأن الصيغة التي اختارتها الدولة لإسكات المحتجين، صيغة غير فعالة على المديين المتوسط والبعيد، وهي فوق كل هذا، ضد سنة التاريخ ودينامية المجتمع المغربي ككل. "المسألة الريفية" أكبر بكثير من هذا الحراك بكثير وأوسع من أن تلجمها المقاربة الراهنة للدولة. المسألة الريفية لها جذور عميقة تمتد إلى تاريخ العلاقة بين الريف والمركز؛ وهو تاريخ أزمة مرض مزمن يسمى" سوء الفهم"، أنتج علاقة مرتبكة قائمة أساسًا على شعور متبادل بعدم الثقة. والتحدي الأكبر للجميع اليوم، هو البحث في سبل ترميم الثقة الغائبة وبعثها من الرماد. فإذا لم يتم التعامل مع المسألة الريفية بهذا البعد (التاريخي) والبحث عن آليات استعادة الثقة وعدم الاستهانة بالأيدي الممدودة للمستقبل، بعيدا عن منطق العقاب

والثواب، فلن تكون هناك، في تقديري، مصالحة قابلة للحياة".[٢٧]

قد يكون الكاتب في اعتقادي توفق في استحضار بعض من أسباب نشوء واستمرار التوتر و"سوء الفهم" بين الريف والمركز؛ إلا أنه لم يتوفق في شرح مقصوده من العبارة التي ذكرت أربع مرات في هذا الكتاب: "المسألة الريفية". فهل "المسألة" الريفية كانت في سبات عميق أو ميتة، وعندما "انطلق الحراك أعاد الحياة إليها"[٢٨] أهي "مسألة" أم "قضية"؟ خاصة وأن الأمر يتعلق بخلاف سياسي ذي جذور عميقة في تاريخ العلاقة بين الطرفين، كما يؤكد الكاتب ذلك أيضا. هل للريف قضية؟ أم أن الريف قضية في حد ذاته؟ أم أننا أمام أمر أشبه ما يكون بـ"المعضلة"، فربما كان الطرفان-الريف والمركز/ المخزن-خطان مستقيمان لا يلتقيان؟؟ وبالمناسبة؛ عن أي ريف نتحدث؟

المؤلف لم "يحدد" لنا الريف الذي يتحدث عنه، ربما لم يرد الخوض في ذاك النقاش الخاص بالريف وحدوده وأي ريف يقصد؟ أو لأن طبيعة الكتاب لم تسمح لذلك. فترك كمفهوم "غامض". فليفهم كل على مقاسه المراد به. قد نستشف ذلك، عندما توقف المؤلف للتعريف بالقائد محمد الحاج سلام أمزيان، فقدمه قائدا لانتفاضة الريف الأوسط[٢٩] (منطقة الحسيمة). وفي موضع أخر، يعتبره قائدًا للريف[٣٠]. وتارة الريف "يقترب" ليكون مرادفًا لـ "الحسيمة"[٣١].

وهذا، لا يمنعنا من الاعتراف أن المؤلف في موضع أخر، قد انتقد هذا الأمر. وبدوره أفصح عن "ريفه" باعتباره: "ذلكم العش الجغرافي المعزول بين شمال المغرب وجنوب إسبانيا، والذي تتخاصم حول هويته وطبيعته تلك "النخبة" الريفية بين من يريده ريفا "كبيرا" ومن يناضل ليكون ريفا "تاريخيا"- دون إغفال من يعمل جاهدًا لجعله ريفا لـ"الكفاءات" وكفى."[٣٢] ريف الكفاءات ربما المقصود هنا، تلك "التجربة" التي سبق أن "أطلقها" "الذراع" الجمعوي "لحزب" "الأصالة والمعاصرة"، جمعية الريف للتنمية والتضامن، بتأسيسها ما سمي آنذاك منتدى "الكفاءات الريفية" بالرباط.

إن الضرورة المنهجية، تستوجب من الباحثين ومختلف المهتمين، تحديد مفهوم الريف، عند صياغة أبحاثهم ومشاريعهم المختلفة. وبتعبير الأستاذ "إلياس بلكا" "على الريف أن يكون عقلانيا وأن يفكر بمصلحته.. والأهم هو أن يعرف حدوده"[٣٣]. في هذا المضمار، تحضرني، دراسة الأنتروبولوجي الأمريكي "دافيد هارت" حول "قبيلة آيت ورياغر بالريف" الذي كان دقيقا في تسمية الأمور بمسمياتها ودلالتها في معرض دراسته المذكورة. يقول هارت: " نعني بالريفيين في هذا المؤلف، السكان الناطقين باللغة الريفية فقط المتواجدين بالقسم الشرقي الممتد حوالي ٢٠٠ كلم طولا من طنجة إلى مليلية، و١٠٠ كلم تقريبا، عرضا من الحسيمة والبحر الأبيض المتوسط شمالا، إلى أكنول جنوبًا"[٣٤].

فما المانع الذي يجعلنا "نتهرب" من تحديد مفاهيمنا بشكل واضح ودقيق[٣٥]؟ فعبارة الريف ذات حمولات عدة تتغير من مرحلة إلى أخرى، فريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ليس هو ريف ما بعد القضاء على الجمهورية الريفية، عندما قسمت "السلطات الإسبانية" المنطقة إلى خمس مقاطعات؛ مقاطعة الريف و"عاصمتها" الحسيمة؛ مقاطعة كرط و"عاصمتها" الناظور؛ مقاطعة غمارة و"عاصمتها الشاون..[٣٦] والريف الذي تعرض للقصف بالأسلحة الكيماوية يختلف تمامًا عنما قد يعتقد "البعض" من أبناء الريف أو حتى المهتمين أيضا. هناك من يعتقد أن الريف هو حيث تستعمل اللغة "الأمازيغية الريفية بشتى تعبيراتها"، ويختصر ذلك في أقاليم الحسيمة، الدريوش والناظور؛ في حين أن العديد من مستعملي هذه "المنطوقات الريفية" يتواجدون أيضًا بأقاليم كرسيف، تازة، وبركان.. إن هذا "الغموض" و"التعويم" قاد البعض إلى الحديث عن ظهير "عسكرة الريف"، في حين أن الأمر يتعلق بالظهير رقم١,٥٨,٣٨١ المنشور في الجريدة الرسمية من خلاله يعتبر إقليم الحسيمة منطقة عسكرية. وليس الريف كله.. والأمثلة متعددة بهذا الصدد.

فالحق يقال؛ هناك تباين[٣٧] بين مناطق – أقاليم الريف سواء بمفهومه "الحصري" أو "الواسع"، تباين على عدة مستويات: الاقتصادية والاجتماعية منها، بل وحتى على مستوى الذاكرة الجماعية، إذ إن بالريف ذاكرة جمعية مشتركة -بتعبير السوسيولوجي الفرنسي موريس هالبواكس- ولكل منطقة منه ذاكرة جماعية.

"الانفصال" من الانتفاضة إلى الحراك: "تهمة" أزلية

الانفصال؛ التمرد[٣٨].. "تهم" جاهزة؛ ليست وليدة اليوم، خاصة مع بيان "أحزاب "الأغلبية" المشكلة للحكومة في ماي ٢٠١٧[٣٩]، أو كما سماه الكاتب" بيان أحزاب الفتنة"[٤٠]. "هذه الاتهامات وغيرها كثير، تشبه إلى درجة الاستنساخ تلك التهم التي سبق وألصقت

بالمقاومة المشهودة للريفيين بزعامة الأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي خلال مواجهة الغزو الاستعماري مع بداية العشرينات من القرن الماضي[٤١]. فقد "اتهم بأنه "روكي"؛ أي خارج عن السلطة المركزية، علماً بأن السلطة المركزية لم يكن لها وجود فعلي آنذاك بسبب واقع الحماية. وعندما بدأ الخطابي يؤسس لمشروع سياسي حداثي بديل عن مشروع الحماية، أُلصقت إليه تهمة "الفتنة" الانفصالية وسُلطت عليه الزوايا وشيوخ الطرق الدينية للقيام بمهمة تشويه أهداف مشروعه السياسي وحربه التحريرية[٤٢].

عندما انتفض الريفيون في نهاية الخمسينات لأسباب اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، وثقافية. اتُّهم الريفيون مجددا بـ"الانفصال وبالتخابر مع الأجنبي: عبد الناصر، أمريكا، الاتحاد السوفيتي!! خليط عجيب لا يمكن جمعه، ومع ذلك تم استخدامه للتغطية على المسببات الحقيقية للانتفاضة".[٤٣]

وهذه شهادة من قائد انتفاضة ١٩٥٨/١٩٥٩ يقول فيها: "لقد بذلنا ما في استطاعتنا من وسائل الإقناع مع هؤلاء المنحرفين، فاستهانوا بنا وتنكروا لحقوقنا وتلاعبوا بمطالبنا، لأنهم آمنوا بأنفسهم أسيادا في هذا الوطن ونحن عبيد مسخرون. دعوناهم إلى بحث الأزمة بالطرق السلمية فرفضوا. بل اتهمونا بالخيانة والعمالة للاستعمار. قدمنا إليهم مطالب الشعب لدراستها وتنفيذها فرفضوا. بل نشروا ضدنا افتراءات وأضاليل"[٤٤].

ومع احتجاجات الحراك الريفي، أُخرجت من جديد، تلك الورقة المعتادة "التهمة" الأزلية، الانفصال، بعد تمهيد ساهمت في الترويج لها منابر إعلامية عدة، منذ أول المسيرات الاحتجاجية التي شهدتها الحسيمة بعد مقتل محسن فكري. ولم تكن سوى "مسألة وقت" للانتقال إلى إشهار "التهمة" بشكل رسمي، لا أن تبقى حبيسة تلك المنابر الإعلامية الورقية والإلكترونية منها.

إن الطريقة التي كانت الدولة المركزية بدأت تتعامل بها مع الحراك، منذ التدخل في حق النشطاء بـ "ساحة الشهداء" بمدينة الحسيمة بتاريخ ٥ يناير٢٠١٧، مرورا بتطويق كل الشوارع المؤدية إلى ساحة "كلابونيتا" بمدخل مدينة الحسيمة يوم ٥ فبراير ٢٠١٧، للحيلولة دون تخليد ذكرى " الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي". والعنف الذي مورس خلالها في حق العديد من أبناء الريف. وصولا إلى بيان "الأغلبية الحكومية". كل ذلك، كان يروم إلى شيئين: "أولا: إثبات تهمة "الانفصال" في الريف لتبرير التدخل العسكري الذي يوشك أن يحدث بحجة الحفاظ على الأمن والثوابت، كما جاء في مضمون بيان أحزاب الفتنة. وثانيا خلق فوضى عامة في الريف لإعادة خلط الأوراق والمراهنة على "صعقة" التدخل العسكري السريع لتشتيت الإجماع شبه الكامل على مطالب المنتفضين، وإنهاك المواطنين الريفيين بالتنكيل والقمع والنفي، في أفق استنبات "مواطنين" جدد من داخل الريف يرضون بإملاءات المركز، ويسوقون لسياساتها العقيمة منذ ستين سنة من الاستقلال"[٤٥].

لم تمض سوى أيام، حتى حدث ما توقعه واستشعره الكاتب "أمزيان": "التدخل العسكري"؛ اقتحام منزل "ناصر الزفزافي" من طرف مختلف "الأجهزة والقوات العمومية"، حالة استثناء غير معلنة؛ أو ربما سريان مقتضبات "الظهير العسكري"؛ إنزال كبير وانتشار مكثف لـ"القوات العمومية" بمختلف تلاوينها بكل أرجاء إقليم الحسيمة، وبشكل أكبر بشوارع وأحياء مدن الحسيمة، إمزورن وآيت بوعياش. وقع التدخل العنيف؛ "رغم أن شباب الحراك عبروا مرارا وتكرار عن أنهم ليسوا انفصاليين ولا يفكرون في خرافة الانفصال، وأنهم يدافعون عن حقوقهم التي يراها الجميع، وحتى من داخل الحكومة، حقوقا مشروعة وعادلة ومع ذلك تأخذ "المركزيين" العزة بالإثم، جارين البلاد بتعنتهم وكبريائهم إلى الكارثة"[٤٦]. ورغم أن هؤلاء الشباب نظموا مسيرة جابت شوارع الحسيمة تحت شعار "لسنا انفصاليين"، شارك فيها أزيد من ٢٠٠ ألف متظاهر ومتظاهرة. فقد وقع "التدخل العسكري المتوقع".

لنعد إلى التاريخ مع الأنثروبولوجي الأمريكي دافيد هارت؛ لنعد إلى أحداث ١٩٥٨-١٩٥٩، سنجد نفس "التهم" الجاهزة رُمي بها المنتفضون الريفيون؛ نفس النفي لتلك التهم كما جاء ذكر ذلك على لسان قائد الانتفاضة محمد سلام أمزيان؛ نفس المنطقة الريفية؛ نفس التعامل والتدخل وإن كان بحدة أكبر خلال ١٩٥٨-١٩٥٩.

يقول هارت الذي عاصر تلك المرحلة: ".. ورغم تأكيد ممثلي الورياغليين الناطقين باسمهم غير ما مرة أن خلافهم موجه بالأساس ضد حزب الاستقلال، وليس الجيش الملكي، وأن لا وجود قطعا لأي نزاع مع الملك، الذين يؤكدون ولاءهم الثابت له، ويعتقدون بأن حزب الاستقلال هو الذي يسعى إلى إضعاف الملكية والحط من قيمتها، رغم ذلك، فقد أرسل الجيش إلى المنطقة لمعاقبة المنتفضين"[٤٧].

من جديد، يتكرر "السيناريو الآن، وها هي قرون العنف أطلت بلا رحمة. فما الذي منع الاستماع-مجرد استماع- لمطالب المحتجين؟ إشعال النار أهون بكثير من إطفائها، فلماذا هذا التعنت الأعمى؟"[٤٨]. ها هي المنطقة تعيش على وقع جرح وحزن كبيرين، ينضافان إلى وشومات الذاكرة الجريحة أصلا. ها هو المخزن يكرر أخطاءه؛ الأخطاء السياسية التي راكمها ومن يمثله تجاه المنطقة، أدت إلى ميلاد جيل جديد من الريفيين يفكر جديًا في إعادة تقييم علاقة الريف بالمركز"[٤٩]. وها هي النتيجة "الهوة بين الريف والمركز تتسع، وشباب الغد لن يكون صبورًا مثل شباب اليوم أو شباب الأمس"[٥٠].

ها هو التاريخ يكرر سوداويته في تلك البقعة الجغرافية العصية عن الفهم. أهي صدفة لعنة تاريخ، يريد أن "يتكرر"؟ أم أن الريفيون "ماضون" في تكرار تاريخهم؟ متى سيستخلص الريفيون الدروس من هذا الماضي؛ أي لعنة تاريخ تلاحق أهل الريف؟ لتلازم المنطقة كل هذه المآسي والمحن؟

الانفصاليون؛ المتمردون؛ "الخونة".. وهلم جرا من التهم الجاهزة. و"أمام وجود من يتمسك "بمقولة "الانفصال" الذي "يتميز" به الريفيون عن باقي الخلق، وكأنها "حقيقة" أزلية ثابتة لا تتغير!"[٥١] هل أهل الريف ملزمين دائمًا بـ"إبراء الذمة" من هكذا تهم؟؟ فربما كان ذلك -عن غير وعي- بمثابة إقرار بالتهمة، التي أصلاً تتنافى مع المواثيق والاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان، خاصةً العهدين. وستظل تشوش على أي تحرك للريفيين، مهما كان هذا التحرك واضحا وبريئا. لماذا إبراء الذمة من هذه التهمة؟ مادام "إن سياسات المركز – هي من- تدفع في اتجاه انفصال الهوامش"[٥٢]؛ وما دام القمع سيستهدفك، والاعتقال سيلاحقك في كل الأحوال؟ فمتى يحين الأوان كي نتحرر من عقدة "الانفصال" التي تشهر في وجه ساكنة الريف كلما عبروا عن مطالبهم المشروعة في الشغل والتعليم والصحة والقضاء وغيرها.[٥٣]

حقيقة، وكما يقول الكاتب "إن الانفصاليين الحقيقيين ينبغي البحث عنهم خارج الريف؛ إنهم أولئك الذين زوروا التاريخ وروجوا لأسطورة التمرد. هم أولئك الذين هجروا آلاف الريفيين من مساكنهم ونهبوا عائداتهم.. ولم ينشئوا لهم ولو جسرا واحدا يربطهم بباقي الوطن"[٥٤].

إنهم أولئك الذين حرموا أبناء وحفدة المجاهدين من حقهم في استعادة أراضي أجدادهم التي امتزجت بالدماء والمعاناة والتشرد والمنافي، بموجب ظهائر العار[٥٥]؛ أولئك الذين قاموا بتبخيس وتهميش الجنود والمقاومين الحقيقيين الذين تجهلهم المندوبية السامية للمقاومة وجيش التحرير، وتجهلهم الجامعات والمدارس.. "عدنبي ن السوق"[٥٦] هو مثال لعشرات هؤلاء الجنود المجهولين على امتداد مساحة الوطن. لا أحد يعرف شيئا عن تاريخهم، ولا هم طالبوا بحقهم في الاعتراف بهم. تواروا إلى الخلف بعد الاستقلال تاركين الساحة للمدعين والمقاومين المزيفين. فلائحة الآلاف من الذين حصلوا على بطاقة "مقاوم" بعد الاستقلال، تحتاج لغربلة حقيقية. لأن المقاومين الحقيقيين لم يفعلوا ذلك من أجل الحصول على بطاقة باهتة، لا ذكر لها في صحائف الذاكرة الجماعية.[٥٧]

على سبيل الختم

بعد أن "تنقل" و"سافر" بنا المؤلف بين الجروح الثلاث - جرح الانتفاضة؛ الثقافة والهوية؛ الحراك - وهي جروح مستمرة في الحاضر، قام بإدراج الحوار الصحفي الذي أجراه رفقة الصحفي لبيب فهمي مع ناصر الزفزافي، الذي يقول عنه الكاتب – الحوار- يأتي بهدف التوثيق أولا، ولأنه - في تقديره- أول حوار شامل إلى حدود ذلك الوقت[٥٨] (شهر مارس٢٠١٧).

بعدئذ، ختم كتابه برسالة[٥٩] يقول عنها: "وجهتها لجيل المستقبل في صيغة خطاب لابني؛ وهي نظرة في مرآة الذات، ودعوة مفتوحة للجيل القادم لأن يزن تاريخه السياسي والاجتماعي بميزان العقل الناقد، لعله يخفف من وزر الماضي الذي يشل القدرة على مواكبة مستجدات الحاضر، ويبطئ الخطى نحو المستقبل الذي نبتغيه.. منفتحا ومتسامحا ورحيما"[٦٠].

وعلى كل حال، فالحق يقال؛ يجب أن ننوه بهذا العمل "التوثيقي"، الذي مهما حاولنا أن نقرب محتواه، فإن ذلك لا يغني عن العودة إليه، للاطلاع على بعض الأمور التي لم تسع محاولتنا هذه التطرق إليها. خاصة، وأن "قيمة" و"أهمية" نصوص "أمزيان" طيلة فترة نشرها خلال الحراك، شكلت - كما يقول الأستاذ لبيب فهمي-"في كل مرة نقطة نظام.. فلم يكن مرتاحا لمستقبل الحراك، لأنه ربما لم يفقد بوصلة فهم طبيعة المخزن. فتعامل السلطات المغربية مع أي تحرك اجتماعي يعتمد على موازين القوى الداخلية والخارجية.."[٦١].

لذلك نجد الكاتب كأحد أبناء المنطقة؛ وبعد أن وقع ما وقع، قد أحس بـ"تأنيب ضمير"، وتأسف لما آلت إليه الأوضاع. يقول أمزيان: "من جهتي قمت بما يمليه

على ضميري، فنشرت مقالات –قد تكون ذاتية وانطباعية-.. حاولت فيها قدر المستطاع مخاطبة الجهتين، والتحذير من مخاطر الانزلاقات"[١٢]. فالكاتب طالما حاول إشعارنا بتوخي الحذر حتى لا تصل الأمور إلى ما لا تحمد عقباه.

لكن، الكل شهد على جواب الدولة القاسي؛ فـ"الأمور ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه لو توسعنا قليلا في تلمس معالم الخط "الثالث" الذي أدعوا إليه - يقول الكاتب- فلا الدولة، التي لا ينشغل بالها إلا بحفظ النظام بكل الوسائل، حاولت التعاطي مع ما يجري بروية وتأن وعقلانية و"عطف" لا ينقص بتاتا من "هيبتها"، ولا المحتجون الذين يحسون، من خلال واقعهم المعاش، بأنهم مخدوعون، رغم "عدالة" مطالبهم، ومتروكون لمصيرهم، أظهروا نوعا من المرونة و"البراغماتية" في مواقفهم، لإشعار الدولة بأن "ماء وجهها" محفوظ و"هيبتها" مصونة[١٣]. وبذلك فليستمر التوتر وسوء الفهم القائم بين الريف والمركز، وللتتأجل المصالحة بين الطرفين إلى إشعار آخر!.

المصادر والمراجع:

(١) صدر الكتاب عن منشورات اختلاف (الصخيرات، مطبعة كوثر) في طبعتين الأولى سنة ٢٠٠١ والثانية سنة ٢٠٠٢.

(٢) يقع الكتاب في جزأين ضخمين من الحجم الكبير، الجزء الأول الذي يتضمن ٤٩٣ صفحة، صدرت الطبعة الأولى منه سنة ٢٠٠٧، في حين صدرت الطبعة الثانية له خلال ماي ٢٠١٦، مرفقة بالطبعة الأولى من الجزء الثاني الذي يتضمن ٥٣٠ صفحة. (دايفيد مونتغمري هارت، **"آيث ورياغر قبيلة من الريف المغربي: دراسة إثنوغرافية وتاريخية"** ترجمة: محمد أونيا- عبد المجيد العزوزي- عبد الحميد الرايس، منشورات جمعية صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا).

(٣) على سبيل المثال "كتيب" الأستاذ أحمد الدغرني، "حراك الريف: التأصيل والامتداد" (الطبعة الأولى، فبراير ٢٠١٨).

(٤) نخص بالذكر هنا على سبيل المثال، كل من كتاب "الريف والسلطة المركزية، مقاربة تاريخية"، (الطبعة الأولى ٢٠١٩. مطابع الرباط نت) للباحث مصطفى أعراب، والذي جاء استكمالاً للدراسة السابقة المشار إليها أعلاه؛ وكتاب الأستاذ محمد سعدي، **"حراك الريف: ديناميات الهوية الاحتجاجية"**، (الطبعة الأولى ٢٠١٩، الطبعة الثانية ٢٠٢٢، مطابع سيليكي أخوين طنجة).

(٥) الأمر يتعلق هنا بابن قائد انتفاضة الريف ١٩٥٨-١٩٥٩ محمد الحاج سلام أمزيان.

(٦) من تقديم الأستاذ لبيب فهمي، محمد أمزيان، **"محنة الريف.. من الانتفاضة إلى الحراك"**، منشورات ثيفرازناريف، العدد ١٧، الطبعة الأولى ٢٠١٨، مطبعة الخليج العربي، ص ٨.

(٧) تُعَدّ أولى الفرق الموسيقية، التي ظهرت بالريف في السبعينيات، تغنت بالحرية، المقاومة، عبد الكريم، الأرض، سنوات الرصاص، الألم ومواضيع أخرى. بعض من أغانيها أرخ لأحداث الريف ١٩٥٨-١٩٥٩ كما هو الشأن في أغنيتها الشهيرة ''خاتشي اروازنة" وأغنية "بيا" أي الحسيمة، ولأحداث ١٩٨٤ من خلال أغنية "ويشكوم غايتون" (من سينساكم).. وغنت حتى للحراك.

(٨) بخصوص هذه الدراسة انظر: الرابط الإلكتروني التالي: (تاريخ آخر زيارة ٣ غشت ٢٠٢٢ الساعة ٢٣:١٥) https://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2012/09/2012924103333182505.html

(٩) محمد أمزيان، مرجع سابق، ص:٨.

(١٠) نفس المرجع، ص ص: ٨-٩.

(١١) نفس المرجع، ص ١٠.

(١٢) نفس المرجع، ص ١١.

(١٣) نفس المرجع، ص ٤٣-٤٤-٤٥.

(١٤) نفس المرجع، ص ٤٢.

(١٥) الحوار جاء تحت عنوان: ''ناصر الزفزافي: أنا لست قائدًا، بسلميتنا سننتصر ولن ننجر للعنف"، من الصفحة ١٦٥ إلى ١٨٨.

(١٦) نفس المرجع، ص ٤١.

(١٧) نفس المرجع، ص ٥٠.

(١٨) نفس المرجع، ص ٤٩.

(١٩) انظر الحوار الذي أجراه المؤلف مع ناصر الزفزافي، نفس المرجع، ص ١٨٠.

(٢٠) في هذا الصدد يمكن مراجعة أيضًا كتاب "مصطفى أعراب، **الريف والسلطة المركزية: مقاربة تاريخية لأسباب التوتر**"، الطبعة الأولى ٢٠١٩، مطابع الرباط نت، ص: ١٥١.

(٢١) محمد أمزيان، نفس المرجع، من الصفحة ٢٢ إلى الصفحة ٤١.

(٢٢) نفس المرجع، ص. ٥٤.

(٢٣) نفس المرجع، ص.١٣١.

(٢٤) في هذا السياق يشير الأنثروبولوجي الأمريكي "دايفيد هارت" أن "حوالي ٢٤٤ ورياغليا من الذين اضطروا للبقاء وتحمل جميع العواقب أو لم يتمكنوا من الفرار، طالهم بالتالي الحبس كمعتقلين سياسيين، ولم يطلق سراحهم إلا بعد مرور سنتين عبر عفو ملكي بمناسبة عيد العرش يوم ١٨ نونبر ١٩٦٠، كان من ضمن هؤلاء المعتقلين علوش ن حمو ارحاج عيسى من امرابضن الذي كان قائدا على لوطا في السنوات الأخيرة من الحماية الإسبانية. أما المدعو أقشيش من ثماسينت الذي حكم عليه بخمس عشرة سنة سجنا نافذا باعتباره أحد المشاركين الأساسيين في الانتفاضة، فلم يستفد من هذا العفو. أصدر الملك الحسن الثاني أمره بعد زيارته الرسمية للحسيمة في ١١ شتنبر ١٩٦٢ بالعفو على كل المنتفضين الذي فروا إلى إسبانيا والسماح لهم بالعودة إلى الريف باستثناء محمد ن ارحاج سلام، وقد تم بنفس المناسبة، إجلاء الجيش عن الإقليم ورفع حالة المنع فيما يخص الأنشطة الحزبية، ثم بدأنا تدريجيا نعاين بروز بعض بوادر الصفح من الرباط تجاه الورياغليين، رغم أن كل المؤشرات تدل على أن القصر قد صنف هذه القبيلة كمصدر للمشاكل يجب التوجس منه."

انظر: دايفيد مونتكومري هارت كتاب "أيث ورياغر، قبيلة من الريف المغربي، دراسة إثنوغرافية وتاريخية"، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص: ٨٢٤.

(٢٥) محمد أمزيان، نفس المرجع، ص. ١٣٤

(٢٦) نفس المرجع، ص. ١١٥.

(٢٧) نفس المرجع، ص:١٢.

(٢٨) نفس المرجع، ص ١٣٦

(٢٩) نفس المرجع، ص ٢٧.

(٣٠) نفس المرجع، ص ٤٢.

(٣١) انظر المقال: "**الريف.. يحيا ثلاثا ويموت تسعا**" من الصفحة ١٤١ إلى الصفحة ١٤٤، انظر أيضًا: ص ١٤٦، محمد أمزيان، **محنة الريف..**" مرجع سابق.

(٣٢) نفس المرجع، ص.٦٥.

(٣٣) إلياس بلكا، "جيوبولتيك" **وحراك منطقة الريف.. الحاجة إلى تُجار لا إلى ثُوار**"، منشور على الرابط التالي:https://www.hespress.com/orbites/353361.html (آخر زيارة ٣٠ غشت ٢٠٢٢، الساعة ١٠:٠٠).

(٣٤) دافيد هارت، "ايث ورياغر" **قبيلة من الريف المغربي: دراسة إثنوغرافية وتاريخية**"، مرجع سابق، الجزء الأول، الطبعة الثانية،ص: ٣٠.

(٣٥) في هذا الصدد، فإن: "مما يؤثر عن الفيلسوف الفرنسي فرانسوا فولتير، أنه كان يرفض الحوار مع أي أحد، ما لم يحدد هذا الأحد مفاهيمه تحديدا كاملا وواضحا، بحيث لا يكون هناك لبس أو التباس في الفهم يحرف الحوار عن مقاصده، عن طريق الدخول في مماحكات لفظية نتيجة سوء الفهم، أو حبا في الجدل من أجل الجدل." نقلاً عن "تركي الحمد"، "حين تختلط المفاهيم"، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد ٢٤-٢٥، سنة ٢٠٠٣، ص: ٤.

(٣٦) للمزيد عن مفهوم الريف يمكن مراجعة دراسة الأستاذ محمد أونيا "**مفهوم الريف المغربي**" مجلة حوليات الريف، العدد الأول، السنة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، من الصفحة ١٤ إلى ص ٤٤.

(٣٧) هذا التباين تؤكده مجموعة من التقارير الرسمية خاصة تلك الصادرة عن المندوبية السامية للتخطيط.

(٣٨) حسب الباحث "محمد أونيا" فمقولة "الانفصال" و"التمرد" من الناحية التاريخية التي ينعت بها الريف ليست وليدة اليوم، بل فكرة قديمة تعود إلى مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي، وبالضبط إلى عهد الاحتلال الروماني للمغرب القديم. فالغزاة الأجانب هم من أطلقوا هذا الوصف القدحي على ساكنة سلسلة دبال الريف بسبب استعصائها ورفضها للهيمنة الخارجية كما حصل مثلا، لشعب "بقاوة" أو بقوية (Baquates) بشمال شرق المغرب الذي وقف موقف السد إزاء الاحتلال الروماني"، انظر دراسة الأستاذ محمد أونيا " الريف وخرافة الانفصال من عبد الكريم إلى الحراك"، مجلة الربيع، العدد التاسع، السنة الرابعة،٢٠١٨، منشورات مركز محمد بنسعيد آيت يدر للأبحاث والدراسات، ص ٢٢٩.

(٣٩) الأمر هنا يتعلق بالبيان الذي صدر عن الأغلبية الحكومة بتاريخ ١٥ ماي ٢٠١٧ ويتهم عبره الحراك الشعبي بالحسيمة بـ "خدمة الأجندة الأجنبية" و"الانفصال"، للاطلاع على مضامين هذا البيان انظر على سبيل المثال الرابط الإلكتروني التالي: المغرب يتهم حراك الريف بالانفصال وتلقي أموال الخارج (شاهد)(arabi21.com) (تاريخ آخر زيارة ٣٠ غشت ٢٠٢٢).

(٤٠) نفس المرجع ص ١٤٨.

(٤١) نفس المرجع ص ٢٤.

(٤٢) نفس المرجع، ص. ١٤٥.

(٤٣) نفس المرجع، ص. ١٤٦.

(٤٤) نفس المرجع، ص. ٤٣.

(٤٥) نفس المرجع ص ص: ١٤٨ – ١٤٩.

(٤٦) نفس المرجع، ص: ١٤٩.

(٤٧) دافيد هارت، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص:٨٢١.

(٤٨) بتصرف، محمد أمزيان، مرجع سابق، ص:١٣٥.

(٤٩) نفس المرجع ص ٥٣.

(٥٠) نفس المرجع ص ١٤٩.

(٥١) نفس المرجع ص ٢٤.

(٥٢) نفس المرجع، ص: ١٤٨.

(٥٣) محمد أونيا، " الريف وخرافة الانفصال من عبد الكريم إلى الحراك"، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

(٥٤) نفس المرجع، ص ٢٠ – ٢١.

(٥٥) انظر مقال: "**ظهائر العار**"، من كتاب "**محنة الريف..**"، مرجع سابق، صفحات:٨٩-٩٠-٩١.

(٥٦) انظر مقال: "**عدنبي ن السوق.. ذلك المقاوم المجهول**" نفس المرجع، من الصفحة ٨٤ إلى الصفحة ٨٨.

(٥٧) نفسه.

(٥٨) نفس المرجع، ص. ١٣.

(٥٩) الرسالة جاءت تحت عنوان: "**هذه وصيتي يا بني.. ماضيك من صنع حاضرك**"، محمد أمزيان، نفس المرجع، صفحات ١٩١-١٩٢-١٩٣.

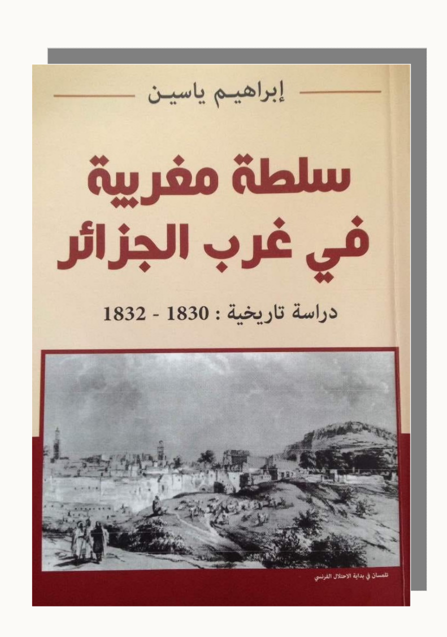
(٦٠) نفس المرجع ص ١٤.

(٦١) من تقديم الأستاذ لبيب فهمي، "**محنة الريف..**" ص ٨.

(٦٢) نفس المرجع، ص: ١٦٣.

(٦٣) نفس المرجع ص ص: ١١-١٢.

سلطة مغربية في غرب الجزائر
دراسة تاريخية ١٨٣٠ – ١٨٣٢




د. خالد جدي
دكتوراه التاريخ المعاصر
أستاذ الثانوي التأهيلي
مراكش – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: إبراهيم ياسين
عدد الصفحات: ١٦٧ صفحة
الناشر: مطابع الرباط نت
الطبعة: الأولى.
سنة النشر: ٢٠١٥
مكان النشر: الرباط-المغرب.
الترقيم الدولي: 9789954357453

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299880

كلمات مفتاحية:
الإمبراطورية العثمانية؛ الاستعمار الفرنسي؛ تاريخ المغرب؛ تاريخ الجزائر؛ تاريخ العلاقات الدولية

مُقدِّمَة

التاريخ هو دراسة ومعرفة الماضي، سواء كان بعيدًا أو قريبًا، التاريخ هو استكشاف يهدف إلى جعل الماضي مفهومًا في الوقت الحاضر. بناءً على اهتمامات عصره، ينظر المؤرخ إلى الماضي، ويفحصه، ويقدم المعلومات التي من المحتمل أن تنير معاصريه، تم يأسس الصلة بين الحاضر والماضي. في بداية أي مشروع تاريخي، تكون القصة تفسيرية وقائمة على الأدلة، وإعادة بناء واضحة للماضي كما جرى؛ ومن بين المواضيع التي يتناولها البحث التاريخي "العلاقات الدولية" من زوايا متعددة، والنهج السياسي هو الأقدم والأكثر رسوخًا في هذا مجال؛ ويعد تاريخ العلاقات الدولية[١] أحد مواضيع تدويل المجتمعات والمؤسسات والأفراد بأوسع المعاني. لقد حاولت الإسطوغرافيا المغربية بعد الاستقلال تناول التاريخ العلائقي من زوايا متعددة (العلاقات التجارية، العلاقات الثقافية وآليات نشر الإسلام في أفريقيا ثم العلاقات الصوفية والطرقية[٢]) في فترات متفرقة (وسيطية، حديثة ومعاصرة)؛ في هذه القراءة سنحاول بناء نموذج آخر، ربما مستوحى من نظرة جون لوي مييج Jean-Louis Miege حول العلاقات بين المغرب وأوربا في القرن التاسع عشر[٣]، محدثا حقلاً علميًا حقيقيًا في مجال الكتابة التاريخية المغربية[٤]، الذي سار وراءه العديد من الباحثين الشباب؛ وفي هذا السياق صدر عن منشورات مطابع نت سنة ٢٠١٥م كتاب "سلطة مغربية في غرب الجزائر: دراسة تاريخية ١٨٣٠-١٨٣٢، وأصل الكتاب رسالة جامعية بعنوان "موقف الدولة المغربية من احتلال فرنسا للجزائر ما بين ١٨٣٠-

١٨٤٧" ناقشها إبراهيم ياسين بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت إشراف إبراهيم بوطالب بتاريخ ١٩ مارس١٩٨٧م، تفصل إذن ٢٨ سنة بين تاريخ مناقشة الرسالة وتاريخ نشرها للعموم، يتبادر للذهن للوهلة الأولى أن المرحلة التاريخية موضوع الكتاب كأنها أشبعت بحثا.. وهناك بعض الباحثين الذين تعمدوا إطلاق أحكام نهائية على هذه الفترة. وكتاب إبراهيم ياسين يعيد الاعتبار لهذه الفترة التاريخية مسائلا لها بلغة المؤرخ المتسلح بالوثائق المعاصرة، والقريبة للحدث، والتي حاولت الإجابة عن سؤال ماذا حدث من الزاوية التاريخية؟ بعيدًا عن التأويلات السياسية التي تحاول الذهاب بعلاقة البلدين إلى النفق المسدود.

جوانب من العلاقات المغربية – الجزائرية خلال القرن التاسع عشر

هيكلة الكتاب، ومحتوياته، منهجيته، إشكاليته الأساسية

الكتاب يتكون من الناحية التقنية من ١٦٧ صفحة من الحجم المتوسط موزعة على تقديم راهني أنجزه الباحث في مراكش ٢٠١٥، مدخل تاريخي، ثلاث فصول وخاتمة عامة، وبيبليوغرافيا متنوعة ومركبة من وثائق غير منشورة" في الخزانة الحسنية بالرباط، مديرية الوثائق الملكية، أرشيف المصلحة التاريخية للجيش البري الفرنسي بفانسان (Vincennes)، والأرشيف الدبلوماسي الفرنسي بنانت (Nantes) وأرشيف وزارة الخارجية بالكاي دور ساي بباريس (Quai d'Orsay)، مخطوطات مغربية، مراجع عربية وفرنسية."

في المدخل التاريخي، حدد إبراهيم ياسين السياق التاريخي للعلاقة بين الدولة المغربية والجزائر العثمانية، فمنذ التواجد العثماني في الحدود كانت محاولاتهم متكررة لإدخال المغرب الأقصى تحت وصاية الباب العالي، ومع ظهور العلويين، ولإضفاء المشروعية على حكمهم، بادر السلاطين العلويين الأوائل بالتحرش بالجزائر العثمانية، ومع السلطان المولى إسماعيل ستتوقف هذه الأطماع، حيث اتجه السلطان المذكور إلى ايجاد حل للتناقضات الداخلية التي تعيشها البلاد المتمثلة في إخماد تمردات القبائل، وتلى ذلك محاولة تحسين العلاقات الثنائية في عهد المولى محمد بن عبد الله ، ثم تجددت الصراعات والتوترات مع السلطانين المولى سليمان والمولى عبد الرحمان ابن هشام (ص. ١٥و١٦).

في الفصل الأول المعنون بـ **احتلال القوات الفرنسية لمدينة الجزائر**، تتبع إبراهيم ياسين في هذا الفصل قبضة الجزائر من طرف فرنسا من زاوية ردود الأفعال والمواقف المحلية والدولية وجاءت على الشكل الاتي:

في المغرب: لم يظهر الموقف المغربي أكثر وضوحا، بل سيطر عليه التشويش والازدواجية في اتخاذ الموقف اتجاه الغزو الفرنسي للجزائر ولفراغ السلطة المحلية، فقد تكون موقف أثناء فترة الحصار الفرنسي للجزائر، ويتجلى هذا الموقف في السلطان ومخزنه، حيث لم يتخذ السلطان موقفا ثابتا اتجاه الفرنسيين خلال حصارهم للجزائر، واكتفى بالحياد ومساعدة البحارة الجزائريين على بيع غنائم الفرنسيين في الأراضي المغربية، وأصدر السلطان كذلك أوامره من مراكش إلى عماله في طنجة، وتطوان، ووجدة لمراقبة الأسطول الفرنسي، المحاصر لوهران، وأن يبقى على استعداد كلما استدعت الضرورة لذلك، كما قام السلطان بتقديم تسهيلات للفرنسيين بشواطئ الريف (ص. ٢٣)، وأصدر أوامره للقبائل الواقعة بين سبتة والعرائش بالتعامل مع الفرنسيين معاملة الصديق لا العدو، من المواقف كذلك تقديم المخزن للجيش الفرنسي في الجزائر مجموعة من المؤن (حبوب، ثيران) رغم تسجيل الباحث تأخير وصولها للقوات الفرنسية.

والموقف الثاني للمخزن تكون بعد الحملة الفرنسية على الجزائر؛ لقد أدى احتلال الجزائر في ٣١ يوليوز ١٨٣٠مإلى تشتت موقف السلطان ومخزنه اتجاه الحدث، بين مؤيد ومعارض، فقد ظهر للمغاربة أن سقوط القوة التركية سيسمح لهم بامتلاك الأراضي التي كانوا ينازعون الأتراك عليها منذ ثلاثة قرون (ص. ٣٠) كما اعتبر بعض أعضاء المخزن الاحتلال مصيبة عظمى، وحمل المخزن مسؤولية سقوط البلاد لداي الجزائر. لقد استنتج إبراهيم ياسين من خلال وثائق فرنسية خاصة، أن السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام لم يغير منه سقوط الجزائر تحت أقدام الفرنسيين شيئا، هنا يظهر الموقف المزدوج، بمعنى أن سقوط الجزائر في يد فرنسا تقبله المغاربة بقليل من الانشغال، وهذا ناتج من الصراع الطويل الذي عاشته الإيالة الشريفة في جزئها الشرقي مع الجارة التركية، وفي نفس الوقت بدأ الحذر هو المسيطر في حدث سقوط الجزائر بالنسبة للمخزن (ص. ٣٠).

إنجلترا وباقي الدول الأوروبية: القوة الإنجليزية كان موقفها مترددًا، فهي لم تظهر أية معارضة لمغامرة فرنسا في الجزائر (ص. ٣٢) بل الموقف الإنجليزي فيه نوع من التعاطف الكبير مع فرنسا، فقد حاولت إنجلترا التغاضي عن أي مواجهة متوقعة بينهما، لكون فرنسا خرجت من مغامرة نابوليون بونابرت في أوربا ومصر، وكذلك كونها شهدت تحولات سياسية خلال هذه الفترة، (ثورة يوليوز ١٨٣٠مالتي أطاحت ب شارل العاشر ونصبت ابن عمه لويس فليب الأول دوق أورليان). أما باقي الدول الأوربية خاصة هولندا والدويلات الإيطالية فقد انساقت وراء الموقف الإنجليزي، وباركت خطوة احتلال الجزائر، متعللة في موقفها بكون الجزائر تحتضن عش القرصنة.

في فرنسا: الموقف الفرنسي تأرجح بين الاحتفاظ بالجزائر أو إعادتها إلى الإمبراطورية العثمانية، أو تقسيم الساحل الجزائري بين القوى الأوربية، أو الاحتفاظ بالداي مقابل إتاوة سنوية لفرنسا، وبعد سقوط شارل العاشر كان الرأي هو مغادرة الجزائر لكي لا تغضب إنجلترا ودول أوربية حليفة لها، لكن بعد ظهور مشاكل جديدة في أوربا باركت انجلترا المغامرة الفرنسية في الجزائر التي قررت الاحتفاظ بها بناء على تقارير وآراء قادة الحملة في الجزائر، الذين أصروا على إبقاء السلطة الفرنسية داخل الجزائر (ص. ٣٤).

في الدولة العثمانية وفي تونس: الموقف العثماني موقف صادم كون الإمبراطورية العثمانية فضلت الحياد، واعتقدت أن السلطة الجزائرية باستطاعتها أن تواجه العدوان الفرنسي، فلم تستطع الدولة العثمانية النهوض والسير أميالا لردع الفرنسيين بطريقة مباشرة، رجل أوربا المريض كما أطلقه عليها القيصر الروسي نيكولا الأول، شاهد جزءا من أطرافه يؤكل، فكان موقفه معتمدا على الاتكالية وعلى الحسابات السياسية لإضفاء الحياد على قبضة الجزائر (ص. ٣٢). لقد حرك الباب العالي الألة الدبلوماسية لمحاولة إيجاد حل سياسي كون السلطة العثمانية منشغلة بالفتن والثورات التي اشتعلت في الأطراف القريبة من مركز الحكم "اليونان ومصر"(ص. ٣٣)، أما في **تونس** فكان الموقف غريب شيئا ما، وهذا الموقف ناتج عن العداء القائم بين سلطة الباي التونسي ونظيره الجزائري منذ سنين، لقد قدم الباي التونسي تسهيلات للحملة الفرنسية عبارة عن تموينات للعساكر التي تهاجم الجزائر، وامتنعت السلطة التونسية في المقابل تقديم أي مساعدات للداي الجزائري ، بل أكثر من ذلك منعت السلطة التونسية المبعوث العثماني القادم من الباب العالي من المرور عبر التراب التونسي، بل أن الباي التونسي بعث إلى قائد الحملة الفرنسية في الجزائر تهانئه بالنصر (ص. ٣٣).

في الجزائر: لم يحدث الاحتلال الفرنسي في البلد، أي رد فعل لا خوفا، ولا قلقا من السلطة الفرنسية (ص. ٣٥)، بل كانت سهام النقد موجهة إلى صفوف ممثلي السلطة التركية في البلاد، لكن أيام قليلة بعد استسلام الداي الحسين للفرنسيين، بدأت ثورة القبائل في كل مكان، أما في وهران، أي البايلك المجاور للمغرب فقد استقبل الغزو الفرنسي بالرفض ومواجهة الفرنسيين بالمدينة إلى غاية خروجهم منها، خاصة مع وصول خبر الانقلاب السياسي الذي حدث في فرنسا أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، واستبدال الفراغ السياسي الذي خلفه اعتقال الداي وبالتالي بدأ التفكير في السلطة المغربية.

في الفصل الثاني المعنون ب**تعيين ابن عم سلطان المغرب خليفة له بتلمسان**، يبدأ إبراهيم ياسين هذا الفصل بقضية مبايعة نواحي بايلك[5]، وهران لسلطان المغرب، دون الوقوف على القضايا والإشكاليات التي يثيرها مفهوم البيعة من الزاوية القانونية والفقهية، لقد أفرز تقديم أهل تلمسان[6] البيعة لسلطان المغرب المولى عبد الرحمان ابن هشام بلبلة في أوساط فقهاء المخزن بين مؤيد للبيعة و معارض لها، انتصر التيار المؤيد للبيعة بزعامة الشيخ التسولي[7]، واستقر رأي السلطان على قبول البيعة (ص. ٤)، وأرسل ابن عمه علي ابن سليمان وعمره لا يتعدى خمسة عشر سنة، وملازمة عامل وجدة له في كل صغيرة وكبيرة، كما أرسل السلطان معه العربي الوزاني شيخ الزاوية الوزانية (ص. ٤٩). وقد كان استقبال الوفد المغربي من طرف سكان تلمسان وأتموا له البيعة، لتبدأ الإمدادات العسكرية إلى تلمسان في محاولة لإخضاع من كان يعارض السلطة المغربية الجديدة في المدينة، كما تجددت معارضة بيلك وهران للتواجد المغربي في المدينة، حيث تعلل باعتباره مازال تابعا لحكم الباب العالي. وقد استمر الباي في معارضته للسلطة المغربية إلى غاية دخول الفرنسيين لها؛ رغم المساندة المحلية المتمثلة في قبيلتي الدواير والزمالة[8] (ص. ٥١) لم يتمكن المخزن من كسب ود القبيلتين لكون النظام الانقسامي التي تتشكل منه صعب على المخزن احتواءهما، وبالتالي فشل المخزن في هذه السياسة.

عرض كتـــاب

أمام هذه الأحداث، نزل الجيش الفرنسي بوهران سنة ١٨٣١م محاولاً تهديد الوجود المغربي بتلمسان، ومستغانم وغيرها، باستخدام القوة العسكرية، وأرسلت فرنسا العديد من البعثات الدبلوماسية إلى المغرب كان أبرزها بعثة أوفري إلى طنجة التي حملت رسالة إلى السلطان فيها تهديد مباشر لإرغامه على التخلي عن فكرة التواجد بالجزائر.

اضطرت هذه التطورات الصادرة من فرنسا المخزن إلى سحب رجاله من تلمسان، وربما فهم نوع القوة التي يتنافس معها، وشرع في اتخاذ احتياطات وقائية داخل المغرب، خاصة بعد ظهور العديد من السفن الحربية الفرنسية قبالة سواحل تطوان، والتي قوبلت من طرف المخزن بإرسال توصيات لعماله بضرورة مراقبة البحر. وفي ٨ مارس١٨٣١م أمر السلطان خليفته بتلمسان بجمع جيوشه والعودة إلى فاس، فسر إبراهيم ياسين هذا الانسحاب، والإخفاق بتجاوزات الجيش المرافق لخليفة السلطان ومحاولاته المتكررة الاستلاء على غنائم السكان المحليين (ص. ٩٥).

في الفصل الثالث المعنون بـ **ممثل جديد لسلطان المغرب بغرب الجزائر: ولاية محمد بن العامري**. يبدأ إبراهيم ياسين هذا الفصل بوصف حالة بيلك وهران بعد انسحاب القوات المغربية من المدينة و تعيين الجنرال بوايي (BOYER) قائدًا على وهران في شتنبر ١٨٣١م، حيث فهم الفرنسيون لغة القبائل من زاوية علمية واستمالوا قبيلتي الدواير والزمالة، ونسق هذا الجنرال بينه وبين ممثل فرنسا بطنجة للضغط على سلطان المغرب من أجل اطلاق سراح زعيمي القبيلتين في فاس، لكن المخزن رفض الطلب لرغبته في إعادة المغامرة غرب الجزائر بعد فشل الأولى (ص. ١٠٣).

لقد ظلت الدبلوماسية الفرنسية بالجزائر تحذر السلطات الفرنسية من قيام السلطان المغربي بتهيئة حملة عسكرية ثانية موجهة لشرق الجزائر وخاصة لمدينة تلمسان، رغم تسجيل الباحث تفاجؤ الفرنسيين من المواقف المغربية اتجاه الجزائر، تأخر إرسال ممثل جديد للسلطان إلى الغرب الجزائري، بسبب تمرد قام به جيش الوداية بفاس، رغم عدم تفصيل الباحث في هذا الحدث، المهم تم إخماد هذا التمرد من طرف المخزن بمساعدة العديد من القبائل الموالية له مثل الشراكة واولاد جامع وبني حسن (ص. ١٠٥)، لعل من بين الأسباب التي أملت على سلطان المغرب إعادة إرسال حملة عسكرية ثانية إلى الجزائر، هي وجود العديد من ممثلي القبائل الجزائرية وكذا الطرق الدينية بفاس، الذين طالبوا السلطان المغربي بضرورة الدخول إلى الغرب الجزائري وعدم الوقوع في الأخطاء السابقة؛ من الدوافع المقدمة كذلك لإقناع السلطان لإعادة الكرة في الجزائر هي انهزام الفرنسيين أمام الجزائريين في مدينة المدية في أوائل شهر يوليوز (ص. ١٠٦). لقد اقتنع السلطان بضرورة إعادة إرسال وتجهيز حملة أخرى إلى الجزائر، كون إعادة المغامرة المغربية في الجزائر تحكمت فيها جملة من الأسباب التي خلص إليها إبراهيم ياسين: جهود أنصار السلطان وأنصار المرابط محيي الدين بتلمسان، وسكان الغرب الجزائري، وجهود قبائل الدواير والزمالة، إضافة إلى الصعوبات التي واجهها الفرنسيون في إخضاع الجزائر.

بعد انقضاء ستة أشهر وثمانية أيام من خروج خليفة السلطان علي ابن سليمان[٩]بأمر من السلطان عبد الرحمان ابن هشام[١٠]، بادر الأخير لتعيين خليفة آخر اشتهر بقوته وجديته هو محمد بن العامري (ص.١٠٧)، لقد سكتت المصادر الفرنسية سكوت غريب عن حدث دخول عامل السلطان الى الجزائر، بل حاولت بعض المصادر اعتبار حدث دخول ابن العامري، كحدث عابر لم يكن له أي تأثير، بل اعتبرته مجرد محاولة فاشلة للسيطرة على وهران ومستغانم عبر اتخاذه معسكر مقرا للسلطته، دخل بن العامري تلمسان وقرأ رسالة سلطانه على سكانها، التي دعاهم فيها على ضرورة التآزر فيما بينهم، وضرورة توحيد السكان حول ممثل السلطان المغربي، ونبذ الخلافات وتحقيق المصالحة بين مختلف فئات السكان لمواجهة الخطر الفرنسي؛ لم يحاول السلطان المغربي إرسال جيش إضافي كما أرسله في السابق مع الممثل الأول علي ابن سليمان، بل أراد السلطان هذه المرة من الجزائريين أن يتحملون القسط الأوفر من أعباء الدفاع عن بلادهم. بعد دخول ابن العامري الجزائر سارع إلى مهاجمة الفرنسيين بوهران، عبر حصار المدينة من نهاية شهر غشت إلى نونبر ١٨٣١م، وكتب إلى أهل مستغانم[١١]، ومزغران[١٢] فأجابوه بالدخول في طاعة السلطان المغربي، الشيء الذي جعله يسارع إلى مهاجمة الفرنسيين في وهران بعدما تكونت له عدة عسكرية من جيوش القبائل التي قدمت له الطاعة، والجيش الذي وفد معه من المغرب؛ بدأت هجمات ابن العامري على مدينة وهران من ٨ أكتوبر ١٨٣١م، إلى يوم ١٧ أكتوبر ١٨٣١م بدون انقطاع، لكن هذه الهجمات لم تحقق انتصارات باهرة، رغم أن الحصار الذي ضرب على المدينة كان ناجحًا. لقد وقفت الحملة على وهران واتجه ابن العامري نحو مستغانم لمحاولة إخماد ثورة

قام بها السكان ردا على هجمات لعناصر محسوبة على ابن العامري (ص. ١٢٠).

في أواخر شهر أكتوبر ١٨٣١م، انتقل ابن العامري إلى معسكر التي اتخذها عاصمة لسلطته، وضمن ولاء المناطق المجاورة عبر جباية الضرائب والأعشار، واستقبل الوفود الكثيرة القادمة من مختلف المناطق المحيطة بمعسكر حاملة طاعتها للسلطان المغربي، بل أصبح حسب تقارير فرنسية اعتمد عليها الباحث (ص. ١٢٣-١٢٤) أن ابن العامري حقق نجاح نسبي في معسكر بل تعداه في تغلغل نسبي في بايلك التيطري.

أمام هذه الأحداث التي حققها ابن العامري في الغرب الجزائري، استبدلت فرنسا لغة الدبلوماسية الناعمة بدبلوماسية مسلحة صريحة، تجلى ذلك سنة ١٨٣١م، في بعث سفير من قبل ملك فرنسا إلى المغرب مدعوما بقطع حربية لتهديد مدينة طنجة، وتلى ذلك كل من تحركات نائب القنصل الفرنسي في طنجة دي لابورط (Jacques-Denis Delaporte) لدى السلطان والاحتجاج عليه. لقد بدأت تظهر النوايا الصريحة للمغامرة الفرنسية في الجزائر، عبر تقسيم البلد إلى مناطق مدنية وأخرى عسكرية، تمهيدا للشروع في استغلالها، كما قامت فرنسا بعد أن تبين وجود أطماع سلطان المغرب في الجزائر، تدعيم خط القوات الموضوعة تحت القيادة العسكرية في مدينة وهران، وبعدها انتقلت الدبلوماسية الفرنسية إلى مخاطبة السلطان المغربي مباشرة عبر إرسال سفارة الكونت دي مورني (Comte Charles De Mornay) في بداية يناير ١٨٣٢م،من لوي فيليب إلى سلطان المغرب، مهمتها اجبار السلطان عن عدم التدخل في شؤون بايلك وهران بما في ذلك تلمسان ومعسكر (ص. ١٣٥). لقد بدأت بعض أعضاء المخزن تضغط على السلطان المغربي بالقبول بعرض السفارة خاصة وأن عمال الأقاليم الشمالية أبلغوا السلطان بكون السفن الحربية الفرنسية اقتربت من ميناء طنجة؛ التقى السفير المذكور وبالسلطان وممثلي المخزن في مكناس يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢، وهو اللقاء الذي دونه الرسام الفرنسي دولاكروا (Delacroix Eugène) في لوحة شهيرة[١٣]، لقد خلص اللقاء أن السلطان المغربي يلتزم بعدم التدخل أبدا بين المنازعات التي تحدث، أو يمكن أن تحدث مستقبلاً بين الفرنسيين والجزائريين، واعترف أن الجزائر الآن تابعة لفرنسا، واقتنع خلالها السلطان المغربي بسحب ابن العامري من غرب الجزائر، وهو الأمر الذي تم بالفعل بعد شهور من السفارة.

قضايا الكتاب ومقولاته النقدية

تثير هذه القراءة مجموعة من القضايا نوردها على الشكل الملاحظات التالي:

الملاحظة الأولى، مسألة المصادر: إن توسيع دراسة العلاقات الثنائية إلى دول "الجنوب" منذ الاستقلال سيتحقق بالكامل عندما تتوافر أرشيفات هذه الأخيرة. وبعد ذلك، ستؤدي الدراسات الاستقصائية متعددة الأطراف، التي تشمل أكثر من دولتين أو تشكيلات اجتماعية إلى مواجهة المصادر الوثائقية في العديد من البلدان، ودراسة إبراهيم ياسين لم تتخذ الموضوعية والموازنة الأرشيفية، كونها اشتغلت على زاويتين أرشيفيتين، زاوية المغرب وزاوية الدول الأوربية (خاصة فرنسا) مع تغييب زاوية الوثائق للدولة الجزائرية.

الملاحظ الثانية: لماذا تنازل إبراهيم ياسين عن العنوان الأصلي لرسالته المعنونة بـ **موقف الدولة المغرب من احتلال فرنسا للجزائر ما بين ١٨٣٠-١٨٤٧**[١٤]، وتعويضه بـ **سلطة مغربية في غرب جزائر ١٨٣٠- ١٨٣٢**؟

الملاحظة الثالثة: وهي المرتبطة بعنوان الكتاب، **سلطة مغربية في غرب الجزائر**، ألم يقل أحمد توفيق في خلاصاته حول السلطة المخزنية" أن المخزن كان يتسم بسمة الدولة التجزيئية التقليدية أي بتناقض نفوذ الدولة كلما ابتعدنا عن المركز، وهي سمة لم تكن خاصة به بل كانت تنطبق على كل الدول ما قبل الرأسمالية. وقد سبق أن نص على ذلك ابن خلدون في الفصل الثالث من **المقدمة** حيث قال بأن كل دولة لها حصة من المماليك والأوطان لا تزيد عنها، وبأن الدولة في مركزها أشد مما تكون في الطرف والنطاق..."[١٥]، وبالتالي فإن استعمال مصطلح "سلطة مغربية' على هذا الجزء البعيد عن الإيالة الشريفة فيه مغامرة تاريخية.

الملاحظة الرابعة: كتاب إبراهيم ياسين خاصة في الفصلين الثاني والثالث، يبين أن مخزن المولى عبد الرحمان بن هشام يقارع فرنسا في الجزائر بدون مركب نقص، في حين أن المخزن كان يعيش أزمة في البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لحقته منذ قرون، كما عاش أزمة وعي بالذات مما جعله يحس بالعجز عند مواجهة الأوربيين، هذه الأزمة يمكن التقاطها عند عبد المجيد القدوري في **سفراء مغاربة في أوربا**[١٦]، وعند محمد المنصور في **المغرب قبل الاستعمار**[١٧]، وفي **تاريخ المغرب تركيب وتحيين**[١٨]، وهذا العجز في البنيات سيتأكد عشية إسلي.

الملاحظة الخامسة: العلاقة بين المغرب والجزائر كما قدمها التاريخ المغربي معقدة إذ يمكن وصف الجزائر بأنه نموذج لفترات معينة من تاريخ البلد (المرابطين، الموحدين وفترة من المرينيين)، واستكشاف الزاوية الدولية يعني التركيز على الاتصالات والتفاعلات مع العالم الخارجي بشكل أساس، وليس بشكل عرضي أو غير مباشر. فالمتخصص في البعد الدولي يقع عند التقاطعات وعلى مفترق الطرق بين الداخل والخارج والتركيز الدائم للمؤلف إبراهيم ياسين على الاتصالات الخارجية، وأماكن التفاعل مع الخارج والتأثيرات المتبادلة بين الداخل والخارج جعل تاريخ المغرب في علاقته بالجزائر مختزلاً في حلقات صراع تتسم بالرغبة في الهيمنة من جانب (المغرب) ومحاولات المقاومة من الجهة الأخرى.

الملاحظة السادسة: كتاب إبراهيم ياسين يدخل ضمن المشروع الإسطوغرافي الذي سطرته المدرسة التاريخية المغربية، وينتمي إلى اتجاه التاريخ العلائقي الذي يهدف إلى بناء الهوية الوطنية من جهة، والبحث عن التوافق والمصالحة بين المغرب والأمم الأخرى من جهة أخرى.

يضطلع التاريخ بدور مهم في بناء لعبة المصالحة والتوافق بين الدول، و ليس الأمر بغريب لكونه اقتباسا فرنسيا، مع مدرسة الحوليات، فقد هدفت أعمال مارك بلوك (Marc Bloch) خاصة في المجتمع الفيودالي[١٩]، ولوسيان فيفر(Lucien Febvre) في مارتن لوتر(Martin Luther)[٢٠]، ايجاد توافق فرنسي ألماني[٢١]، أي محاولة تأسيس لأوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبالتالي فأعمال هؤلاء المؤرخين تسير في هذا الجانب، وفي اعتقادنا أن إبراهيم ياسين فشل من خلال رسالته التاريخية في إحداث مصالحة وصناعة توافق مغربي جزائري، هذا الفشل والإخفاق سبق وأعلن عنه عبد الله العروي في ضميمة مذيلة لكتاب **مجمل تاريخ المغرب**، الذي هدف منه صاحبه لم شمل المغارب من زاوية المقاربة التاريخية[٢٢] ليتجه إبراهيم ياسين إلى الاتجاه المونوغرافي محدثا مصالحة مع منطقة نشأته أيت وأوزگيت[٢٣] حين أنجز أطروحة الدولة في هذا الباب.

خَاتِمَةٌ

ختامًا، الكتاب موضوع القراءة سريع الإيقاع، مثقل بالجدية والمعلومات التي يجري وراءها الباحث في شؤون الماضي محاولاً التقاط ما يفلت منه من أحداث، فهو يغطي فترة زمنية دقيقة، ويشكل عرضًا شاملاً ودقيقًا للأحداث بناء على مقاربة أرشيفية صرفه ذات نزعة وضعية بعيدة عن كل التأويلات التاريخية الممكنة.

الاحالات المرجعية:

(1) Robert Frank, « Histoire des relations internationales », in Christian Delacroix, François Dosse et Patrick Garcia, Historiographies : concepts et débats, 2 Tomes, Gallimard, « Folio-histoire », Paris, 2010, pp. 235-237.

(٢) عبد الرحيم بنحادة "في إنتاج المعرفة التاريخية في المغرب"، ضمن وجيه كوثراني (تنسيق)، **التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٧، ص. ٤٣٤.

(3) **Jean-Louis Miege, Le Maroc et l'Europe : 1830-1894, 4** Tomes, **Presses Universitaires de France, Paris, 1961-1963.**

(٤) عبد الأحد السبتي، "**كاد المغرب أن يكون مستعمرة بريطانية**"، رباط الكتب، 9 يناير ٢٠١٢.

(٥) **بايلك أو بيلك** يقصد بها مقاطعة يحكمها باي أو حكومة منطقة، ففي الفترة التي نتحدث عنها كانت هناك ثلاث بايلكات في الجزائر، بايلك الغرب (وهران)، بايلك التيطري، وبايلك الشرق (قسنطينة).

(٦) البيعة التي بعثها سكان تلمسان إلى السلطان المغربي عبد الرحمان ابن هشام، نتيجة الاحتلال الفرنسي للبلد، والتي قبلها السلطان بعدما افتوه فقهاء فاس، انظر، عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، ص. ٥٥٨.

(٧) علي بن عبد السلام التسولي (ت.١٨٤٢م)، تقلد منصب قاضي الجماعة بفاس في عهد السلطان المغربي عبد الرحمان ابن هشام، ذاع صيته كفقيه بفضل فتواه التي أجاز فيها للسلطان قبول بيعة أهل الجزائر وهي المنشورة في كتابه، **أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد**، دراسة وتحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي، 1996.

(٨) اتحاديات وكونفدراليات قبلية استوطنت مناطق وهران خلال الفترة العثمانية وقبلها، ولها خصوصيات عرقية وحضارية وثقافية واجتماعية. انظر، إبراهيم مهديد، "الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال القرن ١٩م والرأسمالية الاستعمارية: إشكالية الاندماج الاجتماعي"، **إنسانيات**، وهران، ١٩٩٨، ص. ٧٨.

(٩) ابن السلطان المولى سليمان بن محمد الذي تولى الحكم قبل مولاي عبد الرحمان ابن هشام.

(١٠) السلطان المغربي حكم في الفترة الممتدة من 1822 إلى 1859في عهده شهد المغرب موقعة إسلي.

(١١) مدينة تقع في شرق الجزائر تابعة في هذه الفترة لبايلك وهران.

(١٢) مدينة تنتمي لبايلك وهران وتطل على البحر الأبيض المتوسط.

(١٣) حول هذا الحدث، انظر سمير بوزويتة، **مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية١٨٣٢-١٩١٢**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٧.

(١٤) عمر أفا، **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المناقشة بكليات الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ١٩٦٤-٢٠٠٧**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة دراسات بيبليوغرافية رقم ٩، ٢٠٠٨، ص. ١٥١.

(١٥) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن ١٩: اينولتان ١٨٥٠-١٩١٢**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، رسائل وأطروحات رقم ٦٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠١١، ص. ٤٧١-٤٧٢.

(١٦) عبد المجيد قدوري، **سفراء مغاربة في أوروبا ١٦١٠-١٩٢٢: في الوعي بالتفاوت**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ١٢، ١٩٩٥.؛ - **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر: مسألة التجاوز**، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ٢٠٠٠.

(١٧) محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين**، تعريب محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء،٢٠٠٦.

(١٨) محمد القبلي (تنسيق)، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١٣.

(19) Marc Bloch, **La société féodale, la formation des liens de dépendance**, Albin Michel, Paris, 1939.

(20) Lucien Febvre, **Martin Luther: Un destin, Presses Universitaires de France**, Paris, 1927.

(٢١) فرانسوا دوس، **التاريخ المفتت: من الحوليات إلى التاريخ الجديد**، تعريب محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩، ص. ١٣١.

(٢٢) قال عبد الله العروي في هذا الصدد:" ختمت الكتاب سنة ١٩٧٠ بهذه الفقرة: (آن للمغربي أن يصالح نفسه، وأهم من ذلك، أن يهادن أخاه). لم تمر خمس سنوات حتى أشرفت المنطقة على حرب مدمرة بسبب ما سمي (بقضية الصحراء الغربية)". العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، مرجع مذكور، ص. ٦٤٣.

(٢٣) إبراهيم ياسين، **جنوب أطلس مراكش تحت حكم الفرنسيين والقادة الگلاويين: آثار الاحتلال الفرنسي لبلاد أيت أوزگيت**، دار ابي رقراق، الرباط، 2003.

Articles
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

Gufaina dam in Ma'rib Oasis is a model of transformative dams in the pre-Islamic Kingdom of Saba architectural field study



Dr. Ali .Mubarak. Salih. Tueaiman
Associate Professor, Department of Tourism and Archeology, College of Arts, University of Ha'il, Saudi Arabia
University of Saba Region, Yemen

ABSTRACT

One of the major sources of Pre-Islamic Arabian civilizations were water dams, which were given an important attention and developed architectures. The dams were varying from reservoir dams and transformation dams. The dam of Gufaina in Ma'rib oasis in the heartland of Saba kingdom is seem a model of the transformative dam built by ancient Sabaean. The Gufaina dam works to impound and divert the water that comes from the north of the northern water source of the old Ma'rib dam, and it is the water that does not descend into the course of Wadi Dhanna. of it, discharging it and protecting the oasis fields, which are fed by the waters of the old Ma'rib Dam. It is clear from the dam's architecture that it continued to play its role in regulating irrigation in the oasis to later periods, perhaps dating back to the first Islamic period. his study aims to identify the architectural technology and building materials that have been used in transformative ancient dams of Arabia, that will be through a field study of Gufaina dam, which its architecture details is still preserved, and could reveal the design of water system, drain and the water quantity reservoir techniques.

Keywords:

Transformative dam; Gufaina; oasis; technology

Article info:

Received: 27 July 2022
Accepted: 28 August 2022
DOI: 10.21608/KAN.2022.299881

Citation:

Ali .Mubarak. Salih. Tueaiman, **"**Gufaina dam in Ma'rib Oasis is a model of transformative dams in the pre-Islamic Kingdom of Saba: architectural field study**"**.- Historical kan Periodical. - Vol. (15) Issue (57); September 2022. Pp. 217 – 225.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: alitoiman79gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

The dam of Gufaina is one of the ancient water system in the kingdom of Saba, and it's one of the developed water system in Ma'rib oasis, which is not far from Ma'rib dam. Although there are several visible outstanding remains of Gufaina dam but the studies conducted of architecture in the area were not focused on the dam, it architectural design and water drain system. Some notes mentioned by DAI mission in Sanaa, when they conducted large scale survey in Ma'rin dam, Ma'rib oasis, Bran temple, Awaam necropolis and temple. Brunner, U mentioned the site within his archaeological report about Ma'rib, as well as Norbert Nebes studied some of the epigraphy of irrigation systems in other similar sites.

Moreover, the research published some notes about Gufaina dam architecture as a kind of comparative study. This study will include the geographical location of Gufaina dam, building design in this topography and the architectural details from purification and building style. As well as the irrigation system that was carried out in Gufaina Dam, and the areas covered by the dam water and the field. Undoubtedly, the study of the Gufaina Dam could represent a kind of research about the transformative dams built by the Sabaeans, and the idea of its architecture developed from the architecture of the ancient irrigation facilities in the Ma'rib Oasis, followed by the architecture of the ancient Ma'rib Dam, which is among the most famous ancient irrigation organisation in Arabia in general.

An Overview

Gufaina dam

N 15.41989	UTM Zone 38	Height above sea level
E 45.28396		1193 m.

Gufaina dam is built in the northern bank of wadi Dhanah, which represented the major irrigation system of Ma'rib dam in the south-west of Roba al-Khali desert, which is so-called Ramlaat al-Sabien (Kühn et al, 2010) (Fig 1). Gufaina dam is the transformative part of the extra water of the Ma'rib dam that had drained through the northern drain, which is located at the lowest point of Ǧabal Balaq al-Qiblī. Whereas the suitable topography of dams building were available in the area, which helped to change the desert into green oases. The large and small oases played a great role of the kingdom development in term of administration and political position between the people royal families. Thus, during that time, social relationships developed and common interests established between the people lived there through the Irrigation systems. As well as the establishment of the irrigation systems encouraged the people from the rural areas to being centralized around the dams and they developed the ancient cities around the productions areas belong to irrigation systems localities (Harrowe, 2009).

Wadi Gufaina is located on the major stream of the valley, but there are many estuaries of the valley to the north of Mount (Al-Balaq Al-Qibli), their branches drained into wadi Gufaina, which increased the water of the Gufaina wadi and some of the water drained into aoses west of Jebel Al-Balaq Al-Qibli and wadi ALathba (Tueaiman 2018). (Fig: 2).

Historical Background

Irrigation is the main sources of human settlement, but rather a symbol of attraction for human presence and populations. The growing of habitations around the eastern wadis reverses of ancient Yemen created the large villages around the valley reverses and the small oases from 5th – first millennium B.C. Which ended with the establishment of the ancient southern Arabian kingdoms, such as Saba - Mu'in Qatban - Awsan and Hadhramaut. (Harrowe, 2009).

The date was confirmed by recent study supported by charcoal samples collected from fire stone stove found in the sedimentation of irrigation areas in the Ma'rib Oasis and dated by C14 to 2600 BC (Kühn et al, 2010), which is contemprory of the relative dates given by Brunner for irrigation in Ma'rib (Brunner, 1983). There are other archaeological field studies conducted in sites near Ma'rib concluded that there is a sophisticated engineering technique of irrigation systems in Ma'rib Oasis, which dates back to the beginning of the first millennium BC, and the Ma'rib Dam is one of the oldest models for the emergence of such a developed irrigations system in the area (Brunner, 2000).

According to the ancient South Arabian inscriptions, many of them confirming the importance of the irrigation in Ma'rib Oasis since the beginning of the first millennium BC. DAI mission of Yemen discovered several inscriptions in jebel Balaq al-Qiblī 1and jebel Balaq al-Qiblī 2" dated back to the Saba's Makrab period, Yath Amr between the second half of the eighth century BC (Nebes, 2015a)

The restoration of the Irrigation system in Ma'rib dam and oasis, which is the dam of Wadi Gufaina one of the irrigation installations for this system.

One of the main historical indications is what King Sharhabeel Yafar left in the inscription marked with (CIH) dated in the month of Dawn in the year 565 Himiri. Which corresponds to 450 AD. The restoration and conservations procedures in the dam included removing the silt accumulated, which might damage the dam, and the dam building by rocks later, as well, major water drainage channel have been constructed, which is mentioned in the inscription (Raham), and that was in (28) days (Robin 2013:). The architecture of Wadi Gufaina dam may date back to pre-Islamic period, which is the period that the ancient Ma'rib Dam was reconstructed due to the similarity of building materials such as limestone and mortar with (Noura and plaster).

Archaeological fieldwork

Based on the study aims to identified irrigations unit, our plan based on archaeological survey of the area surrounding the dam to identify the relationship of the dam to the ancient Ma'rib Dam, and the reserves of the wadis in which the waters of the Gufaina dam drained. The archaeological survey supported by architectural measurements of all dam features using meters and GPS coordinates. As well as Drone images were used to clarify the aerial picture of the dam in general. Moreover, the quality of building materials and components were studded from some samples have been taken.

General description and irrigation system

Wadi Jufaina dam is located in the lands of the northern paradise, this area is mentioned in the inscriptions as (ABIN) and opposite it on the other side of the oasis of Janabiyah, which was mentioned as (YSRN). The length of the oasis is 22 km and its width is 8 km, and it was divided by Dhanah wadi into two main parts. The name of the oasis was mentioned in general as (SRI H W) in the form of Muthanna and the intention is the oasis of Marib (Shr 18/3), and the inscription (Fa 17-6). The area of the northern oasis is about 3750 hectares and the southern oasis is about 5700 hectares, in addition to Wadi Gufaina, which is located north of the oasis (Maraqten, 2005). (Fig: 3).

Wadi Gufaina dam occupies the lower area of Saila Wadi Gufaina. The depth of the dam's is about 10 meters from the level of the oasis (Northern Paradise). This is identified from the natural depressions in the silt deposits (irrigation residues), which were accumulated over the ages. That indicated of Gufaina dam buildings has been completed later time comparing to the irrigation system in the oasis (Brunner, 1983)

Wadi Gufaina dam is a type of transformative dam. It's known by this name in relation to the valley where the dam was built. The dam function is focused on diverting water to agricultural lands near the dam site (Nebes, 2015a). Wadi Gufaina dam is located 2.7 km east of the northern bank of the ancient Ma'rib Dam. It is bordered on the north side by the volcanic *harrat*, and from the western side by Wadi Gufaina, and on the southern side by agricultural lands on the southern bank of Wadi Gufaina, and from the east by Sailat al-Wadi. A number of wadis that confluences into Wadi Gufaina, and those drained from the areas surrounding the dam from the north and west. The dam was built in an area that helps reduce the cost and effort of dam construction according the area topography from the rocky land and mountains. The dam of Wadi Gufaina was called (the building) AL-Mabna (Brunner, 1983).

The general plan of the dam

The locations of the water administrations are usually chosen in specific topography in order to control the largest possible quantity of water, taking into account the construction of the dam by draining the amount of water rushing strongly, which is reflected in reducing the pressure on the dam walls and the main drainage channel, and thus we find that the general plan of the dam architecture taken into account the above standers. Where the dam has been divided into three main walls, extended in large space and different directions according to each wall function, these walls named as the fallowing: A- B-C: (Plate: 1) Fig: 4-7).

Western Wall (A): The function of this wall is to transform the waters coming from the main Gufaina dam, and the wadis around it on the western part, as it came in a semi-straight design. It extends 183 m until it intersects with Wadi Gufaina, which is the total area of the (current) wall). According to the Drone image the wall extended more than 183 m, and this wall transformed the water drained from the main wadi which takes a diagonal shape with the valley fluid to confine the water to the wall (B) and control it through a single port between the wall (A) and the wall (B). (Fig: 8-9).

Middle wall (B): It is the wall that started at a distance of 5 m before the confluence point of the wall (A) and extends in a curve shape with a length of 42 m, and later on with a length of about 217 m and in a way line shape in the middle area of the dam. And is linked at its end in the northwest

direction to the small volcanic mountain. The width of the wall is about 3.73 m, and the wall covered an area of 3 m. The height of the wall in the current period is 4.5 m, which is an average measurement, while there are differences in heights based on the function of each wall unit (Fig: 4).

Middle wall (C): It is the third wall of the dam, and it is the wall that extended parallel to the middle wall B. This wall is longest than B. The extended in wavy shape and its length is about 289 m and thickness 5 m in the upper part and about 4.5 m in height. It is the most meandering wall between the volcanic *harrat* located north of the dam, and the dam wall ends with its connection to a small mountain in *harrat* (Fig:11-12).

At the confluence point of the walls A - B, there is a wall in the middle that complements the wall B, which is the wall through which the process of narrowing the water collection point takes place, and its architecture has varied more, so that it is 42 m long, 4.5 m high at the present time, and 3.5 m wide. The area of confluence, walls built by special architecture. And it is neighbor the wall C, is the most curved wall, and attached to the perimeter of the building is a small building (basin) at the curve point of the wall in wide 5 m (Fig: 5).

Material buildings

It is well known that the natural materials available in the local area were the most favorite material in construction of ancient cities and architectural unites, taking into account the type of the architectural unit. The irrigations unit are much different from the other ancient buildings, such as castles, palaces or temples. Based on that we found the Gufaina Dam was built from the materials that are available locally, and some of them were manufactured in the area.

Rocks or stones: The architect will use stone materials based on the type of the rock and the way they are built in the longitudinal walls of the dam, and thus the construction of the walls was limited to black basalt stones (which are local stones of volcanic *harrat* located north of the dam site, and they were of different sizes, including medium, large and small slabs, These stones were widely used in randomly filling the area between the external courses to fill the gap and increase the height of the dam wall.

The architect also used balk stones (limestone), which is one of the types of stones that were brought from the western Baluk Mountains from close to the dam area. These materials were used in the external walla because it easy to reshape and polishing in the architecture courses and its used in the external water outlet points (E-F).

Clay: The mud and natural soil around the dam area are among the materials that were used in building the dam. It is the accumulated mud material that was used to backfill and reinforce the dam wall (A) from the outside (southeast) so that the diversion dam wall could withstand the speed of the flowing water with high force from wadi Gufaina erosion.

Al-Qaddad: Since the building unit is a water architecture, the process of plastering the external parts of the building must be done, as all the external parts of the building on both sides were plastered with (Al-Qaddad), which is known as “Nora” and mixed with volcanic pebbles or gravels, and its grinding and fermented with water for long times, then plastered on the external walls, especially the walls facing the water (Fig: 13-14).

Dam building technology

The construction design or technology are differing in water units, this difference comes from that it resists the largest amount of water force flowing with a high force from the wadi streams, and thus the technology of the walls rebounding inward and rising to the top was used as its building tapers to reduce the thickness of the wall. This technology reduced the force of the water impulse, and extend the life of the building with the factors of erosion and its interrelationship, especially in terms of height, as we find that the construction of those walls still retains a lot of architecture and building materials. Thus, only wall A and wall C were the most importance in terms of height. Wall A built by three setbacks at the bottom from its end point and ends with one setback to its highest point, and wall B constructed with three setbacks, while wall C built by five setbacks at the bottom, two of them in the middle and they are similar in measurements, the middle is smaller and on the top two similar setbacks in size.

The construction technique of walls E-F is different in terms of construction technology, as it is the area on which it depends in the water control, and therefore, it built carefully, where the architectural purification was known as the overlapping technique, which is the overlapping of the walls with each other, meaning that the stones of each course match the stones of the other course alternating between them and with lime stones of longitudinal sizes. Each course differs from the course below (Fig: 6-15).

Water collection and irrigation system

The German mission field work in Ma'rib oasis tried to approximate the viewpoint about the irrigation system in the oasis in general, including Gufaina wadi Dam, which is known to them as the AL-Mabna dam. And published in their preliminary field reports, when the architectural researcher Brunner, U. His study was devoted in the second part of those reports, and they put the Gufaina dam as part of the ancient Ma'rib Dam system (Brunner, 1983).

Based on the field study carried out by the author and the results of the previous studies of the German mission (DAI), it is better to start with the question, what is the reason for building the dam in this region, as there is the ancient Ma'rib Dam which is among the most important and largest irrigation structures in the Ancient Arabian civilizations in general, but the main reason of Gufaina dam construction in this area is that Wadi Gufaina drops the waters from the small water channels or branches, which they drained from the area close by ancient Ma'rib dam concession. And therefore it is one of the wadis that are not included in Wadi Dhanna, where the dam was built. And the second reason is that the Gufaina dam is a diversion dam that transforms The torrential waters that drained during different seasons from the flow of the ancient Ma'rib Dam, which seemed to come from far away, and if the floods of the Jufaina Dam and the wadis near it may cause the destruction of the northern oasis fields, and thus the dam was built to divert, control and drain the waters of those channels to irrigate agricultural lands, which is located in the northeast of the oasis (Northern Paradise).

Hence, Gufaina dam has diverted water through two outlets, the first is the outlet that drained from the area in-between wall A and wall E, and the other outlet is the one for which the stone basin is allocated between wall C and wall D. The control is carried out through two narrow outlets by means of a closure place of it during the restoration time of the water, and the water should have opened at the time of need through wooden drains. The traces of the entrances to those wooden drains of the lime stone wall are still observed and differently (Fig: 6).

Results

Results of this study about Gufaina dam as follows:

- Gufaina Dam is one of the major irrigation system in the Ma'rib Oasis in general, and it was part of the auxiliary system of the ancient Ma'rib Dam.
- Gufaina Dam is one of the diversion dams that diverts water from the wadis to irrigate agricultural lands in the northern Paradise fields from the Ma'rib Oasis, which did not reach the waters of the ancient Ma'rib Dam due to its location in the lowest drop point of about 10 m.
- Gufaina dam was built to protect the agricultural fields located within the lands of the oasis (Northern Paradise), which are in open areas and dams of neighboring areas may come during the rainy seasons and may lead to their destruction.
- The study clarified the main architectural technique of water drainage in the ancient Ma'rib Dam, with that technique in the drainage of the transformative dam in Gufaina dam.
- The study showed the different building materials in the construction of transformative dams in the pre-Islamic Kingdom of Saba.
- The study presented the technique of building rebound walls that relieve pressure on the dam wall from the force of water flow and increase its quantities.
- The study showed that the Gufaina Dam was built at the end of the irrigation use in the Ma'rib Oasis, and the continuity of irrigation in it continued until after the collapse of the ancient Ma'rib Dam at the end of the 6^{th} century AD.

Appendix



Fig: 1 Map represents the location of Mārib in the map of Yemen and neighboring countries. Fig: 1



Fig2: 1(Map: 2) All the estuaries of the valleys adjacent to Wadi Gufaina, specifying the location of the dam. Francaviglia,2000,).



Fig: 3 Schematic plan of the ancient oasis of Mārib (Hitgen, 2005)

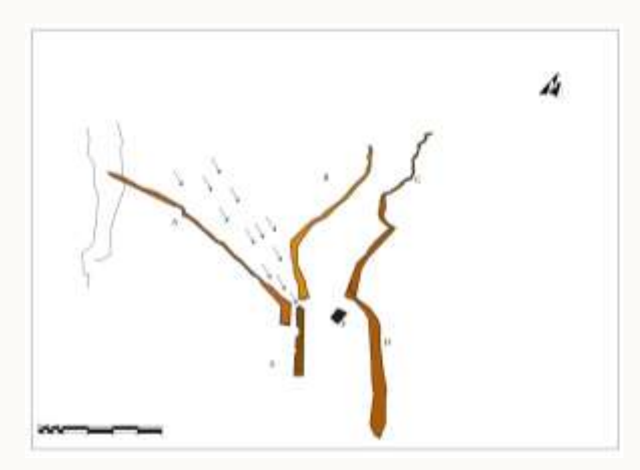


Fig: 4 Horizontal projection of the components of the dam building.

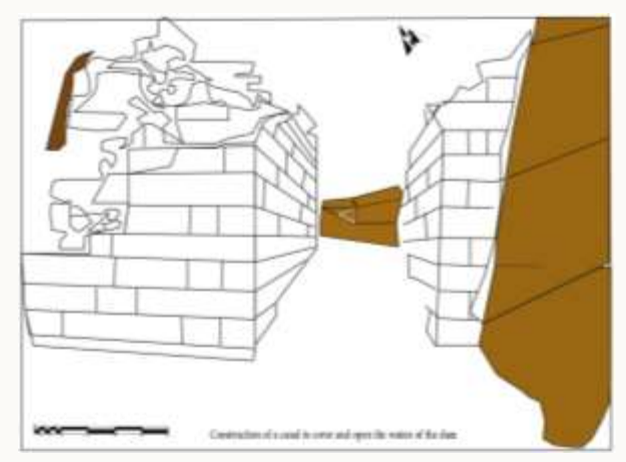


Fig: 5 The construction of the dam channel for the exit of water and its control.

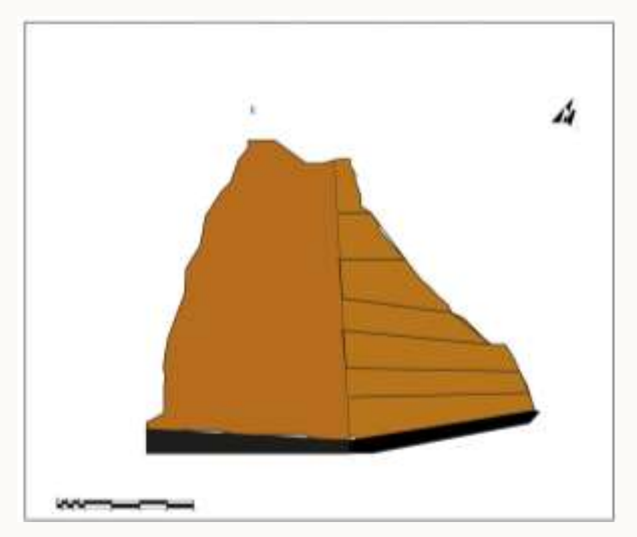


Fig: 6 Architectural facade of section (E) building in good condition.



Fig: 7 An aerial view of Wadi Gufaina Dam



Fig: 10 duct outlet wall (A)



Fig: 8 Picture from the south direction showing wall (A), wall (B) and wall (C).



Fig: 11 Extension of wall (B) from the eastern side.



Fig: 9 Picture from the east direction, showing the wallS (A) (B) (C) (D) (E (F).



Fig: 12 Dam wall architecture inserts (C).



Fig: 13 Building materials in the dam wall from the inside.



Fig:14 Water outlet building in the main channel.



Fig:15 Coherence of architecture at the confluence of the two walls (A) and (B).

Acknowledgements:

The researcher extends his thanks and gratitude to the diplomatic mission of Yemen at UNESCO represented by Ambassador Dr. Mohammed Jumeh, and to the local authority in Marib Governorate and the accompanying team.

References

- Brunner, U. 1983: Die Erforschung der antiken Oase von Mârib mit Hilfe geomorphologischer Untersuchungs methoden, ABADY II.
- Brunner, U. 2000: The Great Dam and the Sabean Oasis of Ma'rib, Irrigation and Drainage Systems14/3: 167-182.
- Francaviglia, V. M. (2000). Dating the ancient dam of Ma'rib (Yemen). *Journal of archaeological science*, *27*(7), 645-653.
- Harrower, M. J. (2009). Is the hydraulic hypothesis dead yet? Irrigation and social change in ancient Yemen. *World Archaeology*, *41*(1), 58-72.
- Hitgen H. (2005),(ed.), *Marib: Archaeological tourist brochure*, Cultural tourist guide (Sanaa: Ministry of Culture and Tourism of the Republik of Yemen,
- Kühn, P., Pietsch, D., & Gerlach, I. (2010). Archaeopedological analyses around a Neolithic hearth and the beginning of Sabaean irrigation in the oasis of Ma'rib (Ramlat as-Sab'atayn, Yemen). *Journal of Archaeological Science*, *37*(6), 1305-1310.
- Nebes, N. 2015,a: DIEInschriftendesŠayyāṭumvom Ğabalbalaqal-Qiblī und aus dem wādī al-Ğufayna in der Oase von Mārib, DEUTSCHES ,South Arabia and its Neighbours, Phenomena of Intercultural Contacts, 14.Rencontres Sabéennes Herausgegeben Von Iris Gerlach Reichert Verlag Wiesbaden, Printed in Germany.pp95- 108.
- Robin, Christian J. 2013. À propos de Ymnt et Ymn: « nord » et « sud », « droite » et « gauche », dans les inscriptions de l'Arabie antique. Pages 119-140 in Françoise Briquel-Chatonnet, Catherine Fauveaud and Iwona Gajda (eds). *Entre Carthage et l'Arabie heureuse. Mélanges offerts à François Bron*. (Orient & Méditerranée, 12). Paris: de Boccard.
- Tueaiman, A.M.S. (2018) Ancient Irrigation Systems in the Sirwah Oasis and its Surroundings since the First Millennium B.C. to the Sixth Century A.D, Unpublished Ph.D. Department of Archeology - College of Tourism and Archeology - King Saud University (Arabic).
- Maraqten, Mohammed (2005),The Sabaean Capital Ma'rib ,study in its history and its administrative and social structure in the light of the Sabian inscriptions." Adomato, pp.107- 144. (Arabic).

ملخص المقال:

سد وادي الجفينة بواحة مأرب
نموذج للسدود التحويلية بمملكة سبأ قبل الإسلام
دارسة ميدانية معمارية

د. علي بن مبارك صالح طعيمان
أستاذ الآثار والعمارة القديمة المشارك
قسم السياحة والآثار – جامعة حائل
قسم الآثار والسياحة – جامعة إقليم سبأ

تُعَدّ منشآت الري القديمة من أهم مقومات حضارة الممالك العربية القديمة قبل الإسلام، حيث اهتم بها إنسان تلك الفترة، وكثف جهوده في عمارتها، وقد تنوعت تلك السدود بين السدود التحويلة والسدود التخزينية ونحوها، وبهذا يعد سد وادي الجفينة في واحة مأرب بأراضي مملكة سبأ نموذج للسدود التحويلة التي شيدها الإنسان السبئي القديم، ويعمل سد جفنية على حجز وتحويل المياه التي تأتي من شمال المصرف الشمالي من سد مار ب القديم، وهي المياه التي لا تنزل في مجرى وادي ذنه، وإلى جانب ذلك كان يقوم السد بحماية الحقول الزراعية التي تأتي عليها فيضانات الأودية الشمالية من واحة مارب من أجل الاستفادة منها وتصرفيها وحماية حقول الواحة التي تغذيها مياه سد مارب القديم. ويتضح من خلال عمارة السد أنه قد استمر يؤدي دوره في تنظيم الري بالواحة إلى فترات متأخرة ربما تعود إلى الفترة الإسلامية الأولى. وتهدف الدراسة إلى توضيح التقنيات المعمارية ومواد البناء والأسلوب المعماري في بناء السدود التحويلية القديمة في الجزيرة العربية، من خلال الدراسة الميدانية لسد وادي الجفينة، والذي ما زال يحتفظ بحالة جيدة من تفاصيل العمارة الدالة على تنظيم المياه وتصريفها بطرق وتقنيات تتناسب مع كمية المياه.

كلمات مفتاحية:
سد تحويلي؛ الجفنية؛ العمارة؛ الواحة؛ التقنيات



https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan